

0. مقدمة**المتقنون يمتنعون :**

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام علي سيدنا محمد رحمة الله للعالمين وعلي آله وصحبه أجمعين أما بعد فهذه دردشة تاريخية لا تخضع لقواعد كتابة التاريخ لسبب بسيط جداً هو أنني لا أعرف قواعد الكتابة في التاريخ ولكنني مهتم بقراءة الكتب التاريخية ، فإذا كنت عزيزي القارئ قد قرأت في تاريخ مصر الكتب المتخصصة في ذلك أو بعض منها فلا داعي لاستمرارك في القراءة فهذا الكتاب لمن يجهل تاريخ مصر تماماً ولا يجد وقتاً أو رغبة في قراءة كتب التاريخ فقد تكون مملة بالنسبة له ولهذا حاولت تبسيط تاريخ مصر بالكامل بشكل سطحي جداً وبدون تعمق في التفاصيل وبدون ملل بقدر المستطاع وعلي فكرة هذه (دردشة) يعني يغلب عليها الكتابة باللغة العامية والتفاعل مع القارئ كما لو كان يجلس أمامي وأحدثه ، وقد تكون هذه المحاولة مجرد حبر علي ورق أو ملف داخل كمبيوتر لن يقرأها أو حتى يقترب منها أحد ولكن أنا اعتبرها شغل لوقت الفراغ القاتل ليس أكثر وقد يعتبرها البعض سوء أدب مع علم التاريخ وقد يكون محقاً في ذلك ولكننا عزيزي القارئ في عصر يتواجد فيه الفن الهابط والصحف الصفراء وانتشار الثقافة التحتية كما يقال وبالتالي قد تجد هذه الدردشة مكانها في هذا الوسط الذي اتسم فيه المجتمع بصفات لا يحمد عليها وتغلبت الثقافة الاستهلاكية إذا جاز التعبير فكل شئ تقريباً يتم كيفما اتفق لا كيفما ينبغي ، وإذا وقعت هذه الدردشة في يد أحد المثقفين الحقيقيين فأنا اعتذر له مسبقاً وليعتبرني أحد الإفرازات التي يفرزها المجتمع هذه الأيام وقد تكون مفاجأة للمثقفين أن يتم كتابة مثل هذه الدردشة ويتم تناول التاريخ بهذا الأسلوب الذي يتفق مع بعض العقلليات الحالية وينفس مفرداتهم اللغوية ولكن كان عليهم أن يتوقعوا ذلك وسط كل هذه الظروف ، المهم ياسيدي سيبك من موضوع المثقفين وتعالى نكمل الدردشة ولن نختلف كثيراً فهي مجرد دردشة خفيفة عن أحوال مصر منذ الفراعنة وحتى قيام ثورة يوليو سنة 1952 يتخللها بعض التعليقات الساخرة أحياناً والحزينة غالباً كما تتضمن مقطوعات كاملة من كتب في التاريخ منسوبة لكتابها علي غرار (قرأت لك) وقد كتبت أسماء المراجع التاريخية التي قرأتها لك كي تظمن إلي مصادر هذه الدردشة وقد استخدمت كلمات وتعابير تتناسب مع الأحوال الراهنة

إذا عاش ابن إياس بيننا اليوم :

فمثلاً إذا أراد ابن إياس الحنفي صاحب كتاب " بدائع الزهور في وقائع الدهور " إذا أراد أن يعبر عن جشع السلطان الغوري الذي عاصره ويصف حبه لجمع الأموال وتفننه في اختراع أنواع الضرائب المختلفة بالرغم أن ابن إياس كان معجب بالسلطان الغوري بشكل عام فما قاله عنه أنه كان (يملك نفسه عند الغضب - - وكان قريباً من الناس - - غير كثيف الطبع في ذاته وكان عنده لين جانب ورياضة ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة - - وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفتاً تاماً للسلطنة مبعجلاً في المواكب تملأ منه العيون)¹ كما وصف ابن إياس بإعجاب المنشآت الرائعة التي بنيت في عهد الغوري ومع كل هذا فإن ابن إياس كان يضرب العديد من الأمثلة علي المظالم في عهد الغوري وكلها تقريباً تتعلق بجمع الأموال من الشعب بأسلوب مبالغ فيه فماذا يقول ابن إياس إذا كان يعيش بيننا اليوم ويتسم بما يتسم به معظم شباب هذا المجتمع أظنه سيقول إن الغوري كان راجل حوت كبير وبطنه واسعة وستفي هذه الجملة بالغرض تماماً وسط هذا الكم الهائل من الهبوط في المستوي الثقافي العام لكن عمك ابن إياس وصف الغوري بأوصاف كثيرة جداً وضرب أمثلة كثيرة جداً لكي يقنع القارئ بما يريد بل إنه استعان بالشعر أيضاً حيث ذكر بعض أبيات من الشعر بعد هزيمة الغوري علي يد سليم الأول العثماني في موقعة مرج دابق ووصف ظلمه فقال :

أعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تزايد ظلمه في القاهرة
زال عنه ملكه في ساعة خسر الدنيا إذن والآخرة²

¹ المختار من بدائع الزهور (محمد ابن أحمد ابن إياس الحنفي) صفحة 57
² المختار من بدائع الزهور (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) صفحة 38 (ولا أدري كيف لمسلم أن يشير إلي أن مسلم آخر قد خسر الآخرة فالأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، ولا يسعنا إلا الدعاء : رحم الله ابن إياس والغوري وجميع موتي المسلمين)

وهذا علي سبيل المثال فأنا قد عبرت في هذه الدردشة عن معظم ما قرأته للمؤرخين القدماء بتعبيرات حديثة وفي متناول عقول هذا الجيل إذا جاز التعبير وحتى ياسيدي إذا لم يجوز التعبير فالمهم النية خير وإذا كانت هذه الدردشة هي الوسيلة الوحيدة للغاية المرجوة فلا بأس بها المهم أن يعرف الناس ماذا حدث في هذا البلد علي مر العصور المختلفة فأنت تري القروء مثلاً الموجودين حالياً يقعون في نفس الأخطاء التي وقع فيها أجدادهم من آلاف السنين لأنهم لم يسجلوا تاريخهم أما الإنسان علي حد تعبير الصحفي الكبير أحمد بهاء الدين (حيوان ذو تاريخ) وعلي فكرة الحيوانات كلها لها تاريخ ولكنها لا تعرف عنه شيئاً أما الإنسان فله تاريخ يعرفه ، المهم أن معرفة التاريخ ليست ترفاً فكرياً أو تسلية للوقت بل إن معرفة التاريخ مهمة جداً للبشرية فالذي يعرف التاريخ كأنما عاش من أول الدهر كما قال الشاعر :

إذا عرف الإنسان أخبار من مضي - - - توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره إلي الحشر - - - إن أبقى الجميل من الذكر¹

وعلي فكرة هذه الأبيات وردت في مقدمة كتاب " عجائب الآثار في التراجم والأخبار " للعلامة والمؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي ويقول أيضاً عن أهمية التاريخ (ولما كان علم التاريخ علماً شريفاً ، فيه العظة والاعتبار ، وبه يقيس العاقل نفسه علي من مضي من أمثاله في هذه الدار ، وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السالفة في أم الكتاب ، فقال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 2 ، وجاء من أحاديث سيد المرسلين صلي الله عليه وسلم كثير من أخبار الأمم الماضية ، كحديثه عن بني إسرائيل وما غيروه من التوراة والإنجيل وغير ذلك من أخبار العجم والعرب مما يفضي بم تأمله إلي العجب ، وقد قال الشافعي رضي الله عنه " من علم التاريخ زاد عقله " - - - ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعتنى بتدوينه سلفاً عن سلف وخلفاً من بعد خلف إلي أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا " أساطير الأولين " ³ ، طبعاً يا سيدي كلام الجبرتي كلام كبير ، وتعالى نشوف كلام جامد ثاني عن أهمية التاريخ (- - - العلم بتاريخ الأمم السابقة والتعرف علي آثارها لكي يؤدي ثماره لابد أن يقربنا بالعبرة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلي تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه ، فلا يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام ، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله ، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم ، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف علي الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا روح فيها كقولهم : إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفرح كيت وكيت ، وإنهم كانوا يحرقون بالمحرث الذي نحرث به . . . وحرص الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلي غير ذلك إن هذه الدراسة " الأكاديمية " الجافة لا توقظ في القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة ، ولا تنير البصائر للتأمل وتفكر وتستفيد وتتعرف علي سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق - - - فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها --- وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلي سلوك ونهج عملي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال : { أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ } (26) سورة السجدة - -)⁴

المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك لقد كتبت هذه الدردشة كي تتناول التاريخ بملعقة في فمك كما يقال دون بذل مجهود في قراءة الكتب الضخمة والمجلدات الكبيرة ، وباختصار شديد للأحداث وعلي العموم يا عزيزي إذا شعرت بالملل أثناء القراءة فلا داعي للاستمرار - هذا إذا كنت قد وصلت إلي هذا السطر أساساً - فأنا لست متفائل بخصوص استمرارك في القراءة ولا أتوقع أن يحدث وأعتقد أن القراءة هذه الأيام أصبحت ثقيلة علي القلب حتي أن الكثيرين يقرءون الجرائد فقط وقد يكتفوا بقراءة العناوين الرئيسية فقط وصفحة الرياضة أو الحوادث

المشاهدة أم القراءة :

فالعديد من الناس يفضل مشاهدة الرواية مثلاً في عمل سينمائي أو تليفزيوني ولا يفضل قراءة الرواية الأصلية كما كتبها مؤلفها ويتركون للمنتج والمخرج وطاقم العمل حرية التخيل والتصوير ويعتمدون علي أداء الممثلين ، مع أنك لو قرأت

¹ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي) ج 1 صفحة 4

² (111) سورة يوسف

³ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - الجزء الأول (عبد الرحمن الجبرتي) مقتطفات من المقدمة من صفحة 1 إلي صفحة 5

⁴ صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي - د علي الصلابي ج1 صفحة 66-67 "مقتطفات مختصرة"

رواية لن تجد أي حاجز بينك وبين عقل كاتبها ، فعقله يخاطب عقلك مباشرة دون وسيط مقيد بتكاليف إنتاج وديكور وبراعة أداء أبطال العمل من ممثلين ، لكن المهم إن العديد من الناس هذه الأيام تعودوا علي الكسل وعلي أن يجلسوا في مقاعد مريحة وأمامهم ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات ليشاهدوا ما يقدم لهم بدون بذل أي مجهود في التخيل أو إعمال الفكر في القراءة ، علي العموم كل هذا الكلام لا داعي له حتي لا تغضب مني عزيزي القارئ وتترك الدردشة معي في التاريخ وياسيدي اعتبرها فضفضة لما يدور في نفسي واعذرنني وحتى إذا لم تعذرنني وتركت القراءة فأنت حر

جولة في بعض كتب التاريخ :

فهل لديك وقت عزيزي القارئ لقراءة كتب التاريخ أو حتي بعض منها ؟ إذا لم يكن لديك وقت أو رغبة في ذلك فتعالني معي لنتجول بين هذه الكتب ونأخذ منها ما نحتاج إليه من معلومات ؟ فاترك لي هذه المهمة وسوف أقدم لك مقتطفات من أفضل ما قرأت من كتب التاريخ المتاحة لدي وهو ما يمكن تسميته قطوف من حقائق التاريخ وهي الفقرات الممتعة¹ التي استمتعت جداً بها وسوف تشاركني هذه المتعة إذا رغبت في ذلك دون الحاجة إلي شراء هذه الكتب أو البحث عن معلومة معينة ، فقد فعلت ذلك بالنيابة عنك وسوف أقدمها لك بأسلوب مبسط علي قدر استطاعتي في صورة دردشة ويبقي سؤال آخر ، هل لديك وقت لقراءة هذه الدردشة ؟ مفيش مشكلة خالص علي أي حال سنكمل الدردشة إن شاء الله ، وسوف أثبت لك ولنفسني الآن أنك لن تقرأ هذه الدردشة لا الآن ولا في أي وقت

عزيزي بصراحة أنت لن تقرأ هذه الدردشة لهذه الأسباب :

ما هي الأسباب التي تجعلك تقرأ ؟ أعتقد أن الإنسان قد يقرأ لأحد الأسباب الآتية أو جزء منها أو كلها أو قد يقرأ لأي سبب آخر والله أعلم ، أما السبب الأول فقد يكون الموضوع نفسه أي احتياج الشخص لمعلومة معينة أياً كان أسلوب كتابتها أو أياً كان من الذي كتبها ، المهم أن يحصل علي المعلومة لاحتياجه لها وكل ما يهتم به القارئ هو أن يطمئن لصحة المعلومة ومصدرها فقط ولا يهتم شخصية المؤلف نفسه أو أسلوبه في الكتابة وإذا استطاع أن يحصل علي هذه المعلومة بدون أن يتكلف مشقة القراءة فلن يقرأ كأن يجدها في برنامج تليفزيوني مثلاً أو يجد شخص ما يوضحها له ، أما السبب الثاني فقد يقرأ الإنسان لكاتب معين يحبه أياً كان الأسلوب الذي يكتب به أو الموضوع الذي يتناوله كأن يقرأ الإنسان لوالده أو زوجته أو ابنه أو أحد أصدقائه ، أما السبب الثالث فقد يقرأ الإنسان بسبب أسلوب الكتابة الذي يشده ويجذبه عند بداية القراءة ثم لا يستطيع أن يترك القراءة بسبب روعة الأسلوب بالرغم أنه لا يعرف هذا الكاتب من قبل أو لا يهتم بالموضوع نفسه ، وقد يقرأ الإنسان لأسباب أخرى ، والآن عزيزي القارئ ما الذي يحمك علي قراءة هذه الدردشة فعلاقتي بك ليست بالدرجة التي تجعلك تتحمل من أجلي قراءة كل هذه الصفحات المملة كما أن أسلوبني في الكتابة لا يرقى للمستوي الذي يجعلك لا تستطيع أن تغض عينيك أو تترك القراءة ، ويتبقي آخر سبب وهو الموضوع نفسه ، فهل يهتم هذا الموضوع أساساً ؟ أقصد التاريخ ، هل يهتمك أن تعرف التاريخ ؟ وإذا كان يهتمك فهل هذه الدردشة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة تاريخ مصر ؟ أعتقد أنه لا يوجد أي سبب يدعوك لقراءة هذه الدردشة ؟ أنا لا أعتقد بل أنا متأكد من ذلك ، وسوف يساعدني ذلك كثيراً في الكتابة ، لأن الكتابة بدون قراءة تكون بلا تكلف وأكثر تحرراً وسوف أظل أكتب كلما شعرت بالملل فأنا أجد متعة شديدة عند الكتابة وأنت ستجد متعة أكثر عند عدم القراءة

موقف تاريخي له معنى :

وعلي فكرة قبل أن أبدأ في كتابة الدردشة التي لن تقرأها عن تاريخ مصر أريد أن أذكر موقف طريف حدث في مصر في عصر الخليفة العباسي المأمون وهذا الموقف يدل علي مكانة مصر وجمالها وحضارتها كما يدل أيضا علي مكانة بغداد عاصمة العباسيين وجمالها وحضارتها أيضاً ، المهم يا سيدي إن الخليفة عندما حضر إلي مصر لإخماد ثورة شعبية سيأتي الكلام عنها في حينه إن شاء الله ، لم تعجبه مصر كثيرا عندما قارنها ببغداد فقال لمن معه ما معناه (لعن الله فرعون حيث قال : { يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ }² (فلو رأي بغداد وجمالها ما كان ليقول ذلك عن مصر) فقال له صاحبه يا أمير المؤمنين ألم تقرأ قول الله تعالي {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا

¹ العبارة أو الفقرة الممتعة قد تكون معلومة تاريخية مثيرة بالنسبة لي أو قد تكون أبيات من الشعر أو مقولة لأحد الشخصيات البارزة في التاريخ أو نص رسالة أرسلها ملك أو سلطان إلي جهة من الجهات أو قد تكون نصاً هيروغليفاً مترجماً من أحد اللوحات الجدارية الفرعونية أو قد تكون تعليقا ممتعا أو تحليلاً وافياً لأحد المفكرين والباحثين من كبار الكتاب في التاريخ

² (51) سورة الزخرف

يَعْرِشُونَ¹ (فما ظنك بشئٍ دمره الله هذا بقيته)² ونفهم من هذا مدي روعة مصر أيام الفراغة كما نفهم أيضاً مدي روعة بغداد أيام مجد الدولة العباسية
كتب ممتعة :

وعلي فكرة يا صديقي العزيز لقد تم نشر كتب خفيفة وليست مملّة في التاريخ إذا جاز التعبير وكتبها مؤلفين علي أعلي مستوى وطبعاً كتبوا كتب محترمة تتناول المواقف والشخصيات التاريخية بلغة سهلة وأسلوب ممتع وخفيف يتناسب مع نوعية قراء هذا العصر ولكن هذه الكتب لم تنزل أو تنحدر إلي مستوي هذه الدردشة بل إنها كتب رائعة وممتعة وأنا عن نفسي استمتعت كثيراً عند قراءتها ولولاها ما أحببت التاريخ ولولا مكتبة الأسرة لما كنت استطعت الإطلاع علي كتب التراث الرائعة وكتابة هذه الدردشة ومن أمثلة هؤلاء الكتاب الذين وصفتهم الكاتب الكبير جمال بدوي ، وهناك أيضاً الكاتب الكبير الساخر محمود السعدني والذي تناول أحداثاً تاريخية بشكل رائع وممتع في كتابه (مصر من تاني) والكاتب الكبير محسن محمد وغيرهم من الذين كتبوا أروع الكتب وأثروا المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الممتعة .

قواعد قراءة هذه الدردشة :

ياريت نضع معاً أسلوب قراءة هذه الدردشة حتي لا تصاب بالملل وهو مجرد مقترح من أخوك الغلبان لك أن تأخذ به أو لا ، المهم ، شوف يا سيدي ، ستجد في هذه الدردشة فقرات كثيرة بين قوسين وهي منقولة بالحرف من كتب حقيقية ومن المحتمل أن تجد فيها كلام جامد من بتوع الجماعة المثقفين ويمكنك أن تمر عليها مرور الكرام وتستمر في القراءة ، أو تقرأ جزء خفيف منها حتي لا تصاب بالملل ، وإذا كان الكلام المكتوب تحت أي عنوان ممل فياريت تدخل علي العنوان الذي يليه وهكذا ، وأنا أضمن لك إن شاء الله أن تنتهي من قراءة الدردشة بالكامل خلال خمسة دقائق فقط وهو الزمن اللازم تقريباً لاستعراض الملف علي الكمبيوتر أو زمن الإطلاع السريع وسرعة تقليب الصفحات ، ومع ذلك فأنا متأكد إنك ستستمتع كثيراً عندما تقرأ فقرة كتبها أحد كبار المؤرخين أصحاب الأساليب الرائعة في الكتابة ، وعلي فكرة لقد قمت بكتابة حواشي سفلية كثيرة أسفل بعض الصفحات حتي لا أزجك بهذه المقطوعات والتعليقات أثناء سياق الدردشة وهي قد تحتوي علي معلومة إضافية أو تفاصيل أكثر نسبياً .

كلمة لابد منها :

ولكن هناك كلمة لا بد أن تقال في هذا المقام لأنهي بها هذه المقدمة ، أذكرها بوضوح شديد وإيمان عميق وهي أن القلم أمانة ويحتتم علي كل من يمسك بقلم³ ليكتب شئ ما أن يراعي هذه الأمانة فيما يكتبه حتي إذا لم يقرأه إلا شخص واحد فقط فما بالك بذكر أحداث مضت وشخصيات ماتت منذ زمن بعيد ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها وبالتالي سوف أكتب كل مصدر بجوار كل معلومة أكتبها في هذه الدردشة (والعهد علي الراوي) وبالرغم من اللغة السوقية نسبياً التي تتسم بها هذه الدردشة إلا أن ما تحتويه من معلومات تاريخية قد قرأته بالفعل في كتب تاريخية موجودة في الأسواق وقد أكون فهمت صح وقد أكون أسأت الفهم والمشكلة كلها في الاحتمال الثاني فقد أكون لم استوعب ما قرأته وبالتالي قمت باختصاره وإعادة صياغته معتقداً بصحة ما أكتبه وما بني علي باطل فهو باطل ولكن عزائي أنك يا عزيزي القارئ بإمكانك العودة إلي الكتب والمراجع التي ذكرتها لك بجوار كل معلومة وتحاول أن تفهمها أنت براحتك وعلي العموم كل هذا مجرد اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب وأرجو من المولي عز وجل أن يتجاوز عن أخطائي فهو واسع الرحمة والعفو عنده مأمول ، وهو المستعان وإليه المصير

كاتب الدردشة

¹ (137) سورة الأعراف

² فضائل مصر وأخبارها وخواصها (ابن زولاق) صفحة 54

³ قلم أو لوحة مفاتيح كمبيوتر (كي بورد) مش هي دي القضية

1. الملك نقتانب الثاني واللواء محمد نجيب

آخر فرعون وأول رئيس :

يبدو هذا العنوان لأول فصل في هذه الدردشة غريب شوية بل شويتين لكن بعد أن تنتهي من قراءة هذا الفصل فسوف تعرف العلاقة بين الملك نقتانب الثاني (نختنبو الثاني) واللواء محمد نجيب فالرجلين كلاهما حكم مصر ولكن الأول بصفته فرعون والثاني بصفته رئيس جمهورية والطريف في الموضوع إن الأول كان آخر فرعون مصري والثاني كان أول رئيس مصري¹ بمعنى أن كلاهما مصري وكلاهما حكم مصر ولكن فيها إيه دي ؟ الطريف في الموضوع إن مفيش أي حاكم مصري حكم مصر بينهما يعني باختصار شديد وبدون لف أو دوران محمد نجيب أول مصري يحكم مصر بعد نقتانب الثاني ولو حسبنا عدد السنين بينهما ببساطة سنجد أن بين الأول والثاني 2294 سنة لأن نقتانب الثاني انتهى حكمه سنة 341 قبل الميلاد واللواء محمد نجيب هو أول رئيس مصري بعد قيام ثورة يوليو 1952 وقد بدأ رئاسته لمصر رسمياً سنة 1953 بعد الميلاد طبعاً² فلو جمعنا ما قبل الميلاد مع ما بعده نجده 2294 سنة بالتمام والكمال ولكن من حكم مصر في هذه الفترة التي بين آخر فرعون وأول رئيس ؟ ، في الحقيقة الإجابة عن هذا السؤال هو موضوع هذه الدردشة بالكامل لكن أنا أردت أن أبدأ بذكر أسماء وفترات حكم كل من حكم مصر بين نقتانب الثاني ومحمد نجيب مع الاحتفاظ بالألقاب وكل من بينهما غير مصريين بالطبع ولكن هل معني هذا الكلام أن العصر الفرعوني قبل نقتانب كان مصرياً خالصاً بدون احتلال أجنبي ؟ بالطبع لا فقد احتل مصر عدة دول ولكن كان المصريون يستعيدونها منهم ويحررونها وعلي سبيل المثال وليس الحصر جاء الهكسوس واحتلوا مصر وحكموها ما يقرب من مائة وخمسين سنة وتم طردهم بواسطة أحمس الأول الشهير وسوف يأتي الكلام عن هذا في موضعه المهم إن كلما أتى احتلال كافحه المصريون وحرروا البلاد منه أما عندما انتهى حكم الملك نقتانب الثاني علي يد الفرس سنة 341 ق م لم تنجح محاولات المصريين في طردهم إلا مرة واحدة وبسيطة وتكاد لا تذكر في كتب التاريخ لقصرها ، المهم إن الطارد الحقيقي للفرس هو الإسكندر المقدوني وليس المصريون ثم جاء بعده البطالمة ثم الرومان ثم الفرس لفترة أخرى قصيرة ثم الروم ثم العرب المسلمون بدولهم المختلفة من دولة الراشدين تليها الأموية ثم العباسية وهكذا وتوالت الدول علي مصر دون أن يحكمها مصري واحد حتي وصول محمد نجيب إلي مقعد الرئاسة رسمياً سنة 1953م



الرئيس جمال عبد الناصر



اللواء محمد نجيب



قادة ثورة يوليو 1952

نقتانب الثاني

¹ يقول البعض أن أول رئيس مصري هو الزعيم جمال عبد الناصر وأن اللواء محمد نجيب سوداني الجنسية بالرغم أن اللواء محمد نجيب أكد في كتابه " كنت رئيساً لمصر " صفحة 6 وصفحة 11 أن عائلة والده لها أصول من كفر الزيات وعائلة أمه لها أصول من المحلة الكبرى ، وقد يكون مصري من أصل سوداني أو العكس ولكن ما يعنيننا هنا الفترة الزمنية بين نهاية الفراعنة سنة 341 ق م وقيام ثورة يوليو سنة 1952 م وهي فترة كبيرة جداً وهذا هو المقصود

² موسوعة حكام مصر من الفرعة إلى اليوم (د ناصر الأنصاري) ص 128

احتلال مصر خلال العصر الفرعوني :

وفيما يلي فترات حكم الحكام الغير مصريين خلال العصر الفرعوني قبل نقطانب الثاني :

| م | المحتل | مدة الاحتلال | من سنة | إلى سنة | ملاحظات |
|---|----------------|--------------|----------|----------|-----------------------------------|
| 1 | الهكسوس | 150 سنة | 1710 ق م | 1680 ق م | |
| 2 | الليبيون | 220 سنة | 950 ق م | 730 ق م | |
| 3 | النوبيون | 52 سنة | 715 ق م | 663 ق م | تم دخول الآشوريون مصر أيضاً لفترة |
| 4 | الفرس | 121 سنة | 525 ق م | 404 ق م | |
| 5 | الفرس مرة أخرى | 8 سنوات | 341 ق م | 332 ق م | |

وعلي فكرة هذه المعلومات مأخوذة بالكامل من كتاب مهم جداً للدكتور ناصر الأنصاري وهو كتاب " موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم " وأنا طبعاً كان نفسي إن هذه الدردشة تخلوا من الأرقام المملة والتواريخ لكن أعمل إيه إذا كانت هذه الحقائق لابد من كتابتها كي تتضح الصورة وعلي أي حال هل لاحظت معي عزيزي القارئ أن العصر الفرعوني لم يكن مصرياً خالصاً وكان الاحتلال موجود حتي أن ملك النوبة حكم مصر لفترة من الزمن ولكن كيف حدث هذا ؟ نلتقي بعد

الفصل

هناك أسباب عديدة أدت إلي هذا الاحتلال بكافة أنواعه وأشكاله وسوف تري العديد من القصص البطولية التي تؤكد كفاح هذا الشعب ضد الاحتلال ومدى عظمة هذه الدولة التي لا تفقد الأمل في الحرية وتسعي دائماً لتحقيقها مهما كانت التضحيات والصعوبات وكفاية كلام كبير علشان العملية تمشي وحتى لا تفقد الدردشة بساطتها وعفويتها ، المهم ياسيدي إن الثماني سنوات الأخيرة التي حكم فيها الفرس مصر من سنة 341 ق م إلي سنة 332 ق م انتهت باحتلال مصر بواسطة الإسكندر الشهير وليست بواسطة تحرير مصر من الاحتلال بمعني أن حكم نقطانب الثاني انتهى سنة 341 ق م وياريت ما تسألش مين نقطانب الثاني لأنك لو سألت هذا السؤال سوف أترك الكتابة فوراً وأذهب لأنام ومغيش داعي لوجع الدماغ لأنني ذكرت في بداية هذا الفصل أن نقطانب الثاني هو الفرعون الأخير وعلي فكرة هذا الملك كان آخر ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية وعلي فكرة مرة أخرى الفراعنة كلهم عبارة عن ثلاثين أسرة حكمت مصر وهناك اكتشافات حديثة تفيد أنهم كانوا أكثر من ثلاثين أسرة ولكن مجازاً سنعتبرهم ثلاثين أسرة في هذه الدردشة

كل هؤلاء حكموا مصر :

وجاء الوقت لكي نذكر أسماء الدول التي حكمت مصر بين نقطانب الثاني وبين محمد نجيب وفترات حكمهم كالاتي :

| م | الدولة | عدد سنوات حكم مصر | من | إلى | ملاحظات |
|----|-----------------------|-------------------|---------|---------|-------------------|
| 1 | الفرس | 8 | 341 ق م | 332 ق م | وقد ذكرتها من قبل |
| 2 | الإسكندر والبطالمة | 303 | 332 ق م | 30 ق م | |
| 3 | الرومان | 648 | 30 ق م | 618 م | |
| 4 | الفرس مرة أخرى | 10 | 618 م | 627 م | |
| 5 | الرومان مرة أخرى | 13 | 627 م | 640 م | |
| 6 | دولة الخلفاء الراشدين | 19 | 640 م | 659 م | |
| 7 | الدولة الأموية | 91 | 659 م | 750 م | |
| 8 | الدولة العباسية | 118 | 750 م | 868 م | |
| 9 | الدولة الطولونية | 37 | 868 م | 905 م | |
| 10 | الدولة العباسية | 30 | 905 م | 935 م | |
| 11 | الدولة الإخشيدية | 34 | 935 م | 969 م | |
| 12 | الدولة الفاطمية | 202 | 969 م | 1171 م | |

| | | | | |
|----|------------------|-----|--------|--------|
| 13 | الدولة الأيوبية | 79 | 1171 م | 1250 م |
| 14 | المماليك | 267 | 1250 م | 1517 م |
| 15 | الدولة العثمانية | 288 | 1517 م | 1805 م |
| 16 | أسرة محمد علي | 148 | 1805 م | 1953 م |

طبعاً أنا آسف جداً عزيزي القارئ علي إدراج كل هذه الأرقام في صفحة واحدة ودفعه واحدة ولعلك قد تركتني بالفعل وألقيت بالدردشة من يدك لأنني علي يقين أن لغة الأرقام لغة مملّة جداً للبعض وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بتاريخ قديمة ، لكن لغة الأرقام في مسألة الفلوس بتكون لذيدة جداً وعلي فكرة تواريخ الفراعنة تقريبيّة كلها ومختلفة في " بعض " المراجع عن " بعض " في " بعض " الأحيان (ثلاثة بعض وراء بعض) ومع ذلك وبالرغم من غلاسة لغة الأرقام فإنك لو تأملت معي هذه الأرقام ستجدها تستحق التأمل لأن الواحد بمجرد ما يقرأها يتذكر قول الله سبحانه وتعالى { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ }¹ حقاً صدق الله العظيم

توضيح لا بد منه :

وعلي العموم أنا عايز أوضح نقطة مهمة جداً قبل أن يحدث سوء فهم لهذه الأرقام التي سنتناول تفاصيلها أثناء الدردشة إن شاء الله ، فكل رقم مكتوب أمام كل دولة ليس معناه فترة قيام هذه الدولة وانتهاءها علي الإطلاق وإنما يعني الفترة التي سيطرت فيها هذه الدولة علي مصر بالذات فمثلاً عندما نقول أن دولة الخلفاء الراشدين دامت تحكم مصر 19 سنة فقط فليس معني هذا أن فترة حكم الراشدين بالكامل 19 سنة فكلنا يعلم أن مصر تم فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وهو الخليفة الثاني في الخلفاء الراشدين ولم تكن مصر تحت حكم الراشدين في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين وكان لا بد من هذا التوضيح فقد يقرأ شخص ما هذه الدردشة ويتوقف عند هذا الفصل وعلي فكرة قد تتطابق أيضاً فترة قيام دولة وانتهاءها مع فترة تواجدها في مصر ومثال علي ذلك الدولة الطولونية التي بدأت في مصر وانتهت أيضاً في مصر علي سبيل المثال وحتى لا أطيل عليك كان هذا الملخص الإحصائي السريع لجميع الدول التي حكمت مصر من عصر الفراعنة إلي اليوم مدخل مهم للدردشة لأن الكلام بيوجب بعضه كما يقولون ولكن هل لاحظت معي الرقم المكتوب أمام الدولة الرومانية (648) سنة إنه رقم مخيف فهو كفيل بمحو وطمس حضارة وهوية أي دولة تحت الاحتلال فلقد عاش جيل كامل ومات في ظل الاحتلال الروماني ثم تبعه أجيال أخرى عاشت وماتت في ظل الاحتلال وعلي فكرة كل هذه السنوات ذكرت أنها للدولة الرومانية علي اعتبار إن الكلام عنها سيأتي في موضعه لكن يجب أن أوضح أن هذه الدولة في الحقيقة مقسمة إلي دولتين والفرق بينهما هو دخول الأخيرة في الديانة المسيحية (الدولة البيزنطية التي تسمى بالدولة الرومانية الشرقية) ولزم التنويه لمن لن يستكمل معي هذه الدردشة ، وطبعاً كل هذه الحسابات والأرقام يمكن تجميعها بسهولة شديدة من كتاب موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم للدكتور ناصر الأنصاري يعني الموضوع مش محتاج أكثر من تصفح كتاب الدكتور ناصر وآله حاسبة صغيرة وإذا كان معاك في جهازك المحمول آلة حاسبة مثلي فسوف يسهل عليك الموضوع ، لكن المشكلة مش في كده المشكلة إن الواحد يحاول يعرف ما الأسباب التي أدت إلي قيام وانهايار كل دولة ؟ وماذا كانت أحوال مصر والمصريين أثناء حكم هذه الدول ؟ وسبحان مسبب الأسباب .

¹ (140) سورة آل عمران

2. الملوك

الملك بيد الله :

الملك بيد الله يهبه لمن يشاء من خلقه وقد يهبه لمؤمن وقد يهبه لكافر ومثال ذلك الملك الذي كان علي عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام كما في الآية الكريمة { **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** }¹ فتأمل معي الآية الكريمة في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ستجد أن المولي عز وجل أعطي الملك لهذا الملك الكافر (**آتاه الله الملك**) وبالتالي لن ينازعه فيه أحد لأنها إرادة الله سبحانه وتعالى ، فقد يحصل علي الملك المؤمن وقد يحصل عليه الكافر بل وليس الكافر العادي فقط إذا جاز التعبير بل شديد الكفر والمدعي الألوهية والعياذ بالله ، { **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } (26) سورة آل عمران ، ومن الأمثلة شديدة الوضوح أيضاً أن فرعون كان له ملك مصر وقد ذكر المولي عز وجل قصة فرعون مع سيدنا موسى عليه السلام في أكثر من موضع بالقرآن الكريم فعندما قرر فرعون مثلاً أن يقهر بني إسرائيل { **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَرْضَ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ نِسَاءً مِمَّنْ هُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ قَاهِرُونَ** } (127) سورة الأعراف ، ورد علي لسان سيدنا موسى تعليقاً علي ما قاله فرعون { **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } (128) سورة الأعراف ومن هنا يتضح أن سيدنا موسى عليه السلام يعلم جيداً أن الأرض لله يورثها من يشاء وأن الملك في ذلك الوقت كان لفرعون بمشيئة الله وعلي المؤمنين أن يصبروا علي قضاء الله لأن العاقبة للمتقين في النهاية هذا والله أعلي وأعلم ، وطبعاً أنت كنت متوقع يا عزيزي أن يكون هذا الفصل هو بداية الدردشة عن العصر الفرعوني طبقاً للسياق العام للدردشة ولكنني فضلت أن أتكلم عن الفراعنة في الفصل القادم بحيث أتكلم براحتي في هذا الفصل عن القادة والزعماء والملوك وعن طبيعتهم التي وهبها الله لهم فهم رجال صنعوا التاريخ وغيروا بمشيئة الله تعالي مجري التاريخ وجعلهم سبحانه أسباباً لقيام دول وانهايار دول أخري وعلي العموم سوف نتناول في هذه الدردشة مثل هذه الشخصيات بكثرة ونتحدث عنها أكثر من غيرها وسوف أشير إلي هذا الفصل كلما توقفت عند أحدهم وأذكرك يا عزيزي وأقول أن هذا الشخص (من الجماعة إياهم) وعلي العموم لن تكون الأفكار الموجودة في هذا الفصل من تفكير العبد الفقير إلي الله

طبيعة القادة :

بل سوف أدرش معك عن طبيعة هؤلاء الرجال من خلال ما قرأت عنهم في بعض الكتب الشيقة أو التي اعتبرها أنا عن نفسي شيقة فمثلاً يقول الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش (إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يري إلا أكثر الأمكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات البارزة)² وهذا الكلام يوحي بمعاني رائعة ويوضح بدقة متناهية أهمية هذه الشخصيات التي نتحدث عنها فهم ليسوا رجالاً عاديين كأي واحد منا 3 ، المهم إن كل واحد فيهم لديه مواهب غير عادية وشجاعة لا تقف أمامها الصعوبات وببساطة شديدة يمكن أن نسأل لماذا في كل عصر لا نعرف سوي الشخصيات البارزة فقط والإجابة لأن هؤلاء فرضوا أنفسهم علي كتب التاريخ لأنهم غيروا مجري التاريخ وأقاموا وأسسوا حضارات ودول وحكومات وأنا علي يقين أن كل منهم يشترك إلي حد ما في بعض الطباع والملامح الشخصية الفذة مهما كان اختلاف توجهاتهم وآرائهم فلا شك أن لديهم جميعاً القدرة علي التأثير في جموع الجماهير والشعوب وأهدافهم واضحة أمامهم تماماً ويسيروا في اتجاهها بلا تردد ومن أفضل ما قرأت عن طبيعة رؤية القادة لأهدافهم كتاب مداهش اسمه (من هدي القرآن) للأستاذ أمين الخولي رحمه الله وهو عبارة عن أحاديث إذاعية تم طباعتها بعد ذلك في كتاب

¹ (258) سورة البقرة

² صقر قريش (علي أدهم) ص 74 باختصار

³ كام واحد اتولد ولادة عادية جداً وممر بطفولة عادية جداً ثم تعلم تعليماً عادياً جداً ثم اشتغل شغلانة عادية جداً ثم تزوج زواج عادي جداً ثم أنجب أولاد عاديين جداً ثم مات ميتة عادية جداً ثم تم دفنه بشكل عادي جداً ، فهو من لحظة ولادته إلي أن مات لم يؤثر في أحد ولم يتأثر بأحد ولم يشعر به إلا المحيطون به والمقربون منه أما الشخصيات البارزة فهي تفرض نفسها علي كتب التاريخ ويسمع بها القاصي والداني كما يقال

ويتحدث أمين الخولي عن القادة الرسل بشكل عام مستمداً من كتاب الله عز وجل الهدي القرآني الذي يوضح طبيعة القادة الرسل فيقول الكاتب (إنما القادة أصحاب الرسالات قوم عمر الإيمان أفندتهم وغمر اليقين أرواحهم فهم يتمثلون أهدافهم التي يسعون إليها مجسمة محققة لا يساورهم في ذلك شك ولا تخالغ أنفسهم ريبة وهم لهذا يقدمون نحوها في ثقة المشاهد لا يثني عزمهم عما يطلبون أي شئ لأنه دان منهم وعلي منال أيديهم في رأي العين فكل صعب عند الناس هو عندهم هين وكل عسير علي الناس هو عليهم يسير ...)¹ هكذا تحدث عنهم أمين الخولي وقد قال أكثر من ذلك ولكن لا يتسع المقام لذكر كل ما جاء بهذا الكتاب الشيق لكن المهم إن كل قائد منهم لديه من الثقة في تحقيق هدفه ما يجعله يراه محققاً بالفعل أمامه وكل دولة من الدول قامت علي أكتاف أحد هؤلاء وكل هذا طبعاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى وتحضري هنا أبيات من الشعر كتبها أبو العتاهية في مدح أحد خلفاء بني العباس بعد أن استقرت له الخلافة بعد بعض المشاكل

أنته الخلافة مقهورة تكاد تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو ذهبت لأمير سواه لزلزلت الأرض زلزالها

إنها إرادة الله أن تصل الخلافة إلي هذا الأمير ومن المستحيل أن تذهب لغيره ، المهم ياسيدي وحتى لا أطيل عليك فإن الغرض من كل هذا الكلام إن مفيش دولة في التاريخ كله قامت ونهضت إلا علي يد شخصية قوية وغير عادية ولكن للأسف الشديد بعد وفاة هذه الشخصية تدوم الدولة قليلاً ثم تحتضر ثم تسقط للأبد وسلاحظ ذلك في دول عديدة علي مر العصور ولكن الفترة التي تدوم فيها الدولة بعد وفاة مؤسسها تختلف من دولة لأخرى وتعتمد في الأساس علي مدي تمسك من يخلف هذا الزعيم بمبادئه وقواعد ملكه الذي كان سبباً رئيسياً في قيام الدولة

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء :

فلو تأملنا أي أسرة حاكمة من التي حكمت مصر سنجدها تبدأ بأحد هؤلاء الرجال من مؤسسي الدول ثم يتولي الحكم بعده أكبر أبناءه مثلاً أو أكبر أفراد العائلة من بعده وقد عاصر بالطبع تأسيس الدولة ثم بعد ذلك يموت ويتولي الحفيد الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب وهو أمير ابن أمير ولم يعاصر الكفاح والنضال ويتصور أن ما هو فيه أمر واقع وقد يحيا حياة الترف والرفاهية ويدمر كل ما صنعه أجداده وهناك العديد من الأمثلة علي ملوك أقوياء خلفهم ملوك ضعفاء سنجدها بكثرة في هذه الدردشة وطبعاً الآباء لهم دور كبير في إعداد الأبناء للقيام بدورهم خير قيام وهم السبب الرئيسي فيما سيصير عليه أبناءهم بعدهم فمثلاً الملك فيليب ملك مقدونيا قام بإعداد ابنه الإسكندر الأكبر الشهير ليتولي الحكم من بعده بل إنه قد جعل أرسطو شخصياً معلماً له خلاف التدريب علي القتال وما إلي ذلك من الأمور التي يحتاجها القائد ليصبح علي مستوي الأحداث

مصر والمغرمين بها :

كل القادة الكبار الغير مصريين الذين حضروا إلي مصر كانت لهم رؤية خاصة لها فلم يعتبرها أي واحد منهم كأي أرض مر بها ولذلك نجد عند قراءة تاريخ مصر أن كل منهم عمل حاجة من اثنين:

1 - منهم من اتخذها عاصمة لملكه :

ومن أمثلة هؤلاء ملوك الهكسوس ، والملك شاشنق (الليبي الأصل) ، وبطليموس الأول ، وأحمد بن طولون ، وأبو بكر الإخشيد ، والمعز لدين الله الفاطمي ، وصلاح الدين الأيوبي ، وسلاطين المماليك ، ومحمد علي باشا .

2 - ومنهم من اتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة جداً قبل عودته إلي عاصمة ملكه :

وقد اتخذوا من الإجراءات ما يضمن لهم عدم استقلالها وذلك لمعرفةهم الجيدة بإمكانياتها الهائلة² التي تكفل لمن يحكمها أن يحقق بها الكثير وخاصة إذا كان واحد من إياهم الذين يمكن أن نطلق عليهم مؤسسي الدول ولذلك كانت

1 من هدي القرآن (أمين الخولي) ص 48 (مكتبة الأسرة)

² واحد ممكن يقول إبه يعني مصر وإيه الإمكانيات الهائلة ، وهنا لا بد أن نرد عليه ونقول أنك يا عزيزي لن تستطيع أن تري إمكانيات مصر وإمكانيات شعبها إلا إذا كنت واحد من إياهم ، الذي يري ما لا يراه الآخرون في مصر ، فهذا الشعب يمكن أن يحقق المعجزات من وجهة نظر محمد علي مثلاً رغم أنه قال ذات مرة أنه حضر إلي مصر ولم يجد شخصاً واحداً بها يصلح أن يكون سكرتيراً له ، ولكن محمد علي صنع الكثير مع هذا الشعب ، كذلك فعل بطليموس الأول ، وابن طولون ، والإخشيد ، والمعز لدين الله الفاطمي ، وغيرهم كثيرين سوف نقرأ عنهم في هذه الدردشة إن شاء الله

عادةً أهم الإجراءات¹ كما سنري بشئ من التفصيل بعد ذلك هو أن يتم تجريد مصر من خيراتها² أولاً بأول أو منع أي موهوب ذو طموح أن يكون والياً عليها أو توزيع السلطات³ الإدارية والعسكرية والإقتصادية ... إلخ حتي لا تكون جميع الخيوط في يد الوالي وحده أو تسليم السلطة بها إلي أهل الثقة أو أحد الأقارب المقربين كالابن⁴ أو الأخ وغير ذلك من الإجراءات التي تختلف طبقاً لطبيعة فكر كل قائد

عريس وعروسة :

ولو تأملت في تاريخ مصر ستجد قادة وملوك وشخصيات كثيرة جداً حكموا مصر ولكنهم لم يشعروا بها ولم يوفونها حقها من التقدير ولم يستطع أي منهم تحديد قدراتها الحقيقية وما يمكن أن تقدمه له ولشعبها من قوة وعظمة ورخاء ومنعة ولكن أول ما ييجي واحد من إياهم (من اللي بالي بالك) تجده كأنه علي ميعاد مع مصر وكأنها عروسة وجدت عريس جديد يرفعها إلي مكانها الطبيعي بين الدول وبالتالي ترفعه هي بدورها وتعطيه ما يستحقه من التكريم والعظمة ويسجل التاريخ في صفحاته أن هذا القائد فعل بمصر كذا وفعلت به مصر كذا ، وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحث لهم بسرهما وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)⁵

وسوف نتحدث بكثرة إن شاء الله عن هؤلاء القادة الغير مصريين الذين حضروا لمصر وكذلك سنتكلم عن القادة المصريين الذين حققوا مع مصر وبمصر معجزات ضخمة وسوف نكرر كل شوية أسماء الشخصيات البارزة في تاريخ مصر مع اختلاف توجهاتها وآرائها ودياناتها فهي أسماء تعرفها جيداً وإن شاء الله ستعرف عنها أكثر عندما تقرأ هذه الدردشة فمنهم مثلاً الفرعون مينا موحد القطرين وصاحب التاج المزدوج والملك منتوحتب الثاني مؤسس الدولة الوسطي الفرعونية وأحمس الأول طارد الهكسوس والملك تحتمس الثالث عبقرى العسكرية المصرية ومؤسس الإمبراطورية الضخمة والملك بسماطيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية ومحرر مصر والإسكندر الأكبر قاهر الفرس وبطليموس الأول مؤسس العصر البطلمي في مصر والإمبراطور أغسطس الذي ضم مصر إلي الإمبراطورية الرومانية كما أن هناك قادة الفتح الإسلامي والشخصيات البارزة التي لعبت دور كبير في تاريخ مصر من بني أمية وبني العباس مثل الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان كثير الغزو والحج وكان يصلي مائة ركعة في اليوم خلاف الصلاة المكتوبة⁶ كما أن هناك قادة مسلمين وغير عرب مثل أحمد ابن طولون مؤسس الدولة الطولونية وأبو بكر الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ومن الشخصيات البارزة أيضاً والتي اتسعت شهرتها المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر وصلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والذي كان يستحي من الله أن يبتسم والأقصى في يد الصليبيين وقطرز قاهر التتار والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون الذي في عهده تم جلاء آخر جندي صليبي وسليم الأول الذي ضم مصر إلي حكمه السعيد ومحمد علي مؤسس مصر الحديثة وغيرهم الكثيرون الذين أتمني أن تعيش معي وسط أحداث خاضوها ومروا بها خلال هذه الدردشة لناخذ العبرة والدرس ولكنني لا أخفي عليك عزيزي القارئ أنني أصبحت أشعر بأنك لم تعد معي ربما لأن الدردشة أصبحت تأخذ طابعاً مختلفاً عن بدايتها ، المهم أنني سأستكمل إن شاء الله هذه الدردشة ما دمت حياً أرزق حتي إذا لم يقرأها أحد فأنا أشعر براحة شديدة بعد كل مرة أجلس فيها لأكتب وبعد أن أتغلب في كل مرة علي التردد وسأأخيل قارئ وهمي أتحدث معه ، وربما قرأ هذه الدردشة أحد الأصدقاء أو المقربين مني وبالتالي لن أشعر بالحرج أثناء الكتابة لصديق عزيز فسوف يلتبس لي العذر دائماً ويسامحني علي أخطائي في هذه الدردشة وعلي هذا الأساس ومن هذه اللحظة سأخاطبك أيها القارئ العزيز بصفتك صديق عزيز سمحت له بقراءة هذه الدردشة وستظل سراً لن يعرفه سوي اثنين فقط أنا وأنت .

¹ من أشهر الإجراءات التي تم اتخاذها ما فعله الإمبراطور أغسطس في مصر وأطلق علي هذه الإجراءات ما يسمي بسر الإمبراطورية
² من أشهر من جرد مصر من خيراتها السلطان سليم الأول العثماني حيث قام بترحيل جميع الصناع المهرة من مصر إلي عاصمة ملكه
³ من أشهر من قام بتوزيع السلطات في مصر قبل أن يغادرها ما فعله الإسكندر المقدوني كما سنري إن شاء الله
⁴ من أشهر من قام بتعيين ابنه شخصياً والياً علي مصر الخليفة الأموي مروان بن الحكم حيث قام بتعيين ابنه عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر ثم أقره أخوه عبد الملك بن مروان بعد توليه الخلافة (وعلي فكرة عبد العزيز بن مروان هذا هو والد الخليفة الشهير عمر بن عبد العزيز)
⁵ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 33
⁶ تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 227

3. أصل الحكاية

العصر الحجري :

تعاملوا نشوف بعض المكتوب عن المصري القديم في العصر الحجري قبل أن ندرش عن العصر الفرعوني ، ولو لقيت الكلام ممل بالنسبة لك مر عليه مرور الكرام وادخل علي اللي بعده وهكذا ، المهم شوف يا سيدي : (كان المصري في ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل علي حاجته مما يجده من ثمار الأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات ، ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ولا تحتاج إلي ضرورة إقامة العائلات علي مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلي أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه ، وجاء اليوم الذي عرف فيه الإنسان¹ أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها علي كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصري يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلي منتج له ، فأجبرته الزراعة علي الإقامة في مكان معين ليرعى حقله وليحصل علي ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً² ، ويبنى له مستقراً يأوي إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضاً يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته ، وعندما وصل الإنسان إلي هذه المرحلة ، أي بعد ترك اعتماده علي حياة الصيد وجمع القوت اعتماداً كاملاً ، أخذ يودع حياة العصر الحجري القديم وأخذ يبدأ العصر الحجري المتوسط الذي حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقي قليلاً قليلاً في مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة وما جاء العصر النيوليتي أو العصر الحجري الحديث حتي كان هذا الإنسان يعيش في قري صغيرة³) ، (وتسمي الفترة بين بداية العصر النيوليتي " أي العصر الحجري الحديث " وبين ظهور الأسرات في مصر ، وتقرب من ألفي سنة العصر الحجري النحاسي أحياناً ---- ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتي الدلتا والصعيد مميزات خاصة)⁴ وبعد انتهاء العصر الحجري بدأ عصر الأسرات الفرعونية

ما المقصود بالأسرة الفرعونية ؟

عندما نتحدث عن بداية تاريخ مصر فلا بد أن نبدأ بالعصر الفرعوني بطبيعة الحال⁵ ولكي نتحدث عن العصر الفرعوني لا بد أن نعرف بعض المعلومات التي تساعدنا في الدردشة عن هذا العصر فمثلاً الأسرة الفرعونية الحاكمة تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه ويلييه أبناءه حتي يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا المهم أن الأسرات الفرعونية ومجموعها ثلاثين أسرة تمثل العصر الفرعوني بالكامل ويختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخرى في أغلب الأحيان فمثلاً عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن 14 ملك وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط⁶

ثلاثة عصور رئيسية :

ومن المعلومات أيضاً المطلوب معرفتها عن العصر الفرعوني قبل أن نخوض فيه معلومة مهمة جداً عن العصور الرئيسية للفرعنة وهي العصور الثلاثة الرئيسية (عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطي وعصر الدولة الحديثة) وهذه العصور الثلاثة هي أساس الكتابة عن العصر الفرعوني ويسبق هذه العصور عصر يسمى العصر العتيق ويتخلل هذه العصور عصور أخرى تسمي عصور الإضمحلال بين كل دولة وأخرى من هذه الدول الثلاثة وعصور الإضمحلال هي فترات فوضي عارمة وعدم سيطرة للحكومة المركزية علي البلاد أو فترات احتلال خارجي للبلاد .

¹ كل ما عرفه الإنسان ويتعلمه بإرادة الخالق عز وجل فهو سبحانه الذي يلهم الإنسان العلم والمعرفة المناسبة لكل مرحلة من حياة الإنسان علي الأرض

² {أولم يرُوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} {وَدَلَّلْنَاَهَا وَلَهُمْ فِيهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} (71) ، (72) سورة يس

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 35-36

⁴ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 37

⁵ يوجد تاريخ قبل الفرعنة ولكن لم يتم تدوينه لعدم معرفة المصري القديم للكتابة ، ولكن مع بداية عصر الأسرات الفرعونية ظهرت الكتابة وبدأ المصري القديم يكتب ما يحتاج إلي كتابته وبالتالي وصل للعلماء اليوم ما كان يحدث في أيامه

⁶ موسوعة حكام مصر من الفرعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) ص 37

ملخص العصر الفرعوني :

وأنا مضطر آسفاً أن أعود للغة الأرقام المملة لتلخيص العصر الفرعوني بأقسامه المختلفة لتوضيح الموقف ففيما يلي بيان الثلاثين أسرة موزعة علي العصور المختلفة وكلها أيضاً معلومات من نفس المرجع الموسوعي للدكتور ناصر الأنصاري :

| العصر | الأسر | من | إلى | أهم ما يميز كل عصر |
|------------------|-----------------------------|----------|----------|--|
| العصر العتيق | من الأولى للثانية (2) أسرة | 3100 ق م | 2690 ق م | تأسيس الدولة |
| الدولة القديمة | من الثالثة للسادسة (4) أسرة | 2690 ق م | 2180 ق م | عصر بناء الأهرام |
| الاضمحلال الأول | من 7 إلي 10 (4) أسرة | 2180 ق م | 2060 ق م | عمت الفوضى البلاد |
| الدولة الوسطي | من 11 إلي 14 (4) أسرة | 2060 ق م | 1710 ق م | عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية |
| الاضمحلال الثاني | من 15 إلي 17 (3) أسرة | 1710 ق م | 1560 ق م | احتلال الهكسوس لمصر |
| الدولة الحديثة | من 18 إلي 20 (3) أسرة | 1580 ق م | 1085 ق م | الإمبراطورية المصرية |
| الاضمحلال الأخير | من 21 إلي 30 (10) أسرة | 1085 ق م | 341 ق م | تخلله احتلال لبيبي ونوبي وأشوري وفارسي |

وبعد أن ذكرت بإيجاز شديد العصر الفرعوني وتاريخه التقريبية رغم أن هذه الأرقام قد تصيبك بالملل يا صديقي العزيز (كان الله في عونك) إلا أنها مفيدة في التعرف علي الملامح الرئيسية والعامية للعصر الفرعوني بالكامل

الاعتزاز بالفراعنة :

والمهم في الموضوع إن الثلاثة دول الرئيسية (القديمة والوسطي والحديثة) هي العصور التي يمكن أن يفخر بها من يريد الاعتزاز بتاريخ الفراعنة بالرغم أنني شخصياً لا أفخر إطلاقاً بالفراعنة وكيف لي أن أفخر بمن قال المولي عز وجل عنهم **﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾**¹ وهذه الدول الثلاثة الرئيسية هي العصور الذهبية للفراعنة والتي حققوا فيها العديد من الإنجازات وتخلف منها العديد من الآثار الخالدة إلي الآن حتي أن أحد أصدقائي قال لي في سخرية إن أجدادنا الفراعنة ببصرفوا علينا حتي الآن لأن ما تركوه من آثار يدر علينا دخل ليس بالقليل في قطاع السياحة ، المهم إن باقي العصور الأخرى والتي أعني بها عصور الاضمحلال فقد كان يسودها الفوضى أو الاحتلال كما ذكرت بل إن بعض هؤلاء المحتلين كانوا بيعيشوا في دور الفراعنة ويؤسسون أسر حاكمة ويشيدون المعابد وقد خلفوا أيضاً آثاراً موجودة بعضها إلي الآن والآن حان الوقت لنخوض في تفاصيل أكثر عن العصر الفرعوني لنعرف المزيد من المعلومات عنه في الفصل القادم إن شاء الله بعد أن عرفنا الملامح العامة له وستتجول معاً في كتاب موسوعة سليم حسن مصر القديمة وكتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري وموسوعة حكام مصر لناصر الأنصاري وبعض الكتب الأخرى التي سنذكرها إن شاء الله في حينه وطبعاً أنت لا تصدقني ولم تعد تثق في أننا سنتكلم عن أحداث وتاريخ الفراعنة لأنني كلما وعدتك بذلك أتكلم عن موضوع آخر ، لكن أوعدك هذه المرة أننا سنبدأ الكلام عنهم في الفصل القادم إن شاء الله (ابقوا معنا) نلتقي بعد الفاصل .

¹ سورة الفجر من 10 إلي 14

4. من الأسرة الأولى إلى العاشرة مائة فل وعشرة

الفراغة والحياة الآخرة :

يتناول الأستاذ سليم حسن في الجزء الأول من موسوعته عصر ما قبل التاريخ في مصر ثم يتحدث عن الديانات والآلهة التي كانت تعبد في مصر وينتهي هذا الجزء بالكلام عن الأسرات الفرعونية من الأولى إلى العاشرة أي عن العصر العتيق ثم عصر الدولة القديمة وحتى عصر الاضمحلال الأول وعلي فكرة موضوع الديانات الفرعونية موضوع كبير جداً يعني الواحد عندما يقرأ عن الآلهة في هذه العصور يشعر أنهم كانوا يرفعون شعار (إله لكل مواطن) وكمان نلاحظ حاجة طريفة جداً إن الآلهة من وجهة نظر الفراعنة طبعاً كانوا يتقمصون أجساد الحيوانات المختلفة فنجدهم يقدرسونها جداً وقد ذكرنا أن كل مقاطعة كان لها إله أو عدة آلهة خاصة بها ويقتصر نفوذ هذا الإله علي هذه المنطقة فقط وتستطيع يا صديقي أن تلاحظ أهمية الدين والآلهة عند الفراعنة بسبب كم الآثار الهائل التي تركوها وموجودة إلي الآن لأنها بالكامل تقريباً آثار خاصة بالمقابر والمعابد فقط وهي التي تعبر عن الحياة الآخرة فأين مثلاً القصور والبيوت التي كانوا يعيشون فيها سواء الملوك أو عامة الشعب ؟ لن تجد منها أي مبني يدل علي ذلك بل إنهم كانوا يهتمون بما بعد الموت أكثر من اهتمامهم بما قبل الموت أي أن الحياة الدنيا لا تشكل لهم نفس الأهمية لذلك نجدهم قد برعوا في فنون التحنيط للموتى وتفننوا في أساليب بناء المقابر وما تحتويه من كنوز وكذلك المعابد التي تقدر فيها آلهتهم ولولا الدين لما كان هناك آثار ولولا الآلهة لما كانت هناك معابد ولولا الإيمان بالحياة الآخرة لما كان هناك تحنيط ومقابر بهذه الروعة والإبداع الفني الراقى ومن هنا يتضح أن الكلام عن دين الفراعنة وآلهتهم مهم جداً للتعرف علي أفكارهم ومعتقداتهم وعلي فكرة لقد كان السحر وتسخير الجان من أهم ما يتصف به هذا العصر لذلك ورد في كتاب الله عز وجل أن فرعون جمع السحرة لسيدنا موسى عليه السلام مما يعني أن السحر كان منتشر أيامها {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} (113) سورة الأعراف

آلهة الفراعنة :

وطبعاً أنا مش ممكن أذكر هنا أسماء جميع الآلهة التي وردت في موسوعة سليم حسن وذلك لكثرتها وحتى لا تمل من القراءة يا صديقي من الدردشة لكن ممكن نتكلم عن بعض هذه الآلهة في إيجاز لتوضيح بعض النقاط يعني مثلاً إذا تحدثنا عن عدد الآلهة بالكامل تقريباً سنجد أنها تزيد عن عدد المقاطعات لأن بعض المقاطعات كان لها أكثر من إله أما عدد هذه المقاطعات بالكامل فيبلغ عشرين مقاطعة في الوجه البحري واثنين و عشرين مقاطعة في الوجه القبلي أي اثنان وأربعون مقاطعة¹ ويمكن إعطاء بعض الأمثلة عن إله كل مقاطعة فمثلاً المقاطعة الأولى في الوجه القبلي كان المعبود فيها أربعة آلهة منهم الإله الكبش خنوم² والإله ست أما آمون رع الشهير فقد كان يعبد في عدة مقاطعات مع آلهة أخرى مثل المقاطعة السادسة والمقاطعة السابعة عشرة في الوجه البحري والمقاطعة الرابعة في الوجه القبلي³ وعلي فكرة الكبش خنوم أيضاً كان يعبد في العديد من المقاطعات وعندما تم توحيد جميع المقاطعات وضم الشمال للجنوب وتكونت الدولة المصرية والحكومة المركزية استطاع الكهنة وما أدراك ما الكهنة استطاعوا أن يحافظوا علي جميع الآلهة والتوفيق بينها بقدر الإمكان في جميع المقاطعات بحيث تعترف كل مقاطعة بكل الآلهة الخاصة بالمقاطعات الأخرى لأن كل إله له وظيفة مختلفة عن الآخر وأصبح له دور مهم في حياة المصريين القدماء فنجدهم يوزعون الأدوار علي الآلهة فيوجد إله للخصوبة وإله للحب والغزل وإلهان للحرب وإله التحنيط وإله الشمس وهكذا وبالتالي لم يفقد أي إله سلطاته في العبودية في باقي المقاطعات ولكن معبده الرئيسي الخاص به يكون في المقاطعة الأصلية التي نشأ بها ، وطبعاً كل هذا كلام فارغ وكفر والعياذ بالله لكن

1 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 438 إلي ص 444 (مكتبة الأسرة)

2 علي فكرة أسماء ملوك الفراعنة سنجدها مرتبطة إلي حد كبير بأسماء الآلهة فمثلاً الملك خوفو مرتبط باسم الإله خنوم (والواقع إن اسم خوفو هو الاسم المختصر له إذ أن الاسم الكامل هو "خنم خوف وي" أي الإله خنم هو الذي يحميني ") واسم رمسيس أصله (رع مس سو) أي الإله رع هو الذي أنجبه - صفحة 71 و صفحة 217 من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر-القسم الأول د سيد توفيق

3 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 438 إلي ص 444 (جدول يحتوي علي الآلهة وتوزيعها علي المقاطعات)

هذا ما حدث وهذا الذي أدى إلي بناء كل هذا الحشد الرهيب من المباني الدينية بكافة أشكالها وأحجامها لعبادة هذه الآلهة التي ازدحم بها الجزء الأول من كتاب موسوعة سليم حسن مصر القديمة وعلي فكرة لم تكن الحيوانات فقط التي يقدر بعضها الفراعنة ولكن كان هناك بعض الطيور والزواحف والأشجار أيضاً ومن أمثلة الحيوانات المقدسة التي تقمصتها الآلهة البقرة والثعلب والقطة والذئب ومن أمثلة الطيور الصقر والأوز¹ ومن أمثلة الزواحف الثعبان والتمساح ومن أمثلة الشجر المقدس شجرة الجميز التي ظهرت في العديد من اللوحات الفرعونية بل إن الحشرات أيضاً لم يتركوها بل كانوا يقصدون الجعران وهناك العديد من الأساطير التي تم اختراعها بواسطة الكهنة مثل اسطورة إيزيس وأوزوريس الشهيرة المهم يا سيدي إن الكلام عن الآلهة إذا استرسلنا فيه لن ننتهي من الحديث والدراسة عنه في هذه الصفحات القليلة لكن كل ما أريد أن تعرفه الآن علي الأقل أن هذه الآلهة كانت محور حياة المصريين القدماء وبسببهم أقيمت كل هذه الآثار التي نراها حالياً وإذا أردت أن تعرف المزيد عنها فيجب أن تقرأ الكتب الخاصة بذلك ، وعلي فكرة قبل أن ندرش في موضوع آخر عايز أوضح حاجة ظريفة عن التماثيل الخاصة بالآلهة لأن الإله كان يمثل علي شكل حيوان وهو رمز الإله كما يمكن تمثيله علي شكل جسد إنسان برأس هذا الحيوان أو جسد الحيوان برأس إنسان ولعلك لاحظت ذلك عندما شاهدت صور بعض الآثار الفرعونية وكان عادةً يتم تصوير أحداث مهمة تقع بين الفرعون وبين الآلهة فتجد مثلاً لوحة جدارية يقدم فيها الفرعون الفلاني بعض القرابين لأحد الآلهة أو صورة الإله وهو يبارك الفرعون أو أشياء من هذا القبيل ، وياريت تستحملني شوية كمان علشان عايز أتكلم عن كام موضوع عن الفراعنة قبل أن نتكلم عن تاريخهم الذي يبدأ بالملك مينا طبعاً ، وكلها معلومات مفيدة لدراسة التاريخ الفرعوني فمثلاً عايز أردش عن المقابر الفرعونية باستفاضة أكثر نسبياً وكذلك عن علاقة المجتمع النهري بالحكومة المركزية وأخيراً عن مصادر التاريخ الفرعوني ثم بعد ذلك نبدأ الكلام عن الملك مينا ومن بعده باختصار شديد جداً ، وإذا كنت عايز تمر مرور الكرام علي كل هذا فأنت حر ادخل علي العنوان الذي يناسبك أو افتح التليفزيون أحسن

المقابر الفرعونية :

كان إعداد المقابر أيام الفراعنة هو من أهم ما يشغل بالهم واهتماماتهم في ذلك الوقت إن لم يكن أهمها علي الإطلاق لأنهم اعتبروا الحياة الآخرة مرتبطة بذلك وأنها صورة من الحياة الدنيا ، ولذلك كان المصري القديم حريص علي تدوين الأحداث التي مرت به في حياته والتي يفخر بها كما كان حريص علي أن يضع فيها كل ما سوف يحتاج إليه في الآخرة حتي ولو كان مرسوم فقط علي جدار المقبرة أو علي شكل ماكيت مصغر فكل هذا سوف يتحول إلي حقيقة عندما يقرأ التعاويذ الخاصة بذلك ، فكلما أعددت مقبرتك بشكل لائق كلما كانت حياتك في الآخرة أفضل وكلما كنت تشغل وظيفة كبري في الدولة الفرعونية ستكون بالتأكيد قادر علي تشييد مقبرة محترمة تليق بجناحك وفيها كل ما تتمناه

وفيما يلي سنستعرض معاً أهم ما يجب وضعه في المقبرة أيام الفراعنة حتي ينال صاحبها حياة كريمة في الآخرة وسنضرب مثال علي مقابر كبار الموظفين والكهنة في الدولة القديمة

مقابر أشرف الدولة القديمة :

(أطلق عمال الحفائر علي مقابر الأشرف التي ترجع لعصر الدولة القديمة عندما كان يشرف عليها ماريت² في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي اسم مصطبة³ ، وقد وافق ماريت علي هذه التسمية وذلك عندما رأى الشبه بين المصطبة والجزء العلوي لمقابر الأشرف في الدولة القديمة - - والمصطبة هي نهاية المطاف الذي وصل إليه المصري لحماية جثمانه ، وذلك لضمان الحياة في العالم الآخر ، ففي بداية الأسرة الثالثة بدأ الأفراد من كبار رجال الدولة الاهتمام بالبناء العلوي لمقبرتهم ، فأصبحت الكومة الترابية أو كومة الرمل والحصي والتي كانت تكوم فوق حفرة الدفن تكسي باللبن

¹ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 217

² ماريت هو عالم آثار أجنبي وكان يعمل في مجال الحفائر والاكتشافات الأثرية الفرعونية

³ بالطبع المصاطب كانت لعناية القوم فقط أما الملك فكان يدفن في مصطبة ثم تطور إلي هرم مدرج " مجموعة مصاطب فوق بعضها " ثم هرم مستوي كما حدث في الأسرة الرابعة "خوفو وخفرع ومنقرع "

، وبتوسيع حجرة الدفن ، ازداد حجم البناء العلوي للمقبرة ، وأمتد وتحول من كومة إلي بناء مستطيل لكي يشمل حجرة الدفن وما يحيط بها من حجرات جانبية خصصت للأثاث الجنائزي ، وهنا برزت الصعوبة الأولى التي واجهت المصري القديم الذي بذل كل ما في وسعه لكي ينتهي من تشييد مقبرته في حياته¹ ، إذ لاحظ أنه كلما كبر حجم البناء العلوي زادت صعوبة الانتهاء من بناءه بعد الانتهاء من مراسيم دفن صاحب المقبرة الذي كان غالباً ما يباشر العمل فيها في حياته ، ولهذا كانت رغبة المصري القديم أن يتم بناء المقبرة في حياته ، فهداه تفكيره إلي عمل المدخل الموصل إلي حجرة الدفن علي شكل أحدور خارج البناء العلوي لكي يسحب عليه الجثمان ليستقر في حجرة الدفن ، ثم يسد مدخل الحجرة بكتلة من الحجر ويملاً المنحدر بالرمال ، وبهذه الطريقة استطاع المصري أن ينتهي من البناء العلوي دون حاجة لانتظار الانتهاء من مراسيم الدفن - - أما عن العناصر الضرورية في الدولة القديمة لإعداد مصطبة يعتبرها المصري كاملة لضمان مستقبله في العالم الآخر فهي في رأي "عالم الآثار" ديفز كما يأتي : 1 - اللوحة المشكلة علي هيئة باب " أي الباب الوهمي " وهذه غالباً ما تحمل رسم المتوفى داخلاً وخارجاً أو تمثاله ، وعادة تكون حافلة بالدعوات 2 - تمثال وأسماء وألقاب المتوفى 3 - قائمة بأصناف الطعام والشراب تشمل نحو مائة صنف إذا كانت كاملة 4 - صورة المتوفى جالساً أمام مائدة غنية بالطعام 5 - مواكب الخدم تحمل الزاد ، ومناظر ذبح الحيوانات للطعام 6 - النصوص التي تتحول بواسطتها المأكولات المصورة إلي حقيقة 7 - صورة زوجة المتوفى وأسرته والحيوانات الأليفة ، والخدم المقربين لضمان مصاحبتهم له في حياته الجديدة)² وطبعا التعليق الوحيد بالنسبة لي علي هذا الكلام عبارة عن مجموعة تساؤلات : ماذا يفعل الفقير كي يضمن لنفسه حياة كريمة في الدار الآخرة وهو لا يستطيع أن يبني مقبرة أساساً ؟ وكل ما يتمناه الخادم أن يرسمه سيده في مقبرته كي يضمن العودة للحياة مرة أخرى في خدمة سيده ، يعني حاجة ذل مفيش بعد كده ، وطبعاً مفيش فائدة من الأعمال الصالحة والكلام ده كله إذا لم يتم كتابتها في مقبرة مناسبة ، المهم يا سيدي تعالي نتعرف علي موضوع سر

المركزية الشديدة في مصر وعلاقتها بالمجتمع النهري

المجتمع النهري ودولة الموظفين (قمة البيروقراطية) :

وإذا قرأت كتاب شخصية مصر للمفكر الكبير جمال حمدان ستجد معلومات ومعاني رائعة منها أن هناك فرق بين المجتمع الزراعي الذي يعتمد علي مياه النهر والمجتمع الزراعي الذي يعتمد علي مياه الأمطار فيقول د جمال حمدان (- - - الحقيقة الكبرى في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية ، لا تعتمد علي المطر في حياتها ، وإنما علي ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الري - - ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته ، ففي البلاد التي تعيش علي الأمطار مباشرة يختزل المجهود البشري إلي حده الأدنى ، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر ، يتوقف العمل أو يكاد حتي الحصاد ، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه ، من هنا فقد تكون الطبيعة سيده الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف - - لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطاءية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلي مساقى الحقول حتي تزرع ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم تسيطر علي أعناقها وريوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعني أي جدوي فيها بغير ضبط النهر ؟

¹ لاحظ أن المصري القديم كان يعتقد أن ما يوجد في مقبرته من صور حياته اليومية والطعام والشراب والأثاث كل هذا هو الذي سيضمن له السعادة في الآخرة ومن الطريف أن هذا ينطبق ظاهرياً فقط مع قول الشاعر " لا دار للمرء بعد الموت يسكنها - - - إلا التي كان قبل الموت يبنيها ، فإن بناها بخير طاب مسكنه - - - وإن بناها بشر خاب بانيها " وهذا الشعر بالطبع يعبر عن وسيلة البناء التي تعبر عن الأعمال الصالحة في الدنيا ورضا المولى عز وجل وليس ما كان يفعله المصري القديم من صور وتمائيل وتحنيط لأن كل هذا لا ينعف بشئ في الآخرة إنما الذي يبقى هو العمل الصالح ودعاء الأبناء والصدقات الجارية والله أعلم

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة 103 وما بعدها

وأكثر من هذا ما جدوي الجميع بغير ضبط الناس ؟ - - إن زراعة الري إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض متعارضة دموية ، ذلك أن كل من يقيم علي أعلي الماء يستطيع أن يسيئ استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماماً عن يقع أسفله

أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع علي أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع علي نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عن تريد المحصلة إذن واضحة :

بغير ضبط النهر يتحول النيل النبل إلي شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلي عملية دموية ويسيطر علي الحقول قانون الغاب والأدغال

في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع ، سلطة عامة أقوي بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها

وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم

فإذا ما التفتنا إلي مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح ، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلي حد نادر المثال ، فقد عد فرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلي جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس¹ وإذا فقد هذا المثلث أحد أضلاعه لن تكون هناك حياة ومن هنا جابوا من الآخر وعبدوا الفرعون واهب الحياة من وجهة نظرهم ويا فرعون ما الذي فرعتك ؟ ،



ويعتبر هذا سبب رئيسي لأن تصبح مصر دولة موظفين مركزية جداً ، ويعبر عن هذا المفكر الكبير جمال حمدان بأسلوبه الرائع فيقول : (--- فالبيئة كما رأينا فيضوية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ، ولهذا أصبح الري مرادفاً للتنظيم ، والتنظيم المركزي ، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . وإن كان هذا من أقوي عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر ، كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة ، إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاعية وأرسي نواة الموظفين الثقيلة ، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً في مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلاً عنيدا في موكبها . أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً كما نقول ، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل ، العمل الكبير علي أية حال ، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل والمشاكل ، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخلق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان ، وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن الحكومة المركزية الأولى في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن ، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد علي طولها بغير انقطاع ، حتي لتشكل نغمة دالة عليه وملحاً أساسياً آخر من

¹ نقلاً باختصار عن كتاب مختارات من شخصية مصر 3 للدكتور جمال حمدان - مكتبة مدبولي- مقتطفات مختصرة من صفحة 20 وما بعدها

ملاحه ، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ، --- ويكفي بعدها أن نري صور كبار الموظفين علي النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغاً ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتي تمثال شيخ البلد فهذه جميعاً نصب تذكارية وتاريخ محفوظة أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة ¹ المهم يا سيدي أرجو أن تكون قد حصلت علي فكرة بسيطة وسطحية جداً عن موضوع الآلهة الفرعونية وحان الوقت لتحدث عن الأسرات من الأولي للعاشره وهو عنوان هذا الفصل أساساً ولكن قبل أن تأخذنا الدردشة عن الأسرة الأولي وما بعدها أحب أن أتوقف شوية عند مصادر التاريخ الفرعوني والفترات الغامضة به

حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون :

وإذا ذكرنا أهم المصادر المصرية القديمة التي تتناول تاريخ مصر سنجد أهمها حجر بالرمو2 نسبة لمدينة بالرمو الإيطالية الموجود بها أكبر قطعة من هذا الحجر بعد تحطمه كما يبدو في الصورة الآتية



ويوجد في المتحف المصري بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثة منها في عام 1910 وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد علي القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب في منف أما القطعة السادسة فهي الآن في لندن في متحف الجامعة وبردية تورين3 وتاريخ مانيتون4 وثبت الكرنك وثبت أبيدوس وثبت سقارة وما يسمى بنصوص الأنساب وكلها تحتوي علي أسماء ملوك وأحداث شهدتها فترات حكمهم ولكن كل مصدر منهم إما أنه تهشم وفقدت منه معلومات مهمة أو أن كاتبه كان له مقاصد خاصة في كتابته وبالتالي حذف أسماء بعض الملوك أو فترات كاملة من تاريخ مصر كانت لا تعجبه فمثلاً ثبت أبيدوس (أهمل ملوك إهناسيا الأسرتين التاسعة والعاشره ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشره - - ولم يذكر ثبت أبيدوس أي ملك من ملوك عصر الفترة الثانية بما في ذلك ملوك الهكسوس الذين

¹ القاهرة - د جمال حمدان - صفحة 85

² (في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمتراً نقش وجهه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولي مع مدة حكم كل منهم ، مقسماً إلي سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حطم هذا الحجر إلي قطع صغيرة عثر حتى الآن علي ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ 1859 ونقلت إلي متحف مدينة بالرمو في عام 1877 وما زالت هناك حتي الآن) (صفحة 63-64 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

³ حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر - - وتنتهي أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشره (صفحة 65 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

⁴ كان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي 280 ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبيعت علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فقد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس - - ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقي " 217 ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس (صفحة 66-67 مصر الفرعونية "أحمد فخري")

كانوا في نظر ملوك مصر أجنب مغتصبين لحرية البلاد ، ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلي أن يصل إلي الملك امنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط "إخناتون" و "سمنخ كا رع" و "توت عنخ آمون" و "آي" لأنهم كانوا في رأيه ملوكاً مارقين وخارجين علي ديانة آمون وكذلك فعل بالملكة حتشبسوت لأن خروجها علي التقاليد واغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية في نظر الأجيال التالية (1) ، (ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتي الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية في مصر الوسطي مازالت تحتفظ بأكثر ما أبقى عليه الزمن من مخلفاتها ، حتي طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمي الكافي ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما يمتد إلي أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون أنهم قد قالوا كلمتهم النهائية في تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات في ذلك التاريخ (2)

الفترات الغامضة في التاريخ الفرعوني:

ومن الواضح أن آثار الوثنيين هي التي تم الاعتماد عليها كمصدر أساسي لكتابة التاريخ الفرعوني وقد قاموا بحذف جميع الآلهة والملوك الذين لا يؤمنون بهم وبالتالي فمن الطبيعي أن يقوموا بحذف جميع الفترات التي دخلت فيها مصر في دين الله وعرفت فيها التوحيد وقد تكون الفترات الغامضة في التاريخ الفرعوني هي فترات وجود رسل وأنبياء كبعثة سيدنا إدريس عليه السلام وكزيارة سيدنا إبراهيم لمصر وحضور سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف إلي مصر وفترة سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهم جميعاً وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام وربما كذلك رسل لم يقصصهم المولي عز وجل في كتابه الكريم ولكن سوف نحاول بقدر الإمكان البحث في الكتب والمراجع التاريخية عن أي وميض يشير إلي وجود نبي من الأنبياء خلال فترة العصر الفرعوني وفي أي أسرة بالتقريب كما هو محتمل علي سبيل المثال أن سيدنا يوسف حضر إلي مصر خلال فترة حكم الهكسوس لها كما سيأتي بيانه إن شاء الله وعن هذا الموضوع كتب الدكتور محمد عمارة ما يلي (- - - بل إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس - عليه السلام - ليوحى بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقي بعلم النبوة الذي جاء به رسولها إدريس عليه السلام - - - فيقولون أنه أقام ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله - - - فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب - - - وعبر هذا التاريخ المصري الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة علي انتماء المصريين إلي دين الله ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم - ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم - وأيضاً في حكمائها الذين جددوا الدعوة إلي التوحيد ورفعوا راياته في مواجهة الوثنية والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم - - - فإلي مصر رحل إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء ومن بنات مصر هاجر عليها السلام أنجب نبي الله ورسوله إسماعيل عليه السلام - وإلي مصر جاء يوسف عليه السلام وفيها أوحى إليه ربه وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح - - - وباستدعاء من يوسف جاء نبي الله يعقوب وعدد من بنيه إلي مصر وعاش فيها وعبد الله ودعا إليه - وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وأوحى الله إليهم وأنزل عليهم التوراة والألواح فجابته حرية التوحيد عبودية الفرعونية علي ضفاف وادي النيل3 - - - وإلي مصر لجأ المسيح عيسي ابن مريم عليه السلام مع أمه سيدة نساء

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 69

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 74

³ المسافات الموجودة بين العبارات يوجد بها كلام في الكتاب الأصلي المأخوذة عنه الفقرة

العالمين طلباً للأمن) 1 هذا بعض ما ورد من كلام الدكتور عمارة عن مصر وعلاقتها بدين الله والأنبياء والرسل عليهم وعلي نبينا السلام نرجع تاني للدردشة ونبدأ بالأسرة الأولى والملك مينا ومين فينا ما يعرفش مينا ؟
الملك مينا الفرعون² الأول والأسرة الأولى :

وإذا تكلمنا عن الأسرة الأولى سنجدها مكونة من ثمانية ملوك أولهم بالطبع الملك مينا (مني)³ الشهير مؤسس الدولة والجد الأكبر لجميع ملوك الفراعنة تقريباً ويبدو الملك مينا في الصورة التالية أثناء القتال



ويقول عنه سليم حسن أنه قد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه حتى أنهم أهوه بعد موته وبقيت عبادته زمناً طويلاً حتى أنه بعد عشرين قرناً من وفاته وجد تمثاله محمول في مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رمسيس الثالث في معبده⁴ وعلي فكرة تاريخ بداية الأسرة الأولى في كتاب موسوعة سليم حسن مختلف عن المكتوب في كتاب موسوعة حكام مصر لناصر الأنصاري والتي قمت علي أساسها بحساب مدة كل دولة في بداية الدردشة فيقول سليم حسن أن ملوك الأسرة الأولى يبلغ عددهم سبعة فقط واستمروا نحو 200 سنة من سنة 3200 ق م إلي سنة 3000 ق م⁵ وهذا يدل علي أن الكلام في التواريخ الفرعونية غير دقيق وكله تقريبي واجتهادي والذي يهمننا في الموضوع أن مينا وضع أساس متين لكل من جاء بعده من الفراعنة فالنظام الحكومي والإداري الذي كانت تسيير عليه البلاد في عهده بقي نحو 3000 سنة⁶ لم يطرأ عليه تغيير إلا نادراً وهذا هو كل ما يمكن قوله عن الأسرة الأولى في هذه الدردشة العاجلة المتعجلة لكن طبعاً هناك المزيد من المعلومات التي توضح آثار هذه الأسرة في الكتب وعموماً هناك ملك آخر من هذه الأسرة ممكن نقول عنه كلمتين وهو خامس ملوك هذه الأسرة وهو الملك "دن" فقد عرفنا عنه الكثير ، ليس من مقابره أو مقابر معاصريه فحسب بل من حجر بالرمو أيضاً ونري أنه قد اتخذ لنفسه لقباً جديداً - - كما نعرف أيضاً أنه حارب البدو الذين في شرقي مصر ، كما نري بعض تفاصيل احتفاله بعيد يسمى عيد "السد"⁷ أو الاحتفال الثلاثيني الذي لعب دوراً كبيراً

¹ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) مقتطفات من صفحة 4 إلي صفحة 10

² (أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم "قارن الباب العالي والبيت الأبيض") معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 53

³ وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا = منا = نعرمر = نارمر) وقد استخدم هنا الدكتور سيد توفيق اسم "مني" للفرعون الأول كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعنى الخالد أو المثبت

⁴ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 267

⁵ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 267

⁶ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 267

⁷ (عيد السد= كان هذا الاحتفال معروفاً في مصر دون شك قبل الأسرة الأولى بزمن كبير ، ويرجع أصله إلي عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتي الآن ، وهي تحديد ثلاثين سنة لحكم أي زعيم ، لأن رخاء الناس يتوقف علي قوة ذلك الزعيم ، فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضاوا عليه في حفل ديني - - كما تقدم البعض الآخر في تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشتري بذلك سنوات أخرى من الحياة ، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل علي سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد أو تقديم قربانين خاصة في حفل يثبت فيه هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة ، ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة في مصر في وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلي مرحلتها الأخيرة وهي تجديد الحق في البقاء في الحكم قبل أن تنتهي فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك في احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد

في حياة الملوك المصريين وعقيدة الإلهية الملكية ، المهم يا سيدي بعد كده جاءت الأسرة الثانية وهي مكونة من تسعة ملوك واستمرت حوالي 200 سنة ولا توجد فيها شخصيات بارزة أو شهيرة علي الأقل بالنسبة لي وبهاتين الأسرتين انتهى العصر العتيق

بداية الدولة القديمة :

وبدأ عصر الدولة القديمة حوالي سنة 2690 ق م بالأسرة الثالثة وفي الحقيقة عصر الدولة القديمة يتميز أنه عصر بناء الأهرام لذلك ستجد أسماء عديدة في هذا العصر تعرفها ويعرفها معظم الناس حالياً فمثلاً مؤسس هذه الأسرة وهو الملك زوسر الذي بني في عهده هرم سقارة المدرج الشهير وعلي فكرة هذه الأسرة مكونة من خمسة ملوك فقط أولهم الملك زوسر وهو يعتبر من الشخصيات البارزة التي تحدثنا عنها وقد دام ملكه حوالي 29 سنة علي عرش مصر وهو صاحب أول هرم في التاريخ وعلشان كده اسمح لي أن ندرش عنه بعنوان منفصل

الملك زوسر¹ (جوسر- جسر) والأسرة الثالثة :

(وبالرغم من أن أول ملوك هذه الأسرة وهو الملك زوسر كان علي الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسساً لأسرة مالكة جديدة)² ، (ولقد حكم الملك جسر " زوسر " طبقاً لما ورد في تاريخ مانيتون 29 سنة رأت فيهم مصر نهضة شاملة)³ ،



(وليس من شك في أن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الأسرة الثالثة هي تلك المجموعة الهرمية التي أمر الملك جسر "زوسر" ببنائها بسقارة - - ومن الطريف أن الملك جسر قبل أن يبدأ في بناء مجموعته الجنائزية في سقارة سار علي نهج من سبقوه من ملوك الأسرتين الأولى والثانية فبني مقبرته الأولى علي شكل مصطبة كبيرة الحجم وهي من الطوب اللبن - - أما مقبرته الثانية بسقارة ونقصد بذلك الهرم المدرج فقد ترك تشييدها لوزيره الشاب أيحبت وهو المهندس الذي استخدم الحجر علي نطاق واسع لأول مرة - - وقد خلد هذا البناء الضخم مهندسه أيحبت)⁴ ، (وكان إيمحوتب واحداً من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقرتهم في أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه علي فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر في الفن المصري بل نبغ أيضاً في الطب وألف فيه ، كما ألف في الحكمة وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد في أواخر أيام حضارتهم)⁵ (وأثبتت الأبحاث الحديثة وما تعري وتهدم من بعض أجزاء الهرم "هرم سقارة المدرج" أنه بني علي أساس تصميمات مختلفة - - وأصبحت قاعدة الهرم بعد كل هذه التعديلات 121 متر من الشرق إلي الغرب و 109 متر من الشمال إلي الجنوب وارتفاع الهرم يصل إلي 59.64 متر - - وغير هذا فهناك العديد من الممرات والغرف التي حفرت في الصخر الطبيعي تحت بناء الهرم وتشعبت في اتجاهات مختلفة بأطوال متباينة وعلي أعماق مختلفة ووجد بها عشرات الآلاف من الأواني الحجرية الضخمة ويعتقد بأن عددها يزيد علي 30000 إناء من المرمر والجرانيت

لهذه المناسبة بعض المباني الخاصة - - وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولى حتي آخر أيام حضارتها ، مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نري الإشارة إليه

، ونري بعض طقوسه علي جدران المعابد في جميع العصور حتي ما شيد منها في أيام الرومان) مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 82-83

¹ تم استخدام اسم (جسر) للملك زوسر في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر للدكتور سيد توفيق وكلمة جسر تعني المقدس باللغة المصرية القديمة

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 92

³ معالم تاريخ وحضارة مصر -القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 56

⁴ معالم تاريخ وحضارة مصر -القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 56-57

⁵ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 96

والديوريت والشست 1 وهي تمثل الإتقان الذي وصلت إليه صناعة الأواني في عصر الملك جسر وقد زينت إحدى جدران هذه الغرفة بثلاثة أبواب وهمية مثل عليها الملك جسر يقوم بطقوس عيد السد يصاحبه اسمه وألقابه 2)

خلفاء زوسر ونهاية الأسرة الثالثة :

(كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه علي العرش من نستطيع أن نقارنه به ، ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا في هذه الأسرة بينما لا نجد في ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء) 3 ، (وكانت فترة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة علي الأرجح وقد بدأت بعهد زاهر وهو عهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها علي الصورة التي كنا نتوقعها ، فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهي معرفة بناء الهرم الكامل - ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأستين الأولي والثانية علي شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتي ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرمًا مدرجاً وظل تجديد إيمحوتب مثلاً أعلي مدة تقرب من قرن كامل حتي انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة) 4

(أما الملك حوني آخر ملوك هذه الأسرة فقد حكم 24 سنة ويذكر نقش يحمل اسمه في جزيرة الفنتين أنه أقام عند الجندل الأول حصناً ليؤمن حدود مصر الجنوبية وهذا النقش هو الإشارة الوحيدة للأحداث السياسية التي تمت في عهده كما بدأ خلال فترة حكمه ببناء هرمه في ميدوم " 75 كم جنوب القاهرة " ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكملة الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة) 5

الأسرة الرابعة :

ثم جاءت الأسرة الرابعة أشهر أسرة في العصر القديم وهم بحق بناء الأهرام وهذه الأسرة مكونة من سبعة ملوك أولهم الملك سنفرو مؤسس الأسرة (أسس الملك سنفرو⁶ الأسرة الرابعة - - ويرى مانيتون أنه حكم 29 سنة وبردية تورين 24 عاما كما نعرف من حجر بالرمو أنه قام ببعثات حربية إلي بلاد النوبة وأحضر معه من هناك 7000 أسير ، 200000 رأساً من الماشية وبعد ذلك اتجه إلي ليبيا وانتصر عليها وعاد منها ومعه 11000 أسير و 131 ألف رأس من الماشية كما يذكر حجر بالرمو أيضاً أنه أرسل أسطولاً بحرياً إلي لبنان لإحضار أخشاب الأرز)⁷ ويبدو في الصورة الملك سنفرو وحرمه أقصد وهرمه



وعلي فكرة سنفرو هذا كان زوج بنت الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير وأول حاجة عملها الملك سنفرو إنه قام بتقليد جده الملك زوسر فقام ببناء مقبرتين له وكلاهما علي شكل هرمي وكلاهما موجود حتي الآن ولا أحد يعلم في أيهما تم دفنه وإذا تكلمنا عن الملك سنفرو سنجد أن عصره امتلأ بحوادث كثيرة منها الحملة

¹ تفنكر الملك زوسر كان حاطط كل هذه الأواني ليه أسفل الهرم بتاعه ، حاجة غريبة جداً ، ممكن يكون سمع إشاعة إن سعرها سيرتفع

² معالم تاريخ وحضارة مصر -القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 66

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 98

⁴ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة 101

⁵ معالم تاريخ وحضارة مصر -القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 67

⁶ كتب سليم حسن عن سنفرو ما يلي (وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل ، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل

أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي) موسوعة سليم حسن - مصر القديمة -الجزء الأول- صفحة 284

⁷ معالم تاريخ وحضارة مصر -القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 68

البحرية التي أرسلها إلي المواني السورية وعادت هذه الحملة بحوالي أربعين سفينة محملة بالأخشاب التي تستخدم في البناء وتم قطعها من غابات لبنان¹ المهم يا صديقي إن السيد سنفرو هذا كان راجل شديد علي ما يبدو لأن سليم حسن كتب عنه ما يلي بالحرف الواحد (وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان)² يعني كل شئ كان تحت السيطرة وعلي فكرة سنفرو كان عايش عيشة الآلهة (ولو إن مفيش حاجة اسمها عايش عيشة الآلهة) المهم إنه عندما كان ينتقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزاماً علي رعيته أن يركعوا أمام جلالته ويقبلوا التراب الذي تحت قدميه علي حد تعبير سليم حسن وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس وكانت حاشيته وعظماء البلاد في عهده تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتي يقدموا له خدماتهم في الدار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص (وطبعاً يبقى يبجي يقابلني لو لقي حد منهم ساعتها) والظريف في موضوع المقابر والآلهة إن الفراعنة علي ما يبدو كانوا لا يثقون في آلهتهم من حيث إمكانية إعادة أجسادهم مرة أخرى كما كانت قبل الموت ولذلك سهلوا المهمة علي الآلهة وقاموا بتحنيط موتاهم وسبحان الذي يبدي الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وعلي العموم تعالوا نشوف ماذا حدث بعد وفاة عمنا سنفرو جوز بنت الملك حوني وعلي فكرة يبدو أن قانون الوراثة أيامهم كان علي نظام الأمومة فإذا انقطع نسل الذكور من الأسرة المالكة فإن الملك الجديد لا بد أن يتزوج من إحدى بنات البيت الملكي السابق حتي يجري الدم الفرعوني في عروق أبناءه أما عن سبب عدم وجود آثار تخص بيوت وقصور الفراعنة فيقول سليم حسن (وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر علي حين أن الملك كان يسكن في مأوي بسيط من الطوب اللبن أو من طين النيل المجفف في الشمس ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يعدون كالآلهة)³

خوفو وهرمه العملاق :

المهم يا سيدي إن سنفرو مات وجاء خوفو للحكم وأياً كان السبب الرئيسي لبناء ه هذا الهرم العملاق⁴ وأياً كانت ظروف حكمه إلا أن الهرم الموجود حالياً باسمه يعتبر من عجائب الدنيا بالفعل فيكفي أن اذكر لك بعض الحقائق عن هذا الهرم لتعرف حجم العمل الذي تم فيه رغم أن فترة حكم خوفو لم تتجاوز العشرين عاماً مما يدل علي أن فن الإدارة وتنظيم الأعمال كان متقدماً في عهده لإنجاز هذا العمل الضخم في توقيت قصير نسبياً ،



الملك خوفو والهرم الأكبر

يبلغ طول قاعدة الهرم 227.5 متر وارتفاعه حوالي 137 متر وعدد أحجاره تقريباً مليونين وثلاثمائة ألف حجر ومتوسط وزن الحجر الواحد حوالي 2.5 طن يعني وزن الهرم بالكامل ستة ملايين طن تقريباً وحجمه 2.5 مليون متر مكعب⁵ وبالرغم إن خوفو كان يريد أن يكون هذا الهرم المقر الأبدى لجثمانه إلا أن حلمه لم يتحقق وقد تم اقتحام حجرة الدفن في عهد الثورة التي كانت في نهاية الأسرة السادسة الفرعونية لأن حجرة الدفن الخاصة بالملك خوفو خالية تماماً وعليها آثار تخريب واضحة من مخلفات الأسرة السادسة تقريبا ويقول سليم حسن عن الملك خوفو (وربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل خوفو عن باقي أعمال ملكه ولكن الواقع أننا نجد له آثاراً باقية في مدن ملكه وقد ترك خوفو

¹ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 284

² موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 284

³ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 285 ، 286

⁴ يعتقد بعض علماء الآثار أن من أسباب بناء هذا الهرم أن الملك قرر تأمين شعبه ضد البطالة وخاصة في الفترات التي تتوقف فيها أعمال الزراعة ولذلك كان يتم العمل في الهرم في هذه الفترات فقط من السنة وهي فترات مرتبطة طبعاً بتوقيفات حدوث فيضان النيل

⁵ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 292

اسمه منقوشاً في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء¹ وعلي فكرة خوفو كان يتبع الإله خنوم (الكبش خنوم) بينما من جاءوا بعده كانوا يتبعون الإله رع لذلك نجد اسمهم خفرع ومنكاورع وقد كتب الكاتب الكبير نجيب محفوظ رواية تاريخية رائعة عن الملك خوفو اسمها (عبث الأقدار) وبالرغم من تحفظي الشديد علي اسم الرواية إلا أنها أمتعتني كثيراً والظريف أن هذه الرواية من أولي ما كتب نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية

ماذا بعد خوفو :

والحقيقة إن بعد وفاة خوفو حصل صراع شديد علي العرش علي ما يبدو لأن الموضوع ده ملخبط شوية لأن الذي تولي الحكم من بعده اسمه (ددف رع) وهو ثالث ملوك الأسرة الرابعة بعد خوفو وسنفرو وقد استغل ذلك علي ما يبدو الكاتب الكبير نجيب محفوظ وألف هذه الرواية بحرفة شديدة يتضح فيها تفاصيل ما يدور في بلاط الملك وفي نهاية الرواية أنعم خوفو علي قاتل ابنه بأن زوجه ابنته لأنه أنقذ حياته² من محاولة قام بها ولي العهد ليرث العرش بالقوة ، المهم يا سيدي إن سليم حسن يقول (والظاهر أن بعد وفاة خوفو قامت منازعات علي الملك إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو ددف رع ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام)³ وهذه الصراعات استمرت حتي في عصر خفرع صاحب الهرم المعروف باسمه في الجيزة حيث أن خفرع لم تكن بيده مطلق الصلاحيات في الحكم أو بمعنى أصح سلطاته كانت غير كاملة علي مصر بسبب هذه الصراعات مع أبناء ددف رع أخوه ومع كل هذه الصراعات استطاع بعزيمة فولاذية بناء هرمه الفخم بجوار هرم خوفو وقد أنجب خفرع 16 فرد من الذكور والإناث وفي الغالب أن الفرعون منقرع أحد هؤلاء وقد خلف أبوه في الحكم وبني هرمه الصغير بجوار هرم خوفو وهرم خفرع كما نعلم جميعاً ويمكن نتوقف شوية عند الملك منقرع عشان باين عليه كان راجل طيب

الملك منكاورع :

(-) - لم تستطع الآثار المصرية المعروفة لدينا الآن أن تعطينا الشئ الكثير عن حياة الملك منكاورع وإن تغلبت الذكري الطبية عند الحديث عنه في العصور المتأخرة - - بعكس ما اتصف به والده خفرع وجده خوفو من قوة واستبداد - - والاحتمال كبير في صدق هذه الرواية لسبب بسيط هو أن بناء مثل هذين الهرمين الكبيرين وما يتبعهما من معابد للمكين خوفو وخفرع لا شك حملا الدولة ما لا تستطيع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية - - ويقع هرم منكاورع في الركن الجنوبي من الهضبة ويبلغ ارتفاعه الآن 62 متر " كان 66.5 متر" وطول ضلع قاعدته 108.5 متر - - وعلي الرغم من أن فترة حكم منكاورع قد تزيد عن 18 عاماً فإنه لم يستطيع أن يتم تشييد هرمه الصغير وما يتبعه من معابد فأكملها له ابنه شبسكاف - - ولم يقم شبسكاف بتشيد هرم له في الجيزة واتخذ منطقة سقارة جبانة له وقام في جنوبها بتشيد تابوت ضخم مستطيل (100×75 متر وارتفاع 18 متر) بني من الحجر الرملي - - وهو المعروف الآن بمصطبة فرعون ويبدو أن نفوذ كهنة الشمس ازداد وازداد معه قوة وسيطرة الإله رع في هليوبوليس - - ومن أهم الأسباب التي سمحت لهم بتحقيق هذه السياسة أن ملوك الأسرة الرابعة بعد الملك خفرع كانوا ملوكاً ضعافاً فاستطاع هؤلاء الكهنة أن يفرضوا سيادتهم ويسقطوا الأسرة الرابعة - - وجعلوا بعد ذلك الإله رع إله الدولة وقللوا من أهمية الإله حورس⁴ الذي كان يهيمن علي مصر قبل ذلك كإله للدولة⁵ ، وطبعاً لن نذكر تفاصيل أخرى عن هذه الأسرة فالمقصود من هذه الدردشة المرور السريع علي أهم الأحداث حتي نستطيع تلخيص تاريخ مصر بالكامل إن شاء الله بقدر المستطاع وعلي العموم الأسرة الرابعة بشكل عام امتازت ببناء الأهرامات الضخمة كما ذكرنا ونلاحظ فيها ما ذكرناه في بداية الكتاب عن الملك القوي الذي يؤسس الملك ثم الأحفاد الذين يتصارعون علي الملك حتي يضيعونه تماماً وعلي فكرة جاء بعد منكاورع ابنه الملك

1 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص 294 (مكتبة الأسرة)

2 عبث الأقدار (نجيب محفوظ) ص 204

3 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 1 ص 295 (م الأسرة)

4 مسألة غلبة إله علي إله بالطبع كلام فارغ ولكن الموضوع له علاقة بالمصالح المرتبطة بالكهنة أنفسهم فكل معبد له ما يشبه الأوقاف من الأراضي وخلافه تدر مبالغ كبيرة لكهنة المعبد وكلما زادت أهمية أحد المعابد زاد بالتالي دخله ولتسهيل الموضوع يمكن إعطاء مثال أن كهنة كل معبد كانوا يديرون مشروعات تدر أرباحاً ضخمة كما لو كانت شركات وأسماء الآلهة عبارة عن أسماء لهذه الشركات (شركة رع - شركة حورس وهكذا) {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (22) سورة الأنبياء

5 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة 82-83

شبسكاف ثم أخته الملكة (خنت كاوس) والتي يعتقد البعض أنها صاحبة هرم رابع بالجيزة¹ ، المهم يا سيدي إن هذه الملكة كانت آخر الأسرة الرابعة
وجاءت الأسرة الخامسة :

ثم جاءت الأسرة الخامسة المكونة من تسعة ملوك أولهم يسمى (أو سر كاف) وآخرهم الفرعون (أوناس) وهي أيضاً أسرة من بناء الأهرامات ولكنها ليست علي نفس مستوي الأسرة الرابعة من الشهرة حالياً (ويؤكد حجر بالرمو بأن ملوك الأسرة الخامسة تميزوا بإقامة المعابد الكثيرة ، أما هيروودوت فأوضح أن هذه الأسرة تميزت بنزعة دينية خالصة ، ويفضل الترتيب الآتي لملوك هذه الأسرة : وسر كاف - ساحورع - نفر إير كا رع - شبسكارع - نفر اف رع - ني وسر رع - من كاو حور - جد كا رع اسسي - ونيس)² ، (ونعرف من المصادر التاريخية أن وسر كاف هو أول ملك شيد معبد لإله الشمس رع في منطقة أبو غراب " علي بعد ميل شمال أبو صير جنوب الجيزة)³ ، (أتى ساحورع بعد الملك وسر كاف وقد حكم طبقاً لما جاء في حجر بلرمو 14 سنة وإن كانت بردية تورين تعطيه 12 سنة فقط أما مانيتون فيذكر له 13 عاماً⁴ - - اهتم بتزيين المعابد بالمناظر والنقوش ، التي نعرف منها نشاط الملك ساحورع الحربي فنعرف أنه قام بحملات ضد الليبيين⁵ الذين حاولوا غزو الدلتا وضد البدو في الشمال الشرقي ، ونعرف أيضاً أنه أرسل أسطولاً إلي شواطئ فينيقيا - - أتى بعد ساحورع أخوه نفرير كارع المعروف بكاي ويشير حجر بلرمو الذي تم نقشه - أغلب الظن - في عهده أنه حكم فترة عشر سنوات ، ويعطيه مانيتون عشرين عاماً - - أصدر نفر إير كا رع⁶ مرسوماً بإعفاء رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأعمال أخري تتصل بمشاريع الإصلاح في الدولة هذا المرسوم الذي ساعد علي تقوية الكهنة وزاد من نفوذهم وفي نفس الوقت بدأ يتقلص نفوذ الملك وأخذت سلطته تضعف وبالتالي أخذت سلطة الحكومة المركزية تضعف مما أدي فيما بعد إلي انهيار الدولة القديمة - - أتى بعد الملك كاي الملك شبسكا رع وتلاه الملك نفر اف رع وكل ما نعرفه عن هذين الملكين خلاف اسميهما هو فترة حكمهما فقد حكم الأول 7 سنوات والثاني 4 سنوات - - بعد ذلك جاء إلي العرش الملك ني وسر رع الذي حكم فترة تقرب من ثلاثين سنة وقام ببناء هرمه ومعبد لإله الشمس رع في منطقة أبو صير)⁷ ، (الملك ونيس " أوناس " آخر ملوك الأسرة الخامسة حكم فترة ثلاثين عاماً وهو أول ملك نقش في حجرة دفنه نصوص اصطلاح علي تسميتها بنصوص الأهرام - متون الأهرام - وهي التي كشف عنها -عالم الآثار الشهير - ماسبيرو عام 1880 في هرمه المشيد في الركن الجنوبي الغربي لسور الهرم المدرج بسقارة وهي عبارة عن مجموعة تعاويز وصلوات وطقوس دينية مختلفة تم اختيارها بواسطة الكهنة - ويصل ارتفاع هرم ونيس الآن 19 متر بعد أن كان في الأصل 44 متر وطول قاعدته المربعة 67 متر وهو مهدم إلي حد كبير - - انتهت الأسرة الخامسة وإن لم تترك لنا أهرامات ضخمة مثل أهرامات الأسرة الرابعة إلا أنها تركت ثروة لغوية تمثلت في نصوص الأهرام هذا بجانب مناظر الحياة اليومية الممثلة علي جدران مقابر كبار رجال الدولة)⁸

1 موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول-صفحة 323

2 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 86

3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 87

4 لاحظ أن هناك تضارب بين التواريخ والأرقام في الآثار الفرعونية نفسها وعموماً هذا لا يعنيننا كثيراً فالمهم الأحداث نفسها

5 سنلاحظ معاً عند قراءة التاريخ الفرعوني بالكامل أن محاولات الليبيين كانت مستمرة للإقامة بمصر ولم تنجح عسكرياً ولكنها نجحت في فترة من

الفترات في الهجرة السلمية بأعداد كبيرة لدرجة أنهم تولوا حكم مصر كما سنري إن شاء الله أثناء الحديث عن الأسرة الثانية والعشرين الليبية

6 (نعرف اسم الملك نفر إير كا رع من عدة مقابر لكبار موظفيه علي سبيل المثال مقبرة "رع ور " التي اكتشفها سليم حسن عام 1929 وهذا القبر لا

تقل حجراته عن الخمسين وعثر فيه علي أكثر من مائة تمثال أكثرها مهشم وكان "رع ور " يحمل أكثر من ثلاثين لقباً من بينها لقب مدير القصر الملكي

، ونذكر هنا حادثة لطيفة تدل علي عطف الملك ذكراها "رع ور " في مقبرته فقد حدث ذات مرة في احتفال رسمي أن الملك وكز بعصاه ساق رع ور

من غير قصد ولاحظ الملك هذا واعتذر عما بدر منه وقال له " انك أحب رجل لدي وأخص الناس بعطفي " ولم يكتف بذلك بل جعل هذه الحقيقة واضحة

للناس فأمر بنقشها علي حجر لكي تودع في قبر رع ور ، وهناك حادث مشابه حدث للوزير والقاضي " واش بتاح " معالم تاريخ وحضارة مصر -

القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 89 ، ومن هذه القصة يتضح مدي جبروت ملوك مصر الفراعنة مما يجعل مثل هذا الحدث العادي إشادة بعطف الملك

وسنلاحظ أيضاً أن الحاشية فقط هي التي تحظى بهذه الرعاية أما باقي الشعب فالوضع مختلف كما سنري عند الحديث عن الثورة العارمة التي حدثت في

نهاية الدولة القديمة

7 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 88-89-90

8 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 95-96

الأسرة السادسة وبيبي الأول :

المهم يا سيدي راحت الأسرة الخامسة وجاءت الأسرة السادسة وهي مكونة من خمسة ملوك وقد دامت هذه الأسرة لمدة حوالي قرنين من الزمان وهذه الأسرة من الأسر التي يكتنفها الغموض والتي لا يعلم عنها التاريخ إلا القليل لكن هناك ملك تكلم عنه سليم حسن بحماس شديد وهذا الملك اسمه الملك (بيبي الأول) ويقول عنه (وهو يعد بحق من أكبر الفراعنة الذين قبضوا علي ناصية الحال في مصر في كل عصور تاريخها بحزم ونشاط)¹ وقد عثر العلماء علي تمثال لهذا الملك آية في دقة الصنع من النحاس ويعد من أعظم الكنوز التي تم العثور عليها وعلي فكرة هذا الملك كان محبوب من شعبه لكن للاسف علي ما يبدو لم يكن يعيش حياة أسرية سعيدة لدرجة أنه أمر بمحاكمة زوجته² في بعض النقوش التي وردت من آثار عصره القليلة الباقية ولم يعلم العلماء السبب الحقيقي وراء هذه المحاكمة لعدم وجود تفاصيلها في النقوش وكان لهذا الملك هرم في سقارة يمتاز في إخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات في طريق الوصول إليها ولكن رغم هذه التحفظات التي بذلت في هذا السبيل كما يقول سليم حسن فإن اللصوص استطاعوا الوصول إلي تابوت الملك المصنوع من حجر البازلت وهشموه ومزقوا جثة هذا الفرعون³ ومن المحتمل أن هذا التخريب البالغ قد حدث في نهاية هذه الأسرة في الفترة التي كانت الثورة متأججة في البلاد وجدير بالذكر أن بيبي الأول قام بحملة إلي فلسطين يصاحبها الأسطول وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها في التاريخ حيث صاحب الحملة البرية أسطول بحري يحميها وكان سبب هذه الحملة منع هجرة الآسيويين إلي مصر بعد تجمعهم بشكل ملحوظ في فلسطين استعداداً للهجرة إلي مصر فقرر بيبي الأول إحباط المحاولة من بدايتها أما الملك الذي جاء بعده وهو ابنه الكبير (من رع) فقد تم العثور علي موميأه سليمة سنة 1880م داخل هرمه وتعتبر أقدم جثة تم العثور عليها بقيت إلي وقتنا هذا وطبعا تم العثور عليها بدون كنوز لأن القبر تم نهبه وتلاحظ عند العثور علي هذه الجثة أن الملك مات صبياً صغيراً وجاء بعده الملك بيبي الثاني أخوه وكان عهده يتميز بإرسال العديد من البعثات خارج مصر وخاصة إلي بلاد الصومال بالاستعانة بالأقزام

الملك بيبي الثاني وحدث الثورة التي أنهت أيام الدولة القديمة :

(لقد حكم أطول فترة ممكنة في التاريخ الفرعوني وربما في تاريخ العالم - - واستمر يحكم 94 سنة وهي رواية ليس من سبيل إلي تأكيدها أو نقضها ، فلقد احتفل بالعيد الثلاثيني مرتين علي الأقل - -



الملك بيبي الثاني

وظال الحكم بالملك بيبي الثاني الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة المركزية فدب فيها الضعف وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم وقل ولاءهم لصاحب العرش - - واشتدت المظالم مما أدي إلي القيام بثورة ، ثورة علي كل شئ ، ثورة علي الظلم وعلي الحكم وحتى علي الآلهة - - ولقد تولي الحكم بعد بيبي

¹ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 365

² موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 366

³ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة 368

الثاني ملك ومملكة الأول يدعي "مرن رع" وحكم سنة واحدة والثانية الملكة "نيت أقرت" أو "تيتوكريس" التي حكمت فترة تقرب من سنتين ثم بعدها سادت الفوضى البلاد وانتهت أيام الأسرة السادسة وبانتهائها انتهت الدولة القديمة¹ من السابعة إلى العاشرة وعصور الظلام :

المهم يا سيدي إن الملك بيبي الثاني كان يعتبر مجازاً آخر ملوك عصر الدولة القديمة وبداية عصر الاضمحلال الأول والثورات الاجتماعية وانقلاب الأمور رأساً علي عقب وكثرة إغارة البدو علي البلاد والحروب الداخلية وهي ما تسمى بعصور الفوضى ويسمي سليم حسن العصر الذي شمل الأسرات من السابعة إلى العاشرة (من أظلم العصور في تاريخ مصر) وهو يزيد عن 300 سنة بقليل ولا توجد أي آثار مهمة من هذا العصر الغامض الملى بالفوضى ويظن بعض المؤرخون أن ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة من هذا العصر ليسوا مصريين أساساً حتي أن الدكتور ناصر الأنصاري في كتابه موسوعة حكام مصر التي ذكر فيها أسماء جميع من حكم مصر من ملوك وولاة وأمراء وفراعنة لم يستطع أن يذكر أسماء فراعنة عصر الاضمحلال الأول ولم يذكر سوي أسماء عدد ثلاثة ملوك فقط من الأسرة العاشرة وأفاد بأن ملوك الأسرات من السابعة إلي العاشرة غير معلوم أسماءهم أو مدد حكمهم علي وجه اليقين² وذكر أن ملوك الأسرة التاسعة من إهناسيا وهم (خيتي) وأسرته دون أن يذكر أسماء أخرى ، المهم يا صديقي العزيز إن الكلام عن العصر العتيق وعصر الدولة القديمة وعصر الاضمحلال الأول قد انتهينا منه في هذه الدردشة من الأسرة الأولى إلي العاشرة وأنا متأكد إنك لم تستمر في قراءة هذا الفصل الممل الذي أصابني أنا شخصياً بالملل وعزائي الوحيد أن هذه الدردشة قد تكون مفيدة في حالة استخدامها في عمل قرايطيس للطعمية السخنة ويا سلام لو واحد بعد ما أكل الطعمية دفعه الفضول لقراءة الورقة الملقوفة فيها ويا سلام أكثر إذا وجد تحديداً هذه الورقة التي تتحدث عن الطعمية ، أعتقد أنه سيبتسم كثيراً وهذه ستكون استفادة إلي حد ما من الدردشة وهي إدخال السرور علي من يأكل الطعمية في هذه الورقة ،

أديب فرعوني يصف الأحوال :

ولكن قبل أن ننهي هذا الفصل أريد أن أضع بين يديك وصف لعصر الاضمحلال كتبه أحد المصريين القدماء في مقطوعة أدبية رائعة تصف الثورة التي حدثت بعد ضعف السلطة المركزية بعد عهد الملك بيبي الثاني (من 2181 إلي 2040 ق م وهي تمثل الفترة التي تفصل بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة والوسطى) - ولقد استمرت ما يقرب من قرن ونصف وتشمل الأسرات من السابعة حتي نهاية العاشرة - - لقد سقطت مصر في هوة عميقة من الاضمحلال بعد موت الملك بيبي الثاني ، فانهار صرح الملكية وتدهورت سلطة البلاد المركزية وبدأ الشعب يفكر في الثورة ليحرر من قيوده فكانت الثورة ، ثورة علي قدسية الملوك وقدسية الآلهة - - وازدهر الأدب التهذيبي في ظل هذه الثورة ويصف لنا الحكيم المصري "أبوور" الذي يحتمل أنه عاش في أواخر عهد الملك بيبي الثاني أو أحد خلفائه الضعاف ، البلاد وصفاً ممتعاً علي الرغم مما فيه من قسوة "من وجهة نظره"³ فيعدد صور البؤس ويؤنب الملك الحاكم علي استهتاره وضعفه بقوله " ما هذا الذي يحدث في مصر ؟ إن النيل لا يزال يأتي بفيضانه وليس هناك من يقوم بحرقه ، لماذا حقاً أصبح الفقراء يمتلكون الكنوز ؟ ، إن من كان لا يملك نعلأ أصبح الآن من الأثرياء - - لماذا حقاً عم الحزن الأشراف ؟ بينما ساد الفرح والسرور الفقراء - - أنظر كيف أصبحت نساء الأشراف متسولات ، ومن لم يمتلك خرقة ينام عليها أصبح اليوم وهو صاحب سرير ، ومن كان يفتقد الرغبة أصبح الآن يمتلك مخزناً من الغلال ، انظروا : إن من كان لا يمتلك ثوراً أصبح الآن من أصحاب القطعان " ⁴ تأمل بنفسك هذه المقطوعة مرة أخرى لتكتشف الكثير لأن ما يأسف عليه هذا الأديب كان يحدث

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 99 وما بعدها

² موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) ص 27

³ لاحظ معي عندما نتأمل ما كتبه الحكيم المصري أنه مستاء لأن الفقراء وعامة الشعب أصبحوا أغنياء ومعهم أموال كثيرة وأن الملك وحاشيته وكبار رجال الدولة يعيشون حياة سيئة ومن هنا يتضح أن الطبقة العليا في الدولة هي الجديرة بالحياة الكريمة بل وبالدفن الكريم أيضاً إذا جاز التعبير أما عامة الشعب فيري المؤرخ المصري القديم أنه من البؤس علي حد تعبيره أن يراه ينتعم بالحياة وهذا شيء محير جداً (لاحظ أيضاً أن هذا الحكيم وأمثاله هم أحد أهم مصادر التاريخ الفرعوني وبالتالي من الممكن أن يكونوا قد حذفوا فترات التوحيد وظهروا الأنبياء وغياب ألوهية الفرعون وفقدانه السيطرة علي أنحاء مملكته واعتبروها فترات مظلمة من وجهة نظرهم بالطبع وربما والله أعلم تكون هذه الفترات هي ومضات النور القليلة التي عرفت فيها مصر دين الله سبحانه وتعالى ثم تعود وتترك عبادة الخالق وتعبد المخلوق) (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري { (38) سورة القصص

⁴ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقطعات من صفحة 126 وما بعدها

عكسه تماماً قبل الاضمحلال ، وعلي فكرة ازدهر الأدب جداً في عصر الاضمحلال الأول وأنا بصراحة مش معقول برغم الاختصار الشديد أن ننتقل للدردشة عن الدولة الوسطي من غير ما نكتب كلمتين عن بردية القروي الفصيح الشهيرة ، لأنك لو سمعت حد بيتكلم عنها سوف تبحث عنها في هذه الدردشة والمفروض أن تجدها في أي كتاب يتناول تاريخ هذه الفترة من تاريخ مصر حتي لو كانت مجرد دردشة تاريخية

القروي الفصيح :

(- -) وهي قصة كتب أحداثها أديب من العصر الأهناسي¹ والقصة في حد ذاتها بسيطة في وقائعها إلا أنها تمتاز ببلاغة الأسلوب ويبدو أن الهدف ليس القصة نفسها بل الشكاوى التسعة التي ناقش فيها القروي النظم الاجتماعية والفوارق بين الطبقات كما طالب بمحو الظلم وإعطاء كل ذي حق حقه وحماية الفقير من الحاكم الغني الظالم)² والقصة باختصار أن أحد القرويين تعرض للسرقة والضرب ظلماً من موظف يسمي "جحوتي نخت" فقرر أن يرسل شكاوى إلي قاضي يسمي "رنسي" فأعجب رنسي بالأسلوب الرائع البليغ الذي كتبت به الشكاوى (وأبلغها بدوره للملك الذي طلب بعدم الفصل فيها حتى يتسنى لهذا القروي بأن يكثر من هذه الشكاوى بعد أن أمر في نفس الوقت بمراعاة زوجته وأولاده وإعطائهم حاجتهم من الطعام وفي نهاية هذه الشكاوى التسع يحقق القروي هدفه ويرد له كل ما سرق منه بل ويأخذ كل أملاك جحوتي نخت ويقيم في العاصمة - - - وإليك بعض نماذج من هذا الأسلوب من ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر " انظر ، إنك لرئيس ويبيدك الميزان - فإذا اختل الميزان فإنك تختل أيضا - لسانك هو ذلك اللسان الصغير للميزان فإذا سترت وجهك عن الظالم فمنذا الذي يمكنه أن يدفع العار - إنك كمن يصنع العدل - أنت تجئ كالشبع وبمجئك ينتهي الجوع - وأنت تجئ كالثياب وبمجئك ينتهي العري - أنت كالسما الهادئة بعد عاصفة هوجاء - تعطي الدفاء لمن أصابه البرد - - - - " يحتفظ متحف برلين بثلاث نسخ بردية لهذه القصة)³ ونلاحظ في هذه القصة أن كاتبها يصف القاضي أو الحاكم عموماً بأوصاف يتمني أن تكون فيه كما يعلق د سيد توفيق بقوله (لقد أجاد الأديب هنا في هذه القصة من أن يتخذ من هذه الشكاوى صرح لعرض كل المبادئ الاجتماعية والقانونية التي يأمل فيها كل فرد من أفراد مجتمعه)

¹ يسمي هذا العصر بالعصر الإهناسي نسبة إلي مدينة إهناسيا حيث كانت مكان عاصمة الدولة في ذلك العصر بدلا من منف وطيبة وغيرهم

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 132

³ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة 133 ، 134

5. العصر الذهبي والدولة الوسطى الفرعونية

ظهور عائلة محترمة في طيبة :

مرحباً بك يا صديقي مرة أخرى لنردش عن الدولة الوسطى وأحوالها وكيف بدأت وسط كل هذه الفوضى والخبطة التي عاشتها مصر في عصر الاضمحلال الأول من الأسرة السابعة إلي العاشرة وبالمناسبة كانت الأسرتين السابعة والثامنة تحكمان مصر من (منف) أما التاسعة والعاشرة فمن (إهناسيا) وكلاهما في الوجه البحري في شمال مصر وكانت طبعاً الأقاليم والمقاطعات شبه مستقلة عن الحكومة المركزية ، المهم يا سيدي حدث في كل هذه الظروف وأثناءها ظهور عائلة محترمة في الجنوب وتحديداً في مدينة طيبة التي يقال عنها أنها مدينة الأقصر الحالية التي فيها الأجانب تتفصح ومش عايزة تروح من جمالها وأثارها ، وكان عميد هذه العائلة راجل شديد وكان حاكم لهذه المنطقة كان اسمه (إنيوتف) وظل هذا الرجل وكل من جاء بعده في هذه العائلة علي خلاف واضح مع ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا بل وقد وقعت بعض الحروب بين الطرفين وقد تم توسيع نطاق حكم هذه العائلة الحاكمة حتي شمل خمسة أقاليم في جنوب مصر وكان هذا في عهد (إنيوتف الثاني) الذي حكم طيبة لمدة خمسين عاماً¹ ثم تلاه في هذه العائلة إنيوتف الثالث ثم (منتو حوتب الأول) ثم (منتو حوتب الثاني)

منتو حوتب الثاني² وبداية الدولة الوسطى :

وهنا يتوقف التاريخ ويغير مجراه فقد جاء واحد من مؤسسي الدول ومن الشخصيات الفذة إياهم وهو منتو حوتب الثاني الذي لم يحكم الجنوب فحسب مثل سابقه وجدوده ولكنه استطاع الإطاحة بملوك الشمال الضعفاء في إهناسيا ليصبح مؤسس الأسرة الحادية عشرة بل مؤسس الدولة الوسطى بالكامل ، وإذا اعتبرنا أن مينا مؤسس الدولة القديمة فإن منتو حوتب الثاني هو مؤسس الدولة الوسطى وكان ذلك حوالي سنة 2052 ق م



تمثال الملك منتو حوتب الثاني

ويقول عنه أحمد فخري في كتابه الرائع مصر الفرعونية (ولهذا يري بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولي من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، لكن الإنصاف في البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أي قبل ذلك باتنين وثمانين عاماً³) ويتضح من كلام الأستاذ أحمد فخري أن الأسرة الحادية عشرة الفرعونية كانت علي التوازي مع الأسرة العاشرة ولكن إحداها في الجنوب والأخري في الشمال ، لكن يا سيدي مش مشكلة منذ متي بدأت المهم أنها بدأت وسيطرت وأعدت كل

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 189

² يعتبر الملك منتو حوتب الثاني مؤسس للدولة الوسطى بالكامل ومن الشخصيات البارزة في التاريخ الفرعوني مثل مينا مؤسس الأسرة الأولي وزوسر مؤسس الأسرة الثالثة وسنفرو وخوفر وخفرع ومنكاو رع بناء الأهرام وأشهر ملوك الأسرة الرابعة كما سنذكر أيضاً بعد ذلك إن شاء الله شخصيات علي نفس الوزن في التاريخ الفرعوني مثل أحمس الأول طارد الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة والدولة الحديثة وتحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية وغيرهم - وعلي فكرة معني كلمة منتو حوتب (الإله منتو راضي) مش عارف راضي عن مين بالضبط وعلي فكرة مرة أخري الإله منتو هو إله الحرب عند الفراعنة

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 192

شئ إلي أصله وعاد الفن والبناء والمعمار وعادت الأمجاد وعلي فكرة مكتوب في موسوعة د ناصر الأنصاري (حكام مصر) إن بداية الأسرة الحادية عشرة سنة 2060 ق م واعتبر أن إنيوتف الكبير الأول هو أول واحد في هذه الأسرة واسمه في الموسوعة (انتف الأول) أو (سهرتاوي)¹ أما منتوحتب الثاني فقد ذكره علي أنه الملك الخامس في هذه الأسرة المكونة من ثمانية ملوك وآخرهم الملك منتوحتب الخامس وعلي العموم هذه الأسرة كانت تمهيداً للأسرة الثانية عشرة وهيئت لها الجو للاستقرار والبناء ، وعلي فكرة توجد بعض الرسائل المكتوبة علي أوراق البردي تم العثور عليها وتنتمي إلي عصر الأسرة الحادية عشرة وتحتوي عند تأملها علي معلومات كثيرة عن هذا العصر والمفروض نجيب سيرتها في هذه الدردشة بعد إذن القارئ العزيز ،

رسائل الكاهن الماكر :

ضيفنا الآن في الدردشة هو (الكاهن المزارع "حقا نخت" وهو شيخ شحيح ماكر اضطر إلي السفر إلي الشمال وترك بقية عائلته في طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر الذي كتب له عدة رسائل "تم العثور عليها" تعطينا صورة طريفة من صور المجتمع في هذه الفترة)² ، وهذه مقتطفات قليلة جدا من رسائله بدون تعليق (كيف حالكم في معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم - - إنكم أشبه بمن يأكل حتي يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعاً في البلاد كلها ، لقد نزلت إلي الجنوب وحصلت علي مؤونة لكم بقدر ما استطعت ، أليس النيل منخفضاً جداً ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك - - - فإنكم ترون أنني تمكنت من إعالتكم حتي اليوم - - إن نصف الحياة خير من الموت الكامل - لا يوجد أحد في أي مكان يحصل علي مثل هذه المؤن - - احرثوا الأرض ولا تكفوا عن العمل - ما أسعدكم لأنني أعولكم - -)³

امنمحات الأول وتأسيس الأسرة 12 :

وعلي فكرة حكاية تأسيس الأسر الثانية عشرة حكاية طريفة جداً وبدأت عندما قام آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة علي ما يبدو بتكليف وزيره (امنمحات) بإحضار الأحجار والذي منه لتشييد المعابد وعمل التابوت الخاص به راح عمك امنمحات هذا عامل حملة كبيرة جداً إلي وادي الحمامات لقطع الأحجار وأخذ معه ما يقرب من عشرة آلاف شخص⁴ وطبعاً هذا العدد مبالغ فيه جداً ولا يتناسب مع طبيعة المهمة لأنه كان ناوي علي نية سودة وعايز يعمل إنقلاب علي الملك ويؤسس أسرة حاكمة جديدة باستخدام هذه القوة الكبيرة التي أصبحت تحت قيادته وبالفعل استطاع هذا الرجل أن يسيطر علي البلاد وخصوصاً بعد ان انتشر عدم الاستقرار لمدة سبعة سنوات كاملة بعد وفاة الملك منتوحتب الثالث وعلي فكرة منتوحتب الثالث علي ما يبدو كان آخر الرجال المحترمين في الأسرة 11 ،



امنمحات

وطبعاً الأحفاد كما ذكرنا يضيعون أمجاد الأجداد ، المهم يا سيدي إن عمك امنمحات هذا من الجماعة بتوع تأسيس الدول الكبيرة فقد كانت له شخصية قوية ومسيطرة واستتب له الأمر وأصبح اسمه امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية

1 حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 27

2 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق مقتطفات من صفحة 146

3 صفحة 211 مصر الفرعونية - أحمد فخري

4 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 215

عشرة وأقام عاصمته في الشمال بالقرب من منف¹ وكان مهتم جداً بالإله آمون وأقام له معابد وبالمناسبة الإله آمون هذا هو الإله المحلي لمدينة طيبة ومع ذلك اهتم به وبطيبة جداً لأنها البلد التي نشأ فيها وعاونته علي الاستيلاء علي الحكم وحكم مصر حوالي ثلاثين عاماً كاملة ومات قتيلاً وهو في مخدعه داخل قصره بمؤامرة دبرها أعداءه منتهزين فرصة غياب ابنه سنوسرت في أحد الحملات علي ليبيا وعلي فكرة سنوسرت كان ولي عهده وابنه وشريكه في الملك أيضاً في آخر أيامه ، وكانت عادة بعض الفراعنة إشراك أولادهم في الملك ليتدربوا علي فنون الحكم ، المهم يا سيدي إن الأسرة الثانية عشرة استمرت تحكم مصر ملك بعد ملك وكلهم علي بعض ثمانية ملوك فقط آخرهم واحده اسمها (سبك نفرو رع) كما ورد في كتاب حكام مصر² ، وعلي فكرة هذه الدولة الوسطي كانت من العصور المستقرة والتي انتشر فيها الأمن والأمان والفن والبناء في جميع أنحاء مصر وعم الرخاء البلاد وقد تركت آثاراً خالدة إلي الآن ، وقد استمرت هذه الأسرة تحكم مصر بقوة وحزم ونشاط إلي أن مات آخر الملوك الأقوياء في هذه الأسرة وهو امنمحات الثالث أما امنمحات الرابع والملكة التي جاءت بعده فلم يكونوا علي المستوي الذي بدأت به هذه الأسرة حكمها بل إنهم فقدوا السيطرة وبدأت نهاية هذه الأسرة بعد موت الملكة الأخيرة بل نهاية الدولة الوسطي بالكامل المكونة من أسرتين فقط 11 ، 12 ودخلت مصر مرة أخرى في نفق مظلم وعصر اضمحلال ثاني دخل فيه الهكسوس مصر ولم تقم لمصر قائمة بعد ذلك إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة بعد أن حرر أحمس مصر من الهكسوس وأسس الأسرة الثامنة عشرة ،

ملوك الأسرة 12 :

المهم قبل أن نترك الأسرة الثانية عشرة أود أن أذكر أسماء ملوكها بالترتيب وإليك بعض ما تم كتابته عن هذه الأسرة في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر (حكمت هذه الأسرة ما يقرب من قرنين ، وتتكون من مجموعة من الملوك اشتهروا باسم امنمحات وسنوسرت علي التوالي وهذا هو الترتيب المفضل لملوك هذه الأسرة : امنمحات الأول³ - سنوسرت الأول⁴ - امنمحات الثاني - سنوسرت الثاني - سنوسرت الثالث - امنمحات الثالث - امنمحات الرابع - الملكة سبك نفرو)⁵



امنمحات الثالث

علشان لو سمعت اسم أحد هؤلاء في أي مكان تعرف أنه من هذه الأسرة في الدولة الوسطي التي امتاز عصرها بالرقى في الذوق الفني ومما يؤكد ذلك ما تركته من الحلي التي يتحلي بها النساء الأميرات فيقول عنها أحمد فخري في كتابه

1 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 217

2 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 28

3 لم يكن امنمحات إلا رجلاً عصامياً من الشعب رفعه ذكاه وجده إلي المكان الذي يستحقه - - وكان من بين أساليب رده علي خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات نفرتي المحفوظة الآن في متحف ليننجراد والتي أطنبت في وصف ما سيحل بمصر من فوضى وأن إنقاذها سيتم علي يدي ملك سيأتي من الجنوب يسمى أميني " امنمحات" ابن امرأة من النوبة ويولد في الصعيد سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ويقع الليبيون صرعي أمام لهيبه - - ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة - - وطالت الأيام بأمنمحات حتي وصل حكمه إلي ثلاثين عاماً ولم يقدر له أن يموت وهو في شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو في قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولي عهده وشريكه في الملك سنوسرت ، في حملة علي ليبيا ودبروا مقتله - - ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما من بردية شخص يسمى سنو هي ، أما البردية الثانية فهي معروفة باسم نصائح امنمحات لابنه وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها علي لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلي ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك - - وكانت من أحب الموضوعات الأدبية إلي قلوب المصريين في الدولة الحديثة من الأسرة 18 حتي الأسرة 20 وكانت موضع دراسة كثير من العلماء (هذه المعلومات من صفحة 218 وما بعدها بكتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري)

4 حكم سنوسرت الأول مصر لمدة 43 سنة وعثر علي بقايا أثرية من عهده فيما لا يقل عن 35 منطقة أثرية منتشرة في جميع أنحاء مصر (معلومة من

صفحة 150 بكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق)

5 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة 147 وما بعدها

مصر الفرعونية (وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع)¹ كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار مثل فلسطين وسوريا وبعض جزر البحر المتوسط مثل قبرص وكانت الدول التي ارتبطت بمصر بعلاقات صداقة هي المستفيدة أكثر بهذه العلاقات بطبيعة الحال لأن مصر في ذلك الوقت كانت أعظم الأمم ثقافة وقوة وحضارة في بلاد الشرق القديم علي حد تعبير أحمد فخري أما علي رأي الست أم كلثوم في أغنية طوف وشوف (كان نهار الدنيا ما طلعتش ، وهنا عز النهار) ، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر الأدب والفن ونختم الكلام عن الأسرة الثانية عشرة بما قاله أحمد فخري مع الاحتفاظ بالألقاب في كتابه مصر الفرعونية وتحديداً في الصفحة رقم 240 (وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم) ولكن دوام الحال من المحال والشئ الوحيد بين الناس الذي لا يتغير هو قانون التغير نفسه ، فلقد اندفعت مصر في نهاية حكم الدولة الوسطي إلي عصر الإضمحلال الثاني ووقعت تحت احتلال الهكسوس وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم إن شاء الله (نلتقي بعد الفاصل)

6. الملك نحسي ودخول الهكسوس مصر

نهاية غامضة للأسرة 12 :

عصر الاضمحلال الثاني يبدأ بنهاية الأسرة الثانية عشرة ومع بداية الأسرة الثالثة عشرة وأصل الحكاية إن البيت الملكي للأسرة 12 لم يعد به رجاله علي ما يبدو فتولي الحكم امرأة مكتوب اسمها في الفصل السابق ، هل تتذكره ؟ إنها الملكة (سبك نفرو رع) ويبدو أن ما حدث في هذه الفترة أيام نهاية حكم هذه الملكة غير مدون بدقة في كتب التاريخ ويكاد يكون مجهول فأنا أمامي الآن وأنا أكتب هذه السطور كتابين أحدهما الجزء الرابع من موسوعة سليم حسن والأخر كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري وكلاهما لا يجد سبب واضح لظهور أول ملك في الأسرة 13 فمثلاً يقول سليم حسن في صفحة 4 الجزء الرابع (لم تصل إلي أيدينا معلومات وثيقة عن حال نهاية حكم الملكة سبك نفرو رع آخرة ملوك الأسرة الثانية عشرة ويظن بعض المؤرخون أنها لابد قد تزوجت الملك " سخم رع خوتاوي " وأنه بزواجه منها أصبح ملكاً شرعياً ولكن ليس لدينا ما يدعم ذلك الزعم) بينما في كتاب أحمد فخري صفحة 229 (- - فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذي قضى علي حكم تلك الأسرة وربما علي الملكة أيضاً فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقللة ما لدينا من وثائق)

الأسرتان 13 ، 14 :

ومن هنا يتضح أن السبب الحقيقي غير معروف المهم إن الملك (سخم رع خوتاوي) وصل للسلطة وعلي فكرة اسمه في موسوعة حكام مصر (خوتاوي رع)¹ وعلي فكرة أيضاً ملوك الأسرتين 13 ، 14 مكتوبين مع بعض بدون فاصل في موسوعة حكام مصر وهناك العديد منهم حكموا مصر لفترات قصيرة جداً مما يدل علي أن مصر كان يسودها عدم الاستقرار لكن لفت نظري إن اسم الملك (نحسي) الموجود في عنوان هذا الفصل مكتوب في ذيل قائمة ملوك الأسرة 14 وجاءت بعد اسمه مباشرة أسماء ملوك الهكسوس² ومن المحتمل أن هذا الملك كان علي صلة بالهكسوس وموالي لهم في تقدير بعض المؤرخين لأن من ألقابه التي وجدت في الآثار الفرعونية لقب (حبيب "ست" رب أواريس) والإله (ست) هذا هو الإله المعبود عند الهكسوس أما مدينة (أواريس) فهي عاصمة ملكهم في مصر ، المهم إن هذه الفترة ليست واضحة تماماً وفيها شوية لخبطة حتي أن عدد ملوك هذين الأسرتين يكاد يكون غير معلوم بالرغم أن هناك آثار كثيرة وجدت من هذه الفترة ويبدو أن الهكسوس كانوا موجودين فعلاً في مصر أيام حكم فراعنة هذه الفترة ولكن بشكل غير رسمي لأن سليم حسن يعتقد أن الهكسوس تسربوا إلي مصر ببطء وعلي مهل ونشروا ثقافتهم ومبادئهم ودرسوا البلاد جيداً ثم انقضوا عليها بجيش جرار سيطروا به علي الدلتا فقط في البداية ثم امتد سلطانهم إلي مصر الوسطي³ يعني الجماعة الهكسوس لم يحضروا مصر مرة واحدة ولكن واحدة واحدة وبالراحة خالص حتي تمكنوا من البلاد وحكموها لمدة أسرتين 15 ، 16 وطبعاً لن أشغل بالك يا عزيزي بما تم من أحداث خلال فترات حكم الأسرتين 13 ، 14 لسببين ، أول سبب إن مفيش حاجة مؤكدة وواضحة تماماً مكتوبه عنهم والسبب الثاني إنني مش عايز أوجع دماغك بفترة أجمع المؤرخون علي أنها عصر اضمحلال وضعف لكن أهم حاجة لازم نعرفها إن شاء الله هي حكاية الهكسوس وأصلهم وفصلهم ومن هم ومن أين قدموا وما مدي تأثر البلاد بهم لأن أكيد حدث تطور كبير في ثقافة المصريين بعد تعرضهم لهذا الغزو ودخول الحمام مش زي خروجه كما يقال في الأمثال الشعبية الظرفية ، ومع ذلك يمكن إدراج فترتين عن هذا العصر المضمحل ويمكنك أن تمر عليهما مرور الكرام وتكمل القراءة بعد ذلك أما إذا كنت عايز تعرف معلومات بسيطة عن هذا العصر فيمكنك قراءة ما يلي

¹ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 29

² موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 29

³ مقدمة الجزء الرابع من موسوعة سليم حسن

وصف سليم حسن لبعض مظاهر الضعف في الأسرة 13 :

(- - -) غير أن هذه الهزة القاسية التي هزت أركان الإمبراطورية لم تحدثنا النقوش الباقية حديثاً شافياً يجعلنا نصل إلي كنهها، ومع ذلك فإننا نلمس حقيقتها من اضطراب البيت المالِك فما يكاد الفرعون يستقر في عرشه حتي يعتصب منه الملك ويطرد ثم يتلوّه غيره وتتجدد المأساة ، مما يدل علي أن البلاد كانت منحدرّة نحو الخراب والتدهور المشين ، ولا يبعد أن يكون الملوك الذين يموتون علي فراشهم ميتة طبيعية قلائل جداً¹ كما أشار سليم حسن عن انتشار ظاهرة بيع الوظائف الحكومية فقال (- - علي حسب ما تسمح به الوثائق التي في متناولنا يكشف لنا بعض الشيء عن الحالة الحقيقية لهذه الأزمة التي ارتسمت في عهد الأسرة الثالثة عشرة، وهي أن كبار الموظفين الخاضعين للتاج، وبخاصة الضباط منهم الذين كانوا وقتئذ يغتصبون العرش ، وكانوا يتشاحنون فيما بينهم ، وكان كل منهم يطمح إلي أن يكون الفائز فكان يحل الواحد منهم مكان الآخر دون أن يفوز مغتصب بأن يضمن لنفسه مركزاً ثابتاً أو يفلح في تأسيس أسرة قوية الأركان مدعومة البنيان ، هذا إلي أن كبار رجال الدولة كانوا يبيعون وظائفهم كما تباع السلع ، فلا غرابة في أن يكون العرش كذلك يباع ويشترى لمن في يده قوة وجاه²) (وعلي أية حال فإن ظاهرة بيع وظيفة حكومة بلد من بلدان القطر تدل علي تفكك أو اضرار الروابط الحكومية في البلاد ولا غرابة إذن في أن نشاهد ذلك في عهد الأسرة الثالثة عشرة التي كان ملوكها علي جانب عظيم من الوهن والضعف مما أدى إلي غزو البلاد علي أيد الهكسوس³)

د سيد توفيق يحسب مدة عصر الاضمحلال الثاني :

(تعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة وطوال قرنين أي حتي الأسرة السابعة عشرة للضعف وللانحلال واجتازت فترة أخرى مظلمة⁴ أشد من التي اجتازتها أعقاب الدولة القديمة فتحكم فيها ملوك ضعاف - - - ، من الملاحظ أن فترة الحكم التي أعطاها مانيتون للفترة الانتقالية والتي وصلت في رأيه إلي 1590 عاما والتي قام بالحكم فيها عدد من الحكام وصل عددهم إلي 217 حاكماً تؤكد لنا المصاعب التي واجهت مانيتون عند كتابته تاريخ هذه الفترة وهي المصاعب التي واجهت فريق من العلماء والمتخصصين لمعرفة فترة حكم كل أسرة وعدد ملوكها ، علي أنه أصبح في حكم المؤكد الآن أن الملكة سوبك نفرو آخر ملكات الأسرة الثانية عشرة قد ماتت في عام 1786 ق م كما أن الأبحاث الحديثة أكدت أن الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة تولى الحكم في عام 1567 ق م أي أن الفترة الانتقالية الثانية استمرت ما يقرب من 220 عاماً وهي مقسمة - في رأي هيز - علي الوجه التالي : الأسرة الثالثة عشرة من 1786 ق م إلي 1633 ق م ثم الأسرة الرابعة عشرة حتي سنة 1603 ق م ثم الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة [من الهكسوس] ثم الأسرة السابعة عشرة الوطنية - - ومن هنا نري أن هناك أكثر من أسرة كانت تحكم في جزء من مصر في وقت واحد عندما كانت مصر مفككة العري وليس كما كان يعتقد مانيتون أن كل أسرة من هذه الأسرات كانت تحكم وتتحكم في جميع أنحاء مصر ثم تليها أسرة أخرى جديدة وهكذا - وغزا الهكسوس مصر في الأسرة الخامسة عشرة وأطلق عليهم العالم الألماني أوتو اصطلاح الهكسوس الكبار فقد أعطوا لأنفسهم الحق بالاحتفاظ بالألقاب الملكية المصرية ويبدو أنهم استطاعوا في البداية السيطرة علي جميع أنحاء مصر وانتشرت اسمائهم - ونخص بالذكر هنا الملك خيان والملك أبوفيس من النوبة إلي فلسطين ثم بعد ذلك أتت مجموعة أخرى من حكام الهكسوس أطلق عليهم نفس العالم اصطلاح الهكسوس الصغار أو الضعاف وهم الذين ينتمون للأسرة السادسة عشرة ولم يستطع هؤلاء السيطرة علي جميع أنحاء مصر إذ قام في هذه الفترات بيت حاكم قوي في الصعيد اتخذ من طيبة مقراً له وأسس الأسرة السابعة عشرة وأخذ علي عاتقه تحرير مصر من الهكسوس - - قلنا أن

¹ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الرابع صفحة 50 ، 51

² موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الرابع صفحة 52

³ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الرابع صفحة 45

⁴ لا أدري ما هو المقصود بالفترة المظلمة هل لأن الفرعون فقد سيطرته وعبوديته في مصر بالكامل أم لعدم وجود آثار رائعة باقية من تلك الفترة أم لأن الشعب المصري تخلص من قهر الحكومة المركزية أم لعدم وجود استقرار للعرش أم لوجود احتلال لا ندري هل كان أرحم بالشعب من الفرعون نفسه أم كان أكثر قسوة ويبدو أن مفهوم العصور المظلمة والعصور الزاهرة له علاقة وثيقة بعبادة الفرعون نفسه فكلما كان الفرعون شديد القوة والبطش والسيطرة والبناء والتشييد للمقابر والمعابد الخاصة به وبكبار رجال دولته وكهننته كلما وصف المؤرخون عصره بالعصر الرابع الزاهر

الفوضى بدأت تسود مصر في الفترة التي بدأت تظهر في غرب آسيا حركة هجرة قبائل واسعة تنتمي إلي العنصر الهنود أوروبي وقد وصل أثرها إلي مصر وبدأت تشعر بها في أوائل الأسرة الرابعة عشرة وذلك بعد أن استقرت هذه القبائل في سوريا وفلسطين وأخذوا بمظاهر الحضارة السامية الموجودة هناك وعرفوا في التاريخ باسم الهكسوس¹)

من هم الهكسوس ؟ :

المهم يا سيدي إن الهكسوس كتب عنهم الفراعنة أنفسهم بعد ذلك ووصفهم بأوصاف تعبر عن مدى استياءهم الشديد منهم فقالوا عنهم الرعاة البدو وقالوا عنهم الطاعون أما كلمة هكسوس نفسها فتعني (حكام الأقاليم الأجنبية) وهو المعني المقبول تفسيره من وجهة نظر سليم حسن في موسوعته (صفحة 1 بالجزء الرابع) ، وكان عدد ملوكهم الذين حكموا مصر 23 ملكاً تقريباً² منهم ثمانية ملوك لقبوا أنفسهم بلقب الإله الطيب وستة ملوك لقبوا أنفسهم بلقب ابن الشمس وقد تركوا آثاراً موجودة إلي الآن وكان الثلاثة وعشرين ملكاً موزعين علي أسرتين 15 ، 16 وكانت عاصمتهم في أوارييس في الوجه البحري طبعاً وكانوا يقدسون الإله (ست) الذي يعتبره المصريون القدماء إله سئ السمعة³ بالذمة ده كلام يا جدعان هل يوجد إله سئ السمعة ؟ أعوذ بالله من كل هذا الكلام الفارغ ، المهم يا سيدي إن الهكسوس أو الرعاة عبارة عن شعوب من البدو جاءت من الشرق واستوطنت البلاد لمدة 150 سنة تنشر ثقافتها في مصر إلي أن جاءت الأسرة السابعة عشرة الفرعونية وظلت تقاومهم وتحاربهم حتي نجح أحسن في طردهم من البلاد وأسس الأسرة 18 بل إنه أسس دولة جديدة فرعونية تسمى عصر الدولة الحديثة ، لكن في الحقيقة توجد معلومة غريبة جداً قرأتها ومتردد في أن أكتبها في هذه الدردشة لكن عندما تذكرت أنك صديق عزيز ومفيس تكليف وحتى إذا لم تكن صديق عزيز من قبل فإن صبرك علي القراءة إلي الآن يجعلك صديق غير عادي بالنسبة لي ،

معلومة غريبة :

المهم إن هذه المعلومة أنكراها بشدة سليم حسن برغم أنه ذكرها منسوبة إلي صاحبها وبالرغم من إنكار هذه المعلومة وعدم صحتها إلا أنها تدل علي أمور كثيرة جداً ، هل أنت جاهز لهذه الصدمة الرهيبة ؟ المعلومة يا سيدي بتقول إن اليهود والهكسوس هما عنصر واحد والذي قال هذه المعلومة طبعاً مؤرخ يهودي عاش خلال القرن الأول من الميلاد واسمه (فلافيوس يوسفس) ويقول سليم حسن عن هذا الموضوع (-- وقد كان غرض يوسفس الأول فيما نقله عن مانيتون العمل جهد الطاقة في الرفع من شأن قومه اليهود الذين كان يحقرهم كتاب الإغريق ويحطون من شأنهم)⁴ ، شفت إزاي إن الرجل المؤرخ اليهودي عايز يلعب في التاريخ وكمان عايز ينسب هذه المعلومات إلي المؤرخ المصري مانيتون وبمناسبة الكلام عن اليهود أنا شايف إن لازم نوضح بعض المعلومات عنهم وعن نشأتهم في فصل خاص لإن الكثير من هذا الجيل لا يعرف قصة (بني إسرائيل وبني اسماعيل) إذا جاز التعبير أي بني إسرائيل والعرب المستعربة وعلاقتهم ببعضهم ببعض ونسبهم إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام ومتي كان ذلك وعلاقته بالفراعنة ،

حكاية الهكسوس :

وقد اخترت لك بعض ما كتبه أحمد فخري عن الهكسوس حيث قال (-- ولا جدال في أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم المختلفة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلي مصر فلما ضغط عليهم غيرهم هاجروا إلي وادي النيل وحملوا معهم كثيراً من عاداتهم ومظاهر ثقافتهم)⁵ ويقول عنهم أيضاً أنهم ليسوا من شعب واحد وإنما من شعوب متعددة وأغلب الظن أنهم من جنس هندو - أوروبي نزل في أواسط آسيا ثم تجمعوا في فلسطين وهاجروا إلي مصر وسيطروا عليها تقريباً وليس بالكامل ، أما ما قاله مانيتون المؤرخ المصري القديم (في عهد الملك توتيميائوس ولا أدري السبب في ذلك أصابتنا ضربة من الله ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة 163 وما بعدها

² موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 31

³ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 67

⁴ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 57

⁵ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 255

الثقة في النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا علي حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالي بعداء قاس فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماءاً وعبداً لهم¹ كما ذكر مانيتون أيضاً أن ملوك الهكسوس عددهم موزع علي ثلاثة أسر مختلفة تتكون الأسرة الأولى من ستة ملوك والثانية من اثنين وثلاثين ملكاً والثالثة من ثلاثة وأربعين ملكاً² وكل هذه المعلومات تؤكد أن هذه الفترة كثرت عنها الأقاويل والأرقام المتناقضة مما يدل علي غموضها ، وعلي فكرة يعتبر الملك (أبوفيس) هو أشهر ملوك الهكسوس لما له من آثار تدل علي ذلك والله أعلم ، كذلك الملك (خيان) وقد عثر لهذا الملك علي آثار في أماكن متعددة منها سوريا وفلسطين وليس معني هذا أنه كان مسيطراً علي هذه البلاد ولكن ربما قد تم نقل هذه الآثار لأنها خفيفة وصغيرة (ويسهل حملها من مكان إلي مكان)³ وأغلب الظن أن الفراعنة كانوا في هذه الفترة يعيشون في طيبة في جنوب مصر ويدفعون الجزية لملك الهكسوس في الشمال طوال فترة حكمهم للبلاد

الكفاح ضد الهكسوس :

ثم بدأ النزاع بين الفريقين مع ظهور ما يسمى الأسرة السابعة عشرة في طيبة وقد يكون السبب المباشر للحرب وصول رسول من ملك الهكسوس إلي الملك المصري (سقنن رع) في طيبة يطلب منه طلبات سخيفة غير قابلة للتنفيذ وتمس العقائد الدينية لدي الفراعنة ومن هذه الطلبات إسكات أفراس النهر الموجودة بالبحيرة المقدسة بطيبة بالجنوب لأن صوتها يزعج ويقلق نوم الملك (أبو فيس) في عاصمة الهكسوس في الشمال وطبعاً هذا اسمه بدون لف ولا دوران (جر شكل) كما أنه طلب أن يتم عباده الإله (ست) في طيبة وكانت هذه الرسالة بمثابة الدبور الذي زن علي خراب عشه كما يقال لأن أسرة سقنن رع بدأت في حروب رهيبة مع الهكسوس الغزاة وبالرغم من فشل المحاولات الأولى التي قادها سقنن رع ثم ابنه (كامس) إلا أن أحمس استطاع أن يقهرهم بل إن سقنن رع نفسه تم قتله في أحد هذه المعارك ببشاعة وعندما تشاهد صورة المومياء الخاصة به ستجد العديد من الجروح والطعنات في وجهه وجسمه



وقد أصيب علي ما يبدو بهذا الشكل نظراً لأنه كان يتقدم الصفوف بشجاعة نادرة ليكون مثلاً في الكفاح لجنوده وعلي فكرة يوجد كتاب رائع لنجيب محفوظ اسمه " كفاح طيبة " وهو عبارة عن رواية تاريخية تتحدث عن الصراع بين أمراء طيبة (الأسرة 17) وبين الهكسوس من أيام سقنن رع وحتى أحمس المهم إن صورة جثة سقنن رع حاجة تقطع القلب وبالمناسبة فإن سقنن رع وكامس وأحمس هم أشهر ملوك الأسرة السابعة عشرة التي كافحت الهكسوس وقد سبقهم ملوك آخرين في هذه الأسرة ولكنهم كانوا يدفعون الجزية علي ما يبدو لملوك الهكسوس وكافيين خيرهم شرهم ، المهم يا سيدي إن الجماعة الهكسوس سابوا البلد ومشبوا بعد أن تعرضت البلاد لذل الاحتلال الأجنبي وهذا الذل نلاحظه بوضوح فيما كتبه عنهم المؤرخ المصري القديم (مانيتون) لأنه كان يشعر بمرارة شديدة عندما كتب عنهم وبالمناسبة قام الهكسوس بإضافة ثقافة جديدة للبلاد واستفادت منهم البلاد علي ما يبدو في موضوع استخدام الخيول والعربات الحربية ونختم كلامنا عنهم بما قاله أحمد فخري (- - -) وظلت هذه المرارة في نفوسهم لم يقض عليها الزمن حتي فيما كتبه مانيتون عن طردهم من

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 253

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 259

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 260

مصر بعد نحو 1300 عاماً بل وحتى الآن وبعد مضي أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عاماً لازال المصريون يلعنونهم كما لعنهم أجدادهم كلما مروا في دراستهم للتاريخ القديم بهذه الفترة من تاريخ بلادهم¹

7. بنی اسرائیل وعلاقتهم بالفراغة

إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام :

هذا الفصل من الدرشة محشور وسط فصول عصر الفراغة وليس هذا معناه أن التسلسل الزمني للأحداث يفرض ذلك بل إنه لا يوجد تاريخ معروف علي وجه الدقة لدخول بني إسرائيل مصر عندما كان سيدنا يوسف بها (عليه السلام) ولكن المؤكد في هذا الموضوع أنهم مكثوا بمصر حتي خروجهم مع سيدنا موسى عليه السلام يعني سيدنا يوسف أدخلهم وسيدنا موسى أخرجهم ولكن من هم وكم كان عددهم عند دخول مصر وعند الخروج ؟ هذا هو موضوعنا في هذا الفصل ، وفي الحقيقة إن بداية القصة تعود إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ولد ببابل¹ وتزوج من السيدة سارة التي كانت عاقراً لا تلد ثم هاجر من بابل إلي فلسطين (الأرض المقدسة) وقد يكون تزوج من السيدة سارة بعد أن هاجر ، ومعروف طبعاً عن سيدنا إبراهيم أنه حطم الأصنام وأنه واجه النمرود ملك ذلك العصر (بفرض أن اسمه نمرود) والذي كان يقول أنا أحيي وأميت وقد تم إلقاءه عليه السلام في حفرة من نار وأحاطه المولي عز وجل برعايته كما أنه خليل الله وصاحب لسان صدق في العالمين كما أنه عليه السلام أبو جميع الأنبياء الذين جاءوا بعده لأن الله سبحانه وتعالى جعل في ذريته النبوة والحكمة ، وطبعاً ليس هذا مقام الحديث عن مناقبه عليه السلام وإنما نريد إلقاء الضوء علي ذريته ببساطة شديدة لتتعرّف علي أبناءه وأحفاده وظروف نشأتهم وأماكن تواجدهم بعد ذلك لكي نقف علي ما نريد من معلومات تخص بني إسرائيل وبني اسماعيل وعلي فكرة كان سيدنا لوط عليه السلام علي صلة قرابة بسيدنا إبراهيم وآمن له ويقول المولي عز وجل عنهما ﴿وَوَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾² وهذه الأرض التي باركها الله سبحانه هي منطقة القدس الشريف وما حوله والله أعلم ،

سيدنا اسماعيل وأمه بجوار البيت الحرام :

والمعروف أن سيدنا إبراهيم جاء إلي مصر مع زوجته سارة وعاد ومعه السيدة هاجر المصرية وكانت جارية ورزقه الله من هاجر مولوداً ذكراً هو سيدنا اسماعيل عليه السلام وهو يعتبر أكبر أبناءه ثم ذهب بهاجر وإسماعيل إلي مكان بيت الله الحرام وتركهما متوكلاً علي الله ودعا لهما وللمكان ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾³ ومن المؤكد أن سيدنا إبراهيم قام بزيارة السيدة هاجر وابنها اسماعيل بعد ذلك وكلنا يعرف قصة رفع القواعد من البيت الحرام وكذلك قصة الذبح ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾⁴ ونعلم جميعاً أن المولي عز وجل فداه بذبح عظيم وظل اسماعيل علي قيد الحياة وبالرغم من أنني علي ثقة من أنك عزيزي القارئ علي علم بهذه المعلومات إلا أنني أقوم بربط الأحداث وإبجازها فقط لتتضح الصورة أمامك ، المهم إن سيدنا اسماعيل ظل في مكة ووهبه الله الذرية عندما تزوج من العرب العاربة وأصبح أولاده وأحفاده يشكلون ما يسمى بالعرب المستعربة والفرق بينهما أن العرب العاربة هم الذين كانوا يسكنون الجزيرة العربية قبل مجئ سيدنا اسماعيل عليه السلام مثل قبائل جرهم والعماليق أما العرب المستعربة فهم أبناء وأحفاد سيدنا اسماعيل أنفسهم ويعتبر سيدنا اسماعيل عليه السلام الجد الأكبر لهم وجدير بالذكر أن قبيلة قريش (قوم رسول الله صلي الله عليه وسلم) يعود نسبها إلي سيدنا اسماعيل عليه السلام ، نترك الآن سيدنا اسماعيل في مكة ليؤسس مع أبناءه وأحفاده هذه القبائل والبطون بجوار بيت الله الحرام (الحرم الآمن) ونعود إلي سيدنا إبراهيم والسيدة سارة زوجته

¹ قصص الأنبياء (الإمام الحافظ ابن كثير) ص 105

² سورة الأنبياء (71)

³ سورة إبراهيم (37)

⁴ سورة الصافات (102)

من افتراءات اليهود :

وعلي فكرة اليهود طبعاً لم يتركوا هذه القصة في حالها ولكنهم زعموا أن سيدنا ابراهيم ذهب بهاجر وابنها بعيداً عن سارة لأنها كانت تشعر بغيرة من الجارية التي أنجبت بينما هي لا تلد¹ فاضطر إلي إبعادها لهذا السبب ولكن طبعاً هذا الكلام كله لا أساس له من الصحة لأن السبب الرئيسي لما فعله هو امتثالاً لأمر المولي عز وجل والذي كان سبباً في تعمير بيت الله الحرام وإنشاء حياة حوله وليس كما يدعي بني اسرائيل أو بعضهم بل إن بعضهم يدعي أن الذبيح ليس اسماعيل بل اسحق وكل هذا لا أساس له من الصحة والله أعلم .

السيدة سارة تنجب إسحاق عليه السلام :

المهم يا سيدي إن السيدة سارة أنجبت بمعجزة إلهية كما نعلم جميعاً وكان عمرها تسعين سنة² مولوداً ذكراً وهو سيدنا اسحق عليه السلام ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾³ يعني ممكن نقول إن سيدنا اسماعيل وسيدنا اسحق إخوة عليهما السلام ومن أب واحد وهو سيدنا ابراهيم عليه السلام وبعد ذلك أنجب اسحاق سيدنا يعقوب بمعنى أن سيدنا اسماعيل هو عم سيدنا يعقوب ويعتبر سيدنا يعقوب هو حفيد سيدنا ابراهيم عليهم السلام جميعاً ولاحظ معي يا صديقي إنني أقوم بتفصيل ذلك واحدة واحدة ويمكن كلامي يكون ممل شوية لكن أنا عايز الموضوع يكون شديد الوضوح وأهم ما في الموضوع إن سيدنا يعقوب هو نفسه سيدنا اسرائيل أي أن يعقوب وإسرائيل شخص واحد له اسمين وهو أيضاً كما نعرف جميعاً والد سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته أي أن بني اسماعيل من أحفاد السيدة هاجر وبني اسرائيل من أحفاد السيدة سارة ونعلم جميعاً أن سيدنا يوسف وجه دعوة إلي أبيه وإخوته وأسرته بالكامل للحضور إلي مصر بعد أن مكن له الله فيها ﴿فَلَمَّا نَحَلُّوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ انْخَلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾⁴ وكانت هذه العائلة الصغيرة المكونة من أب وأبناء وزوجاتهم وأبناءه هم هي النواة الأولى لبني اسرائيل في مصر في ذلك الوقت بمعنى أن اسماعيل وأبناءه كانوا في مكة واسرائيل وأبناءه كانوا في مصر في تلك الفترة وكلاهما يعود نسبه إلي سيدنا ابراهيم كما ذكرنا ،

بني اسرائيل في مصر :

ولكن متي تم دخول بني اسرائيل مصر أو بمعنى أدق متي دخل اسرائيل (يعقوب) وأولاده مصر ؟ بعد فترة من بيع سيدنا يوسف بها وما علاقة ذلك بالعصر الفرعوني ؟ في الحقيقة إن هذا حدث بالتأكيد قبل عصر فرعون موسي بزمن طويل لأنه من المعروف أن الفراعنة كانوا علي علاقة سيئة جداً ببني اسرائيل وكانوا يقتلونهم ويستحيون نساءهم ويستعبدونهم ويستخدمونهم في الأعمال الدنيئة والحقيرة وكان عددهم كبير جداً وقد أصبحوا اثني عشر سبطاً أو قوماً بعدد أبناء سيدنا يعقوب (اسرائيل) بما فيهم سيدنا يوسف نفسه لأن عدد أبناء سيدنا يعقوب 12 ولد منهم سيدنا يوسف وبالتالي نسل كل واحد منهم أصبح فيما بعد مجموعة كبيرة جداً من البشر وبالمناسبة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما يذكر سيدنا يوسف يقول (الكريم ابن الكريم ابن الكريم)⁵ يقصد بذلك (يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم) عليهم جميعاً وعلي نبينا الصلاة والسلام ، وبالمناسبة أيضاً أحفاد سيدنا اسحاق الذين يطلق عليهم وعلي ذريتهم الأسباط يقول عنهم ابن كثير في كتاب قصص الأنبياء أنهم ليسوا جميعاً من أم واحدة فقد أنجب سيدنا يعقوب من أربعة نساء (أختين هما ليا وراحيل وجاريتيهما) بمعنى إن سيدنا يعقوب تزوج من أختين واحدة اسمها "ليا" والثانية اسمها "راحيل" ولم يكن هذا محرماً في شريعتهم في ذلك الوقت وأنجب من الأختين ، وكانت لكل واحدة فيهم جارية تملكها (أمة) ووهبتها لزوجها يعقوب وقد أنجب سيدنا يعقوب من الجاريتين أيضاً ، ونقول مرة أخرى للتأكيد أن يعقوب هو نفسه إسرائيل وورد كلا الاسمين في القرآن الكريم ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ

1 قصص الأنبياء (ابن كثير) ص 123

2 قصص الأنبياء (ابن كثير) ص 172

3 (112) سورة الصافات

4 (99) سورة يوسف

5 قصص الأنبياء (ابن كثير) ص 179

النُّورَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالنُّورَةِ فَآتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (93) سورة آل عمران ، **﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** (132) سورة البقرة
أحفاد سيدنا إسحاق :

يقول الإمام ابن كثير رضي الله عنه (وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن " ليا " روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وإيساخر وزيلون ومن "راحيل" يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالي ومن أمة ليا حاد وأشير)¹ ومن هؤلاء جاء شعب بني اسرائيل بالكامل واعتقد والله أعلم أن هذا الشعب يتبع نظرية نقاء العنصر وهذه النظرية تمنع الزواج من عناصر وشعوب أخرى وبالتالي ظل بني اسرائيل يتناسلون دون أن يدخل بينهم أي عنصر من أي شعب آخر علي ما يبدو والله أعلم وهناك خلط واضح يحدث دائماً بين بني اسرائيل والديانة اليهودية فعندما نتكلم عن الشعب الإسرائيلي نقصد به هذه العائلة الضخمة التي استعرضنا جذورها منذ قليل وفي نفس الوقت نقصد بهم من يعتنقون الديانة اليهودية وهذا خطأ شائع لأن بني إسرائيل كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالى لفترة طويلة قبل ظهور الديانة اليهودية بل كانوا الشعب الوحيد علي الأرض الذي يعرف الله سبحانه وتعالى وكان منهم العديد من الأنبياء **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** (47) سورة البقرة ، وكان بنو إسرائيل يطلقون علي أنفسهم شعب الله المختار 0
بني إسرائيل والأنبياء :

وقد كان في بني اسرائيل العديد من الأنبياء بل يكاد لا يخلوا عصر من عصورهم من وجود نبي مرسل وآخر أنبياء بني اسرائيل هو سيدنا عيسي عليه السلام الذي بشر بنبي يأتي من بعده وقد توقع بني اسرائيل أن هذا النبي سيأتي من ذرية بني اسرائيل ولكنه صلي الله عليه وسلم جاء من ذرية سيدنا اسماعيل وإذا ضربنا أمثلة علي أسماء بعض أنبياء بني اسرائيل سنجد طبعاً سيدنا يوسف عليه السلام وسيدنا موسى وسيدنا داوود وسيدنا سليمان وسيدنا زكريا وسيدنا يحيي عليهم جميعاً السلام ولم يبعث المولي عز وجل من ذرية اسماعيل نبي غير سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خاتم الأنبياء جميعاً ، بمعني أن كل الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم كانوا من نسل إسرائيل عدا خاتم الأنبياء فمن نسل إسماعيل صلي الله عليهم أجمعين ، وبالتالي نجد العديد من الأنبياء من بني إسرائيل **﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولنا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾** (32) سورة المائدة **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾** (70) سورة المائدة
توقيت دخول بني إسرائيل مصر وخروجهم منها :

ومما سبق يتضح أن شعب بني اسرائيل عاصروا في بدايتهم عصور الدولة الفرعونية وأغلب الظن أنهم دخلوا مصر بناءً علي دعوة يوسف عليه السلام في عصر الهكسوس ويستدل علي ذلك من القرآن الكريم والله أعلم حيث أن المولي عز وجل عندما يذكر حاكم مصر يقول عنه فرعون أما حاكم مصر الذي ذكر في عهد يوسف عليه السلام فقال عنه المولي عز وجل (الملك) وليس (الفرعون) ونقرأ في سورة يوسف **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنَعٌ عِجَافٌ﴾**² بل إن من أدلة ذلك أيضاً أن يوسف وعائلته كان لهم وضع ومكانه خاصة ومرموقة في مصر في ظل احتلال الهكسوس وعندما طرد الفرعنة الهكسوس اضطهدوا بني اسرائيل علي اعتبار أنهم أعوان الاحتلال والله أعلم كما أن السيدة هاجر كانت قبل تلك الفترة عندما ذهب بها سيدنا ابراهيم من مصر كانت جارية مصرية وطبعاً المصريات لم يكن جوارى إلا في عهد الاحتلال وهذا قد يفسر دخول سيدنا ابراهيم نفسه مصر في عصر الهكسوس وبالتالي دخل حفيده سيدنا يعقوب وأبناءه في عصر الهكسوس أيضاً أثناء وجود سيدنا يوسف بها ثم تم استعبادهم بعد ذلك بفترة عصر الفرعنة الذي تلي عصر الهكسوس وعلي العموم كلها مجرد آراء ولا يوجد ما يؤكد بشكل قاطع توقيت دخول بني اسرائيل مصر وفي أي عصر

¹ قصص الأنبياء (ابن كثير) ص 176

² (43) سورة يوسف

من العصور الفرعونية وأغلب الظن أن هذا الاستبعاد تم في عصر الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بعد طرد الهكسوس مباشرة وقد لا تتدهش يا صديقي إن ذكرت لك اسم رمسيس الثاني أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والذي يعتقد البعض أنه فرعون موسى وهذا يربط الأحداث التي ذكرناها طبقاً للسياق الزمني ويزيد في احتمالية ذلك أن بني اسرائيل إذا عدنا لما ذكرناه عن المؤرخ اليهودي الذي أشار إلي أن الهكسوس واليهود عبارة عن عنصر واحد بالرغم من أنها معلومة غير صحيحة إلا أنها تشير علي الأقل إلي أن كل منهم كانوا في فترة زمنية واحدة ، المهم يا سيدي أنا حاسس إنني أظلت عليك شوية بل شويتين في هذا الموضوع ، لكن كان لازم ندرش عن بني اسرائيل وعلاقتهم بالفراعنة وطبعاً يكفي أن تقرأ سورة يوسف (أحسن القصص) وتقرأ سورة البقرة والسور الأخرى التي تتحدث عن هؤلاء القوم وعن ما دار بينهم وبين أنبياءهم

{وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} (4) سورة الإسراء
بنى إسماعيل فى مكة :

أما بنى إسماعيل فظلوا علي ملة ابراهيم لفترة طويلة من الوقت حول البيت الحرام ثم بعد أن مات إسماعيل بفترة كبيرة انتشرت الأصنام حول الكعبة بحجة أنها تقربهم إلي الله وظهرت الوثنية بينهم إلي أن بعث الله نبيه محمد صلي الله عليه وسلم ليحطم هذه الأصنام وينشر الحق في كل مكان بل إن بعض من بني اسرائيل كانوا يسكنون المدينة في ذلك الوقت وكانوا في انتظار النبي الذي سيرسله الله وكانوا يعتقدون أنه سيكون من بينهم من نسل إسرائيل فلما بعث الله نبيه من نسل إسماعيل كفروا بما عرفوا من الحق كما نعلم جميعاً **{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (89) سورة البقرة** وقد آمن منهم القليل بل آمن من كبار علماءهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم

ملخص تاريخ بنى إسرائيل :

وخلصة القول عن بنى اسرائيل في هذه الدردشة أنهم عائلة كبيرة يعود نسبها إلي سيدنا يعقوب عليه السلام ودخلوا مصر في ظل سيدنا يوسف عليه السلام ثم تكاثروا بها إلي أن خرجوا مع سيدنا موسى عليه السلام وقد تمكنوا من إنشاء مملكة لهم في أورشليم في عهد نبي الله داوود عليه السلام كما سيأتي الكلام عنها في حينه وظلت فترة من الزمان ثم انهار ملكهم بعد ذلك علي يد ملك بابل (بختنصر) وتشتتوا في البلاد في انتظار وعد الآخرة وعلي أمل إعادة تأسيس دولة جديدة **{وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}¹** وجدير بالذكر أن بنى اسرائيل عندما خرجوا من مصر مع سيدنا موسى كان عددهم كما يقول ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء وتحديداً في صفحة 272 (وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوي الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ) انتهى كلام ابن كثير وطبعاً هذا الكلام نقله ابن كثير من كتابهم أي من الإسرائيليات ومهما كانت المبالغة في هذه الأرقام فإن من المؤكد أن عددهم كان كثيراً جداً بالنسبة لبدأيتهم في مصر مع سيدنا يوسف عليه السلام بفرض أنهم أقاموا في مصر خلال الأسرات الفرعونية من الخامسة عشرة إلي التاسعة عشرة وهو مجرد فرض

المقام الكريم :

ولكن هناك ملحوظة أريد أن تلاحظها معي خارج هذا الموضوع وهو الحديث عن مصر في كتاب الله سبحانه وتعالى عندما وصف مصر لحظة خروج بنى اسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده **{فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}²** فتخيل معي عندما يصف الخالق عز وجل مصر بالمقام الكريم وكيف لنا أن نجد وصفاً أفضل من كتاب الله سبحانه وتعالى فهذا يؤكد مما لا يدع مجالاً للشك روعة وجمال هذه الأرض في ذلك الوقت في عهد فرعون موسى عليه السلام ولكن من هو هذا الفرعون الذي أبقى المولي عز وجل علي جثته لتكون آية لمن خلفه وإذا تأملنا وفحصنا عن جثث ملوك

¹ الإسراء 104

² الشعراء 57 ، 58

الفراعنة في تلك الفترة التقريبية سنجد أن هناك العديد من جثث الملوك المحنطة وموجودة إلي الآن ويتم عرضها في المتاحف لناخذ منها العبرة لا لكي ننبهر بها ولا بد أن من بينها جثة هذا الفرعون وسبحان من له الدوام **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾¹**

زوجة فرعون والدار الآخرة :

وقبل أن نختم الكلام عن هذا الموضوع لا بد أن نتكلم عن زوجة فرعون التي دعت الله سبحانه أن يبني لها بيتا في الجنة وينجيها من فرعون **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (11)** سورة التحريم ، فهي لم تكن مقتنعة بما يفعله الفراعنة من مقابر وتحنيط وخلافه بل إنها تعلم جيداً أن تعمير البيت في الدار الآخرة يكون بالإيمان والعمل الصالح وليس بتزيين القبور بالنقوش وتحنيط وحفظ الجثث بها وكما قال الشاعر

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها - - إلا التي كان قبل الموت يبنيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه - - وإن بناها بشر خاب بانيها

والمهم إن الفراعنة لم يعرفوا شيئاً بالطبع عن هذه الأبيات ولكنهم طبقوها تطبيقاً مادياً بحتاً حيث قاموا بإعداد قبورهم التي يسكنوها بعد الموت إعداد خاص ووضعوا بها الكنوز والذهب وما إلي ذلك ولن ينفعهم كل ما وضعوه في قبورهم فلا ينفع الإنسان بعد الموت إلا الإيمان والعمل الصالح ورحمة الله الواسعة ، نلتقي إن شاء الله علي خير في الفصل القادم لنتكلم عن الإمبراطورية المصرية الفرعونية وعهد الدولة الحديثة وبداية الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس بعد طرد الهكسوس من مصر (ابقوا معنا)

8. الإمبراطورية المصرية الفرعونية

وساوس شخصية :

في الحقيقة لم أكن أتصور أنني في هذه الدردشة أكتب كل هذه الصفحات عن الفراعنة وأيامهم وكنت متصور أنني سأمر مرور الكرام علي العصر الفرعوني بل وأيضاً علي العصور التي تليه ولكنني برغم تناولي للقشور فقط عن هذا العصر وبرغم السطحية الشديدة في تناول الأحداث إلا أنني لم أنتهي بعد من الدردشة عن الفراعنة بل إنني لم أصل إلي أهم فترة في تاريخهم وهي فترة تكوين الإمبراطورية المصرية وبالتالي سأحاول جاهداً أن أتناول الأحداث بسطحية أكثر فقد لا يسعني الدهر علي إكمال هذه الدردشة ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك بوساوسي الشخصية فإن هذا الفصل سنتحدث فيه معاً عن الإمبراطورية المصرية الضخمة التي تم تأسيسها خلال عصر الدولة الحديثة الفرعونية

الأسرة السابعة عشرة :

وقد ذكرنا أن ملوك الأسرة السابعة عشرة كانوا عايشين في حالهم في طيبة في الجنوب يدفعون الجزية إلي ملوك الهكسوس في أواريس في الشمال إلي أن استفزهم الهكسوس وطلبوا منهم طلبات غير منطقية ولا يمكن تحقيقها وتمس العقيدة الدينية لهم وما أدراك ما العقيدة الدينية ، فمن أجلها تحرك الجيوش وتفني الأنفس وتهون التضحيات ، المهم إن ملوك الأسرة 17 دخلوا في صراع رهيب مع الهكسوس بدأه الملك (سقنن رع) إلي أن قتلوه ثم استكمل الكفاح الملك (كامس) وأخيراً الملك (أحمس الأول) الذي نجح في طرد الهكسوس من البلاد بالكامل بل قام بتأسيس أسرة جديدة وهي الأسرة 18 وكانت بداية عصر الدولة الحديثة وأمجادها

أحمس يؤسس الأسرة 18 والدولة الحديثة :

وبالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقنن رع فإن المؤرخ المصري القديم وضعه كما سبق القول علي رأس عائلة جديدة¹ وكانت فترة حكمه 24 سنة² وبالمناسبة هذه الأسرة كانت تقديس إله القمر ويتميز عصرهم بأن النساء أصبح لهن دور كبير في البلاد وأول شخصية نسائية لمعت في هذه الأسرة هي الملكة (تتي - شري) وهي أم سقنن رع يعني تعتبر جدة أحمس الأول وكان لها دور علي ما يبدو في إشعال روح القتال ضد الهكسوس في أبناءها وأحفادها وكانت محبوبة من الجميع وقد ظل أحمس وفتياً لذكري جدته إلي آخر سنة في عمره حيث أقام لها مقبرة وكتب عنها لوحة خالدة وكانت هناك سيدة أخرى اسمها (إجح حوتب) طبعاً مش عارف تقرأ اسمها المكلع لكن هذه السيدة كان لها دور كبير في الحرب ضد الهكسوس وهي أم الملك أحمس³



الملك أحمس الأول

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 271

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 272

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 274

أما السيدة الثالثة فكانت (أممس نفرتاري) وهي أخت أممس وكامس وقد تزوجت من كامس ثم من أممس¹ بعد موت كامس وعلي فكرة كان عادي جداً إن الملك يتزوج من أخته في هذه العصور وعلي فكرة أيضاً كلمة أممس تعني (ولد القمر) وتمشي مع المذكر والمؤنث كامس ، المهم إن أممس الأول بصفة عامة كان بطل التحرير بلا منازع والظريف إن كان هناك واحد ثاني اسمه (أممس ابن إيانا) وكان أحد أبطال حرب التحرير وترك لوحات تشير إلي انتصاراته وأمجادته أثناء المعارك وقد قام بتكريمه الملك أممس الأول لشجاعته وأعماله الحربية أثناء المعارك

معارك أممس ضد الهكسوس :

وجدير بالذكر أن الحرب التي انتصر فيها أممس الأول علي الهكسوس كانت طويلة المدة حيث أنهم تحصنوا في مدينتهم أوريس ووقعوا تحت الحصار لفترة ليست بالقليلة لأن الهكسوس تميزوا في أعمال التحصينات والاستحكامات الدفاعية كما أنهم أول من استخدم الخيول والعربات الحربية في مصر وتعتبر من الأسلحة المتطورة في ذلك العصر ويقول سليم حسن عن ذلك (والواقع أن الهكسوس كانوا يعتبرون منذ زمن بعيد أنهم الذين جلبوا هذه العناصر الجديدة الهامة من المدنية إلي مصر)² فكما ذكرنا أن الهكسوس أضافوا إلي مصر بحضارتهم وثقافتهم وأخذ منهم المصريون أحسن ما عندهم هذا والله أعلم ، المهم يا سيدي إن وصف المعارك التي دارت لتحرير البلاد لا تحتاج إلي تعليق وغاية ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن تسرح عزيزي القارئ بخيالك الواسع وخذ راحتك علي الآخر في تخيل طبيعة هذه المعارك ومدى شراستها وقد لا تصل إلي مستوي الحدث ولكن يمكن أن تقرأ رواية كفاح طيبة للكاتب الكبير نجيب محفوظ وتوفر علي نفسك التخيل وتتركه يتخيل بدلاً عنك بأسلوبه الرائع الأحداث التي مرت بالبلاد أثناء قيام أممس بطرد الهكسوس فقد اعتمد أممس علي تهريب المصريين من الشمال للجنوب لإعدادهم للقتال حيث كان معظمهم يعيش تحت الاحتلال وينتظرون القيادة التي تقودهم لكفاح ضد الغزاة الرعاة وكان كل ما يشغل أممس تجميع القوات نفسها من أفراد الشعب ثم تدريبهم وقد نجح في هذه الخطة نجاح ساحق إلي أن حقق أهدافه بالكامل ،

لوحة جدارية لأهمس :

المهم إن أهمس ترك لوحة من آثاره في معبد الكرنك تخليداً لأعماله وعلي فكرة الجماعة الفراعنة كانوا مغرورين جداً عندما يصفون أنفسهم في كتاباتهم علي الجدران (وقد ورث بعضنا موضوع الكتابة علي الجدران ولكن ليست جدران المعابد ولكن جدران البيوت والمرافق العامة) ، المهم إنهم كانوا واثقين في أنفسهم زيادة شويتين وكان الواحد منهم عندما يكتب عن نفسه يقول كلام كبير جداً وسأكتب لك الآن بعض ما جاء في لوحة الملك أممس الأول لتكون علي سبيل المثال لا الحصر وستلاحظ أن الملك يحاول توضيح علاقته الوثيقة بالآلهة وهذا أهم شئ بالنسبة له فيقول إنه حبيب الإله الفلاني وابن الإله الفلاني ويشبه الإله الفلاني وهكذا (--- ابن آمون رع من جسده ومحبوبه ووارثه ، ومن أعطي له عرشه ، الإله الطيب حقيقة ، قوي الساعد -- ، وإنه أمير يشبه الإله رع --- وشديد البأس -- معطي الحياة ومقيم العدالة ، ملك الملوك علي كل الأرض ، وهو واحد في السماء والثاني علي الأرض ، ومن يخلق من صوته النور ، محبوب آمون ، ومن يثبت الوظائف مثل الإله ، المسيطر علي السنين مثل جلالة رع ، ومن استولي علي ما تحيط به الشمس ، ومن ثبت علي رأسه التاج الأبيض والأحمر -- والمضئ الطلعة في شبابه ، ومن قدر لتاجه أعجوبة مزدوجة في كل ساعة ، رفيع الريشتين ، ومن يكون أمامه الصلان القويان علي جبينه مثل ما يكونان علي جبين حور عندما يسيطر علي الأرضين وهو ملك له الحياة والسعادة ---)³ وطبعاً أنا مش فاهم حاجة من كل هذه الأوصاف ويبدو أنه يصف الإله شوية ويشبه نفسه به شوية مش عارف حقيقي ، وعلي فكرة هذه مجرد مقتطفات متقطعة من اللوحة لم أذكرها كلها وتعتبر نموذج لما كان يمجد به الفراعنة أنفسهم في لوحاتهم الموجودة إلي الآن ، ويقول سليم حسن عن هذا النص الموجود

مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 274

² موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 163 (مكتبة الأسرة)

³ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 202 (مكتبة الأسرة)

بالكامل في موسوعته (هذا النص علي ما يحتويه من تفاصيل دقيقة وإشارات بعيدة إلي أمور جسام في حياة الفرعون أحمس يري فيه المؤرخون أنه عبارات مدح تقليدية تشغل نحو ستة وعشرين سطرًا منه وستة الأسطر الباقية تعدد إصلاحات هذا الملك التي قام بها لإعادة أثاث معبد آمون وأوانيه وأن الملك لم يشير إلا إشارة عابرة مبهمة عن حروبه في خلال تلك الجمل المملة المتتابة ولكن الواقع أن هذه اللوحة تعد علي جانب عظيم من الأهمية من الناحية التاريخية والثقافية والأدبية في عهد هذا الفرعون)¹

ماذا بعد أحمس :

وكفاية كلام عن أحمس وسنين أحمس لأنك أكيد زهقت من هذا الموضوع ، تعالوا نشوف ماذا بعد أحمس ؟ شوف يا سيدي كان عند أحمس زوجات كثيرات بالإضافة إلي أخته (أحمس نفرتاري) وهي أيضاً زوجته وكان عنده أولاد كثيرين منهم المنحبت الأول ابن نفرتاري وهو الذي تولي الحكم من بعده ولكنه لصغر سنه كانت أمه وصية علي العرش وعلي فكرة قام الملك المنحبت الأول بعدة حروب ناجحة ولكنه توقف لعدم ميله للحروب ولكي تستريح البلاد من رحلة الكفاح الطويلة مع والده أحمس وقد كانت فترة حكمه فترة استقرار وراحة ويقول عنها سليم حسن (أن المدن قد استعادت حياتها العادية ونمت فيها الزراعة وازدهرت التجارة مما زاد في ثروة مصر وجعلها علي استعداد تام للقيام بفتوحها المقبلة علي يد فراعتها الشجعان)² ثم جاء بعد المنحبت الأول الملك تحتمس الأول وبالمناسبة وقبل أن نترك الملك المنحبت الأول لازم نقول عنه كلمة حلوة قالها أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية حيث ذكر أن هذا الملك كان رفيقاً برعيته طيلة سنوات حكمه الواحد والعشرين التي قضاها علي العرش

ملخص عن الأسرة 18 :

وبالمرة وقبل أن ننسي عمليات التلخيص السريع التي تعودنا عليها في هذه الدردشة يجب أن تعلم (أو لا يجب براحتك) إن مجموع ملوك الأسرة 18 بالكامل 14 ملك واعتقد إنك إنت شخصياً عارف معظم أسماءهم دون أن تدري أنهم من هذه الأسرة أو غيرها فمنهم طبعاً الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة وتحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية وحشيشبوت صاحبة معبد الدير البحري الشهير والتي غني لها الفنان محمد العزبي شخصياً في أحد الأفلام وكمان منهم الملك توت عنخ آمون الذي بهرت مقبرته العالم كله عند اكتشافها كاملة وكذلك منهم حور محب القائد الهمام والذي يوجد فندق باسمه في شارع الهرم حالياً ويمكن أكثر ملك شهرة فيهم هو الملك المنحبت الرابع المعروف باسم اخناتون الذي كان يؤمن بالتوحيد وعمل انقلاب ديني كبير هز كيان الأسرة المالكة بل الإمبراطورية كلها ، وطبعاً لم أذكر أسمائهم طبقاً للترتيب الزمني لهم ولكن سيأتي ذلك أثناء الدردشة لأن هذه الأسرة تستحق الدردشة عنها لأن عصرها ثري جداً وعلي فكرة مكتوب في موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري أن هذه الأسرة الثامنة عشرة حكمت مصر من حوالي سنة 1580 ق م إلي سنة 1314 ق م³ يعني تقريباً 266 سنة ،

تحتمس الأول يضع اللبنة الأولى للإمبراطورية :

المهم نرجع لعننا الملك تحتمس الأول الذي جاء بعد المنحبت الأول وكان أحد أمراء الأسرة ولم يكن ابن المنحبت الأول لأن الأخير لم ينجب بنين ولكن تحتمس الأول تزوج من ابنة المنحبت الأول ليضفي شرعية علي حكمه السعيد وكان تحتمس هذا عندما تولي الحكم راجل ناضج قد جاوز الأربعين من عمره وقد وضع اللبنة الأولى في صرح الإمبراطورية المصرية وكان قائد عسكري من الوزن الثقيل واتسعت حدود مملكته وحكم مصر حوالي 30 سنة وترك العديد من الآثار الخالدة وكان هذا الملك أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن في هرم أو مقبرة يعلوها هرم وفضل أن يدفن في

1 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 204

2 موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 4 ص 234

3 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 32

مكان خفي بعيداً عن العيون¹ ووجدت مقبرته في المكان المعروف حالياً بوادي الملوك² وبالمناسبة لقد كانت هذه الأسرة من أكثر الأسر التي تركت آثاراً ضخمة خالدة إلي الآن ومعظمها في الأقصر ،

تحتمس الثاني وزوجته المفترية :

المهم يا سيدي جاء الفرعون تحتمس الثاني بعد موت تحتمس الأول ويعتبر رابع ملوك الأسرة 18 وكان هذا التحتمس الثاني راجل تعبان صحياً وراضى بقليله وأهم ما حدث في عهده القضاء علي ثورة نشبت في شمال السودان حيث كانت هذه البقعة تحت سيطرة الأسرة 18 في ذلك الوقت ، المهم إن هذا الملك كانت له زوجة هي أخته في نفس الوقت وكان اسمها حتشبسوت وكانت لها شخصية طاغية وقوية وهي أحق بوراثه العرش لأنها بنت الأميرة الوراثية ذات الحق في الوراثة أما باقي أبناء الملك تحتمس الأول فقد كانوا أبناء زوجات ثانويات ومنهم طبعاً الملك تحتمس الثاني الذي كان أصغر منها سناً وكان يشعر بأنه دون أخته (زوجته حتشبسوت) في المرتبة الاجتماعية وقد كانت هذه السيدة المفترية شريكته في الحكم وكانت الكلمة كلمتها والشورة شورتها وقد ورثت الشخصية القوية عن نساء هذه الأسرة العظيمة اللاتي ذكرناهن منذ قليل في الدردشة وطبعاً أول ما مات تحتمس الأول قامت صراعات علي الحكم انتهت بالزواج لحل المشكلة وبعد أن مات زوجها تحتمس الثاني تزوجت من ابنه (من زوجة أخرى) تحتمس الثالث لتشاركه الملك أيضاً واستمرت في وضعها من القوة والسيطرة ويقال أن تحتمس الثالث هو أخ أصغر لتحتمس الثاني وليس ابنه ، المهم إن الموضوع ملخبط شوية وسواء كان تحتمس الثالث قد تزوج أخته أو عمته³ حتشبسوت فهذا لم يغير شئ من فرض سطوتها وجبروتها علي الجميع ، بل إن مواهب تحتمس الثالث لم تظهر إلا بعد وفاة حتشبسوت التي كان يكرهها بشدة فقد كانت تعامله باحتقار علي ما يبدو فلما ماتت قام بتحطيم تماثيلها ومحو اسمها من المعابد وما إلي ذلك من الأعمال الانتقامية ويقول أحمد فخري أن علماء الآثار لم يعثروا علي جثتها يعني واضح إنها كانت نهاية مفاجئة بلا شك⁴ ، ومع ذلك تم الإعلان مؤخراً عن اكتشاف جثة يحتمل أن تكون جثة حتشبسوت وكانوا يعتقدون أنها جثة سيدة أخرى .

القائد الهمام :

المهم يا سيدي إننا وصلنا في الدردشة للمعلم الكبير أوي والراجل المحترم ذائع الصيت والقائد المغوار الذي لا يشق له غبار صاحب الإمبراطورية المصرية الضخمة ونابليون العصر الفرعوني الملك تحتمس الثالث الذي حكم مصر حوالي 54 سنة كاملة



الملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية

¹ واضح إن تصرف هذا الملك كان تصرف منطقي لأن كل المقابر الضخمة والأهرامات وخلافه تكون واضحة للجميع وعند حدوث أي مشاكل أو ثورات يتم اقتحامها بسهولة وسرقتها والقاء المومياة خارجها وبالتالي فالأضمن إخفاء القبر تماماً عن العيون ومن الممكن إظهار المعبد فقط

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 282

³ هل مثل هذا الاختلاف في الرأي قد يؤدي إلي مشاكل كبيرة جداً أم أن مضمون الحدث هو الأساس ، الغريب أن مثل هذه الأمور يتم مناقشتها أحياناً بعصبية شديدة وفي فترات أخرى أهم من تاريخ مصر وتضيق الحقيقة الأساسية المقصود منها العبرة في وسط كلام فارغ (عمته لأخته لأ خالته)

⁴ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 288

وعلي فكرة هذا الملك أراح المؤرخين جداً فقد كان يصطحب معه في حملاته كتاباً يسجلون تفاصيل ما يحدث ويكتبون التقارير عن المعارك¹ وبالتالي كان من السهل معرفة أدق تفاصيل معاركه وحملاته التي بلغ عددها 16 حملة عسكرية² وكان يعتمد علي الأسطول مع قواته البرية وكان بارعاً في وضع الخطط الحربية وتنفيذها ولا يأمر جنوده بأي أمر لا يستطيع أن يفعله هو شخصياً وكان شجاعاً لدرجة غير عادية فتراه دائماً في مقدمة الصفوف في أشد مراحل المعركة شراسة ، ويقال أنه أول من قام بتقسيم الجيش إلي ميمنة وميسرة وقلب وقد استطاع السيطرة علي جميع البقاع المعمورة في ذلك الوقت في الأرض وكانت طيبة في أيامه عاصمة العالم القديم وكانت تتدفق عليها خيرات أفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط³ ، ويعتبر هذا الرجل من الشخصيات البارزة التي تحدثنا عنها من قبل واستطاع أن يفرض نفسه علي كتب التاريخ ، (يعني واحد من إياهم) .

امنتخب الثاني يؤكد سيطرته :

المهم يا سيدي مات السيد تحتمس الثالث وراحت أيامه وخلفه علي العرش ابنه امنتخب الثاني الذي نشأ وترعرع علي دقات طبول الحرب ورأى العالم كله ينحني أمام أبيه⁴ صاحب الشخصية الفذة والذي قام بتربية ابنه تربية عسكرية تحت إشراف أحد ضباطه الموثوق بهم⁵ ، المهم يا سيدي إن بمجرد موت تحتمس الثالث أعلنت بعض الولايات في سوريا استقلالها عن الحكم المصري وهذا بالطبع يعد استخفافاً بامنتخب الثاني وعزت عليه نفسه فقام علي رأس جيش وخاض معركة انتقامية بشعة نكل فيها بأعدائه أشد التنكيل مما أدى إلي توطيد أركان إمبراطوريته وعرف الجميع أن الجالس علي العرش لا يقل قوة عن أبيه وسارعت كل الولايات بإرسال الهدايا وتقديم فروض الطاعة للملك الجديد ، المهم يا سيدي إن الأيام مرت وصاحبنا امنتخب الثاني جالس علي عرش الإمبراطورية لمدة 25 سنة⁶ كاملة ثم مات ودفن في وادي الملوك كما مات من قبله وكما مات من بعده وسبحان الحي الذي لا يموت ،

تحتمس الرابع آخر الملوك المحاربين في الأسرة 18 :

وجاء بعد ذلك علي عرش مصر الملك تحتمس الرابع بعد صراع علي الحكم مع أخوته بعد وفاة أبيه امنتخب الثاني ، المهم إن تحتمس الرابع كان ملك محارب مثل أبيه وجده ويعتبر آخر الملوك المحاربين في هذه الأسرة⁷ وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية وترك العديد من الآثار الموجودة حتي الآن⁸ من بينها مسلة

1 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 289

2 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 292

3 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 297

4 (كانت طيبة في أيام تحتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخرى وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة ، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلي فرعون ، وكثيراً ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر علي جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها ، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا ، وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد علي مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب - مصر الفرعونية - أحمد فخري صفحة 297

5 جدران المقابر يا عزيزي توضح الكثير والكثير عن العصور الفرعونية لأن كل واحد كان يسجل كل أعماله التي يفخر بها داخل مقبرته وطبعاً القائد الذي قام بتدريب الأمير امنتخب سجل هذا الحدث بالطبع في مقبرته ليؤكد أنه كان يدرّب ابن الملك تحتمس الثالث (إذ نري صورته علي أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي كان يشرف علي تربية امنتخب العسكرية ويعلمه الرماية ، وهو يوجه الحديث لأمنتخب قائلاً : شد القوس حتي أذنك مستعملاً كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير امنتخب) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 188

6 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 305

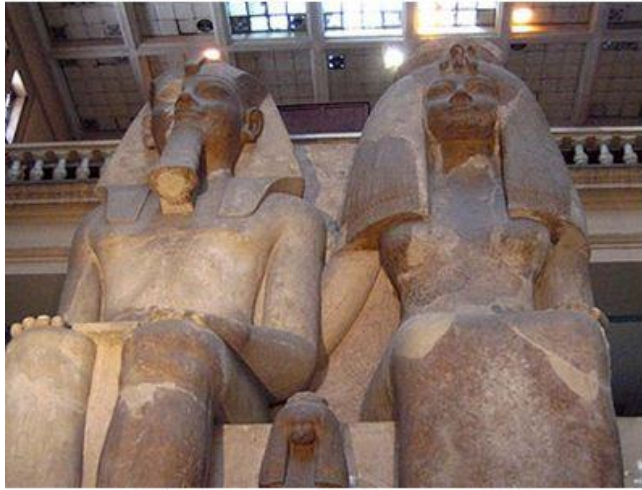
7 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 307

8 (ومن أشهر الآثار الباقية من عهده ، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للأن بين مخالب تمثال أبو الهول بالجيزة ، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها ، أنه ذهب عندما كان شاباً ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأى فيما يري النائم الإله حور-ام-أخت "المجسد في تمثال أبو الهول " يبشره بتاج مصر عندما يجرره من الرمال التي عليه ، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور-ام-أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة ، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوراث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور -ام-أخت) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 189 ، وعلي فكرة

موجودة حالياً في روما وتعتبر من أعلي المسلات المصرية إذ يصل ارتفاعها إلي 30.7 متر (وقد خطي تحتمس الرابع خطوة جريئة في السياسة الخارجية وهي أنه تزوج من ابنة الملك الميتاني "ارتاتاما" وهي خطوة لها أكثر من مدلول إذ أن هذا الزواج الدبلوماسي يؤكد اعتراف فرعون مصر بدولة الميتاني وفي نفس الوقت يعلن إنهاء حالة الحرب بين مصر وهذه الدولة وأصبحت من الآن مملكة الحيثيين هي العدو المشترك لمصر وللميتانيين وقد أطلق المصريون علي هذه الأميرة الميتانية اسماً مصريةً هو "موت أم أويا" وهي التي أصبحت فيما بعد أم الفرعون المصري أمنحوتب الثالث¹ وقد مات تحتمس الرابع شاباً حيث دام ملكه 14 سنة فقط ، وكان قد تولي الملك وهو في العشرين من عمره يعني مات عنده 34 سنة ودفن في وادي الملوك

امنحوتب الثالث وزوجته (تي) :

وبعد أن مات تحتمس الرابع تولي ابنه الملك امنحوتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمى (أيام السلم)² وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية ،



الملك امنحوتب الثالث وزوجته الملكة تي

وطبعاً مصر في عهده كانت قد تأثرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وبالمناسبة زوجته كان اسمها (تي) وفي هذا العصر بدأ المصريون يقيمون التماثيل للملكات جالسات جنباً إلي جنب بجوار الملوك وفي نفس الحجم³ وعلي فكرة عندما جلس هذا الفرعون علي عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع الولايات مستقرة وكله تمام التمام ، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف والمتعة وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان وبصراحة كده كان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع ، ولم يفكر هذا الفرعون أن يهز طوله ويذهب إلي أي مكان في إمبراطوريته الشاسعة ليراه الناس ويرهبونه هو وجيشه إنما عاش حياته بالطول والعرض ، واستمتع بالرقص والغناء ولأن الناس علي دين ملوكهم فإن هذه الروح انتشرت في المجتمع المصري وهذا الملك خير مثال علي ما ذكرناه في بداية الدردشة عن الأحفاد الذين يعيشون حياة الترف والمتعة ويضيعون ما صنعه الأجداد العظماء فقد ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب ، ومين عارف يمكن تكون أمه الميتانية هي السبب في تأثره بعبادات غير مصرية وجعلت منه شاب مش في نفس مستوي فراعنة مصر الكبار السابقين المهم إن السيد امنحوتب الثالث طبعاً صحته راحت من كثرة الملذات وأصبح رجلاً

يتكرر هذا الموضوع مع أكثر من ملك من ملوك العصر الفرعوني المشكوك في صحة توليهم العرش حيث يقوم الملك باختلاق قصص وينسبها للآلهة الفرعونية ليؤكد أحقيته بالعرش كما فعل تحتمس الرابع عند أقدام تمثال أبو الهول

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 190

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 309

³ لاحظ معي أن قبل عصر هذا الملك توجد عدة آثار فرعونية تم تمثيل النساء فيها بحجم صغير جداً بجوار أقدام الملوك حتي لو كانت زوجته الملكة

محطماً مما أدى إلي سيطرة الملكة (تي) علي مقاليد السلطة في يدها كما أنه أشرك ابنه معه في الحكم في أواخر أيامه وهذا الابن هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون ،

امنحتب الرابع (اخناتون) :

بدأ امنحتب الرابع المعروف حالياً باسم اخناتون بداية عادية جداً كأبي ملك في طيبة وقام بتقديم الولاء لإله الدولة آمون واتخذ لنفسه الألقاب الخمسة التقليدية المتوارثة وتزوج من نفرтитي صاحبة أشهر تمثال لامرأة فرعونية حالياً (رأس نفرтитي)



الملك امنحتب الرابع (اخناتون) وزوجته الملكة نفرтитي

وكانت أمه الملكة تي تساعده في الحكم في سنواته الأولى¹ (وما كادت الأمور تستتب ل اخناتون حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، الدعوة إلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه آتون)² وطبعاً حضرتك عارف إن اخناتون أقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير بالرغم إن الشمس كانت تعبد من قبل بصورة أو بأخرى ، المهم إنه غير اسمه من امنحتب الرابع إلي إخناتون وترجمتها بالمناسبة (المفيد للشمس)³ وطبعاً اشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أبيه وأمه غضبوا منه كثيراً لأنهم كانوا عايشين ومشاركين له في الملك حتي هذه الفترة في بعض الروايات والآراء وبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وتنهار وصاحبنا في وادي تاني خالص ، وقام بتشيد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي⁴

المؤامرات ضد اخناتون :

مما أدى إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الأسرة المالكة ، المهم يا سيدي إن إخناتون كان يرفض أن يعبد أي إله آخر سوي الإله آتون (قرص الشمس) وأعلن التوحيد والتخلص من تعدد الآلهة وهذا طبعاً سيؤدي إلي إن الكهنة

¹ (وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة – أن الملكة تي أم امنحتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبليغه فيه يموت زوجها امنحتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد امنحتب الرابع وقد أجاب توشراتا – وهو ابن الملك السابق - علي خطاب تي بأن عليها أن تقنع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن امنحتب الرابع لم يعزل عرش مصر إلا بعد وفاة والده – أي لم يكن شريكاً معه في الحكم - وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية) معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 198

² معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 199

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 317

⁴ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة 201

سيفقدون مكانتهم وقبل أن نترك الدردشة عن هذا الملك سأعطيك فكرة بسيطة عن النشيد الذي كان يتعبد به إلي الإله الواحد الذي يعده لتتعرف علي طبيعة أفكار هذا الملك وإليك مقطع صغير من أحد أجزاء النشيد من منتصفه تقريباً (ما أعظم أعمالك التي عملتها ، إنها خافية علي الناس أيها الإله الأوحده ، الذي لا شبيه له ، لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك ، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما علي الأرض يسعي علي قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه ، تضع كل شئ في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل شخص علي طعامه وسنوات حياته مقدره له)¹ وطبعاً لا تعليق علي ما ورد في هذا النشيد لكن من المهم أن نعرف أن اخناتون وعائلته فقط هم المسموح لهم بعبادة الإله آتون لأن اخناتون اعتبر نفسه الخادم الأول للإله آتون أما رعيته فكانوا يقدسون اخناتون الذي أصبح في مصاف الآلهة فقد ثبت أن اخناتون نفسه كان له كاهن مخصص له ويحمل نفس لقب اخناتون بالنسبة لآتون² ، المهم يا سيدي إن الإمبراطورية المصرية كانت تحتضر وفي طريقها إلي الموت ولم يتبقي سوي إعلان وفاتها ، وبالمناسبة اخناتون كان عنده ثلاثة بنات فقط ماتت إحداهن وهي صغيرة ولم يكن له أولاد ذكور وكانت عاصمة ملكه العمارنة بعيداً عن طيبة التي مات فيها والده وبقيت أمه (تي) التي قررت أن تنص علي حياته وتوقع بينه وبين زوجته نفرتي تي علي ما يبدو حيث أنها زارته في العمارنة وظلت ضيفة عنده لفترة ثم عادت إلي طيبة مرة أخرى ومن بعد هذه الزيارة ساءت العلاقات جداً بين اخناتون وزوجته وكل واحد عاش لوحده ، وكان يوجد إخوة صغار لإخناتون في الغالب منهم واحد اسمه (سمنخ كا رع) والثاني اسمه (توت عنخ آتون) وكان اخناتون يميل أكثر إلي (سمنخ كا رع) فقام بتزويجه من ابنته وجعله شريكاً له في ملكه بينما عاش توت عنخ آتون في ضيافة نفرتي تي بعيداً عن اخناتون ثم بدأت المؤامرات التي في الغالب قادتها الملكة الأم (تي) وقائد الجيش (حور محب) علي ما يبدو للتخلص من اخناتون وشريكه في الملك (سمنخ كا رع) وتم اغتيال (سمنخ كا رع) ثم بعد ذلك تم قتل اخناتون أيضاً بعد عامين من قتل شريكه في الملك (مات اخناتون وهو لا يزال شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، مات الملك الإله ولهذا لم يستطيع أتباعه من الاستمرار في دينهم ، فقد مات اخناتون ومات معه دينه وعقيدته إذ بموته فقدت الرعية الرمز الحي الذي يقدسونه وبالتالي فقدوا وسيلة الاتصال بالإله آتون)³

توت عنخ آمون يصل للحكم :

وتولي حكم البلاد توت عنخ آتون الذي تزوج من إحدى بنات اخناتون وكان صغير السن وقام بتغيير اسمه تحت ضغط من الكهنة ليصبح توت عنخ آمون⁴ وأعاد العاصمة مرة أخرى في طيبة وتم تحطيم معظم آثار اخناتون وخرّبوا عاصمته في العمارنة وكان علي فكرة الملك الصغير توت عنخ آمون مستسلم تماماً لقرارات الكهنة وكان علي ما يبدو ملك ضعيف بالرغم من شهرته حالياً في هذه الأيام التي يرجع السبب فيها إلي العثور علي مقبرته كاملة بكل كنوزها لأنها كانت مختفية عن اللصوص كل هذه السنين ، وقد تم اكتشاف المقبرة في 4 نوفمبر 1922 (بكل ما فيها من ثروة تدل علي البذخ والإسراف الذي عاش فيه ملوك الإمبراطورية ، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار بأن توت عنخ آمون كان له كل هذه الثروة من الأثاث الجنازي ولم يكن ملكاً له مكانته التاريخية ،



1 مصر الفرعونية

2 معالم تاريخ و

3 معالم تاريخ وحضاره مصر - القسم الاول - د سيد توفيق - صفحة 203-204

4 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 340

فماذا لو قيس بغيره من الملوك وفي هذه الحالة قد يستطيع الإنسان أن يتخيل ما يجب أن يكون عليه الأثاث الجنائزي بالنسبة للملوك العظام أمثال تحتمس الثالث وأمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني¹ المهم إن الأخ توت لم يكن له وريث في الحكم ومات بعد عشر سنوات فقط من حكمه وهو صغير السن ولم يكن له ولد من بعده

نهاية الأسرة 18 :

ووصل الأمر إلي أن حكم البلاد رجل ليس من الأسرة المالكة وهو الملك (آي) الذي كان كاهناً ومقرباً من الكهنة ولكنه كان علي عدااء شديد مع حور محب قائد الجيش الذي تولي الحكم بعد موت (آي) بإجماع الآراء² وبدون إرادة نقطة دم واحدة لأن البلاد كلها كانت تسعي إلي قائد شجاع يقودها إلي بر الأمان وعلشان حور محب كان عايز يكون ملك شرعي قام بالزواج من إحدى أميرات الأسرة المالكة السابقة وقام بإجراء بعض الإصلاحات الإدارية وإعادة ترتيب الجيش وأعاد الطمأنينة إلي الشعب وحكم مصر حوالي 30 سنة كاملة وكان آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس الأول ولنا هنا وقفة عند حور محب قبل أن ننهي الكلام عن هذه الأسرة

قوانين حور محب :

كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن الملك حور محب ما ملخصه : (كادت البلاد أن تقع في هاوية الإنقسام الداخلي والانحلال ، لولا أن قبض الله لها زعيماً من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن وهو (حور محب) الذي كان من ضباط الجيش في عهد اخناتون وقائد الجيش في عهد توت عنخ آمون ، ولم يكن طامعاً ولا راغباً في أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون ملكاً ، تولي حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلي ذلك دفعاً ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها ، - -



الملك حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨ الفرعونية

وقد تزوج حور محب من الأميرة موت نجمت أخت الملكة نفرтитي ليكتسب شرعية الحكم كما كانت تقتضي الأمور في العصر الفرعوني عندما يكون الملك الجديد لا ينتمي للأسرة الحاكمة السابقة ، وقد شيد حور محب في معبد الكرنك بوابة من الجرانيت ويمتد من هذه البوابة طريق الكباش إلي الجنوب حتي معبد الإلهة موت ثم يأخذ طريقاً آخر إلي معبد الأقصر ، وقد استطاع هذا الملك أن يعيد الاستقرار للبلاد ولاستكمال هذا الاستقرار حارب الحيثيين وعقد مع ملك خيتا معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتاً علي الحدود وتفرغ للإصلاح الداخلي حتي تستعيد البلاد قوتها وهبتها) ، وكتب عنه

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 211

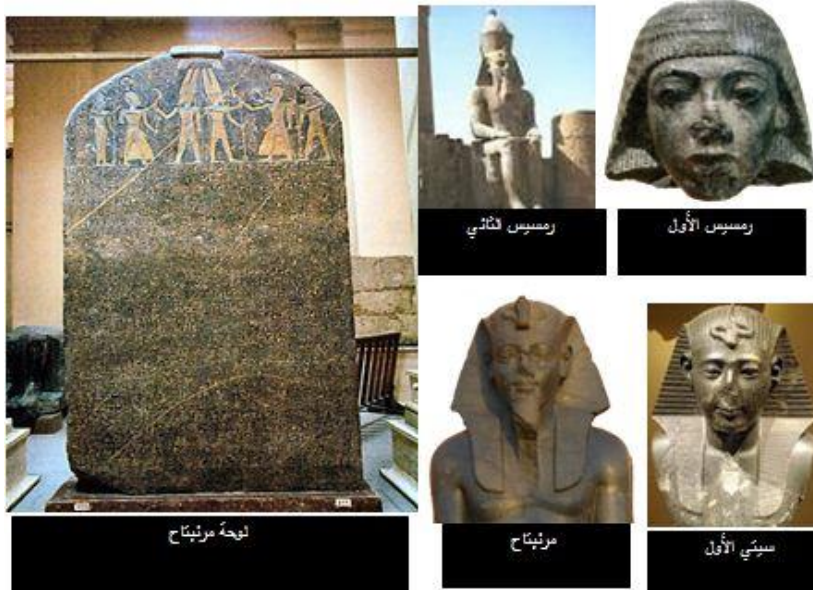
² (اعتبر كاتب كل من قائمة أبيدوس وسفارة الملك حور محب أول ملك شرعي بعد الملك أمنحوتب الثالث وتجاهل عن عمد كل من اخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي الموصومين بالأتونية) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 216

الدكتور أحمد بدوي بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما ملخصه : (كان يؤذيه ما رأي من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام حور محب ، فعزم علي إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلي إصدار قانون ينظم حياة الأمة أملاه بنفسه علي كتابه ، كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاخترهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقاً ، وأجرأهم قلباً ، وأطهرهم لساناً ، وأعفهم يداً ، وحرم علي القضاة أن يصادقوا أحداً من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية ، وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين في الحق ، ولا تأخذه في تنفيذه لومة لائم ، وقال الملك حور محب عن القانون الذي وضعه : (إنني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي) ويعتبر الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وقد حكم مصر ما يقرب من 12 سنة ، من حوالي سنة 1319 قبل الميلاد إلي حوالي سنة 1307 قبل الميلاد¹

وبموت حور محب انتقلت السلطة إلي الملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة 19 وتم انتقال السلطة بهدوء شديد وبدون صراعات لأن حور محب أساساً لم يكن يطمع في الملك ولم يعمل لمصالحه الشخصية أو لتوريث ملكه من بعده لعائلته بل إن مصلحة البلاد كانت عنده أهم من ذلك كله وبالتالي لم تحدث صراعات علي خلافته فتولي الحكم أحد زملاءه بالجيش وهو رمسيس الأول وكان راجل عجوز جداً وكان له ولد اسمه (سيتي الأول) وكان أيضاً ضابط بالجيش كأبيه وورث عنه الملك بعد وفاته

الأسرة 19 :

وبالمناسبة ياريت نلخص الأسرة 19 كما تعودنا في الدردشة وقبل أن نتكلم عنها ، فإجمالي عدد ملوك هذه الأسرة 11 ملك أولهم رمسيس الأول وأشهرهم سيتي الأول ورمسيس الثاني صاحب التمثال الشهير الموجود في الميدان الذي يحمل اسمه بالقاهرة حالياً وهو ميدان رمسيس الذي يريدون نقله من مكانه ومكتوب في موسوعة حكام مصر إن هذه الأسرة حكمت مصر من سنة 1314 ق م إلي سنة 1200 ق م² يعني حوالي 114 سنة ، بينما في كتاب مصر الفرعونية مكتوب إنها حكمت مصر من سنة 1304 ق م إلي سنة 1195 ق م³ يعني حكمت مصر حوالي 109 سنة وطبعاً هذا دليل علي أن تواريخ حكم الفرعنة تقريبية كلها ، وعلي فكرة الإحصائية التي قمت بكتابتها في بداية هذه الدردشة معتمدة بالكامل علي كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري لأن من السهل أن تأخذ منها التواريخ لتحسبها براحتك ،



إفهي - دار المعارف -

¹ نقلاً عن كتاب (تاريخ) أهم ملوك الأسرة 19 وتبدو في الصورة لوحة الملك مرنبتاح

² موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 33

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 356

عصر الولادة :

المهم يا سيدي إن الملك رمسيس الأول العجوز حكم مصر أقل من عامين فقط وجاء بعده (سيتي الأول) ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقي للأسرة 19 لأنه بدأ عصر جديد يطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات وهزم البدو في سيناء وجنوب فلسطين بل إنه اندفع بجيشه في كل مكان (ليبيا ، سوريا ، فلسطين --- إلخ) لإعادة أمجاد تحتمس الثالث وسجل انتصاراته علي الجدران وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك واهتم بالمناجم وحفر الآبار وأشرك ابنه في الحكم لتدريبه علي الحكم وبعد أن مات تولي ابنه رمسيس الثاني حكم مصر وهو يعد أشهر فرعون في تاريخ مصر بالكامل في هذه الأيام وقد حكم مصر لمدة سبعة وستين عاماً وامتلت مصر بآثار عديدة ومتنوعة من عهده وهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال لصالح العدو في بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصلح وقبلوا الأرض تحت قدميه ، وسيطر رمسيس الثاني علي فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا¹ بعد ان اتفق مع الأعداء (الحيثيين) علي احترام الحدود من كلا الطرفين وإنهاء الحرب بالرغم من انتصاره الساحق الذي جاء بعد هزيمة كادت تقضي علي حياته في بداية المعركة وتفرق عنه جنوده وفقد ثقته بهم وهذا يفسر قبوله الصلح بعد انتصاره لعدم ثقته في رجاله ويقول احمد فخري في كتابه عن ذلك (وربما كانت حالته النفسية هي السبب في قبول الصلح وهو في انتصاره مادام رجاله لا يستحقون الاعتماد عليهم)² ، وعلي فكرة سجل الحيثيون في آثارهم أن نتيجة معركة قادش كانت لصالحهم هم وأنهم قاموا بمطاردة الجيش المصري (وقد يختار المؤرخون بين الروايتين ، فالبعض يميل إلي الرواية المصرية والبعض الآخر يفضل الرواية الحيثية ، علي أنه من الطبيعي أن يحتفظ كلا من الملكين المصري والحيثي لنفسه بكرامته ، - - وظلت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلي أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما ، فأبرموا معاهدة " أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها ، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية المكتوبة بالهيريوغليفية علي أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة علي لوحين من الطين عثر عليهما في بوغاز كوي - - بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين ، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضاً كلاً من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيلبي الثالث الملكة بوتو خيبا ، بل أكثر من هذا لقد قام خاتو سيلبي الثالث بزيارة ودية لمصر)³ المهم يا سيدي إن رمسيس الثاني كان فرعون من الفراعة الشداد وكان حكمه مستقر وحافل بالإنجازات وعلي فكرة كان راجل مزواج وله أولاد وبنات كثيرين لم يستطع المؤرخون حصرهم ويقال أنه تزوج ثلاثة من بناته وكان عنده ما يزيد عن 100 ولد وبنات تقريباً ،

مرن بتاح آخر الرجال المحترمين في الأسرة 19 :

المهم إنه بعد أن مات خلفه علي العرش الملك (مرن بتاح) وقد كان في حوالي الستين من عمره نظراً لأن والده طول في الحكم وكبر سنه وأغلب الحروب التي خاضها هذا الملك حروب دفاعية علي ما يبدو⁴ ومات بعد 11 سنة من حكمه

1 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 369

2 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 369

3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 224-225

4 (علي أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن من الشرق أو من الجنوب بل أتى هذه المرة من الغرب من ليبيا ، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة -مري- رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتى ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع في معركة الست ساعات من أن يقتل 6000 وأن يأسر 9000 وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمثالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهد تفاصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب

ويبدو أن هذا الملك قد قاتل بني إسرائيل لأن اسمهم علي لوحة انتصاراته (لوحة مرنبتاح الشهيرة) ولكن هذا الموضوع غامض حتي الآن ولكن أكد بعض العلماء أن بني اسرائيل قد خرجوا من مصر أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة¹ وليس في عهد هذا الملك ، وعلي العموم توقيت خروج بني إسرائيل من مصر لم يؤكد أي عالم من علماء التاريخ حتي الآن بشكل محدد كما ذكرنا من قبل ، المهم يا سيدي الأخ مرن بتاح في أغلب الظن كان آخر الرجال المحترمين في الأسرة 19 لأن باقي ملوك الأسرة كانت فترات حكمهم قصيرة وتدهورت البلاد في عهدهم بل إنهم قد يكونوا ليس لهم أي علاقة أو قرابة للأسرة أساساً ولن أشغلك بكل الاحتمالات التي أدت إلي هذه الأحداث ، وعلي فكرة عندما مات مرنبتاح تم دفنه بقبيره بوادي الملوك ولكن تم العثور علي مومياءه في مقبرة أمنحوتب الثاني التي استخدمت بعد ذلك كمقبرة جماعية لمجموعة من موميوات الملوك لحمايتها

رمسيس الثالث² أبرز ملوك الأسرة رقم 20 :

المهم إن هذه الأسرة انتهت إلي الأبد وجاءت أسرة جديدة هي الأسرة رقم 20 المكونة من سبعة ملوك وكلهم اسمهم رمسيس (من الثالث إلي التاسع) وحكموا مصر حوالي 115 سنة³ علي كلام الدكتور ناصر الأنصاري وكان مؤسس هذه الأسرة هو الملك رمسيس الثالث الذي حكم البلاد لمدة 32 سنة ، يقول عنها أحمد فخري (-- كانت في الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين)⁴



رمسيس الثالث

وفي عهده تم تشييد العديد من الآثار الرائعة واستطاع أن يحمي مصر من جميع الأخطار التي تعرضت لها وفي عهده حصل كهنة آمون⁵ علي وضع خاص جداً وكان رمسيس الثالث من المعجبين جداً بالملك رمسيس الثاني وقلده في كل شئ وأطلق اسمه علي أولاده تيمناً به ثم سرعان ما تدهورت البلاد مرة أخرى من بعده وأهم ما يميز هذا العصر الذي كان تمهيداً لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة بعد ذلك إن الأجانب تولوا وظائف هامة في الدولة وفي البلاط الملكي وتسبب هؤلاء الموظفون في إحضار الجنود المرتزقة الغير مصريين وساءت الحالة الاقتصادية في البلاد في آخر أيام هذا

قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية - معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 226-227

1 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 378

2 هذا الرجل يعتبر مثل للشخصيات البارزة التي جاءت في فترات غير مستقرة فصنعت الاستقرار وانتهى الاستقرار بعد انتهاء حكمها والظريف أن كل من جاء بعده من أسرته اسمه رمسيس أيضاً ولكن ليس كل من سمي نفسه رمسيس يمكنه أن يصنع ما صنعه رمسيس الثاني أو رمسيس الثالث وعلي فكرة يتم إطلاق كلمة رعامة علي الملوك الذين يحملون اسم رمسيس

3 موسوعة حكم مصر (ناصر الأنصاري) ص 34

4 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 389

5 (إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلي 10% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن 5% من هذه الأراضي ، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده 86486 خادماً و 421362 رأساً من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد 2844357 والطيور 126250 كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له ، وقد يوضح هذا مدي ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 230 وطبعاً عزيزي القارئ معناه إن كهنة آمون كانوا عايشين حياتهم علي حساب باقي المعابد وهذا يفسر ما كان يحدث من صراعات بين نفوذ الآلهة طوال تاريخ العصور الفرعونية إنه صراع اقتصادي علي ما يبدو بين الكهنة لامتلاك المال والنفوذ معاً ومن دقة الأرقام المسجلة من هذه الفترة يتضح أنها كانت تخضع لحسابات صارمة

الملك وتولي حكم مصر من بعده ملوك ضعفاء عجزوا عن التغلب علي الأزمة الاقتصادية وسيطر عليهم الكهنة إلي أن انتهت هذه الأسرة تماماً وبداية ما يسمى بعصر الاضمحلال الأخير الذي سنتحدث ونردش عنه في الفصل القادم إن شاء الله ، أما ما يمكن أن يقال من معلومات تاريخية عن فترة حكم رعامسة الأسرة 20 فمعلومة قد تكون مهمة بالنسبة لك عزيزي القارئ وهي من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الأول) صفحة 232 ، 233 وهي تتحدث عن سرقات قبور الملوك نظراً لفقدان الشعب لإيمانه بالآلهة وزيادة معدلات انتشار الفساد في عهد رمسيس التاسع ويمكن تمر مرور الكرام علي هذه المعلومة وتدخل علي الفصل القادم وخلص ، يقول الدكتور سيد توفيق (-----) جلس علي عرش مصر بعد ذلك الملك رمسيس التاسع واستمر يحكم أكثر من عشرين عاماً ولعل شهرته ترجع للبرديات التي تتحدث عن سرقات مقابر الملوك التي حدثت في عهده ، وقد وصل الفساد الإداري ذروته في العام السادس عشر من حكمه وبدأت العصابات في طيبة تتجه لسرقة المقابر وما بها من ذهب وفضة ولم تسلم مقابر فراعنة مصر العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني من عبثهم ، وبدأ الناس يفقدون أيمانهم بألتهم وبملوكهم وحكامهم ، إذ تسجل إحدى هذه البرديات كيف أن "باسر" عمدة مدينة الأحياء الممثلة في الضفة الشرقية لطيبة تقدم بتقرير للوزير " خع إم واست " الذي كان ينوب عن الملك رمسيس التاسع يبلغه فيه عن السرقات التي تحدث في مدينة الموتى " الضفة الغربية لطيبة " تحت سمع وبصر عمدتها "باورعا" فأمر الوزير بتشكيل لجنة للتأكد من صحة ما جاء بالتقرير ، وقد سجلت هذه اللجنة النتائج التي وصلت إليها علي أكثر من بردية لعل أهمها هي بردية "أبوت" التي أبقاها لنا الزمن لنعرف منها تفاصيل هذه السرقات وما تم بخصوصها فقد اعترف اللصوص بانتهاكهم لقدسية مومياوات فراعنة مصر كبيرهم وصغيرهم مما اضطر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة أن ينقلوا - سرأ - بعض مومياوات فراعنة الدولة الحديثة لحمايتها من عبث اللصوص إلي أكثر من مخاباً ، فنقلوا 13 مومياء إلي مقبرة أمنحوتب الثاني ثم اختاروا مقبرة لم تتم بالدير البحري ووضعوا فيها 40 مومياء أخرى وهي ما يطلق عليها اصطلاحاً خبيئة الدير البحري ، وظلت مومياوات الملوك في مخابها إلي أن توصل "إميل بروكش " عام 1881م إلي مومياوات الدير البحري "ولوريه" عام 1898م إلي المومياوات المختبئة في مقبرة أمنحوتب الثاني وهم جميعاً الآن بصالة المومياوات بالمتحف المصري) ، المهم يا سيدي إن الملك رمسيس الحادي عشر هو آخر ملوك الأسرة العشرين واستمر حكمه لمصر 28 سنة وقد ازدادت في عهده قوة ونفوذ وجرأة كبير كهنة آمون المدعو حريحور (- كما تشهد بهذا مناظر معبد خنسو في منطقة معابد الكرنك - أن يسمح لنفسه أن يصور في نفس مرتبة الملك وبجسمه بل نراه يلبس تاج الوجهين ويعتبر نفسه ملكاً في طيبة علي الأقل وأمر بوضع اسمه داخل الخرطوش الملكي وإضافة الألقاب الملكية بل وأطلق علي فترة حكمه اصطلاح " عصر النهضة " وأخذ يؤرخ الحوادث طبقاً لهذا العصر ورضي رمسيس الحادي عشر بالأمر الواقع مغلوباً علي أمره . وتنتهي الأسرة العشرون وبالتالي عصر الدولة الحديثة)¹ .

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 234

9. عصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة

بداية النهاية :

أخيراً الواحد حيرتاج من الكتابة عن الفراعنة في هذا الفصل بعد أن تورطت في الكتابة عنهم وفتحت مواضيع كثيرة صعب قفلها ووجعت دماغك ، المهم يا سيدي إننا لازم كما ذكرنا أهم الأحداث في تاريخ الفراعنة تقريباً فيجب أن نردش بسرعة وفي عجلة عن انهيار دولتهم وخضوعهم لدول أخرى مثل ليبيا والنوبة والآشوريين ثم الفرس في هذا الفصل علشان الحدودتة تكتمل ونعرف أسباب الضعف والانحلال والاضمحلال حتي نأخذ العبرة والدرس ، ويرجع السبب الرئيسي في هذا الاضمحلال من وجهة نظر بعض المؤرخين إلي زيادة عدد الجنود المرتزقة في الجيش المصري وضعف الحكام والهجرة السلمية الكثيفة التي حدثت من ليبيا إلي مصر في عصر الأسرة الحادية والعشرين المكونة من سبعة ملوك حكموا مصر من سنة 1085 ق م إلي سنة 950 ق م¹ حتي أن هؤلاء الليبيين تمكنوا من بسط نفوذهم في الوجه البحري بالكامل وعلي فكرة لا داعي لذكر أسماء ملوك الأسرة 21 لأن الموضوع مش مستاهل وكمان لأن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التي لم يتفق عليها علماء الآثار اتفاقاً كاملاً² ، المهم يا سيدي إن عصر الاضمحلال الأخير للفراعنة مكون من عشرة أسر ويمكن أن نعتبره بدأ في الأسرة 21 وحتى الأسرة 30 وهي آخر الأسر الفرعونية بالكامل وكما تعودنا سنلخص العصر بالكامل بسرعة ثم نردش عنه كما نشاء فهذا العصر مكون من خليط من الجنسيات التي حكمت مصر فحكمها الليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس والمصريون أيضاً الذين كافحوا من أجل الاستقلال عدة مرات وقاموا بتأسيس أسر فرعونية حتي انتهى العصر الفرعوني علي يد الفرس بلا رجعة

مصريون من أصل ليبي أم هو احتلال ليبي ؟ :

والجدير بالذكر أن أول من حكم مصر من الليبيين هو الملك (شاشنق الأول) وهو من أصل ليبي وبالمناسبة هو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، أما حكاية الليبيين فتتلخص في أنهم لم يملكوا مصر بالقوة أو بجيوش جراره بل إنهم تسربوا في هجرات جماعية إلي مصر وعاشوا فيها أجيالاً كاملة لفترات طويلة وتمكنوا من الوصول إلي العديد من المناصب الدينية الرفيعة لأنهم دخلوا الديانة المصرية من أوسع أبوابها ، حتي أن الملك شاشنق الأول كان يحتل منصب ديني راقى في هذا العصر قبل توليه الحكم وعلي فكرة عائلة هذا الملك كان مضي عليها في مصر ستة أجيال كاملة³ يعني حصلت علي الجنسية المصرية بلغة هذه الأيام التي نعيشها حالياً وبالتالي قد لا يعتبر هذا احتلالاً بالمعني المفهوم فكم من الملوك والرؤساء في العالم يعود أصلهم من بعيد إلي دول أخرى نتيجة الهجرة القديمة أو التزاوج وخلافه ، المهم إنهم كانوا من أصل ليبي ونجحوا في الوصول للحكم وجعلوا عاصمتهم في منطقة (تل بسطة) بمحافظة الشرقية الحالية وقد تزوجوا من البيت الملكي الفرعوني ليضيفوا شرعية علي حكمهم حيث تزوج الملك شاشنق الأول من ابنة الملك المصري الفرعوني السابق له وعلي فكرة كانت هناك سلطة أخرى في مدينة طيبة جنوب مصر لكهنة معبد آمون ، المهم يا سيدي إن شاشنق هذا استطاع أن يوطد أركان حكمه للبلاد واستطاع إرهاب هؤلاء الكهنة مما اضطرهم إلي الهروب جنوباً⁴ وياريت تفتكر الموضوع ده علشان هؤلاء الكهنة سيكون لهم دور بعد ذلك من مكان هروبهم في الجنوب ، ويبدو أن شاشنق كان من الشخصيات القوية التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ

مملكة بني إسرائيل :

المهم يا سيدي إن هناك معلومة خطيرة جداً عن هذا العصر وقد تحدثت مفاجأة لك عندما تقرأها وهي أن بني إسرائيل في عصر هذه الأسرة الليبية استطاعوا تكوين مملكة قوية في فلسطين حيث ظهر نبي الله داوود عليه السلام وأصبح ملكاً عظيماً هو ثم ابنه سيدنا سليمان عليه السلام وكانت عاصمتهم أورشليم وهي التي بني فيها سيدنا سليمان الهيكل الشهير

¹ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 35

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 414

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 417

⁴ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 418

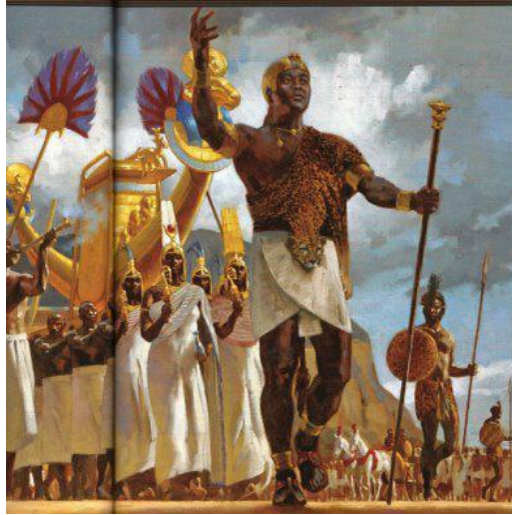
وربما تكون بداية مملكة سيدنا داوود قبل بداية الأسرة الليبية في مصر بوقت قليل أو معاصره لها ويقول أحمد فخري عن ذلك (----) وبناء علي رواية التوراة أيضاً نعرف أن ملك مصر لم يكن علي علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان ابن داوود خلف أباه علي العرش وكانت علاقته بالبلاط المصري علي خير حاله ¹ بل إن مصر وإسرائيل كانت بينهما في ذلك الوقت أنواع من التعاون في مجال الهندسة والبناء ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين البلدين في عهد الملك شاشنق في مصر وعهد الملك (رجبام) في بني إسرائيل في فلسطين وقام شاشنق بشن حملة علي فلسطين واستولي علي خيراتها ويقول أحمد فخري في ذلك (ولكن التوراة تذكر لنا أنه في السنة الخامسة من حكم رجبام حنق شيشاق ملك مصر علي أورشليم واستولي علي كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شيء)²

نهاية حكم الليبيين :

وقد حكم شاشنق واحد وعشرين عاماً وبعد أن مات خلفه ابنه (أوسر كن الأول) ثم توالي ملوك الأسرة الثانية والعشرين علي مصر من أبناء وأحفاد شاشنق وعددهم بالكامل تسعة ملوك وكان آخرهم الملك شاشنق الرابع ودام ملكهم حوالي 220 سنة تقريباً3 وفي آخر أيامها توالى الثورات وقوي نفوذ أمراء الأقاليم وبدأ حكم الأسرة الثالثة والعشرين لمدة 87 سنة تقريباً4 وعددهم ستة ملوك مع استمرار سلطة ملوك الأسرة الثانية والعشرين ولا تختلف كثيراً في الغموض عن سابقتها ، المهم إن كل ما يمكن قوله عن الأسرة 23 في هذه الدردشة أن عدد ملوكها ستة ملوك وجاء بعدها الأسرة 24 وعدد ملوكها اثنين فقط ووصلت الحالة الداخلية في البلاد إلي الحضيض علي حد تعبير أحمد فخري

الحكم النوبي لمصر :

وفي وسط كل هذه الصراعات علي الحكم وتعدد الأسرات المالكة في نفس الوقت ظهرت قوة جديدة طاغية اجتاحت البلاد وسيطرت عليها بقيادة واحد من طراز القادة الكبار (اللي بالي بالك) وهو ملك النوبة في ذلك الوقت الملك (بعنخي) واستطاع أن يؤسس أسرة مالكة جديدة في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين المكونة من خمسة ملوك حكموا مصر لمدة حوالي 52 سنة وطبعاً لازم الواحد يكتب كلمتين عن هذا الموضوع والخلفيات التي أدت لذلك ،



والحكاية تبدأ كما ذكرت من قبل عندما هرب كهنة آمون إلي الجنوب نتيجة لعدم اعترافهم بما يحدث في مصر أثناء الحكم الليبي لها وطبعاً الكهنة قاموا بالواجب في شمال السودان وبلاد النوبة حيث استطاعوا أن يجعلوا تقديس الإله آمون هو الشغل الشاغل لكل حكام هذه المنطقة بل إن السبب الرئيسي لتقدم جيوش الملك بعنخي نحو الشمال كان لتأييد الإله آمون وإنقاذ طيبة من أعدائه والقضاء علي الفوضى والفساد الذي عم مصر كلها ويقول أحمد فخري عن ذلك (-- لم

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 419

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 420

³ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 35

⁴ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 423

يرسل بعنخي هذا الجيش غازياً يريد الفتح والنصر وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها ولهذا نري بعنخي يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويظهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين¹ وأظنك عزيزي القارئ أدركت بوضوح مدي تأثير كهنة آمون علي الملك بعنخي كما أدركت أيضاً تأثير العقيدة الدينية في قيام الأمم وانهيار الأمم الأخرى علي مدار التاريخ ، ويعتبر الملك بعنخي من الشخصيات البارزة أيضاً التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ بقوة فمن الواضح أنه كان راجل محترم وملك مهاب بل إن من الطريف أن هذا الملك السوداني كان يعشق الخيول وعندما شاهد خيول القصر الملكي الذي دخله فاتحاً بعد استسلامه وجد الخيول هزيلة جداً نتيجة إهمالها فوبخ الملك المستسلم علي ذلك أكثر من توبيخه علي الفساد والفوضى التي سادت البلاد في عهده وهذا يدل علي أن الملك بعنخي كان فارس أصيل ويتمتع أيضاً بأخلاق الفرسان ، المهم يا سيدي إنه بعد أن استسلم له ملوك وأمراء مصر بالكامل تقريباً ووعده بأن يدينون له بالولاء أخطأ خطأ شنيع في حق نفسه فقد اعتمد علي هذه الوعود البراقة وعاد بجيشه إلي عاصمة ملكه (نبتا) دون أن يترك من ينوب عنه من أعوانه في مصر وبالتالي سيطر ملوك الشمال مرة أخرى علي البلاد بمجرد عودة بعنخي ، وحكم مصر الملك (تاف نخت) الذي كان موجوداً قبل حملة بعنخي ثم بعد موت تاف نخت حكم مصر ابنه الملك (باك أن رنف) أسماء غريبة جداً ، المهم إن خليفة بعنخي استعاد مصر مرة أخرى وكان اسمه (شاباكو) وعلي فكرة يقال أن تاف نخت وولده باك أن رنف هما ملوك الأسرة الرابعة والعشرين² وقد ذكر أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية أن كلاً من تاف نخت وبعنخي كانا بطلين من الشجعان الطموحين ولكن بعنخي لم يكن له علم بفن الحكم³

الخطر الآشوري :

المهم إن في عهد هذه الأسرة ظهر الخطر الآشوري وقويت شوكة الآشوريين وقرروا مهاجمة فلسطين المتواجد بها بني إسرائيل في ذلك الوقت والطريف والغريب في الموضوع إن الملك النوبي الذي كان يحكم مصر أثناء هذه الأحداث قام بإرسال جيش لمساعدة ملك أورشليم ضد الآشوريين والطريف أيضاً أن حملة الآشوريين فشلت فشل سريع وذريع وعادت مسرعة إلي بلادها حيث انتشر الطاعون بين جنود هذه الحملة وقد فسر بنو إسرائيل ذلك تفسيراً دينياً وقالوا أن هذه معجزة إلهية لإنقاذ أورشليم ، ولكن مع ذلك استمر نفوذ الآشوريين في منطقة الشام بل إن ملك آشور استطاع أن يقتحم مصر بجيوشه واستولي علي مدينة منف⁴ وسيطر علي منطقة الدلتا فقط وحصلت شوية لخبطة وحروب بين السودانيين والآشوريين وتبادلوا السيطرة علي البلاد لفترة ، المهم يا سيدي إن كان لازم يطلع واحد من (الشخصيات إياها) التي تضبط الأمور وتسيطر علي البلاد بقوة وحزم وتعيد الطمأنينة للشعب وعلي فكرة الملك القوي هو أساس الأمان ورمانة الميزان في أي مكان وزمان

بسماتيك الأول يحرر البلاد :

وجاء الفرعون المصري بسماتيك الأول ليطرده الآشوريين ويحرر البلاد من الأجنبي الغزاة ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين المكونة من ستة ملوك حكموا مصر حوالي 138 سنة⁵ من سنة 663 ق م إلي سنة 525 ق م وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات ولكنه أخطأ خطأ فادح عندما استعان بالجنود المرتزقة اليونانيين (الإغريق) في تحقيق أهدافه بالإضافة إلي الجنود المصريين ولنا هنا وقفة حيث أن أي شعب يفقد روح القتال والجهاد يفقد بالتالي عزته وكرامته ويهون أمره بل إن الشعب المصري في عهد هذه الأسرة لم يفقد هذه الروح بالكامل تقريباً فقط بل إنه فقد أيضاً روح الإبداع الفني فتراه يكرر ويحاكي الفن الفرعوني السابق⁶ دون تجديد أو ابتكار نظراً لوجود العديد من اليونانيين الإغريق في بلاده سواء

1 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 428

2 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 36

3 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 433

4 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 438

5 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 36

6 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 447

بصفتهم محاربين أو بصفتهم تجار فحاول أن يتمسك علي قدر المستطاع بأمجاد سابقه خوفاً علي هويته من الضياع في ظل الحضارة الإغريقية فأصبح يقلد الفراعنة الأوائل في فنونهم دون أن يقدم حضارة جديدة ، وطبعاً أكيد كان هناك سبب قوي وراء استعانة بسماتيك الأول بهؤلاء الجنود المرتزقة ليحقق أهدافه في استقلال البلاد ، المهم يا سيدي إن في عهد هذه الأسرة المكونة من ستة ملوك وبعد أن دام ملك بسماتيك الأول حوالي خمسين سنة أو أكثر نعمت فيها مصر بالاستقلال حصلت شوية حاجات من التي تعرفها وشوية لخبطة وإنت عارف طبعاً إن أنا عندما أقول شوية لخبطة معناها إنني لا أنوي أن أخوض فيها حتي لا أقع في المحذور من المعلومات الغير صحيحة فأنا أكتفي بالأحداث الشهيرة والشخصيات اللامعة

اختلال ميزان القوى في العالم :

المهم يا سيدي الفاضل إن العالم في ذلك الوقت بدأت تختل فيه موازين القوى العالمية بحيث ظهرت قوى جديدة وتراجعت قوى أخرى وظهرت الصراعات الدامية بين كل هذه الحضارات والدول وطبعاً مصر ليست بعيدة عن الأحداث لأن ما يحدث في العالم لا بد أن تتأثر به مصر وتتفاعل معه سواء برغبتها أو بدونها فمثلاً من الدول التي كانت تتصارع في ذلك الوقت أو بمعنى أدق الممالك التي أصبح لها صوتاً مسموعاً في العالم مملكة الفرس ومملكة بابل ومملكة آشور واليونان (الإغريق) وطبعاً مملكة بني إسرائيل في أورشليم وغيرهم ، المهم إن وصل لحكم مصر خلال كل هذا ملك اسمه (نكاو الثاني) وهو من أسرة بسماتيك الأول والظاهر إن عمك نكاو كان غاوي تدخل في الصراعات التي نشأت بين بابل وآشور وبعض التحالفات والمشاكل التي أحدثها الفرس في المنطقة يعني من الآخر كده كان عايز يخلي مصر صوتها مسموع في سياسة هذه المنطقة من العالم¹ فقرر التدخل بجيوشه في المنطقة وحصلت مشاكل مع بني إسرائيل وغيرهم مما أدى إلي اصطدام الجيش المصري بجيش الملك (نبو ختنصر) ملك بابل مما أدى إلي حدوث هزيمة ساحقة وارتد الجيش المصري بخفي حنين إلي مصر ويبدو أن نكاو الثاني اتعلم الدرس واهتم بعد ذلك بتكوين أسطول ضخم واهتم بالتجارة وعلي فكرة لازم نقول في هذه الدردشة حاجة ظريفة حدثت في عهد هذا الملك نتيجة لاهتمامه بالبحر والملاحة البحرية فقد استطاع البحارة المصريون الإبحار والدوران حول إفريقيا بالكامل والعودة إلي مصر وهو ما يعرف حالياً برأس الرجاء الصالح لأن المؤرخ الشهير القديم هيرودوت بالرغم من عدم تصديقه لذلك إلا أن الملاحين ذكروا أنهم كانوا يرون الشمس تشرق عن يسارهم أثناء الذهاب ثم تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم² مما يؤكد زعمهم ، المهم إن من أهم الأحداث التي وقعت في عهد الملك البابلي (نبو ختنصر) وفي رواية أخرى اسمه (بختنصر) انهارت مملكة بني إسرائيل علي يديه وسقطت أورشليم وكل هذا طبعاً بمشيئة المولي عز وجل وتشتت بنو إسرائيل بعد ذلك وجاء بعضهم إلي مصر ، وعلي فكرة بعد أن مات نكاو الثاني تولي بعده الملك بسماتيك الثاني ثم الملك (واح إب رع) ولا توجد تفاصيل كثيرة عنهم إلا أن اليهود هربوا إلي مصر في ذلك الوقت وإلي دول أخرى خوفاً من مذابح البابليين التي كانت بلا رحمة ، المهم إن بعد كده وصل للحكم الملك أحمس الثاني بعد أن اشترك مع من سبقه في الملك لفترة وفي عهد هذا الملك أصبح الاعتماد علي الإغريق والتودد إليهم مألوفاً وقد كتب هيرودوت يمدح هذا الملك ويعد صفاته الحميدة ويعتبر عهده من الفترات المزدهرة والمستقرة إلي حد ما لأنه كان راجل دبلوماسي ناجح وما إن مات بعد 43 سنة علي العرش³ حتي بدأت مشاكل من نوع جديد مع خليفته الملك (بسماتيك الثالث) آخر ملوك هذه الأسرة حيث لم يصبح خطر بابل هو الموجود

الخطر الفارسي :

ولكن ظهر ملك قوي في بلاد الفرس اسمه قورش ولم تكن هناك أي خطورة منه أيام أحمس الثاني ولكن ابنه بسماتيك الثالث عاصر ابن قورش المسمي بالملك قمبيز الذي قرر تحقيق حلم أبيه بعد أن اجتاحت مملكة بابل وأراد أن يضم مصر إلي المملكة الفارسية وكان هذا من بخت عمنا بسماتيك الثالث الغلبان ، والجدير بالذكر أن أحد الضباط الإغريق العاملين

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 448

² مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 448

³ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 454

بالجيش المصري ذهب إلي قمبيز وأعطاه كافة المعلومات التي يحتاجها لغزو مصر وأوضح له مواطن الضعف في الاستحكامات الدفاعية المصرية بل شجعه وأغراه علي دخول مصر ودخلها فعلاً بعد مقاومة عنيفة وحصار لمدينة منف إلي أن تم الاستسلام التام وأصبحت مصر ولاية فارسية لأول مرة



والظريف إن قمبيز أرسل حملة إلي الواحات وحملة أخرى إلي الجنوب وقد فشلت الحملة علي الجنوب عند حدود مملكة نبتا أما الجيش الذي ذهب في اتجاه سيوه فلم يصل إليها ولم يرجع أيضاً بل إنه مدفون حتي الآن تحت الرمال نتيجة لعاصفة رملية هائلة أطاحت به وهلك عن آخره في الصحراء ، المهم إن الفرس أسسوا في مصر أسرة حاكمة جديدة فارسية طبعاً وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة 525 ق م إلي سنة 404 ق م¹ وهذه الأسرة تكونت من خمسة ملوك وبالرغم من بعض الإصلاحات والتودد الذي أبداه بعض ملوك هذه الأسرة للمصريين إلا أنهم قاوموا الاحتلال بشدة ونشبت ثورة عظيمة أدت إلي قيام الفرس بأعمال قمع وعنف للسيطرة علي البلاد بقبضة من حديد وكان أيامها اليونانيين في صراع مع الفرس بالمناسبة وكانوا يشتمون فيهم كلما ثار عليهم المصريون أما اليهود الموجودين في مصر فقد كانوا أعواناً للفرس ضد المصريين² علي طول الخط وفي سنة 449 ق م تم توقيع معاهدة صلح بين الفرس واليونانيين

الثورة ضد الفرس :

ثم بعد ذلك بسنة تقريباً قامت ثورة رهيبة ومعارك عنيفة بين المصريين والفرس انتهت بتحرير البلاد منهم وطردهم خارج مصر وبدأ المصريون هذه الثورة بقتال اليهود لشدة العداء والكراهية بينهما ثم قاتلوا الفرس وكان سبب تملق ومساعدة اليهود للفرس هو أن سمحوا لهم ببناء معبدهم وإعادة تشييد هيكلهم³ فقررروا الوقوف بجانبهم ضد المصريين لتحقيق مصالحهم الخاصة مما أدى إلي هذه الكراهية الشديدة لهم من المصريين فأطاحت الثورة بهم وبالفرس واستمرت هذه الثورة حوالي أربعة سنوات وكان قائدها واحد من الجماعة إياهم وهم القادة الذين نتحدث عنهم بصفتهم من مؤسسي الدول وقد استمر حكمه من سنة 404 ق م إلي سنة 389 ق م وهو مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين وعلي فكرة كان عدد ملوك هذه الأسرة ملك واحد فقط هو نفسه هذا الشخص واسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر (أمير تي) أما في كتاب مصر الفرعونية فاسمه (آمون حر) وعلي العموم هذا الملك هو الملك الوحيد في هذه الأسرة وكان يحكم مصر من عاصمته (سا) "سايس" صان الحجر حالياً ولا توجد أي آثار توضح ما تم في عهد هذا الملك ثم بعد ذلك وبهدوء تم نقل الحكم إلي أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرين (398-378 ق م) وهي مكونة من أربعة

1 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 37

2 مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 462

3 لم يختلف أسلوب اليهود بعد ذلك طوال تاريخهم مع الدول القوية في العالم فهم يتعاونون مع أقوى دولة في العالم في كل عصر وقد يسيطرون عليها ويتحكمون في قراراتها وقد يفشلون مع بعض الدول وينجحون مع دول أخرى نجاحاً نسبياً ، وسوف نري ذلك عندما كان اليهود يرسلون مندوباً لهم إلي الإمبراطور الروماني أثناء تواجدهم في الإسكندرية

ملوك I أولهم واحد اسمه (نايف عاو رود) "تفريتس الأول" وكان علي ما يبدو من زملاء أمون حر في حربه ضد الفرس ، وكانت عاصمة الأسرة التاسعة والعشرين مدينة مندس (تل الإمديد وتل الربع شمال شرق السنبلوين) ، (وكان أهم ملوك هذه الأسرة هو مؤسسها نايف عاو رود الذي حكم ست سنوات من 399-393 ق م وتحالف مع الأسبرطيين ضد الفرس وأمدهم بالقمح بما يكفي لتجهيز أسطول مكون من مائة سفينة مقاتلة ولكن المدد لم يصلهم إذ اعترضه القائد الأثيني " وهو قائد الأسطول الفارسي" وحطمه عند رودس ، وتولي بعده الملك هكر واستمر حكمه سبع سنوات من 393 إلي 380 ق م حاول فيها القيام بإصلاحات داخلية في البلاد فرمم المعابد وتعاون بالمال والمثونة مع أثينا ضد الفرس وانتهت أيامه ، وتولي بعده ملكين حكم كل منهما مصر بضع شهور ثم انتقل العرش إلي أسرة جديدة هي الأسرة الثلاثين)² المهم إن هذه الأسرة لا يوجد ما يستحق أن يذكر عن عهدها في هذه الدردشة أكثر من ذلك وآخر أيامها ملخبط شوية وإنه عارف إنني مش عايز أوجع دماغك بحاجات ملخبطة ، المهم ظهر علي الساحة ملك جديد لأسرة جديدة وهي الأسرة الثلاثين

الأسرة الأخيرة في الفراعنة :

وهذا المؤسس اسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر الملك (نقطانب الأول) بينما في كتاب مصر الفرعونية اسمه الملك (نخت نيف) أو (نختنبو) وأنا شايف أن نستخدم اسم نقطانب الأول لسبب بسيط جداً وهو أنه أسهل في الكتابة والنطق إلي حد ما من اسم نختنبو ، المهم إن عمنا نقطانب الأول علي ما يبدو قد اعتلي عرش مصر بمساعدة الكهنة وعلي فكرة هذه الأسرة عدد ملوكها ثلاثة ملوك فقط واستمرت في الحكم من سنة 378 ق م إلي سنة 341 ق م وفي عهد أول ملوكها نقطانب الأول حاول الفرس اقتحام مصر لإعادة احتلالها ولكنهم عادوا فاشلين بسبب فيضان النيل الذي كان عائقاً أمام قواتهم ، المهم إن نقطانب الأول كان راجل عايش في حاله ولا يفكر في إثارة من حوله من دول وجيوش تحيط بمصر وكان كثير البناء للمعابد والمباني وقد ترك هذا الفرعون آثاراً خالدة كما يقول أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية ص 466 (وتمنع نخت نيف بعد ذلك بشئ من الهدوء وكان نشاطه المعماري كبيراً فخلف آثاراً كثيرة في أكثر بلاد مصر في الدلتا والصعيد) وطبعاً أحمد فخري في هذه الجملة يقصد بكلمة بعد ذلك أي بعد ارتداد الفرس من حملتهم الفاشلة علي مصر ، وتمر الأيام ويأتي ابنه (جد حر) أو (تاخوس) الذي لم يعجبه الموضوع وحكاية السلم والهدوء فقرر أن يعيد أمجاد الفراعنة القدماء ونسي أو غفل عن أن أسباب القوة التي كانت معهم تختلف عن ما معه ، المهم إنه ركب دماغه وجمع جيش كبير وأسطول كبير وكان طبعاً الجيش به عدد غير قليل من الإغريق المرتزقة وإليك ما جاء عن عدد هذا الجيش في كتاب مصر الفرعونية صفحة 467 (وكان غرض جد حر من ذلك جمع جيش كان فيه 80000 جندي مصري و 10000 من المرتزقة الليبيين و 1000 من جنود اسبرطة وكان معه أيضاً أسطول يزيد عدد سفنه علي مائتي سفينة من ذات الثلاث طبقات وتقدم جد حر علي رأس جيشه العظيم واثقاً من النصر بعد أن ترك أخاه نائباً عنه في الحكم) وعلي فكرة كان ابن جد حر معاه في الجيش بينما أخوه كان في مصر وتآمر العم مع ابن أخيه ضد الملك أثناء المعركة وأرسل إليه يبايعه بملك مصر في وجود أبيه ونتيجة لهذه الخيانة ترك الابن أبيه في المعركة وعاد إلي مصر ومعه عدد ضخم من الجنود مما أدى إلي تسرب باقي الجيش ، ووجد جد حر نفسه بلا نصير ووسط كل هذه المؤامرات هرب الملك إلي معسكر الفرس الأعداء وهو موقف غريب جداً أن يفر الملك إلي أعداءه أثناء المعركة مما يؤكد أن مرارة الخيانة والتواجد وسط الخونة كانت أمر من الذهاب إلي العدو والمثل الشعبي بيقول (إيه اللي رماك علي المر قال إيلي أمر منه) وكل هذا طبعاً متوقع وطبيعي وأقصد الخيانة التي حدثت لأن الجيش الذي يتكون من عدة عناصر يفقد ولاءه بسهولة وفي أي لحظة ويغادر ميدان القتال وهكذا المرتزقة دائماً يقاتلون في سبيل المال ، وأخيراً جاء الكلام عن الملك نقطانب الثاني (نختنبو الثاني) آخر فرعون مصري في التاريخ وآخر ملوك الأسرة 30 وقد عرفنا كيف وصل له الحكم والسلطة وكان هذا الملك مش غاوي حروب مثل نقطانب الأول فحاول أن يعيد الاستقرار لمصر ويبني المعابد ويهتم

1 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 38
2 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة 259

بالفن ، ونعمت مصر في عهده بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاماً علي الأقل¹ إلي أن جاء اليوم الموعود الذي قرر فيه الفرس تكوين جيش ضخم مخصوص لغزو مصر بعد أن صفوا حساباتهم مع باقي الدول وتفرغوا تماماً لمصر وملكها الغلبان الذي كان يهتم بالخطط الدفاعية فقط

المعركة الفاصلة ونهاية الفراعنة :

واسمح لي يا صديقي أن أتحدث قليلاً عن بعض المعلومات عن المعركة الفاصلة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد وذلك لحساسيتها حيث أن الحاكم المصري الذي جاء بعد نقطانب الثاني هو اللواء محمد نجيب فلم يحكم مصر مصرياً واحداً بعد هذه المعركة² إلا بعد ثورة يوليو 1952 م ، وسيكون مصدر هذه المعلومات عن هذه المعركة من الجزء رقم 13 من موسوعة سليم حسن مصر القديمة حيث ذكر أعداد الجنود وجنسياتهم في الجيش المصري بقيادة نقطانب الثاني (الفرعون الأخير) بل إن هذا الفرعون لم يحتوي جيشه علي جنود فقط من الإغريق ولكنه كان يضم جنود من ليبيا وكان يعاونه في القيادة اثنين من القادة الإغريق ، المهم يا سيدي إن الجيش كان مكون من عشرين ألف مقاتل من الجنود الإغريق المرتزقة وعشرين ألفاً من الليبيين المرتزقة وستين ألفاً من المصريين³ بينما كان الجيش الفارسي مكون من ثلاثة أضعاف الجيش المصري كله بل إن من الطريف أنه كان يضم أيضاً عدداً كبيراً من الجنود الإغريق المرتزقة وبدأت المعركة وتساقت المدن المصرية مدينة وراء أخرى وكانت بعض المدن ومن فيها من حاميات إغريقية تتفاوض علي الاستسلام بدون علم الفرعون نفسه ،



المهم يا سيدي إن الباشمهندس نقطانب الثاني قرر الفرار بعد كل هذه الهزائم المريرة ومعه كنوز أجداده ربما لإعادة المحاولة مرة أخرى من الجنوب أو ربما لفقده الثقة في الجيش أو أي سبب آخر ، المهم إن الفرس دخلوا مصر هذه المرة بغنغ غير عادي وخربوا المعابد واحترقوا الآلهة وقبضوا علي السلطة بيد من حديد ، وعلي فكرة مكتوب في موسوعة حكام مصر إن الفرس في هذه المرة أسسوا الأسرة الواحدة والثلاثين وهي مكونة من ثلاثة ملوك فقط حكمت مصر من سنة 341 ق م إلي سنة 333 ق م تقريباً وهي فترة قصيرة نسبياً انتهت بدخول الإسكندر المقدوني مصر وسيطرته عليها كما سيطر علي معظم دول العالم ولكن هذه قصة أخرى سنتناولها في الفصل القادم إن شاء الله

نظرة أخيرة علي العصر الفرعوني :

ولكن قبل أن نترك الفراعنة يجب أن نذكر أن عهد نقطانب الأول والثاني كان هدف الملك إرضاء الكهنة والاعتماد علي الأجانب في الدفاع عن مصر بالإضافة للجيش المصري واهتموا بالبناء حتي أن الأسرة الثلاثين تركت في طول البلاد وعرضها آثاراً تكاد تصل في كثرتها وعظمتها لآثار الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية الشهيرة ربما يكون السبب في ذلك هو حلاوة الروح الفرعونية عندما كان العصر الفرعوني يحتضر ، وجدير بالذكر أن الفراعنة قدموا للبشرية الكثير في العديد من المجالات كالطب والهندسة والفلك والفن والأدب والكتابة والورق وغيرها ولا زالت آثارهم الخالدة تشهد علي حضارتهم والمستوي العلمي الراقى الذي وصلوا إليه بل إن هناك العديد من آثارهم يعجز الناس حالياً عن تخيل كيفية إبداعهم لها

¹ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص 468

² في الواقع نجح أحد المصريين في طرد الفرس من البلاد بعد نقطانب الثاني بفترة ولم يدم حكمه طويلاً وسرعان ما استعادوها

³ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج 13 ص 326

بهذه الروعة والدقة المتناهية ولولا ادعاءاتهم الدينية وآلهتهم المتعددة وكفرهم بالله عز وجل وتأليه ملوكهم لولا ذلك كله لكانت قد افتخرت بهم وبعصورهم العريقة وقد سيطر الفراعنة علي جزء كبير من العالم في عصر إمبراطوريتهم التي أسسها الفرعون تحتمس الثالث وقاموا بنشر حضارتهم لفترة طويلة من الزمن ولا زالت أسرارهم تحير العلماء إلي الآن وخصوصاً سر التحنيط الذي برعوا فيه وكان الكهنة هم محور حياتهم ولا يهناً أي ملك فيهم علي العرش ويكتسب شرعيته إلا إذا نال رضا الكهنة وقد كان الكهنة يزينون للفرعون سوء عمله ويمجدونه وينسبون إليه ألقاباً ما أنزل الله بها من سلطان ، {كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (11) سورة آل عمران ، {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (46) سورة غافر

10. الإسكندر والبطالمة والديانة الفرعونية ورانا ورانا

عجلة القيادة العالمية :

الأقوياء فقط في هذا العالم هم الذين يفرضون علي غيرهم من الضعفاء حضارتهم وثقافتهم بل وفي بعض الأحيان ديانتهم أيضاً ويضعون منهجاً لتطبيقه علي الجميع ، وأسباب القوة غالباً يكون مصدرها العلم والمال والعقيدة الدينية التي لا تقل في خطورتها وتأثيرها عن أي سبب آخر من أسباب القوة ، المهم إن علي مر العصور نجد دول قوية تأكل دول أخرى وتحتويها لحين ظهور دولة قوية أخرى وهكذا ، وقد يتواجد في الوقت نفسه عدة قوي وحضارات تتصارع وتتنافس علي الإمساك بعجلة القيادة العالمية إذا جاز التعبير لتقود العالم إلي ما تريد طبقاً لمصالحها وأهدافها ، فنجد مثلاً أن الفراعنة قد سيطروا علي العالم لفترة وطغت ثقافتهم علي الجميع في عهد الإمبراطورية المصرية التي أسسها تحتمس الثالث في الأسرة الثامنة عشرة ، ثم نجد دول أخرى ظهرت بعد ذلك وحاولت بل ونجحت في فرض سيطرتها علي العالم ومن هذه الدول الدولة الفارسية التي احتوت الإمبراطورية المصرية بالكامل وضمت مصر إليها لتصبح ولاية تابعة لها ، أما من سنتكلم عنهم في هذا الفصل فهم الإغريق (اليونان) ومقدونيا

الإسكندر المقدوني¹ ونشأته :

ويعتبر الإسكندر المقدوني هو بطل هذا الفصل والشخصية البارزة فيه بالإضافة إلي بعض الشخصيات الأخرى ، وتبدأ الحكاية عندما ضم الملك فيليب المقدوني بلاد اليونان في تحالف عسكري رغم أنفهم ليقضي علي الدولة الفارسية ويلتهمها هي وممتلكاتها ويمسك بعجلة القيادة العالمية ، وقد أعد لذلك كل ما تخيله ممكناً لتحقيق أهدافه ، بل إنه قام بعمل برنامج خاص لإعداد ابنه الإسكندر ليخلفه في الحكم بعد موته ليضمن استمرار الملك في أسرته فقام بتكليف أفضل العناصر لتعليمه فنون القتال والخطط الحربية وكل ما يلزم لهذا الغرض بل إنه كلف أرسطو شخصياً ليعلمه فنون الحكمة والثقافة² فشب الفتى علي القوة والشجاعة والحكمة بل وخاض بعض الحروب مع أبيه وتم تكليفه بمهام جسام أثبت فيها جدارته وشهد له الجميع بذلك ،



الإسكندر الأكبر



تمثال للإسكندر المقدوني

والمشكلة كلها في هذا الموضوع هي أم الإسكندر التي كانت تقديس الديانة الفرعونية فقد كانت هذه الديانة قد عمت العديد من الدول في العالم القديم وقد نقل بعض جنود الإغريق المرتزقة الحضارة والثقافة الفرعونية إلي بلادهم ، المهم يا سيدي إن هذه السيدة غريبة الأطوار قامت بإقناع ابنها منذ نعومة أظفاره أنه ابن الإله (زيوس آمون رع) في مصر

¹ لا توجد علاقة بين هذا الإسكندر وبين ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم لأن الإسكندر المقدوني المعروف بالإسكندر الأكبر وقد يسميه البعض الإسكندر ذو القرنين كان رجلاً وثنياً بل الحضارة الإغريقية كلها مؤسسة علي الوثنية وكل الآثار التي تخلفت عن هذه العصور بما فيها آثار الإسكندر تؤكد ذلك وسيوضح عندما نقرأ هذا الفصل ما كان يكنه الإسكندر من احترام وتقديس للديانة الفرعونية القديمة والتهتها

² معالم تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتي الفتح العربي (د سيد توفيق ، د سيد الناصري) القسم الثاني ص 17

وصاحب المعبد الشهير في سيوه والذي يتدفق إليه الحجاج الإغريق وغيرهم ، المهم إن الملك فيليب بعد أن تم قتله نتيجة الغر والخيانة من أحد ضباطه أو بتدبير من الفرس والله أعلم تولى الإسكندر أعباء الحكم بعد أبيه وحقق حلمه الكبير وسحق الفرس وضم ممتلكاتهم إلي ملكه وكان قائداً عظيماً ومحبوباً بل إنه كان يستقبل بحفاوة بالغة في الدول التي يدخلها منتصراً ومن بينها مصر¹

حضور الإسكندر إلى مصر :

والظريف إن الإسكندر عند حضوره إلي مصر مكث بها حوالي ستة أشهر فقط² وأمر ببناء مدينة الإسكندرية لتكون مركزاً للتجارة العالمية علي البحر المتوسط وتصبح معقل للحضارة الإغريقية ، والجدير بالذكر أنه طلب زيارة معبد آمون في سيوة وتحمل مشقة السفر إلي هناك وعند وصوله استقبله كهنة المعبد بحفاوة بالغة وأدخلوه قدس الأقداس ، يعني من الآخر كده وبدون لف ولا دوران لبسوا الرجل العمة وعملوا له البحر طحينة ووجدوا سبوبة حلوة من وراه ، وأظرف ما في هذه الزيارة إنه عندما طلب أن يتحدث إلي الإله آمون المزعوم من خلال وسيط من الكهنة طبعاً ، طلب من الإله آمون أن يقتص من قتلة أبيه فيليب فكان هذا المشهد الذي يرويهِ الدكتور سيد الناصري في القسم الثاني من كتاب معالم وتاريخ حضارة مصر صفحة 22 (--- ولا يعرف أحد ما دار من حوار بين الإسكندر وروح الإله عن طريق وسيط هو الكاهن ، لكن المؤرخ أريانوس يروي أن الإسكندر سأل الإله عما إذا كان قد اقتص من قتلة أبيه فيليب ورد عليه الكاهن قائلاً " وضح عبارتك فلا أحد من البشر يقدر علي قتل أبيك " وقد اعتبر الإسكندر ذلك اعترافاً بأنه ابن آمون رع وتغير سلوكه من هذه اللحظة فلم يعد يعتبر نفسه بشراً --) ،



المهم يا سيدي إن هذه الرحلة بلا شك قد عاد منها الإسكندر مغوراً معتداً بنفسه والظريف إنه قام قبل مغادرة مصر بتقديم القرابين للآلهة لمباركة خطواته القادمة ، وطبعاً علشان الإسكندر واحد من القادة الكبار إياهم وعلشان حضر إلي مصر ونظر إليها النظرة إياها برضه واخذ بالك فقبل أن يغادر مصر ترك فيها ثلاث سلطات رئيسية موزعة علي عدة أشخاص من جنسيات مختلفة ليضمن عدم استقلال مصر عن الإمبراطورية لأن هذا الرجل قد علم تماماً إمكانات مصر فهي قاعدة اقتصادية وتجارية وعسكرية مهمة جداً تضمن لمن يحكمها الاستقرار والدخل الكبير كما يمكن الدفاع عنها بسهولة إذا تم استغلال إمكاناتها ، وفي الحقيقة كل من سيعرف هذه الحقائق عن مصر بعد ذلك في تاريخها كله كما سنري سوف يستغله إذا كان من الشخصيات البارزة كما لو كانت مصر تتزوج كل فترة من قائد عظيم يعشقها فتعطيه المجد والثروة ويعطيها الأمن والاستقرار والرخاء ولكن لا يتوفر هذا في جميع القادة بل في نوعية خاصة جداً منهم من أمثال الإسكندر الذي نتحدث عنه وبطليموس الأول الذي سنتحدث عنه في هذا الفصل إن شاء الله وغيرهم وأفضل مثال قريب عن هؤلاء الرجال هو محمد علي باشا في العصر الحديث ، المهم يا سيدي إن الإسكندر قام بإعطاء السلطة الإدارية للمصريين والسلطة العسكرية للمقدونيين أما السلطة المالية فلإغريق اليونانيين حلفاءه والله أعلم ، واستمر الإسكندر في توسيع

1 كان المصريون يكرهون الاحتلال الفارسي ويتمنون قدوم الإسكندر ليخلصهم منه لأن الإسكندر يحترم دينهم والفرس علي العكس
2 معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 25

أنحاء الإمبراطورية العظيمة وتزوج من امرأة فارسية ليكون الوليد نصفه مقدوني ونصفه فارسي وبالتالي تتزوج الحضارة الإغريقية من الحضارة الفارسية فيحكم العالم كله بسهولة ، المهم إنه في النهاية أصابته حمي قاتلة ومات دون أن يترك وريثاً قوياً يخلفه علي العرش لأنه من الآخر كده وبدون لف ولا دوران ترك أخ عبيط وابن لازال في رحم زوجته الفارسية وعلي فكرة كان الإسكندر يصطحب معه العلماء في حملاته (وقد فعل ذلك نابليون في العصر الحديث) لنشر الثقافة وجمع المعلومات وتحليلها ، وإذا تكلمنا عن الحضارة الإغريقية العريقة سنجد أنها من أقدم الحضارات في العالم ومن الجائز أن يكون المرتزقة الإغريق الذين كانوا يعملون في الجيش المصري في أيام آخر الملوك الفرعنة قد قاموا بنقل أسس الحضارة الفرعونية إلي بلادهم أي أن الحضارة الإغريقية الوثنية مأخوذة والله أعلم عن الحضارة المصرية القديمة للتشابه الكبير في تعدد الآلهة وتوزيع الأدوار عليها كأن يكون هناك إله للحرب وإله للحب وخلافه كما أن التماثيل من الأمور المشابهة أيضاً مع اختلاف مظاهرها ولكنها في النهاية عبادة الأصنام يا صديقي العزيز

اجتماع القادة بعد وفاة الإسكندر :

المهم يا سيدي إن كبار القادة اجتمعوا في بابل وهي العاصمة التي أرادها الإسكندر أن تكون مقر حكم العالم كله وهذا الاجتماع كان بعد موت الإسكندر وكان بقيادة أكبر القادة سناً ليتفقوا علي ما ستسير عليه الأمور في الإمبراطورية الضخمة بعد موت مؤسسها وعلي فكرة كان أكبر واحد فيهم اسمه الجنرال (برديكاس) قائد القوات المقدونية الذي كان الإسكندر قد سلمه وهو في النزاع الأخير أختامه الخاصة وأوراقه وقد روت أحد الأقاويل أن الإسكندر وهو في النزاع الأخير سأله أحد قواده " من أجدر يرث الإمبراطورية ؟ " فأجاب علي الفور " للأقوي منكم " ¹ ، المهم يا سيدي إنهم اتفقوا علي توزيع الولايات بينهم والوصاية علي العرش لتكون للجنرال برديكاس العجوز نسبياً ، المهم كان هناك شخصية غير عادية موجودة في هذا الاجتماع ألا وهو بطليموس الذي كان علي قدر كبير من المكر والدهاء وقد اختار مصر لتكون من نصيبه تمهيداً لتحقيق أغراضه لأن هذا الرجل قد عرف ما لمصر من إمكانيات تجعله يشيد ملكاً عظيماً له ولأولاده من بعده ، وقد كان بطليموس علي يقين أن عرش الإمبراطورية في طريقه إلي الموت وسوف يستقل رسمياً بمصر بعد ذلك وهذا ما تم بالفعل ولكنه أجل تنفيذ هذه الأحلام والأهداف لحين استقرار الأمور وحتى لا يفتن برديكاس وباقي القادة لما يريده ، وأظرف حاجة في الحكاية إن باقي القادة لم يرغبوا في مصر عند تقسيم التورثة وهو الوحيد الذي اختارها ولنا هنا وقفة عند بطليموس الأول

الملك بطليموس الأول (سوتير)



نعيد ترتيب الحكاية من الأول كما يلي : (رغم فتوحات الملك الإسكندر الأكبر ابن الملك فيليب المقدوني والملكة أولمبياس ، فإنه لم يعقب ولداً ليكون خليفة له علي الإمبراطورية المقدونية ، فوفاته كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فلم ير ابنه الأول الوحيد من زوجته الأميرة روكسانا ابنة الملك الفارسي دارا الثالث ، وفي الوقت نفسه كان أخوه الملك فيليب

¹ معالم وتاريخ حضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 26

أرهيدايوس مختلاً عقلياً فأصبحت الإمبراطورية بلا إمبراطور رشيد يتولي أمورها فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة 323 قبل الميلاد والتي استمرت حتي سنة 30 قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون ، وفي بداية حكمه استطاع أن يعيد إلي شعب مصر التماثيل والكتب المقدسة التي كان الفرس قد نهبوها من مصر ، كرد لاعتبارهم ، فلقي بذلك تأييد الكهنة والشعب المصري علي السواء ، ثم تخلص من وزير المالية الإغريقي الذي كان يستغل أموال الشعب المصري ومحاصيلهم ، ولقد استطاع بطليموس الأول أن يأتي بالموكب الجنائزي للإسكندر الأكبر إلي مصر ، وأن يقوم بدفنه في مدينة الإسكندرية المحببه إليه ، وقد أحسن المصريون استقبال الجثمان وأثنوا علي تقوي بطليموس بن لاجوس الذي فضل أن تكون مصر هي مثنوي الإسكندر الأكبر ، وليس مقدونيا كما هو متبع ، وبذلك أصبحت الإسكندرية هي كعبة الإغريق يأتون إليها من كل حذب لمشاهدة ضريح معبود الإغريق العظيم وقائدهم المظفر الذي فرض نفسه علي تاريخ البشرية

وكانت سياسة بطليموس الأول سوتير تتلخص من خلال أعماله في حماية مصر وحدودها من الشرق والغرب ، وإقامة قاعدة بحرية للأسطول في قبرص لتساعده علي نشر نفوذه في آسيا الصغرى أو بلاد اليونان ، كما كان في مخططه دائماً الإستيلاء علي سوريا لتأمين الطرق التجارية والاستفادة من أخشاب الأرز من أجل بناء الأسطول القوي ، واستطاع إخضاع منطقة ليبيا ، كما صالح حكام مملكة مرو في الجنوب وكسب صداقتهم ، ولتحقيق هذه الأهداف استلزم الأمر دخول بطليموس الأول في العديد من الحروب السياسية والعسكرية ، حتي استطاع بناء دولة بطلمية عظيمة قاعدتها مصر ولقد حمل الملك بطليموس الأول سوتيروس الألقاب المصرية الفرعونية التقليدية ، أما لقب سوتيروس فيعني المنقذ أو المخلص ، وإرضاء للشعب المصري الذي ينظر إلي الملك الفرعون الذي لابد أن يجري في عروقه الدم الملكي المقدس تزوج بطليموس الأول من إحدى الأميرات المصريات حتي يعطي لنفسه الحق في تولي عرش مصر طبقاً للتقاليد المصرية المتبعة كما أبقى علي نظام الإدارة الفرعوني القديم واحترم حقوق طبقة الكهنة وامتيازاتها ، وجعل الإسكندرية هي عاصمة البلاد بدلاً من منف ، وقد حرص بطليموس الأول علي الحفاظ علي الدم الإغريقي نقياً حتي لا يضيع في بحر المصريين ، ولهذا فرغم احترامه لمشاعر المصريين حرم الزواج بين الشعبين ، ولقد اهتم بطليموس الأول بتوطيد ودعم تجارة مصر في حوض البحر المتوسط وقام بسك عملة مصرية تحمل إحداهما علي وجهيها صورة كل من الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول ، وفي الوقت نفسه حرص علي دقة وزن العملة وصفاء ونقاء وزنها ، سواء كانت ذهبية أو فضية ، وقد فكر بطليموس الأول في وضع ديانة جديدة لتوحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً من أجل السلام والتعايش السلمي وهي ديانة سيرابيس المصرية المتأغرقة - عبارة عن توفيق بين الديانتين - وحرص بطليموس الأول علي حضور جميع الاحتفالات الدينية وقام بترميم المعابد الشهيرة ، ولم يهمل بطليموس الأول النواحي الثقافية والفكرية فأحدث نهضة فنية وعلمية كبرى في مصر تذكرنا بحضارة مصر الفرعونية القديمة ، وإن كانت اقتصر علي الإسكندرية أكثر من سواها من مدن مصر ، وعندما زاد عدد العلماء والفنانين والفلاسفة في مدينة الإسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم أطلق عليها اسم الموسيون أي بيت ربات الفنون والآداب التسع ، وتم بناء مكتبة عظمي أحضرت لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان وازدادت أعداد الكتب في عهد خلفاء بطليموس الأول حتي وصلت إلي 700 ألف كتاب بمكتبة الإسكندرية

وقد ظل بطليموس الأول يعمل بنشاط لا يكل وبعزيمة لا تلين حتي بلغ الثمانين من عمره ثم أعلن تنازله عن العرش

لابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة 285 قبل الميلاد ومما ينكر لعهد الملك بطليموس الأول أنه أمر ببناء منارة الإسكندرية في جزيرة فاروس وقد اكتمل بناءها في عهد بطليموس الثاني وقد تواجد بالإسكندرية العديد من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفنانين فمن هؤلاء إقليدس وهيروفيلس وثيودوروس وإراستوثينيس وغيرهم فأصبحت الإسكندرية منارة للإشعاع الحضاري بعد اندماج الحضارتين المصرية والإغريقية وفي عهد البطالمة كتب المؤرخ المصري مانيتون كتابه

الشهير عن تاريخ مصر ورتب الأسرات الفرعونية وقوائم ملوك الفراعنة وقد اتخذ بطليموس الأول سياسة ثابتة لتشجيع هجرة الإغريق وتنظيمها إلى مصر¹ واستمرت دولة البطالمة تحتفظ بمكانتها إلى أن دب فيها الضعف والاضمحلال فسقطت حين دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة 30 قبل الميلاد فتحولت مصر إلى ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ وسوف نتناول هذا الموضوع خلال الدردشة في حينه

بطليموس يوسع نطاق حكمه :

المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك استطاع بطليموس أن يوسع نطاق ملكه شرقاً وغرباً بعد انهيار الإمبراطورية بعد مقتل ابن الإسكندر الصغير وأم الإسكندر أيضاً ولم يعد هناك بالفعل وريث من أي نوع للعرش فقد كان يعتقد بطليموس إن مصر دولة لها طول مناسب ولكن عرضها يحتاج إلى توسع شرقاً وغرباً ، وبعد مجموعة من الصراعات استطاع بطليموس أن يحقق أهدافه بالكامل كما استطاع أن يكسب ود المصريين ، وهكذا بدأ العصر البطلمي في مصر وحكم مصر البطالمة من سنة 333 ق م تقريباً وإلى سنة 30 ق م أي حوالي 303 سنة² وفي كتاب آخر من سنة 323 ق م إلى سنة 30 ق م³ المهم إن التواريخ ليست هي القضية الرئيسية في موضوعنا بالرغم من أهميتها وخصوصاً في هذه العصور الغابرة القديمة جداً ولكن سوف نهتم بدقة التواريخ أثناء الدردشة مع بعض عندما نصل إلى الأحداث التي تستحق الدردشة عنها بتفاصيل أكثر نسبياً ، المهم يا سيدي إن عدد الحكام البطالمة 15 حاكماً أولهم بالطبع بطليموس الأول الذي أعلن استقلاله رسمياً عن خلفاء الإسكندر سنة 284 ق م تقريباً ، ثم توالي بعده ملوك من أبناءه وأحفاده وطبعاً أنت عارف الأحفاد وعارف بلاويهم السوداء ، المهم إن هذا العصر البطلمي يعتبر إلى حد كبير امتداد للعصر الفرعوني من حيث التقاليد والديانة والمعابد والتماثيل وما إلى ذلك ، وحيث يوجد كهنة توجد تقاليد فرعونية وآلهة وقرايين وكل هذه الطقوس المعروفة لدي قدماء المصريين ، ولكن علي الطريقة الإغريقية والأسماء الإغريقية حتى أن أسماء الآلهة نفسها تم نطقها بأسلوب إغريقي أو كان لها ما يناظرها فمثلاً العجل أبيس الشهير أصبح مناظر له العجل بوخيس وهكذا ، المهم إننا عايزين ندرش شوية عن أهم معالم تاريخ مصر في العصر البطلمي وماذا دار من أحداث تستحق الذكر في هذه الدردشة حتي ننتهي من هذا الموالم البطلمي ، ثم ننتقل للدردشة عن الرومان وطبعاً بطليموس الأول كان واحد من الشخصيات الغير عادية التي تستطيع تأسيس الدول يعني كان واحد من إياهم

أخبار بني إسماعيل وبني إسرائيل في ذلك الوقت :

وبالمناسبة أريد أن أذكرك بأولاد وأحفاد سيدنا اسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام وقد تكاثر أبناءه وتناسلوا وتكونت منهم القبائل والبطون كما أريد أن أذكرك بأبناء وأحفاد سيدنا يعقوب عليه السلام (بني إسرائيل) ونحن ندرش عن هذه الفترة الخاصة بالإسكندر والبطالمة فماذا كانت أحوالهم في ذلك الوقت ؟ وإذا سمحت لي بالإجابة أو الإجهاد في الإجابة فإن بني إسماعيل الذين استوطنوا الجزيرة العربية لم يكونوا أول من سكن بها لأن هناك شعوباً عربية كانت موجودة بالفعل قبل مجئ سيدنا إسماعيل إليها مثل قبائل اليمن والعماليق وجرهم ولكن هذه الشعوب لم تكن تعيش بجوار بيت الله الحرام إلى أن رفع سيدنا إبراهيم وابنه القواعد من البيت وبدأ تدفق الناس إلى الحرم الآمن وتكاثر أبناء إسماعيل وأحفاده وتأسس البلد الآمن الذي تمناه إبراهيم عليه السلام ودعا ربه بذلك وكان هذا البلد في ذلك الوقت بعيداً عن كل الصراعات العالمية التي ذكرناها وسنذكرها إن شاء الله وقد كان لذلك أسباباً جعلها الله لرعاية هؤلاء القوم فسوف يكون لهم شأن عظيم بعد ذلك وقد كانت الصحراء الجرداء تحميهم من مطاردة أعتي الجيوش التي كانت تخشي أن تضل الطريق في الصحراء وتفني عن آخرها لندرة المياه وعدم ضمان طريق العودة كما أن العرب برعوا في فنون القتال في الصحراء وانفردوا بذلك كما أن بلادهم لم تكن مطمئناً لأحد ملوك العالم في ذلك الوقت وقد استمروا بجوار البيت

¹ نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك - إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية 2012 - صفحات 111، 112، 113

² موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم (د ناصر الأنصاري) ص 40

³ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 26

الحرام علي ملة إبراهيم عليه السلام إلي أن جاء وقت من الأوقات انتشرت فيه الأصنام حول الكعبة بحجة أنها تقربهم من الله ، أما بني إسرائيل في هذا الوقت وبعد انهيار مملكتهم في أورشليم فقد انتشروا في البلاد وقاموا بتكوين جاليات ولم يفقدوا اتصالهم ببعض بل كان التنسيق مستمر ودائم وقاموا باستغلال ملوك العالم لتحقيق مصالحهم وتوجيه سياسة هؤلاء الملوك في اتجاه أهدافهم بطرق وأساليب شتى وبعث المولي عز وجل الأنبياء والرسل من بني إسرائيل ولكن كان القليل منهم يؤمن والباقي إما يكذب الرسل أو يقتلهم

بطليموس يقرر عدم تجنيد المصريين :

المهم يا سيدي نرجع مرجوعنا إلي البطالمة وأيامهم ولكن قبل أن نترك هذا البطليموس الأول لا بد أن نتوقف عند معلومة في منتهي الخطورة تخص هذا الرجل وقد تبدو بسيطة أو عادية للبعض ولكنها من وجهة نظري المتواضعة تعد عملاً خطيراً أدى إلي قهر هذا الشعب وتحجيم دوره لفترة طويلة جداً من الزمن حيث أنه حرم علي المصريين دخول الجيش خوفاً من اندلاع الثورة ضده¹ وقام بتشجيع هجرة الإغريق للاستعانة بهم في تكوين دعائم ملكه وقوته واستخدمهم كتجار وخبراء ومهندسين وجنود في الجيش وهذا العمل أدى إلي إبعاد المصريين عن القتال وهذه كارثة لا تخفي عليك نتائجها يا صديق العزيز ، وعلي فكرة بطليموس الأول لم يهنأ بعرض مصر بسهولة ولكنه دخل في حروب طاحنة ومؤامرات مستمرة مع ورثة الإسكندر بل إن مصر تعرضت للغزو مرتين لخلعه من العرش ولكنه كان يستغل فيضان النيل في صد هجوم أعداءه وعلي العموم لو تأملت قصة بطليموس الأول ستجدها مشابهة إلي حد ما مع قصة محمد علي باشا في العصر الحديث فكلاهما دخل مصر وسيطر عليها وتودد للسلطة الدينية بها مع عدم المقارنة طبعاً بين الكهنة الخبثاء ومشايخ الأزهر الأتقياء وكلاهما كسب ود الشعب المصري وكلاهما قام بإجراءات عديدة متشابهة منها مثلاً التحالف مع بعض الأعداء ومقاتلة البعض الآخر طبقاً لمقتضيات الموقف وكلاهما أشرك أكبر أبناءه في حروبه بل كانوا قادة علي أعلي مستوي من المهارة والخبرة ولكن أكبر اختلاف بين بطليموس الأول ومحمد علي باشا أنه استبعد المصريين من الجيش بينما استعان بهم محمد علي وقد استطاع هذا الجيش المصري الذي وضع لبنته الأولي محمد علي أن يطيح بآخر ملوك أسرة محمد علي وهو الملك فاروق واستعادة حكم المصريين لمصر وطبعاً هذا الكلام سيأتي في حينه ويا مين يعيش ؟ المهم إن وحتى لا أطيل عليك كل ما نريد أن نعرفه من معلومات سطحية عن بطليموس الأول أنه كان أكثر ورثة الإسكندر دهاءً وحكمة وقوة وهو الوحيد الذي استطاع أن يظل متماسكاً للنهائية وأسس ملكاً له ولأبنائه ونصب نفسه فرعوناً علي مصر وطلب من الكهنة أن يكتبوا اسمه مقروناً بالألقاب الفرعونية الشهيرة داخل خراطيش فرعونية مثل ألقاب (ابن رع) و (صفي رب الشمس) و (حبيب آمون) وملك الوجهين ، وقد أصبحت الإسكندرية في عهد هذا الرجل لها مكانة خاصة في مصر وقلعة للحضارة الإغريقية بل إنها كانت قطعة إغريقية موجودة علي أرض مصر ، أو بتعبير آخر جزيرة إغريقية في البحر المصري وقد ذكرنا أن بطليموس عندما كبر سنه أشرك ولي عهده في الحكم وهو بطليموس الثاني ، وقد استطاع بطليموس الأول التوفيق بخبث شديد بين الديانة الفرعونية والديانة الإغريقية ويقال أن ضريح الإسكندر الذي أسسه بطليموس يقع في شارع رئيسي بالإسكندرية (شارع النبي دانيال حالياً)² وقد جعله إلهاً يعبد بصفته ابن الإله آمون كما كان بطليموس يتعامل مع الكهنة بحذر شديد وقام بتأسيس مدينة في الصعيد تحمل اسمه (مدينة بطلمية) تشبهاً بالإسكندر والغرض منها نشر الحضارة الإغريقية في الجنوب لأن الجنوب دائماً تأتي منه المشاكل ، وخالصة القول عن هذا الرجل أنه رجل من الشخصيات التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ ويتوقف عندها المؤرخون ليسجلوا أعمالها الغير عادية ، وإذا ذهبت عزيزي القارئ بنفسك إلي المتحف اليوناني الروماني الموجود حالياً بمدينة الإسكندرية ستجد العديد من الآثار من هذا العصر ، المهم يا سيدي إن بطليموس الأول عندما بلغ الثمانين من العمر تنازل عن العرش لابنه الذي أعده إعداداً خاصاً لذلك (كما أعد فيليب ابنه الإسكندر) وقد دربه علي الحكم في آخر أيامه وهذا الابن هو بطليموس الثاني (فيلادلفوس)

1 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 38

2 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 51

بطليموس الثاني واستكمال الرحلة :

وتولي الحكم وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكان سياسي علي أعلى مستوي ولكنه كان مش غاوي حروب وقاتل ووجع دماغ وعلي فكرة لقد استكمل بطليموس الثاني ما بدأه والده وقام بإصلاحات إدارية وثقافية كبيرة وبلغت البلاد في عهده قمة الثراء والتقدم في جميع المجالات وليس معني هذا أن عهده كان خالياً من الحروب والصراعات والمؤامرات الخارجية بل إن المحافظة علي ممتلكات الدولة وتوسعاتها التي ورثها عن أبيه كلفته العديد من الصراعات والمؤامرات ولكنه كان غالباً ما يرسل القادة للقتال دون أن يذهب بنفسه علي رأس الجيش وعلي فكرة قام بطليموس الثاني بالدعوة لعبادة أبيه وأنشأ له ضريح ضخم كما أنه كان متزوجاً من أخته وكان يحبها حباً شديداً لدرجة أن اسمه (فيلادلفوس) ترجمته (المحب لأخته) ، المهم يا سيدي إن بطليموس الثاني حكم مصر من سنة 285 ق م إلي سنة 236 ق م¹ وفي رواية أخرى مات سنة 246 ق م² وتولي حكم مصر بعده ابنه بطليموس الثالث وقبل أن نترك بطليموس الأول والثاني ونبدأ في الكلام عن أولادهم وأحفادهم لا بد أن نتوقف عندهما قليلاً فقد استطاع الأول أن يؤسس واستطاع الثاني أن يحافظ ويدعم المملكة واستكمال ما بدأه الأول بجدارة واقتدار ويكفي أن أقول لك أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت قبلة العلماء والشعراء والمفكرين الإغريق وغيرهم بل إن أهم ما يحسب لهما إنشاء مكتبة الإسكندرية العظيمة التي أمر بإنشائها بطليموس الأول ودعمها بالكتب الوفيرة بطليموس الثاني³ وكذلك المخطوطات النادرة ، وكذلك قام بإنشاء حديقة للحيوانات جمع فيها كل ما هو غريب من الحيوانات والطيور من أنحاء العالم وبلغت ثروة مصر في هذا العصر قمتهما

بطليموس الثالث الداهية :

المهم يا سيدي نأتي إلي بطليموس الثالث الذي كان داهية سياسية فقد استطاع أن يحافظ علي المملكة بأقل عدد ممكن من الحروب كما أنه كان يتسم بذكاء حاد وكان علي علاقة طيبة بالكهنة وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، ويقول عنه د سيد الناصري في القسم الثاني من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر صفحة 75 (-- وبذلك نجح بطليموس الثالث عن طريق النزكاء والدبلوماسية أن يحفظ توازن القوي وهو جالس في قصره بالإسكندرية لكنه حرص في نفس الوقت علي دعم مركزه في الداخل أي عند المصريين ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة اعتدالاً واتزاناً --) وعلي فكرة هذا البطليموس الثالث علي ما يبدو كان آخر الرجال المحترمين في هذه الأسرة ، فمثلاً في عهد بطليموس الرابع كان الجيش في حالة يرثي لها وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيش وبالتالي اضطر عمك بطليموس الرابع أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه وقد أدي ذلك إلي بعث روح القتال في صفوف المصريين وبالتالي واجه بطليموس الرابع ثورات عنيفة في البلاد ومن الممكن أن نتحدث باختصار شديد عن هذا الموضوع الذي سندردش عنه تحت عنوان معركة رفح

معركة رفح

حرص حكام مصر في بداية عصر البطالمة علي عدم تجنيد المصريين في جيش دولتهم وهي السنة التي ابتدعها بطليموس الأول فكان اعتمادهم علي المقدونيين والإغريق (اليونانيين) فقط في الحروب ، وكانوا يكتفون من المصريين بخدمة الجيش البطلمي من الناحية الإدارية فقط ونقل ما يحتاجه أثناء الحروب ، وكان مغزي ذلك واضحاً ، حيث أن ابتعاد المصريين عن القتال بشكل عام يفقدهم روح المقاومة ، ونجح بطليموس الأول وتلاه بطليموس الثاني في تكوين جيش بطلمي قوي بدون مصريين واستطاعا تحقيق جميع أهداف دولة البطالمة باستخدام هذا الجيش ، وعندما جلس علي عرش مصر بطليموس الثالث لم يكن يعتمد علي القتال في تحقيق أهدافه حيث كان داهية سياسية وكان أعداءه في الخارج

1 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 41

2 معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 69

3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 60

مشغولين كما ذكرنا بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، وبعد وفاة الملك بطليموس الثالث جلس علي عرش مصر ابنه بطليموس الرابع فيلوباتور



بطليموس الرابع

وقد حكم مصر ما يقرب من 16 سنة أي من حوالي سنة 221 قبل الميلاد إلي سنة 205 قبل الميلاد ويعتبر عهده بداية النهاية لدولة البطالمة ، وكانت الممالك الإغريقية الأخرى تتطلع للنيل من الإمبراطورية المصرية البطلمية وخاصة مملكة السلوقيين بآسيا الصغرى ، ففي عهد بطليموس الرابع تقدمت جيوش الدولة السلوكية نحو الشام واستطاعت إخضاع سوريا وفلسطين وأصبحت تدق أبواب مصر نفسها ، و كان الجيش البطلمي في حالة يرثي لها عندما وصل بطليموس الرابع للحكم مما اضطره أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه ، وحدثت المعركة الشهيرة في التاريخ باسم معركة رفح سنة 217 ق م ، التي أبرزت معدن ابن وادي النيل بالانتصار الساحق علي القوات السلوكية ، الأمر الذي جعل الملك السلوكي يعترف بالسيادة المصرية علي سوريا ، وذلك نصر اشتاقت إليه نفوس المصريين منذ أيام الفراعنة ، فمنذ ذلك التاريخ حدثت الصحوة الكبرى للمصريين في عصر البطالمة وبالتالي واجه البطالمة بعد ذلك ثورات عنيفة في البلاد لم تكن لتحدث قبل تجنيد المصريين وكأنه كما يقال في الأمثال الشعبية قام بتحضير عفريت وما عرفش يصرفه أما ما يمكن أن يقال أيضاً عن هذه الفترة من العصر البطلمي فهو موضوع يخص حجر رشيد الشهير

حجر رشيد :

الذي بواسطته تم حل لغز اللغة المصرية القديمة وهذا الحجر مكتوب عليه ثلاث خطوط وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد تم كتابة هذا الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس بواسطة الكهنة تمجيداً لأعماله الدينية واهتمامه بالمعابد وكان يقصد من ذلك أن يتودد إليهم وطبعاً هؤلاء الكهنة ليسوا كهنة طيبة ولكن كهنة منف



حجر رشيد

وقد استطاع العالم الشهير شامبليون فك رموز هذا الحجر عندما اكتشف أن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة للنص الهيروغليفية أي أن المنقوش علي الحجر نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة وعلي هذا الأساس وبالمقارنة استطاع أن يفك الرموز وبناءً علي ذلك تمكن العلماء من معرفة كل هذه المعلومات التاريخية والأحداث التي دونها الفراعنة بلغتهم التي

تجمع بين الحروف والرموز في وقت واحد ، المهم إيه رأيك لو تقرأ بعض ما كتبه الكهنة علي هذا الحجر وتبقي حاجة ظريفة وفرصة من خلال هذه الدردشة وإليك بعض فقرات متقطعة من المكتوب علي حجر رشيد (- - - - - حيث أن الملك يقوم بواجبه نحو الآلهة ويقدم المساعدات المالية للمعابد - - - - - وحيث أنه قدم الهبات إلي محراب عجل أبيس ونظم إجراءات دفنه وحيث أنه أمر بترميم المعابد والمحاريب للآلهة في كافة أنحاء البلاد وحيث أن الملك قام بجميع هذه الأعمال فإن المجمع قد عقد العزم علي أن يزيد من ألقاب الشرف الممنوحة له ولأسلافه وأن يقيم في كل معبد مصري تمثالاً لبطليموس -) 1 المهم يا سيدي إن أنا مش ناوي أتكلم وأدردش معاك أكثر من هذه الدردشة عن العصر البطلمي علشان زهقت منه وكفاية عليه كده ، وإذا كنت عايز تعرف المزيد عن هذا العصر فأقرأ عنه كتاب محترم من كتب التاريخ وسيبك من هذه الدردشة لأن المقصود منها أن تأخذ فكرة بسيطة عن كل عصر من العصور في إيجاز وسطحية

زيادة نفوذ الرومان :

ولأن باقي عصر البطالمة حدثت فيه شوية لخبطة وتزامن مع زيادة نفوذ وخطر الرومان فقد أمسكت روما بعجلة القيادة العالمية وصعدت لترتقي عرش القوة في الدنيا لدرجة أن مقدونيا بجلالة قدرها أصبحت ولاية رومانية وبدأ تساقط ميراث الإسكندر من أيدي ورثته ولكن كانت مصر هي آخر الممتلكات التي سقطت في يد روما ولن أشغلك وأوجع دماغك يا صديقي بالأحداث التي دارت في مرحلة سقوط الدولة البطلمية في مصر حتي لا تمل من الدردشة ولكن سأكتفي بالمرور السريع علي أهم الأحداث باختصار شديد جداً

عصر البطالمة ينحدر نحو السقوط :

المهم إن المشاكل كلها بدأت عندما مات بطليموس الرابع وترك طفلاً صغيراً ليخلفه في الحكم لم يتجاوز الخامسة من عمره وهو بطليموس الخامس وبالتالي سيطر رجال القصر علي الحكم وقتلوا أمه حتي لا تكون وصية علي الحكم وعاشوا حياتهم ، وعلي فكرة كان بعض البطالمة يتزوجون من أميرات باسم كليوباترا مثل كليوباترا الأولى وكليوباترا الثانية وهكذا ، وكن يشاركن في الملك أحياناً كأمهات أو شقيقات وزوجات في نفس الوقت وكان لهن دور كبير في إدارة شئون البلاد والمؤامرات والصراعات وخصوصاً في أواخر أيام البطالمة ، ويرجع السبب الرئيسي لأن تكون مصر هي آخر الولايات سقوطاً في يد الرومان إلي أن البطالمة كانوا علي صلة طيبة بالرومان وكانوا يساعدهم في حروبهم بتزويدهم بخيرات وقمح مصر حتي أن الرومان في فترة من الفترات وجدوا أن البطالمة يحكمون مصر كما لو كانوا ولاة تابعين لروما بحيث كانت تأتي الخيرات من مصر إلي روما دون الحاجة إلي احتلال فعلي وكان البطالمة في ذلك الوقت يفعلون ذلك ليأمنوا هجوم الرومان عليهم ، كما زاد نفوذ روما في مصر وتدخلت في شئونها الداخلية في عهد البطالمة الضعفاء في نهاية العصر البطلمي الذي كان يحتضر بل مات فعلاً وينتظر شهادة الوفاة الرسمية ، ومن الأمور التي أريد كتابتها قبل أن تغلق هذا الملف ثورة طيبة ضد الحكم البطلمي وطبعاً طيبة كانت دائماً معقل المقاومة ضد أي محتل أيام الفراعنة ويقول عنها الدكتور سيد الناصري (--- كانت طيبة التي سماها هوميروس شاعر الإغريق " ذات المائة بوابة " هي قلعة المقاومة المصرية لأنها كانت المركز الديني لآمون وعاصمة الفراعنة الأولى والتي منها خرج الأبطال المحررون --)² كما يقول أنه قد بلغ عنف الثورة في الجنوب أن أعلنت طيبة الاستقلال عن سلطة العرش البطلمي في الإسكندرية عام 187 ق م ، ولم يتمكن البطالمة من السيطرة علي هذه الثورة إلا بصعوبة شديدة ، وقد كانت روما في قمة مجدها وعظمتها وقوتها تتحكم في ما يحدث كما تتحكم أي قوة عظمي في العالم في كل عصر من العصور ، ومن أكثر الأمثلة وضوحاً علي مدي تدخلها في شئون مصر ما حدث في عهد بطليموس السادس

عندما أنقذت روما عرش البطالمة في مصر

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 86 ، 87

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 89



رأس الملك بطليموس السادس
متوجاً بالتاج المصري

ففي حوالي عام 171 قبل الميلاد خرجت روما منتصرة في الحرب التي نشبت بينها وبين مقدونيا فأطاحت بما كان لمقدونيا من سلطان وجاه وأصبحت روما صاحبة الجاه والسلطان في كل العالم كما أصبحت حكماً في كل الخصومات التي كانت تظهر بين الدول المتنافسة بوجه عام وفي ذلك الوقت كان يشترك في حكم مصر ملكان شقيقان من ملوك البطالمة وهما بطليموس السادس الملقب بفيلوميتور ، وأخاه بطليموس الملقب بيورجيتس الثاني بينما كان هناك خطر يهدد مصر من دولة السليوكيين في سوريا ، فقد استطاع ملك سوريا أنتيوكوس الرابع احتلال مصر وحصار الإسكندرية واستفحل الأمر وفرض هيمنته علي مصر ، إلي أن لجأ البطالمة إلي روما فتدخلت لصالح البطالمة وأرسلت مبعوثيها لتحذير الملك أنتيوكوس الرابع ، وقد وصف المؤرخون مدي الكبرياء والتعالي الذي قام به مندوب روما وهو يسلم الملك رسالة مجلس الشيوخ الروماني ، ففي هذه اللحظة كان أنتيوكوس يحاول أن يتخلص من هذا الموقف ، غير أنه لما رأي في نهاية الأمر أنه كان مجبراً علي أن يجيب الرومان علي الرسالة ، قال بصوت متهدج : سأفعل ما يرغب فيه مجلس الشيوخ ، وكان ما يرغب فيه مجلس الشيوخ الروماني من أنتيوكوس هو أن ينسحب من مصر جميعها في الحال علي أن يكون خارج حدودها في توقيت محدد وطبقاً للترتيبات التي قررتها روما ، وهكذا أنقذ الرومان عرش البطالمة في مصر ، غير أن الرومان لم يتركوا البلاد المصرية وشأنها لتحكم نفسها بنفسها ولكنها كانت تتدخل في شئونها ، وتستغل الانقسام الموجود نتيجة الصراع بين الملكين الشقيقين فتشعل الموقف بينهما تارة وتقوم بدور المصالحة بينهما تارة أخرى ، وطبقاً لما يحقق مصالحها ، وعلي حد تعبير سليم حسن : وهكذا نري أن السياسة الرومانية تحت ستار الصلح والتراضي بين الأخوين قد نقضت العمل العظيم الذي جاهد في إتمامه البطالمة الأول ، فقد ضربت بمعولها البناء الذي كانوا قد أقاموه ، وكذلك نجد أنها إدرخت لنفسها الحق في أن تثير عند الحاجة طمع أحد الأخوين عندما يشعر أنه قد نال نصيباً أقل من ملك والده¹ والجدير بالذكر أن سيطرة روما علي مصر استمرت حتي نهاية عصر البطالمة عندما قررت روما ضم مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي اتسعت حدودها وابتلعت كل دول المنطقة فكانت مصر آخر دولة سقطت في يد الرومان ، واعتقد أننا تكلمنا ودردشنا عن البطالمة أكثر مما تتطلبه هذه الدردشة السريعة

البحث عن ابن ولو غير شرعي :

ومع كل هذا يجب أن ندرش علي مضمض عن نهاية هذه الأسرة التي حدثت شوية لخبيطة وتفصيل لا داعي لها سنتجاوز الدردشة عنها ، المهم إن أسرة البطالمة وصل بها الحال أن تبحث في أواخر أيامها عن ملك يرث الحكم علي أن يكون شرعي ولكن للأسف بعد كل هذه الصراعات لم يكن هناك ابن شرعي يحكم البلاد وبالتالي ظلوا يبحثون عن أي واحدة كانت علي علاقة بملوك البطالمة قبل موتهم فقد تكون أنجبت من أحدهم ولداً ، يعني من الآخر كده يكون ولد غير شرعي

¹ نقلاً عن كتاب (موسوعة سليم حسن - مصر القديمة) الجزء السادس عشر (من عهد بطليموس الخامس إلي نهاية عهد بطليموس السابع)

من إحدى العشيقات وبالمناسبة كانت تحكم مصر في ذلك الوقت ملكه اسمها (برنيقة) أو (بيرنيكي) وهي ابنة الملك بطليموس التاسع الملقب بسوتير الثاني ويقول في ذلك د سيد الناصري (- - مات سوتير الثاني عام 80 ق م غير مأسوف عليه من الشعب السكندري وطبقاً لوصية تركها من بعده انتقل الحكم إلي ابنته بيرنيكي التي تولت العرش دون معارضه من شعب الإسكندرية لكن كانت هناك مشكلة وهي البحث عن زوج لها من سلالة الأسرة البطلمية وأخيراً عثر علي ابن بطليموس التاسع الذي كان قد أنجبه من إحدى عشيقاته - -)¹ وهذا الابن بعد أن أصبح ملكاً غدر بالملكة وقتلها لينفرد بالحكم وبالمناسبة كان اسمه بطليموس العاشر وقد تجمهر ضده شعب الإسكندرية² باعتباره قاتل وضربوه حتي الموت في نفس اليوم³ وبذلك لم يعد هناك أي وريث شرعي أو غير شرعي ، وهنا تدخلت روما التدخل الأخير وأشاعت أن آخر ملك ترك وصية أن يحكم الرومان مصر بعد وفاته وطبعاً هذه الوصية مشكوك فيها ، المهم تم البحث مرة أخرى علي ابن غير شرعي وأخيراً تم العثور علي بطليموس الثاني عشر وتزوج أخته كليوباترا السادسة

الزمار :

وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) لأنه كان غاوي رقص وغناء وشرب ويحب العزف علي المزمار ، المهم إن الرجل ده بهدل اسم العائلة البطلمية وجابه الأرض (فاكراً أيام بطليموس الأول والثاني والثالث) ، وكان الزمار يتنذل لروما ويرسل لها الرشاوى والهدايا ويقول عنه الدكتور سيد الناصري (- - -) ولكي يحظي باعتراف الرومان راح الزمار يتنذل ويريق ماء وجهه ويدفع الهدايا والرشاوى ويشترى ذم القادة الرومان من أمثال بومبي ويوليوس قيصر وغيرهم وكان زعماء الحزب الجمهوري الأرستقراطي في روما يفضلون أن يظل الزمار في هذا الوضع المهين ويدفع لهم الأموال التي لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموا⁴ - -)⁵ وعلي فكرة كانت الأحزاب السياسية في روما تتصارع من أجل الوصول للحكم وكان لها برامج سياسية وكانت مسألة مصر من أهم القضايا التي تشغل بهم ، المهم يا سيدي إن الزمار عندما ثار عليه شعب الإسكندرية هرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة وطبعاً كليوباترا السابعة بالذات إنت عارف صورتها كويس لأنها مرسومة علي علب السجائر حالياً وهي المذكورة في قصة الحب المعروفة مع انطونيو القائد الروماني الشهير ، المهم يا سيدي إن الست كليوباترا كان لازم عليها تتزوج من أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر طبقاً لوصية أبوها ولكنها حاولت التخلص منه والانفراد بالسلطة وحدها ودخلت في مشاكل مع رجال البلاط الملكي وصلت لحد تجهيز جيوش للقتال ، وبينما كانت تدور هذه الأحداث في مصر كان الصراع علي السلطة في روما وصل للقتال أيضاً بين بومبي زعيم الحزب الجمهوري وبين يوليوس قيصر زعيم الحزب الشعبي وهي تعتبر حرب أهلية وهرب بومبي إلي مصر بعد هزيمته وجاء خلفه يوليوس قيصر إلي مصر فوجده قد مات مقتولاً في مصر ، وحاول يوليوس قيصر التوفيق وفض النزاع بين كليوباترا وأخيها وطلب حضورهما للقصر الملكي في الإسكندرية وهذا طبعاً يعتبر تدخل سافر وإهانة عظمي لدرجة إن موكب يوليوس قيصر في شوارع الإسكندرية كان يثير كراهية الجماهير ، المهم يا سيدي بعد شوية مشاكل وحروب خفيفة استطاع يوليوس قيصر أن يدعم موقف كليوباترا ويجعلها ملكة علي البلاد وبعد مقتل أخيها المشاكس لها في حربه مع قيصر ، وظل قيصر في مصر مع كليوباترا هانم ينعمان بالاستجمام والراحة ثم عاد

1 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 104

2 علي فكرة شعب الإسكندرية الذي يتكرر الكلام عنه في هذا الفصل ليس له علاقة من قريب أو بعيد بالشعب المصري لأن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت كلها من الإغريق واليهود فقط وليس للمصري مكان فيها إلا كخادم مثلاً أو عامل يقوم بأداء عمله ثم يعود من حيث جاء وبالتالي فالإسكندرية كانت دولة داخل الدولة أو علي رأي بعض المؤرخين جزيرة إغريقية في البحر المصري وكانت الإسكندرية مختلفة تماماً عن باقي مصر ولها وضع خاص من الناحية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية إلي آخره فشعب الإسكندرية كان يعيش في وادي وباقي المصريين في وادي آخر وله مستوي معيشة مختلف بالطبع وكان شعب الإسكندرية هو الذي يهتم بمن يحكم من الأسرة البطلمية أما الشعب المصري فكلهم من وجهة نظره محتلين للبلد ولم يكن هناك أحد من المصريين علي علاقة إلي حد ما محترمة بالحكومة البطلمية إلا طائفة الكهنة فقط وبالطبع كان لهذه العلاقة أسباب معروفة

3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 104

4 ربما فكر قادة روما أنه في حالة احتلال مصر سيقوم والي الروماني المعين عليها بإرسال أموال وقمح مصر إلي روما بصفة رسمية وطبقاً لحسابات خاصة بولايات الإمبراطورية ولكنه بالطبع لن يضطر إلي إرسال هدايا ورساوى شخصية للقادة في بيوتهم أما الزمار فكان يرسل ما يفيد روما بشكل عام ويفيد القادة بشكل خاص وبالتالي هذا الوضع قد يكون أفضل من الاحتلال ولهذا كانت مصر هي آخر ما سقط من تركة الإسكندر في يد الرومان

5 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 105

إلي روما بعد أن ترك لكليوباترا قوة رومانية لحمايتها ، وبعد تسع شهور بالضبط أنجبت كليوباترا ولد تفتكر ابن مين ؟
طبعاً ابن يوليوس قيصر



يوليوس قيصر

كليوباترا السابعة

ماركوس أنطونيوس

ويعتبر هذا الزواج غير معترف به من الرومان لتحريمهم تعدد الزوجات لأن قيصر كان متزوج في روما أما بالنسبة لمصر فقد كان هذا مباح يعني الرومان كان ناقص يجتمعوا في ميدان عام ويهتفوا بشدة (زواج كليوباترا من يوليوس قيصر باطل باطل) ، المهم إن كليوباترا أخذت ابنها وجري علي روما علشان يتم الاعتراف بالولد ، المهم إن يوليوس قيصر تم قتله غدرًا من أقرب الناس إليه بعد تورطه في علاقته بكليوباترا وقد أجمع كل من قتله علي أن قتله ضروري حفاظاً علي مصالح روما ومن ضمن من قتله صديقه بروتس وهناك جملة شهيرة تقول (حتي أنت يا بروتس) قالها يوليوس قيصر عند قتله ، وعادت الحرب الأهلية من جديد وكانت كليوباترا في مصر تحاول أن تجعل منها دولة محترمة¹ واهتمت بالاقتصاد والزراعة وتوددت للشعب المصري وتحسنت أحوال مصر إلي حد ما في عهدها

انقسام الإمبراطورية الرومانية :

المهم يا سيدي انقسمت الإمبراطورية الرومانية بعد الحرب الأهلية إلي قسمين شرقي وغربي وكان أوكتافيوس له القسم الغربي وأنطونيوس له القسم الشرقي وبعدين كليوباترا أوقعت أنطونيوس في غرامها وأصبح مثل الخاتم في صباعها ونسي الدنيا معاها وطبعاً لم يرضي أوكتافيوس بهذا الوضع وتجددت المشاكل من جديد بينهما لأن أوكتافيوس وجد أن كليوباترا تقريباً تحكم نصف الإمبراطورية الرومانية بتأثيرها العجيب علي أنطونيوس ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك ، حصلت معركة بحرية كبيرة (معركة أوكتيوم) انتصر فيها أوكتافيوس ودخل مصر منتصراً وضمها رسمياً إلي الإمبراطورية الرومانية وكان ذلك في شهر أغسطس عام 30 ق م² ، وطبعاً انت عارف إن أنطونيوس انتحر وكليوباترا انتحرت وتم قتل ابن يوليوس قيصر الذي أنجبه من كليوباترا وبدخول أوكتافيوس تم إعلان وفاة عصر البطالمة للأبد بعد أن استمر أكثر من ثلاثة قرون تزوجت خلالها الحضارتين المصرية والإغريقية ، وعلي فكرة موضوع الانتحار والمعركة كان له قصة طريفة فقد كان الأسطول المصري بقيادة كليوباترا ينتظر نتيجة المعركة كمرقب فقط ولم يتدخل ، أما أنطونيوس فقد هرب إلي مصر عندما تأكد من هزيمة أسطوله أمام أوكتافيوس وعندما وصل أشاعت كليوباترا أنها انتحرت ولم يتحمل أنطونيوس خبر انتحار كليوباترا وفراق حبيبة القلب فانتحر علي الفور وجاء أوكتافيوس وأرسل قوة للبحث عن كليوباترا لينتقم منها بعد كل ما فعلته في قادة الرومان يوليوس قيصر وأنطونيوس وعندما شعرت كليوباترا أنها ستهان وتعاقب عقاب سخيف وشديد قامت بالانتحار عن طريق لدغة ثعبان لتهرب من المصير السيئ الذي ينتظرها وهنا أدرك شهزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح (نلتقي بعد الفاصل)

¹ في الحقيقية كليوباترا كانت تريد أن تعيد البطالمة الأوائل من أمثال بطليموس الأول والثاني والثالث ولكن اعتماداً علي جمالها وإمكانياتها الشخصية فقد كان لها تأثير عجيب علي قادة روما من أمثال يوليوس قيصر وأنطونيوس واستغلت هذا لصالح مصر وسخرت كل الإمكانيات المتاحة لإنعاش الاقتصاد المصري ولكن هناك قائد واحد في روما كان يراقب تصرفاتها التي لا تعجبه ويشعر بخطر هذه المرأة الجميلة علي الإمبراطورية كلها وهذا الشخص هو أوكتافيوس الذي قرر التخلص منها نهائياً

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 114

11. مصر ولاية رومانية وقمحتها عال العال

ولاية رومانية :

وأصبحت مصر ولاية رومانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاثين عاماً وتم إطلاق لقب أو اسم (أغسطس) علي أوكتافيوس المنتصر أما من الذي أطلق هذا الاسم عليه فهو أريقي مجلس في روما والذي يجمع الأرسقراطيين الرومان وهذا المجلس اسمه (السناتو) وأما معني أغسطس في اللغة اللاتينية فهو الجليل أو المؤيد أو المخترع عن طريق حسن الطالع¹ ، وعلي فكرة تم إطلاق هذا الاسم علي أحد شهور السنة عند الرومان وهو الشهر الذي دخل فيه أوكتافيوس مصر ، المهم يا سيدي إن عنما أوكتافيوس أو نقدر نقول عليه أغسطس أسهل كان من الجماعة إياهم الذين نتوقف عندهم قليلاً لنردش لأنهم فرضوا أنفسهم علي هذه الدردشة بل وعلي كتب التاريخ فقد كان أوكتافيوس (أغسطس) متأكد تماماً أن مصر ليست بلداً عادياً ولن تكون ولاية عادية من ولايات الإمبراطورية الرومانية بل إنه أيقن تماماً خطورة موقعها وإمكاناتها التي تؤهل أي شخص طموح للاستقلال بها بأقل مجهود وبالتالي حرص أغسطس علي إجراء بعض الإجراءات المهمة قبل عودته إلي روما



أوكتافيوس أغسطس



أوكتافيوس أغسطس

إجراءات أغسطس في مصر :

ومن أهم الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جداً من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعدداً من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي 22800 مقاتل وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف² وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ ، كما قسم مصر إلي ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جداً يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصياً سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين لأنه كان يخشى أن يضع الكبريت بجوار البنزين وهذا يدل علي حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضاً ، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترعة وإصلاح المرافق وأعطى تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلي روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيسي للقمح في الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق علي هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية)

المصريون والإغريق واليهود :

أما بالنسبة لموقفه من اليهود والإغريق والمصريين ، وعلي فكرة هذا التصنيف هو الذي وجدته أغسطس عند دخوله مصر فقد كانت الإسكندرية دولة إغريقية مستقلة عن باقي مصر تقريباً حضارة وتاريخ وشعب كله إغريقي وكان بها جالية

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 132
² معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 123

كبيرة من اليهود أما باقي أنحاء مصر فكان بها بعض المدن الإغريقية أيضاً ، والباقي يتواجد به المصريين حتي أن والي مصر الذي عينه أغسطس كان يلقب بوالي الإسكندرية ومصر وهذا دليل علي أن الإسكندرية كانت تعامل معاملة خاصة عن باقي مصر وكانت العرش الأخير للحضارة الإغريقية العريقة ، ولأن أغسطس كان يحترم هذه الحضارة ويحترم الإسكندر المقدوني الراحل فقد أعطي للإغريق في الإسكندرية مكانة ووضع خاص وسمح لهم بتولي الوظائف الشرفية فقط ولم يسمح لهم باستمرار مجلس الشوري الخاص بهم لأنه كان يخشي من النزعة الاستقلالية أما اليهود فسمح لهم بتكوين المجلس الخاص بهم وكذلك المحاكم الخاصة بهم لأنهم كأقلية لم يشككوا بالنسبة له خطراً علي أمن الإمبراطورية وربما كان يضمن ولاءهم أما المصريين فقد تعامل معهم بسياسة الاحتواء حيث قام بمشاريع إصلاحية كبيرة في مجال الزراعة والمرافق مما جعل المزارعين مبسوطين جداً ويشعرون بفرق واضح بين الإدارة الرومانية الناجحة والحازمة وبين آخر أيام البطالمة الفوضوية ، أما الكهنة فقد سمح لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية بل قامت في العصر الروماني العديد من المعابد الموجودة حتي الآن في دندرة بالأقصر وفيلة بأسوان ، وسمح لهم أغسطس بأن يرسموا صورته وهو يتقرب من الآلهة ويقدم القرابين علي جدران المعابد بصفته فرعون مصر وأن يضيفوا إلي اسمه الألقاب الفرعونية التقليدية برغم أنه كان يحتقر الديانة الفرعونية في قرارة نفسه¹ بكبريائه الروماني ، وأهم ما في الموضوع إنه قام بنزع ملكية العديد من الأراضي والمشاريع الاقتصادية من يد الكهنة حيث كان الكهنة في كل معبد لديهم ما يشبه المؤسسات الاقتصادية التي تدر دخلاً كبيراً حتي أن كل معبد كان له حساباته وخزائنه فقام أغسطس بإنهاء كل هذا خوفاً من أمور لا تخفي عليك عزيزي القارئ ، أما من تولي حكم مصر في عهد هذا الإمبراطور فعددهم تسعة ولاية² لأن هذا الإمبراطور ظل فترة كبيرة في الحكم من سنة 30 ق م إلي سنة 14 بعد الميلاد وقد ولد السيد المسيح عليه السلام في عهد هذا الإمبراطور ، وقد وجد أغسطس عندما دخل مصر أن شعبها ينقسم إلي ثلاثة فئات رئيسية المصريين وهم الأغلبية بالطبع ثم الإغريق واليهود وقد كان هناك أيضاً المتأخرين من المصريين والتمصريين من الإغريق وكل منهم يحاول مساندة حضارة الآخر والعملية كانت ملخطة شوية .

بني إسرائيل والإسكندرية :

كان اليهود في الإسكندرية عبارة عن جالية كبيرة ولكنهم كانوا بالنسبة لعدد سكان الإسكندرية بالكامل أقلية علي أي حال وكانوا الوحيدة في مصر من أهل الكتاب وأصحاب الديانة السماوية وسط الوثنية المصرية والرومانية والإغريقية وكانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار وكانوا يعيشون في عدة بقاع في العالم وفي فلسطين أيضاً ، وقد بعث المولي عز وجل منهم أنبياء ورسول وكان آخر أنبياء بني إسرائيل هو سيدنا عيسى عليه السلام الذي ولد في فلسطين {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}³ وقد قام بنو إسرائيل بالعديد من الثورات أثناء الحكم الروماني سواء في فلسطين أو في مصر وكانت تقابل بعنف روماني شديد وقاسي وكان اليهود والإغريق يتنافسون دائماً في الإسكندرية علي أمور عديدة وصلت إلي القتال أحياناً وكانت وفودهم إلي الإمبراطور الروماني متعددة وكل فريق يحاول الإيقاع بالفريق الآخر عند الرومان وربما كان الإغريق ينتقمون من اليهود في الإسكندرية لأنهم كانوا لا يستطيعون فعل ذلك مع الرومان أنفسهم ، أما المصريين فقد قاموا بثورة عظيمة في جنوب مصر في عهد الإمبراطور أغسطس وقام والي الروماني في مصر بقمعها بشدة وقسوة لا حدود لها مما أدى إلي الاستسلام التام والتفرغ للزراعة وعبادة الآلهة في صمت فلقد شعر المصريون أن الرومان احتلال حقيقي وقاسي ولا يسمح بأي فوضى أو خلل ويقابل أي اضطرابات بعنف لم يشاهدوا مثله من قبل

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 131

² حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 45

³ البقرة 87 ، 88

الولاية علي مصر في عهد أغسطس :

وعلي فكرة كان أول والي روماني للإسكندرية ومصر اسمه (كورنيليوس جالوس) وكان رجلاً ماهراً من طبقة الفرسان وصديقاً لأوكتافيوس¹ كما كان أديباً وشاعراً وقد انتهت حياته بطريقة مأساوية ، وأصل الحكاية إن هذا الوالي اتجه إلي طيبة لقمع الثورة التي شبت بها وسحق خمسة مدن كاملة في الجنوب واستطاع أن يقهر الثورة بحزم وطبعاً انت عارف إن مش أي حد يقدر علي طيبة وعلشان كده أصابه الغرور وقرر أن يكتب انتصاراته علي الجدران وأقام التماثيل لنفسه وعاش في الدور وطبعاً هذا الكلام لم يعجب عمك أغسطس فاستدعاه إلي روما وحاكمه وصادر ممتلكاته ولم يستطع الوالي أن يتحمل كل هذا بعد إخلاصه الشديد فانتحر ، ويقول د سيد الناصري عن موقف أغسطس من الوالي (-- إلا أن أغسطس الذي كان يعرف مدي الخطورة مستقبلاً ، والذي كان يخاف علي مصر من خطر الانفصال وهي الصومعة التي تطعم الرومان ، قرر أن لا يترك هذا الوالي يعطي لنفسه الحق في الانتفاخ حتي ولو كان مخلصاً للإمبراطور ، ومن ثم استدعي كورنيليوس جالوس استتكاراً لمسلكه² وكان ما كان أما الوالي الثاني واسمه (ايليو جالوس)³ ويمكن واحد يسأل هل الوالي الأول شقيق الوالي الثاني ؟ وأنا أجيب لأ طبعاً ولكنه تشابه أسماء والله أعلم ، وعلي فكرة كان من الواضح إن أغسطس يشدد الرقابة علي مصر وعلي ما يدور بها من أحداث وتصله كل المعلومات المطلوبة عن طريق مصادر خاصة لجمع المعلومات وذلك لأهمية هذه الولاية ولا شك أنه كان يراقب كل ما يحدث في جميع أنحاء الإمبراطورية ولكن مصر كانت لها وضع خاص ، فأني تصرف لأي والي في أي ولاية قد يبدو طبيعياً ولكنه في مصر ليس كذلك ، المهم يا سيدي إن عمنا ايليو جالوس تم عزله أيضاً بعد أن فشل في الحملة علي بلاد العرب

حرب الرومان ضد العرب :

والتي أمر بها أغسطس لإخضاع القبائل العربية القاطنة في الصحراء الشرقية وشرق البحر الأحمر وبلاد اليمن⁴ لتأمين طرق التجارة البحرية في البحر الأحمر مع الهند وأواسط أفريقيا ، وعلي فكرة هذه المحاولة في غزو العرب أكبر دليل علي ما ذكرناه في الدردشة عن طبيعة الجزيرة العربية والأمان التي كانت تنعم به وبعدها عن كل المشاكل والصراعات العالمية الطاحنة وكان السبب الرئيسي لفشل الحملة هو جهل الرومان بطبيعة القتال في الصحراء العربية كذلك شراسة المقاومة العربية ونقص المؤن والمياه ولكن يقول د سيد الناصري أن هذه الحملة فشلت عسكرياً ولكنها نجحت سياسياً وتجارياً وأثمرت عن صداقه وطيدة بين شيوخ بعض القبائل العربية والرومان (-- إذ اندفع الرومان بعد فتح الطريق البحري إلي هذه المناطق والإتجار مع شعوبها وأصبح في أيدي التجار الرومان الطريق من مصر إلي الهند --)⁵ وأصبح البحر الأحمر مزدهم بالسفن التجارية الرومانية ، المهم يا سيدي أنا طبعاً لن أذكر لك كل ما دار في عهد ولاية مصر في عهد أغسطس لكن أهم الأحداث في عهده هما الموضوعين اللذين تكلمنا عنهما (ثورة طيبة + الحملة علي بلاد العرب) ذكرتهم في هذه الدردشة لأهميتهم من وجهة نظري المتواضعة ، وعلي فكرة حصلت بعض المشاكل من النوبة وهاجموا الحدود المصرية مستغلين غياب الوالي في حملته علي بلاد العرب ولكن الوالي الثالث علي الإسكندرية ومصر (جايوس بترونيوس) استطاع أن يتقدم بجيش كبير وهزم كل من قابله في الجنوب حتي وصل إلي العاصمة الإثيوبية واستولي عليها وسوي عمائرهما بالتراب⁶

ملخص العصر الروماني :

المهم يا سيدي وقبل أن ننسي عمليات التلخيص السريع التي تعودنا عليها أريد أن أكتب لحضرتك ملخص سريع لأعداد الولاية بالكامل في العصر الروماني من سنة 30 ق م إلي سنة 323 م وهي فترة حكم أباطرة روما أما الفترة الثانية والتي

1 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) صت 123
 2 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 125
 3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 125
 4 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 125
 5 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 127
 6 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 128

أسسها الإمبراطور قسطنطين بعد اعترافه بالديانة المسيحية فقد أسس عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية أطلق عليها اسمه (القسطنطينية) ، (العصر البيزنطي) وسوف نتحدث عنه في حينه ونتكلم عن الدولة البيزنطية عندما يأتي دورها في هذه الدردشة إن شاء الله ، أما عدد الأباطرة الرومان في روما الذين سيطروا علي مصر فيبلغ 27 إمبراطور وتولي حكم مصر في عهدهم 86 والياً رومانياً¹ لمدة حوالي 353 سنة كاملة وأشهر هؤلاء الأباطرة والذين أعتقد أنك سمعت أسماءهم من قبل وهم أغسطس وكاليجولا ونيرون ودقلديانوس أما باقي السبعة وعشرين إمبراطور فأعتقد إنك لم تسمع عنهم من قبل

أحوال المصريين في العصر الروماني :

المهم يا سيدي إن المصريين في العصر الروماني كانوا مسخرين لزراعة القمح وكان هذا هو دورهم الرئيسي في الحياة وعجزت أرحام نساءهم أن يلدن أبطالاً من أمثال مينا وأحمس الأول وتحتمس الثالث وبسماتيك وغيرهم ولم يتمكنوا من طرد الرومان علي الإطلاق وكانت ثوراتهم غالباً بسبب الضرائب الباهظة التي يعجز الإنسان أن يعيش بسببها واكتفوا أن يسجلوا أي اسم جديد لأي إمبراطور جديد علي جدران المعابد مع إضافة الألقاب الفرعونية إلي اسمه دون حتي أن يعرفوه شخصياً في أغلب الأحيان ، ولكنها التقاليد القديمة التي كانوا حريصون عليها لأنها آخر ما تبقي لهم من تراثهم القديم إلي أن انتشرت الديانة المسيحية في مصر، وقد كان الإغريق واليهود في الإسكندرية لهم كلمة مسموعة ودور بارز عن المصريين حتي أن أي مصري يريد أن يكون من الطبقة المثقفة فإنه كان يحاول أن يقلد الإغريق في كلامهم ولغتهم مما أدى إلي ظهور لغة جديدة نتيجة التزاوج بين لغة الإغريق ولغة الفراعنة وعلي ما يبدو أن هذا أنجب اللغة القبطية الشهيرة وكلمة (القبطية) المقصود بها (المصرية) عند الإغريق ، المهم يا سيدي إن هناك جملة معبرة توضح باختصار موقف مصر في العصر الروماني وأريد أن أكتبها كما هي بعد إنك (-- كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة ، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبقي داخلها بالرغم من أنه يذهب إلي خزائن الفرعون أو البطليموس أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلي الخارج ، إلي روما ليرتفع بها الشعب الروماني وما يذهب لا يعود ، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي ، وكان روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك ---)² وطبعاً كلام الدكتور سيد أحمد علي الناصري لا يحتاج إلي تعليق من العبد لله ، وبالمناسبة الدكتور سيد هو أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب جامعة القاهرة وقد أوضح ببلاغة شديدة موقف مصر وكأنها البقرة الحلوب التي تدر لبناً لصالح الرومان وعلي فكرة الإمبراطور أغسطس والإمبراطور الذي جاء بعده وهو الإمبراطور تيبيريوس كانا ينهبان مصر برفق وتعقل إذا جاز التعبير يعني كانا يهتمان بها ويأصلح وسائل الري وتسهيل أمور الزراعة وخلافه أي أنهما كانا يعتنيان بهذه البقرة قبل حلبها أما باقي الأباطرة فكان مهمهم الأكبر النهب بلا حدود وجمع الضرائب الباهظة مثل ضريبة القمح التي أدت إلي ظهور ظاهرة واضحة وهي هجرة الفلاحين من أراضيهم لعدم احتمالهم ويقول عن ذلك د سيد الناصري (-- وكانت مقاومة الفلاح المصري هو الصبر والجلد ، ولكن عندما يضيق ذرعاً كان يلجأ إلي الانسحاب والهروب --)³ وكانت هذه الظاهرة موجودة أيام البطالمة ولكن ليست بنفس الحجم وكان الفلاح أيام البطالمة يهرب إلي الكهنة في معابدهم ولكن سلطات الكهنة أيام الرومان كانت عاجزة عن استقبال الهاربين كما كان يحدث أيام البطالمة ، المهم إن المصريين الغلابة كانوا عايشين حياة صعبة في بلادهم بينما ينعم الإغريق بالوظائف الشرفية والكبرياء والغطسة وينعم اليهود بمجالسهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة التي لا يقترب منها أحد وكانوا في صراع دائم مع الإغريق ولا أحد يشعر بالفلاح المصري ومعاناته وكانت ثورات اليهود المتكررة في مصر وفلسطين هي أهم ما يشعر به الإمبراطور الروماني وتقلق باله ويحاول جاهداً القضاء عليها بعنف حتي أن بعض الأباطرة والولاة الرومان كانوا

1 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص 45

2 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 143

3 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 146

يستعينون أحياناً بالمصريين أنفسهم وذلك بتجنيدهم لقمع الثورات وتصفية النزاع بين اليهود والإغريق وقد كان ذلك يؤثر على الزراعة ويحدث تدهوراً اقتصادياً في البلاد

وقفة تأمل للشعب المصري :

ولكن يجب أن نتوقف قليلاً لنعرف رأي المؤرخ الكبير جمال بدوي حيث يتساءل ويقول (-- هل صحيح أن المصريين خانعون أذلاء يصفقون لكل طاغية ويهللون لكل مستبد ولا يميلون إلي مقاومة الظالمين ويتركون هذه المهمة إلي القوي الغيبية إلي أن تدرهمهم رحمة السماء ؟)¹ ويجب الأستاذ جمال بدوي علي هذا التساؤل بأن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة بل أشاعها عن المصريين الاستعمار ونشرها وروج لها كتاب الغرب الموالين لبلادهم وحكوماتهم ويقول أيضاً (- والقارئ المدقق للتاريخ يكتشف أن المصريين لم يكفوا عن مقاومة الظالمين ، ولم يقصروا في مقاومة الغزاة - ثورات كثيرة قامت في العصور الفرعونية المتأخرة عندما وقعت مصر تحت حكم أجنبي تسللوا إليها عن طريق الهجرة والإستيضان ثم انقضوا عليها عندما حرموا علي أبناء البلاد دخول الجيش وجعلوه مقصوراً علي المرتزقة الأجانب - ماذا تنتظر من شعب أعزل يتكون جيشه من المرتزقة والمغامرين الذين لا تربطهم بالبلاد حمية الإلتناء أو صلة الدم أو اللغة أو الدين ؟ وسيظل حكام مصر منذ الإغريق والرومان والعرب والترک والشركس يحرصون علي إبعاد المصريين عن الجيش إلي أن يأمر محمد علي فيكسر القاعدة --)² ويتضح من كلام المؤرخ الكبير جمال بدوي أن إبعاد المصريين الوطنيين عن الجيش من الأسباب الرئيسية لقهر هذا الشعب وإضعافه ومع كل ذلك فإن في عصر الرومان الذي نتحدث عنه في هذا الفصل وبعد ثورة طيبة الأولى في عهد أغسطس والتي تكلمنا عنها قامت بعد ذلك بفترة ثورة أخرى

الثورة العارمة على الرومان :

في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولي الحكم سنة 161 ميلادياً³ كانت ثورة عارمة قام بها المصريون الوطنيون وكان قائد الثورة كاهن مصري اسمه (ايسودوروس) وكانت علي شكل حرب عصابات كما يقال في هذه الأيام ولم يتمكن الرومان بجلالة قدرهم أن يجمعوها بالقوة ويقول عنها د سيد الناصري (-- وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهائظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلي حد تسخير طاقتهم البشرية ذاتها --)⁴ وقد أصبحت الإسكندرية نفسها مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدى إلي أن الرومان استخدموا أساليب أخرى للسيطرة علي الثورة لأن القوة لم تفلح معها وكان يوجد في ذلك الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (أفيدوس كاسيوس) وقام بإحداث وقبحة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة ، المهم يا سيدي إن مصر بعد أن تم استنزاف خيراتها في العصر الروماني بأسلوب مبالغ فيه جداً أصابها أزمات اقتصادية حادة مما أدى إلي اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما⁵

عصر اضمحلال روماني :

وعلي فكرة بدأ عصر اضمحلال لأباطرة روما من سنة 193 م إلي سنة 284 م⁶ نتيجة لوصول شخصيات ضعيفة إلي عرش روما وطبعاً تأثرت مصر بهذه الفترة كثيراً وسارت الأمور من سيئ إلي أسوأ وأبسط مثال علي سرعة تغير الأحوال في روما أن المصريين تعودوا كتابة اسم أي إمبراطور جديد في نقوشهم الفرعونية ولم يتمكنوا من كتابة أسماء بعض الأباطرة نتيجة سرعة زوالهم من علي العرش ، المهم يا سيدي حصلت شوية لخبطة في الإمبراطورية الرومانية وفي مصر طبعاً

¹ طبيعة الأمة المصرية (جمال بدوي) ص 67

² طبيعة الأمة المصرية (جمال بدوي) ص 67

³ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 47

⁴ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 210

⁵ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 218

⁶ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 219

وكل شوية يبجي إمبراطور ويروح إمبراطور وأحياناً يكون إمبراطور طيب ومحترم وأحياناً يكون مش ولا بد وظالم ومفتري ، والمصريون طبعاً كانوا يشعرون بكل واحد فيهم سواء كان عادل أو ظالم لأن النوع الأول كان يقوم ببعض الإصلاحات أما النوع الثاني فنتشر في عهده الفوضى ، ولن أشغل بالك يا صديقي بكل هذه التقلبات والصراعات التي حدثت لأنني وعدتك بالالتزام بالسطحية الشديدة وحتى لا تمل (هذا إذا كنت تقرأ إلي الآن أساساً) ، المهم في كل هذا إن مصر لم تعد ولاية مؤثرة علي أمن الإمبراطورية الرومانية ولم تعد تشكل أي خطورة أو ثروة ويبدو أن الرومان تحولوا إلي نهب مناطق أخرى وأهملوا مصر بعد أن أكلوها لحم ورموها عظم كما أن الخطر الفارسي أصبح يهدد الرومان ويقلقهم ويشغلهم عن أمور أخرى كثيرة وسبحان مغير الأحوال ، وقد وصل الشعب المصري في تلك الفترة إلي مرحلة قاسية جداً من اليأس والقهر والظلم

الديانة المسيحية في مصر :

وأثناء هذه الفترة من الاضمحلال الروماني سعي المصريون للخلاص وأصبحوا يبحثون عن من ينقذهم من كل هذه الويلات والخراب ثم وجدوا ضالتهم أخيراً في الديانة المسيحية التي بدأت تنتشر في مصر بشكل ملحوظ ويقول عن ذلك د سيد الناصر (- -) وفي أثناء ازدياد التدهور والاضمحلال الإقتصادي برز خطر سياسي عقائدي علي الإمبراطورية الرومانية ، ألا وهو انتشار المسيحية في مصر بين أواسط الفقراء والمعوزين المصريين إيماناً بفكرة الخلاص من الظلم والجور وتحطيماً لتلك الفروق الإجتماعية ، لأن الجميع أبناء الله في نظر المسيحية وأن السعادة الكبرى هي سعادة الروح والرب - كما أن مبادئ المسيحية التي تدعو المظلوم لترك الظالم لعقاب الله ، وعدم منازعته - - ولاقت صدي في نفوس المصريين المضطهدين والذين لا يستطيعون مقاومة الرومان)¹ ودخل أيضاً في هذه الديانة بنسبة كبيرة المصريين المتأخرين أو طبقة الإغريقومصريين الذين وجدوا في هذه الديانة البلم الشافي علي حد تعبير د سيد الناصري ، وقد انتشرت المسيحية في مصر تدريجياً ، وقد كانت رحلة العائلة المقدسة إلي مصر (السيدة مريم وابنها سيدنا عيسي) هرباً من مؤامرات اليهود وقسوة الرومان كانت هذه الرحلة قد تركت انطباعاً رقيقاً لدي المصريين وتسببت في تعاطفهم مع السيدة مريم (- -) ولم يكن هناك شعب أرحم بها ولا أرض أحن عليها وعلي وليدها غير شعب مصر (- -)² وجدير بالذكر أن القديس مرقس الرسول كان قد حضر إلي الإسكندرية سنة 50 م³ وأسس الكنيسة المرقسية بها وكانت الإسكندرية علي درجة عالية من العلم والثقافة ، وبدأ ظهور المسيحية في مصر في عهد الإمبراطور نيرون ثم بدأت في التنامي والإزدياد بعد ذلك وكان الرومان في ذلك الوقت لا يتدخلون في العقائد الدينية لشعوبهم ثم بدأ التدخل بعد ذلك فكانت أول مواجهة حقيقية بين الإمبراطور الروماني وبين الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور (ديقوس 249-251 م) عندما شعر بخطورة هذه الديانة علي مركزه لأن المسيحيين طبعاً كانوا يرفضون مركز الإمبراطور الديني كشخص مؤله ويقول عن ذلك د سيد الناصري (- -) ومن هنا فرض ديقوس علي المصريين تقديم إثبات بأنهم قدموا القرابين والأضاحي -- وذاقوا طعم هذه القرابين توكيداً للوثنية وعبادة الإمبراطور بالقوة ومن يتمتع عن ذلك الإجراء في حضور اللجنة التي عينها الإمبراطور لهذا الغرض ، يحكم عليه بالموت (- -)⁴

زنوبيا تغزو مصر :

المهم يا سيدي إن أحوال مصر تدهورت كثيراً في ظل تدهور الإمبراطورية الرومانية حتي أنها تعرضت للغزو سنة 270م⁵ من بلاد (تدمر) وكانت تسمى (بالميرا) وكانت لها ملكه اسمها (زنوبيا) وعلي فكرة هذه المملكة كانت تقع بين سوريا والعراق واستطاع جيش زنوبيا أن يسيطر علي مصر وعينت ابنها حاكماً إمبراطوراً وكانت تتمني أن يعترف به الإمبراطور الروماني (كلاديوس القوطي) الموجود علي عرش روما في ذلك الوقت ، ثم بعد ذلك نجح الإمبراطور

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 235

² المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 24

³ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 27

⁴ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 236

⁵ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 240

أوريليانوس في احتلال بالميرا وأسر ملكتها زنوبيا ولكن بعد أن استخدم السياسة والدبلوماسية في البداية وأوهمها بالحكم المشترك علي مصر ، وهذا الغزو يعتبر مثال بسيط علي حالة التدهور التي وصلت إليها مصر لدرجة يصعب وصفها وقد زاد الطين بلة وصول الإمبراطور دقلديانوس لعرش الإمبراطورية (284-305م)¹ وبدأ معه الاضطهاد الديني الشرس للمسيحيين في مصر ولكن هذه قصة أخرى سنتكلم عنها في الفصل القادم إن شاء الله

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني(د سيد الناصري) ص 252

12. من روما إلى بيزنطة (ومصر من ورطة إلى ورطة)

أتعس ولاية رومانية :

عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس علي عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبيق علي جميع الولايات الرومانية وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية¹ واجتماعية وعسكرية² ، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تماماً عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته ، حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء



دقلديانوس

وكان طبعاً لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدي السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وعلي فكرة وقبل أن أنسي فإن عدد ولاة مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة ولاة³ حكموا مصر في عهده حوالي 21 سنة كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلاً بعد أن كانت لها عملة خاصة بها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ، وكل المزايا والقواعد التي وضعها أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية وهذا هو الطريف في الموضوع وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطوراً⁴ وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولى لدقلديانوس مما أدى إلي حضوره بنفسه إلي مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة 8 شهور كاملة حتي جاع الناس فيها ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها وبعدين الظاهر إنها صعبت عليه فقرر أن يتودد لأهلها ويقول عن ذلك د سيد الناصري (- - وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم ، حفاظاً علي هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط ، عندما أصدر قراراً بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثراً ضخماً لشكر الإمبراطور ، ويعرف حالياً بعمود السواري - -)⁵ ، لكن المشكلة الحقيقية إن دقلديانوس قرر استئصال الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة التي تدعو للمساواة وترك العنف وتبني المحبة والسلام اعتبر كل هذا تحدياً سافراً لسلطانه المؤله علي شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور وطبعاً هذا أثار في نفسه الكثير (- - -) ومما دفع الإمبراطور إلي فقدان اتزانته ، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعتها

¹ من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور

بنفس كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

² من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوى

³ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 50

⁴ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 254

⁵ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 255

ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة فلماذا يحدث هذا لشخصه¹ دون أسلافه ، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحدياً لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار - -)² ، المهم يا سيدي إن الرجل ده كان مفتري زيادة عن اللزوم وخصوصاً في موضوع القتل والذبح بلا رحمة أو شفقة وتم قتل مئات الآلاف - -) وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان علي ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقليانوس عرش الإمبراطورية "284م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء - -)³ ، - -) وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي ألهم أن يموتوا من أجله - -)⁴ وقد بلغ عدد القتلى أكثر من 800000 نسمة⁵ وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها

تقسيم الإمبراطورية الرومانية :

وقد قام دقلديانوس من ضمن إجراءاته وتعديلاته بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلي قسمين رئيسيين قسم شرقي وقسم غربي وجعل علي كل قسم حاكم بلقب أغسطس ونائب بلقب قيصر وبعد أن مات تصارع خلفاءه علي العرش وحصلت شوية لخبطه وصلت إلي نشوب القتال بين الفريقين واستمر هذا الصراع والتنافس بين الأباطرة والقيصرة إلي أن استطاع واحد اسمه قسطنطينوس (أبو قسطنطين) أن يهزم منافسه ويجلس علي العرش ، واتخذ بعد ذلك قسطنطين عاصمة جديدة له وكانت عبارة عن مدينة قديمة اسمها بيزنطة وأطلق عليها اسمه لتكون القسطنطينية (استنبول حالياً بتركيا) والتي أصبحت بعد ذلك عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية⁶

العصر البيزنطي :

ويعتبر هذا الإمبراطور هو مؤسس العصر البيزنطي نسبة إلي اسم هذه المدينة وبدأ هذا العصر سنة 323 م وتولي حكم مصر في هذا العصر 79 والياً عاصروا 22 إمبراطوراً⁷ أشهرهم بالنسبة لنا حالياً قسطنطين الأول وهرقل ، المهم يا سيدي وطبقاً للسطحية الشديدة التي تتسم بها هذه الدردشة والتي التزم بها حتي لا تمل من القراءة فقد حدث أن الإمبراطور قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية وكان يعتبر أول إمبراطور مسيحي في الرومان بالكامل وقد أسعد ذلك بالطبع المصريين في البداية ولكن سرعان ما اختفت هذه السعادة

الخلاف بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية :

فقد حدثت المشاكل وبدأ الاضطهاد بعد حدوث خلاف حاد بين الكنيسة بالإسكندرية وكنيسة الإمبراطورية حول طبيعة السيد المسيح نفسه ويقول د سيد الناصري عن ذلك - -) ولكن ثبت أن اضطهاد الأباطرة الوثنيين كان عاملاً مساعداً ، ليس في انتشار المسيحية فحسب بل في توحيد جبهتها وتناسي خلافاتها العقائدية إذ سرعان ما برزت هذه الصراعات العقائدية حول قانون الإيمان المسيحي والأسس الفلسفية للعقيدة الجديدة وكان الصراع الأكبر بين الأسقف الكسندر روس وشماسه أثناسيوس من ناحية وبين خصم لدود هو أسقف آخر اسمه آريوس حول علاقة الأب بالابن وهل الابن هو نفس الأب أم شبيه به ، لقد رفضت الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بشدة رأي آريوس الذي رأي أن الابن لا يمكن أن يكون وجوده مع الأب بل يليه وبالتالي فهو ليس نفسه بل شبيه به ، بينما تمسكت الإسكندرية بأن الأب ظهر في جسم الابن الذي هو المسيح وكانت خطورة هذا الجدل اللاهوتي ما نتج عنه من ردود فعل سياسية ، هددت الإمبراطورية بالعودة إلي

¹ يعني الموضوع كان شخصي بالنسبة لدقلديانوس وكأنه كان يقول للمصريين بينه وبين نفسه أنتم عبدتم كل الفراعنة وكل البطالمة وكل الأباطرة الرومان الذين كانوا قبلي فلماذا لا تعبدونني أنا أيضاً هل المشكلة في شخصي أنا
2 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 261
3 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص 262
4 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 41
5 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 52
6 معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 263
7 موسوعة حكم مصر (د ناصر الأنصاري) ص 52

الحروب الأهلية - -)¹ ونفهم من هذا أن الضغط الرهيب الذي كان موجوداً علي المسيحيين جعلهم متحدين أمام القهر الإمبراطوري ، أما بعد أن أصبحت الإمبراطورية تعترف بالديانة المسيحية فقد أعطاهم الفرصة للجدل حول طبيعة السيد المسيح فهل هي طبيعة إله أم طبيعة إنسان أم الاثنين معاً فهل فارقت طبيعته اللاهوتية أثناء وجوده علي الأرض فمثلاً عندما كان ينام من الذي كان يدير الكون وهكذا استمر الجدل حول علاقة الابن بالأب وهل كلاهما واحداً أم اثنين وفي الحقيقة إذا أردت أن تعرف أكثر عن هذا الموضوع فابحث عن كتاب مناسب بدلاً من هذه الدردشة لأنني لا أعرف طبيعة هذا الجدل بالضبط ولكن المؤكد أن هذا الجدل أصبح مشهور جداً في بيزنطة حتي أننا نجد شخص ما كثير الجدل نقول له علي سبيل المثال (لا داعي للجدل البيزنطي) الذي لا يؤدي إلي أي نتيجة ، ومع ذلك فمن واجبي هنا طالما تطرقنا إلي الكلام عن السيد المسيح عليه السلام أن أقرأ معك ما بعض ما جاء في هذا الموضوع بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

السيد المسيح في القرآن الكريم :

فوسط كل هذا الجدل البيزنطي وهذه الافتراءات علي السيد المسيح عليه السلام لابد أن نتوقف وقفة سريعة عند هذا الموضوع فلا يصح إطلاقاً أن نمر علي كل هذا دون أن نتوقف ونتذكر ما جاء في كتاب الله عز وجل ، فالقرآن الكريم من تحدث به صدق ومن حكم به عدل ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله وإليك بعض وليس كل الآيات التي وردت عن سيدنا عيسى عليه السلام في كتاب الله والتي تؤكد أنه بشر رسول وعبد لله عز وجل أرسله في بني إسرائيل بل وكان آخر أنبياء بني إسرائيل وكانت ولادته معجزة إلهية وآية ربانية كما أن هذه الآيات ترد علي من قال أن المسيح هو ابن الله وأيضاً ترد علي من قال أن المسيح هو الله ، - - - وأنا طبعاً لا أدعي أنني أقوم بتفسير القرآن وبالتالي سوف أورد بعض هذه الآيات بدون تفسير وعليك عزيزي القارئ أن تبحث في كتب التفسير المتخصصة وتساءل العلماء عن ما جاء بها - - -

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ { (72) سورة المائدة } لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { (73) سورة المائدة } ، {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (68) سورة يونس ، {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (81) سورة الزخرف ، {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (75) سورة المائدة ، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (116-117-118) سورة المائدة ، {فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} (155-157) سورة النساء ويمكنك عزيزي القارئ أن تقرأ وتتدبر كل ما جاء من آيات عن سيدنا عيسى عبد الله ورسوله في القرآن الكريم وتبحث عن تفسيرها

الجدل البيزنطي وعودة الاضطهاد الديني :

وقد كان هذا الخلاف بين الكنيستين من أسباب عودة الاضطهاد الديني مرة أخرى بعد أن فشلت جميع محاولات قسطنطين في احتواء هذه الأزمة ويأس من توحيد الإمبراطورية علي مذهب واحد بوضع أساس قانون الإيمان المسيحي

وكان قد اعتقد أن بصفته إمبراطوراً يمكنه السيطرة علي الكنيسة ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- -) - وقد ردت الكنيسة التي كانت قد أصبحت قوية ومسيطرة بأن الإمبراطور مسيحي قبل أن يكون إمبراطوراً وأنه قبل توليه العرش يجب أن تباركه الكنيسة بالشعائر الخاصة ومن حق الكنيسة عدم الموافقة علي أداء مثل هذه الشعائر - -)¹ بل إن الكنيسة ادعت لنفسها الحق في الاستقلال المالي والإداري ، وهكذا عادت الإسكندرية إلي التمرد علي الرومان ولكن بزعامة الكنيسة هذه المرة ، ويبدو أن السكندريين (الإغريق) كانوا يتمنون أن تكون عاصمة الإمبراطورية هي الإسكندرية بدلاً من بيزنطة التي اختارها الإمبراطور وكان هذا سبباً آخر لزيادة السخط علي الإمبراطور وحدثت مشاكل بين الإسكندرية والإمبراطور رغم محاولته تفاديها ، وبالمناسبة تم تقسيم الإمبراطورية بالفعل بعد موت قسطنطين إلي شرقية وغربية وأصبحت الإمبراطورية الشرقية هي الأقوى والأكثر ازدهاراً وحضارة بينما انهارت الإمبراطورية الغربية بعد ذلك نتيجة لتعرضها لغزوات وحروب خارجية ليس هذا مجالاً للحديث عنها

العصر القبطي :

المهم يا سيدي من الآن سنتكلم عن العصر الذي نتحدث عنه بصفته العصر القبطي في مصر لأن هذا التعريف هو الذي أصبح سائداً بعد أن فرضت اللغة القبطية نفسها والتي نشأت في البداية في ريف مصر لإحياء اللغة المصرية القديمة وكتابتها بحروف أبجدية إغريقية مع بعض التعديلات ، المهم إن لفظ القبط والأقباط والعصر القبطي وغير ذلك هو الذي أصبح متداولاً حتي أن هناك ما يعرف بالفن القبطي واللغة القبطية والآثار القبطية وغير ذلك ، وعندما كان يتحدث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن أهل مصر فقد كان يستخدم لفظ القبط والله أعلم ، وقد استمر الاضطهاد للمسيحيين في مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية حتى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تفرض علي الكنيسة المصرية أسقفاً عليها من طرفها وكان في حراسة قوة رومانية وطبعاً هذا الأسقف كان علي علاقة سيئة برجال الكنيسة المصريين (ويقوم هذا الأسقف باضطهاد رجال الكنيسة المصريين الذين كانوا يهربون إلي الكهوف والأديرة في الصحراء)² وعلي فكرة عندما نقول الكنيسة القبطية فمعناها الكنيسة المصرية لأن القبطية هنا جنسية وليست ديانة لأن مصر هي بلاد القبط حتي أن كلمة قبط ستلاحظ أنها كلمة (مصر) حالياً باللغة الإنجليزية وباقي اللغات (إيجيبت) (EGYPT) ، ولمزيد من التوضيح فإنه بعد دخول عمرو بن العاص مصر وفتحها أسلم العديد من الأقباط وظل أقباط آخرين علي ديانتهم المسيحية ، والذين أسلموا تزوجوا بعد ذلك بقبائل عربية وشعوب وعناصر من المسلمين غير مصريين ، وبالتالي فقد تكون أنت أو أنا عزيزي القارئ قبطي مسلم أو قبطي مسيحي بمعنى مصري مسلم أو مصري مسيحي ، والفرق أن القبطي المسلم قد دخل في أصوله جنسيات مسلمة أخرى تزوجت مع المصريين .

تحسن العلاقة بين الكنيستين لفترة قصيرة نسبياً :

وجدير بالذكر أن العلاقة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية تحسنت إلي حد ما في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأصغر (380-450 م) وتوقفت الاضطهادات³ وكان الأسقف كيرلس هو أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت وقد قاد المعارضة ضد واحد اسمه نسطوريوس وكان بطريرك القسطنطينية وكان يدعو إلي الفصل بين الصفات الربانية والصفات البشرية للسيد المسيح بينما كان يصر البطريرك كيرلس علي إدماج الصفتين الربانية والبشرية في جسد المسيح ، وأصبح الأسقف كيرلس ذو مكانة خاصة عند الإمبراطور

عودة المشاكل مرة أخرى :

ثم عادت المشاكل مرة أخرى في عهد الإمبراطور مرقيانوس عام 454 م (فقد اندلع عام 451 م خلاف بين كنيسة روما والإسكندرية أدى إلي انقسام الكنيستين حتي يومنا هذا حيث أصبح أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار علي نهجهم يعرفون باسم الأرثوذكس أي أتباع النظرية السلمية وقد انضم إليها السوريان ، وقد أطلق علي هذه الجبهة اسم اليعاقبة

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 266

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 281

³ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 281

بينما أصبح أتباع كنيسة روما يطلقون علي أنفسهم اسم الكاثوليك أي أصحاب المذهب الجامع لكل الآراء علي مستوي العالم بأسره أما أتباع كنيسة القسطنطينية فقد عرفوا باسم الملكيين أي أتباع مذهب الملك " الإمبراطور " ¹ وفي عهد مرقيانوس عاد العنف ضد أقباط مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية مرة أخرى بسبب مذهب الطبيعتين ومذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (وقامت ثورات دموية ضد القسطنطينية ، وتعرض الأقباط -- لمذابح بشعة فاقت حتي تلك التي قام بها الأباطرة الوثنيون ضدهم ، بل إن عدد الذين استشهدوا من الأقباط -- علي أيدي أتباع مذهب الطبيعتين يفوق بكثير عدد الذين استشهدوا علي أيدي الأباطرة الوثنيين) ² وعلي رأي المثل البلدي الظريف جت الحزينة تفرح لم تجد مطرح ، يعني الشعب المصري الغلبان شعر بسعادة كبيرة جداً بعد أن أصبح الإمبراطور الروماني يدين بنفس ديانة الشعب المصري المسيحي وأعتقد الشعب أن الاضطهاد والقتل سوف ينقشع ولكن للأسف كان اختلاف المذاهب أبشع من الوثنية نفسها التي كان عليها الأباطرة

اضطهاد وظلم وفقر وضرائب باهظة :

وطبعاً من الواضح إن المصريين ذاقوا الأمرين في هذه العصور فإن مشكلة المذاهب لم تكن المشكلة الوحيدة رغم أنها الرئيسية إلا أن مصر كانت تعاني من الظلم والفقر والضرائب الباهظة وعلي فكرة كان الرومان قد قرروا أن يكون والي مصر هو نفسه الأسقف في نفس الوقت مما أدى إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً (وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام 576 م) ³ وفي عام 622 تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر ، المهم يا سيدي إن الدنيا كانت ماشية علي هذه الوثيرة والمشاكل الرومانية المتعددة إلي أن بدأت تعود الإمبراطورية الفارسية للأضواء مرة أخرى وأصبح لها جيوش جرارة تنافس بل تتفوق علي الرومان وتجتاح ممتلكاتهم وتضم ولاياتهم إليها ومن بينها مصر ولكن هذه قصة أخرى سنتكلم عنها في الفصل القادم إن شاء الله

¹ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 282

² معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 283

³ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص 285

13. الفرس في مصر مرة أخرى

الشعب المصري الغلبان :

مسكين والله هذا الشعب المصري الغلبان يعني يلاقيها من الرومان أم من الإغريق أم من الفرس أم من اليهود ، فهو علي الرغم من اعتناقه الديانة المسيحية التي شعارها وجوهرها المحبة والتسامح لِتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (82-83) سورة المائدة ، هكذا وصف المولي عز وجل النصارى في القرآن الكريم ، فهم أقرب الناس مودة للمؤمنين علي عكس اليهود تماماً وقد قرأت في كتاب المسيحية والإسلام في مصر للدكتور حسين كفاي صفحة 34 ما يلي (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعدائكم ، أحسنوا إلي مبغضيك وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم فمن لا يعرف المحبة لا يعرف الله - إنجيل متي الإصحاح 5) ، وبالرغم من أنهم كانوا يهربون إلي الصحراء في الأديرة المختلفة التي أصبحت مراكز للإشعاع الديني ومقراً للعبادة والرهبنة إلا أن المصائب والمشاكل لم تتركهم في حالهم رغم تسامحهم مع الناس جميعاً طبقاً لتعليمات دينهم ، وبالمناسبة يعتبر أقدم دير في العالم علي الإطلاق هو دير الأنبا أنطونيوس علي ساحل البحر الأحمر (ولذلك فإن الأنبا أنطونيوس الذي أنشأ الدير المسمي باسمه يسمي أبا الرهبان أو كوكب البرية الشرقية أي الصحراء الشرقية) I المهم يا سيدي إن المصريين علي الرغم من كل هذا إلا أن الاضطهاد الديني الروماني لهم أصبح روتينياً ومألوفاً فالحاكم الروماني نفسه أصبح هو البطريك المخالف للمذهب بينما كان هناك البطريك المصري المنتخب سراً ، وفي أثناء كل هذه الأحداث من اضطهاد وظلم وفقر وتدهور استطاع الفرس إلحاق هزيمة ساحقة بالرومان "" الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) سورة الروم

دخول الفرس :

ودخل الفرس مصر وهرب المصريين إلي الأديرة والصحراء ووجد الفرس المدن شبه خالية تماماً (وأعلن القائد الفارسي في الإسكندرية أنه سيعطي كل مصري من أهل الإسكندرية فيما بين ثمانية عشرة عاماً إلي ابن خمسين عاماً عشرين ديناراً وحدد مكاناً خارج المدينة لكي يعطي لكل شاب ورجل الدينارات فلما خرجوا إلي مكان تجمعهم خارج أسوار المدينة تم حصارهم وأعملوا فيهم السيوف فقتل منهم ثمانون ألف رجل وشاب)² وعلي فكرة هذه رواية المؤرخ الشهير المقريري عن هذا الحدث وقد أوردها الدكتور حسين كفاي في كتابه الممتع المسيحية والإسلام في مصر ، المهم إن الفرس استباحوا مصر للقتل والنهب والتخريب بل وطاردوا الرهبان في الصحراء والجبال والكهوف وخرّبوا حوالي 620 ديراً ، أما العجيب في الموضوع أن المصريين ارتاحوا من الاضطهاد البيزنطي فقد كان الفرس بعد أن استقرت الهوجة التي دخلوا بها البلاد مجرد محتلين عاديين عايزين يذهبوا وخلصوا ومش في دماغهم الخلافات العقائدية ولم يرغبوا المصريين علي عبادة النار التي يعبدونها ، فطالما أن الشعب المصري يقدم لهم كل ما يحتاجونه في خنوع واستسلام وذل فلا مشاكل ، وطبعاً كان هذا الشعب المقهور أعزل ولا حول له ولا قوة ويكتفي بالعبادة والزراعة وخدمة أسياده الجدد الذين كانوا يعاملون المصريين كالعبيد ،

صبر هذا الشعب :

وأفضل ما يمكن أن يقال عن صبر هذا الشعب في العصور المختلفة علي الأهوال والمصائب هو ما ورد في كتاب الأستاذ جمال بدوي (طبيعة الأمة المصرية صفحة 18) (ولقد صبر المصري علي العمل والمشقة ولقد عودته المواسم

¹ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 48
² المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 48

الزراعية أن ينتظر كل شئ في أوانه ويربط كل أمل بأجله ، فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه آثاره من القدرية وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير ، وله في هذا المعنى أمثال وحكم يتفق عليها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء أو يتفق عصر الأناة وعصر السرعة والوثوب وشعار المصري في الخصومة " اصبر علي جار السوء يرحل أو تجئ له داهية " فهو صبور مسالم لا يجعل بالشر ولا يتفرز إلي الانتقام بيد أنه يصبر لينتقم ويصبر علي المكابدة والنكاية كما يصبر ليري عدوه راحلاً عنه أو مصاباً بدهية علي يد غيره) ، المهم يا سيدي إن الشعب المصري تعامل مع الاحتلال الفارسي بهذا المبدأ علي ما يبدو وتحمل قهر العمل من أجل الغير واستنزاف طاقاته وخيراته والظلم الذي لا حدود له ، وعلي فكرة كان الصراع بين الفرس والروم في ذلك الوقت علي أشده فقد كانا حتي هذه الفترة أقوى دولتين في العالم كله ، واستطاع هرقل قيصر الروم أن يجمع جيش ضخم ويهزم الفرس ويستعيد ممتلكات الإمبراطورية الرومانية

عودة الروم مرة أخرى :

وبعد انتصار الروم علي الفرس تم توقيع معاهدة صلح استرد الروم علي أساسها ممتلكاتهم مرة أخرى وولاياتهم بما فيهم مصر طبعاً¹ ، وأهم ما يقال عن فترة وجود الفرس في مصر أن المصريين انتخبوا البابا بنيامين بطريكاً مصريةً وهو أحد الرهبان المحبوبين من دير يعرف بدير قنويس² وظل هذا البابا أثناء وجود الفرس علي كرسي الإسكندرية يقدم الحب والخير للكنيسة والشعب المصري إلي أن عاد الروم مرة أخرى وقرر هرقل أن يرسل والياً جديداً علي مصر وهو كيروس (المقوقس) الذي كان والياً و بطريكاً أيضاً ، وعاد الاضطهاد مرة أخرى (حتي أشرفت مملكة الروم علي الهلاك وأصبحت في حالة انحطاط زائد بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية وفي هذه الأثناء هرب البطريرك المصري البابا بنيامين - واستمر مختبئاً في أقاصي الصعيد لا أحد يعرف أين هو إلا خاصة خاصته ومضت عشرة أعوام في فترة الحكم البيزنطي كانت كلها أيضاً ظلم وتخريب وتقتيل وتعذيب واضطهاد ديني وسياسي وقومي)³ وإلي هنا عزيزي القارئ تنتهي الدردشة عن عصور التاريخ المصري قبل الإسلام وحان الوقت لندردش ونستردش في الحديث عن الأمة الإسلامية ونشأتها في بلاد العرب وسحقها للفرس والروم وفتح مصر علي يد القائد والصحابي عمرو بن العاص في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين ، وسوف نتناول بعد ذلك تاريخ مصر في العصور الإسلامية المختلفة إن شاء الله من بعض الكتب والمراجع المتخصصة في ذلك والله المستعان

¹ لم يحصل الروم علي مصر مباشرة بعد انتصارهم علي الفرس بل كانت عودة مصر للروم بعد الانتصار بفترة تخللها مفاوضات وانتهت بمعاهدة صلح استعاد الروم بواسطتها ما استولي عليه الفرس ومن بينها مصر ، لأن المعركة التي انتصر فيها الروم علي الفرس لم تكن في مصر كما نعلم
² المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 112
³ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 115

14. مقدمات الفتح العربي الإسلامي لمصر

خير أمة :

مرحباً بك يا صديقي العزيز لندردش ونتحدث عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لَكُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (110) سورة آل عمران وسوف نتكلم عن نشأتها وظهورها واتساع حدودها من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها وعلي فكرة مهم جداً أن تعرف أن الإسلام هو السبب الرئيسي بل الوحيد الذي أعز الله به هذه الأمة ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا تربطهم رابطة واحدة (كانوا متفرقين بغير باعث إلى الوحدة والنهوض فجاهتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم فتم لهم ما نقص وتهيات لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء)¹ وبالمناسبة لو كان الإسلام نزل علي أمة قوية ناهضة بالفعل علماً وحضارة وقوة وثروة لأرجع البعض السبب في عزتها إلي المقومات الموجودة بالفعل فيها ولو كان القرآن نزل علي أحد العلماء في ذلك العصر لكان للبعض رأي مشابه أيضاً ولكن الرسالة نزلت في قوم متفرقين ونبى أمي صلي الله عليه وسلم مما يؤكد أن الرسالة هي التي صنع الله بها هذه الدولة القوية ، وظلت عزة هذه الأمة مقرونة بالتمسك بتعاليم الإسلام دائماً فكل من تولى أمر المسلمين بعد ذلك وأدرك هذه الحقيقة ستجده يحقق بفضل الله تعالي النصر والمجد للأمة ، أما من يبتعد عن هذه الحقيقة في هذه الأمة فستراه يذل لغير الله ويخضع هو وقومه لدول وأمم أجنبي ، وعندما أمسكت دولة الإسلام بعجلة القيادة العالمية اختلفت عن الدول الأخرى التي ذكرناها في هذه الدردشة اختلاف شاسع في تطبيق المنهج والثقافة والحضارة ، فالأمم التي أخضعت العالم لحكمها مثل الفراعنة والإغريق والفرس والروم كانوا ينشرون منهجهم البشري علي البشر أما هذه الأمة فقد قامت بنشر منهج الله سبحانه وتعالى

الظروف العالمية قبل الإسلام :

أما الموقف العالمي الذي سبق ظهور الإسلام فيقول عنه العقاد رحمه الله (كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية - - خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام - - أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر - - طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلي قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعيف وتجزئ الظالم وتختار الأصلاح والأكمل من جميع الأمور ، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلي دولة تقضي بالشرعية وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد)² هكذا وصف العقاد بأسلوبه الرائع الأحوال في العالم ثم يشرح بعد ذلك موقف كل دولة علي حدة فيقول (بيزنطة قد خرجت من الدين إلي الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتي طمع فيها من كان يحتمي بجوارها ، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس - - وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة وبواعث الفتن ونوازع الشهوات ، والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة - - عالم يتطلع إلي حال غير حاله - - عالم يتهبأ للتبديل أو للهدم ثم البناء - -)³

ذرية إسماعيل عليه السلام :

ووسط هذا كله بعث المولي عز وجل نبيه محمد صلي الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام لَوَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

1 عبقرية خالد (عباس محمود العقاد) ص 11

2 عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس محمود العقاد) ص 9

3 عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس العقاد) ص 9

وَيُرَكِّبُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)1 وقد قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فيما رواه مسلم في صحيحه (اصطفي الله كنانة من ولد إسماعيل واصطفي قريشاً من كنانة واصطفي هاشماً من قريش واصطفاني من بني هاشم) 2

أفضل العناصر البشرية على الأرض :

ومن هنا نعرف فضل قبيلة قريش علي سائر العرب والعالم فقد كان بها أفضل العناصر البشرية علي الأرض ولكنها كانت مكونة من عدة بطون تتنافس علي الشرف والسيادة فيما بينها وبالتالي لم يكن من الممكن أن يكون فيها ملك واحد يحكمها ، وخير ما يمكن أن يقال في هذه الدردشة عن التنافس قبل الإسلام في هذه القبيلة العظيمة التي شرفها الله سبحانه بخاتم أنبياءه ورسوله ، ما قاله العقاد (واحتالوا علي التوفيق بينهم بتقسيم المفاز والمراسم علي بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزايهم ، فأنتهي الشرف إلي عشرة بطون هم هاشم وأمّية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها إلي قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهي إعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبني أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى في مهمات الأمور ، وكانت لبني تيم الديات والمغارم وكانت لبني جمح الأيسار والأزلام ولبني سهم الحكومة والأموال المحجرة وظلوا يتولونها جيلاً بعد جيل إلي ظهور الإسلام - - - ولم يكن لهذه الوظائف الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال بل كانت تعلق وتهبط علي حسب الزعيم الذي يتولاها وعلي حسب القوة التي يكون عليها بيته عند ولايته إياها ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملّة وجدنا منها ما كان يقصد به " جبر الخاطر " والإرضاء - - - ولم تجد بينها سلطات فعالة - - غير ثلاث متفرقات وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار والسلطة السياسية لأمية والسلطة العسكرية لمخزوم) 3 ، ومن كلام العقاد يتضح أن هاشم وأمّية ومخزوم تقريباً كانوا هم أكثر البطون فعالية وتأثيراً ، وفي الحقيقة أنا كنت عايز أذكر لك بعض أسماء من هذه البطون لكي تتعرف عليها فقد تعرف البطن من شخصيات تنتمي لها فمثلاً سيدنا أبي بكر من بني تيم وسيدنا عمر من بني عدي وسيدنا عثمان بن عفان من بني أمّية وسيدنا علي بن أبي طالب من بني هاشم (آل البيت) وسيدنا الزبير بن العوام من بني أسد وسيدنا خالد بن الوليد من بني مخزوم وسيدنا عمرو بن العاص من بني سهم وهناك شخصيات تعرفها جيداً من بني أمّية مثل أبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وكذلك مروان بن الحكم ، وكانت (هاشم وأمّية وعبد الدار) ثلاثة بطون يلتقون في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين 4 ، وكان أبو جهل من بني مخزوم وكان لا يعجبه أن يكون النبي المبعوث من بطن غير مخزوم وكذلك الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم الذي قال ما معناه " أينزل علي محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟) ، وقد كان موضوع العصبية داخل قبيلة قريش من أهم أسباب رفض دعوة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في بدايتها حتي أن تصريحات هؤلاء الكفار يتضح منها أن المشكلة ليست في القرآن بل إنهم شهدوا بعظمته واعترفوا بإعجازه وأيضاً المشكلة ليست النبوة في حد ذاتها ولكن تكمن المشكلة في من سيكون هذا النبي الذي سينزل عليه هذا القرآن وفي أي بطن من بطون قريش {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ} (31) سورة الزخرف بل إنهم بلغ بهم عنادهم أن دعوا الله سبحانه وتعالى الذي يعرفونه جيداً {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (61) سورة العنكبوت ، وتأمل معي هذا الدعاء العنيد الذي يطلبون فيه من الله أن يدمرهم ويهلكهم إذا ثبت أن محمداً صلي الله عليه وسلم صادقاً {وَإِذْ قَالُوا لَلَّهِمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(33)}

سورة الأنفال

¹ البقرة 126-129

² تاريخ الإسلام (الإمام الذهبي) ج 1 ص 22

³ عبقرية خالد (عباس العقاد) ص 15

⁴ عبقرية خالد (عباس العقاد) ص 16 ، 17

رحمة الله للعالمين (صلى الله عليه وسلم) :

حقاً لقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله للعالمين وتحمل ما لا يطاق وصبر على الأذى وجاهد في سبيل الله حق جهاده وكانت حياته صلى الله عليه وسلم بكل ما فيها من تصرفات وسلوكيات قدوة وأسوة للمؤمنين مهما كان الموقف الذي يمر به فقد كان يعلم المسلمين كيفية تصرف المؤمن في المواقف المختلفة فالمؤمن يمر في حياته بمواقف عديدة لاختبار إيمانه فمن المستحيل أن يدعي أي شخص أنه مؤمن دون أن يتم اختبار إيمانه (الم (1) أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3))1 والفتن متعددة فمنها السلطة والمال والنساء والفقر والمرض وغير ذلك من الخير والشر ، ومستوي الابتلاء يكون بنفس مستوي الإيمان وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنواع متعددة من الابتلاء فقد فرض المولى عز وجل على المؤمنين طاعته وهو ما يمكن أن نسميه الآن ابتلاء السلطة فكان لا يغضب لنفسه قط بل كان يغضب لله ويرحم أصحابه ويمشي في حوائجهم وعلمهم كيف تكون السلطة عندما يتولاها المؤمن ، وفرض الله له نصيباً ليس بالقليل في الغنائم فكان أجود الناس وكان أزهدهم الناس ، كما أنه تعرض صلى الله عليه وسلم للأذى وسمع ما لا يطاق ورجم بالحجارة في الطائف وأصيب في معركة أحد ووقعت الهزيمة على جيشه بل قد تم حصاره في المدينة في غزوة الأحزاب هو والمؤمنين ، وقد مات ولده وأقاربه بل أقرب الناس إليه بل إن إحدى زوجاته أمهات المؤمنين² تم اتهامها بحديث الإفك وقد تعرض رسول الله لمواقف شديدة وعصيبة وكان في جميع هذه المواقف يضرب المثل والقدوة للمؤمنين فلا يقول إلا خيراً ويعلم المؤمنين كيف يكون الصبر والجهاد لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) سورة الأحزاب وقد كان رسولاً من البشر وليس من الملائكة فإذا تصرف كل هذه التصرفات ملك من الملائكة لقال الناس إنه من الملائكة وكيف لنا أن نتشبه به وهو بكل هذه القدرات التي يعجز البشر عن محاكاتها أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتفاعل مع الحياة ويتزوج ويزوج ويقال ويتعاهد ويقضي بين الناس وكلها تصرفات إيجابية ليكون مثلاً يحتذى للمؤمنين لتنفيذ منهج الله وهذا يوضح أن الإسلام دين يحث على العمل ويرتقي بأخلاقيات المجتمع وسلوكياته إلي القمة بل إن هناك أمور كثيرة في المعاملات تواري في ثوابها بعض النوافل والعبادات وتكفير الذنوب كإعانة ذي الحاجة الملهوف وقضاء حوائج الناس ومشقة السعي في طلب الرزق والعدل في الحكم والقضاء وإتقان العمل لَوْ قَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (7) سورة الفرقان لقد كان صلى الله عليه وسلم قرآناً يمشي على الأرض ، وعندما غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ظل يصوم ويقوم ويكثر من النوافل والعبادات ، وبالطبع هذه الكلمات ليس مقصوداً بها أن أشرح السيرة النبوية المطهرة أو أوضح فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن أوفيه حقه ولست أرقى لمستوي الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما قد ذكرت ما ذكرت عنه صلى الله عليه وسلم لتوضيح نقاط محددة أحببت توضيحها في إيجاز فكما قال الإمام البوصيري في قصيدته الشهيرة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم والتي تسمى بردة البوصيري :

وانسب إلي ذاته ما شئت من شرف - - - وانسب إلي قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له - - - حد فيعرب عنه ناطق بغم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر - - - وأنه خير خلق الله كلهم

النصر من عند الله :

ومن النقاط أيضاً التي أود أن أشير إليها في هذا السياق أن المؤمنين عندما كانوا يقاتلون في سبيل الله كانوا يتمنون الشهادة ، فالقتال بالنسبة لهم وسيلة للجنة وليرضي المولى عز وجل عنهم فالنصر من عند الله سبحانه وتعالى وقد وعد رسوله به ، فإذا تأملنا وتدبرنا كتاب الله نجد العديد والعديد من الآيات التي تؤكد وتوضح وتحسم قضية النصر وأنه من عند الله وما المؤمنين إلا وسيلة يمكن استبدالها بغيرهم فالقتال لخيرهم هم ، وعندما نقرأ ونتدبر قول الله تعالى الذي نزل في

1 العنكبوت 1 ، 2 ، 3

² وهي السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والتي برأها المولى عز وجل من فوق سبع سماوات ولقد كانت لها مكانة خاصة جداً عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً

إحدى الغزوات (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخَزنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)) 1 سجد في هذه الآيات العديد من المعاني التي أتمني أن تسعي إلي كتب التفسير لتقرأ تفسيرها بوضوح ، ونجد أيضاً في غزوة أُخري أعجب المؤمنون كثرتهم وظنوا أنهم سينتصرون بسببها فأنزل المولي عز وجل (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)) 2 وهذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم تحسم قضية النصر وأنه من عند الله تعالى

طبيعة العرب القتالية :

وإذا تكلمنا عن طبيعة العرب القتالية نجد أنهم كانوا مؤهلين تماماً قبل الإسلام لحمل راية الجهاد ويقول العقاد عن ذلك (فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال علي حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها وأن البدوي قد عاش زمناً كما جاء في التوراة " يده علي كل إنسان ويد كل إنسان عليه " فحصل من ذلك حكمة مطبوعة يصح أن تسمي " حاسة الحرب " أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل أو نهار فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار وهذه الملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخري ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات)³ ويؤكد العقاد في كتابه الرائع عبقرية خالد أن العرب كانوا علي دراية بكافة أنواع الخطط الحربية وفنون القتال ويؤكد أيضاً أن (-- النهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفي بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ولا محل لها لقلته نادرة لا تقبل التكرار وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها -)⁴ المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك وحتى لا تغادر هذه الدردشة (إذا كنت تقرأ إلي الآن) فإن غاية ما يقال في سياق هذه الدردشة التي تعودنا عليه أن الدولة الإسلامية قامت ونهضت واتسعت بإذن الله وفضله ورعايته مع الأخذ بأسباب النصر واستطاعت الجيوش العربية المسلمة أن تهزم الفرس والروم وبرز في ساحة القتال قادة علي أعلي مستوي من الخبرة والدراية والشجاعة وعلي سبيل المثال لا الحصر خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمقداد بن عمرو وسعد بن أبي وقاص وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين وقد تربوا في مدرسة النبوة ونهلوا منها وكانت المعارك التي خاضوها في سبيل الله ضد أعداء الله يتحدث عنها العالم كله ، وأمسك المسلمون هذه المرة بعجلة القيادة العالمية لينشروا منهج الله علي الأرض وليرفعوا الظلم والقهر عن الشعوب المقهورة وليسود العدل وتعم الرحمة وبدون أن يفرضوا عقيدتهم علي أحد بل المهم أن يسود منهج المولي عز وجل وتطبق شريعته عز وجل ، وكانت مصر التي نحن بصدد الحديث عن تاريخها في انتظار من يخلصها من التعسف الروماني بعد أن دام أكثر من 600 سنة تخلله استعباد فارسي أيضاً وقد تم فتح مصر بالفعل في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخلها القائد عمرو بن العاص ، وعلي فكرة لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها عمرو بن العاص مصر بل إنه دخلها قبل الإسلام تاجراً وسوف نتحدث عن هذا الموضوع في حينه ،

¹ التوبة 38 ، 39 ، 41

² التوبة 25 ، 26

³ عبقرية خالد (عباس العقاد) ص 6

⁴ عبقرية خالد (عباس العقاد) ص 11

رسالة رسول الله إلى مصر :

وقبل أن نخوض في تفاصيل فتح مصر يجب أن نذكر نقطة مهمة جداً عن الرسالة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي حاكم مصر ليدعوه لدخول الإسلام مما يدل علي أن مصر كانت لها مكانة خاصة عند رسول الله حيث أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعامل معها كشأن من شئون الرومان بل تعامل معها ككيان مستقل فهي تستحق رسالة خاصة بها بالرغم من الاحتلال الروماني لها وفيما يلي نص الرسالة (من محمد رسول الله إلي المقوقس عظيم القبط ، السلام علي من اتبع الهدى ، أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلّم ، يؤتكَ الله أجرك مرتين ويا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)¹ محمد رسول الله وكان يحمل هذه الرسالة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة اللخمي وكان ذلك سنة 628 م وقد استقبل المقوقس هذه الرسالة استقبلاً يليق بها وأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة هدية من مصر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رد الرسالة كالاتي (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعوا إليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أن نبياً يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها --- والسلام)² وكانت إحدى هاتين الجاريتين هي مارية القبطية التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنجب منها ابنه ابراهيم الذي مات صغيراً ، وقد عرف المقوقس أن هذا الزمان يخرج فيه نبي آخر الزمان وكان يعرف صفته أيضاً ، وقد اعتقد البيزنطيون في البداية أن الإسلام مذهب من مذاهب المسيحية التي تؤكد الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وهذا المذهب كان منتشر في مصر والشام وفلسطين ولم يدرك البيزنطيون وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت في الجزيرة العربية وأن الإسلام لم يبعث لجنس معين أو طبقة بذاتها أو فئة بنوعها ولكن الإسلام جاء للبشر كافة³ ، والآن وبعد أن تحدثنا عن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقوقس ورد فعلها ، فقد حان الوقت لنحدث عن موضوع فضلت أن أخصص له فصل مستقل للحديث عنه وهو موضوع الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفترة خلافة سيدنا أبي بكر في إيجاز شديد وخلافة سيدنا عمر أيضاً وذلك قبل أن أبدأ الفصول التي تتناول فتح مصر وتاريخها في ظل الإسلام

1 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 124

2 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 129

3 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 130

15. الخلافة والخلفاء ومصر

عواصم الخلافة الإسلامية :

علي فكرة يا صديقي موضوع الخلافة موضوع مهم جداً وحساس وبالتالي سيكون الكلام عنه تقريباً بالكامل من الكتب والمراجع كما أن مثل هذا الموضوع بالرغم من أنه لا يختص بتاريخ مصر وحدها الذي نتحدث عنها ولكن لا بد أن نعرف بعض الحقائق عن تاريخ الخلافة بشكل عام لكي تساعدنا في الدردشة عن تاريخ مصر لأنه ارتبط بها ارتباطاً وطيداً كولاية إسلامية بعد فتحها وليست ولاية إسلامية عادية بل إنها دائماً لها مكانتها الخاصة وسوف نلاحظ محاولات الاستقلال التي قام بها بعض الأمراء في مصر بل وسنلاحظ محاولات أخرى تحاول جذب مقر الخلافة وعاصمتها لتكون في مصر إلي أن تصبح مصر بالفعل عاصمة للخلافة العباسية في فترة سلاطين المماليك ، وأول حاجة نقولها بسرعة إن مصر بعد الفتح أصبحت ولاية في ظل الراشدين ثم أصبحت ولاية أموية ثم عباسية وتخلل الخلافة العباسية دولتين في مصر هما الطولونية والإخشيدية ثم بعد ذلك دخلها الفاطميون وأصبحت مقراً للخلافة الفاطمية ثم عادت مرة أخرى للخلافة العباسية ولكن تحت مظلة الحكم الأيوبي ثم أصبحت مقراً للخلافة العباسية وسلطنة مملوكية في نفس الوقت وأخيراً تحولت إلي ولاية عثمانية بعد ضمها إلي الدولة العثمانية ، وظلت مصر تعترف بالخلافة سواء كانت في عهد الخلفاء الراشدين ثم الخلفاء الأمويين ثم الخلفاء العباسيين ثم الخلفاء العثمانيين حتي تم إلغاء الخلافة علي يد الثورة العلمانية في تركيا ، فإذا أردنا أن نتحدث عن كل هذه الأحداث التاريخية وعلاقة الخلافة والخلفاء بمصر علي مر العصور فلا بد أن نقوم بتلخيص سريع وموجز كما تعودنا في سياق الدردشة وسنستعرض عواصم الخلافة الإسلامية وعلاقة مصر بها كالاتي :

| الخلفاء | عاصمة الخلافة | الدولة في مصر | موقف الدولة في مصر من الخلافة |
|------------|-------------------------|--|-------------------------------|
| الراشدون | المدينة المنورة بالحجاز | ولاية في دولة الراشدين | |
| الأمويون | دمشق بسوريا | ولاية أموية | |
| العباسيون | بغداد بالعراق | ولاية عباسية | دولة طولونية |
| | | تتعترف بالخلافة العباسية | ولاية عباسية |
| | | دولة إخشيدية | تتعترف بالخلافة العباسية |
| | | دولة وعاصمة للخلافة الفاطمية الشيعية ولا تعترف بالخلافة العباسية | ولاية عباسية |
| | | دولة أيوبية | تتعترف بالخلافة العباسية |
| العباسيون | القاهرة بمصر | دولة مملوكية | تحتضن الخلافة العباسية في مصر |
| العثمانيون | الآستانة بتركيا | ولاية عثمانية | |
| | | أسرة محمد علي | تتعترف بالخلافة العثمانية |

وطبعاً أنا تعمدت عدم ذكر تواريخ وأرقام في هذا البيان بالرغم من أهميتها لسببين أولهما أن يكون تركيزك منصب علي هذه العواصم وتتأمل الموقف في مصر في كل عصر من عصور الخلافة ، أما السبب الثاني فهو وجود التواريخ بالكامل في مقدمة هذه الدردشة حيث يمكنك العودة إليها ، كما أن هناك تفاصيل أخرى سوف تأتي في حينها وأهمها موقف خلافة عبد الله بن الزبير في الحجاز أثناء الخلافة الأموية وعلاقة مصر بذلك ، والآن يجب أن نتكلم عن نشأة الخلافة من البداية وما حدث في سقيفة بني ساعدة في المدينة ودور الأنصار في هذه الأحداث

الأنصار :

اجتمع الأنصار في المدينة في مكان يعرف بسقيفة بني ساعدة بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وسلم ليتشاوروا فيما ستسير عليه الأمور من بعده صلى الله عليه وسلم ، وتوجه إليهم ثلاثة من كبار الصحابة المهاجرين وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيده رضي الله عنهم جميعاً ، ولكن قبل أن نعرف ما دار في هذا الاجتماع يجب أن نتوقف عند الأنصار قليلاً ونلقي نظرة سريعة عليهم ، فهم أهل المدينة كما نعرف وكانت تسمى في ذلك الوقت (يثرب) وقد كان اليهود يسكنون معهم يثرب ويحدثونهم عن نبي آخر الزمان الذي سيعثه الله من ذرية الذبيح بن إبراهيم عليهما السلام وحيث أن اليهود اعتبروا أن الذبيح هو اسحق عليه السلام وليس إسماعيل عليه السلام فقد انتظروا هذا النبي من بني إسرائيل وليس من بني إسماعيل ، ولكن الحقيقة أن الذبيح هو إسماعيل وبالتالي كان النبي الذي هو دعوة سيدنا إبراهيم وبشارة سيدنا عيسى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل وتحديداً من قريش ، المهم يا سيدي إن أهل يثرب كانوا يترددون علي مكة في مواسم الحج ومواعيد الأسواق الشهيرة كما يفعل العرب وعندما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام كما كان يدعوا غيرهم من زوار مكة في بداية الدعوة تذكروا قول اليهود عن نبي آخر الزمان وكان هذا الحوار الذي أورده الإمام الذهبي في الجزء الأول من كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام وتحديداً في صفحة 130 (-- - أن رسول الله "ص" لما لقيهم قال : من أنتم ، قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ، قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ، قالوا : بلي ، فجلسوا معه فدعاهم إلي الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا (أي الأنصار) أهل شرك وأوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك نفر ودعاهم إلي الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقتم إليه ، فأجابوه وأسلموا وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك ، فسنقدم عليهم فندعهم إلي أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك به ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا - - -) ، وبعد ذلك تعرف عزيزي القارئ ما حدث من بيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ما يسمى ببيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية حيث قالوا قولتهم الشهيرة عندما سألهم عن أن يمنعوه (- - نعم والذي بعثك بالحق نمعنك مما نمعنك به أرزنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر - -)¹ ومنذ هذه اللحظة بدأ كفاح وجهاد الأنصار مع رسول الله لنصرة دين الله وكانت المهمة الأولى لهم هي استقبال وإيواء المهاجرين من مكة عندما سمح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلي المدينة ، وطبعاً أنت تعرف المهاجرين وما تحملوه من تعذيب وآلام وتشريد يعجز القلم عن وصفه وبعد كل هذا تركوا أرضهم ووطنهم العزيز وكل ما يملكون وهاجروا في سبيل الله ، وقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في إيواء المهاجرين واختصوهم بأعلى ما لديهم ، وقال عنهم المولي عز وجل في كتابه الكريم **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (9) سورة الحشر ، وشهد سبحانه وتعالى بالإيمان للمهاجرين والأنصار معاً **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** (74) سورة الأنفال ، واستمر الأنصار يجاهدون في سبيل الله ويشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين الغزوات المختلفة وكان لهم نصيب وافر في جميع المعارك التي خاضوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان ينادي عليهم عندما يحمي الوطيس وتشتد المعركة ويتأزم الموقف (يا أنصار الله) فيلتفون حوله ويجيبونه ويحملون علي أعداء الله ليصدقوا عهدهم مع الله ورسوله ،

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نصيب الأنصار من المعركة :

وهناك مثلاً أود أن أذكره عنهم بعد فتح مكة فقد اجتمعت القبائل من هوازن وثقيف لمهاجمة المسلمين في غزوة حنين المعروفة والتي نصر الله فيها المؤمنين بعد هزيمتهم في بداية المعركة وكانت الغنائم كثيرة جداً وقام صلي الله عليه وسلم بتوزيعها واختص المؤلفلة قلوبهم بنصيب يزيد عن نصيب الأنصار فكانت فرحة الأنصار ورضاهم في أن يكون نصيبهم من هذه الغزوة هو عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم إلي المدينة واتخاذها مقراً له فهم لا يريدون أكثر من ذلك ، وحبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يفوق حب الدنيا ومتاعها ، وأود هنا أن أذكر بعض ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم في هذا الموقف عندما بلغه أنهم تحدثوا فيما بينهم عن زيادة نصيب قريش في الغنائم وتساءلوا عن تفسير ذلك وأوجدوا في أنفسهم ولم يكونوا قد عرفوا بعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعود معهم إلي المدينة تاركاً قريش ومكة ، وقد جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدث إليهم وقال ما معناه (- - يا معشر الأنصار أوجدتم في أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا وولتكم لإسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلي رحالكم ؟ فوالله لما تتقلبون به خير مما ينقلبون به والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت إمراً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، وإنكم ستلقون أثره بعدي فاصبروا حتي تلقوني علي الحوض ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فبكي القوم حتي ابتلت لحاهم وقالوا ما معناه (- - رضينا برسول الله قسماً ونصيلاً) وبالطبع لن نستطيع أن أتحدث عن فضل المهاجرين والأنصار في هذه السطور لأنني غير مؤهل لذلك ولكن من المؤكد أنك عزيزي القارئ لست في حاجة لأن أوضح لك عظمة هؤلاء القوم ففي كتاب الله ما يؤكد علي فضلهم ومكانتهم ،

سقيفة بني ساعدة :

نعود إلي سقيفة بني ساعدة لنعرف ما حدث بها من أمور انتهت بمبايعة سيدنا إبي بكر الصديق (ر)¹ ليكون أول خليفة في تاريخ الخلافة الإسلامية كلها ، وقد تحدث العقاد رحمه الله عن هذا الاجتماع في كتاب عبقرية الصديق ووصف بدقة وتحليل بديع الحوار الذي دار بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح وبين الأنصار حيث اقتنع الأنصار بأحقية قريش في هذا الأمر حيث قال أحد زعمائهم (- - كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم - -)² وقد ذكر العقاد موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلافة من بعده لحساسية الموقف والمنافسة بين بطون قريش لأن الشيطان يجري من الإنسان مجري الدم فضلاً عن رواسب العصبية المتبقية لكل بطن علي حدة بل لكل قبيلة ، يقول العقاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (- - فأبغض شئ كان إلي نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون إن النبوة تمهيداً لدولة هاشمية أو وراثة دنيوية ولهذا أثر عنه أنه لم يول أحداً من قرابته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرها ، بل أصهر إلي أبي سفيان واتخذ معاوية كاتباً للوحي وأمر يوم فتح مكة منادياً ينادي في الناس " - - من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " ليمحو من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها غلبة أسرة علي أسرة أو بطن من قريش علي سائر بطونها وقال عليه السلام " إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله علي وجهه ما أقاموا الدين " ولم يقل " في بني هاشم " أو في بني عبد المطلب ولو شاء لقال ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البينة التي لا يسهو عنها الهداة المسئولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور فقريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدولة الإسلامية في ذلك الحين ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمنكرين لذويها - -)³

1 (ر) : اختصار لرضي الله عنه

2 عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 30

3 عبقرية الصديق (عباس العقاد) صفحة 23

قريش والخلافة :

وتعتبر هذه القبيلة العظيمة التي يرجع نسبها إلي سيدنا إسماعيل عليه السلام والتي اصطفاها المولي عز وجل ليعتد منها نبيه المصطفى صلي الله عليه وسلم هي الأولى بالخلافة حتي أن الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء أنه لم يعتبر الفاطميين من الخلفاء لشككهم في نسبهم إلي السيدة فاطمة الزهراء وهذا أحد الأسباب التي منعتهم من إدراج أسماءهم ضمن قائمة الخلفاء في كتابه حيث يقول (- -) ولم أورد أحداً من الخلفاء العبيديين لأن إمامتهم غير صحيحة لأمر منها أنهم غير قريشيين وإنما سميتهم بالفاطميين جهلة العوام - -)¹ ، المهم يا سيدي هكذا بدأت الخلافة في قريش وظلت بها في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين (وكلهم من العرب القريشيين) إلي أن حصل عليها العثمانيين الأتراك وحتى تم إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا ، وجدير بالذكر أن الخلفاء ظلوا ممسكين بمقاليد الحكم في الأمة الإسلامية إلي أن بدأ ظهور السلاطين والملوك وأصبح هناك سلطان أو ملك يمسك بمقاليد السلطة في يده ويحكم الأمة الإسلامية في ظل خلافة تتسم بالطابع الديني فقط وتعتبر رمز لوحدة الأمة ، كما أن كل سلطان أو ملك من ملوك العالم الإسلامي في ذلك الوقت كان حريص علي توقيير وتقدير الخليفة ووضعها في مكانة مميزة بل إن كافة السلاطين الذين تولوا أمر المسلمين لم ينسبوا إلي أنفسهم الخلافة طالما أن هناك خليفة عباسي هاشمي قريشي يتشرفون به وينسبه ومن أمثلة الحكام الذين كانوا يحكمون في ظل الخلافة العباسية العربية أمراء الدولة الطولونية في مصر وأمراء الدولة الإخشيدية أيضاً وسلاطين الدولة الأيوبية الأكراد وسلاطين المماليك ، فكل هؤلاء لم يعزلوا الخليفة العباسي بل علي العكس كانوا يستمدون شرعية حكمهم من وجوده ومكانته في نفوس المسلمين فقد كان بنو العباس تتشرف بهم أي بقعة يحلون بها وكانوا صوامين النهار وقوامين الليل وقد حاول العديد من الملوك استضافة الخلافة العباسية في عواصم ملكهم إلي أن جاء الأتراك العثمانيين وقرروا الجمع بين الخلافة والسلطنة في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية وعند ذلك فقط خرجت الخلافة من قريش ، وعلي فكرة سوف أشير إلي ما جاء في هذا الفصل من معلومات عن الخلافة في الفصول القادمة إن شاء الله وخاصة موضوع بطون قريش وموضوع سقيفة بني ساعدة التي تم فيها مبايعة أبي بكر (ر) علي الخلافة ، وبالمناسبة موضوع المبايعة بشكل عام موضوع مهم جداً لأنها صورة من صور تحقيق إرادة الأمة وتؤكد أحييتها في الإختيار بل وتكفل حرية المعارضة أيضاً ، فلكي يصل أي شخص للسلطة لابد أن يوافق علي ذلك أغلبية القوم ويبايعونه وبالتالي يكتسب شرعية وجوده في السلطة ، وقد يبايع البعض من أجل أهداف وأغراض مختلفة عن البعض الآخر ولكن بمجرد أن تتم المبايعة فإن الجميع يسمع ويطيع ، فالخليفة يقوم بتطبيق منهج المولي عز وجل ويقيم الحدود ويصلح من شأن الرعية ويعمل علي إقامة العدل بين الناس ويشاورهم في الأمور المختلفة وله عليهم حق الطاعة المشروطة بعدم معصية المولي عز وجل ولهم عليه أن يراجعوه ويناقشوه في الأمور التي تستحق ذلك ، وعلي فكرة لا بد أن يكون الحاكم ذو شخصية قوية ولديه مقومات القيادة ، وقد ورد عن رسول الله (ص) أنه وصف هذا الأمر علي أنه أمانة وأنها تأتي يوم القيامة خزفي وندامة إلا لمن أخذها بحققها وقام بمسئولياتها بما يرضي الله ، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يعطيها لمن يطلبها ولا يعطيها للضعيف الذي لا يقوي عليها مهما كانت منزلته الدينية والإيمانية ، فالقيادة أو الولاية لها شروط فيمن يتولاها حتي لا تضع رعيته ، ومن أهم أسباب مبايعة المسلمين لأبي بكر (ر) ، أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان في مرضه يجعل أبا بكر إماماً في الصلاة علي الناس وفي ذلك إشارة مهمة جداً لمكانة أبي بكر وقدره بين الصحابة ، وخير مثال علي ذلك ما حدث في سقيفة بني ساعدة عندما قرر أبو بكر مبايعة أبي عبيدة بن الجراح علي الخلافة فقال أبو عبيدة لأبي بكر (- -) لا والله لا نتولي هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله علي الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولي هذا الأمر عليك ابسط يدك نبايعك - -)² ومنذ هذه اللحظة كما ذكرت من قبل بدأت الخلافة في قريش وأخذت تنتقل بين بطونها ، من بني تيم إلي بني عدي إلي بني أمية

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 9

2 عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 30

إلي بني هاشم وظلت الخلافة عربية قريشية وكان آخر من تولاها من قريش هم بنو العباس الذين ينتمون إلي بني هاشم وقد مرت الخلافة العباسية بفترات ازدهار وقوة ثم تعرضت لفترات عصبية بعد ذلك ومن أشد الأزمات التي تعرضت لها هجوم التتار والحملات الصليبية بعد ذلك ، وسوف نتحدث إن شاء الله معاً عن كل هذه الأحداث إذا كان في العمر بقية ، والمفروض الآن أن نعود إلي مصر وتاريخها لنعرف ما دار فيها أثناء الفتح الإسلامي وما بعده ولكنني أحب أن نتوقف عند الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق (ر) بالرغم أن مصر لم تكن ولاية إسلامية في عهده إلا أنه من الشخصيات التي يجب أن نتوقف عندها ونذكر بعض فضلها وأهم الأحداث التي دارت في الأمة في عهده حتي إذا كانت تدور بعيداً عن أرض مصر ،

ثاني اثنين :

بالتأكيد أنت تعرف الكثير عن أبي بكر الصديق (ر) وحيث أن هذه الدرشة الغرض منها التبسيط والتوضيح للأحداث التي قد تكون غامضة ، مع عدم تكرار المعلومات الشائعة والمعروفة للجميع ، فسوف أكتفي بلمحات سريعة ونقاط محددة عن سيدنا أبي بكر (ر) وهي لا تفي بحقه بالطبع وإنما قد تكون معلومات جديدة بالنسبة لك عزيزي القارئ فهل تعلم مثلاً أن أبا بكر (ر) كان أشجع الصحابة في القتال بشهادة سيدنا علي كرم الله وجهه حيث يقول (- -) إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً فقلنا : من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف علي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوي إليه أحد إلا هوي إليه ، فهو أشجع الناس - 1) ، وكان أبو بكر (ر) يدفع الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدافع عنه في بداية الدعوة في مكة ويضرب المشركين ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وبالمناسبة هذا القول هو ما قاله مؤمن آل فرعون عن سيدنا موسى عليه السلام دفاعاً عنه من بطش فرعون ، ويقول سيدنا علي (ر) في ذلك عندما سأل من معه في أحد المجالس (- -) أنشدكم بالله ، أمؤمن آل فرعون خير أم أبي بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبوني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه - 2) وهو يقصد بالطبع أن أبا بكر أفضل من مؤمن آل فرعون لأن أبا بكر أعلن إيمانه في شجاعه أمام قريش كلها في توقيت كان فيه المسلمون يتعرضون لأذى قريش في بداية الدعوة ، كما أن أبا بكر كان يجود بماله في سبيل الله كما نعلم جميعاً ، كما أنه كان أعلم الصحابة بالسنة وكان خطيباً بليغاً ، وقال سيدنا عمر (ر) (- -) لوددت أني شعرة في صدر أبي بكر 3) ، وخير مثال علي مكانة أبو بكر في الإسلام وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم لتسأله شيئاً فأجابها وطلب منها العودة مرة أخرى في وقت لاحق ، فقالت : يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك ؟ (كأنها تقصد الموت) فقال صلى الله عليه وسلم : إن لم تجدني فأتي أبا بكر 4) ، ولما تولى أبو بكر الخلافة خطب في الناس وقال ما معناه (- -) أما بعد فإنني قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلي صلاتكم يرحمكم الله - 5) ، وأهم ما وقع في خلافة أبي بكر (ر) من أحداث (تنفيذ جيش أسامة وقتال أهل الردة ومانعي الزكاة ، ومسيلمة الكذاب وجمع القرآن) 6) ، أما موضوع جيش أسامة فيتلخص في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته كان قد عقد لواء الجيش بقيادة أسامة بن زيد ليتوجه إلي الشام لقتال الروم ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الجيش لم يزل بالقرب من المدينة وتوقف عند سماع نبأ

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 32

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 33

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 48

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 50

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 56

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 59

وفاته صلى الله عليه وسلم لينتظر الأوامر الجديدة إن وجدت ، وحدث أن ارتدت العرب حول المدينة عن الإسلام ، فاجتمع الصحابة حول أبي بكر ليحاولون إقناعه بعدم دفع جيش أسامة إلي مهمته نظراً لحساسية الموقف ، فأقسم أبو بكر بأنه لن يرد جيشاً وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحل لواء عقده صلى الله عليه وسلم بل إنه قام بالاستئذان من قائد الجيش في أن يترك عمر بن الخطاب في المدينة ليعاونه فقد كان عمر (ر) ضمن هذا الجيش ، وسوف أترك العقاد يوضح لك هذا المشهد الرائع كما ورد في كتابه عبقرية الصديق ص 118 (- - فشيح البعثة وهو ماشي علي قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه ، بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك حتي علي الخليفة وعلي أكبر الصحابة من بعده ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تقصرن في شئ من أمر رسول الله - -) وقد كان إرسال بعثة أسامة تصرفاً حكيماً من أبي بكر بلا شك فقد أعطي المؤمنين مثلاً ودرساً في الطاعة وكانت القبائل المرتدة عندما سمعت بجيش أسامة وخروجه للقتال تقول (- - لو لم يكن المسلمون علي قوة لما خرج من عندهم هؤلاء ، - - - فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر إرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة وهو يومئذ أزم الدروس)¹ وكان أبو بكر (ر) يقول عن نفسه (إنما أنا متبع ولست بمبتدع)² ، (كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر فقال " كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم استصوب جمعه لم فيه من خير)³ وهذا يدل علي أن أبا بكر كان يخشي أن يحدث شيئاً في الأمة بجمع القرآن ولكنه قرر جمعه في النهاية لإقتناعه بأنه أمر فيه خير للأمة ، ومن وصايا أبي بكر لأسامة بن زيد وهو ذاهب للقتال (- - لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلأ ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا لمأكله ، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون علي قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله - -)⁴ لقد كان أبو بكر مسلماً في تصرفاته مع المسلمين وغير المسلمين أيضاً ، وقد كان يكره التمثيل بالجثث أو أن تقطع رءوسهم وترسل إليه ويقول عن ذلك العقاد (- - وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا علي قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا نعلم بينها شاهداً لأصدق في الدلالة علي تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده ، ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدي الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد الإنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة ابن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أيستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلي رأس ، إنما يكفي الكتاب والخير - -)⁵ ومن هنا يتضح أن أبا بكر لا يستن بأعداء الدين وإنما يستن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس معني أن الأعداء يفعلون بالمسلمين الأهوال أن يفعل المسلمون مثلهم (- فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال - -)⁶ ، أما الكلام عن حروب الردة فقد أقسم أبو بكر أن يقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة (- - وعن حنظلة بن علي الليثي أن أبا بكر بعث خالداً وأمره أن يقاتل الناس علي خمس من ترك واحدة منه قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً : علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وسار خالد ومن معه في جمادي الآخرة ، فقاتل بني

¹ عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 119

² عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 106

³ عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 108

⁴ عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 109

⁵ عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 110

⁶ عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 110

أسد وغطان وقتل من قتل وأسروا من أسروا ورجع الباقون إلي الإسلام - -)¹ ، ويقول العقاد رحمه الله عن هذه الفتنة (-)
 ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة علي أنها أصدق امتحان للدعوة المحمّدية خرجت منه دعوة من الدعوات ، فإذا
 كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وربية المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين
 المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمة تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى علي
 لسان رجل من أصحاب طليحة " أحد زعماء الردة " : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمننا ، إنه ليس رجل منا
 إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله وأنا لنلقي قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه " يقصد المؤمنين ")² وجدير بالذكر
 أن خالد بن الوليد كان بطل حروب الردة بلا شك ، كما أن جيش أسامة عاد سالماً غانماً وكانت كل هذه النتائج تؤكد نفاذ
 بصيرة أبو بكر الصديق (ر) وحسن قيادته للأمة من خير إلي خير ومدى ثقته بالله ، وقد ورد عن أبي رجاء البصري أنه
 دخل يوماً المدينة المنورة فوجد عمر يقبل رأس أبي بكر ويقول : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا)³ وإلي هنا أكتفي بهذا القدر
 البسيط جداً عن فضل إبي بكر الصديق (ر) وأرجو أن أكون قد أوضحت لك عزيزي القارئ بعض ما لا تعرفه عن الخليفة
 الراشد الأول وسوف أختتم كلامي عنه ببعض الأقوال المأثورة التي وردت عن أبي بكر ، فمن كلامه يتضح الكثير عن
 بلاغته وقوة إيمانه ومعدنه الأصيل ، فمن أقوال أبو بكر رضي الله عنه التي وردت بكتاب عبقرية الصديق للعقاد ص 170
 ، ص 171 : (إحرص علي الموت توهب لك الحياة) ، (أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة) ، (الصبر نصف
 الإيمان واليقين الإيمان كله) ، (إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه) ، وقال لأحد الولاة (إذا وعظتهم فأوجز ، فإن
 كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً) ، وكان إذا مدحه أحد يقول (اللهم أنت أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم
 اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون)⁴ ، وقال يخاطب طائراً (طوبى لك يا طير تأكل
 من الشجر وتستظل بالشجر وتصير إلي غير حساب ، يا ليت أبا بكر مثلك)⁵

إذا تنكرت شجواً من أخي ثقة - - - فاذا ذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها - - - إلا النبي وأوفاها بما حملا

والثاني التالي المحمود مشهده - - - وأول الناس منهم صدق الرسلا⁶

ومات أبو بكر بعد أن قضى عامين في الخلافة ثم أوصي أن يكون الخليفة من بعده عمر بن الخطاب (ر) ويقول عن
 ذلك الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ر) في كتابه تاريخ الخلفاء ص 26 (- -) ثم ختم ذلك بهم من أحسن مناقبه
 وأجل فضائله ، وهو استخلافه علي المسلمين عمر (ر) وتفرضه فيه ووصيته له واستيداعه الله الأمة ، فخلقه الله عز وجل
 فيهم أحسن الخلافة وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام وإعزاز الدين وتصديق وعد
 الله تعالي بأنه يظهره علي الدين كله - -) ، ومن هنا نري أن هناك من يعتبر أن سيدنا عمر وخطافته عبارة عن حسنة
 من حسنات أبي بكر ، ولا يمكن أن نمر بعد كل هذا علي وصية أبي بكر عندما سأله بعض الصحابة : ما أنت قائل لربك
 إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد تري غلظته ؟ فقال أبو بكر : بالله تخوفني ؟ أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير
 أهلك ، أبلغ عني من وراءك ثم دعا عثمان ، فقال : اكتب : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في
 آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ،
 إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن
 عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدل فلكل إمري ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي
 منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم أمر بالكتاب فحتمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فباع الناس

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 61

2 عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 127

3 عبقرية الصديق (عباس العقاد) ص 131

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 85

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 85

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 40 (شعر حسان بن ثابت)

ورضوا به ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده - -)¹ ولعلك لاحظت معي عزيزي القارئ أهمية المبايعة لهذا العهد الذي تركه أبو بكر (ر) فهي لازمة لشريعة خلافة سيدنا عمر (ر) ،

الفاروق :

لعلك لاحظت أيضاً عزيزي القارئ أننا ابتعدنا في هذه الدردشة قليلاً بل كثيراً عن تاريخ مصر الذي هو الغرض الأساسي من هذه الدردشة بل إن أسلوب الدردشة نفسه قد ابتعد عن أسلوبها الأول ولكن هل يمكن أن نترك هؤلاء العظماء دون أن نتحدث عنهم ؟ فلقد تحدثنا في بداية هذه الدردشة عن قادة وفراغة وملوك وبطالمة وأباطرة ، ولا يجوز أن نمر علي عظماء التاريخ الإسلامي دون أن ننوه عن فضلهم أو علي الأصح بعض فضلهم بما يليق ، حتي لو كان الكلام عنهم بعيداً عن تاريخ مصر ، ومع ذلك فإنني أودك أن نعود إلي تاريخ مصر ونعود إلي الأسلوب الأول في الدردشة بعد أن نوضح بعض النقاط عن الخليفة الراشد الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (الفاروق) وقد اقتربنا بالفعل من العودة إلي الكلام عن تاريخ مصر مرة أخرى لأن في عهده تم فتح مصر ، وبالمناسبة الكلام عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ر) سيكون في إيجاز شديد بقدر المستطاع لأنني علي ثقة أنك تعرف الكثير عنه وعن مناقبه وقد زخرت الكتب والمراجع العديدة بمعلومات وافرة وغزيرة عن سيدنا عمر الفاروق (ر) وبالتالي سأحاول أن أذكر هنا ما أعتقد أنك لا تعرفه ، وأهم ما نبدأ به عندما نتحدث عن الفاروق هو دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام (أبو جهل) ، وقد فرح المسلمون بإسلامه بل إن إسلامه استبشيره أهل السماء أيضاً ، وعندما أسلم عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ألسنا علي الحق ؟ قال : بلي ، فقال : فقيم الإخفاء ، ثم خرجوا من المسجد صفيين كان الفاروق في أحد الصفيين وحمزة في الصف الآخر ، فنظرت قريش إلي عمر وإلي حمزة (فأصابتهن كآبة شديدة لم يصبهم مثلها ومن هنا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لأنه أظهر الإسلام وفرق بين الحق والباطل)² ويقول ابن مسعود (كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة)³ (وعن أبي ذر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله وضع الحق علي لسان عمر يقول به)⁴ ويقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن)⁵ ، (وقال أبو أسامة : أتدرون من أبو بكر وعمر ؟ هما أبو الإسلام وأمه ، وقال جعفر الصادق : أنا برئ ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير)⁶ وكان عمر (ر) يري الرأي فينزل به القرآن وهناك عدة أمثلة علي ذلك ، وكان عمر قد تولي الخلافة بعد أبي بكر كما ذكرنا من قبل وكان ذلك سنة 13 هجريا ، فكان أزهق الناس وأتقاهم لله وكان شديداً في حساب نفسه وشديداً في الحق وكان أول من سمي أمير المؤمنين وأول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان (في جماعة) وأول من طاف بالليل (ليشرع علي أحوال الرعية) وأول من اتخذ الديوان ، وكثرت الفتوح في أيامه ففتحت دمشق والأردن والعراق ومصر وفلسطين وغيرها وكان أول من أمر الولاة بعودة المقاتلين إذا زادت غيبتهم عن أهلهم أكثر من أربعة أشهر وحدث هذا عندما سمع شكوي سيده غاب عنها زوجها ، أما عن لقب أمير المؤمنين وكيف بدأ استخدامه ؟ فيقول عن ذلك الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة 112 (- -) وكان عمر يكتب من خليفة خليفة رسول الله حتي كتب عمر إلي عامل (والي) العراق أن يبعث إليه برجلين جليدين يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه ليبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فقدموا المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا علي أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتما والله أصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بدا لك في هذا الاسم ؟ لتخرجن مما قلت ، فأخبره وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فجري الكتاب بذلك من يومئذ - -) ، وهناك العديد والعديد من

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 66 ، ص 67

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 93

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 93

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 95

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 98

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 99

المواقف التي تتحدث عن سيدنا عمر الفاروق (ر) وأنا في حيرة من أمري وأنا أكتب هذه السطور وأمامي بعض الكتب والمراجع التي تتناول حياة هذا الخليفة العظيم فمن كثرة هذه المواقف الرائعة أعجز عن الاختيار بينها ما أقدمه لك عزيزي القارئ وعزائي أنك تستطيع أن تبحث في الكتب عن حياة أبي بكر وعمر وتقرأ عنهما وعن باقي الصحابة والتابعين وقبل كل هذا سيرة سيدنا رسول الله العطرة (صلي الله عليه وسلم) ، ولعل هذه الدردشة تكون حافزاً لك لكي تحاول أن تعرف المزيد عن هذه الموضوعات الرائعة ، وجدير بالذكر أن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكونوا بالكامل من العرب فقد كان هناك الحبشي والرومي والفارسي وكلهم رجال لا تكفي المجلدات الضخمة في التعبير عن فضلهم وعظمتهم ، فقد تربوا في مدرسة النبوة ، وسوف أتناول بمشيئة الله بعض المواقف عن سيدنا عمر في حديثي عن فتح مصر عندما يأتي الكلام عنه في الفصل القادم إن شاء الله ، وبالتالي لن يكون هذا هو نهاية الكلام عن الفاروق في هذا المقام ولا يسعني الآن في نهاية هذا الفصل إلا أن أذكر لك مقتطفات بسيطة وقصيرة من قصيدة رائعة كتبها شاعر النيل حافظ ابراهيم في مدح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

يا رافعاً راية الشوري وحارسها - - - جزاك ربك خيراً عن محبيها
وما استبد برأي في حكومته - - - إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقي البلاد به - - - رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها
يا من صدفت¹ عن الدنيا وزينتها - - - فلم يغرك من دنياك مغريها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته - - - في الذهب منزلة سبحان مولياها
فمن يباري أبا حفص وسيرته - - - أو من يحاول للفاروق تشبيها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت - - - بعد النبوة أخلاق تحاكيها

ونأتي الآن للكلام عن فتح مصر وعن عمرو بن العاص وعن أحداث الفتح وتفصيله في إيجاز إن شاء الله في الفصل

القادم

16. الفتح العربي الإسلامي لمصر

عمرو بن العاص :

(عن قيس بن سعد أن عمرو بن العاص قال : يا رسول الله أبايعك علي أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما ، قال عمرو : فوالله ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حتي لحق بالله حياءً منه)¹ ونفهم من هذا أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لم يستطع أن يواجه رسول الله بعد هذا اللقاء وجهاً لوجه كما قال حياءً منه ، وفي الحقيقة الكلام عن عمرو بن العاص مهم جداً قبل الكلام عن فتح مصر فهو شخصية محورية في هذا الفصل ، وعلي فكرة كان عمرو شخصية غير عادية بالفعل وكان ينتمي إلي بني سهم وهي إحدى البطون العادية في قريش ولم تكن علي قدر البطون الثلاثة الكبرى (هاشم وأموية ومخزوم) فسهم لا تتسم بالثراء الفاحش أو القوة الطاغية ، ولأن عمرو إنسان طموح فقد كان يعتمد علي نفسه (منذ صغره كان نموذجاً فريداً فلم يكن ابن سيد من سادات قريش ولم يعتمد علي جاه أو سلطان أو مال ، بل كان يعتمد علي نفسه ونفسه فقط ، فعلم نفسه بنفسه القراءة والكتابة والحساب ودرّب نفسه علي الرماية والسباحة وجاب الصحاري والفيافي من أجل التجارة واستطاع أن يكون رأس مال صغير اشترى به بعيرين وأصبح يشارك بهما في قوافل التجارة)² وكان عمرو داهية من دواهي العرب حتي أن قريش استعانت به قبل إسلامه ودفعتة في مهمة خطيرة إلي النجاشي ملك الحبشة لإستعادة المسلمين الذين هاجروا إلي الحبشة وبالرغم من فشل المهمة إلا أن اختيار قريش له وما دار بينه وبين النجاشي يؤكد أنه كان شديد الذكاء وحاضر البديهة :

لم تنبت الأرض كابن العاص داهية - - - يرمي الخطوب برأي ليس يخطيها

وكانت كثرة رحلاته التجارية بين الشام واليمن قد زادت من خبرته ، وعندما أسلم عمرو بن العاص كانت له مكانته في الإسلام فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف جيداً إمكانيات عمرو في القيادة (- - - وقد ولاه رسول الله بعد ذلك قيادة سرية ذات السلاسل وفيها أرسل يستمد الرسول فأمدّه بجند علي قيادتهم أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وكانت الإمرة أثناء الحرب لعمرو بن العاص وقد ولاه الرسول بعد هذه السرية علي عمان ، فأقام والياً عليها حتي توفي النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته بنحو سنتين اختاره أبو بكر قائداً مع القواد الذين سيرهم لفتح الشام فأبلي هناك بلاءاً حسناً وتم له فتح فلسطين قبل أن يتم لأقرانه فتح سوريا)³ ، ومن هنا يتضح أن عمرو بن العاص الذي قام بفتح مصر لم يكن شخصية عادية قبل الإسلام وبعد الإسلام وكان أميراً بطبعه وقائداً بالفطرة ومر بحياة حافلة بالأحداث الجسام ، ويقول عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ر) (- - - ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي علي الأرض إلا أميراً - -)⁴ وعندما كان القتال يدور بين المسلمين والروم في الشام وكان الروم بقيادة قائد يسميه العرب (أرطوبون) وكان معروف عنه المكر والدهاء كما يقول الطبري ولقد قدم المسلمون عمرو بن العاص باعتباره الكفاء لأرطوبون الروم وقال عمر بن الخطاب " لقد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عم تنفرج " ولقد انفرجت المعركة عن انتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص⁵ ، وعمرو يعتبر رجلاً عربياً من قريش وهو تاجر وفارس وقائد وأمير ووالي وكل وصف من هذه الأوصاف كان جدير به وبارع فيه وليس مجرد وظيفة أو مهنة يشغلها ، وكان عمرو بن العاص عندما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي الإسلام قد أيقن تماماً صدق هذه الدعوة (عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص)⁶

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 1 ص 297

2 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص 93

3 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 1 ص 14

4 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 1 ص 16

5 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 33

6 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 297

رحلة عمرو بن العاص إلى مصر قبل الإسلام :

زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريباً في (صيف عام 602 م)¹ وكان سبب الزيارة من المواقف الطريفة التي مر بها في حياته الحافلة وتوضح روح المغامرة التي يتسم بها :

ويفوز بالذات كل مغامر - - - ويموت بالحسرات كل جبان

ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلى الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين تعرف علي رجل دين مسيحي مصري (شماس) حيث دعاه الشماس لزيارة مصر وكان سبب الدعوة أن عمرو قد أنقذ حياة هذا الشماس المصري مرتين ويروي هذه القصة د حسين كفاقي فيقول (- - - فإذا به يقابل شماساً مصرياً وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قاتظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قربه له فشرب حتى ارتوي ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعب في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها)² وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين عندما رواه من العطش القاتل وقتل الحية التي كادت تقتله أصر علي أن يدفع له مقابل لذلك فسأله كم يكون دية القتل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين ولكن لا يوجد هذا المبلغ معه في هذا الوقت بل عليه أن يتجه إلي مصر ويجمع المبلغ في الإسكندرية وطلب من عمرو أن يصاحبه إلي الإسكندرية ليحصل علي المال بعد أن ضمن له جميع الضمانات التي تؤمنه وتؤمن عودته إلي أصحابه (فقال عمرو : كم يكون مكثي في تلك الرحلة ؟ قال له الشماس : شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعاً - -)³ وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلي مصر وكانت أول زيارة له لمصر ، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر (- - مروراً بالقرى والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالإضافة إلي جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين ، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور ، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها ، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر - -)⁴ وبالتأكيد كان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة ومكتبتها وما تحتويه من كتب في مختلف فروع العلم وعن جامعة الإسكندرية في ذلك الوقت ، وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحاءها ودخل أسواقها وشواطئها وأحياءها ومكث بها عشرة أيام كاملة وقبل أن نترك الكلام عن هذه الرحلة فإن هناك موقف طريف حدث له أثناء هذه الزيارة ولست متأكد في الحقيقة من صحة هذه القصة ولكنني سأكتبها كما وردت بالنص في كتاب المسيحية والإسلام في مصر للدكتور حسين كفاقي صفحة 100 (- - ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع فيه أعيان الإسكندرية وأشرفهم وكبار الموظفين والمسؤولين ، ولهم كرة من الذهب مكللة يترامي بها كبرائهم وهم يتلقفونها بأكمامهم ، وفي اختيارهم لتلك الكرة علي ما وصفها من مضي منهم أن من وقعت الكرة في كفه واستقرت فيه لم يمت حتي يملكهم ، وأثناء إقامة عمرو في الإسكندرية في ضيافة الشماس حيث أكرمه وكساه بثوب من ديباج وألبسه إياه ، دعاه إلي حفل الكرة الذي وصفناه ، وجلس عمرو والشماس في مكان متميز في مدرجات الملعب مع كبار القوم حيث يرمون بالكرة وهم يتلقفونها بأكمامهم ، فرمي بها رجل

1 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص 93

2 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص 94

3 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص 95

4 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص 101

منهم فأقبلت الكرة تهوي حتى وقعت في كم عمرو¹ فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أتري هذا الإعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبداً - -) ،

إقناع أمير المؤمنين بفتح مصر :

بعد أن تم فتح الشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ر) حاول عمرو بن العاص إقناع الخليفة بفتح مصر ولم يكن إقناعه سهلاً وكان ذلك في الشام عندما ذهب عمر بن الخطاب إلي هناك لاستلام مفاتيح بيت المقدس وكلنا يعرف ما تم في هذه الزيارة عندما كان عمر يتناوب ركوب الدابة مع خادمه وتصادف دخول المدينة وهو ماشي علي قدميه وخادمه راكب طبقاً لدوره في الركوب كما كان عمر يرتدي ملابس مليئة بالرقع وعندما طلب منه البعض تغيير رداءه وركوب فرس قال قولته الشهيرة التي معناها " لقد أعزنا الله بالإسلام فلا نلتمس العزة بغيره " وقد أكد البطريق الموجود ببيت المقدس أن صفة عمر هي الصفة المكتوبة لديهم عن الشخص الذي يتسلم مفاتيح المدينة حيث مكتوب لديهم أنه يأتي ماشياً علي قدميه وبرداءه رقع وسبحان الله ، وفي أثناء هذه الزيارة يقال أن عمرو فاتح عمر بموضوع فتح مصر ، ثم كلمه مرة أخرى في نفس الموضوع عندما تواجد في إحدوي قري دمشق وتسمي الجابية وظل عمرو يستغل كل فرصة تتاح له لإقناع الخليفة بفتح مصر ويصف له مصر وخيراتها كما أنها أصبحت آخر معاقل الروم في المنطقة وقد يتخذونها قاعدة للهجوم علي الشام واستعادتها مرة أخرى من المسلمين ، وكان أمير المؤمنين يخاف الله في دماء المسلمين (-- - كان يخشي أن يراق دم مسلم واحد ظلماً أو خطأ فيسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر ، كان عمر أحرص الناس علي رعيته وكان يري أن أمر العرب لم يستقر بعد في الشام فكيف يستطيع أن يرسل جيشاً جديداً لفتح جديد في مصر ؟ - -)² ، لقد نظر عمرو بن العاص إلي مصر النظرة التي نظرها كبار الشخصيات التي زارت مصر من قبل وعرف قدرها وعرف أنها ستكون عوناً للدولة الإسلامية وقوة لها وكان يتردد في ذهنه علي ما يبدو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما معناه استوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان علي قتال عدوكم³ وغير ذلك من الأحاديث الشريفة التي تبشر المؤمنين بفتح مصر ووصيته صلى الله عليه وسلم بأهل مصر لأن لهم ذمة ورحم ، وأنهم خير أجناد الأرض ، كما أن عمرو كان يري الموقف الدولي وتوزيع القوات الرومانية بأسلوب يجعل فتح مصر ضرورة حربية وليست مجرد فتح جديد ، كما أنه زار مصر قبل الإسلام وعرفها وعرف طرقها ومسالكتها ، كما أنه قاتل الروم في فلسطين وعرف طبيعتهم القتالية ونقاط ضعفهم وبالإضافة إلي كل هذه الأسباب التي جعلت عمرو يلح علي الخليفة في فتح مصر كان هناك سبب قوي آخر حيث كان عمرو متعاطفاً مع الشعب المصري نفسه ويسعي لتحريره من الظلم والقسوة والاضطهاد فقد كان يحب هذا الشعب ويتمني إنقاذه ، ونجح عمرو أخيراً في إقناع الخليفة أثناء وجوده في الشام علي ما يبدو (-- - فوافق عمر ، علي أن تمتد المشورة إلي ما بعد عودته للمدينة - وفيها كبار الصحابة - وعلي أن يظل القرار النهائي معلقاً بنتائج الشوري - - وبدخول الجيش الفاتح إلي الديار المصرية - - وعاد عمر إلي المدينة في ديسمبر 639 م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص علي رأس جيش الفتح المكون من أربعة آلاف مقاتل قاصداً فتح مصر فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر أدركهم رسول أمير المؤمنين بكتابه الذي يدعوهم إلي الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها)⁴ ، من هنا يتضح أن موافقة أمير المؤمنين كانت معلقة علي مشاورة كبار الصحابة وقد أسرع عمرو بجيشه في اتجاه مصر خوفاً من أي رسالة قد تأتي من الخليفة وقلقاً من نتائج المشاورات حتي يضع الجميع علي ما يبدو أمام الأمر الواقع ، المهم إن أمير المؤمنين سمح له بفتح مصر وأقتنع بأهمية هذا الفتح ولكنه كان مشفقاً علي جيش الفتح الصغير الذي سيواجه قوات الروم التي تزيد عن مائة ألف مقاتل في مصر وبالمناسبة وقبل أن أذكر فتح مصر وما دار فيه من أحداث بارزة فإنني أحب أن أذكر لك عزيزي القارئ بعض ما دار في المشاورات بين الخليفة وبين كبار الصحابة بخصوص فتح مصر ، يقول د

1 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (تقي الدين المقرئ) ج 1 ص 159

2 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 ص 14

3 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 29

4 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 34

جمال الدين الشيال (- -) لم يكد عمرو يحصل علي موافقة عمر حتي أسرع بالمسير فخرج في جوف الليل وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان وهو من نعرف من ورعاً وتؤدة ، فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو علي المسير إلي مصر فأجاب عثمان في الحال : يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشي أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا ، - - وندم عمر علي ما فعل ولكنه لا يدري ماذا يفعل الآن وقد سار عمرو بجيشه نحو مصر فسأل عثمان الرأي فقال عثمان : فإكتب إليه إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلي موضعك وإن كنت دخلت مصر فامض لوجهك¹ وبالطبع كان عمرو من الذكاء بحيث فهم ما تحتويه رسالة أمير المؤمنين ، ويقال أنه استمهل رسول الخليفة ولم يقرأ كتابه حتي دخل مصر (- -) ثم سأل من حوله - وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها : أنحن في أرض مصر أم في الشام ؟ فقيل له : نحن في مصر فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : إذن نسير في سبيلنا علي بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين - -)²

أحداث فتح مصر

قسم الدكتور جمال الدين الشيال حوادث فتح مصر إلي ثلاثة مراحل ، الأولي من بدء الفتح وحتى وصول المدد ، والثانية تنتهي بموقعة عين شمس والإستيلاء علي حصن بابليون ، والثالثة تنتهي بفتح الإسكندرية³ ، ووصف جمال الدين الشيال الطريق الذي سلكه الجيش الإسلامي فقال (- -) وصل العرب إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة 19 للهجرة " يناير 640 م " وكانت العريش أول مدينة استولوا عليها ثم غادروها وسلكوا بعد ذلك الطريق التي تصل بين العريش والفرما (بورسعيد حالياً) وهي طريق رملية بعيدة شيئاً ما عن البحر تتخللها عيون وقرى صغيرة وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد علي مصر أو غاز لها من الشرق فكانت طريق إبراهيم ويعقوب ويوسف " عليهم السلام " ثم شهدت مقدم قميميز والإسكندر وأسرة المسيح " عليه السلام " وقبل الفتح بسنوات قلائل شهدت هذه الطريق مقدم الفرس ثم عودتهم ، وعبر هذا الطريق كذلك كان يمر الرحالة والتجار والحجاج من أفريقيا إلي آسيا في رواحهم ومجيئهم - -)⁴ وكانت الفرما عند وصول الجيش الإسلامي مدينة قوية إلي حد ما وذات حصون ولكن هذه الحصون كانت في حالة سيئة نتيجة لقتال الفرس قبل ذلك وتحطيمهم لمعظم الأسوار وخلافه ، كما أن الروم لم يتركوا بهذه المدينة القوة الكافية للدفاع عنها وكان هذا خطأ عسكري فادح لأن هذه المدينة ذات موقع خطير علي مدخل مصر الشمالي الشرقي وكان عمرو بن العاص يحاول تحقيق نصر سريع ليرضي الخليفة ويطمئن عن سير أحوال القتال ، فقرر عمرو محاصرة المدينة بالرغم من أن العرب لم يكونوا علي علم كبير بقتال الحصون ولذلك انتهز عمرو وجيشه خروج القوات من الحصن للهجوم من آن لآخر وفي أحد المرات سبقهم إلي أبواب الحصن المفتوحة وسيطر علي المدينة بعد حوالي شهر من الحصار والقتال ، وهذه المدة تؤكد الخطأ العسكري الفادح الذي وقع فيه الروم حيث كانت هذه المدة كافية لإرسال قوات للدفاع عن مصر ومهاجمة جيش عمرو في مكانه ولكنهم لم يفعلوا لأنهم لم يقدرُوا خطورة الموقف علي ما يبدو (- -) وأدرك عمرو بعد استيلائه علي هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع الإستيلاء علي حصون مصر الأخرى وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصله إمدادات جديدة من عمر - -)⁵ وبعد هزيمة الروم في الفرما اتجه عمرو بالجيش الإسلامي إلي الجنوب الغربي تاركاً الطريق الساحلي ، وعند بلبيس وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الروم ودامت هذه المعركة هي الأخرى نحواً من الشهر انتصر فيها المسلمون علي الرومان⁶

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 1 ص 16

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 1 ص 16

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص 17

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص 17

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص 18

⁶ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 35

، واستمر عمرو بن العاص في التقدم إلي أن حاصر حصن بابلين ، وجاءه المدد أثناء الحصار ويقول عن هذا المدد الدكتور محمد عمارة (- -) - أمده أمير المؤمنين عمر ب 4000 مقاتل ، وعلي رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفاً من المقاتلين فأصبح عدد الجيش الفاتح 8000 ووزنه 12000 من المقاتلين - -)¹ وكان من بين هؤلاء الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم ، وبالمناسبة يقع حصن بابلين بالقرب من عاصمة الأقباط المصريين (عاصمة وطنية) تسمى منفيس ، أما عاصمة الاحتلال فكانت الإسكندرية وتعتبر منطقة منفيس هي تقريباً بالقرب من مدينة الفسطاط أو مصر القديمة حالياً المواجهة لجزيرة الروضة ، واستطاع عمرو بن العاص بالثمانية آلاف مقاتل والصحابة الأربعة أن يفتحوا حصن بابلين بعد سبعة أشهر كاملة من الحصار ، وكان قد قاتل الروم خارج الحصن بعد أن استطاع أن يجتذبهم إلي الخارج وكانت له مصادر للحصول علي المعلومات عن الروم وعرف أن الروم قد قرروا القتال في السهل الواقع بين حصن بابلين ومدينة عين شمس القديمة فقرر أن يضع خطة محكمة تعتمد علي وجود كمين في قرية أم دنين (مكان حديقة الأزبكية حالياً) وكمين آخر بالقرب من جبل المقطم (مكان قلعة صلاح الدين حالياً) وأصدر عمرو وأمره إلي الكمينين أن ينقضا علي جانبي جيش الروم ومؤخرته في الوقت المناسب ، وفي الصباح خرج جنود الروم من الحصن وانتشروا في السهل ولم يفتنوا إلي هذه المكيدة حيث أنهم شاهدوا جيش عمرو يتقدم من ناحية عين شمس ، المهم إن القتال دار بينهما في مكان متوسط بين معسكريهما (في منطقة العباسية الحالية) وبدأت المعركة واشتد القتال وحمي الوطيس فانقضت كتيبة الجبل علي مؤخرة الروم ففروا في اتجاه أم دنين (الأزبكية) فوجدوا الكمين الآخر ينقض عليهم فشعروا أن العرب قد أحاطوا بهم من كل اتجاه فاشتد بهم الذعر² وتشتتوا فمنهم من لجأ إلي حصن بابلين ومنهم من واصل الفرار إلي الإسكندرية وكانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة والتي تركت أثراً بالغاً في جيش الروم حتي أن حاكم الفيوم تركها وفر بعد أن سمع بنتيجة القتال مما جعل عمرو يرسل قوة للسيطرة علي الفيوم ، واستمر عمرو بن العاص محاصراً لحصن بابلين ومن تبقي به من الروم وأثناء الحصار حدثت المفاوضات بينه وبين المقوقس وكان المقوقس يعتقد أن العرب يمكن أن يرحلوا إذا أخذوا بعض الأموال الكافية ولكنه وجدهم مصرين علي الاستمرار في القتال ، وكان عمرو قد استقبل رسل المقوقس وسمح لهم بالتجول في معسكره وعندما عادوا سألهم المقوقس (- -) كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إلي أهدم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم علي التراب وأكلهم علي ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا سيدهم فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ، فقال المقوقس : والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوي علي قتال هؤلاء أحد - -)³ ومن هنا أيقن المقوقس أن جيش العرب سينتصر لا محالة ، فقرر أن يعقد صلحاً مع عمرو بن العاص وأرسل إلي هرقل ملك الروم يعرض عليه هذا الصلح ، وطبعاً هرقل غضب غضباً شديداً ورفض الصلح ووصف المقوقس بأوصاف سيئة ، المهم يا سيدي إن أنا ممكن أكتب تفاصيل فتح مصر من الكتب التي أمامي الآن وأنا أكتب هذه السطور ، ولكن ذلك سوف يأخذ صفحات كثيرة وقد تذكرت أن هذه الدردشة أساسها الاختصار الشديد وبالتالي وبعد أن أوضحت بعض المعارك التي دارت في الفرما وبابلين يمكن الإيجاز والقول أن عمرو حاصر الإسكندرية بعد ذلك ثم فتحها وتم عقد صلح بالإسكندرية وهو الصلح الثاني بعد صلح المقوقس ببابلين وفي الحقيقة هو عبارة عن معاهدة توضح أسلوب جلاء الروم بعد هزيمتهم في المعارك الطاحنة مع المسلمين ، وعلي فكرة كان موت ملك الروم هرقل في ذلك الوقت قد عجل بالصلح حيث أنه ترك ولدين وأمهما وصية عليهما وكانت أحوال الإمبراطورية في أسوأ ما يكون ، وقد تغيرت موازين القوة في العالم وأصبح جيش المسلمين يصيب أعني جيوش العالم بالرعب فقد كانت العقيدة هي سلاحهم والموت في سبيل الله والحصول علي الشهادة هو الحلم الأكبر لكل مقاتل منهم ، وعلي فكرة معاهدة

1 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 35

2 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 ص 20

3 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 37

الصلح تم توقيعها في أوائل شهر نوفمبر سنة 641 م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في 17 سبتمبر سنة 642 م¹ ، وإذا حسبنا مدة فتح مصر بالكامل سنجدها حوالي سنتين

أمير المؤمنين وفتح مصر :

كان أمير المؤمنين يتربص ما يحدث وينتظر رسل عمرو بن العاص ويرسل إليه يلومه علي تأخر الفتح (- - أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلون منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم - - وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمت أن الرجل منهم مقام ألف رجل ، علي ما كنت أعرف ، إلا أن يكون غيرهم ما غير غيرهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم علي قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكون ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة وليعج الناس إلي الله ويسألوه النصر علي عدوهم - - فلما أتى عمرو بن العاص كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جمع الناس وقرأ عليهم الكتاب ثم دعا أولئك نفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلي الله عز وجل ويسألوه النصر ففعلوا ، ففتح الله عليهم - -)² وهكذا حدد أمير المؤمنين توقيت الهجوم وانتظر نتائج المعركة وكله ثقة بالله سبحانه وتعالى ، وكان رسول عمرو بن العاص الذي بشر الخليفة بفتح مصر هو معاوية بن حديج الذي وصل إلي المدينة المنورة في الظهيرة فظن أن أمير المؤمنين نائماً نوم القيلولة فذهب إلي المسجد حتي جاءتة جارية صغيرة من عند أمير المؤمنين بعد أن عرفت آثار السفر عليه وطلبت منه أن يذهب إلي الخليفة لأنه في انتظاره وهذا يدل علي أن الخليفة قد أمر بسؤال كل من هو قادم من السفر أو تبدو عليه آثار السفر لعله يكون رسول عمرو بن العاص ، ويروي معاوية بن حديج نفسه ما حدث فيقول (- - فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدي يديه ويشد إزاره بالأخري فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية ، فخرج معي إلي المسجد فقال للمؤذن : أذن في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك فقامت فأخبرتهم ، ثم صلي ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال : يا جارية هل من طعام ؟ فأنت بخبز وزيت فقال : كل ، فأكلت علي حياء ، ثم قال يا جارية هل من تمر ؟ فأنت بتمر في طبق ، فقال : كل ، فأكلت علي حياء ، ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت أمير المؤمنين قائل (أي نائم ظهراً) ، قال : بئس ما ظننت ، لئن نمت النهار لأضيع الرعية ولئن نمت الليل لأضيع نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟³

موقف المصريين من الفتح :

وجدير بالذكر وقبل أن نترك مسألة فتح مصر لابد من توضيح موقف المصريين (الأقباط) من أحداث فتح مصر ، وعلي فرة كلمة أقباط أو القبط في ذلك الوقت كانت تعني أهل مصر بغض النظر عن ديانتهم ، المهم إن الأقباط كانوا كما نعلم علي عداء شديد مع الروم وكان البطريك بنيامين أسقف المصريين مختلفاً عن الروم ، وقد سمع الأقباط بالطبع عن ما فعله المسلمون بالشام وباقي المناطق التي فتحوها ووصل إلي علمهم أن المسلمين لا يجبرون أحداً علي اعتناق ديانتهم بل إن السيد المسيح عليه السلام له مكانة رفيعة في قلوب المسلمين ، كما أن الجزية التي يفرضها المسلمون علي الشعوب لا يتم فرضها إلا علي القادرين فقط وقيمتها منطقية ولا مبالغة فيها ، وأثناء كل هذا كان المصريون يعيشون في ذل وهوان وقفر في ظل الاحتلال البيزنطي وكانوا يعاونون جيش المسلمين في مسيرته داخل الأراضي المصرية وخاصة بعد أن تبين لهم صدق ما يقال عن المسلمين بل إن الأسقف المصري بينامين لما بلغه قدوم جيش عمرو بن العاص إلي مصر كتب إلي القبط يعلمهم (- - أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص وحدث

1 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 1 ص 25

2 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 43

3 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 47

ذلك منذ بدايات معارك الفتح الإسلامي لمصر¹ وكان هذا حافزاً بالطبع للأقباط لاستقبال جيش عمرو بما هو أهله والتزامهم بصلح المقوقس معه في بابليون ، بل إن المقوقس نفسه كان له موقف شخصي في نفسه من المسلمين وخاصة عندما أعادوا إليه ابنته وحاشيتها معززة مكرمة ، حيث كانت متجهه في قافلة إلي الشام حيث كانت عروساً لابن هرقل ، وعندما وصل المسلمون إلي مكان القافلة وسيطروا علي بليس أعادوا ابنة المقوقس هي ومن معها إلي أبيها فكانت لفتة كريمة من القائد العربي المسلم وشعر بها المقوقس وقدرها حق قدرها ، حيث أنه كان من الممكن أن تقع ابنته ومن معها أسري في يد المسلمين مع باقي الأسري البيزنطيين ولهم الحق في ذلك كجيش معادي في حالة حرب في تلك العصور ولكن هذا لم يحدث ، بل إن تعامل المسلمين مع الأسري البيزنطيين أنفسهم كان يثير دهشة الجميع حتي أن بعض الأسري اعتنق الإسلام من حسن المعاملة ومكارم الأخلاق ، وعن مساعدة المصريين للمسلمين يقول د حسين كفاي في كتابه الممتع (المسيحية والإسلام في مصر) صفحة 194 (- - -) لم تكن الإسكندرية تهون علي الرومان إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولة البيزنطية ، فحشدوا لها الحشود لكي تبقي في أيديهم إلا أن المصريين " القبط " كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة في القتال ، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان ، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة ، فما زالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء ، الحالكة الظلام ، هكذا تعود المصريون علي التضحية والفداء والاستشهاد ، وها هي الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبدلوا النفس والنفيس ، - - - ومن الطبيعي أن المصريين كانوا يتمنون هذا اليوم - - -) ، والآن عزيزي القارئ حان الوقت للكلام والدرشة عن العصور الإسلامية التي تعاقبت علي مصر حيث نبدأ بالكلام عن فترة الخلفاء الراشدين في الفصل القادم إن شاء الله ثم يليه فصول أخري نتحدث فيها سوياً عن تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأموي ثم العباسي وهكذا ، وفي الحقيقة لم أكن أتصور في بداية الدردشة أن هذا الكلام سيكون بعد حوالي 97 صفحة ولكنني سوف أحاول جاهداً الاختصار والإيجاز بقدر المستطاع ولكن هناك أحداث يصعب فيها الاختصار أو المرور السريع والله الموفق وهو من وراء القصد وإلي اللقاء إن شاء الله

17. مصر في عهد الراشدين

أفضل العصور :

وصلنا والحمد لله عزيري القارئ في تاريخ مصر إلى عصر الراشدين وهو في اعتقادي من أفضل العصور التي مرت بها مصر طوال تاريخها بالكامل إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق ، فبالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يعيش في المدينة المنورة إلا أن كل فرد في الأمة بالكامل كان يشعر بعدله ، وكانت مصر كما نعرف قبل الفتح في حالة لا تحسد عليها ثم تحولت إلى ولاية إسلامية تنعم بالأمن والأمان والعدل والرحمة في ظل خلافة عمر (ر) وولاية عمرو بن العاص (ر) وجدير بالذكر أن هذا الفتح الإسلامي لم يكن احتلالاً بل كان تحريراً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني ، فقد شعر المصريون بأن هذا الدين الجديد يحترم جميع الأديان السماوية السابقة (- - -) وكان الإسلام هو الدين الذي لا يكتمل إيمان المؤمنين به إلا إذا آمنوا بكل الرسل والرسالات ، والأنبياء والنبوات ، والكتب التي سبق وأوحى بها الله سبحانه وتعالى علي مر تاريخ الرسالات الدينية { **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } (285) سورة البقرة ، وكان الإسلام هو الدين الذي يعلم الناس أن تعدد البشر في الشرائع واختلافهم في الملل هو السنة الإلهية والقانون الديني الذي لا تبديل له ولا تحويل **لَوَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } (48) سورة المائدة ولذلك كان الإحياء الإسلامي إحياء لمطلق الدين الإلهي الواحد الذي تعددت فيه الملل والشرائع والرسالات والنبوات - - - فالإسلام كمال وتمام للدين الإلهي وليس نقضاً ونفياً لما سبقه من دين (- - -) 1 ، ويقول المقريري المؤرخ الشهير في كتابه (الخطط) صفحة 534 ، 535 بالجزء الثالث (- - -) وكتب عمرو لبنيامين بطرق اليعاقبة أماناً ، في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك وقدم علي عمرو وجلس علي كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة - فغلبت اليعاقبة علي كنائس مصر وأديرتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية - (- - -) 2 ، وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبة من قبل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ومذهبها الملكاني - حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلي الأقباط فكانت المرة الأولى التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر (- - -) 3 ، ويقول بن عبد الحكم (المؤرخ) في كتابه (فتوح مصر والمغرب) صفحة 87 عن عمرو بن العاص (- - -) واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض علي كل من بلغ الحلم ديناران ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ (- - -) 4 ، ومن هنا يتضح أن المصريين قد عاشوا فترة من أفضل فترات تاريخهم كما نكرنا فلم يعد هناك اضطهاد ديني أو ضرائب فادحة ظالمة بل إن عمرو قام بإصلاحات ضخمة في العديد من المجالات وخاصة مشاريع الري التي تهتم المصريون بوجه خاص ، كما قام ببناء عاصمة جديدة لمصر

الفسطاط :

في الحقيقة اختلف المؤرخون علي سبب اختيار عمرو بن العاص لمكان هذه العاصمة ولكن أكد بعضهم أن عمرو بن العاص كان سيتخذ الإسكندرية عاصمة لمصر كما كانت قبل الفتح مباشرة ولكنه عندما كتب إلي أمير المؤمنين يستأذنه في ذلك كان الرد كالآتي (- - -) **إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بيني وبينهم فيه شتاءً ولا صيفاً فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلي الفسطاط - - -** ⁵ ، لقد كان أمير المؤمنين يخاف علي المسلمين من التعرض لأي هجوم فلا يستطيع أن يمددهم بالقوة اللازمة لنجدتهم إذا حال الماء بينهم وبين المدد ، فكان لا يريد نهراً أو بحراً بينه وبين

1 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 50 ، ص 51

2 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 53

3 عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص 53

4 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) ج 1 ص 59

5 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) ج 1 ص 29

عمرو بن العاص ومن معه ، وربما يرجع السبب في ذلك أن العرب لم يكونوا في ذلك الوقت علي دراية وخبرة بالملاحة البحرية وقد يكون السبب أيضاً أن الفتح الإسلامي لمصر كان في بدايته ولم يستقر بعد وبالتالي لا يأمن أمير المؤمنين علي المسلمين غدر الروم ، بل إن عمر طلب من عمرو أن يبني حصناً في الجيزة لمن أراد أن يسكن بها (غرب النيل) حتي يلوذوا به عند تعرضهم لأي غزو أو مخاطر (- - وقال ابن عبد الحكم إنه لما اختطت القبائل استحب همدان¹ وما والاها الجيزة ، فكتب عمرو ابن العاص يستفتي عمر في ذلك فأرسل إليه عمر يقول " كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغي لك أن ترضي لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ، لا تدري ما يفجؤهم ، فلعلك لا تقدر علي غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فئ المسلمين حصناً - -)² ، وبالمناسبة كانت الفسطاط عبارة عن سكن للقبائل العربية التي دخلت مصر مع الفتح والتي كان يتكون منها الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص وكان معظم هذه القبائل من اليمن وأول ما شرع عمرو بن العاص في بناءه هو الجامع الشهير الكبير الذي يسمي باسمه حالياً ويعتبر أول جامع في مصر بل في أفريقيا بالكامل وقد كانوا يصلون في مكان مؤقت لحين الانتهاء من بناءه بطبيعة الحال ، وبني أيضاً دار تسمي دار عمرو الكبرى وهي مقر الحكم ودار أخري لابنه عبد الله كانت تسمي دار عمرو الصغرى (- - وقد اختطت القبائل العربية حول المسجد الجامع ودار عمرو ، واختار عمرو أربعة نفر يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط بين القبائل حتي لا ينشب بينها نزاع وهؤلاء الأربعة هم : معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي من مراد ، وعمرو بن مخزوم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المعافري ، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك سنة إحدى وعشرين هجرياً - -)³ وبالمناسبة كان يسكن الفسطاط أيضاً بعض من الفرس والروم الذين أسلموا في الشام وقدموا مع جيش عمرو كما كان بها أيضاً العديد من الأقباط ، كما كان موقعها مثالياً كعاصمة لمصر فهي بالقرب من النيل لتسهيل الحصول علي المياه لسكانها ، كما أنها علي رأس الدلتا وهو موقع مسيطر علي الوجهين القبلي والبحري لمصر⁴ كما أنها أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً فقد كانت السفن تصل إليها من البحر المتوسط عن طريق أفرع النيل الممتدة من الفسطاط للبحر المتوسط كما أن خليج أمير المؤمنين ربط بينها وبين البحر الأحمر أيضاً وقد أمر بحفره أمير المؤمنين ، وبالتالي انتعشت الحركة التجارية بل والصناعية أيضاً في الفسطاط ، كما أنها أصبحت مركزاً علمياً كبيراً حيث برز فيها بعد ذلك العديد من العلماء في مجالات عديدة مثل الدين (عبد الله بن عمرو ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد) وعلم التاريخ (عبد الرحمن بن عبد الحكم) والأدب والشعر والطب والهندسة وغيرها من العلوم الدنيوية وبالمناسبة استمر تشجيع الولاة المسلمون للعلم بكافة مجالاته وخصوصاً في مدينة الإسكندرية التي كانت منارة للعلم كادت أن تخبو لولا الفتح الإسلامي الذي شجع علماءها (- - -) وقد نشأت في مصر إلي جانب هذه الحياة الدينية حياة علمية خالصة هي في الواقع استمرار للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة ، وكانت أنشط ما تكون في الإسكندرية ، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم - - الخ ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية ، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم - - -)⁵ ، وبالطبع ممكن أن ندرش مع بعض باستفاضة ولكني كلما تذكرت أن هذه الدررشة مقصود منها الإيجاز الشديد والسطحية أتراجع عن الإسهاب في كل موضوع أتناوله ، والمهم يا سيدي إن إنت ممكن تتخيل أحسن حاجة ممكن أن تحدث لمصر ولن تصل إلي مستوي ما حدث بالرغم من تخيلك ويمكنك أيضاً أن تقرأ عن هذه الفترة الكثير والكثير ولكن غاية ما يمكن أن يقال في هذا السياق أن أمير المؤمنين كان يحكم بما أنزل الله جميع أنحاء الأمة ، وهل هناك أفضل من هذا ؟ (رحمة - عدل - حرية عقيدة - علم - ازدهار اقتصادي - جزية

¹ علي فكرة يوجد شارع بالجيزة حالياً اسمه شارع همدان يرجع إلي اسم هذه القبيلة التي فضلت الإقامة بالجيزة آنذاك

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 ص 37

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 ص 37

⁴ راجع كتاب القاهرة لجمال حمدان عن عبقرية مكان العاصمة المصرية

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 92

منطقية وعادلة - أمان - مكارم الأخلاق - - - إلخ) حتى أن هناك بعض الأمثلة التي أعتقد أنك تعرفها جيداً عن ما دار بين أمير المؤمنين وبين عمرو بن العاص في هذه الفترة كالمقصص الذي قام به الخليفة لصالح ابن أحد الأقباط في مصر وغيرها من المواقف الرائعة التي تؤكد ما ذكرت

ملخص عصر الراشدين :

نعود مرة أخرى لأسلوب التلخيص السريع وطبعاً سيكون هذا التلخيص كما تعودنا من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري حيث ذكر (صفحة 58 ، 59) في كتابه ما يفيد أن عدد ولاية مصر ستة ولاية في عصر الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم أجمعين ، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص من سنة 640 م إلي سنة 646 م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة 646 م إلي سنة 656 م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة 656 م إلي سنة 657 م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر 657 م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو 658 م ، وفي الحقيقة حدثت في خلافة سيدنا عثمان وسيدنا علي فتنة كبرى في الأمة الإسلامية تأثرت بها مصر بالطبع وبالتالي سجد أن الولاة الذين سنتحدث عنهم في هذه الفترة مر بعضهم بفترات عصيبة بل تم قتل بعضهم أيضاً أثناء أحداث هذه الفتنة وجدير بالذكر أن سياسة الخلفاء الراشدين في مصر وغيرها لم تختلف عن بدايتها مع سيدنا عمر وحتى سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الأحداث المأساوية الناتجة عن الفتنة تؤثر فقط علي الولاة وتغييرهم وانتماهم إلي أحد الفريقين المتنازعين ولا تؤثر علي سياستهم تجاه مصر وشعبها حتي أن غالبية الشعب كان يشاهد ويراقب هذه الأحداث في دهشة ويتساءل عن الأسباب التي أدت إلي هذا الصراع الدامي بعد مقتل سيدنا عثمان شهيداً وكذلك سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الفتنة الكبرى امتحاناً للأمة الإسلامية إذا جاز التعبير أثبتت فيها أن الخلافات والصراعات ليست لها علاقة برسالة هذه الأمة تجاه الشعوب التي تحت قيادتها كما سنري ، وجدير بالذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحدث عن هذه الفتنة في عدة مواقف وأشار إليها صلى الله عليه وسلم وسوف نتحدث عنها في هذه الدردشة في حذر شديد ومن المصادر الموثوق بها وبإيجاز شديد أيضاً لأنها جزء من التاريخ الذي يجب أن تعرفه ولأن اسم مصر تردد في كتب التاريخ التي تناولت هذه الأحداث وبالتالي تعتبر جزء من تاريخ مصر الذي تتناوله هذه الدردشة ، وسوف أخصص الفصل القادم إن شاء الله للحديث عن أهم ما دار من أحداث في خلافة سيدنا عثمان وسيدنا علي بن أبي طالب وعن ظروف وملابسات مقتل كل منهما شهيداً ، ولكن قبل أن نخوض في هذا الحديث يجب أن نتوقف عند انتهاء خلافة سيدنا عمر بن الخطاب عندما قتل شهيداً أيضاً وسبحان الذي يهب الشهادة لمن يشاء حتي ولو كان في عاصمة الخلافة وجيوشه تقاتل في كل مكان بعيداً عن العاصمة لتتال الشهادة أو النصر

مقتل أمير المؤمنين والخلافة من بعده :

رفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يديه إلي السماء يدعو ربه ويقول (- - اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط ، فما انسلخ ذو الحجة حتي قتل ، أخرجه الحاكم)¹ ، كما أخرج البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال (- - اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك)² ، هكذا طلب عمر من الله الشهادة وكان مقتله علي يد أبو لؤلؤة المجوسي وكان عبداً للمغيرة بن شعبة وقام بطعن الخليفة بخنجر في صلاة الفجر وهو يؤم الناس في الصلاة وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم ستة وقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام ، وأرسل ابنه عبد الله إلي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستئذنها في أن يتم دفنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر (ر) فوافقت علي ذلك ، وأوصي أن تكون الخلافة من بعده شوري بين ستة من كبار الصحابة ليختاروا من بينهم الخليفة وقال (- - ما أري أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 108

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 108

وهو عنهم راض - -)¹ وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، وكان سيدنا عمر وهو يحتضر يتمني أنه مات في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (- - أما والله وددت أنني خرجت منها كفافاً لا علي ولا لي وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لي - -) ويقول أيضاً (- - لو أن لي طلاع " ملء " الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع - -) وأوصي الخليفة من بعده بتقوى الله وقال (- - أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين والأنصار وأوصيه أهل الأنصار خيراً - -)² ، أما ما حدث بعد ذلك بين الصحابة الستة فملخصه أن أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف الذي كان لا يريد الخلافة قد أشار عليهم أن يدير عملية الشورى في اختيار الخليفة من بينهم فقال (- - إن شئتم اخترت لكم منكم - -)³ ووافقوه علي ذلك فكان نعم الرأي فقد استطاع سيدنا عبد الرحمن بن عوف أن يدير الأمور بحكمة شديدة بفضل الله سبحانه وتعالى حيث كان يسأل كل منهم سؤال مهم جداً علي انفراد ألا وهو (إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟) (ويروي أن عبد الرحمن قال لعثمان في خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ فقال : علي ، وقال لعلي خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : عثمان ، ثم دعا الزبير فقال : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : علي أو عثمان ثم دعا سعداً فقال : من تشير علي فأما أنا وأنت فلا نريدها ؟ فقال عثمان ، ثم استشار عبد الرحمن الأعيان فرأي هوي أكثرهم في عثمان -)⁴ وظل عبد الرحمن يسأل المسلمين ويستطلع رأيهم ووجد أن الأغلبية تؤيد خلافة عثمان بن عفان فبايع الناس عثمان علي الخلافة عندما جمعهم عبد الرحمن في المسجد ودعاهم إلي مبايعة عثمان وقال في آخر حديثه (- - اللهم اشهد اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان - -)⁵ ، وهكذا تولى عثمان الخلافة بعد عمر وكان ذلك في ذي الحجة 23 هجرياً الموافق شهر أكتوبر سنة 644 م وتولي عبد الله بن سعد بعد ذلك بفترة قصيرة ولاية مصر من قبل عثمان بن عفان بعد عزل عمرو بن العاص عنها

ذو النورين :

تولي عثمان بن عفان (ر) الخلافة لمدة 12 سنة⁶ وكان ليناً عن عمر رضي الله عنه وأحبه الناس وكان من بني أمية وهي بطن قوية من بطون قريش وكان غنياً ذا مال وفير وكان ينفقه في سبيل الله وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من هاجر من المسلمين إلي الحبشة بأهله ثم إلي المدينة بعد ذلك ، ويعتبر رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام وكان متزوجاً من السيدة رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مرضت وماتت تزوج أختها السيدة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك سمي بذو النورين لأنه تزوج بنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأخرج ابن عساکر عن علي - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعثمان : لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتي لا يبقي منهن واحدة - -)⁷ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عثمان ويقول عنه (- - إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله - -)⁸ وأخرج الشيخان عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة⁹ وقد كان عثمان قد جهز في أحد الغزوات ثلاثمائة بعير بكافة لوازمها علي نفقته الخاصة في سبيل الله وهذه الغزوة اشتهر جيشها باسم جيش العسرة لتعسر نفقات تجهيزه وعندما قام عثمان (ر) بتجهيز هذا الكم الكبير من الجيش في سبيل الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علي عثمان بعد هذه شئ¹⁰ وقال صلى الله عليه وسلم عن عثمان أيضاً (- - مر بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال : شهيد

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 109

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 110

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 123

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 123 ، 124

5 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 124

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 126

7 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 123

8 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 124

9 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 122

10 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 122

يقتله قومه ، إنا نستحي منه ¹ ، وفي عهد خلافة عثمان كثرت الفتوحات الإسلامية حتى أن المسلمين ركبوا البحر وفتحوا قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان وقام والي مصر في عهده عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالتوسع في فتح أفريقيا وفتح الكثير من بلادها ووصل إلي الحبشة أيضاً كما أن الأندلس أيضاً فتحت في عهد عثمان² وكان عهده يتسم بالاستقرار والرخاء حيث زاد دخل الدولة الإسلامية بشكل ملحوظ وذلك نتيجة لكثرة الولايات التي تم فتحها ، ولسيدنا عثمان مناقب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ، يقول سعيد بن المسيب (- - قتل عثمان مظلوماً ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً)³ ،

بداية المشاكل :

وبدأت المشاكل كلها ومقدمات الفتنة التي سنتحدث عنها إن شاء الله في الفصل القادم عندما قام عثمان (ر) بتولية العديد من الولاة من بني أمية وكان يوصيهم بتقوى الله وكان معاوية بن أبي سفيان من بني أمية وكان والياً علي الشام ، وكانت تولية بني أمية من الأسباب التي أثارت قلق وغضب البعض وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن أهل مصر كانوا يتظلمون من واليهم عبد الله بن أبي سرح⁴ ، فكتب عثمان إلي والي مصر علي بن عبد الله بن أبي سرح⁵ سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلي الصحابة فتحدث الصحابة إلي عثمان في هذا الأمر فقرر عثمان عزل والي وتولية من يرضي به أهل مصر فطلبوا منه تولية محمد بن أبي بكر الصديق عليهم فوافقهم علي ما أرادوه وعادوا من حيث جاءوا ومعهم والي الجديد ،

الرسالة الغامضة :

وفي طريق عودتهم وجدوا رسولاً برسالة متوجهاً إلي والي مصر وكان مضمون الرسالة أن يظل والي كما هو ويحتال في قتل هؤلاء ويحبس المعارضين له ، وبالطبع لم يكن عثمان (ر) قد كتب هذه الرسالة ولم يأمر بكتابتها ويؤكد المؤرخون أن الذي كتب هذه الرسالة وأرسلها وعليها ختم عثمان بدون علمه هو مروان بن الحكم وهو أحد الشخصيات البارزة في بني أمية وسيأتي الحديث عنه في حينه ولكن يبدو أن مروان بن الحكم والله أعلم قد تعامل مع هؤلاء علي أساس أنهم متمردون وخارجون علي أولي الأمر ويستحقون القتل عندما تتاح الفرصة لذلك⁶ ، المهم أن وفد مصر عندما وجد هذه الرسالة عاد بأكملها إلي المدينة مرة أخرى وعرضوها علي الصحابة فواجهوا الخليفة فأنكرها بشدة وورد عن ذلك في كتاب تاريخ الخلفاء ما يلي (- - وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان وشكوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبي وكان مروان عنده في الدار فخرج أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم غضاباً وشكوا في أمره ، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل إلا أن قوماً قالوا : لن يبرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان حتي نبحتة ونعرف حال الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم بغير حق ؟ فإن يكن عثمان كتبه عزلناه ، وإن يكن مروان كتبه علي لسان عثمان نظرنا ما يكون في أمر مروان ولزموا بيوتهم ،

أمير المؤمنين محاصر في داره :

(وأبي عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه من القتل وحاصر الناس عثمان - -)⁷ ، وملخص هذا الكلام أن عثمان (ر) عندما رفض تسليم مروان بن الحكم حدثت هذه المشكلة الضخمة فقد خاف الخليفة أن يفتك الناس بمروان الذي اجتهد في التعامل مع هؤلاء المتمردين حفاظاً علي هيبة الخلافة من وجهة نظره ، المهم إن كبار الصحابة غضبوا من موقف الخليفة الخاص بمروان ولزموا بيوتهم وظل الخليفة محاصراً في داره وبالمناسبة كان كبار الصحابة لا يتوقعون علي

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 123

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 125

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 126

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 127

5 المقصود هنا بأهل مصر القبائل العربية التي دخلت مصر مع عمرو بن العاص وسكنت بها لأن القبط في مصر كان أغلبيتهم لم يدخل الإسلام بعد بل إن اللغة العربية لم تكن قد انتشرت في مصر أيضاً

6 معالجة هذا الموقف تختلف من شخص إلي آخر طبقاً لخبرته وطبقاً لحماسه لحل المشكلة واجتهاده لتفريق المتمردين الخارجيين الذي استفحل خطرهم وحاصروا الخليفة في داره و تبقى حسن النوايا التي هي من علم المولي عز وجل وحده

7 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 128

الإطلاق أن حصار عثمان كان الغرض منه قتله وإنما كانوا يعتقدون أن الغرض منه هو تسليم مروان لهم ليواجهوه بالرسالة وينظروا في أمره وبالرغم من هذا الاعتقاد فإنهم خافوا علي الخليفة من القتل فأرسل كل واحد منهم ابنه ليقف علي باب دار عثمان وعلي فكرة كان وجود أبناء كبار الصحابة أمام الباب كدرع بشري علي قدر كبير من الأهمية حيث أن أحداً لن يجروء علي اقتحام الباب وأمامه أحب الناس إليهم وأفضلهم فقد كان أبناء الصحابة من الشباب الذي تربي في مدرسة النبوة وشبوا علي مبادئ الإسلام ونمووا مع نموه واتساع دولته وكانت لهم مكانة لا حدود لها عند المسلمين جميعاً ومن هؤلاء الذين وقفوا علي باب الدار الحسن والحسين ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، وورد في كتاب تاريخ الخلفاء عن هذا الموقف ما يلي (- - فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا ، وقال للحسن والحسين اذهبا بسيفيكما ، حتى تقوما علي باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا علي عثمان ويسألونه إخراج مروان - -)¹

اقتحام الدار :

ومن هنا يتضح أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيهم علي بن أبي طالب (ر) كانوا أحرص الناس علي الخليفة والدفاع عنه فقد قاموا بعمل إيجابياً يحسب لهم في هذا الموقف ، وقد نجحت خطة الدفاع عن دار عثمان بالفعل فلم يجروء أحد علي اقتحام الباب ، وشاء المولي عز وجل أن يصعد ثلاثة من المحاصرين إلي سطح الدار ومن بينهم محمد بن أبي بكر دون أن يشعر بهم أحد ونزلوا من أعلي الدار إلي الخليفة ، وقال أمير المؤمنين إلي محمد بن أبي بكر عندما واجهه (- - والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني - -)² ، فشعر محمد بن أبي بكر الصديق بندم شديد وتراجع علي الفور عن موقفه وتاب إلي الله ، ولكن الاثنين الذين كانا معه قاما بقتل الخليفة رضي الله عنه ، (- - وصرخت امرأته فلم يسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة وصعدت امرأته إلي الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبحاً وبلغ الخبر علياً ، وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم حتى دخلوا علي عثمان فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا وقال علي لابنيه : كيف يقتل أمير المؤمنين وأنتما علي الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وخرج وهو غضبان ، حتى أتى منزله وجاء الناس يهرعون إليه ، فقالوا له نبايك فمد يدك فلا بد من أمير ، فقال علي : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلي أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر³ فهو خليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً فقالوا له : ما نري أحق بها منك ، مد يدك نبايك ، فبايعوه وهرب مروان وولده -)⁴

الخيارات التي كانت أمام الخليفة :

وهكذا انتهت مأساة حصار عثمان (ر) لتبدأ مأساة جديدة وفتنة كبرى حيث أن أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان قرروا عدم مبايعة علي بن أبي طالب إلا بعد الأخذ بثأر عثمان أولاً ودخل المسلمون في الفتنة الكبرى والتي وصلت إلي القتال بين الشام والحجاز كما سنذكرها في الفصل الخاص بها إن شاء الله ، وجدير بالذكر أن عثمان بن عفان (ر) رفض أن يقاوم الحصار بالقوة وكان قادراً علي ذلك بل إن البعض قد عرض عليه القتال لفك الحصار عنه ولكنه رضي الله عنه كان لا يريد أن يراق دم من دماء المسلمين في عهده كما أنه كان في إمكانه الهرب إلي معاوية بن أبي سفيان في الشام لحمايته وإعادة الأمور إلي ما كانت عليه وهو قادر علي ذلك ولكنه رفض أيضاً هذا العرض ، كما كان بمقدوره الهرب إلي مكة بجوار بيت الله الحرام حيث لن يمسه أحد بسوء هناك ولكنه رفض أيضاً وظل محصوراً في بيته صابراً متمسكاً ينتظر قضاء الله :

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 128

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 129

3 أهل بدر المقصود بهم الذين قاتلوا في غزوة بدر الشهيرة وكانت لهم مكانة خاصة جداً عند المسلمين

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 129

فكف يديه ثم أغلق بابيه - - - وأيقن أن الله ليس بغافل
 وقال لأهل الدار لا تقتلوهم - - عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
 فكيف رأيت الله صب عليهم -- العداوة والبغضاء بعد التواصل
 وكيف رأيت الخير أدير بعده - - عن الناس إدبار الرياح الجوافل¹

ومات الخليفة مقتولاً شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وكان ينفذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم له عندما أخبره بهذه الفتنة من قبل ، فعندما استأذن يوماً ليدخل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن جاء بالإذن (- -) إذن له وبشره بالجنة علي بلوى تصيبه)² ، (عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يسار عثمان (أي يتحدث إليه سراً) ولون عثمان يتغير ، فلما كان يوم الدار وحصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وإنني صابر نفسي عليه)³ ، ومن هنا يتضح أنه رضي الله عنه كان قد عرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيصير علي شدة حتي يلقاه ، فكان صابراً إلي النهاية عاملاً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أهم ما حدث في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالإضافة إلي الفتوحات الكثيرة ورخاء الأمة أنه رضي الله عنه قام بفضل الله بجمع الأمة علي مصحف واحد وأدركها قبل الاختلاف رضي الله عنه ، وقبل أن نترك الحديث عن سيدنا عثمان رضي الله عنه هناك مقارنة بين طبعه وبين طبع سيدنا عمر رضي الله عنه أريد نقلها كما هي كالاتي (كان عمر رضي الله عنه شديداً ، وكان عثمان رضي الله عنه حليماً رءوفاً ، غير أنه لم يكن ضعيفاً كما يدعي كثير من الناس ، بل كان حليماً ، ولذلك عندما حاصروه في البيت قال : أتدرون ما جرأكم علي ؟ ما جرأكم علي إلا حلمي ، وقال عبد الله بن عمر : والله لقد نعموا علي عثمان أشياء لو فعلها عمر ما تكلم منهم أحد ، إذن لماذا نعموا علي عثمان ؟ لأن عثمان كان يسامح ويترك ويفوت لهم تلك الأخطاء ويعفوا رضي الله عنه)⁴

الإمام علي كرم الله وجهه :

تولي الإمام علي كرم الله وجهه الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والإمام علي هو رابع الخلفاء الراشدين وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهو أبو الحسن والحسين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ويقول عنه الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة 134 (- -) وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، وصهره علي فاطمة سيدة نساء العالمين - رضي الله عنها - وأحد السابقين إلي الإسلام وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين - -) ، ولم يعبد الأوثان قط في الجاهلية ، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلي المدينة نام علي (ر) علي فراشه كما نعلم جميعاً وظل بمكة لفترة يؤدي الأمانات والودائع التي تركها مشركي مكة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يتركون الودائع عنده صلى الله عليه وسلم لعلمهم أنه الصادق الأمين ، وشارك علي (ر) في جميع الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا غزوة واحدة فقط وهي غزوة تبوك عندما استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم علي المدينة (- -) فقال : يا رسول الله ، تخلفني في النساء والصبيان ؟ ، فقال⁵ صلى الله عليه وسلم: أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي - -)⁶ ، ويعتبر سيدنا علي رضي الله عنه أول خليفة من بني هاشم ، وكلنا يعلم الكثير من المعلومات عن مناقب وفضل سيدنا علي وشجاعته في القتال والأمثلة علي ذلك كثيرة ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه الراية يوم فتح خيبر وقال (- -) لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 131 شعر كعب بن مالك

2 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 187

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ابق ص 189

4 حقبه من التاريخ - ما بين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه - عثمان بن محمد الخميس - صفحة 97

5 برجاه مراجعة جميع الأحاديث الواردة بهذه الدررشة ومدى صحتها

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 135

علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله -¹ فبات الناس يتمني كل واحد منهم أن يكون صاحب الراية فلما أصبح الناس وتوجهوا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن علي بن أبي طالب الذي كان يشكو مرض في عينه فعالجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الراية وكان الفتح بالفعل علي يديه رضي الله عنه ويقول عن ذلك (- - ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية -)² ، وقال (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا علي إن فيك مثلاً من عيسي ، أبغضته اليهود حتي بهتوا أمه ، وأحبته النصاري حتي أنزلوه بالمنزل الذي ليس به إلا وإنه يهلك في اثنان محب مفرط يفرطني بما ليس في ، ومبغض مفتر يحمله شنآني علي أن يبهتني - -)³ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب علياً وعنه أنه قال (- - من أحب علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله - -)⁴ ، وعلي رضي الله عنه من آل البيت وكان عالماً فقيهاً قاضياً مقاتلاً شجاعاً وإماماً وشاعراً وخطيباً وأميراً للمؤمنين زاهداً عادلاً (- - وعن أبي سعيد الخدري قال : كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً - -)⁵ ، وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبعد مبايعته مباشرة حدث أن خرج طلحة والزبير رضي الله عنهما مع السيدة عائشة رضي الله عنها إلي البصرة يطلبون دم عثمان (- - وبلغ ذلك علياً فخرج إلي العراق فلقي بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم وكانت وقعة الجمل وكانت في جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين " هجرياً " - - ، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلي الكوفة ، ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام فبلغ علياً فسار إليه فالتقوا بصفين⁶ في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال بها أياماً فرجع أهل الشام المصاحف يدعون إلي ما فيها - - ، فكره الناس الحرب وتداعوا إلي الصلح وحكموا الحكمين - - وكتبوا كتاباً علي أن يوافقوا رأس الحول (بعد سنة) بأذرح (إحدري قري الشام) فينظروا في أمر الأمة فافترق الناس ورجع معاوية إلي الشام ، وعلي إلي الكوفة ، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا : لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء (موضع بالكوفة) فبعث إليهم ابن عباس - -)⁷ ومن هنا يتضح أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ر) هو أول خليفة يتم في عهده انفصال جزء من الأمة الإسلامية سياسياً فقد كانت الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان لم تباع أمير المؤمنين علي بالخلافة ، وعلي فكرة لم يعلن معاوية نفسه خليفة أو أمير للمؤمنين بل اكتفي بعدم المبايعه وكان السبب الرئيسي لعدم المبايعه هو طلب الثأر أولاً من قتلة عثمان رضي الله عنه ثم النظر ثانياً في موقف المبايعه لأنه كان يشعر بمسئوليته عن البيت الأموي وأنه أصبح ولي دم عثمان والله أعلم أما سيدنا علي رضي الله عنه فكان يقدم وحدة الأمة أولاً علي الأخذ بثأر سيدنا عثمان فهي قضية تخضع للاجتهد في فقه الأولويات فمن اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فهل المبايعه أولاً ثم الثأر أم الثأر أولاً ثم المبايعه ؟ ، مجرد أولويات طبقاً للاجتهد في فقه الأولويات

الصراع السياسي وليس ديني :

وأود هنا أن أشير إلي رأي الدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي الكبير والذي أورده في كتابه (الإسلام والحرب الدينية) حيث أكد أن الصراع بين علي (ر) وبين معاوية بن أبي سفيان (ر) كان صراعاً سياسياً وليس اختلافاً عقائدياً ، واسمح لي عزيزي القارئ أن نقرأ معاً بعض ما كتبه د محمد عمارة في هذا الموضوع (- - وفي القتال بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان كاد إجماع المسلمين أن ينعقد علي أن معاوية وأنصاره يمثلون الفئة الباغية علي أمير المؤمنين علي وأنصاره ، وعلي أن قتال هذه الفئة الباغية واجب حتي تنفى إلي أمر الله ، ومع ذلك فهم مؤمنون مسلمون ، وقتالهم

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 135

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 138

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 139

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 139

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 136

6 معركة صفين

7 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 140

سياسة بلغت مرحلة العنف المسلح وليست ديناً ، لأن الفريقين أبناء دين واحد ، يؤمنون بإله واحد ، ويشهدون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ويحتكمون إلي القرآن الكريم ويصلون إلي ذات القبلة الواحدة وليس بعد شهادة علي بن أبي طالب بإيمان خصومه هؤلاء شهادة تقطع بالطبيعة السياسية لهذا القتال وتنفي عنه أية شبهة دينية - - فلقد سأل أبو سلامة الدالاتي وهو من أصحاب علي - سألته عن أمر معاوية وصحبه فقال :

- يا أمير المؤمنين ، أتري لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا به من هذا الدم (أي دم عثمان بن عفان) إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟

- نعم

- وتري لك حجة بتأخيرك ذلك ؟

- نعم ، إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوط وأعود نفعاً

- فما بالنا ومالهم إن ابتلينا بقتال غداً ؟

- إنني لأرجو أن لا يقتل أحد نقي قلبه منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة

فهو قتال سياسي بين فرقاء اختلفت وجهات نظرهم في السياسة - - والحكم علي المواقف فيها داخل في نطاق الخطأ والصواب وليس في نطاق الكفر والإيمان ، بل إنه بنص كلمات علي بن أبي طالب قتال بين أهل الجنة ، فلم يكن علي يشك في عقيدة خصومه ، أو يشك في إيمانهم - -)¹ ، ومن هنا يتضح أن القتال الذي دار بين علي ومعاوية لم يكن سوي اختلاف حول قضية سياسية وهي مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان وكيفية معالجة الموقف من وجهة نظر كل منهما (المبايعات ثم الثأر أم عثمان أم الثأر أولاً ثم المبايعات) ، بل إن معاوية كان يرسل من يسأل علي في بعض الأمور الفقهية ويستفتيه في الدين وليس الخلاف في نطاق الكفر والإيمان ، حتي أن الخوارج الذين أقحموا الدين في هذه القضية واستخدموا مصطلحات الكفر والإيمان في هذه المسألة تصدي لهم الإمام علي وقال (- -) إنا والله ما قاتلنا أهل الشام علي ما توهم هؤلاء " الخوارج " من التكفير والفراق في الدين وما قاتلناهم إلا لنردهم إلي الجماعة وإنهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ورأينا : أننا علي الحق دونهم - - لقد أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام علي ما دخل فيه من الزيف والاعوجاج والشبهة والتأويل - -)² وظل علي أميراً للمؤمنين من سنة 656 م (35 هـ) إلي أن مات شهيداً سنة 661 م (40 هـ)³ وتولي مصر في عهده قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ثم الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي الذي مات قبل وصوله مصر ثم تولى مصر محمد بن أبي بكر الصديق ، ويعتبر سيدنا علي بن أبي طالب (ر) آخر الخلفاء الراشدين الأربعة وقامت من بعده الدولة الأموية في الشام وله العديد والعديد من الأقوال المأثورة والشعر والحكم البليغة التي رويت عنه رضي الله عنه والتي تتم عن بلاغته وقدره ، فمن أقواله (- لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي من لا يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد - -)⁴ ومن أقواله أيضاً (- -) الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم معاصي الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلي غيره ، لأنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فهم معه ، ولا قراءة لا تدبر فيها - -)⁵ (وقال الحسن البصري عن قيس بن عباد قال : قال علي يوم الجمل : يا حسن ، ليت أباك مات منذ عشرين سنة ، فقال له : يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا ، قال : يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا -)⁶ وكان مقتله رضي الله عنه علي يد أحد الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا علي قتل كل من (علي ومعاوية وعمرو بن العاص) بحيث يقتل كل واحد منهم أحد هؤلاء

1 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) ص 58 ، 59

2 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) ص 60

3 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 60

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 148

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 148

6 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 194

الثلاثة في توقيت متزامن لاعتقادهم أن بموتهم ستنتهي خلافات الأمة ، وفشل قاتل معاوية وفشل قاتل عمرو والوحيد الذي نجح في الثلاثة هو قاتل علي (ر) ومات أمير المؤمنين شهيداً ورثاه أبو الأسود الدؤلي بأبيات من الشعر هذه مقتطفات منها :

ألا يا عين ويحك أسعدينا - - - ألا تبكي أمير المؤمنين
ألا قل للخوارج حيث كانوا - - - فلا قرت عيون الحاسدينا
أفي شهر الصيام فجعتونا - - - بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتهم خير من ركب المطايا - - - وذلها ومن ركب السفينا
وكل مناقب الخيرات فيه - - - وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قریش حيث كانت - - - بأنك خيرهم حسباً ودينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين - - - رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخير - - - نري مولی رسول الله فينا
يقيم الحق لا يرتاب فيه - - - ويعدل في العدي والأقربينا
وليس بكاتم علماً لديه - - - ولم يخلق من المتكبرينا

والآن حان الوقت كي نتحدث في إيجاز عن طبيعة الفتنة الكبرى التي حدثت في الأمة في عهد أمير المؤمنين عثمان والتي أدت إلي حصاره في داره ومقتله رضي الله عنه شهيداً ثم استمرت بعد ذلك في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وما هي علاقة مصر بهذه الفتنة وما الذي دار فيها من أحداث في ذلك الوقت ، ولكن قبل أن أنهى هذا الفصل لابد أن أتكلم عن شخصية مروان بن الحكم الذي أثير حوله مشاكل كثيرة ولكنه كان يعمل طبقاً لاجتهاده الشخصي ومن وجهة نظره والله أعلم لصالح الخليفة والخلافة وسواء كان مخطئاً أو غير مخطئ فحسابه علي الله ونرجو له العفو والمغفرة كما نرجو لجميع أمة محمد صلي الله عليه وسلم ، ومن حقه أن أذكر جوانب أخرى من شخصيته حتي ارتاح (مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس أو عبد الملك القرشي الأموي ---- وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حديث الحديبية بطوله ، وفيه إرسال ، لكن أخرجه البخاري - - ، وكان كاتب ابن عمه عثمان وولي إمرة المدينة والموسم لمعاوية غير مرة ، - - وقال عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بن جابر قال : بعثني زياد إلي معاوية في حوائج ، فقلت : من تري لهذا الأمر من بعدك ؟ فسمي جماعة ، ثم قال : وأما القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله : مروان ، وقال أحمد بن حنبل : يقال : كان عند مروان قضاء ، وكان يتبع قضاء عمر ، - - وقال يونس ، عن ابن شهاب ، عن قبيصة بن ذؤيب : أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة ، وقدمت المدينة تستفتي ، فجاءت ابن عمر ، فقال : لا أعلم في النذر إلا الوفاء ، قالت : أفأنحر ابني ؟ قال : قد نهى الله عن ذلك ، فجاءت ابن عباس فقال : أمر الله بوفاء النذر ، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم ، - - فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة ، فقال : إنه لا نذر في معصية الله ، فاستغفري الله تعالى وتوبي إليهِ ، واعلمي ما استطعت من الخير ، فسر الناس بذلك وأعجبهم قوله ، ولم يزل الناس يفتون بأنه لا نذر في معصية الله)¹ ، وإلي اللقاء في الفصل القادم إن شاء الله

18. الفتنة الكبرى وعلاقتها بمصر

العدسة التي تری الأحداث :

اختلفت الآراء حول الفتنة التي وقعت أحداثها عند حصار الخليفة الراشد الثالث عثمان رضي الله عنه ثم أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخليفة الراشد الرابع رضي الله عنه ، فكل إنسان ينظر إليها بالعدسة التي يفضلها فهناك من ينظر إليها بعدسة الشماتة في الإسلام والمسلمين وخاصة المؤرخين الأجانب المستشرقين وهم بالطبع غير مسلمين وبالتالي لم يفهموا طبيعة هذا الدين جيداً فهم لا يؤمنون به ، وبالرغم من أنهم يؤرخون الأحداث بحياد كامل كما يزعمون إلا أنهم يمسون بالعدسة التي تري الأشياء من وجهة نظر بعيدة عن الإيمان ، وهناك من يري هذه الفتنة بعدسة العصبية القبلية ويعتبر ما دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما هو مجرد صراع بين بطنين كبيرين من بطون قريش علي الحكم والإمارة كما كانا يتصارعان قبل الإسلام علي الشرف والفخر بالأعمال البطولية ، وهناك من ينظر إلي هذه الفتنة علي أنها صراع سياسي مجرد ولا علاقة له بالدين وهناك من ينظر بعدسة التكفير لإحدي الطائفتين المتصارعتين كالخوارج مثلاً ، وهناك من يعتبر أن هذا الصراع هو صراع بين الخلافة الدينية والخلافة الدنيوية إذا جاز التعبير أو بمعنى أوضح : هل يظل الخليفة زاهداً ينام تحت شجرة ويرتدي ثياباً بسيطة ؟ أم يسكن الخليفة في قصر كبير وحوله الحاشية والأتباع كملوك تلك الفترة في العالم ، ويعتقد من يمسك بهذه العدسة أن علي رضي الله عنه آخر رمز للخلافة الزاهدة وأن معاوية رضي الله عنه هو أول رمز للخلافة التي تنعم برفاهية الحكم مع التمسك بتعاليم الدين ، وهناك عدسة أخرى تنظر إلي هذه الفتنة بإشفاق وتعتبرها ابتلاء للأمة ، وهناك من يعتقد أن هذه الفتنة قد أصابت الصحابة في ذلك العهد بهذه القوة لتتناسب مع مستوي إيمانهم علي اعتبار أن الابتلاء يكون علي مستوي الإيمان وهؤلاء قد تعرضوا لفتن التعذيب قبل ذلك ولم تؤثر في إيمانهم وفتحت لهم كنوز الدنيا كلها في بلاد الفرس والروم ولم تؤثر في إيمانهم أيضاً وجاهدوا في سبيل الله وشاركوا رسول الله صلي الله عليه وسلم في غزواته فأى ابتلاء يمكن أن يصيب هؤلاء فسبحان الله لقد كانت هذه الفتنة فيما بينهم شديدة وقوية كما كان إيمانهم شديداً وقوياً أيضاً وهناك من لا يعرف أي شئ عن هذه الفتنة حالياً من عامة المسلمين ، فهل أنت عزيزي القارئ من هؤلاء ؟ وإذا كنت تعرف ما حدث أو بعضه فبأي العدسات التي تحدثنا عنها تنظر إلي هذه الأحداث ؟ ويبقي السؤال المهم الذي أردده بيني وبين نفسي دائماً : هل يجب أن نعرف هذه الأحداث ونفكر فيها ؟ أم أن الأفضل ألا نعلم عنها شيئاً ولا نقرأ عنها شيئاً ؟ ويحضرني هنا بيت طريف من الشعر كتبه أبو الطيب المتنبي عن الشقاء الذي يسببه العقل لصاحبه حتي إذا كان يعيش في النعيم وعن النعيم الذي يعيش فيه الجاهل حتي ولو كان في شقاء حقيقي ولا يعلم :

نو العقل يشقي في النعيم بعقله - - - وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وعموماً عزيزي القارئ لعلك لاحظت أنني ذكرت ما ورد في الكتب والمراجع في الفصل السابق دون أن أذكر وجهة نظري الخاصة في هذه الأحداث لأنني غير مؤهل لذلك ، بل إنني مجرد قارئ يقوم بتلخيص ما يقرأه ويحاول تبسيطه بقدر المستطاع ، ولكنني أنصحك إذا أردت أن تعرف المزيد عن هذه الفتنة من كتاب محترم يتناولها بأسلوب علمي حديث وملتزم بالكتاب والسنة فيمكنك أن تقرأ كتاب اسمه (حقبة من التاريخ - ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه) وهو من تأليف عثمان بن محمد الخميس وصادر عن مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، وفي مقدمة هذا الكتاب يقول المؤلف عن جيل الصحابة كلاماً جميلاً وهذه المرة أطلب منك عزيزي القارئ أن تقرأ هذا الكلام ولا تمر عليه مرور الكرام من فضلك وإليك القليل مما كتبه المؤلف (ولما كانت كلمة الحق نوراً يهتدي به ، ولما لذلك الجيل المبارك من فضل علينا ، كان لزاماً أن نؤدي بعض ما لهم علينا من حقوق ، فشانهم ليس كشأن غيرهم ، وعلمهم وعملهم لم يسبقوا إليه ، ولن يلحقوا به ، فبهؤلاء أعز الله الدين وأظهره ، ونحن وإن كنا نلهج بفضائل أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، إلا أننا لا ندعي لهم العصمة ، فما جعل الله عز وجل العصمة ، إلا لأنبيائه وملائكته عليهم السلام ، نعم ، لقد أخطأ بعضهم في حياة النبي صلي الله عليه وسلم وبعد وفاته لأنهم بشر وغير معصومين مثلهم مثل باقي البشر ، لكن

ما تحملوه من الأذى والقهر والتنكيل في سبيل الإيمان بالله ورسوله والدعوة إلى الدين القويم وملة إبراهيم ، وما بذلوه من هجرة الأهل والأوطان ، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وذبحهم عن رسول الله صلي الله عليه وسلم بكل ما يملكون ، يجعل هذه الأخطاء في جانب هذه الحسنات العظيمة والأعمال الصالحة كحبات رمل في جبال ، وقطرات ماء في عباب¹) ، المهم يا سيدي نعود فنقول إن هناك ما يجب أن تعرفه عن هذه الفتنة ومن الذي أوقد نارها وأشعل فتيلها (والفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها)

فنش عن اليهود :

كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ودخل الإسلام واعتنقه خصيصاً ليشعل نار الفتنة بين المسلمين وتنقل في بلاد الإسلام يحاول ضلالتهم² فذهب إلى الحجاز ثم البصرة ثم الشام ثم مصر وكان يحاول جاهداً أن يثير المسلمين ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بحجة أن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحق بالخلافة منه وأن عثمان أخذها بغير حق ، وزعم عبد الله بن سبأ (- -) أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد³ وقال (محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء)⁴ وللأسف كان لهذا الرجل اليهودي السابق أعوان يساعدونه في تحريك الفتنة وكانوا يتظاهرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يستميلوا الناس إليهم وللأسف وجد عبد الله بن سبأ صدي لما يقول في مصر وكانت كل ولاية تصلها أخبار مزيفة عن باقي الولايات تثير فيهم السخط علي الخليفة حتى أن أهل كل ولاية كانوا يقولون : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء (- -) إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار (البلدان) فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس - -)⁵

محمد بن أبي حذيفة يسيطر على مصر :

وعندما وصل الخبر إلى عثمان (ر) استدعي إليه الولاة لاستشارتهم وليعرف حقيقة الأمر (- -) فخرج إليه عبد الله بن سعد والي مصر واستخلف عقبة بن عامر الجهني أو السائب بن هشام في رجب سنة 35 هجراً فثار عليه محمد بن أبي حذيفة في شوال وأخرجه من القسطنطينية واستولي علي إمارة مصر وتابعه أهل مصر جميعاً إلا جماعة من أنصار عثمان ودعا محمد بن أبي حذيفة إلي خلع عثمان وحرص عليه بكل ما استطاع فكان يكتب الرسائل علي ألسنة زوجات النبي صلي الله عليه وسلم ثم يأخذ النوق فيضمهرها والرجال الذين يريد أن يتظاهروا بالإتيان بهذه الرسائل من المدينة فيجعلهم علي ظهور البيوت لتلوحهم الشمس تلويح المسافر ثم يأمرهم بالخروج إلي الطريق الآتي من المدينة إلي مصر - -)⁶ ومن هنا يتضح أن المؤامرة كانت محكمة ومخططة ولك أن تتخيل مفعول هذه الرسائل في قلوب المسلمين في مصر ، فإن مضمون هذه الرسائل المزيفة يؤكد شكوى أمهات المؤمنين من عثمان ، ويطلبن إنقاذ الإسلام منه ولم تفلح محاولات عثمان (ر) في تهدئة هؤلاء بل إن سعد بن أبي وقاص (ر) عندما جاء مصر ليصلح الأمر (- -) قلبوا عليه خيمته وجرحوه وسبوه فركب من وقته وعاد من حيث جاء - -)⁷ ثم حدث أخطر الأمور بعد ذلك حيث أرسل المعارضين لعثمان رسائل لبعضهم البعض في الولايات المختلفة وليحددوا مواعيد الخروج إلي المدينة جميعاً في وقت واحد ليحاسبوا الخليفة علي أفعاله (- -) فأخرج محمد بن أبي حذيفة ستمائة مصري⁸ علي كل مائة منهم قائد وعليهم جميعاً عبد الرحمن بن عديس البلوي وخرجت الوفود جميعاً مظهرة أنها تريد الحج وتقابلوا بذئ خشب علي ثلاث ليال من المدينة ، وكان هوي أهل البصرة في طلحة وأهل

1 حقية من التاريخ - ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه - عثمان بن محمد الخميمس - صفحة 5

2 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 9

3 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 10

4 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 10

5 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 11

6 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 11

7 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 12

⁸ أريد التأكيد علي أن المقصود من كلمة مصري هنا ليس الشعب المصري نفسه ولكن العرب الذين استوطنوا مصر بعد الفتح لأن المصريين لم يتدخلوا في أحداث الفتنة لأنها كانت فتنة عربية خالصة ولا شأن بباقي الشعوب بها من قريب أو بعيد بل إن أغلبية الشعب المصري في ذلك الوقت كانت أغلبية مسيحية وليست أغلبية مسلمة

الكوفة في الزبير وأهل مصر في علي - -)¹ ومن هنا بدأت أحداث حصار الخليفة كما تكلمنا عنها في إيجاز في الفصل السابق إلي أن مات شهيداً ، ثم تولي علي رضي الله عنه الخلافة وعادت الوفود إلي بلادها ، (- -) ولم تهدأ الأحوال بمصر بل انقسمت إلي فئتين فئة علوية آلي إليها الحكم وعلي رأسها محمد بن أبي حذيفة وفئة عثمانية تطالب بالتأثر لدم عثمان وعلي رأسها معاوية بن حديج وابتعد أنصار الثأر لعثمان إلي الصعيد ليكونوا بمنأى عن محمد بن أبي حذيفة فأرسل إليهم جيشاً - -)² وظل الصراع في مصر بين أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبين المطالبين بثنأر عثمان ووصل الأمر إلي أن أرسل المطالبين بثنأر عثمان رسالة إلي معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ليدخل مصر وينتزعها من محمد بن أبي حذيفة وحدثت بالفعل معارك بين معاوية وعمرو بن العاص من جهة وبين محمد بن أبي حذيفة من جهة أخرى ولكن مصر ظلت تحت سيطرة الخليفة وهدأت الأحوال لفترة من الزمن في مصر وتولي محمد بن أبي بكر ولاية مصر بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وحاول محمد بن أبي بكر أن يفاوض معاوية بن حديج قائد المعارضة المطالبة بدم عثمان ولكن هذه المفاوضات فشلت فشل ذريع وبدأت المشاكل مرة أخرى من جديد ، وكان معاوية بن أبي سفيان يتمني السيطرة علي مصر لأنه يعلم جيداً أنها قوة لمن يسيطر عليها ونعم العون له ، وكان معاوية بن حديج وأتباعه يحرضون معاوية بن أبي سفيان علي ضم مصر إلي الشام تحت قيادته ، وكان وقوف عمرو بن العاص إلي صفه مكسباً كبيراً بلا شك

موقف عمرو بن العاص من الأحداث :

كان عمرو بن العاص كما تحدثنا عنه من قبل شخصية طموحة وغير عادية وكان في بداية هذه الفتنة بعيداً عن الأحداث ولا يريد التدخل لصالح أي طرف منها ، حتي كانت وقعة الجمل التي اشتركت فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ففي هذا الوقت تحديداً قرر التدخل بعد المعركة مباشرة ، ولكنه فكر قليلاً واستشار ابنه عبد الله ومحمد وأرسل إليهما وقال لهما (- -) - -) إني قد رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني عن رأبي ولكن أشيرا علي ، إني رأيت العرب صاروا عيرين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جداري مكة ولست أرضي بهذه المنزلة ، فإلي أي الفريقين أعمد ؟ قال عبد الله : إن كنت لا بد فاعلاً فإلي علي ، قال : إني إن أتيت علياً قال : إنما أنت رجل من المسلمين وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره ، فأتي معاوية - -)³ ، (وعن عروة أو غيره قال : دعا ابنه (أي عمرو بن العاص) ، فأشار عليه عبد الله أن يلزم بيته لأنه أسلم له ، فقال له محمد : أنت شريف من أشرف العرب وناب من أنيابها لا أري أن تتخلف ، فقال عمرو لعبد الله : أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي ، وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري - -)⁴ ومن هنا يتضح أن عمرو كان يفضل أن يقف في صف معاوية وأصبح له نعم العون في صراعه مع أمير المؤمنين فأيد الرأي الذي يقول بضرورة الأخذ بثنأر عثمان أولاً قبل مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين وقد ذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص عقد صفقة مع معاوية علي أن ينصره بشرط أن يعيده والياً علي مصر مرة أخرى والله أعلم

موقعة المسناة :

أرسل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص إلي مصر في جيش مكون من ستة آلاف رجل ، انضم إليه الساخطون من المصريين⁵ ولكنه لم يقاتل الروم هذه المرة ولكنه قاتل والي مصر محمد بن أبي بكر الذي ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وكانت المعركة في مكان يعرف بالمسناة (- -) فجعل عمرو يرسل الكتيبة بعد الكتيبة وجعل كنانة بن بشر (قائد جيش محمد بن أبي بكر) لا تأتيه كتيبة من أهل الشام إلا شد عليها بمن معه فضربها حتي تفر إلي عمرو ، فلما رأي عمرو ذلك رأي أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج رأس عثمانية مصر فاتاه في مثل الظلام فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ولما رأي كنانة ذلك نزل عن فرسه ونزل أصحابه وضاربهم بسيفه حتي

1 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 12

2 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 13

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 297

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 297

5 الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) ص 15

استشهد فتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه ففر ولجأ إلي خربة فأخذوه وقتل -- ، وبلغ عن القتال يومئذ أن قال عمرو بن العاص : شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوماً كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ ، وكانت تلك الموقعة في صفر 38 هجراً وكان فيها القضاء المبرم علي العلويين في مصر --)¹ وبالمناسبة أريد أن أؤكد أن المصريين الذين يتحدث عنهم المؤرخون في هذه الأحداث كانوا عرباً سكنوا مصر مع الفتح عند دخول عمرو بن العاص وأكبر دليل علي ذلك أن د حسين نصار في روايته يقول ما معناه أن عمرو بن العاص أراد أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج وهذا باعتباره مصرياً ولكنه عربياً اشترك في تأسيس مدينة الفسطاط المكونة من عدة قبائل عربية وكان معاوية بن حديج التجيبي علي رأس أحد هذه القبائل الذين قسموا العاصمة الجديدة فيما بينهم ليفصلوا بين القبائل ومن هنا تم تسميتهم أهل مصر ولكن القبط أنفسهم وهم أهل البلاد الأصليين لم يشتركوا في هذه الأحداث لأن غالبية المصريين في ذلك الوقت كانوا علي الديانة المسيحية ولم تكن اللغة العربية قد انتشرت بينهم ولكن الجدير بالذكر أن المصريين كانوا يشاهدون هذه الأحداث في حزن عميق ويتساءلون علي ما يبدو عن سر كل هذه الصراعات بين العرب المسلمين الذين لم تختلف سياستهم تجاه مصر وغيرها من البلدان برغم كل هذه الصراعات وسبحان الله ، فقد كانت هذه الصراعات فيما بينهم بعيدة كل البعد عن أي ظلم أو جور علي الشعوب التي تحت مظلة حكمهم ، فبرغم كل هذه الأحداث فقد كانت فترة حكم الراشدين لمصر وغيرها من البلاد تتسم بالعدل والرحمة وحرية العقيدة كما ذكرنا من قبل ولم يؤثر هذا الصراع السياسي بين المسلمين علي هذه السياسة الداخلية ، وإلي هنا عزيزي القارئ انتهت الدردشة عن فترة حكم الخلفاء الراشدين لنبدأ معاً الدردشة عن دولة جديدة وهي الدولة الأموية في الفصل القادم إن شاء الله وأرجو أن أكون قد وفقت في توضيح بعض الغامض من الأمور من واقع الكتب والمراجع التاريخية وكل هذا مجرد اجتهاد يتوفر فيه حسن النية إن شاء الله ولك أن تعود إلي ما ذكرت من مراجع وكتب لتفهم ما لم أستطع فهمه وتستوضح ما لم أتمكن من إيضاحه وأسأل المولي عز وجل أن يغفر لي ولك ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن يهدينا إلي سواء السبيل وإلي اللقاء مع الأمويين إن كان في العمر بقية

19. وأصبحت مصر ولاية أموية

مقارنة سريعة :

قبل الكلام عن قيام الدولة الأموية في دمشق بالشام بعد دولة الراشدين بالحجاز ، أريد أن أعقد مقارنة سريعة بين عهد الراشدين وعهد الأمويين دون الدخول في تفاصيل ، وأعتقد أن هذه المقارنة ستوضح الكثير من الأمور لأنها ليست فقط مقارنة بين هذين العهدين بل إنها مقارنة بين عهد الراشدين وجميع العصور التي جاءت بعد ذلك تقريباً ، فمثلاً كان في عصر الراشدين يتم اختيار الخليفة بالشورى ويستمد شرعيته بالمبايعة وأصبحت بعد ذلك الخلافة وراثية بولاية العهد مثل الملوك تقريباً ، كما أن معايير اختيار الخليفة في عهد الراشدين كانت تعتمد علي مكانته في الإسلام وفضله وقدره بين المسلمين ولا تعتمد علي انتمائه العائلي أو قرابته لأحد بطون قريش فمثلاً نجد أن أبا بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان من بني أمية وعلي من بني هاشم وكلهم رضي الله عنهم أجمعين من قريش ، بمعنى أن الخلفاء الأربعة كانوا ينتمون إلي أربعة بطون مختلفة من قريش ، فالأساس في الاختيار ليس له علاقة ببطن محددة من قريش بل نري أبا بكر يستخلف من بعده خليفة من بطن أخري وبإيعه الناس ، أما في العصور التي تلت عصر الراشدين بعد ذلك فكان الانتماء العائلي هو الأساس فنجد أن الأمويين من بطن واحدة بالطبع (أمية) وبني العباس بعد ذلك من بطن أخري (هاشم) ولكن ظلت المبايعة هي أساس الشرعية أيضاً ، ومن نقاط المقارنة الأخرى بين عهد الراشدين والعهد الذي تلتته نجد أن الخلفاء الراشدين كانوا يصرون علي التمسك بالبقاء في المدينة المنورة بالحجاز كمقر لهم كما فعل رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانوا يهتمون بالتعامل معاملة كريمة مع أهلها (الأنصار) عملاً بوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما أوصي بالأنصار خيراً ، علي حين أن باقي الخلفاء بعد ذلك لم يتخذ أحدهم المدينة عاصمة له فنجد أن الأمويين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ثم بعد ذلك أسس العباسيون عاصمة جديدة لخلافتهم وهي بغداد ، كما أن أهل المدينة تعرضوا في بعض الأحيان لمواقف عصبية لم تكن تحدث في عهد الراشدين ، ومن وجوه المقارنة أيضاً بين الراشدين ومن بعدهم أنهم كانوا يعيشون حياة الزهد ويرفضون المظاهر الدنيوية في الحكم بل إن عمر (ر) رفض أن يغادر كبار الصحابة المدينة إلي البلاد التي تم فتحها حتي لا تلوثهم الدنيا بزینتها ولم يخرج بعضهم منها إلا في عهد عثمان (ر) ، أما باقي الخلفاء بعد ذلك (باستثناء القليل) فكانوا يعيشون حياة عادية وكانت تحيط بهم مظاهر الحكم والحاشية وما إلي ذلك مع تمسكهم بالحكم بما أنزل الله بالطبع بقدر المستطاع ، وللعقاد رأي في هذه النقطة حيث يقول (-- لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً جلاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم ، وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة علي سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين لأن اطراد النسق من ولاة الأمر علي هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوي أمر تنوء به طاقة بني الإنسان ، فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع علي طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلي زمن بعيد ---)¹ أما عن أحوال مصر في هذه المقارنة فنجدها لا تختلف كثيراً عن استمرارها أحد أهم وأغني ولايات الأمة الإسلامية علي مر عصورها المختلفة ولكن حدث بها العديد من التغييرات في نظم الإدارة وتطور دواوين الحكم وانتشار اللغة العربية والديانة الإسلامية مع مرور الزمن ، وظل الخلفاء يتعاملون معها معاملة خاصة ويتولي عليها كما سنري في العصر الأموي وما بعده والياً له مكانته كإبن الخليفة نفسه أو أخوه أو أحد أقاربه أو أحد الموثوق بولاءهم للدولة القائمة ، وظلت مصر تحتل هذه المكانة المرموقة في العصر الأموي والعصر العباسي الأول وهو ما يسمي بعصر الولاة إلي أن جاء أحمد بن طولون وقام بتأسيس الدولة الطولونية بمصر

نشأة الدولة الأموية :

أما عن الظروف والملابسات التي أدت إلي قيام الدولة الأموية في دمشق فيمكن إيجازها في بساطة شديدة وذلك بإجتمع الأمة بالكامل علي معاوية بن أبي سفيان ليكون خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين بعد أن قام الحسن بن علي

1 معاوية بن أبي سفيان (عباس العقاد) ص 9

رضي الله عنه بمبايعة معاوية لحقن دماء المسلمين وجمع شمل الأمة وتوقف الفتنة فقد كان الحسن بن علي (ر) قد تولي الخلافة بعد مقتل الإمام علي (ر) وتم مبايعته بالخلافة بالفعل وقد أورد السيوطي اسمه كخامس الخلفاء في كتابه تاريخ الخلفاء بالرغم أنه تولي الخلافة لشهور قليلة ظلت فيها الأحوال كما هي وظل الخلاف بين الشام والحجاز إلي أن تنازل عن الخلافة لمعاوية في هدوء وحكمة ، واسمح لي أن أتوقف قليلاً عند الحسن بن علي بن أبي طالب حفيد رسول الله صلي الله عليه وسلم لتوضيح بعض النقاط المهمة عنه رضي الله عنه

الحسن بن علي رضي الله عنه :

ريحانة النبي صلي الله عليه وسلم وابن ابنته السيدة فاطمة (ر) وكان يشبه النبي صلي الله عليه وسلم (- - -) وكان سيداً حليماً ذا سكينه ووقار وحشمة وكان يكره الفتن والسيوف وكان جواداً - -)¹ (وقال ابن سيرين : إن الحسن كان يجيز الرجل الواحد بمائة ألف درهم وقال غيره: حج الحسن بن علي خمس عشرة مرة وقال أنه حج أكثرها ماشياً من المدينة إلي مكة وأن نجائبه تقاد معه وقال جرير : بايع أهل الكوفة الحسن وأحبوه أكثر من أبيه)² ، (- - -) أخرج الحسن من ماله الله مرتين وقاسم الله ماله ثلاث مرات ، حتي أنه كان يعطي نعلأ ويمسك نعلأ ويعطي خفاً ويمسك خفاً - -)³ وهناك العديد والعديد من المواقف الرائعة والمناقب التي لا يمكن حصرها في هذا المقام ويكفي أن نقول أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحبه ويدعوا الله له أن يحبه (- -) وأخرج الشيخان عن البراء قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم والحسن علي عاتقه وهو يقول : اللهم إني أحبه فأحبه ، وقد تولي الحسن بن علي الخلافة سنة 40 هجراً فأقام فيها ستة أشهر وأياماً - -)⁴ ثم قرر أن يصلح بين الناس ويجتمعوا علي مبايعة علي شخص واحد فقط لتنتهي هذه الفتنة بالرغم من وجود حشد ضخم من المقاتلين كانوا رهن يديه وعلي استعداد للقتال ولكنه فضل حقن دماء المسلمين وبايع معاوية علي الخلافة حتي أن هناك من المسلمين من كره هذا التصرف منه ولكنهم أطاعوه لقدره وفضله ، وجدير بالذكر أن الحسن عندما بايع معاوية طلب منه معاوية الصعود إلي المنبر ليتكلم ويخطب في الناس ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال (- -) أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا وإني قد أخذت لكم علي معاوية أن يعدل فيكم وأن يوفر لكم غنائمكم وأن يقسم فيكم فيأكم ، ثم أقبل علي معاوية فقال : أذكك ؟ قال : نعم ، ثم هبط من المنبر وهو يقول ويشير بإصبعه إلي معاوية : {وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} (111) سورة الأنبياء فاشتد ذلك علي معاوية - -)⁵ (وقال أبو بكر : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم علي المنبر والحسن بن علي إلي جنبه وهو يقول : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، أخرجه البخاري - -)⁶ ، ومن هنا يتضح أن الحسن جعله الله سبباً في انتهاء المعارك والخلافات في هذه الفترة والله أعلم وفي حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الحسن رضي الله عنه إشارة إلي ذلك ، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة 49 هجراً في خلافة معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في دمشق

معاوية بن أبي سفيان :

كان معاوية بن أبي سفيان يتوقع أن يسود ويتولي الأمر في يوم من الأيام منذ أن قال له رسول الله صلي الله عليه وسلم (- -) يا معاوية إذا ملكت فأحسن)7 (وكان معاوية رجلاً طويلاً أبيض جميلاً مهيباً وكان عمر ينظر إليه فيقول : هذا كسري العرب ، وعن علي قال : لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها)8 (وكان يضرب بحلم معاوية المثل وبالمناسبة كان إسلام معاوية وأبيه أبي سفيان في عام فتح مكة والعام الذي تولي فيه الخلافة أطلق عليه بعض المؤرخون عام الجماعة لاجتماع الأمة علي خليفة واحد ، وظل معاوية في الخلافة عشرين سنة كاملة لا

¹ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 277

² تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 277

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 152

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 153

⁵ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 278

⁶ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 276

⁷ تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 155

⁸ تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 155

ينازعه فيها أحد وجددير بالذكر أنه قد كان والياً قبل ذلك في الشام عشرين سنة أخرى ، وكانت فترة خلافته مستقرة إلي حد كبير وتولي في عهده ولاية مصر عمرو بن العاص وولاية المدينة مروان بن الحكم ، وقام بالسيطرة الكاملة علي الأمور ، وقد أراد معاوية أن يورث الخلافة لابنه يزيد 1 (- -) - خطب معاوية فقال : اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس بأهل فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك) 2 (- -) وعن المنكر قال : قال ابن عمر حين بويع يزيد ، إن كان خيراً رضيماً وإن كان بلاء صبرنا - 3) ، المهم في الموضوع الذي نتحدث فيه أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس هذه الدولة التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا الفصل من الدردشة وغاية ما يقال عنه ما قاله هو عن نفسه في أحد خطبه ، وإليك بعض ما قال (- -) أما بعد ، فإنني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها - - - - ، ثم تحدث عن الخلفاء الذين قبله وقال : وأين مثل هؤلاء هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم - - - فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم - -) 4 وهكذا شعر معاوية أنه أفضل من سيقود هذه الأمة إلي الاستقرار والرخاء والأمان بالرغم من علمه التام أنه ليس أفضل من بقي من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، (- -) عن ثابت مولي أبي سفيان : أنه سمع معاوية يخطب ويقول : إني لست بخيركم ، وإن فيكم من هو خير مني : عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل ولكني عسيت أن أكون أناكم في عدوكم وأنعمكم لكم ولاية - -) 5

ملخص العصر الأموي :

بعد أن تكلمنا عن نشأة هذه الدولة ومؤسسها ، لابد لنا طبقاً لسياق الدردشة أن نلخص العصر الأموي بالكامل وسيكون ذلك بالطبع كما تعودنا من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري الذي تناول العصر الأموي من صفحة 60 إلي صفحة 65 حيث نكر أن الدولة الأموية استمرت في دمشق من سنة 40 هجراً 661 ميلادياً إلي سنة 132 هجراً 750 ميلادياً أي حوالي 89 سنة ، تولى فيها الخلافة 12 خليفة وتولي خلالها علي مصر 25 والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلي أن توفي بها سنة 664 ميلادياً ، وأشهر من تولى حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقرّة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان ولنا هنا وقفة قصيرة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

عمر بن عبد العزيز :

يعتبر عمر بن عبد العزيز من أفضل خلفاء الدولة الأموية كما رأي المؤرخون فإن هناك العديد من المواقف التي تشهد بفضله وعدله وورعه وتقواه ، فمن الطريف أن الصحابي الشهير أنس بن مالك رضي الله عنه طال به العمر حتي أنه صلي وراء عمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً علي المدينة المنورة فقال عنه (ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى ، يعني عمر بن عبد العزيز)⁶ وأعتقد أن هذه شهادة من أحد كبار الصحابة تشير إلي الكثير من المعاني عن هذا الخليفة الأموي الذي يحلو للبعض أن يصفه بخامس الخلفاء الراشدين وقد كانت فترة

1 لقد أراد معاوية أن يضع نظام مستقر وأمن لتداول وانتقال السلطة في الدولة الأموية وذلك بعد أن رأي الصراعات والخلافات التي مزقت وحدة الأمة فقرر والله أعلم أن يحصل علي المبايعات لابنه يزيد حتي تنتقل السلطة في هدوء بعد موته ، وأنت تعلم عزيزي القارئ أن المبايعات هي نوع من أنواع الشورى قبل اتخاذ القرار

2 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 328

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 157

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 379

5 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 379

6 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج3 ص 294

خلافته رخاءاً عم كل أنحاء الأمة حتي أنه لم يعد هناك فقيراً في الأمة الإسلامية كلها في عهده (عن عمر بن أسيد قال : والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتي جعل الرجل يجيئ بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتي يرجع بماله كله ، قد أغني عمر الناس)¹ وجدير بالذكر أنه حفيد عمر بن الخطاب من ناحية الأم كما نعلم جميعاً وعلي فكرة كان خلفاء بني أمية بشكل عام يكثرون من الفتوحات الإسلامية ويسعون إلي استقرار الأمة ورخاءها وكان آخرهم مروان بن محمد بن مروان الذي يعتبر آخر خليفة أموي في دمشق كما سنذكر ذلك في حينه

أهم الأحداث في العصر الأموي :

في الحقيقة تعتبر الأحداث التي دارت في هذا العصر في الدولة الإسلامية بشكل عام من أخطر الأحداث في تاريخ الإسلام وأهمها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، ثم خلافة عبد الله بن الزبير الذي قاتل بني أمية وسيطر علي الأمة الإسلامية بالكامل تقريباً لفترة من الوقت كأميراً للمؤمنين وأرسل والياً علي مصر هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، وهذين الموضوعين من المواضيع المهمة جداً في تاريخ هذه الفترة الأموية كما أن هناك أموراً وتغيرات قد حدثت في مصر خلال عصر الأمويين ، وأنا متردد في نكر أحداث مقتل الحسين وخلافة ابن الزبير رضي الله عنهما ، فهل أذكر هذه الأحداث أم استمر في تناول تاريخ مصر فقط خلال العصر الأموي ؟ وكما كنت أتمني أن تكون عزيزي القارئ تجلس أمامي الآن وتعطيني رأيك وتجيب عن سؤالي في هذا الذي يشغل بالي ويؤرقني ويجعلني متردداً ، وعلي العموم لا مانع من الإشارة باختصار إلي هذه الأحداث نظراً لأهميتها التاريخية وتأثيرها علي جميع الولايات الإسلامية بما فيها مصر ، ولكن اسمح لي أن أوجز بقدر المستطاع فقد لا أشبع رغبتك في معرفة هذه الأمور بدرجة كبيرة ولكن سوف أذكر أهم النقاط التي تهكم وأول ما سوف أتحدث معك فيه في هذه الدردشة الآن هو موضوع مقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه ثم موضوع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ثم تطورات الأحداث بعد ذلك والجدير بالذكر أن عصر الأمويين عموماً يتميز بالعديد والعديد من الفتوحات الإسلامية² التي يصعب حصرها واختصارها في هذا الفصل كما اتسم عصر الدولة الأموية بوحدة الدولة ككل والتمسك بكل ما هو عربي من حيث الهوية والثقافة واللغة وسوف نري بعد ذلك عند قيام الدولة العباسية مدي انفتاحها علي ثقافات أخرى خلاف الثقافة العربية

مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه :

(- - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط " قال الترمذي : هذا حديث حسن - -)³ ومن هنا يتضح فضل الحسين ومدي حب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، وهناك العديد من المواقف التي تدل علي فضله وقدره عند المسلمين أظنك تعرفها عزيزي القارئ جيداً وقد وعدتك بالإيجاز الشديد وسأكتفي بذكر أحداث مقتله رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، وتبدأ القصة عندما مات معاوية بن أبي سفيان وتولي الخلافة من بعده ابنه يزيد بن معاوية فلم يدخل في طاعته (الحسين بن علي ولا عبد الله بن الزبير ولا من شايعهما)⁴ فأما عبد الله بن الزبير فقد عاذ بالبيت الحرام بمكة وأما الحسين بن علي فقد بايعه أهل الكوفة علي الخلافة فتوجه إليهم وقد نصحه الكثيرون بعدم الخروج إلي الكوفة ومن بين الناصحين كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال له (- - يا أبا عبد الله إني لك ناصح ومشفق ، وقد بلغني أن قوماً من شيعتكم كاتبوك ، فلا تخرج فإني سمعت أباك بالكوفة يقول : والله إني مللتهم وأبغضوني وملوني ، وما بلوت منهم وفاء ، ومن فاز بهم فإنما فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم ثبات ولا عزم ولا صبر علي السيف - -)⁵ وكان من بين الناصحين له أيضاً عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج3 ص 298

² علي فكرة لو حسبنا عدد من أتاحت له الفرصة للدخول في الديانة الإسلامية نتيجة لفتوحات الدولة الأموية لوجدناهم أعداد ضخمة جداً في مناطق متعددة من العالم في ذلك الوقت وطبعاً كل صلاة وزكاة وأعمال صالحة والله أعلم قد تكون في ميزان حسنات هؤلاء الفاتحين فالدولة الأموية تذخر بالعديد من الفتوحات الإسلامية الرائعة التي أتاحت الفرصة لنشر الإسلام في ربوع الأرض عن طريق إعطاء الفرصة للدعاة للوصول إلي مناطق لم يكن من الممكن الوصول إليها قبل الدولة الأموية والتي نسال الله سبحانه وتعالى أن يجعل كل هذا في ميزان حسناتهم وكل فاتح في كل عصر من عصور الإسلام

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 445

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 327

5 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 399

ولكن الحسين (ر) صمم علي التوجه إلي العراق ليجتمع مع من بايعوه ويقاوم بني أمية وكان بنو أمية في ذلك الوقت قد تمكنوا من السلطة وسيطروا علي كافة ولايات الأمة الإسلامية ولم يكن الموقف السياسي مشابهاً عندما بويح الحسن (ر) فهناك فارق كبير بين سيطرة الأمويين في عهد مبايعة الحسن بن علي وبين سيطرتهم عند خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقد كان للحسن قوة ضخمة قادرة علي قتال بني أمية عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية ، أما الموقف بالنسبة للحسين فقد كان مختلف تماماً عندما رفض مبايعة يزيد بن معاوية ، وبالمناسبة كان يزيد ومروان في قلق شديد عندما عرفوا بخروج الحسين وكان والي الأمويين علي الكوفة في ذلك الوقت اسمه عبيد الله بن زياد ، فأرسل إليه يزيد ومروان رسالة يدعونه فيها لصد الحسين عند وصوله إلي الكوفة وقال في رسالته (- -) إن حسيناً صائر إلي الكوفة - - وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان وبلدك من بين البلدان وأنت من بين العمال - -)¹ ، وقال الحسين لأصحابه : قد ترون ما يأتي ، وما أرى القوم إلا سيخذلوننا ، فمن أحب أن يرجع فليرجع ، فانصرف عنه جماعة ، وبقي فيمن خرج معه من مكة ، فكانت خيلهم اثنين وثلاثين فرساً وأما ابن زياد " والي الكوفة " فجمع المقاتلة وأمر لهم بالعطاء - -)² ، وبالفعل أيقن الإمام الحسين (ر) أنه مقتول لا محالة (- -) فقام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد نزل بنا ما ترون ، إن الدنيا قد تغيرت وتكرت وأدبر معروفها واستمرت حتي لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وإلا خسيس عيش كالمرعي الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهي عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله ، وإني لأرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برماً - -)³ وقاتل الحسين ببسالة وشجاعة حتي أصابه سهم قاتل ثم قطعوا رأسه وأرسلوها إلي يزيد بن معاوية ، ثم ندم يزيد بعد ذلك علي ما حدث للحسين (فكان يقول : وما علي لو احتملت الأذي وأزلت الحسين معي ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان علي في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقربته - -)⁴ ، وكانت هذه قصة مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه شهيداً في كربلاء بإيجاز شديد وقد هز هذا الحدث الأمة بالكامل ولآن لا يزال الشيعة يبكون ويندمون علي عدم نصر الحسين وبيالغون في ذلك أشد المبالغة

عبد الله بن الزبير أميراً للمؤمنين :

يعتبر عبد الله بن الزبير بن العوام هو أول من ولد في المدينة بعد الهجرة للمسلمين وفرح بولادته المسلمون جميعاً لذلك يطلقون عليه أول مولود في الإسلام ، وأبوه هو الزبير بن العوام (ر) حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمه أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) رضي الله عنها ، وعبد الله بن الزبير من قریش وتحديداً من بني أسد (- -) وكان صواماً قواماً طويل الصلاة وصولاً للرحم ، عظيم الشجاعة ، قسم الدهر ثلاث ليال ، ليلة يصلي قائماً حتي الصباح ، وليلة راکعاً وليلة ساجداً حتي الصباح)⁵ ، وظل عبد الله بن الزبير علي موقفه من عدم مبايعة يزيد بن معاوية حتي مات يزيد ، فلما مات يزيد بويح عبد الله بالخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بينما بايع أهل الشام معاوية بن يزيد بن معاوية علي الخلافة ولم تدم خلافته في بني أمية طويلاً ثم بايعوا مروان بن الحكم ، وهنا لنا وقفة فيما ذكره الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء فهو لم يعتبر مروان خليفة بل أقر عبد الله بن الزبير في قائمة الخلفاء واعتبره الخليفة التاسع واعتبر مروان خارجاً عليه ، بل اعتبر عبد الملك بن مروان أيضاً خارجاً عليه إلي أن عبد الله بن الزبير ، ثم بعد ذلك اعتبر السيوطي عبد الملك بن مروان الخليفة العاشر في قائمة الخلفاء ، وجدير بالذكر أن عبد الله بن الزبير (ر) أطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان في بداية خلافته ثم أرسل والياً علي مصر أيضاً ، وكان مروان بن الحكم ومن معه علي عدااء شديد مع عبد الله بن الزبير واستطاع مروان أن ينتزع مصر من عبد الله بن الزبير وولي عليها ابنه عبد العزيز بن مروان سنة 685 م ، وكان لمروان أبناء منهم عبد العزيز ومحمد وعبد الملك ، وكان عبد الملك بن

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 402

2 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 402

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 403

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 407

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) ص 168

مروان فقيهاً عابداً حتي أن عبد الله بن عمر عندما كبر سنه قال له البعض (إنكم معشر أشياخ قريش يوشك أن تنقضوا فمن نسأل بعدكم ؟ فقال : إن لمروان ابناً فقيهاً فسלוه -)¹ وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً² وهناك قصة طريفة عن عبد الملك بن مروان عندما رأي جيشاً متوجهاً لقتال عبد الله بن الزبير أرسله مروان أبوه ، فاستوقف عبد الملك أحد المقاتلين في هذا الجيش ودار هذا الحوار الذي يرويهِ المقاتل نفسه (-- قال عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم ، قال : ثكلتك أمك ، أتدري إلي من تسير ؟ إلي أول مولود ولد في الإسلام ، وإلي ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلي ابن ذات النطاقين ، وإلي من حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ولئن جئته ليلاً لتجنده قائماً ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا علي قتله لأكبهم الله جميعاً في النار --) ، فلما صارت الخلافة إلي عبد الملك ، وجهنا مع الحجاج حتي قتلناه³ وبالفعل كان مقتل عبد الله بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان عندما أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلي مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وطبعاً كلنا يعرف جيداً الحجاج ونسمع عنه ، فهو سيف من سيوف بني أمية ويدين لهم بالولاء الشديد ، وكان عبد الملك يعرف إمكانات الحجاج حق المعرفة وأرسله إلي مكة كما ذكرنا وحاصر ابن الزبير وضرب عليه بالمنجنيق وقاتل عبد الله بن الزبير في شجاعة لا نظير لها حتي قتل ، وهكذا انتهت قصة البطل الشجاع عبد الله بن الزبير (ر) أمير المؤمنين العائد بمكة بعد أن قاتل بني أمية حتي النهاية ، وجدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان عندما مات ابن الزبير أصبح خليفة لا ينازعه أحد علي الخلافة إلي أن مات وتولي الخلافة أبناءه من بعده ، وأقر أخيه عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر إلي أن مات عبد العزيز وهو والي عليها ، ولعلك لاحظت معي اختلاف نظرة عبد الملك لعبد الله بن الزبير قبل وبعد وصول الخلافة إليه ، فهو قبل أن يموت مروان والده وقبل أن يصبح خليفة كان يري عبد الله بن الزبير ذو مكانة دينية عالية ورفيعة ويقدر قدره وفضله وتقواه ، أما بعد أن أصبح عبد الملك مسئولاً عن الأسرة الأموية وقائداً لها ، أصبح عبد الله بن الزبير في نظره مجرد خصماً سياسياً عنيداً يجب ردعه ولو بالقوة حتي تجتمع الأمة تحت قيادة أموية وتستمر السيادة للأُمويين فأرسل إليه الحجاج وزوده بجيش قوي ليقضي علي سلطته مما أدى إلي مقتله رضي الله عنه ، ونلاحظ مدي شدة الأُمويين ضد من يقف في طريق سيادتهم السياسية وتوليهم السلطة مما أدى إلي إطاحتهم بكل المعارضين لهم مهما كانت مكانتهم الدينية عند المسلمين بل عند الأُمويين أنفسهم ، ومن هنا يمكن القول أن بني أمية قد أيقنوا أنهم قادة لا نظير لهم وأن من حقهم تولي أمر هذه الأمة مع علمهم التام أن هناك من هو خير منهم من حيث المكانة الدينية ونذكر معاً ما قاله معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة بعد أن استمد شرعية حكمه من مبايعة الحسن بن علي (ر) حيث قال معاوية كما ذكرت من قبل (فإن لم تجدوني خيركم فأننا خير لكم --)

أحوال مصر في العصر الأموي :

نعود مرة أخرى إلي مصر لنتعرف معاً علي أهم وأبرز الأحداث التي تمت فيها خلال العصر الأموي ، وقد ذكرت أن عمرو بن العاص قد تولي للمرة الثانية ولاية مصر عندما سيطر عليها الأُمويون وظل والياً عليها إلي أن مات في عيد الفطر سنة 43 هجراً علي الأصلح فصلي ابنه عليه ثم رجع فصلي الناس صلاة العيد ، ثم ولي مصر بعده عتبة أخو معاوية فبقي سنة ومات فولي مصر مسلمة بن مخلد⁴ ، وبالمناسبة وقبل أن أتكلم معك عزيزي القارئ عن أحوال مصر في العصر الأموي أريد أن أتوقف قليلاً عند وفاة عمرو بن العاص (ر) فلعلك لاحظت أن هذه الشخصية عاشت معنا في هذه الدردشة أربعة فصول كاملة منذ الكلام عن فتح مصر وحتى كتابة هذه السطور ، وكان من الممكن أن يموت عمرو قبل إسلامه وهو في موقف العداء من المسلمين ، وكان أيضاً من الممكن أن يموت ورسول الله صلى الله عليه وسلم علي قيد الحياة أو أثناء خلافة الراشدين عندما كان في قمة عطاءه للإسلام واشترابه في الفتوحات الإسلامية ، ولكن قدر الله له أن يموت

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج3 ص 51

2 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج3 ص 51

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج3 ص 52

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج2 ص 296

في المرحلة الثالثة من حياته وأقصد بها مرحلة النزاع بين الحجاز والشام والفتن والصراعات السياسية وقد وقف في صف معاوية كما ذكرنا ، وسوف أتركك عزيزي القارئ مع عمرو بن العاص نفسه وهو يتكلم عن هذه النقطة في لحظاته الأخيرة في الحياة وهو علي فراش الموت (- -) - - إني كنت علي ثلاث أطباق ليس منها طبقة إلا عرفت نفسي فيها : كنت أول شئ كافرأ وكنت أشد علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو مت حينئذ لوجبت لي النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أشد الناس منه حياء ، ما ملأت عيني منه ، فلو مت حينئذ لقال الناس هنيئاً لعمرو أسلم علي خير ومات علي خير أحواله ، ثم تلبست بعد ذلك أشياء فلا أدري أعلي أم لي - - وعن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر : اللهم أمرت بأمر ونهيت عن أمور تركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا إله إلا أنت - -)¹ وروي أنه قال : اللهم خذ مني حتي ترضي ، وكانت هذه الوقفة عند وفاة عمرو بن العاص الذي أحبه المصريون كثيراً حتي الآن فهو صاحب أول بيت من بيوت الله في مصر وأفريقيا والمعروف حالياً باسم جامع عمرو (الجامع العتيق) في الفسطاط ، اللهم ارحم عمرو بن العاص واغفر له وارض عنه آمين ، نعود مرة أخرى للدردشة عن مصر وأحوالها في العصر الأموي ، فقد ذكرنا أن القبائل اليمنية هي التي كانت تشكل الأغلبية العربية عند فتح مصر في عهد الراشدين وحتى بداية عهد الأمويين ولكن حدث في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان أن زادت هجرة القبائل القيسية إلي مصر (- -) ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام في الدولة كلها إذ كان هشام يرمي إلي إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية - -)² واستمر توافد قيس علي مصر إلي نهاية العهد الأموي ، وهذا الموضوع في الحقيقة يعتبر من أهم الأحداث التي تمت في مصر أثناء العصر الأموي فهي نقطة مهمة في تكوين الشعب المصري بعد فتح مصر ، فهذا الشعب علي مر العصور السابقة قد توافد عليه العديد من الشعوب سواء بالهجرة السلمية مثل الليبيين أو للعمل كجنود مرتزقة وتجار مثل الإغريق ، بل إن الإغريق قد اتخذوا الإسكندرية وبعض المدن الأخرى موطناً لهم وبدأ هذا الخليط من الشعوب يندمج مع الشعب المصري ولكن مع احتفاظ هذا الشعب بعاداته وتقاليده ولغته أيضاً ، ولكن الأمر قد اختلف مع الفتح العربي فقد تغيرت مع الوقت لغة المصريين وتحديثوا باللغة العربية ودخل معظمهم الديانة الإسلامية وشعر المصريون بأن المسلمين لا يعرفون العنصرية أو تغلب جنس علي جنس واحتقار جنس لجنس مثلما كان الرومان وغيرهم من الغزاة يحتقرون الشعوب التي تحت قيادتهم ، ويعتبرونهم اقل شأنأ (- -) فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها علي عكس ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية التي اعتبرت كل من هو غير روماني متبرراً أجنبياً عنها ولا يتمتع بحقوق المواطنة الرومانية التي تتيح لحاملها فقط تولي الوظائف العامة أو الإشتراك في الجيش - -)³ ويقول د محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطي (- -) - - ومما يجدر ذكره أن كلمة وطن في الدولة الإسلامية لم تكن معروفة بالمعني الذي نفهمه في الوقت الحاضر ، ونقصد أن الوطن روابط وجدانية بقدر ما هو أرض جغرافية وحدود سياسية ، فقد عبر مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية عن وحدة الشعوب المختلفة داخل الخلافة الإسلامية ، والوطن والخلافة الإسلامية كانا شيئاً واحداً يجتمع الولاء لهما ، وبذلك صار الوطن لا يعني أكثر من مكان يولد فيه المرء فحسب ، بل هو لجميع المسلمين ، ومما يدل علي ذلك أن المصادر الإسلامية عندما كانت تتناول سيرة شخصية ما ، كانت تقول علي سبيل المثال : فلان القاهري المولد ، الدمشقي الإقامة ، البغدادي الوفاة ، ولا يقال فلان المصري أو الشامي أو العراقي - - - ومن ثم فإن دخول مصر أو غيرها في طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب ، كما كان الحال مع الإمبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وإنما كان معناه أنها جزءاً من هذه الدولة العامة - -)⁴ ، وقد أبقى العرب علي النظم الإدارية التي وجدوها في مصر وغيرها من البلاد لفترة طويلة بل جعلوا للمصريين الوظائف الرسمية في الدولة واكتفي العرب بالقيادة

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 2 ص 299

2 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 ص 57

3 مصر في العصور الوسطي " الأوضاع السياسية والحضارية " (د محمود الحويري) ص 69

4 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) ص 69

العسكرية والدينية كإمامة الصلاة بالطبع ، ومن الأمور الجديرة بالذكر أن عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر في العصر الأموي بني مدينة حلوان وجعلها مقراً له وبني مقياساً للنيل بها كما تم بناء مقياس كبير في الروضة في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وكان اهتمام الولاة بالنيل وأنظمة الري اهتماماً كبيراً ، وعملوا علي زيادة المحاصيل وتشجيع الزراعة والصناعة ، وكانت الجزية التي فرضها المسلمون علي أهل الذمة جزية عادلة كما ذكرنا وتم إعفاء غير القادرين من سدادها كالأطفال والشيوخ والنساء وهناك موقف غاية في الروعة حدث في خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان عندما كان والي مصر أيوب بن شريحيل الذي أرسل إلي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يشكو قلة قيمة الخراج (المال الذي يتم جمعه في مصر) وكان النقص ناتج عن زيادة عدد المصريين الذين أسلموا وبالتالي لم يعد بإمكانه فرض الجزية عليهم واستئذن الوالي الخليفة في أن يفرض جزية علي من أسلم حتي يحافظ علي دخل الدولة ، فرد عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز رده المشهور (- - قبح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عن أسلم ولعمري لعمر أشقي من أن أجل الناس كلهم في الإسلام علي يديه - -)¹ ، ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة القبطية² وكان عمر بن عبد العزيز أول من أمر بأن يتولي المسلمون الوظائف الرسمية في الدولة³ ، وطبعاً هناك العديد من الأحداث التي تمت في مصر خلال العصر الأموي ولا يتسع المقام لذكرها بل اكتفيت بأهمها من وجهة نظري المتواضعة ، وغاية ما يمكن أن يقال عن مصر في العصر الأموي أنها كانت تتمتع بمكانة خاصة عند خلفاء بني أمية حتي أن اختيار الوالي علي مصر كان يتم بعناية فائقة وقد ذكرنا أن الوالي أحياناً يكون ابن الخليفة أو أخوه أو أحد الموثوق بهم واستمر وضع مصر علي هذا المنوال حتي انهيار الدولة الأموية علي يد العباسيين ولكن هذه قصة أخرى سوف نتحدث عنها بمشيئة الله في الفصل القادم ، وبالمناسبة كان آخر خليفة أموي هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقد هرب إلي مصر من العباسيين بعد هزيمة الجيش الأموي أمام الجيش العباسي ولاحقه العباسيون إلي مصر وقتلوه بها وانتهت بذلك الدولة الأموية في الشام ، حيث قام عبد الرحمن الأموي بعد ذلك بتأسيس دولة لبني أمية في الأندلس واستمرت لفترة طويلة من الزمن وكانت معاصرة للخلافة العباسية في بغداد بل وللخلافة الفاطمية بعد ذلك في القاهرة لفترة طويلة من الزمن ، وسوف نستعرض في الفصل القادم إن شاء الله أسباب انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وما واكب ذلك من أحداث وأهم السمات التي تميز كل دولة منهم وعلاقة مصر بكل هذا وكيف أصبحت ولاية عباسية وأحوالها خلال تلك الفترة ، والله الموفق

1 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشبال) ج 1 ص 65
 2 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص 62
 3 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشبال) ج 1 ص 64

20. مصر بين انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

تاريخ مصر أم تاريخ الإسلام :

من المؤكد عزيزي القارئ أنك لاحظت أن هذه الدردشة أصبحت تتناول تاريخ الإسلام بشكل عام أكثر مما تنطرق إلي تاريخ مصر بداية من الفصل رقم 14 الذي عنوانه مقدمات الفتح العربي لمصر وحتى هذا الفصل السابق ، وطبعاً ملاحظتك في محلها ولكن اسمح لي أن أفسر ذلك ، فقد شعرت أن الأحداث التي مرت بها الأمة الإسلامية أحداث قد تكون غامضة بالنسبة لك ومطلوب توضيحها ببساطة ، وهي أيضاً أحداث مهمة وخطيرة وحساسة جداً ، وأعتقدت أنك في حاجة إلي معرفتها بقدر حاجتك لمعرفة تاريخ مصر ، ولكن ليس لديك الوقت أو الفرصة لمعرفة هذه الأحداث التاريخية ولذلك قمت بإيجازها بقدر المستطاع لأن معلومات معظم شباب هذا الجيل عن هذه الأحداث مجرد مقتطفات غير مترابطة من هنا وهناك وقد يقع البعض في حيرة عند سماع أي كلمة تقال عن هذه الفترة وقد ينظر إليها نظرة تؤدي به إلي ما لا يحمد عقباه ، وأنت تعرف بالطبع ما أعني ، وبالتالي كان لابد من تبسيط هذه المعلومات وربطها وتوثيقها بذكر المراجع والكتب التي تناولتها حتي يطمئن القارئ وقد يدفعك الفضول وحب المعرفة إلي محاولة اقتناء أو استعارة هذه الكتب وقراءتها بنفسك ولا أخفي عليك سراً أن هذه الدردشة لها غرض في نفسي وهو أن أدفعك (في صورة استفزاز) إلي قراءة التاريخ بنفسك وأثير فيك الرغبة والشوق إلي معرفته والبحث في المراجع والكتب التاريخية لأنني أعلم جيداً كما تعلم أن هذه الدردشة لا تروي ظمأً أو تشبع جوع من يريد الوقوف علي الحقائق التاريخية بل هي مجرد سرد سريع للأحداث قد يغفل عن الكثير منها وقد يكون هناك معلومات لم أذكرها وتفاصيل مهمة لم أتكلم عنها ولكن حدث ذلك إما لأنني لم أقدر أهميتها أو للعجلة في الكتابة أو للاختصار المبالغ فيه .

بنو العباس وبنو أمية :

عندما تكلمنا معاً عن بطون قريش واستعرضنا ما ذكره العقاد عنهم في كتابه عبقرية خالد رأينا أن أهم ثلاثة بطون في قريش هم هاشم وأمّية ومخزوم ، بل إن هاشم وأمّية يجمعهما جد واحد أقرب من الذي يجمعهما ببني مخزوم وهو عبد مناف وبالتالي يمكن إطلاق اسم بني عبد مناف علي هاشم وأمّية معاً ، بل إن أكبر دليل علي ذلك ما كان يقوله أبو جهل وهو من بني مخزوم ومن ألد أعداء الإسلام ، عندما كان يأنف من مقارنة مخزوم بهاشم وحدها أو أمّية وحدها فكان يتحدث عنهما معاً فيقول ما معناه (- - تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا - - - - حتى كنا كقرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء - - فمتي ندرك هذه) ومن هنا يتضح أن هاشم وأمّية يمكن أن نطلق عليهما بني عبد مناف معاً ، وقد قام الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش بتحليل وتوضيح هذه القبيلة العظيمة وخاصة بني عبد مناف فقال أن الشخصيات البارزة كانت أكثرها من بني عبد مناف (- - - ويمكننا أن نرد أكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات إلي بيتين لعبا أكثر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمّية وبنو هاشم وهما الشعبان النابقتان من صلب عبد مناف ، كان بنو هاشم في مكة سدنة الكعبة وأصحاب السلطة الدينية ، أما بنو أمّية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم - - - وقد كانوا أقدر من بني هاشم علي تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم وقد قوي فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل إلي فاخر العيش - - - والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة - -) ويقول أيضاً عن بني أمّية (- - والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم وتمتع للغلبة والاستعلاء وإحراز الغايات)² ويستمر علي أدهم في وصف بني أمّية ومدى حبهم للسيادة وأهليتهم لها وقدراتهم القيادية فيقول (- - وكانوا علي ما بهم من قسوة وصرامة كرماء خبراء باجذاب القلوب وكأنهم خلقوا بطبيعتهم ليحكموا ويسودوا - - - إلي أن عقت بطون نساءهم عن مثل

1 صقر قريش (علي أدهم) صفحة 75

2 صقر قريش (علي أدهم) صفحة 76

معاوية ومروان وعبد الملك - -)¹ وعندما لم يعد هناك رجال من وزن معاوية وأمثاله في بني أمية بدأت سيطرة الأمويين تضعف مع زيادة الدعوة لبني العباس الذي يصفها علي أدهم فيقول (- -) وأصابت الدعوة العباسية التي نظمت بدقة عظيمة وفطنة ممتازة من ضعف أبناء الأمويين مجالاً للانتشار والاشتداد - -) وفي الحقيقة بني العباس هم أبناء وأحفاد العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالتالي هم من بني هاشم التي أصبحت تنقسم إلي عباسيين وعلويين نسبة إلي علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وهو كما نعلم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمناسبة يمكن القول أن بني العباس الهاشميين وبني علي بن أبي طالب الهاشميين أيضاً يطلقون علي أنفسهم آل البيت نسبة للبيت النبوي الهاشمي ، المهم أصبح الصراع بين بني أمية وبين الهاشميين بفرعيهما عباسيين وعلويين واضحاً ، وكان شعار العباسيين اللون الأسود كما هو معروف وكانوا قد عقدوا العزم علي نزع أمر الخلافة من بني أمية وتم بالفعل مبايعة أبو العباس بالخلافة وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ومشهور بلقب (السفاح) وتمت مبايعته بالكوفة وقد كان العباسيون في ذلك الوقت كما ورد في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة 205 (- -) والله لقد أفضت الخلافة إلي بني العباس وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن ولا أفضل عابداً ولا ناسكاً منهم) ، (- -) قال ابن جرير الطبري : كان بدء أمر بني العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم العباس عمه أن الخلافة تنول إلي ولده ، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك)² وكانت دعوة العباسيين شعارها (الرضا من آل محمد " صلى الله عليه وسلم ") وعندما تم مبايعة أبو العباس (السفاح) في الكوفة صعد أبو العباس علي المنبر في الكوفة وقال (- -) الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه - - - ثم ذكر قرابتهم من رسول الله " صلى الله عليه وسلم " في آيات القرآن - - إلي أن قال فلما قبض الله نبيه قام بالأمر أصحابه " أي الخلفاء الراشدين أصحاب الأمر والأحق به " إلي أن وثب بنو حرب ومروان فجاروا واستأثروا ، فألمي الله لهم حيناً حتي آسفوه فانتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ليمين بنا علي الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله - -)³ وكان بنو أمية قد أصبحوا في حالة ضعف في ذلك الوقت بل إنهم في بداية الصراع لم يقدروا الموقف تقديراً صحيحاً واعتقدوا أن هذه الدعوة العباسية لن يقدر لها النجاح حتي أن أحد قادتهم الذين حاربوا العباسيين طلب المدد من الأمويين فتأخر عليه كثيراً وتمت هزيمته وانسحابه وقيل أنه أنشد أبياتاً من الشعر تؤكد غفلة بني أمية عما يحدث من بني العباس ووصفهم أنهم نائمون رغم أن كل فعل علي حد قوله يسبقه كلام يدل علي قرب حدوثه وقد تبدو النار من خلال الرماد :

أري خلل الرماد وميض نار - - - ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالزندان توري - - - وإن الفعل يقدمه الكلام

وإن لم يطفها عقلاء قوم - - - يكون وقودها جثث وهام

أقول من التعجب ليت شعري - - - أبقاظ أمية أم نيام⁴

ومن هنا يتضح أن الدعوة العباسية ظلت تنتشر وتتوغل في ربوع الأمة الإسلامية دون أن يشعر بأهميتها وخطورتها بنو أمية حتي أطاحت بهم وبدولتهم وجاءت الرايات السود من خراسان لتقضي علي خلافة بني أمية

أسباب الانهيار :

عندما نتحدث عن أسباب انهيار الدولة الأموية في دمشق نجد أن هذه الأسباب قد تعود بدون قصد إلي معاوية بن أبي سفيان نفسه فقد كان بالرغم من أنه مؤسس الدولة الأموية إلا أنه قد وضع بنور الاختلاف ورواها وهذا ما فهمته من رأي العقاد رحمه الله الذي أكد أن معاوية كان يجب سياسة (فرق تسد) معتمداً علي أنه قادر علي احتواء أي موقف والسيطرة

1 صقر قريش (علي أدهم) صفحة 77

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 205

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 206

4 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 4 صفحة 6

علي الجميع ويبدو أنه اعتقد أن كل من سيأتي بعده من خلفاء بني أمية لهم نفس قدرته علي السيطرة واحتواء الأزمات والحفاظ علي شعرة معاوية كما يقال ، ولكن هذا لم يحدث بالطبع ، فقد كان آخر عهد الأمويين يتسم بخلفاء ليسوا علي نفس وزن سابقيهم وبالتالي ظهرت بوضوح نتائج التفرقة دون أن يستطيع أحد منهم احتوائها ومن هنا توغل الضعف في الدولة وقد وجدت الدعوة العباسية في هذا الضعف أرضاً خصبة لتنمو ، ويقول العقاد عن سياسة معاوية (- - - فليس أضل ضلالاً ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدوي وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها ، إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة علي فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضي منهم بالحال أو سكنوا عجزاً منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكنونهم سكنون أيام أو كان سكنون الأعمار والأعوام - - - ولم يقصر هذه الخطة علي ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمدولة التقريب والإقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة ، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفينانيين - -)¹ ، ومن هنا يتضح أن هذه السياسة لا يجرؤ علي مثلها سوي نوع خاص جداً من القادة من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان وبعض أولاده ، أما آخر الخلفاء فلم يتمكن أحدهم من احتواء الخلافات التي هي ثمرة الأشجار التي رويت بذورها في بداية العصر الأموي

العصر الأموي

الصراع :

وبدأ الصراع بين العباسيين والأمويين وكان صاحب الدعوة العباسية والمسئول عنها رجل اسمه (عبد الرحمن بن مسلم وقيل عبد الرحمن بن عثمان بن يسار)² والمشهور بأبي مسلم الخراساني ودائماً يلعب هذا النوع من الرجال دوراً رئيسياً في المساعدة علي تأسيس الدول وإقامة الحكومات فهو شخصية قاسية وقوية يكاد يصل إلي مستوي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لم يعاصره بالطبع ، فقد أصبح أبو مسلم سيف بني العباس كما كان الحجاج سيف بني أمية من قبل ، وهذه الشخصيات بالرغم من أنها شخصيات تتسم بالقسوة والعنف مع خصومهم إلا أنها تأتي في أوقات معينة لتتغير علي يديها الأحوال وكل شئ بأمر الله سبحانه وتعالى ، وما هم إلا أسباب يسببها المولي عز وجل لانهيال دول وقيام دول أخري وسبجان مسبب الأسباب ، وكان أبو العباس أول خلفاء بني العباس يعرف إمكانيات أبو مسلم جيداً ويدرك أن هذا النوع من الرجال لا بد منه في هذه المرحلة الحرجة في تأسيس الدولة بالرغم من أنه كان يحذر منه ولا يأمنه ، وسمح لي عزيزي القارئ أن أتوقف قليلاً جداً عند شخصية أبي مسلم الخراساني الذي أجمع المؤرخون علي أنه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية وصاحب دعوتها

أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية :

ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الرجل ما يؤكد أنه كان شخصية غير عادية فمن ذلك مثلاً كان (- - - فصيحاً بالعربي والفارسي حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمر لم ير ضاحكاً ولا مزحاً إلا في وقته ، ولا يكاد يقطب في شئ من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور وتنزل به الفادحة فلا يري مكتئباً وإذا غضب لم يستفزه الغضب ولا يأتي النساء إلا مرة في السنة - -)³ وحتى لا أطيل عليك سأضرب لك مثلاً واحداً فقط يصف أبا مسلم عندما يعارضه أحد في قوله أو يضعه في موقف محرج أمام الجميع أو يناقشه في كلام لا يعجبه وربما يدل هذا المثل علي الكثير فقد يصل الأمر إلي القتل ، فعندما سأله رجل عن سر اللون الأسود الذي اتخذ شعاراً للدولة العباسية أجابه أبو مسلم بالسبب ثم أمر بقتله وإليك ما ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الموقف (--- روي مصعب بن بشر عن أبيه قال : قام رجل إلي أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد ؟ قال " أبو مسلم " : حدثني أبو الزبير عن جابر أن النبي "صلي الله عليه وسلم" دخل

1 معاوية بن أبي سفيان (العقاد) صفحة 117

2 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 4 صفحة 131

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 4 صفحة 132

مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء ، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ، يا غلام اضرب عنقه - -) وكان أبو مسلم يردد هذين البيتين من الشعر :

ذروني ذروني ما قررت فإنني - - - متي ما أهج حرباً تضيق بكم أرضي
وأبعث في سود الحديد إليكم - - - كتائب سوداً طالما انتظرت نهضي¹

ومن هنا يمكن أن نعرف ملامح شخصية هذا الرجل الذي كان القتل والإطاحة بالمعارضين من أهم صفاته الشخصية كما فهمت مما قرأت عنه وقد حمل هذا الرجل راية العباسيين بكل قوة (- - وسار بجنده إلي الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة 132 هجراً)
المعركة الفاصلة والنهائية في مصر :

وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية علي ضفاف نهر الزاب الأعلى بالقرب من الموصل ، ودارت المعركة الفاصلة في جمادي الآخرة سنة 132 هـ انتهت بانتصار الجيش العباسي وفرار مروان إلي مصر بعد هزيمته في الزاب ووجد أهل الحوف الشرقي والإسكندرية وأهل الصعيد وأسوان قد صاروا من أنصار العباسيين ، غير أن مروان ما كاد يدخل مصر حتي لحقت به جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي وأبي عون عبد الملك بن يزيد ، فلم يستطع مروان مقاومتها ، وعبر إلي الجزيرة بعد أن أحرق الفسطاط ، ثم فر إلي قرية بوضير بالأشمونين (محافظة بني سويف) فلحق به صالح بن علي وقتله في ذي الحجة سنة 132 هجراً (749 م) وبعث برأسه إلي العراق وبذلك شهدت مصر نهاية آخر خليفة أموي وأصبحت ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق² ، وبالمناسبة كان من أسباب نجاح الدعوة العباسية أيضاً أنها كانت تدعو إلي الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم مما جعل المسلمين يقبلون علي المبايعه وكذلك ضمنت الدعوة عدم نفور العلويين منها والذين كانوا علي قوة لا يستهان بها وينتمون أيضاً إلي البيت الهاشمي الكبير ولكن بعد استقرار الأمور للعباسيين نشأت الخلافات مع العلويين وحدثت بينهم أموراً ليس هذا مقام الحديث عنها
المنصور يتخلص من أبي مسلم :

كان أبو العباس هو أول خليفة عباسي كما ذكرنا ثم جاء بعده أبو جعفر المنصور وبالمناسبة كان أبو جعفر لا يأمن مكر أبي مسلم الخراساني وكان ينصح الخليفة أبو العباس دائماً بأن يتخلص منه بأي أسلوب ولكن لم يوافقه أبو العباس علي ذلك فلما مات أبو العباس استطاع أبو جعفر المنصور بعد توليته الخلافة أن يتخلص من أبي مسلم الخراساني بعد أن وضعه في اختبار للطاعة ففشل فيه وعارض الخليفة في ولايته علي ولاية أخرى خلاف خراسان وبذلك أعطي للخليفة العذر والمبرر في التخلص منه لعدم طاعته لأوامره بعد أن قويت شوكته ، المهم وقبل أن أنسي أريد أن أذكر هنا موقف يدل علي مدي إحساس المنصور بخطورة أبي مسلم ، فقد أرسل أبو العباس أخيه المنصور إلي أبي مسلم في خراسان لأمر ما ثم عاد المنصور من عند أبي مسلم وتحدث إلي أبي العباس في شأنه (- ولما رأي أبو جعفر عظمة أبي مسلم بخراسان وسفكه للدماء ورجع من عنده قال لأخيه أبي العباس : لست بخليفة إن تركت أبا مسلم حياً ، قال : كيف ؟ قال : والله ما يصنع إلا ما يريد ، قال : فاسكت واكتمها-)³ ، المهم يا سيدي إن المنصور بعد أن أصبح خليفة قرر التخلص من أبي مسلم وتم ذلك بالفعل ولكن بصعوبة شديدة فهذا الرجل ليس من السهل التخلص منه فقد وضعه المنصور في اختبار للطاعة وأمره بولاية ولاية لا يرغب فيها وانتظر رد فعله ولكنه تأكد من أن هذا الرجل لا يهتم بأوامر الخليفة إذا كانت لا توافق رغبته والله أعلم ، وإلي هنا تنتهي الدردشة عن انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها وتوالي خلفاء بني العباس عليها ، وطبعاً بني أمية أسسوا دولتهم في الأندلس بعد ذلك بقليل علي يد صقر قريش (عبد الرحمن الأموي) الذي لم يلعب نفسه أميراً للمؤمنين ولكن لقب نفسه أمير الأندلس ونشأت هناك حضارة عظيمة كما نعرف كما نشأت أيضاً حضارة عظيمة في بغداد التي أسسها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة له وللخلفاء

1 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 4 صفحة 133

2 مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 84

3 تاريخ الإسلام (الذهبي) ج 4 صفحة 11

العباسيين من بعده ، وعلي العموم سوف نتكلم في الفصل القادم إن شاء الله عن الدولة العباسية وعن أحوال مصر في عهدا وعن أشهر خلفاءها وعن النهضة العلمية والحضارية الكبيرة التي شهدتها الأمة خلال ذلك والله الموفق

21. العصر العباسي الأول وأشهر الخلفاء العباسيين

ملخص العصر العباسي بالكامل :

يمكن تلخيص العصر العباسي من كتاب الدكتور ناصر الأنصاري كالاتي (- -) وأسس العباسيون مدينة بغداد الحالية علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدى إلي ضعف شأن الخلافة إلي أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في 656 هـ / 1258 م)¹ وبالمناسبة حدث أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله ، وتولي حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (96) والياً وبالمناسبة كانت الفسطاط مقر لولاية مصر من عهد عمرو بن العاص إلي عهد أول والي من العباسيين لمدة 113 سنة وسبعة شهور² وكان عدد الولاة بها من عصر الراشدين والأمويين 29 والياً ومن العصر العباسي والي واحد فقط هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ثم تم بناء عاصمة جديدة لمصر شمال الفسطاط أطلق عليها اسم (العسكر)

مدينة العسكر :

ربما كان اتخاذ الولاة العباسيين عاصمة جديدة لهم سببه يعود إلي الحريق الذي أصاب العديد من المباني في الفسطاط والذي أمر به آخر خليفة أموي مروان بن محمد أثناء هروبه إلي مصر ، وربما يكون السبب يرجع إلي العدد الضخم للجنود في الجيش العباسي الذين ضاقت بهم الفسطاط فاضطروا لبناء مدينة جديدة ، وربما يكون السبب أن ولاة بني العباس رفضوا أن يسكنوا نفس العاصمة القديمة للولاة السابقين لهم فكل دولة جديدة لابد لها في أغلب الأحيان من عاصمة جديدة ، وربما تكون كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلي بناء مدينة العسكر (المعسكر) ، المهم إنها أصبحت عاصمة مصر لمدة 118 سنة وسكنها 65 والياً³ من ولاة الدولة العباسية حتي جاء أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية وبني عاصمة جديدة وهي القطائع ولكن هذه قصة أخرى

أشهر خلفاء بني العباس :

تولي الخلافة من بني العباس العديد من الشخصيات البارزة والتي توفيق عندها التاريخ ليكتب الأمجاد والانتصارات التي حدثت في عهد كل منهم فقد كانوا سادة العالم كله ، فقد بلغت حدود الدولة الإسلامية ما لم تبلغه من قبل وكان هؤلاء الخلفاء من القادة المحنكين الأقوياء وبالمناسبة شعر المسلمون بشكل عام بارتياح شديد عند تولي العباسيون الخلافة واستبشروا بعهد جديد يعمه الرخاء والأمان وكان من أشهر هؤلاء الخلفاء أبو العباس أول خليفة وأبو جعفر المنصور من بعده ثم توالي بعد ذلك خلفاء بني العباس ، ولن أستطيع هنا أن أذكر جميع أسماءهم أو جميع ولاة مصر في ذلك العهد ولكن سأكتفي بالكلام عن أشهر الخلفاء مثل أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد والمأمون والمعتمد وهؤلاء سيكونون بالنسبة لك نماذج مختلفة ومشهورة من العصر العباسي وبالتأكيد قد سمعت هذه الأسماء من قبل أو علي الأقل بعضها ، ومن خلال الكلام عنهم سيتضح لك الكثير من المعلومات إن شاء الله عن هذا العصر ، وعلي فكرة العصر العباسي منقسم إلي قسمين ، العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني أما العصر الأول فيتميز بأن الخلفاء كانوا يسيطرون سيطرة فعلية علي الأمة بالكامل ولهم القيادة السياسية والدينية والعسكرية وما إلي ذلك ، أما في العصر العباسي الثاني فقد تحولت الأمة إلي مجموعة من الدول التي يتولي أمرها بعض الملوك والأمراء إذا جاز التعبير وكانوا يحترمون الخليفة العباسي بالطبع ويدعون باسمه علي المنابر كل صلاة جمعة وأصبح لهم استقلال سياسي عن الخلافة ولا تربطهم

1 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 66

2 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 42

3 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 43

بها إلا التقاليد الشكلية فقط واحترام المكانة الدينية لهذا الخليفة الذي أصبح رمزاً لاتحاد الأمة الإسلامية يستمدون من وجوده شرعيتهم في الحكم ، المهم يا سيدي قبل أن نتكلم عن العصر العباسي الثاني وما حدث بعد ذلك من قيام الدولة الطولونية في مصر لا بد أن نذكر أشهر الخلفاء العباسيين وأهم ما دار في مصر من أحداث في العصر العباسي الأول وأحوال المصريين خلاله

أبو جعفر المنصور :

في عهد هذا الخليفة العباسي تم بناء بغداد ، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المنصور ما يلي (- - -) وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً -- ، تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس - -)¹ وتولي المنصور الخلافة في أول سنة 137 هجراً (-) وفي سنة 147 توطدت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيئته في النفوس ودانت له الأمصار ولم يبق خارجاً عنه سوي جزيرة الأندلس فقط فإنها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني لكنه لم يتلقب بأمر المؤمنين بل بالأمر فقط - -)² ويقول السيوطي أيضاً أن في عهد المنصور بدأت الدولة الأموية في الأندلس (التي يسميها السيوطي جزيرة الأندلس) ودامت إلي بعد سنة 400 هـ ، وكان عبد الرحمن الأموي (من أهل العلم والعدل)³ ، ويعتبر المنصور من الشخصيات البارزة التي يندر وجودها في التاريخ فهو من مؤسسي الدول بالفعل وفي عهده بدأ اندماج الحضارة العربية مع باقي الحضارات والثقافات علي عكس الدولة الأموية التي كانت من قبل دولة عربية بحتة إذا جاز التعبير وتبنت سياسة التعريب في الأمة الإسلامية ، أما العباسيين فقد تعرفوا علي باقي الحضارات المختلفة في ذلك الوقت كالحضارة الفارسية مثلاً ، وفي عهد المنصور تم ترجمة بعض الكتب العالمية من لغاتها الأصلية إلي اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس⁴ ونتيجة لاختلاط الثقافات في هذا العصر حدث تطور غير مسبوق في المجالات الثقافية والعلمية في الدولة العربية ، وقد مدح أحد الشعراء المنصور بأبيات من الشعر منها :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم - - - قوم لقيط : اعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم - - - إلي السماء فأنتم أكرم الناس

ويمكن أن نتعرف علي شخصية المنصور ومدى قوتها وإيمانها العميق وقدراتها العالية من خلال أقواله هو نفسه لابنه المهدي وهو ينصحه ، فمن كلام الرجل تعرف ملامح شخصيته ، حيث قال لابنه (- - - يا أبا عبد الله ، الخليفة لا يصلحه إلا التقوي ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولي الناس بالعبو أقدريهم علي العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه - - -)⁵ ، ومن هنا يتضح أن المنصور كان يتحدي من هو في نفس قوته من المعارضين لحكمه حتي سيطر علي كافة أمور الخلافة وجدير بالذكر أن في عهده حدث أول خلاف بين العلويين والعباسيين وكانوا قبل ذلك شيئاً واحداً⁶ علي حد تعبير السيوطي

الخليفة المهدي :

يقول عنه السيوطي (- - - وكان جواداً ممدحاً مليح الشكل محبباً إلي الرعية ، حسن الاعتقاد - - - وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد علي الزنادقة والملحدين - -)⁷ وسوف أذكر لك عزيزي القارئ موقفين اثنين فقط للمهدي قد يعبران عن الكثير من المعلومات عن شخصيته فقد كان عندما يسمع حديثاً شريفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسعه إلا الاقتداء به ويظهر تأثير ذلك عليه ويوضح مدى تقواه وورعه (- - - وأسند عن ابراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة فقال : إن الأرض لله في إيدينا للمسلمين ، فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه علي

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 208

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 209

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 208

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 216

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 211 ، 212

6 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 209

7 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 217 ، 218

كافتهم وفي مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه ، فقال القوم : هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قال : " من أحيا أرضاً ميتة فهي له " وهذه موات ، فوثب المهدي عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ألصق خده بالتراب وقال : سمعت لما قال وأطعت --)¹ أما الموقف الثاني الذي اخترته لك عزيزي القارئ من بين مواقف كثيرة فيدل علي مدي سماحته وحلمه (-- أسند عن أبي عبيدة قال : كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة يوماً ، فقال أعرابي : لست علي طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك ، فأمر هؤلاء بانتظاري ، فقال المهدي : انتظروه ، ودخل المحراب فوقف إلي أن قيل : قد جاء الرجل ، فكبر ، فعجب الناس من سماحة أخلاقه)²

هارون الرشيد :

يقول عنه السيوطي (-- وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج كما قال عنه أبو المعالي

الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده -- -- فبالحرمين أو أقصى الثغور

وكان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلي أن مات لا يتركها إلا لعة ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمان الإسلام ويبغض المرء في الدين والكلام في معارضة النص -- قال عنه أبو معاوية الضرير : ما ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال : صلى الله علي سيدي ، وحدثته بحدثه صلى الله عليه وسلم " وودت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيي فأقتل " فبكي (الرشيد) حتي انتحب³ وكانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حسنها أعراس⁴ ، وكانت دول العالم تهاب الدولة العباسية وكانت هذه السيطرة تتمثل في دفع الجزية إلي الخليفة العباسي وتصب في صالح الأمة الإسلامية وهناك موقف واحد اخترته لك لتتعرف علي عزة المسلمين في ذلك العصر المرتبطة دائماً بمدي تمسك المسلمين بدينهم ، فالإسلام وحده هو الذي أعز الله عز وجل به هذه الأمة ولكن ليس الإسلام الذي يقتصر علي العبادات فقط وإنما الإسلام بمفهومه الشامل الذي يشمل العقيدة والعبادات والمعاملات ، فالمجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان يطبق الإسلام في المعاملات كما كان يطبقه في العبادات ، فنجد ازدهار التجارة والصناعة واتقان العمل والتقدم العلمي في جميع المجالات التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وقد نقل الغرب بعد ذلك أصول العلوم الدنيوية إليهم وقاموا بالاستفادة منها في بلادهم بعد ذلك ، وقد كان علماء الدولة العباسية وعلماء الدولة الأموية في الأندلس علي أعلى مستوي من الثقافة والحضارة والرقي في ظل تعاليم الإسلام الشاملة ، أما الموقف الذي أريد أن أذكره لك فعباره عن وصول ملك جديد للروم رفض أن يدفع المال المفروض عليهم كل سنة وأرسل إلي الرشيد رسالة تحتوي علي هذا المعني وكانت قبله ملكة تقوم بدفع هذه المبالغ المالية التي تعد رمزاً ومثلاً يؤكد قوة الدولة الإسلامية والتي كان يحتاجها العالم كله في ذلك الوقت ويعتمد علي علمها وبضائعها ، المهم يا سيدي إن ملك الروم أرسل هذه الرسالة (-- -- " من نقفور ملك الروم إلي هارون ملك العرب أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت إليك من أموالها أحمالاً وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاررد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك " -- فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً حتي لم يتمكن أحد أن ينظر إلي وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساءه من الخوف واستعجم الرأي علي الوزير ، فدعا الرشيد بدواة وكتب علي ظهر كتابه " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من هارون أمير المؤمنين إلي نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه " -- ثم سار ليومه فلم يزل حتي نازل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحاً مبيناً فطلب نقفور المواعدة والتزم بخراج يحمله كل سنة فأجيب --)⁵

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة 222

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة 222

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة 227

4 تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة 229

5 تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة 230

الخليفة المأمون :

(- -) كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلماً ورأياً ودهاءً وهيباً وشجاعةً وسؤدداً وسماحةً وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن ، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان فصيحاً مفوهاً - -)¹ وكان المأمون أماراً بالعدل فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء² وقد حضر المأمون إلي مصر للقضاء علي ثورة شعبية عارمة ضد الوالي عيسي بن منصور ، وعلي فكرة اشترك في هذه الثورة ضد الوالي العرب والمصريين المقيمين في مصر وليس المصريين وحدهم وسوف نذكر هذا الحدث عندما نتكلم عن أحوال مصر في العصر العباسي إن شاء الله

الخليفة المعتصم :

هذا الخليفة الذي يقال عنه أنه نصر امرأة مسلمة عندما قالت (وامعتصماه) عندما تعرضت لظلم في أحد الدول الأجنبية ، فقد كانت الجيوش تتحرك لتنصر من يقع عليه الظلم من المسلمين في أي مكان ، كما يحدث حالياً عندما يتعرض شخص ما لظلم وهو يحمل جنسية دولة كبيرة مهابة ، والويل كل الويل لمن يؤذي مواطن يحمل جنسية دولة عظمي ، وفي عهد هذا الخليفة تم بناء مدينة جديدة في العراق وهي مدينة (سر من رأي) (سامراء الحالية) وهذه المدينة كانت رائعة الجمال أنفق عليها العباسيون أموالاً كثيرة وأبدع كل من شارك في بناءها ، وأصبحت فخراً للدولة من حيث النظام والجمال والنظافة ، وانبهر بها كل من زارها وأشاد بها وبالحضارة العربية الإسلامية في ذلك الوقت ، وكان المعتصم من أشد الخلفاء علي أعداء الدولة ، كما يبدو من هذا الموقف الذي يرويه السيوطي (- - غزا المعتصم الروم فأنكاهم نكايه عظيمة لم يسمع بمثله لخليفة ، وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف - -)³ وكان بعض المنجمين قد توقعوا هزيمة المعتصم في هذه المعركة فحدث خلاف ما توقعوا ، حتي أن الشاعر الشهير أبو تمام قال في ذلك قصيدة مشهورة يؤكد أن السيف أصدق من كلام المنجمين وكان مطلع القصيدة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب - - - في حده الحد بين الجد واللعب

وقفة تأمل للحروب :

وبالمناسبة كان قتال الروم ومن شاكلهم ليس عملاً من أعمال العدوان الغير مبرر أو لمجرد القتال للقتال أو لأن هؤلاء القوم يخالفون الأمة في الدين ولكن غاية ما يمكن أن يقال في هذا المقام عن حروب المسلمين مع غيرهم من الدول في هذه العصور الإسلامية الأولى ما قاله الدكتور محمد عمارة في كتابه الرائع الإسلام والحرب الدينية فقد توقف الدكتور عمارة عند بعض آيات الجهاد ليوضح أسباب كل موقف علي حدة وأسباب النزول الخاصة بهذه الآيات كالاتي (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193))⁴ يقول د عمارة (- - فالمطلوب هنا ليس قتال " المخالفين " لنا في الدين وإنما قتال " الذين يقاتلون " بين هؤلاء " المخالفين " فحكمة القتال وسببه هو " قتال " هؤلاء المخالفين لنا " وعدوانهم " علينا وليس مجرد " الخلاف لنا في الدين " ذلك أن الإسلام لا ينهي فقط عن مقاتلة المخالفين لمجرد الاختلاف الديني معهم بل إنه يدعو إلي مودتهم والقسط إليهم طالما هم لم يقاتلونا في الدين فإن هم قاتلونا واعتدوا علينا وانتهكوا الحرمات وجب علينا قتالهم - -)⁵ ثم إن هذه الآيات قد نزلت في السنة السابعة من الهجرة ، عندما هم المسلمون أن يدخلوا مكة معتمرين " عمرة القضاء " تلك التي اتفقوا عليها في العام الماضي - عام الحديبية - مع مشركي مكة (- - ويومها خشي المسلمون غدر المشركين وتوجسوا خيفة

1 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 245

2 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 245

3 تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 266

4 البقرة 190 - 193

5 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة 74

من أن يأخذهم المشركون علي غرة - - وأمام تحرج المسلمين من أن يضطروا إلي مقارفة المحظور " القتال في الشهر الحرام بالمسجد الحرام " نزلت الآيات الكريمة تأمرهم بالقتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام إذا بدأهم المشركون بالقتال وحدث منهم العدوان ، ذلك أن مراد المشركين هو " فتنة المؤمنين عن دينهم وهي أشد من القتل وأعظم - -)¹ ، أما عن حروب الفتوحات فيقول عنها د عمارة (- - فهي فتوحات لم تفرض عقيدة الإسلام وإنما امتدت بحدود الدولة السياسية إلي ما وراء شبه الجزيرة العربية وهي قد تركت لأهالي البلاد المفتوحة حريتهم في الاعتقاد ، مسيحيين كانوا أم يهوداً أم مجوساً بل لقد أتاحت لهم من الحريات الاعتقادية والدينية فوق ما كانوا يتمتعون به قبل هذه الفتوحات فقد فرضت علي بعضهم ضريبة زهيدة مقابل إعفائهم من ضريبة الجندية والقتال لأمر اقتضاه أمن الدولة الناشئة - -)² ويعود د عمارة إلي تاريخ الصراع السياسي في الشرق والغرب إلي عهد الإسكندر فيقول (- - وكانت فتوحات الإسكندر قد حسمت إحدي جولات هذا الصراع لحساب الغرب والبيزنطيين وأصبح الفرس عاجزين عن قيادة الشرق في هذا الصراع وعن النهوض بعبء تحرير الشام ومصر والمغرب من سيطرة الروم فكان ظهور الإسلام بما أحدث من آثار سياسية وبما أقام من دولة فتية ، وبما أنجز من وحدة قومية حولت القبائل العربية إلي جيش باسل في القتال - - كان ذلك الظهور للإسلام إيداناً بتولي الجماعة العربية زمام القيادة للشرق في هذا الصراع القديم المتجدد ومن ثم كانت تلك الفتوحات العربية حركة تحرير هذه البلاد المفتوحة من حاميات الروم البيزنطيين ، أعان العرب المسلمين فيها وساعدهم عليها أهل البلاد الأصليين ، مع احتفاظهم بدياناتهم القديمة - - وعلي الجانب الشرقي كان فتح العراق العربي تحريراً له من سيطرة فارسية ظالمة وكان فتح فارس ذاتها إنهاء لنظام اجتماعي فاسد غدا فساده ثغرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة وغدت مظالمه الاجتماعية والعرقية قيداً يحول دون أهل فارس ودون الإبداع الحضاري الذي أهلهم له التاريخ والتراث الذي يملكون - -)³

نظرة عامة علي الخلافة العباسية :

اهتم خلفاء بني العباس بالعلم والثقافة الغير عربية ومما يؤكد ذلك انتشار أعمال الترجمة بشكل ملحوظ للعديد من المؤلفات الفارسية واليونانية إلي اللغة العربية ، كما كانوا يهتمون أيضاً ويحرصون علي أسباب القوة لإحكام السيطرة والدفاع عن الأمة وحفظ هيبتها ، وكانوا يتمسكون بالحكم بما أنزل الله واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم والالتزام بتعاليم الإسلام فقد كانوا يدركون أن الإسلام هو سبب عزة المسلمين ومن يبتعد عن هذه الحقيقة ينحدر إلي مستوي الذل لباقي الدول والأمم الأخرى في العالم ، وقد رأينا في هذا الفصل بعض نماذج من شخصيات خلفاء بني العباس وتعرفنا علي مدي تأثير الدين في سلوكياتهم ، بالرغم من أنهم كانوا يستمتعون بحياتهم الدنيا ويعيشون في رفاهية الحكم ويشاركهم العلماء والندماء والشعراء مجالسهم وينعمون بما وهبه الله لهم من خير ، وهذا للأسف كل ما يذكره عنهم الحاقدون في هذه الأيام حتي أن البعض لا يعرف من أيام هؤلاء الخلفاء العظماء إلا مجالس الدنيا ونعيمها والتي كانت داخل الحدود التي أحلها الله ، وعلي العموم سنعود مرة أخرى إلي الدردشة التاريخية في الفصل القادم إن شاء الله لنتكلم معاً عن أحوال مصر في العصر العباسي والله الموفق

1 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة 75

2 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة 56

3 الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة 57

22. أحوال مصر في العصر العباسي

الإمام الليث بن سعد :

زاد نشاط الحركة العلمية في مصر بشكل ملحوظ في العصر العباسي في مجالات عديدة علي رأسها بالطبع علوم الدين ، حتي أن مصر أصبح بها علماء علي أعلي مستوي مثل الإمام الليث بن سعد (- -) وقد كانت تربط بين الإمام الليث والإمام مالك صلوات من الود وثيقة وقد تبودلت الرسائل بين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية ، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الليث " ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث - - ما أصح حديثه -)¹ وكان الإمام الليث علي قدر كبير من الثراء ، وكان ينفق الأموال في أوجه الخير وكان كريماً جداً (- -) وكان الليث بعلمه وكرمه ذا شخصية فذة في المجتمع المصري فكان الأمراء يجلونه ويرجعون إلي رأيه دائماً وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فاعتذر - -)² ومن أقوى الأدلة علي نفوذ وشهرة الإمام الليث واجتماع الناس حوله في مصر ، أن أرسل أحد الحاقدين عليه إلي الخليفة المنصور يحذره من زيادة نفوذ الإمام الليث في مصر حتي أنه أصبح كما لو كان أميراً لها ووالياً عليها أمير المؤمنين تلاف مصرأ - - - فإن أميرها ليث بن سعد

انتشار اللغة العربية في مصر :

يعتبر انتشار اللغة العربية في مصر ظاهرة ملفتة للنظر كما يقول د محمود الحوييري (- -) فإن الشعوب التي توالى علي مصر قبل العرب مثل الفرس والآشوريين والإغريق والرومان لم تستطع - كما ذكرنا من قبل - القضاء علي لغة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ، فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية فيما بعد في العصر العثماني لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصري - -)³ ومن هنا يتضح أن أي لغة يتم فرضها كلغة رسمية للبلاد لا يتقبلها الشعب المصري لمجرد أنها لغة رسمية وإنما تقبل اللغة العربية لأسباب أخري ، فقد كان اليونانيون مثلاً يعيشون في مدنهم بمصر (- -) كأنها جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع وكذلك عاش العثمانيون في بيئات خاصة في مصر وعجزوا عن جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية علي الرغم من أنهم كانوا مسلمين ودام ملكهم عدة قرون - -)⁴ ويعتبر الإسلام هو أحد الأسباب الرئيسية لتعلم اللغة العربية حتي يستطيع الناس قراءة القرآن ومعرفة أحكام الدين

اختلاط العرب بالمصريين :

استمر العرب في مصر يعملون كجنود في الجيش الإسلامي يقومون بالفتوح الإسلامية حتي كثر عددهم وتوالى هجرتهم فاشتغلوا في الرعي ثم بالزراعة واختلطوا بالأهالي (- -) حتي كان عهد الخليفة العباسي المعتصم وكانت أمه تركية فاستكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة ثم لم يلبث أن أرسل كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر - -) وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك - -) ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي⁵ (- -)⁶ ومن هنا تم الاختلاط الفعلي بين العرب والمصريين في جميع المجالات تقريباً (- -) ولم يكد يبدأ القرن الرابع الهجري حتي كان في مصر شعب جديد - هو خليط من الشعبين العربي والقبطي يدين معظمه بالدين الإسلامي ويتكلم السواد الأعظم منه مسلمين وأقباط باللغة العربية -)⁷ ، (-) وبعد أن تم الاندماج بين العرب والمصريين أصبح الكل مصرياً عربياً إذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا وفي خلال ذلك برزت كلمة قبط أو أقباط بمعني المصريين الذين ظلوا علي دينهم المسيحي أو المصريين المسيحيين ، وعلي أية حال وجدت مصر في الإسلام شخصيتها فانسابت في مجراه في

1 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) الجزء الأول صفحة 83

2 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) الجزء الأول صفحة 83

3 مصر في العصور الوسطى (د محمود الحوييري) صفحة 70

4 مصر في العصور الوسطى (د محمود الحوييري) صفحة 70

5 لاحظ معي عزيزي القارئ أن ابتعاد العرب عن الجيش وكذلك المصريين سيؤدي إلي ظهور قادة في الجيش من العجم والموالي وبالتالي سيصبحون بعد ذلك أولي الأمر في العالم الإسلامي كله كما سنري وسيصبحون ملوكاً وسلطين أيضاً لقد تخلي العرب عن صدارتهم للعالم الإسلامي في مجالات عديدة ومنها المجال العسكري

6 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) الجزء الأول صفحة 58

7 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) الجزء الأول صفحة 63

هدوء ومارست شئون حياتها سواء من أسلم من أهلها ومن لم يسلم تحت جناح الحضارة العربية الإسلامية ولم يترك بها الرومان والبيزنطيون إلا صفحات من تاريخ انطوي واندثر - -)¹
العلويون في مصر :

(- -) من المعروف أن العلويين ناصبوا الأمويين العدا ، وأشعلوا ضدهم عدة ثورات ولم يكفوا عن المطالبة بحقهم في الخلافة ولما آلت الخلافة إلي العباسيين عارضهم العلويون واعتبروهم مقتصبين للخلافة شأنهم شأن الأمويين علي الرغم أن البيت العلوي والبيت العباسي ينتميان لبيت واحد وهو البيت الهاشمي -)² ، (-) ومما يستلفت النظر أن كثيراً من العلويين قد لجأوا إلي مصر فراراً من اضطهادات ومضايقات الخلفاء العباسيين ، ومن أتى إلي مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أتت مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق -)³ وتوفت سنة 208 هجراً (823 م) ، (-) وما زال العلويون بمصر ينعمون بالأمن بعيداً عن الخلافة العباسية في بغداد إلي أن جاءت خلافة المتوكل علي الله العباسي - - فأرسل كتاباً إلي والي مصر اسحق بن يحيى الختلي يأمره بإخراج آل أبي طالب من مصر إلي العراق - - أما من بقي في مصر من العلويين فقد اضطروا إلي الاختفاء بعيداً عن أنظار العباسيين -)⁴ لقد كان المصريون وما زالوا من أكثر الشعوب الإسلامية حباً لآل البيت
الثورات التي حدثت في مصر :

علي فكرة أنا نسيت أكتب عن الثورات التي حدثت في مصر في العصر الأموي وعلي العموم ممكن نتكلم عن الثورات بشكل عام في هذه الفقرة بإيجاز سواء في العصر الأموي أو العباسي ، وأول ثورة قامت في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي كانت سنة 107 هجراً في العصر الأموي (-) كان والي علي مصر من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحجاب فكتب إلي هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد علي كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر - -)⁵ وتوجه والي إلي أماكن الثورة وقضي عليها أما الثورة الثانية فكانت في الصعيد فقط وكانت سنة 121 هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية علي مصر من قبل هشام بن عبد الملك وتم القضاء عليها أيضاً⁶ وآخر ثورة في العصر الأموي كانت سنة 132 هـ وقامت عند حضور آخر خليفة أموي إلي مصر (مروان بن محمد) وكان مقر الثورة في رشيد وأرسل مروان من قضي عليها ، كما حدثت بعض الثورات في العصر العباسي وكان أكبرها وأقواها الثورة التي كانت في عهد الخليفة المأمون
حضور المأمون إلي مصر :

(-) وفي سنة 216 هـ في ولاية عيسى بن منصور علي مصر من قبل الخليفة المأمون ، ثار سكان أسفل الأرض " الوجه البحري " - عرباً وقبطاً - وكان سبب الثورة - كما يذكر الكندي " سوء سيرة العمال فيهم " وبذل والي عيسى بن منصور والقائد العباسي الأفشين جهدهما لإخضاع الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور - من جمادي الأولي إلي ذي الحجة من سنة 216 هـ - حتي اضطرت الخليفة المأمون أن يأتي إلي مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة ، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما والي عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد -)⁷ وعلي فكرة هل تتذكر ما قاله المأمون عن مصر وعن بغداد عندما حضر إلي مصر ، فقد ذكرت هذا الموقف في مقدمة الدردشة عندما تعجب المأمون من اعتزاز فرعون بمصر وجمالها وتصور المأمون أن فرعون إذا رأى بغداد وروعها لما

1 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 72 ، 73

2 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 84

3 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 86

4 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 86

5 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 59

6 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 60

7 تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 61

قال ذلك عن مصر ورد عليه من في صحبته كما ذكرنا في مقدمة هذه الدردشة ويمكنك عزيزي القارئ العودة إليها إذا أردت صفحة 3 ، 4 من هذه الدردشة

نهاية عصر الولاة (نظرة عامة) :

أطلق المؤرخون علي الفترة بين ولاية عمرو بن العاص لمصر وحتى تأسيس الدولة الطولونية فترة " عصر الولاة " سواء كان هؤلاء الولاة تم تعيينهم من الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة أو من الخلفاء الأمويين بدمشق أو من الخلفاء العباسيين ببغداد ، لأن بعد ذلك تم قيام دول مستقلة في مصر ولا يربطها بالخلافة سوي الانتماء الديني فقط تقريباً ، حيث كان حاكم مصر سواء كان أميراً أو ملكاً أو سلطاناً لا يتم عزله أو تعيينه بواسطة الخليفة وبالتالي فهو ليس والياً قابل للعزل بل أصبح في مصر دولاً مثل الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم جاء الفاطميون بعد ذلك واتخذوها مقراً لخلافتهم الشيعية ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ثم المماليك وهكذا ، وبالتالي كانت تسمية عصر ما قبل الدولة الطولونية بعصر الولاة تسمية حقيقية ، وقد ذكرنا بشكل عام وموجز أهم الأحداث التي دارت في مصر خلال عصر الولاة والتغيرات الجوهرية التي أثرت في الشعب المصري ديناً ولغة وثقافة ويمكن أن ننهي الكلام والدردشة عن هذا العصر المسمى بعصر الولاة ببعض مقتطفات من كتاب الدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج (جامعة جنوب الوادي) حيث ذكر في كتابه مصر في العصور الوسطي الذي تناول فيه دراسة الأوضاع السياسية والحضارية ما يلي : (- -) تولي حكم مصر في أعقاب الفتح العربي لها ولاة كانوا يعينون من قبل الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد ، وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفتح مصر عمرو بن العاص حتي قيام الدولة الطولونية سنة 254 هـ "868م" بعصر الولاة وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو استبد بأهلها عزله الخليفة وأتي بغيره طبقاً لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له ، ولهذا كان الولاة أو علي وجه الدقة معظمهم ، يحرصون علي استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع علي الشعب المصري الذي ارتضي الإسلام ديناً وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح -)¹ ، (- -) وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية ، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا علي زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري - -)² ، (- -) ويلاحظ أن الصناعة في مصر في عصر الولاة كان يقوم بها القبط ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا علي دينهم والذين أسلموا - -) لأن العرب في أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب - -)³ ، (- -) وقد لقيت التجارة في مصر بعد الفتح العربي لها العناية اللازمة نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة علي وجه الخصوص -)⁴ (- -) وقد ظهر في القرن الثاني الهجري مذهباً أبي حنيفة المتوفى سنة 150 هـ "767م" ومالك المتوفى سنة 179 هـ "795م" فانحاز إلي كل مذهب فريق من المسلمين وكذلك كان الحال في مصر - - -) حتي وفد علي مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعي وقد ولد الشافعي بغزة سنة 150 هـ "767م" ونشأ بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع والموطأ وهو ابن عشر ثم أتى إلي مصر وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفي بها سنة 204 هـ "819م" -)⁵ (- -) وكانت مصر رائدة التصوف في العالم الإسلامي فقد ظهر في عصر الولاة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري المعروف بذي النون ، وقد ولد ذو النون بأخميم " بمحافظة سوهاج " ويجعله كثيرون نوبي الأصل وروي عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم وكان أوحد وقته عالماً وورعاً وحلماً وأدباً وهو أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها في مصر - - -) وقد أنكر عليه بعض أهل مصر ما جاء به من التعاليم الصوفية وقالوا : أحدث عالماً لم تتكلم فيه الصحابة " وسعوا به لدي الخليفة العباسي المتوكل ورموه بالزندقة عنده ، فأحضره من مصر ،

1 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 68

2 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 90

3 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 91

4 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 91

5 مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 95

فلما دخل عليه في سامراء وعظه فبكي المتوكل ورده مكرماً ، وتوفي بالجيزة في سنة 245هـ "860م" ¹ - ، (- والواقع أن مصر في عصر الولاة قد شهدت نشاطاً علمياً بارزاً نهض به علماء مصريون وغير مصريين ، وصارت مصر مركزاً اجتذب إليه العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة من بلاد المغرب والأندلس -) ² ، وعلي فكرة يا عزيزي القارئ هذه المقتطفات من كتاب الدكتور محمود الحويري عن عصر الولاة لا تشيع حبك لمعرفة ما دار في مصر من أحداث في هذا العصر ولذلك أنا أدعوك لقراءة الكتاب بالكامل (مصر في العصور الوسطى) للدكتور الحويري حتي تستمتع بما فيه من معلومات قيمة ومفيدة ، أما ما جاء في هذه الدردشة فمجرد معلومات سطحية جداً تتسم بما يتسم به سياق الدردشة العاجلة التي تعودنا عليها ، والآن عزيزي القارئ حان الوقت للدردشة عن العصر العباسي الثاني وقيام الدولة الطولونية في مصر في الفصل القادم إن شاء الله

1 مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 96
2 مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 97

23. العصر العباسي الثاني وقيام الدولة الطولونية

ضعف العباسيين :

مشكلة كبيرة جداً تحدث في أي دولة عندما تعجز أرحام النساء عن ولادة القادة العظماء الموهوبين والمشكلة الأكبر هي سيطرة الوزراء علي الأمراء وانتشار عناصر أجنبية في الجيش تهيمن عليه ، فهكذا عزيري القارئ ذهب فحول بني العباس وعظماهم وأتي الضعفاء إلي الحكم ليسيطر عليهم الأتراك ويلعبون بهم وتتحول الأمة إلي مجموعة من الدول تخضع كل منها إلي أمير قوي يورث الحكم لأولاده من بعده وبالرغم من اعتراف هؤلاء الأمراء في دولهم بالخليفة العباسي وإعطاءه حقه من التقدير والمكانة الدينية إلا أن الخلافة قد أصابها الضعف وفقدت السيطرة نسبياً علي معظم أنحاء العالم الإسلامي ، ويقول د محمود الحويري في هذا المعني (- -) وقد اصطلح المؤرخون علي تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلي عصرين متميزين ، العصر العباسي الأول ، وقد استمر مائة عام " 132-232هـ / 749-847م " وتميزت فيه الدولة العباسية بالقوة ، وكانت حكومة بغداد حكومة مركزية ، والخليفة يحكم دولته حكماً مطلقاً ، أما العصر العباسي الثاني " 232-656هـ / 847-1258م " فمن أهم مميزات أن المركزية لم يعد لها وجود ، بمعني أن الخليفة العباسي لم يعد صاحب السلطة المطلقة في دولته ، بل انقسمت الدولة إلي دول مستقلة تخضع للخليفة العباسي خضوعاً اسمياً ، وفي العصر العباسي الثاني استفحل نفوذ الأتراك في الدولة العباسية ، واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين ، وصاروا لا يولون إلا الخلفاء الضعفاء حتي يكونوا أعبوة في أيديهم ولا حول لهم ولا قوة - -)¹

العرب خارج الجيش :

ولعل من أخطر الأحداث تأثيراً هو استبدال الجنود العرب بجنود أتراك وقد لاحظنا من قبل في هذه الدردشة أن أي دولة تعتمد في حروبها علي عناصر أجنبية يصل بها الحال إلي سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم وطبعاً مع فارق التشبيه يمكن أن نتذكر معاً ما حدث عندما استعان الفراعنة بالمرتزقة الليبيين والإغريق ، فبالرغم من دخول الليبيين والإغريق الديانة الفرعونية في ذلك الوقت إلا أنهم سيطروا علي مقاليد السلطة بالبلاد وصار مصيرها بين أيديهم ، وطبعاً مع الفارق الكبير بين هذا المثال وبين ما نحن فيه ، لأن الجنود في الجيش الإسلامي كانوا مسلمين والإسلام دين شامل وللعالم أجمع ويستوعب جميع الجنسيات ، ولكن كان يجب الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيسي في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس ، وقد اصطفى المولي عز وجل العرب من دون الناس لبعث منهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع ، وقد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة (- -) ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر " 217هـ-219هـ " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي ، ولما ولي أحمد بن طولون علي مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة علي أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق)² ، وفي الحقيقة أريد أن أذكر لك عزيري القارئ بعض النماذج القليلة لخلفاء بني العباس في فترة الضعف التي شهدتها دولتهم قبل أن نتحدث عن قيام الدولة الطولونية في مصر

المهتدي بالله :

تولي المهتدي بالله الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين " الخليفة رقم 33 " من سنة 255 هـ إلي سنة 256 هـ أي ما يقرب من سنة واحدة ومات مقتولاً علي يد الأتراك ، والمهتدي بالله هو ابن الخليفة الواثق بالله ابن الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد ، وقد ورد عنه في كتاب تاريخ الخلفاء أنه كان خليفة صالحاً زاهداً (- -) ورعاً ، متعبداً ، عادلاً ، قوياً في أمر الله

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 101
² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج 1 صفحة 58

، بطلاً ، شجاعاً لكنه لم يجد ناصرًا ولا معيناً - -)¹ وكان هذا الخليفة يحاول التشبه بالخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي الزاهد ، وأحب أن يكون في بني العباس من هو زاهد مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وكان الأتراك في عهده قد بلغوا من النفوذ ما جعلهم يسيطرون علي مقاليد الحكم بل ويهددون الخليفة نفسه ، ويروي السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن المهدي بالله عندما أرادوا خلعه من الخلافة وتعرضوا له (- -) فخرج إليهم المهدي من الغد متقلداً بسيفه ، فقال : قد بلغني شأنكم ، ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت ، وهذا سيفي ، والله أضرب به ما استمسكت قائمته بيدي ، أما دين ؟ أما حياء ؟ أما دعة ؟ لم يكن الخلاف علي الخلفاء والجرأة علي الله ؟ - -)² ، المهم يا سيدي إن الأتراك قتلوه في النهاية بعد عدة خلافات وصراعات وقد تأثر الناس بموته وكانوا قد رفضوا ما يفعله الأتراك به (- -) وكان لما قامت الأتراك عليه ثار العوام ، وكتبوا رقاعاً وألقوها في المساجد : يا معشر المسلمين ، ادعوا الله لخليفكم العدل الرضا المضاوي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله علي عدوه - -)³ وتولي الخلافة بعده المعتمد علي الله ابن المتوكل ابن المعتمد ابن الرشيد من سنة 256 هـ إلي سنة 279 هـ

المعتمد على الله :

وفي أيام هذا الخليفة حدث الكثير من الأمور الخطيرة مثل ثورة الزنج وهزات وزلازل أرضية ومات الكثير من الناس أثناء ذلك (- -) وفي سنة احدى وستين "261هـ" بايع المعتمد بولاية العهد بعده لابنه المفوض إلي الله جعفر ثم من بعده لأخيه الموفق طلحة ، وولي ولده المغرب والشام والجزيرة وأرمينية ، وولي أخاه المشرق والعراق وبغداد والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والري وخراسان وطبرستان وسجستان والسند⁴ ، وعقد لكل منهما لواءين أبيض ، وأسود ، وشرط إن حدث به حدث أن الأمر لأخيه إن لم يكن ابنه جعفر قد بلغ وكتب العهد وأنفذه مع قاضي القضاة ابن أبي الشوارب ليعلقه في الكعبة - -)⁵ ، وكان " الموفق " أخو الخليفة " المعتمد " هو المسيطر الحقيقي علي الدولة وكانت كلمته نافذة علي الجميع تقريباً ، وفي أيام المعتمد قامت الدولة الطولونية في مصر

ابن طولون يتولى حكم مصر بالإنابة :

وصلنا في هذه الدردشة إلي رجل من الشخصيات البارزة (مؤسس الدولة) الذين طالما تحدثنا عنهم كثيراً في هذه الدردشة والذين عندما يحضرون إلي مصر ينظرون إليها نظرة مختلفة ويستطيعون إخراج ما بها من إمكانيات غير عادية فهم شخصيات غير عادية بالفعل ، وأصل الحكاية إن الدولة العباسية كانت في هذا العهد كما يقول د محمود الحويري (- -) كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك في صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة ، لكن هؤلاء المقطوعين كانوا لا يفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة ، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم في حكم مصر ، ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلي مصر سنة 254 هـ "868م" أحمد بن طولون وهو من المماليك الأتراك الذين نشأوا في البلاط العباسي - -)⁶ ، (- -) وقال عنه المقرئ : وكان قد نشأ نشوءاً جميلاً وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلي طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم ، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة ، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بأدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله ، حتى تمكن له في قلوب الأولياء ، ما ارتفع به علي طبقته وبان فضله علي وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به - -)⁷ واستطاع أحمد بن طولون التخلص من منافسيه وأصبح له السلطة المطلقة في مصر بلا منازع وبهذا كان حكمه نهاية لما يسمى بعصر الولاة الذي تكلمنا عنه من قبل ، فقد قام ابن طولون بتوريث حكم مصر لأولاده من بعده وقام بإنهاء حالة الفوضى والاضطراب التي كانت موجودة في مصر (- -) والواقع أن نظام الولاية في مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن

¹ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 286

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 287

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 287

⁴ لاحظ عزيزي القارئ كل هذه البلاد التي كانت تخضع للدولة العباسية في ذلك الوقت

⁵ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 289

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 101

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 102

كله قائماً علي الفوضى والاضطراب ، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربي لها إلي قيام الدولة الطولونية ولاية معظمهم من الأكفاء ، عملوا علي إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقاً لمبادئ الإسلام ، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة علي نحو ما ساد في العصرين الروماني والبيزنطي ، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية ، لا يشكون في غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أجنبي بغيض -¹



جامع ابن طولون

استقلال مصر :

أما الاستقلال الذي قام به ابن طولون بمصر فهو ليس استقلالاً بالمعني الشائع لهذه الكلمة في هذه الأيام ، واسمح لي عزيزي القارئ أن أوضح معني استقلال مصر كدولة طولونية كما ورد في كتاب د محمود الحويري (- الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكماً شرعياً علي البلاد التي يحوزها ، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية - - - وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها - - -² ، - - - ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيراً عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخرى - - -³

الخليفة يحاول الهرب إلي ابن طولون :

عندما زاد الأمر عن الاحتمال بين الخليفة " المعتمد " وأخيه " الموفق " الذي استبد بالحكم وسيطر علي أخيه الخليفة ، فكر المعتمد في الهروب إلي مصر وشجعه ابن طولون علي ذلك فقد كان حدوث ذلك بمثابة مكسب كبير لأحمد ابن طولون ولمصر وهو أن تصبح مصر مقراً للخلافة العباسية ، وقد كان ابن طولون علي علاقة سيئة بالموفق وكان يحاول أن يعيد

¹ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 103

² مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 103 ، 104

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 104

للمعتمد سلطاته في الخلافة المحجور عليها ، ولكن للأسف الشديد استطاع الموفق أن يكتشف محاولة هروب الخليفة إلي مصر وقام بإحباط المحاولة ، وكان ابن طولون قد أرسل إلي المعتمد رسالة يقول فيها (- -) قد منعتي الطعام والشراب والنوم خوفاً علي أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ماله في عنقي من الأيمان المؤكدة ، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد وأنا أري لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلي مصر ، فإن أمره يرجع بعد عهد الامتهان إلي نهاية العز ولا يتهيأ لأخيه فيه شئ مما يخاف عليه منه في كل لحظة -¹) ، وعلي فكرة عندما فشلت محاولة هروب المعتمد إلي مصر قام الموفق أخوه بتحديد إقامته حتى أن المعتمد عندما طلب مبلغاً قليلاً جداً من المال لشراء بعض ما يحتاجه أو ما إلي ذلك لم يعطه أحد شئ ، حتى أنه تعجب من ذلك وقال شعراً :

أليس من العجائب أن مثلي - - - يري ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً - - - وما من ذاك شئ في يديه

إليه تحمل الأموال طراً - - - ويمنع بعض ما يجبي إليه²

وعندما علم ابن طولون بما حدث غضب غضباً شديداً من الموفق وحدثت العديد من المشاكل بينهما ولكن حاول الموفق أن يرضي أحمد ابن طولون بعد ذلك وخفف الرقابة علي الخليفة

أهم الأحداث في أيام المعتمد :

والجدير بالذكر أن في أيام المعتمد ظهر في اليمن رجل اسمه المهدي عبيد الله بن عبيد وهو من الشيعة ويعتبر جد الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر بعد ذلك وأسسوا خلافة شيعية فيها ، ويقول عن ذلك الإمام السيوطي (-) وفيها ظهرت دعوة المهدي عبيد الله بن عبيد جد بني عبيد خلفاء المصريين الروافض في اليمن ، وأقام علي ذلك - - -³) ويقول أيضاً السيوطي عن أحداث هذه السنة (-) - وفيها نازلت الروم طرسوس في مائة ألف فكانت النصر لل مسلمين ، وغنموا ما لا يحصي ، وكان فتحاً عظيماً عديم المثل - (-)⁴ وظهر أيضاً في عهد المعتمد قوم يطلق عليهم القرامطة وكان لهم أمور وأحداث كثيرة بعد ذلك وقد كانوا علي مذهب غير صحيح كما يقول السيوطي (-) وهم نوع من الملاحدة يدعون أنه لا غسل من الجنابة وأن الخمر حلال - (-)⁵ ، وقد حدث أن الموفق ضغط علي أخيه الخليفة المعتمد علي أن يجعل ولاية العهد لابن الموفق وليس لابن المعتمد وقد كان ، وعلي فكرة لقب ابن الموفق " المعتضد بالله " وقد مات الموفق والمعتمد وتولي المعتضد الخلافة بالفعل ، وجدير بالذكر أن في أيام المعتمد مات العديد من أشهر علماء المسلمين كالبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم رضي الله عنهم وكانوا قد كتبوا العديد من الكتب في الحديث والعلوم الدينية وأفادوا الناس بعلمهم

المصريون يحبون ابن طولون :

اكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ، كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين"⁶ وسوف أذكر لك عزيزي القارئ موقف واحد فقط عن أحمد ابن طولون يؤكد مدي حب الجميع له في مصر ، فعندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (-) - خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له - (-)⁷ مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أحسن الأيام التي مر بها المصريون في ذلك الوقت وسوف نتحدث في الفصل القادم إن شاء الله عن أحوال مصر في عصر الدولة الطولونية إن شاء الله فإلي اللقاء

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 108

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 289

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 290

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 290

⁵ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 290

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 109

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 109 ، 110

24. أحوال مصر في العصر الطولوني ثم انهيار الدولة الطولونية

ملخص العصر الطولوني :

حكم أحمد ابن طولون وأولاده مصر لمدة 38 سنة تقريباً¹ فكانت فترة حكم أحمد ابن طولون من سنة 868 م إلي سنة 884 م ثم جاء ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وحكم مصر من سنة 884 م إلي سنة 896 م ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون لمدة أيام قليلة ثم هارون بن خمارويه من سنة 896 م إلي سنة 904 م ثم شيبان بن أحمد بن طولون في ديسمبر 904 م ولم يحكم إلا أياماً² ، ولاحظ معي عزيزي القارئ أن فترة أحمد بن طولون وابنه خمارويه تقريباً هي الفترة المستقرة نسبياً في عصر الدولة الطولونية أما بعد ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات في الدولة الطولونية ويؤكد هذه الاضطرابات قصر فترة حكم باقي الطولونيين بل إن أحدهم تم خلعه من الحكم بواسطة الجيش ، كما انتهت حياة هارون بن خمارويه بالقتل ولم تدم فترة حكم شيبان بن أحمد بن طولون إلا أياماً معدودة وكل هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الملوك والقادة الأقوياء يؤسسون الملك وأولادهم وأحفادهم الضعفاء يضيعونه ولعلك عزيزي القارئ قد سئمت هذه المقولة من كثرة تكرارها في هذه الدردشة ، ولكنها للأسف أحداث نمر بها في التاريخ وكلها تؤكد هذا المعنى

القطائع عاصمة جديدة لمصر :

كانت الفسطاط عاصمة مصر منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى تأسيس مدينة العسكر التي اتخذها العباسيون عاصمة لمصر كما ذكرنا من قبل ، ثم جاء احمد بن طولون وأسس عاصمة جديدة لدولته الجديدة وكانت معروفة باسم القطائع لأنها مقسمة بين الجنود ، ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع (- - لما ولي أحمد بن طولون علي مصر ، اتخذ لنفسه جيشاً كبيراً كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاقت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبنها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم - - وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه - - وجعل بين القصر والمسجد ميداناً كبيراً لسباق الخيل وعرض الجند -)³ وقد تم بناء القطائع وما بها من منشآت علي طراز مدينة سامراء التي بناها العباسيون في العراق ، حتي أن مؤنذة الجامع الشهير الموجود إلي الآن تشبه مؤنذة جامع مدينة سامراء ، وكان بالقطائع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (- - وتزايدت العمارة حتي اتصلت بالفسطاط وصار كل بلداً واحداً -)⁴ ، أي أن الفسطاط والعسكر والقطائع حدث بينهم اندماج وأصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبيرة وعامرة وظلت القطائع عاصمة للدولة الطولونية إلي أن تم اقتحامها بواسطة الجيش العباسي عندما انهارت الدولة الطولونية سنة 904 م وعادت للفسطاط مكانتها ومركزها كعاصمة لمصر للولاية العباسيين ، ويقول عن القطائع الكاتب الكبير محمود السعدني في كتابه الممتع " مصر من تاني " (- - ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع واستخدموا في بناء دورها وقصورها حجارة الهرم الأكبر ظناً منهم أن القدماء قد قاموا " بتشوين " هذه الحجارة علي شكل أهرامات تمهيداً لبناء مدينة ، ولما كانت القطائع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بغم الخليج - -)⁵

أحوال مصر في العصر الطولوني :

ازدهرت الحالة الاقتصادية في مصر في عهد هذه الدولة (- - أجمعت المصادر علي اهتمام الطولونيين بتقديم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل علي ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر

¹ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 78

² موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 79

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

⁵ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 24

أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل - -)¹ كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفى كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان (- -) ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفى وكان ابن طولون يتفقد المستشفى ويتابع علاج الأطباء ويشرف علي المرضى -)² ، كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول محترم وأنشأ مراكز حربية متقنة الصنع ، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر³ وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة (- -) حيث سكت الدينار ذات المستوي الرفيع في النقاء -)⁴ وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة (- -) فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر ومنها إلي مواني إيطاليا وفرنسا وأسبانيا -)⁵ ، كما كان في مصر في هذا العهد أيضاً العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية (التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري - -)⁶ وعلي فكرة قام ابن طولون بتوسيع نطاق حكمه وضم إلي مصر ليبيا والشام والنوبة وشعر الناس بالرفاهية والرخاء في عهده وتفوقت مصر مادياً ومعنوياً علي باقي أنحاء الأمة الإسلامية

وجاء خمارويه بن أحمد بن طولون :

أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تائراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما (- -) ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف -)⁷ ، وكان الخليفة المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق ، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (-) زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهازها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس -)⁸ ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقييم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة (-) مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة 282 هـ (مايو 895 م)⁹ وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتى انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (-) فلما مات مات دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد -)¹⁰

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 115

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 114

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 117

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 117

⁵ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 117

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 120

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 111

⁸ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 111

⁹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 111

¹⁰ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 25

انهيار الدولة الطولونية :

سادت الفوضى بعد موت خمارويه وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها ، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدى إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر عندما وصل بها الحال إلي ما ذكرناه من ضعف وفوضى واضطرابات¹ ، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو المكتفي بالله ابن المعتض بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلي مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء علي الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحراً وبراً وقام القائد العباسي محمد بن سليمان بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلي الآن والذي يعتبر الشاهد الوحيد علي مدينة القطائع وحضارتها وجمالها ، وجدير بالذكر أن هناك مقولة لست متأكداً من صحتها ولكنني سمعتها في أحد البرامج الإذاعية التي تتناول تاريخ المساجد في مصر حيث قيل أن أحمد ابن طولون بعد أن تم له بناء المسجد رأي رؤيا وهو نائم أنه خير اللهم اجعله خير رأي مدينة القطائع كلها منورة عدا الجامع فقط هو المظلم ، وكان تفسير هذه الرؤية عندما أحرق القائد العباسي القطائع عدا الجامع والله أعلم ، المهم يا سيدي هكذا انتهت الدولة الطولونية وعادت مصر ولاية عباسية تابعة بالمعني المعروف في عصر الولاة قبل الدولة الطولونية

مصر ولاية عباسية مرة أخرى :

تولي حكم مصر (11) والياً خلال ثلاثين سنة² وهي الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية (-) - وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون علي ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبرى - لذلك حرص الأذكياء من الولاة أن يثبتوا أقدامهم فيها ولكن لم يتمكنوا من ذلك لحرص الخلفاء العباسيين ووزراءهم علي تغيير الولاة بكثرة في مصر في ذلك الوقت حتي لا يتمكن أحد الولاة من الاستقلال بها لذلك نجد عدد الولاة في مدة 30 سنة 11 والي وهو عدد كبير بالنسبة لهذه المدة القصيرة نسبياً إلي أن جاء الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها وأورثها لأربعة من ذريته -³ ولكن هذه قصة أخرى سنتكلم عنها في الفصل القادم إن شاء الله ، وكانت الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية قد شهدت صراع مرير وعنيف بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية التي أسسها الفاطميون في المغرب ، ولم تسلم مصر من هذا الصراع بل إنها كانت مسرحاً للمعارك بين الجانبين (-) - ولا شك أن وقوع الصدام أكثر من مرة علي أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية قد أنزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال -⁴ إلي أن قامت الدولة الإخشيدية ليعود الاستقرار إلي مصر مرة أخرى وسوف نتحدث عن هذه الدولة وظروف قيامها وأحوال مصر في عهدها في السطور القادمة إن شاء الله والله الموفق

¹ لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدى تأثير البلاد بالحكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها

² موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 82

³ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 82

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 125

25. وبدأت أربعة وثلاثين سنة إخشيدية من عمر مصر

من هو الإخشيد ؟ :

أهلاً بك مرة أخرى عزيزي القارئ لنردش عن الدولة الإخشيدية ، وعلي فكرة أنا لازال عندي أمل إنك مستمر معايا في هذه الدردشة وخصوصاً إن الاسلوب سيعود واحدة واحدة إلي العفوية والتلقائية في الدردشة ، وهذا ما أرجوه حتي لا تمل من الكلام الكبير وخصوصاً إن صفحات الدردشة أصبحت كثيرة جداً بالنسبة لما كنت أنوي كتابته ويبدو إن الموضوع وسع مني غضب عني ، المهم يا سيدي إن عمنا الإخشيد كان راجل من الرجالة المحترمين الكويسين المخلصين للخلافة العباسية وبالمناسبة كلمة الإخشيد ليست اسمه ، ولكنها لقبه أما اسمه فهو أبو بكر محمد ابن طغج ، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتسمى فرغانة ، وطبعاً علشان محمد بن طغج من أصل فرغاني وعلشان كمان أصبح أميراً كبيراً فكان من الطبيعي أن يلقب بلقب الأمراء والملوك في بلاده الأصلية ، وعلي العموم أياً كان سبب كلمة الإخشيد فهذا ليس موضوعنا ولن نخسر بعض علشان اسم أو لقب ، لكن المهم الأحداث التي أدت إلي قيام الدولة الإخشيدية والتي جعلت الإخشيد حاكماً لمصر هو وأولاده من بعده ، وعلي فكرة أبو بكر الإخشيد كان من أشجع القادة المقاتلين في الجيش العباسي وقد شارك والي مصر في قتال الفاطميين وطبعاً الفاطميين الشيعة لهم قصة وحدوته كبيرة بعد كده في مصر أرجو أن نردش فيها مع بعض براحتنا عندما يأتي دورها إن شاء الله ، أما الإخشيد يا سيدي فقد أبدي كما ذكرنا شجاعة في هذه الحروب مما جعله ينال ثقة الخليفة العباسي " الراضي بالله " حتي أنه قام بتعيينه والياً علي مصر وأعطاه حق توريث حكم مصر لأولاده من بعده وهذا يؤكد قدرة الإخشيد علي السيطرة علي حدود الدولة العباسية المضطربة بفعل الفاطميين القادمين من الغرب وبالفعل لم يتمكن أحد منهم من دخول مصر بالقوة إلا بعد انهيار الدولة الإخشيدية بوفاة كافور الإخشيدية ولكن هذه قصة أخرى

الراضي بالله :

هو الخليفة رقم 39 في قائمة الخلفاء¹ وفي عهد هذا الخليفة بلغت الدولة العباسية قمة الضعف بحيث أن الخليفة لم يعد يسيطر إلا علي بغداد فقط تقريباً ، وهذا ما فهمته من كلام الإمام السيوطي حيث ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء ما يلي (- - وفي سنة خمس وعشرين "325هـ" اختل الأمر جداً وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها ، أو عامل لا يحمل مالاً ، وصاروا مثل ملوك الطوائف ، ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد ، - - - ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباسية ، وتغلبت القرامطة والمبتدعة علي الأقاليم ، قويت همة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني ، وقال : أنا أولي الناس بالخلافة وتسمي بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولي علي أكثر الأندلس وكانت له الهيئة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة - -)² ، وأكد الإمام السيوطي أن ثلاثة في العالم كله في ذلك الوقت كانوا يلقبون بلقب أمير المؤمنين منهم طبعاً الراضي بالله وصاحب الأندلس والخليفة الشيعي الفاطمي بالقيروان ، وعلي فكرة مات المهدي مؤسس الدولة الفاطمية أثناء حياة الراضي بالله ، وطبعاً الإمام السيوطي عندما يتحدث عن هذا الرجل " المهدي " يتحدث بكلام جامد جداً فقد كان يكرهه جداً علي ما يبدو ويكره الشيعة المنحرفون عن أصل الدين ، وإليك بعض ما كتبه السيوطي عن المهدي (- - - وفيها مات المهدي صاحب المغرب ، وكانت أيامه خمساً وعشرين سنة ، وهو جد خلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهلة الفاطميين ، فإن المهدي هذا ادعي أنه علوي ، وإنما جده مجوسي ، قال القاضي أبو بكر الباقلاني : جد عبيد الله الملقب بالمهدي مجوسي ، دخل عبيد الله المغرب وادعي أنه علوي ، ولم يعرفه أحد من علماء النسب وكان باطنياً خبيثاً ، حريصاً علي إزالة ملة الإسلام ، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق وجاء أولاده علي أسلوبه : أباحوا الخمر والفروج ، وأشاعوا الرفض ، قام بالأمر بعد موت هذا ابنه القائم

¹ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 308

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 309

بأمر الله - - -)¹ ، المهم يا سيدي نترك المهدي وأيامه ونعود إلي الراضي الذي أقر الإخشيد والياً علي مصر وأعطاه صلاحيات مطلقة وكاملة ، فأنا أريد أن أذكر بعض ما كتبه السيوطي عن الخليفة الراضي بالله العباسي حيث ذكر ما يلي (- - وكان سمحاً كريماً ، أديباً شاعراً فصيحاً محباً للعلماء وله شعر مدون وسمع الحديث من البغوي وغيره - -)² ، وبالمناسبة هذه بعض أبيات من تأليف الخليفة أمير المؤمنين الراضي بالله :

كل صفو إلي كدر - - - كل أمر إلي حذر
ومصير الشباب للموت - - فيه أو الكدر
أيها الأمل الذي - - تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا - - ذهب الشخص والأثر
رب فاغفر خطيئتي - - أنت يا خير من غفر

الإخشيد يطلب من الخليفة الحضور إلى مصر :

وكما طلب ابن طولون من الخليفة العباسي الحضور إلي مصر واتخاذها مقراً له خوفاً عليه من مؤامرات الأتراك ، فعل الإخشيد نفس الشيء وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلي مصر (- - فالتقي به الإخشيد في الشام ، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلي ترك بغداد والمجئ إلي مصر والإقامة فيها ، وقال للخليفة : " يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله في نفسك ، سر معي إلي الشام ومصر فهي لك وتأمين علي نفسك " ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد ، ولا شك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلي مصر لتغير - إلي حد ما - مستقبل الخلافة ومستقبل مصر ، وإذا كان الإخشيد قد أخفق في جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة 659 هـ " 1261م ")³ ، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصاً علي الخليفة العباسي ومخلصاً له أشد الإخلاص

المقريزي يصف الإخشيد :

طبعاً أنت تعرف جيداً عزيزي القارئ من هو المؤرخ الكبير " تقي الدين علي المقريزي " أو علي الأقل سمعت عنه ، أما أنا عن نفسي فمعجب به جداً وأثق في ما كتبه من أحداث إلي حد كبير فبالرغم من أن مصادر المؤرخين في تلك الأزمان كانت أقل في المستوي من أيامنا هذه إلا أن المقريزي كان حريصاً علي تدقيق كل حدث يكتبه في التاريخ كما يبدو من أسلوبه ، المهم يا سيدي إن المقريزي قال عن الإخشيد ما يلي (- - وكان حازماً شديد التيقظ في حروبه ، حسن التدين ، مكرماً للأجناد ، شديد القوي لا يكاد يجز قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، نجيباً شهماً - -)⁴ وطبعاً كل هذه الأوصاف تؤكد علي الأقل أن الإخشيد كان رجل غير عادي وكان قائداً من الطراز الأول فهو يعرف حق الله ويتقي الله في الخليفة وفي الرعية وفي جميع أموره ولذلك توقف عنده التاريخ ليسجل دولته وأعماله ونحسبه علي خير إن شاء الله

كافور الإخشيد :

كان للإخشيد عبد أسود خصي اسمه كافور وكان كافور هذا مربياً لأولاد الإخشيد ومعلمهم وأستاذهم وكان شديد الإخلاص للإخشيد ولدولته ، كما كان قائداً لبعض المعارك التي خاضها جيش الدولة الإخشيدية وغاية القول عن هذا الرجل أنه كان رجل دولة وكان عبداً ولكنه كان فلتة من فلتات الزمن ونادرة من النوادر ، فبالرغم من أنه عبد إلا أنه كان يتميز بصفات تؤهله للقيادة والإمارة بلا مبالغة ، ويكفي أن أقول لك عزيزي القارئ أن كافور هذا قد أصبح وصياً علي أولاد الإخشيد بعد موته وكان محافظاً علي الدولة بعد موت مؤسسها وبوفاة كافور انتهت الدولة الإخشيدية واقتحم الجيش الفاطمي مصر ، يعني من الآخر وبدون لف أو دوران كانت الدولة الإخشيدية عبارة عن شخصين فقط هما الإخشيد نفسه ثم كافور وبوفاة آخرهما انتهت الدولة

¹ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 308 ، 309

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 310

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 130 ، 131

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 127 (نقلاً عن المقريزي)

الدولة الحمدانية والدولة الإخشيدية :

ذكرت أن الخليفة لم يعد بيده سلطات مطلقة علي الأمة وأنها أصبحت دولاً وممالك يسيطر عليها ملوك وأمراء ويتبعون الخليفة تبعية دينية فقط وليست تبعية سياسية ، وكانت الدولة الحمدانية في حلب علي التوازي مع الدولة الإخشيدية في مصر ، وأعتقد أنك سمعت عن شخص اسمه سيف الدولة الحمداني أو علي الأقل سمعت عن شخص اسمه أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس الشهير صاحب قصيدة أراك عصي الدمع التي غنتها أم كلثوم ، المهم إن الدولة الحمدانية كانت قائمة ومعاصرة للدولة الإخشيدية وكان مقرها حلب وكانت لها قوة لا يستهان بها ، ولكن لماذا الكلام عن هذه الدولة الحمدانية وهي بعيدة عن مصر ؟ والإجابة هي أن الدولة الإخشيدية كانت لها قصص وحكايات مع الدولة الحمدانية ، وسأكتفي بالإشارة السريعة لهذه العلاقة بين الدولتين ، فقد كان هناك صراعات لئلا يفسد بين الدولتين علي الحدود ومن هذا ما ذكره د الحويري (- -) ومن المصاعب الخارجية التي واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين أصحاب الموصل وحلب علي ممتلكات الإخشيديين في الشام ، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام ، وهزم جيشاً بقيادة كافر علي نهر العاصي ، فاضطر الإخشيد إلي أن يخرج بنفسه علي رأس جيش كثيف في نفس العام واستطاع ان يسترد دمشق ، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة في حمص وقنسرين - -)¹ ومع ذلك فقد فضل الإخشيد عقد معاهدة صلح بينه وبين سيف الدولة رغم هذا الإنتصار الساحق وذلك يعود لسبب مهم جداً هو أن الإخشيد كان حريصاً علي بقاء قوة الدولة الحمدانية لتظل أحد العناصر التي تواجه الروم وتصد غاراتهم

الروم والمسلمين في ذلك الوقت :

كان الروم يخشون بطش الحمدانيين والإخشيديين ولذلك قرر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أن يقيم علاقة طيبة مع الخليفة العباسي والإخشيد أيضاً ، وكان يتبادل الرسائل الودية معهم (- -) وقد أورد القلقشندي نص الرسالة المطولة التي وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس رداً علي رسالته ، ومن مضمونها يتبين لنا حرص رومانوس علي إقامة علاقات ودية وتبادل الأسري وتعزيز التبادل التجاري ، وفي ذلك يقول (- -) وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأدنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وما اختاروه ، لأننا وجدنا جميعه لا يخطر علينا دين ولا سياسة - -)²

ملخص العصر الإخشيدى :

تولي حكم مصر من الإخشيديين بما فيهم الإخشيد وكافور خمسة أمراء وهم علي الترتيب أبو بكر محمد بن طنج الإخشيد وأبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وأبو الحسن علي ابن الإخشيد وأبو المسك كافور خادم الإخشيد وأبو الفوارس أحمد ابن علي ابن الإخشيد حتي دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان 358 هـ / يونيو 969 م³ وخطب للمعز الفاطمي علي المنابر بمصر وكانت فترة حكم الإخشيديين حوالي 34 سنة من أغسطس 935 م إلي يونيو 969م وبالمناسبة كان هناك العديد من الأحداث التي دارت في مصر أثناء عصر الدولة الإخشيدية وهناك أيضاً مواقف طريفة حدثت بين كافور الإخشيدى والشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي في ذلك الوقت وسوف أخصص الفصل القادم إن شاء الله للدراسة عن أحوال مصر في العصر الإخشيدى وحتى انهيار الدولة الإخشيدية علي يد القائد جوهر الصقلي الذي أرسله المعز لدين الله فإلي اللقاء (نلتقي بعد الفاصل)

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 129

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 130

³ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 85

26. أحوال مصر في عهد الدولة الإخشيدية وحتى دخول الشيعة

عصر قصير ونشاط غزير :

بالرغم من قصر عهد هذه الدولة إلا أنها استطاعت أن تحقق الكثير في العديد من المجالات وشهدت مصر فترة ازدهار وانتعاش اقتصادي وعلمي وأدبي واهتم الإخشيدون بالزراعة اهتمام خاص وكذلك بالصناعة والتجارة والبناء وسأكتفي هنا بذكر مقتطفات قصيرة من كتاب مصر في العصور الوسطى لتوضيح بعض مظاهر الحضارة الإخشيدية في مصر (- - -) شهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً في ميادين الفنون والآداب والعلوم ، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتي ميادين الفن الإسلامي (- -)¹ ، (- -) تميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطاً مرموقاً -² (- -) اهتم الإخشيدون بانتعاش الأحوال الاقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان ، وتمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة ، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً في العصر الإخشيدي ، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للقدان في السنة حسب جودة الأرض - وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة ، حتى زاد خراج مصر علي أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة 356هـ "976م" في عهد كافور أكثر من 620 ألف دينار)³ ، أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (- -) وإلي جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً في العصر الإخشيدي ، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلي العراق ، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة - - وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي وترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلي عام 912م ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلي عام 935م ، يضاف إلي هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة - - واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي -⁴ ، كما ارتفع شأن التجارة بين مصر والعديد من دول العالم في هذا العصر

كافور في كتاب مصر من تاني :

لفت نظري عند قراءة كتاب " مصر من تاني " للكاتب الصحفي محمود السعدني ما ذكره عن كافور الإخشيدي ، وإليك بعض ما ورد في هذا الكتاب عن هذه الشخصية الفريدة (- -) ولقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم - وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة ، وكانت مواده العامرة مبدولة للجمع ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمئة رطل من اللحم الضأن ومائة طير أوز وثلاثمئة طير دجاج وثلاثمئة فرخ حمام وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملاً رضع وثلاثمئة صحن حلوي وألف قفص تفاح ومائة قرية من السكر وكان يحضر علي سماطه الخاص والعام ، ولكن حظ عمنا كافور السيئ أنه اصطدم بأعظم موهبة أنجبها أمة محمد علي طول الزمان ، هذا الفتى الموهوب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس⁵ ، كان بالرغم من موهبته الفذة أرزقياً⁶ من أعظم طراز ، مدح كافور في البداية ثم لعن أباه بعد ذلك ، وقال في تبرير مدحه لكافور أنه كان فاقد الوعي -⁷

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 133

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 134

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 135

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 136

⁵ المقصود هنا هو الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي

⁶ أرزقياً مقصود بها يمدح الملوك من أجل المكافآت والأموال

⁷ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 27

المتنبي والدولة الإخشيدية :

في الحقيقة كان المتنبي شاعر علي مستوي عالي جداً وكان يمدح سيف الدولة الحمداني ثم بدأت علاقته بالدولة الإخشيدية في أغلب الظن عندما مات الإخشيد الكبير أبو بكر محمد بن طغج فرثاه بأبيات جميلة حيث قال :

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم - - - ومن فخر ومن نعماء لاتسعا
يا لحد ظل إن فيك البحر محتسباً - - - والليث مهتصراً والجود مجتمعاً¹

وبعد ذلك سمع المتنبي عن أبي المسك كافور ومدى كرمه وبذله الأموال وخاصة عندما قام بإعطاء شاعر اسمه محمد بن عاصم مكافأة كبيرة نظير قسيمة مدح وهذه القصيدة بالطبع لا ترقى لمستوي شعر المتنبي ، والحكاية بدأت عندما تولي كافور رسمياً حكم مصر حيث وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة (- - خافوا الناس من ذلك وهربوا إلي الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس حتي أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم إذ دخل عليه وألقي قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها - - - لكنها رقصت من عدله طرباً²

وما إن سمع المتنبي عن عطاء أبو المسك كافور لهذا الشاعر حتي حضر إلي مصر ومدح كافور ، ومن القصائد المدح قصيدة مطلعها يقول :

كفي بك داءً أن تري الموت شافياً - - - وحسب المنايا أن يكن أمانياً

وجاء في هذه القصيدة :

قواصد كافور توارك غيره - - - ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه - - - وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده - - - وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعالي بالندي - - - فإنك تعطي في نداء المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل - - - فيرجع ملكاً للعراقيين واليا³

ولما لم يحقق المتنبي ما كان يطمع فيه من مناصب نظم قصيدته الدالية المشهورة التي هجا فيها كافور ومطلعها :

عيد بأي حال عدت يا عيد - - - بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ومن أبياتها :

صار الخصي إمام الآبقين بها - - - فالحر مستعبد والعبد معبود
لا تشتر العبد إلا والعصي معه - - - إن العبيد لأنجاس مناكيد⁴

ومن هنا يتضح أن المتنبي قد غير موقفه 180 درجة مع كافور الإخشيد لمجرد أنه لم يعطه ما كان يطمح إليه والله أعلم ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك كان هذا موقف المتنبي من الدولة الإخشيدية بشكل عام وقد رأيت أن أذكره في هذه الدردشة لما فيه من غرابة وطرافة في نفس الوقت

انهيار الدولة الإخشيدية :

كان الإخشيد رجلاً قوياً حاكماً مصر وأسس دولة علي أعلي مستوي من الرخاء والأمان والازدهار وبوفاته أمسك كافور خادمه الأمين بزمام الأمور وكانت في يده السلطة الفعلية حتي أن أحد أولاد الإخشيد حاول التخلص من كافور بمؤامرة خاصة ، ولكن أم هذا الأمير سارعت إلي كافور وأخبرته بالمؤامرة في الوقت المناسب قبل أن ينفذها ابنها⁵ فقام كافور بإحباط المحاولة والحفاظ علي الدولة وعلي الأمير ، وربما يكون هذا المثل أكبر دليل علي أن أم هذا الأمير التي هي أرملة الإخشيد كانت تخاف علي ابنها من التهور والتسرع وكانت تعلم جيداً أن كافور هو رمانة الميزان في هذه الدولة بعد وفاة

¹ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 26

² مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 26

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 138

⁴ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 138

⁵ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 131

زوجها وإذا تم التخلص منه فربما تنهار الدولة كلها ، ولذلك كانت حريصة علي وجود كافور بجوار أبناءها وهم يحكمون مصر لأنه استأذمهم ومعلمهم والناصح الأمين لهم والمحافظ علي دولتهم ودولة أبيهم الراحل ، وقد قاتل كافور بالفعل وقاد الجيوش من أجل حماية ممتلكات الدولة الإخشيدية ، حتي أن الخليفة العباسي المطيع منحه حكم مصر والشام والحجاز ولقب بالأستاذ فكان يقال الأستاذ أبو المسك كافور¹ وظل الموقف مستقر في مصر وملحقاتها إلي أن مات كافور فاضطربت بموته الأمور وتدهورت الأحوال² وحدثت مجاعة في مصر وطمع في مصر الفاطميون

المعز لدين الله وانتهاء الدولة الإخشيدية :

ذكرت من قبل أن الدولة الفاطمية قامت في المغرب العربي وحاولت السيطرة والاستيلاء علي مصر ولكنها فشلت عدة مرات ، وحدث أن وصل للحكم في الدولة الفاطمية رجل ذو شخصية قوية طموحة وهو المعز لدين الله الفاطمي ، وما إن وصل هذا الرجل إلي قمة الحكم في الدولة الفاطمية حتي سارع بمراقبة ما يدور في مصر ومعرفة أخبارها وأحوالها حيث وضعها هدفاً رئيسياً علي قمة أهدافه ، فقد قرر أن يجعلها مقراً للخلافة الفاطمية وينتزعها من الخلافة العباسية السنية ، وعندما وصل خبر موت كافور واضطراب الأمور في مصر قرر المعز أن يرسل جيشاً قوياً إلي مصر بقيادة رجل من أكفأ قادته وهو القائد جوهر الصقلي الذي استطاع بالفعل أن يدخل مصر ويقضي علي الدولة الإخشيدية تماماً ويجهز مصر لحضور الخليفة الشيعي الفاطمي المعز لدين الله وهكذا باختصار شديد انتهت الدولة الإخشيدية وراحت أيامها ، وبدأت الدولة الفاطمية في مصر بل إنها سيطرت علي معظم أنحاء العالم الإسلامي وهذه الدولة هي موضوع الدردشة في الفصل القادم إن شاء الله ، وجدير بالذكر أن الفاطميين (أو من يسمون أنفسهم الفاطميين) كانوا من الشيعة الإسماعيلية وهو مذهب من مذاهب الشيعة ، وعلي فكرة ممكن نتكلم عن الشيعة بشكل عام علشان تأخذ فكرة بسيطة وموجزة عنهم قبل أن نخوض في الأحداث التاريخية الخاصة بالعصر الفاطمي ، وأعتقد أن الكثير من أبناء جيلي لا يعرف شيئاً عن الشيعة وفرقهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ورأيت أن هذه الدردشة فرصة لتبسيط المعلومات عن هذا الموضوع

الشيعة الجعفرية والشيعة الإسماعيلية :

كلمة شيعة تطلق علي كل من تشيع لآل البيت النبوي الشريف رضي الله عنهم أجمعين ، والتشيع هنا ببساطة شديدة مقصود به أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون مقصورة في الإمام علي كرم الله وجهه ونسله فقط ، فهم يعتقدون أن جميع الخلفاء من خارج نسل الإمام علي لا تصح خلافتهم علي الإطلاق بما فيهم سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان والأمويين والعباسيين ، وإنما يجب أن تكون الخلافة بالوراثة داخل البيت العلوي فقط ويطلقون علي الخليفة لقب الإمام ، وعلي فكرة هناك عدة فرق من الشيعة منها من هو قريب من السنة ومنها من هو بعيد عنها ومنها من هو متطرف جداً ، أما أكثر عدد من الشيعة حالياً فهم الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم أكثر أهل إيران وثلث سكان العراق وتوجد جماعات منهم في سوريا ولبنان وغيرهم من البلاد ، وتعتبر الشيعة الجعفرية الإثني عشرية أشهر أنواع الشيعة حالياً ، وإليك بعض ما جاء في كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي عن الشيعة الجعفرية في كتابه " بين الشيعة وأهل السنة " ، وبالمناسبة الدكتور علي عبد الواحد هو عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع وعميد كلية الآداب بجامعة أم درمان وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً ، وسوف يكون كلامي عن الشيعة بالكامل من كتاب الدكتور علي عبد الواحد عنهم ، فمثلاً يقول عن الشيعة الجعفرية (بأنها تقصر الخلافة علي الإمام علي بن أبي طالب وأحد عشر إماماً متتابعين من نسله ، وهم : الحسن فالحسين فعلي زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسي الكاظم فعلي الرضا فمحمد الجواد فعلي الهادي فمحمد الحسن العسكري فمحمد المهدي ، والنص علي الإمام الأول وهو الإمام علي قد جاء في اعتقادهم بوصية من الرسول عليه السلام ، وأما الأحد عشر إماماً من بعده فقد استحق كل منهم الخلافة بوصية من الإمام السابق له ، وكان كل منهم الإبن الأكبر للإمام السابق ، ما عدا الحسين فإنه كان أخاً للإمام السابق له ، وهو الحسن ، وما عدا موسي الكاظم فإنه كان الإبن الثاني للإمام السابق له وهو جعفر

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 132

² تكاد تتكرر هذه الجملة بالنص تقريباً في جميع الكتب التي تتناول هذه الفترة من تاريخ مصر وهي جملة: (اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور)

الصادق ، واستحق الخلافة لموت أخيه الأكبر اسماعيل قبل وفاة أبيه - وقد بلغ كل إمام من هؤلاء سن الرشد وكانت له رسالة في قومه وانتقل إلي الرفيق الأعلى ، ما عدا الإمام الثاني عشر ، وهو الإمام محمد المهدي فإنهم يعتقدون أنه قد اختفي في مغارة في بلدة " سر من رأي " " سامراء من بلاد العراق " ولم يكن قد بلغ حينئذ سن الرشد " كان ابن سنتين أو أربع سنين " وأنه حي في مغارته وسيظهر آخر الزمان باسم المهدي المنتظر فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً - -)¹ ومن هنا يتضح أن الجعفرية يعتبرون أن هناك اثني عشر إماماً فقط أولهم هو سيدنا علي وآخراً هو المهدي المنتظر الذي يعتقدون أنه حي في أحد المغارات وسيظهر آخر الزمان ، وعلي فكرة وبمناسبة الكلام عن أبناء الإمام جعفر الصادق " اسماعيل وموسي الكاظم " فإن طائفة الإسماعيلية تختلف عن طائفة الجعفرية الإثني عشرية في أنها تعتقد أن أولاد اسماعيل هم الأئمة الحقيقيين رغم موت اسماعيل في حياة أبيه حيث يقول د علي عبد الواحد عن هذا الموضوع (- -) ولكن الفرقة الإسماعيلية تذهب إلي أن الخلافة قد انتقلت بعد جعفر الصادق إلي نسل ابنه الأكبر " اسماعيل " قياساً علي انتقال وظائف هارون إلي نسله بعد وفاته فقد مات هارون قبل أخيه موسي ولكن وظائفه الدينية لم تنتقل إلي أخيه بل انتقلت إلي نسل هارون - بينما تقف فرقة الجعفرية بالخلافة عند عدد معين من الأئمة " اثني عشر إماماً " ، تري الفرقة الإسماعيلية أن الإمامة لا تقف عند حد بل تتسلسل في نسل اسماعيل " ابن جعفر الصادق " إلي ما لا نهاية ، وكان الفاطميون أول من تولوا شؤون الحكم وأول من دعوا لأنفسهم بالخلافة من هذه الفرقة ويطلق عليهم كذلك اسم " العبيديين " نسبة إلي جدهم الأول عبيد الله أول خلفائهم - -)²

باقي فرق الشيعة خلاف الجعفرية والإسماعيلية :

ومن فرق الشيعة أيضاً فرقة " الزيدية " (وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين وقد وافق زيد أخاه الباقر في أن الخلافة مقصورة علي الإمام علي كرم الله وجهه ونسله من فاطمة ، ولكنه خالفه في الشروط التي يجب توافرها في الخليفة)³ ومن هذه الشروط التي أقرها زيد بن علي أن يتم مبايعة الخليفة بالخلافة من عامة المسلمين وهذا المذهب هو أقرب ما يكون لمذهب أهل السنة⁴ ، ومن مذاهب الشيعة أيضاً الدورز (- ويظهر أنها فرقة من الإسماعيلية ذهبت في عقائدها إلي تأليه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر - -)⁵ ومن مذاهب الشيعة أيضاً " الكيسانية " نسبة إلي كيسان مولي محمد بن الحنفية وهي فرقة منقرضة تقريباً من الشيعة وفرقة " السبئية " وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يذهب إلي ألوهية علي وأنه حي لم يموت⁶ ، وطبعاً هذه الفرق متطرفة جداً ومعظمها قد انقرض ولم يتبقي بشكل عام غير الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم الأغلبية حالياً كما تتواجد فرقة من الإسماعيلية وبعض الدورز والزيدية والله أعلم

أهم الفروقات بين أهل السنة والشيعة :

سأكتفي هنا بذكر أهم نقاط الخلاف دون الخوض في تفاصيل نقاط الخلاف الأخرى ، فمثلاً أهل السنة يبايعون الخليفة الذي تنطبق عليه شروط الخلافة وقد يكون من البيت العلوي أو من غيره المهم أن يكون أهلاً للخلافة وهناك من يفضل أن يكون الخليفة من قريش عموماً أما الشيعة الجعفرية مثلاً فيعتقدون أنه لا تصح الخلافة لأي شخص من خارج نسل الإمام علي كرم الله وجهه ، ومن أبرز الاختلافات أيضاً أن أهل السنة يعتقدون أن الخليفة غير معصوم من الخطأ أما الشيعة فيعتقدون أن الخليفة " الإمام " معصوم من الخطأ ويتميز بصفات خاصة⁷ ، ويقول عن ذلك الدكتور علي عبد الواحد (- -) أنهم ينزلون الأقوال والآراء الثابتة عن أئمتهم منزلة السنة المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويحكمون بالفسق علي المكذبين لهذه الآراء والأقوال ، بل يري البعض أن التكذيب بها يفقد الشخص الإيمان ولا يفقده الإسلام فيعامل معاملة

¹ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 6 ، 7

² بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 14

³ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 12

⁴ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 13

⁵ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 16

⁶ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 19

⁷ إن الشيعة الذين يعتقدون أن الإمام يعرف الغيب وأن منزلته تفوق منزلة البشر العاديين وبالإضافة إلي ذلك يسبون كبار الصحابة مثل أبو بكر وعمر ويتهمون السيدة أم المؤمنين عائشة التي برأها المولي عز وجل من فوق سبع سموات ، لا يعتبرهم بعض العلماء قد جاؤوا بمذهب مختلف في إطار دين الإسلام كالمذاهب الأربعة مثلاً ولكن يعتبرونهم قد جاؤوا بدين مختلف والله أعلم

المسلمين ولكن لا يكون كامل الإيمان ، وهذا مبني علي أنهم يعتقدون العصمة والإلهام في أئمتهم ، أما اعتقادهم العصمة في هؤلاء الأئمة فاعتقاد غير سليم ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام - -)¹ ، وهناك اختلافات أخرى أيضاً بين السنة والشيعة الجعفرية (فمن ذلك مثلاً أنهم يجعلون سورتي الأنفال وبراءة سورة واحدة وكذلك سورتي الضحى وألم نشرح وسورتي الفيل وقريش ، فتكون سور القرآن عندهم مائة وإحدى عشرة سورة علي حين أنها مائة وأربع عشرة سورة عند أهل السنة وهذا مجرد خلاف في عدد السور لا في النص القرآني ، ومن ذلك أيضاً أنهم يذهبون إلي أن المتشابه من القرآن إنما يعد متشابهاً لغير أئمتهم ، أما بالنسبة لأئمتهم فإن الله قد أطلعهم علي تأويل المتشابه ، حتي الحروف المقطعة في أوائل السور فإنهم يعلمون تأويلها ، وأن للقرآن ظاهراً وباطناً ولا يعلم باطنه إلا أئمتهم وهم الأوصياء علي دين الله)² ، ومن معتقدات الشيعة الجعفرية أيضاً الرجعة وهي عبارة عن رجوع الإمام الثاني عشر الذي لم يمت من وجهة نظرهم حتي الآن ، ومن معتقداتهم أيضاً ما يسمى بالتحقية وهي (أن يخفي الشخص ما يعتقد أو يصرح بغيره اتقاء للأذي أو للتمكين من الوصول إلي ما يريد من نصرة لدين الله أو لحق في ذاته)³ ، وطبعاً عزيزي القارئ هناك اختلافات أخرى لا أريد أن أثقل عليك بها ، وغاية ما يمكن أن يقال عن الشيعة في هذه الدردشة هو ما يعيننا من الشيعة الإسماعيلية وهي الفرقة التي دخلت مصر وسيطرت عليها وكانت تسمى بالدولة الفاطمية وقد عرفنا ببساطة واختصار أهم ملامح هذه الفرقة واختلافها عن الشيعة المنتشرين بكثرة في هذه الأيام ويكفي أن تعرف أن الخليفة الفاطمي الذي يحكم مصر كان يعتقد هو وأعوانه أنه معصوم وملهم وإمام وصي علي الدين وأقواله وأفعاله لا بد من التعامل معها كشخص غير عادي

استعدادات المعز لدين الله لتحقيق الأمنية الغالية :

المفروض إن المعز لدين الله من الشيعة الإسماعيلية بل إنه إمام من أئمتها ويدعي أنه من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعود نسبه إلي سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وطبعاً معظم الناس في ذلك الوقت لم يصدق نسب المعز لآل البيت واعتبروه كاذب ولا يمت للبيت العلوي بأي صلة وسوف نتكلم عن هذا الموضوع في حينه ، المهم انه استعد لضم مصر وتحقيق الأمنية الغالية (- بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر ، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلي برقة ، وأنشأ النزل علي رأس كل مرحلة من هذا الطريق ، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدي جهز جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلي قائده جوهر الصقلي ، وقد تجمع هذا الجيش في مدينة القيروان ، وهناك التفت المعز إلي المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتح مصر وليدخلها بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبنين مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا - -)⁴ ومن هنا يتضح مدي ثقة المعز بقائده جوهر ، ودخل جوهر بالفعل الفسطاط في 17 شعبان سنة 358 هـ " يوليو 969م" بعد أن هزم الإخشيديين ثم وضع أساس مدينة القاهرة شمالي الفسطاط في نفس الليلة التي دخل فيها مصر وهكذا استقلت مصر استقلالاً تاماً ومطلقاً عن الخلافة السنية لأول مرة منذ دخول عمرو بن العاص مصر ، ولكن احتفظ الشعب المصري المسلم بالمذهب السني رغم وجود نظام شيعي في البلاد ، وقد أحدث قيام الدولة الفاطمية في مصر تغييرات كثيرة ودخول عادات جديدة علي المجتمع المصري سوف نتكلم عنها في حينها وإلي اللقاء إن شاء الله

¹ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 48، 49

² بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 36

³ بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة 61

⁴ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 145

27. هنا القاهرة الفاطمية

ملخص العصر الفاطمي بالكامل :

تولي الفاطميون حكم مصر من سنة 969 م إلي سنة 1171 م¹ أي حوالي 202 سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة وسيطروا لفترة كبيرة علي معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن ، وتولي القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدّها لاستقبال المعز لدين الله ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتى حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة 362 هـ / يونيو 973 م وتوفي المعز سنة 975 م وخلفه ابنه العزيز لدين الله " نزار " أبو منصور إلي أن توفي سنة 996 م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلي أن قتل سنة 1020 م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلي بالله ثم الأمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيراً العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلي المذهب السني وإلي ظل الخلافة العباسية مرة أخرى ، ويمكن تلخيص العصر الفاطمي إلي عصرين أساسيين ، العصر الفاطمي الأول الذي سيطر فيه خلفاء أقوياء علي الحكم ثم العصر الفاطمي الثاني " عصر الاضمحلال " الذي زاد فيه نفوذ الوزراء وسيطروا علي مقاليد السلطة وكان خلفاء هذا العصر خلفاء ضعفاء ومعظمهم من الأطفال صغيري السن وقد حدث هذا التحول من العصر الأول إلي العصر الثاني في عهد الخليفة المستنصر بالله والوزير بدر الجمالي²

نسب الفاطميين وسيف المعز وذهبه :

في الحقيقة أثار موضوع نسب بني عبيد إلي البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتي أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (- -) وضع المعز يده علي مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلي النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخرى بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي "³ فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة - - - ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فراراً من الجواب لأنه مدخول في نسبه - -)⁴ والطريف أيضاً في هذا الموضوع أن الخليفة الفاطمي أرسل كتاباً إلي صاحب الأندلس الأموي يسبه فيه ويهجوّه فرد عليه يقول (- - أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبنك - -)⁵ وهذا الرد بالتأكيد أسوأ من السب والهجاء لأنه يعني أن الخليفة الفاطمي لا يعرف أصله أحد حتي يرد عليه وطبعاً صاحب الأندلس أموي قريشي ويعرف أصول قبيلة قريش جيداً بجميع فروعها العباسية والعلوية والأموية وغيرها من البطون ، وكذلك أكد العباسيون في بغداد أن بني عبيد لا ينتمون بأي صلة من الصلات إلي آل البيت وأن لقب الفاطميون لا يصح إطلاقه عليهم بل إن هناك وثيقة تم كتابتها في بغداد أثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وتؤكد هذه الوثيقة عدم انتماء الحاكم وأجداده إلي البيت العلوي والطريف أن من بين الذين وقعوا علي هذه الوثيقة أشخاص علويون بالفعل وإليك بعض ما جاء فيها " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - - - هذا ما شهد به الشهود أن معد بن اسماعيل المستولي علي مصر هو معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد وأنهم منتسبون إلي ديصان بن سعيد الذي انتسب إليه الديهانية وأن سعيداً المذكور صار إلي المغرب وتسمي بعبيد الله وتلقب بالمهدي وأن هذا القائم بمصر هو منصور الملقب بالحاكم " حكم الله عليه بالبور والدمار " ابن نزار ابن معد ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد وأن من تقدمه من سلفه - - - أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ولا يتعلقون منه بسبب وأن ما ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور - - - وشهد بذلك العلويين الشرفاء المرتضي والرضي والموسويان

¹ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 86 ، 87

² ينسب إلي هذا الوزير اسم حي الجمالية حالياً بالقاهرة الفاطمية

³ المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

⁴ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة 11

⁵ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة 11

وجماعة من كبار العلوية وشهد من الفقهاء المعبرين الشيخ أبو حامد الأسفرايني وأبو الحسن -¹ وهذه الوثيقة موجودة في كتاب صغير أو مخطوطة تم تحقيقها ودراستها بواسطة الدكتور التهامي نقرة والدكتور عبد الحليم عويس وقد قاما بمناقشة وتحليل ما جاء في هذه المخطوطة النادرة التي كتبها أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد المتوفي سنة 1231 م وأكد علي أن هناك العديد من الأدلة التي تشير إلي عدم صلة العبيديين بآل البيت وأن نسبهم باطل

موقف المصريين من الخلفاء الشيعة :

عندما أكد المعز علي أن القوة والمال هما السبيل إلي السلطة وهما الحسب والنسب " سيف المعز وذبه " تعامل المصريون مع حكاهم الجدد علي أساس السخرية مع عدم المواجهة وخصوصاً أن الأئمة الفاطميين ادعوا أن نسبهم يعود إلي السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وبالطبع لم يصدق المصريون ذلك كما أنهم لم يصدقوا أن هؤلاء الأئمة معصومين ولديهم إمكانيات خاصة ويعلمون الغيب وسأذكر هنا موقفين يوضحان أسلوب تعامل المصريين مع الخلفاء الشيعة فمثلاً صعد أحد خلفاء الشيعة مرة علي المنبر فوجد بطاقة " ورقة " مكتوب فيها أبيات من الشعر :

إنا سمعنا نسباً منكراً - - - يتلي علي المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً - - فاذاً أياً بعد الأب الرابع
أو فدح الأنساب مستورة - - وادخل بنا في النسب الواسع

وهذا يدل علي أن المصريين لم يتمكنوا من مواجهة الفاطميين ولكنهم كانوا يسخرون منهم ومن عقيدتهم ويتركون هذه الأوراق التي تحمل آراء ساخرة ، وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يتسمون بالتسامح الديني مع باقي المذاهب بل وباقي الأديان إلا أن المصريين - - لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضيي نوعاً من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد ، وكان المصريون يسخرون كثيراً من هذا الجانب في المذهب الشيعي فعلي سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات جمعة فوجد ورقة كتب فيها²

بالظلم والجور قد رضينا - - - وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب - - فقل لنا من كاتب البطاقة

القاهرة الفاطمية :

تعتبر الآثار الإسلامية التي تركها الفاطميون في مصر من أكثر المباني روعة وجمالاً وظهرت فيها فنون عديدة إسلامية وموجودة إلي الآن وقد بدأ تأسيس القاهرة الفاطمية من أول ليلة جاء فيها جوهر الصقلي إلي مصر - وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكناً للخليفة وأتباعه ومقراً لدواوين الحكم وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ وفي يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة 359 هـ " 5 مايو سنة 970 م " اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات ومنها حارة زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة وهكذا³ وعلي فكرة تم بناء قصر آخر في القاهرة وسميت المنطقة المحصورة بين القصر الأول والثاني " بين القصرين " وهو الإسم الشائع إلي الآن رغم عدم وجود القصرين حالياً ، وكان للقاهرة سور عظيم له أبواب موجودة بعضها إلي الآن مثل باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر كما يوجد جزء من سور القاهرة بجوار مسجد الحاكم بأمر الله كما يمكنك عزيزي القارئ أن تتمشي في منطقة الأزهر والحسين من خلال شارع المعز لدين الله لتتأثر آثار الفاطميين العديدة مثل الجامع الأزهر وجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع وجامع الحاكم بأمر الله وضريح الإمام الحسين⁴ بن علي وغيرها من المنشآت الفاطمية الموجودة إلي الآن ، ويعتبر الجامع الأزهر الذي تم بناءه في عامين وثلاثة أشهر⁵ الجامع الرئيسي في العاصمة الفاطمية وكان يؤذن فيها للصلاة بالأذان الشيعي⁶ (حي

¹ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة 19 ، 20

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 173 ، 174

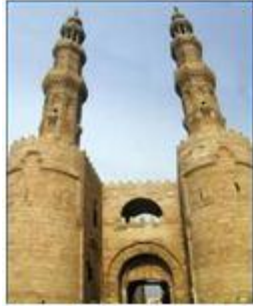
³ تاريخ مصر الإسلامية ج I (د جمال الدين الشيال) صفحة 144

⁴ أعلن الفاطميون أنهم أحضروا رأس الحسين إلي مصر واقاموا لها الضريح الموجود إلي الآن

⁵ تاريخ مصر الإسلامية ج I (د جمال الدين الشيال) صفحة 147

⁶ طبعاً أي إجراء شيعي في هذه الفترة بمصر كان علي مذهب الشيعة الإسماعيلية فقط وليس كل مذاهب الشيعة

علي خير العمل) وكان مركزاً لنشر المذهب الشيعي " وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة 361 هـ "972م¹ وكان يسمى جامع القاهرة في ذلك الوقت وجدير بالذكر أن جوهر الصقلي عند حضوره إلي مصر (- - أمر بحذف الدعوة للخلفاء العباسيين في مساجد مصر وأقامها للخليفة المعز لدين الله الفاطمي² ومنع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين كما أمر بأن يؤذن في جميع المساجد بحي علي خير العمل)³



باب زويلة



باب النصر



باب الفتوح

أبواب القاهرة الفاطمية الموجودة حتي الآن

التسامح الديني لدى الفاطميين :

كان الفاطميون يتعاملون مع المسلمين السنة ومع المسيحيين واليهود معاملة واحدة بل إن اليهود والمسيحيين كانوا في مركز أقوى من المسلمين في مصر والدليل علي ذلك (- - أن الخليفة العزيز بالله استخدم اليهود والمسيحيين في أعلى وظائف الدولة وفي أهم شئونها ومن بينهم وزيره القدير يعقوب بن كلس وهو من أصل يهودي ، اعتنق الإسلام في أواخر أيام كافور الإخشيدي واتصل بالخليفة المعز لدين الله في المغرب ودعاه لفتح مصر ولما ولي العزيز بالله عينه وزيراً له سنة 368 هـ " 978 م " وقد اعتمد العزيز بالله عليه في نشر المذهب الفاطمي وأنشأ في قصره مكتبة ضخمة لخدمة مذهب الفاطميين -)⁴ وطبعاً كلما ارتقي اليهود في المناصب غضب المصريين كثيراً من ذلك (- وعبر عن ذلك الشاعر المصري الحسن بن خاقان بقوله:⁵

يهود هذا الزمان قد بلغوا - - - غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم - - - ومنهم المستشار والملك

ويري البعض أن الخلفاء الفاطميين قد قربوا إليهم الأقباط واليهود واختصوهم بالمراكز العليا لثقتهم بهم عن المسلمين السنة ويري البعض الآخر أن الأقباط كانوا أمهر من المسلمين في هذه الوظائف وأتقنوها وهذا هو السبب الرئيسي لتعيينهم فيها ، المهم إن الأمور كانت ماشية يهودي أو مسيحي أو مسلم لا فرق عند الفاطميين ويعتبر هذا من وجهة نظر الكثيرين قمة التسامح الديني (وكانت زوجة العزيز بالله وهي أم الخليفة الحاكم بأمر الله - مسيحية وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلي أعلى المناصب بالكنيسة فعين أحدهما بطريكاً للملكانيين بيت المقدس سنة 375 هـ 986م وعين الآخر مطراناً للقاهرة ثم رقي في عهد الحاكم بأمر الله بطريكاً بالإسكندرية سنة 390 هـ 1000 م وكان من وزراء العزيز عيسى بن نسطورس المسيحي كما عين منشأ بن ابراهيم القزاز اليهودي والياً علي بلاد الشام)⁶

¹ تاريخ مصر الإسلامية ج 1 (د جمال الدين الشيال) صفحة 147

² لاحظ معي أنني استخدم كلمة الفاطميين بالرغم من الشك في نسبهم وذلك لأننا نعرفهم بهذا الاسم حالياً وليس هذا إقراراً مني بأنهم فاطميون لأنني غير مؤهل لدراسة هذا الموضوع (فهم في كتب التاريخ المدرسي فاطميون وبالتالي سنقول عنهم فاطميون لهذا السبب فقط والله أعلم)

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 146

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 163

⁵ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 163

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 163

الفاطميون وهوس الاحتفالات والأبهة الزائدة :

لم يترك الفاطميون عيداً إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به ، وكانوا يبالغون كثيراً في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (- برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي الكريم وبليلة أول رجب وبليلة المعراج فيه وبليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد - عدا يوم عاشوراء - في فيض من البهاء والبذخ - - أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق - - واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد - - كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة -¹ ولعلك تلاحظ معي كثرة الاحتفالات التي شغل بها الفاطميون الشعب أياً كانت هذه الأعياد إسلامية أو مسيحية ، المهم أن نحتفل وأن يكون لكل عيد لون من ألوان الحلوي والطعام والمبالغة الزائدة في الإنفاق (- أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور ، ويتجلى بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله - - ومما يدل على مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس - - في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية² فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة ، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيفوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة ، وأخذوا يسيرون من قاعة إلي أخرى حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي ، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلئ ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع ، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالساً علي مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها - -)³

السعدني يصف العصر الفاطمي :

وصف الكاتب الساخر محمود السعدني العصر الفاطمي بصفات كثيرة اخترت لك منها عزيزي القارئ بعض المقتطفات الآتية (- - ولكن وأياً كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئاً والعصر الفاطمي شيئاً آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية الإسلامية إلي عصر فرعون الذي ولي ، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شئ وشعب لا يملك إلا صلاة النبي - - وسيصبح لمصر من الآن ولمدة أقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان دولة بكل ما في كلمة دولة من معني ، جيش مقاتل كل أفراده أجنب ومرتزقة ، وزارة يتولي أمرها القائد جوهر الصقلي وجهاز إعلام هو أخطر جهاز إعلامي أنشأه العرب في العصر الوسيط - - وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ علي أمن الدولة والعمل علي استمرارها وجمع المعلومات أيضاً وشراء ذمم الناس - -)⁴

لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية :

عندما يتحدث أي شخص عن الخلافة الإسلامية فلا شك أن الخلافة الفاطمية لا تصلح كنموذج لذلك حيث أنهم خارجين علي الخليفة العباسي السني في بغداد كما أنهم شيعة اسماعيلية وفوق كل هذا مشكوك في نسبهم إلي آل البيت وبالتالي

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 171

² كان الصليبيون قد سيطروا علي بيت المقدس وأصبحت لهم مملكة صليبية فيه وسوف نتكلم عن ذلك في حينه إن شاء الله

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 170

⁴ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 32

أي مسلم سني عندما يتكلم عن الخلفاء في الإسلام يجب أن لا يقع في هذا الخطأ ويتكلم عن الفاطميين علي أساس أنهم من الخلفاء السنة بل يجب أن يوضح للجميع أنهم بعاداتهم وأفعالهم قد أساءوا للإسلام وللمسلمين ولم يتركوا في مصر سوي العادات التي نعاني منها حتي الآن ولا أجد لهم شيئاً جيداً تركوه لنا سوي المباني الأثرية الإسلامية العديدة والرائعة ، وأسوأ ما في العصر الفاطمي هو أنهم لم يستطيعوا المحافظة علي المقدسات الإسلامية وضاعت القدس من المسلمين لأول مرة منذ دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اقتحم الصليبيون المدينة بحملة شرسة لم تتمكن الدولة الفاطمية من صدها نتيجة لحالة الضعف والتفكك التي وصلت إليها الأمة في ذلك الوقت وليس نتيجة لتفوق الصليبيين علي المسلمين ، (- - فعلي امتداد ستة عقود " 361-298 هـ " حكموها في المغرب ولأكثر من قرنين حكموها في مصر - فقد نشروا من الخرافات والبدع ما لا أصل له لا في كتاب ولا في سنة ولجئوا - هم وعاداتهم - إلي ضروب من الحيل والدجل لإقناع الناس بهم وبدعواهم وهي ضروب لا يمكن أن تصدر عن ناس ينتسبون إلي أهل البيت - -)¹ ، وقد كانت لهم جرأة كبيرة علي التنكيل بمخالفهم بأفطع الوسائل كما أنهم كانوا من أجرأ الناس - وبأقبح الأساليب - علي سب صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم - -)² ، وكيف يطمئن المسلمون إلي حكام يزعمون أنهم خلفاء مسلمون وأنهم من نسل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومع ذلك يحتضنون كما فعل المعز لدين الله - شاعراً زنديقاً هو " محمد بن هاني الأندلسي " الذي يقول لخليفتهم متحدياً مشاعر المسلمين وضارياً بها عرض الحائط³ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار - - - فاحكم فأنت الواحد القهار

(- -) ومن الغريب في أمر الفاطميين : إيثارهم لليهود والنصارى في أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة بحيث ارتبط هذا المنصب الخطير بهم -)⁴

الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :

يعتبر المعز لدين الله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله هم أشهر ثلاثة خلفاء في الدولة الفاطمية بالكامل علي الأقل بالنسبة لأي شخص عادي حالياً فالمعز مثلاً هو أول من ضم مصر لحكم الفاطميين وتم تأسيس مدينة القاهرة في عهده بل إن البعض يحلو له أن يقول (قاهرة المعز) ، أما الحاكم بأمر الله فقد كان من الشخصيات التي أثير حولها الكثير من الجدل والشائعات حتي أن البعض يقول أنه منع الناس من أكل الطلوحية وبالرغم من أن هذه الأقاويل قد تكون مبالغ فيها جداً إلا أنها تدل علي أن شخصية الحاكم بأمر الله بلا شك كانت غريبة الأطوار ونهايته أيضاً كانت غامضة ،



جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة الفاطمية

ومما كتبه السعدني عن الحاكم بأمر الله ما يلي (- - وهو واحد من أغرب شخصيات مصر علي الإطلاق ، فهذا الصبي الذي تولي السلطة وهو في الحادية عشرة والذي كان والده شيخ المذهب الفاطمي وأمه شقيقة بطريك أقباط مصر ، جن جنونه فجأه وهو يقبع وحيداً في مغارة علي قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتاً يناديه ويدعوه إلي التوفيق بين دين

¹ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 11

² أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 25

³ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 26

⁴ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 27

النصاري ودين المسلمين واستخراج دين جديد - -)¹ وقد حدث قلق شديد في الأسرة الفاطمية بسبب أفعال وأقوال الحاكم بأمر الله فقررروا التخلص منه (- -) وكان أكثر أفراد الأسرة قلقاً " ست الملك " عمته وقال بعض المؤرخين أنها ليست ست الملك ولكنها ست النصر أخته وأن ست الملك ماتت في عهد ولاية المعز وأياً كانت السيدة التي تأمرت ضد الحاكم بأمر الله وهل هي ست الملك أو ست النصر فهي علي كل حال ست والسلام - - وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ويضع برده علي كتفيه وبينما كان صاعداً إلي جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه ولم يعرف بقتله حتي عاد حماره الأشهب ذات صباح إلي القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم - -)² وهذه القصة تذكرنا إلي حد ما بالمؤامرة التي تمت ضد اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية عندما حاول عمل انقلاب ديني مع الفارق في التفاصيل ، ومن أشهر خلفاء الدولة الفاطمية أيضاً المستنصر بالله والذي حدثت في عهده مجاعة وشدة قاسية فهذا العصر لم يخلو من فترات الضيق والشدة وكانت أفظعها الشدة المستنصرية نسبة للمستنصر بالله كما يقال عنها في التاريخ

الشدة المستنصرية :

استمرت هذه الشدة سبع سنوات (457 - 464 هـ) ، (- -) وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوفا في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر - -)³ ، وغاية ما يمكن أن يقال عن هذه الأزمة ما ورد في كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " للمؤرخ الشهير تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (تاريخ المجاعات في مصر) حيث قال (- -) ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، اختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل⁴ - - - وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السبل برأً وبحراً - - وأكلت الكلاب والقطة حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس - - ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعاً - - واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه - -)⁵ ويذكر المقرئ أيضاً غلاء وقع في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك⁶

عصر الوزراء :

وطبعاً كانت هذه الأحداث في عصر الاضمحلال الذي شهدته الدولة الفاطمية وسيطر فيه الوزراء علي الحكم وكان أول من سيطر منهم علي الأمور هو أمير الجيوش بدر الجمالي الشهير والذي اسمه يطلق حالياً علي حي الجمالية بالقاهرة الفاطمية (- -) وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها فلما ولي الوزارة سنة 466 هـ " 1073 م " قضى علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً -)⁷ ويقول المقرئ عن زيادة نفوذ الوزراء في مصر (- -) وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلي آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب

¹ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 34

² أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة 34

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 166

⁴ قصور النيل معناه قلة الماء فيه

⁵ إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقرئ) صفحة 52 ، 53

⁶ صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 166

وسائر الرعية وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية -¹ ويقول ابن الأثير (- كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك -)² ومن هنا يتضح مدى تدهور الأحوال في مصر وحجم الصراعات علي الحكم وطبعاً كل هذه الأحداث التي مرت بها الأمة الإسلامية علي يد القرامطة والشيعة الإسماعيلية أدت بطبيعة الحال إلي تمزق الأمة وتكوين مملكة صليبية في بيت المقدس ولكن هذه قصة أخرى سنتكلم عنها بمشيئة الله في الفصل القادم ونردش عن خلفاء بني العباس في بغداد المعاصرين للفترة الفاطمية في القاهرة وعن نشأة الحروب الصليبية وعن نشأة الدولة الأيوبية وظهور صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإعادة المسلمين إلي الكتاب والسنة والعقيدة السليمة حتي يستطيع مواجهة التحديات التي تواجه الأمة وعلي رأسها الصليبيين ، نلتقي في الفصل القادم إن شاء الله

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 157 (نقلاً عن المقرئبي)
² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 157 (نقلاً عن ابن الأثير)

28. الحملات الصليبية والأمة الإسلامية

العباسيون أثناء الحكم الفاطمي لمصر :

أهلاً بك معي عزيزي القارئ مرة أخرى لنردش معاً عن مرحلة مهمة جداً من تاريخ مصر والعالم الإسلامي وهي مرحلة واجهت فيها الأمة الإسلامية خطر الهجمات الصليبية وكانت الدولة الفاطمية هي التي تمسك بعجلة القيادة في معظم أنحاء العالم الإسلامي أو قل أهم بقاع العالم الإسلامي مثل شمال أفريقيا بالكامل والشام والحجاز واليمن وكان في هذه الفترة الفاطمية يوجد خلفاء لبني العباس في بغداد ، وكما ذكرنا من قبل فإن الأئمة الفاطميين يعتبرهم أهل السنة خارجين علي الخلافة العباسية في بغداد ، وعلي فكرة كان عدد خلفاء بني العباس في بغداد خلال فترة الدولة الفاطمية (11) خليفة عاصروا (11) خليفة فاطمي شيعي في مصر

المعز والمطيع :

فمثلاً نجد أن المعز لدين الله الفاطمي ضم مصر لحكمه في عهد الخليفة العباسي المطيع لله حيث ذكر الإمام السيوطي في الصفحات التي تتناول فترة خلافة أمير المؤمنين المطيع لله العباسي ما يلي (- - -) ف جاء العبيديون¹ فأخذوها² وقامت دولة الرفض في الأقاليم : المغرب ومصر والعراق وذلك أن كافوراً الإخشيدي صاحب مصر لما مات اختل النظام وقلت الأموال علي الجند فكتب جماعة إلي المعز يطلبون منه عسكرياً ليسلموا إليه مصر فأرسل مولاه جوهراً في مائة ألف فارس فملكها - -)³ ثم جاء بعد الخليفة المطيع لله ابنه الخليفة الطائع لله وفي عهده مات المعز لدين الله الفاطمي وتولي الخلافة الفاطمية في مصر العزيز بالله

القادر بالله والحاكم :

ثم بويع الخليفة العباسي القادر بالله بعد الطائع لله ويقول عنه السيوطي ما يلي : (- -) وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات وحسن الطريقة علي صفة اشتهرت عنه وعرف بها كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد - -) وقد صنف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة - -)⁴ وفي عهده مات العزيز بالله الفاطمي وقام بالأمر بعده الحاكم بأمر الله الذي تكلمنا عنه في الفصل السابق وبالمناسبة كان الحاكم بأمر الله الشيعي في القاهرة علي عكس القادر بالله السني في بغداد فيما يتعلق بموقف كل منهما من الصحابة فنجد القادر بالله يؤلف كتاباً في فضائل الصحابة كما ذكرنا بينما (-) قتل الحاكم جماعة من الأعيان صبراً وأمر بكتب سب الصحابة علي أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب - -)⁵

القائم والمستنصر :

وتولي الخلافة العباسية بعد القادر بالله ابنه القائم بأمر الله ويقول عنه السيوطي أنه كان (- -) ورعاً ديناً زاهداً عالماً قوي اليقين بالله تعالي كثير الصدقة والصبر ، له عناية بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج ، لا يري المنع من شئ طلب منه - -)⁶ ولكن للأسف كان خلفاء بني العباس في ذلك الوقت علي الرغم من صفاتهم الحميدة كانوا مغلوبين علي أمرهم وكانت السلطة الفعلية في يد الأمراء والقادة ، وعلي فكرة في عهد الخليفة العباسي القائم كان المستنصر بالله الفاطمي هو الذي يحكم الدولة الفاطمية وظل فترة طويلة جداً في الحكم⁷ وحدث أن ضعف حال الخلافة العباسية في بغداد نفسها ووصل الأمر إلي قتال الخليفة العباسي لمدة حوالي شهر (- -) ودعي لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان "حي علي خير العمل" ثم خطب له في كل الجوامع إلا جامع

¹ العبيديون مقصود بهم الفاطميون

² الضمير عائد علي مصر أي أخذوا مصر

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 317

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 324

⁵ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 325

⁶ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 328

⁷ أقام المستنصر في الخلافة الفاطمية لمدة ستين سنة وأربعة أشهر كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء صفحة 329

ال خليفة ودام القتال شهراً - -)¹ يعني حتي بغداد نفسها سيطر عليها الشيعة وتم تحويل الأذان فيها في الجوامع من الأذان السني إلي الأذان الشيعي وشعر الخليفة العباسي أمير المؤمنين القائم بأمر الله بالهوان الشديد ولجأ إلي المولي عز وجل حتي أنه كتب كتاباً وأرسله ليعلق في الكعبة ومما جاء فيه (- إلي الله العظيم من المسكين عبده ، اللهم إنك العالم بالسرائر ، المطلع علي الضمائر ، اللهم إنك غني بعلمك ، وإطلاعك علي خلقك ، عن إعلامي ، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها ، وألغي العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك حتي تعدي علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواً ، اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، المنصف الحاكم ، بك نعتر عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتر بك وقد حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلي حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين - -)² وبالمناسبة كان المقصود في دعاء الخليفة هو أحد القادة الشيعة الموالين للمستنصر بالله الفاطمي في مصر وكان اسمه " البساسيري " وكان البساسيري قد هزم الخليفة العباسي وقبض عليه وسجنه ، ثم حدث أن جاء أحد القادة السلاجقة السنة واسمه (طغرلبيك) وهزم البساسيري وأفرج عن الخليفة (- ولما رجع الخليفة إلي داره لم ينم بعدها إلا علي فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام وعفا عن كل من آذاه - -)³

المقتدي بأمر الله :

ثم جاء الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الذي في عهده عادت الأمور شيئاً فشيئاً إلي طبيعتها وأصبحت الخلافة العباسية وإفرة الحرمة علي حد تعبير الإمام السيوطي ففي عهده (- -) - - خطب للمقتدي بدمشق وأبطل الأذان "بحي علي خير العمل" وفرح الناس بذلك -)⁴ ويقول عنه السيوطي أنه كان قوي النفس عالي الهمة من نجباء بني العباس وقد عاصر أيضاً المستنصر بالله في مصر

المستظهر والمستعلي وظهور الفرنجة :

ثم جاء بعد المقتدي بالله في الخلافة ابنه المستظهر بالله وكان لين الجانب كريم الأخلاق ومحباً للعلماء والصلحاء (- - ولم تصف له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب - -)⁵ وفي عهده مات المستنصر بالله وقام بعده المستعلي بالله وفي عهده حدثت أولي الحملات الصليبية واستطاع الصليبيون الاستيلاء علي بيت المقدس ويقول السيوطي عن ذلك (- - فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام ، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية وعظم الخطب - - وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً منهم جماعة من العلماء والعباد والذهاد وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم - -)⁶

وضع طبيعي :

كان من الطبيعي عزيزي القارئ أن ينهش الصليبيون جسد الأمة الممزقة التي انقسمت إلي عدة فرق متحاربة وفقدت روح القتال والجهاد وسيطر فيها الشيعة علي معظم البقاع بما فيها الشام وبيت المقدس فلم يتمكنوا من الدفاع عنها وفقدت الأمة الإسلامية لأول مرة بيت المقدس منذ أن دخلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يسبه ويشتمه الشيعة علي المنابر في القاهرة الفاطمية

أصل حكاية الحملات الصليبية :

وأصل حكاية الغزو الصليبي للأمة الإسلامية يعود إلي شهر نوفمبر سنة 1095 م حيث تم عقد مجمع كبير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني⁷ وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم

¹ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 328

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 329

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 329

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 332

⁵ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 334

⁶ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 335

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 159

لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (- وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)¹ ، وهكذا عزيزي القارئ أصبح هناك عدو آخر للأمة بالإضافة إلي الروم أعداءها التقليديين

سبب نجاح الحملات الصليبية :

من وجهة نظر الدكتور الحويري يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام (- - لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية ، وإنما يرجع أساساً إلي انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعض قواهم وافتقارهم إلي الوحدة والتماسك ، فأمرء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة 485 هـ " 1092 م " من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين ، في الوقت الذي انكشفت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين - - وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام ، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين ، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس -)² ، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد من الوزن الثقيل حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي (- الذي وضع نصب عينيه أن التغلب علي الصليبيين وطردهم من بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي -)³

مملكة بيت المقدس الصليبية :

وهكذا عزيزي القارئ استطاع الصليبيون تكوين مملكة صليبية في بيت المقدس استمرت لفترة ليست بالقصيرة وحدث ما كان يخشي حدوثه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث أيقن أن ذنوب الأعداء هي التي أدخلت المسلمين بيت المقدس وكان يخشي أن ذنوب المسلمين بعد ذلك ستكون سبباً في دخول الأعداء بيت المقدس ، (- وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولى آسيا الصغرى ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في 15 يوليو سنة 1099 م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالاً ونساءً ورجالاً وشيوخاً⁴ مما ترك أثراً سيئاً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبرى في الرها وانطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخرى ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانئه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية واستمر وجودهم ببلاد الشام نحو قرنين من الزمان⁵ ، علي وجه التحديد من سنة 491 هـ " 1097 م " إلي سنة 690 هـ " 1291م " -)⁶ ، واستمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار⁷ من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وهكذا وصل الحال بمصر وبالفاطميين وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي ومن أكبر وأطرف النزاعات علي منصب الوزارة في مصر ما دار بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " فهي حكاية مهمة جداً وأصبح لها تأثير كبير علي الأحداث ولهذا قررت محاولة تبسيطها لصديقي القارئ العزيز

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 159

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 160

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 161

⁴ لاحظ الفرق الشاسع بين ما حدث عند دخول المسلمين بيت المقدس وما حدث عند دخول الصليبيين

⁵ ليس معني وجودهم في الشام هذه الفترة أنهم كانوا في بيت المقدس أيضاً كل هذه الفترة بل تم تحرير بيت المقدس واستمروا في أماكن أخرى كما سنرى

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 160

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 185

حكاية شاور وضرغام :

تخيل معي عزيزي القارئ ببساطة شديدة أن الصراع الذي دار بين شاور وضرغام كان صراع علي السلطة وكل واحد لجأ لقوة خارج مصر لتدعم موقفه في مصر والغريب في الموضوع إن شاور لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشاً إلي مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل (ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة -)¹ لاحظ أنها صفقة غريبة بين واحد شيعي وواحد سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب ، أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي أسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلاً إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضاً الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها وطبعاً شتان بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ، وبالمناسبة كان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وإليك عزيزي القارئ بعض تفاصيل الصراع

أسد الدين شيركوه يهزم ضرغام :

قرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ، (- علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفرع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر -)² وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيراً في مصر في الدولة الفاطمية وقد تبدو هذه الحكاية مملة شوية لكن في الحقيقة إنها مهمة جداً وأرجو أن تتحملني قليلاً حتي أنتهي منها ، المهم يا سيدي إن عمك شاور أول ما مسك البلد وقعد علي الكرسي قرر الغر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطائه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو والجيش بتاعه (مع السلامة والقلب داعي لك) ، وطبعاً أسد الدين شيركوه لم يعجبه هذا الكلام وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ورفض مغادرة مصر

شاور يرسل إلي عموري :

ولأن شاور ومن قبله ضرغام ناس مش ولا بد علي ما يبدو وكل ما يهمهم هو السلطة فقط وليس في دماغهم إسلام أو أمة أو أي حاجة من اللي بالك فيها ، قرر شاور بل أرسل بالفعل إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليقف بجوار شاور الشيعي ضد أسد الدين شيركوه السني وكان عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصراً من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية ، المهم يا سيدي المكان أصبح كله مشاكل ولخبطة ، يعني اجتمع في مصر جيش سني وجيش شيعي وجيش صليبي والعملية أصبحت زايطة ، وطبعاً كان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة من أهل السنة تحت قيادة واحدة

عموري يحاصر بلبيس :

حاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس ، وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد من الوزن الثقيل

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 14

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 15

ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخرى للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة ، المهم يا سيدي إنهم وصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن (- - ينسحباً معاً وفي وقت واحد من مصر -)¹ وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضاً عموري وجيشه مصر

كلاييت تاني مرة :

كان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعاً تماماً أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشاً صغيراً قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما أو المفروض أنه كذلك ، المهم يا سيدي إن نور الدين محمود أرسل أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوى من الجيش السابق خوفاً من عودة الصليبيين إلي مصر (فقد ذاقوا طعمها وعرفوا كيفية الوصول إليها) وللمرة الثانية أيضاً أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ، ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وتخيل معي الوزير الذي اسمه شاور وهو يستعين بقوة صليبية علي أسوار القاهرة يا للهوان ويا للعار ، هل تلاحظ معي عزيزي القارئ الحالة التي وصلت إليها مصر في ظل " من يسميهم جهلة العوام الفاطميين " علي حد تعبير الإمام السيوطي رحمه الله

هذه المرة حضر بدون دعوة للحضور :

حضر عموري بجيشه للمرة الثالثة إلي مصر ولكن لاحتلال مصر وليس بدعوة موجهة إليه من شاور أو من غيره ، مما أدي إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر (- وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يوماً وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف -)² وأرسل الخليفة الفاطمي العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام (- بعد أن ينس من الاستيلاء علي مصر ياساً تاماً -)³

وزير سني لخليفة شيعي :

حاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله حتي يخلو له الجو فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريباً ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءً علي طلب الخليفة الفاطمي ، المهم يا سيدي إن بعد شوية لخبطة ومؤامرات وخلافه تم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيائته ، وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له فأصبح الموقف غريب جداً خليفة شيعي ووزير سني موالٍ للخليفة العباسي ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري

صلاح الدين يسيطر علي مصر :

وهنا يتوقف التاريخ ليكتب ويسجل ويشير بجميع أصابعه إذا كانت له أصابع إلي شخصية بارزة طال انتظار ظهورها لتصل إلي قمة الأحداث ، إنه صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني الذي يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، والذي في نفس الوقت أصبح وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) وكما

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 15

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 18

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 18

نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات ومن هنا عزيزي القارئ يمكن أن نتكلم عن الدولة الأيوبية وكيف نشأت وكيف بدأت كفاحها ضد الصليبيين وعن معركة حطين الشهيرة وعودة الروح للأمة في ظل الخلافة العباسية وتوحيدها تحت قيادة أيوبية ولكن هذه قصة أخرى سنتحدث عنها في فصل خاص بها وسوف أخصص إن شاء الله الفصل القادم عن صلاح الدين الأيوبي وكيف استطاع تأسيس الدولة الأيوبية وإيقاظ الأمة من نومها بفضل الله وإعادتها إلي منهج المولي عز وجل وسنتكلم إن شاء الله عن المعارك التي خاضها مع الصليبيين فإلي اللقاء

29. صلاح الدين وإيقاظ الأمة لحرب الصليبيين

صلاح الدين والتحديات :

لقد واجه صلاح الدين العديد من التحديات والمشاكل في الداخل والخارج قبل أن يستطيع تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والعالم الإسلامي ، ولا أريد أن أطيل عليك بذكر تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وبين أعداءه في الداخل والخارج حتى لا تترك الدردشة ، ولكن يمكن تلخيص الموضوع ببساطة شديدة في عدة نقاط محددة ، ولكي نعرف الأعداء لابد أن نعرف هدف صلاح الدين أولاً لأن الأعداء بطبيعة الحال هم كل من يريد فشل صلاح الدين في تحقيق هذا الهدف ، فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود ؟ علي العموم كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين¹ كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية والله أعلم لأنه نظر إليها النظرة التي نتحدث عنها من بداية الدردشة والتي هي جديرة بها ، وقدر لها قدرها وعرف إمكاناتها وثقلها وفضلها والله أعلم ، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنباً إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل أسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله

وفاة نور الدين محمود :

أصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضى دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلقاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولاً في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهراً ، المهم إن صلاح الدين نفذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضى بأمر الله علي المنابر ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي² وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساساً علي ما يبدو ، وكان الخليفة العاضد مريضاً مرضاً شديداً حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ، ويموت أيضاً نور الدين محمود³ ويخلفه ابنه الذي لا يتعدى عمره (11) سنة⁴ وأصبح هذا الطفل مطمئناً للقادة والأمراء الذين حوله (- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين -)⁵ وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين

¹ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 193

² مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 192

³ وسبحان الحي الذي لا يموت

⁴ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

⁵ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

أعداء صلاح الدين :

من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدرًا في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (- فظهر في ذي الحجة 569هـ " يوليو 1174م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام -¹ ، كما حاول أيضاً الفاطميون بالاتحاد مع السودانين إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخرى

الكنافة والقطنف وحلاوة المولد :

كان عودة المصريين إلي المذهب السني شئ طبيعي وسهل جداً لأنهم في الأصل لم يتركوه علي ما يبدو ، ولكنهم لم يتمكنوا من ترك بعض العادات الفاطمية الموجودة إلي الآن مثل الكنافة والقطنف وحلاوة المولد والعروسة والحسان الحلاوة وهي عادات لا يستطيع أحد أن يغيرها لأنها لاقت ترحيباً من المصريين وكانت علي هواهم والله أعلم ويؤكد ذلك استمرارها إلي الآن وعلي العموم هي مجرد حلوي وأطعمة لا علاقة لها بالجهاد ، والمهم أن الحلوي في كل مناسبة دينية لا تعني تفرغ هذه المناسبة من مضمونها الديني وتحولها إلي مجرد نوع من الطعام

المستضى بأمر الله :

اسمح لي عزيزي القارئ أن نتوقف قليلاً عند شخصية الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستضى بأمر الله الذي في عهده تم عودة مصر إلي الخلافة العباسية فعندما تولى الخلافة (- قال ابن الجوزي : فنادي برفع المكوس ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا وفرق مالا عظيماً علي الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط ، وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، ذا حلم وأناة ورأفة -² ، -) وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد ، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فطلعت الأسواق ببغداد وعمت القباب - - وقال الذهبي : في أيامه ضعف الرفض ببغداد وهي وأمن الناس ورزق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلي أسوان ودانت الملوك بطاعته - - وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر كل طاعة وسمع وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء -³ وبهذا عادت مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية رسمياً ، وعلي فكرة قرر صلاح الدين بناء سور حول القاهرة وباقي العواصم الإسلامية الأخرى السابقة لها كالفسطاط والقطنف وقد أصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبري لها سور كبير ليس مقتصر علي القاهرة الفاطمية كما شرع في بناء قلعته الشهيرة الموجودة إلي الآن ومعروفة باسمه ولكنه مات قبل أن يتم بناءها بالكامل

صلاح الدين وتوحيد الأمة الإسلامية :

استطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذاً بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدرًا⁴ وبعد أن استقرت له مصر تماماً قرر أن يخوض حرباً ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحياناً ولا يجد مقاومة تذكر أحياناً أخرى وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 196

² تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 348

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 349

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 196

الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفى بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولاً ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذة بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوة بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وعلي فكرة كان صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتوران شاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وطبعاً كان قراقوش رجلاً مهاباً يضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم فالدين الإسلامي هو الدين الذي لا ينكر الأديان السماوية الأخرى والذي في ظله يمكن أن تنعم باقي الأديان بمقدساتها وخصوصيتها



جانب من قلعة صلاح الدين

فين يوجعك :

(- توالى انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته (-) 1 هذه العبارة وردت " في كتاب مصر في العصور الوسطى " عن بداية معارك صلاح الدين مع الصليبيين وهذا الوصف يؤكد أن انتظار صلاح الدين حتي يتم توحيد الجبهة الإسلامية قبل قتال الصليبيين كان قراراً حكيماً بالفعل ، وبالمناسبة كان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت من الصليبيين رجل اسمه (بلدوين الرابع) ، (- ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالتها صلاح الدين للبيزنطيين طلب بلدوين الرابع وكبار بارونات الصلح من صلاح الدين في مايو 1180م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين (-) 2 ولكن كان هناك شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام هذا الأرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين وأرسله بالفعل وفشل في تحقيق مهمته بفضل الله بسبب يقظة الدولة الأيوبية وإحباطها المحاولة (-) ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز يوضح لنا مدى الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه (-) 3 وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط حاول مرة أخرى " ضرب كرسي في الكلوب " (-) وانقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمجد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد (-) 4

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 199

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 199

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 200

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 201

معركة حطين الشهيرة :

رفع صلاح الدين راية الجهاد ضد الصليبيين الذين لا يحترمون العهود والمواثيق ولا يقبلون بسلام الأقوياء وأرسل صلاح الدين يدعو المسلمين في كل مكان إلي الجهاد فوصل إليه المقاتلون من كل ناحية (-) وخرج علي رأس جيوشه من دمشق في 3 المحرم سنة 583 هـ " منتصف مارس 1187 م " (-)¹ وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من مكان اسمه " صفورية " (-) وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة 1187 م (-)² ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين ومعه الجيوش الإسلامية المجاهدة بفضل الله هزم الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس شخصياً وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة وكان يحتقر الإسلام والمسلمين وسبب كل المشاكل ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (-) فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجراً علي الأنبياء (-)³ وتعتبر معركة حطين أكبر هزيمة لحقت بالجيوش الصليبية حيث تم قتل وأسر معظم الجيش الصليبي ولم يتبق إلا القليل من الفارين

تحرير بيت المقدس :

تعالوا نفرح شوية ونشعر بالعزة والكرامة بعد أن تدهورت أحوال المسلمين لفترة طويلة ثم عادت الأمة لأمجادها السابقة عندما اعتزت بإسلامها الذي هو مصدر عزتها وأخلصوا النية لله ووهبهم المولي عز وجل قائداً صالحاً أيقظ الهمم وحرك الجيوش وناضل حتي استطاع إخلاء معظم الممالك الصليبية في فلسطين واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء وكان من الممكن جداً وبسهولة شديدة إراقة الدماء ولكن الملك الناصر صلاح الدين كان هدفه تحرير بيت المقدس وليس هدفه إراقة الدماء وبالتالي وافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (-) في 27 رجب سنة 583 هـ "2 أكتوبر 1187م" - - ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة 491 هـ "1097م"⁴ أي حوالي 90 سنة⁵

ريتشارد قلب الأسد زعلان يا رجالة :

طبعاً غضب ملوك أوروبا غضباً شديداً بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخصوصاً مسألة تحرير بيت المقدس فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم⁶ ثم أوقع المولي عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصاً علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئناً في 9 أكتوبر سنة 1192م⁷

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 201

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 201

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 202

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 203

⁵ لاحظ معي أن بيت المقدس لم تمض عليه في يد اليهود حالياً كل هذه المدة

⁶ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 204

⁷ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 205

موت صلاح الدين الأيوبي :

مات صلاح الدين الأيوبي (في 27 صفر سنة 589 هـ " أوائل مارس سنة 1193م" - - مخلصاً وراءه دولة متحدة الأركان - - وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده)¹ ، وهكذا مات صلاح الدين الأيوبي بعد أن أسس الدولة الأيوبية التي سنتحدث عنها إن شاء الله في الفصل القادم ، ولكن اسمح لي عزيزي القارئ أن أضع بين يديك بعض أبيات من الشعر كتبها بعض الشعراء في صلاح الدين كي يتضمنها هذا الفصل الذي خصصته للدردشة عن صلاح الدين وسعدت جداً أثناء كتابته وأرجوا أن تكون قد سعدت معي أثناء القراءة ، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين²

ملك يمن علي أساري سبيه - - - فيعيدهم في الأسر بالإحسان
 ملأ القلوب محبة ومهابة - - - فخلت من البغضاء والشنآن
 يا ناصر الإسلام حين تذاذلت - - - عنه الملوك ومظهر الإيمان
 بك قد أعز الله حزب جنوده - - - وأذل حزب الكفر والطغيان
 لما رأيت الناس قد أغواهم - - - الشيطان بالإلحاد والعصيان
 جردت سيفك في العدا لا رغبة - - - في الملك بل في طاعة الرحمن
 وغضبت لله الذي أعطاك فضل - - - الحكم غضبة تائر حران

كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها³ :

بأنه أين الناصر الملك الذي - - - لله خالصة صفت نياته
 أين الذي مازال سلطانا لنا - - - يرجي نداءه وتتقي سطواته
 لا تحسبوه ممات شخص واحد - - - فمات كل العالمين مماته
 دفن السماح فليس ينبش بعدما - - - أودي إلي يوم النشور رفته
 من لليتامي والأرامل راحم - - - متعطف مفضوضة صدقاته

العودة إلى الله :

أهم ما فعله صلاح الدين كي يفيق الأمة من غفلتها ويهزم أعداء الدين أنه جاهد ليعيد الناس إلى الله ويتركوا المعاصي والذنوب ويتطهروا منها فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينصر الله قوماً شاعت الفاحشة بينهم ورضوا بها واعتادوا عليها وأصبحت جزء من حياتهم ، فلا شك أن تقوي الله هي السبيل الوحيد لننال نصره سبحانه وتعالى ، وتقوي الله لا بد أن تشمل جميع أمور حياة المسلم فنجدده يكثر من عبادة الله ويراعي حقوق المسلمين ويتقن عمله ويأمن الناس شره ويتحلي بالأخلاق الحميدة ويتخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم قدوة في جميع تصرفاته

ماذا ترك صلاح الدين :

المفروض أن الكلام عن صلاح الدين في هذا الفصل قد انتهى والمفروض أن الكلام والدردشة ستستمر في الفصل القادم إن شاء الله عن الدولة الأيوبية وحتى انهيارها في مصر ولكن هناك معلومة مهمة جداً من وجهة نظري أريد أن أضعها بين يديك عزيزي القارئ عن صلاح الدين فمن حق هذا الرجل علينا أن نعرف ماذا ترك عندما مات (- وجاء في بعض كتب القاضي الفاضل : " أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلاً يقول له : " قد خرج الليلة يوسف من السجن " ، وهو من الأثر النبوي " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " قال : وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا إلا في سجن ،

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 206 (نقلاً عن السيوطي)

² صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 80 ، 81

³ صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 105

رضي الله عن تلك الروح وفتح له باب الجنة ، فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح -¹ ، (ولما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وديناراً واحداً ذهباً سورياً - - ولم يخلف ملكاً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة ولا مسقفاً ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الأملاك -)² هذا ما تركه صلاح الدين بدون تعليق ، فإلي اللقاء عزيزي القارئ في الفصل القادم حيث نتحدث عن تسعة وسبعين سنة أيوبية من عمر مصر والله المستعان وهو من وراء القصد

¹ صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 104
² صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 105

30. تسعة وسبعين سنة أيوبية من عمر مصر

ملخص العصر الأيوبي :

أول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة 1192 م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة 1198 م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدى إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تماماً وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة 1200 م إلي سنة 1218 م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة 19 سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة 1238 م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين وجدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذ مقر له ، المهم يا سيدي إن الملك الكامل توفي وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة 1240 م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة 1249 م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يوماً وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد المماليك¹ ولكن هذه قصة أخرى سنتكلم عنها في حينها ، المهم إن أشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح وأعتقد أنك سمعت هذه الأسماء من قبل وخصوصاً أن الملك الناصر هو بطل معركة حطين الشهيرة والملك الصالح حالياً توجد باسمه محطة لمترو الأنفاق وكوبري شهير باسمه أيضاً وتعرف جيداً شجرة الدر بالتأكيد وسوف نتكلم عن هذه الشخصيات خلال هذا الفصل بإذن الله

قدر الدولة الأيوبية :

كان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتى آخر لحظة فيها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخرى وكأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصاً لهذا الغرض وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء علي الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول -)²

ملوك بني أيوب والسلام :

كان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلي الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (- ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلي مسالمة الصليبيين وإلي اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك - - ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهى بها إلي تحول الاتجاه عن الشام إلي مصر -)³

ملخص الحملات الصليبية :

تكلنا عن الحملة الصليبية الأولى ودرشنا عنها وهي التي أمر بها البابا أوربان الثاني أثناء قيام الدولة الفاطمية وهي التي أدت إلي تواجد الصليبيين في عدة ممالك صليبية في الشام من بينها مملكة بيت المقدس ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين ولم نتكلم عن هذه الحملة ، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس علي يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت

¹ تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة 89 ، صفحة 90

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلي بلاده ، وبعد هذه الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلي القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخرى اسمها حملة الأطفال قام بها (- صبي من الرعاة وادعي أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس - - - وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلي الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق (-)¹ وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيراً الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعاً وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، المهم يا عزيزي القارئ أن كل هذه الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولى والثانية فقط بالإضافة إلي حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرهما ، وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة وعلي الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريباً بانتهاء الدولة الأيوبية وسبحان الله العظيم عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته

الحملة الخامسة (من عكا إلي دمياط) :

أبحر الصليبيون من عكا إلي دمياط وكان عددهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل في أسطول ضخم وهذه الحملة تسمى الحملة الخامسة وكانت في أواخر عهد الملك العادل الذي كان يجاهد الصليبيين في الشام وينوب عنه في مصر ابنه الملك الكامل ، واستطاع الصليبيون أن يحاصروا دمياط ويحققوا انتصاراً علي الجيش الأيوبي رغم شراسة المقاومة ويقال أن الملك العادل وهو في الشام عندما سمع بانتصار الصليبيون واستيلاءهم علي برج دمياط أصابته حسرة شديدة ومرض ومات وتولي الملك الكامل المسؤولية في أخرج اللحظات فقد كانت مدينة دمياط نفسها تحت الحصار رغم سقوط البرج الحصين في يد الصليبيين وظلت تحت الحصار لمدة ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً² إلي أن سقطت في يد الصليبيين في نوفمبر سنة 1219 م وأصبحت قاعدة لهم في قتال مصر كما هو الحال في مدينة عكا التي اتخذها الصليبيون كقاعدة لقتال الشام وبيت المقدس

المنصورة وتحقيق النصر :

كان من الطبيعي بعد أن سيطر الفرنجة علي دمياط أن يقوم الملك الكامل بتأسيس قاعدة عسكرية لقتالهم قبل أن يتوغلوا داخل البلاد فكانت هذه القاعدة هي مدينة المنصورة الموجودة حالياً وظل كلا الجانبين يحصن قاعدته ويؤمنها " الصليبيون في دمياط والمسلمون في المنصورة " إلي أن وقعت المواجهة بين الفريقين وانتهت بانكسار الصليبيين وطلبوا الأمان من الملك الكامل وتم الاتفاق بين الفريقين علي انسحاب الصليبيين من دمياط دون قيد أو شرط³ وتم الاتفاق علي هدنة مدتها ثمانية سنوات وبهذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة علي خير والحمد لله علي كل حال

الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني :

في الحقيقة هذين الشخصين قد سبق كل منهما العصر الذي كان يعيش فيه فلقد كان الملك الكامل رجل محباً للسلام والتعاون وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام ومحبة وأصل الحكاية إن البابا أخذ يلح علي فردريك بأن يقوم بحملة صليبية جديدة ويضغط عليه بشدة لتنفيذها ، كما أن الملك الكامل كان يميل إلي السلام وعدم استخدام القوة في حل المشاكل علي ما يبدو وقد كان يهتم بالإصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وإنشاء المدارس وما إلي ذلك (- - وكان كلاً منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال :

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 80

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 85

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 86

كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل - -)¹ ومن هنا كانت الحملة الغربية والطريقة جداً والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها الاتفاق الذي تم بين فردريك الثاني والملك الكامل واسمح لي عزيزي القارئ هذه المرة بعدم الاختصار وأن أذكر لك بنود الاتفاق كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديداً في صفحة (90)

معاهدة غربية على زمن توقيعها :

- (1) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً
- (2) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرية وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل
- (3) أن يبقى في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً
- (4) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري
- (5) أن يتعهد فردريك بمخالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين
- (6) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإماراتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس
- (7) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وبالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيع هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضاً المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة

الملك الصالح يستعيد بيت المقدس :

عندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة 1244 م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخرى في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة (- ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فارس فردريك في السر رسولاً يحمل إلي الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر -)² وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولاً فيصبح بذلك الطريق سهلاً إلي تحقيق الهدف الرئيسي من الحملة

الحملة الصليبية السابعة تستولي على دمياط :

وكانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط واستولت عليها بطريقة غريبة جداً ليس لتفوقهم دخل فيها بل إن السلطان الملك الصالح كان مريضاً جداً وعندما وصلت السفن الفرنسية (- أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوباً - - - ونظر أهالي

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 89

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 94

دمياط فوجدوا الجيش الذي أتى لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم - -)¹ ومما يدهشك عزيزي القارئ ويدهشني معك أن الملك لويس عندما أصبح ووجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي ظن أنها مكيدة وقام بإرسال من استطلع الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل ودخل الجيش الفرنسي المدينة بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر لأنها كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به جداً ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ، وتأمل معي مدي تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة حتى لو كان خبر غير صحيح

الملك الصالح في المنصورة :

رغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعدة لقتال الصليبيين وقام بتحسينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين والعودة في كل يوم بعدد من الأسري² وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة 647 هـ " 22 نوفمبر سنة 1249 م " في أدق مراحل الجهاد ضد الصليبيين

شجرة الدر تخفي خبر وفاة الملك :

كانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف الروح المعنوية لدي الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته (-) وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح (-)³ واحتدم القتال وتسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء

تورانشاه وصل يا رجالة :

بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع ف شعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر⁴ فرفض تورانشاه واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ووقع في الأسر الملك لويس التاسع شخصياً الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام



الملك لويس التاسع أسيراً

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 97

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

⁴ كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عرف قديم ومعروف

أحوال مصر في العصر الأيوبي :

لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية¹ مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري² علي الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال قيام دولتهم كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وسأضرب لك عزيزي القارئ مثلاً واحداً فقط قد يغني عن الكثير من الأمثلة التي تدل علي مدى التقدم العلمي في مصر أيام الأيوبيين فمثلاً (-) في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلي أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها علي من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلي سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلي الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيسر الأصفوني فإنه كان المشار إليه في ذلك (-)³ وهذا المثل يؤكد أن ملوك بني أيوب كانوا يعرفون جيداً أن التقدم العلمي والرخاء الاقتصادي من أسباب تحقيق النصر مع صحة العقيدة والأخذ بأسباب القوة

نهاية الدولة الأيوبية :

معني الكلام عن انتهاء حكم بني أيوب لمصر هو أن نتكلم عن قيام السلطنة المملوكية التي حكمت مصر بعد الأيوبيين وطبعاً هذا الكلام يحتاج إلي فصل كامل للدرشة عنه وليس مجرد فقرة قصيرة في نهاية هذا الفصل وبالتالي سوف نتحدث باستفاضة عن قيام دولة المماليك البحرية في مصر في الفصل القادم إن شاء الله ولكن جدير بالذكر أن المماليك كانوا معنا في هذا الفصل أثناء العصر الأيوبي وكان لهم دور كبير ورئيسي في معركة المنصورة ضد لويس التاسع وجيشه الضخم ، ولكنني لم أنوه عنهم أو أشير إليهم من قريب أو بعيد أثناء الدرشة عن الصليبيين ، ربما لأن الكلام عنهم لا بد أن يواكب بداية فصل خاص بهم أو ربما لأن الكلام عن موضوع ما بوضوح يتطلب عدم التطرق لموضوعات أخرى حتي لا تحدث لخبطة ، وعلي العموم يا سيدي هؤلاء المماليك الذين أكثر الملك الصالح من شرائهم ليستعين بهم علي حروبه كان يعاملهم معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع ممالك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم والله أعلم (-) ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة بل كان شاباً أهوج فلم يقدر لزوجته أبيه شجرة الدر تديرها ولا للمماليك البحرية جهدهم (-)⁴ وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجرة الدر بإدارة شؤون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك في مصر والتي سنتحدث عنها إن شاء الله في الفصول القادمة ،

كلمة أخيرة عن الأيوبيين :

ولكن قبل أن نختم الكلام عن الأيوبيين ونضالهم ضد الصليبيين منذ اللحظة الأولى في دولتهم وإلي اللحظة الأخيرة وكذلك جهودهم الضخمة في جميع المجالات العلمية والصناعية والزراعية والتجارية في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية التي كانت تحت سيطرتهم واهتمامهم بالمذهب السني وبالخليفة العباسي الذي استمدوا منه شرعية الحكم وكانت أخبار انتصاراتهم من أكبر أسباب سعادة الخليفة في بغداد وكافة المسلمين في العالم {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (14)، (15) سورة التوبة ،

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 219

² حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 225

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) الجزء الثاني صفحة 101

وإليك عزيزي القارئ بعض أبيات من الشعر كتبها شاعر مصر جمال الدين بن مطروح¹ ودع فيها الفرنجة في شماتة واضحة بعد هزيمتهم في معركة المنصورة كالاتي :

قل للفرنسيس إذا جئته - - - مقال نصح عن قؤول فصيح
 أتيت مصر تبتغي ملكها - - - تحسب أن الزمر يا طبل ريح
 فساقتك الحين إلي أدهم - - - ضاق به عن ناظريك الفسيح
 وكل أصحابك أودعتهم - - - بحسن تدبيرك بطن الضريح
 سبعون ألفاً لا يري منهم - - - إلا قتيل أو أسير جريح
 وقل لهم إن أضمروا عودة - - - لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
 دار ابن لقمان علي حالها - - - والقيد باق والطواشي صبيح²

وداعاً للدولة الأيوبية التي كانت تحاول بقدر الإمكان دائماً تجنب الحروب والدمار ولكن قدرها كان مواجهة الخطر الصليبي الذي لا يعترف بالعهد والمواثيق ولا يقبل بسلام الأقوياء إلا نادراً ، وإلي اللقاء مع المماليك والعدو الجديد للأمة الإسلامية " التتار " في الفصل القادم إن شاء الله والله الموفق

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني 102

² الطواشي صبيح هو الذي كان مسؤولاً عن حراسة الملك الأسير لويس التاسع في مكان حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وطبعاً هذه القصيدة تحمل تهديداً واضحاً لمن أراد أن يفكر في العودة مرة أخرى إلي مهاجمة مصر

31. المماليك على عرش مصر

يعنى إيه ممالكك ؟ :

في الحقيقة قبل ما ندرش عن كيفية وصول المماليك لحكم مصر بل وحكم معظم أنحاء الأمة الإسلامية يجب أن نعرف ماذا تعني كلمة ممالكك وما هي حكايتهم ، وطبعاً موضوع المماليك موضوع كبير جداً وعندما سندخل فيه سنجد صعوبة عند الخروج منه والحكاية تتلخص في أن تقوم بشراء عدد كبير من الصبية الصغار ثم تقوم بتدريبهم علي فنون القتال المختلفة منذ الصغر بالإضافة إلي ما تراه ضرورياً من العلوم الدينية والدنيوية وبالتالي تنشأ هذه القوة التي تمتلكها علي أسس عسكرية قوية وتكون تحت سيطرتك الكاملة لأن الموضوع ببساطة شديدة يتلخص في امتلاك قوة بالفلوس تكون جاهزة لتنفيذ أوامرك كما ينفذ العبيد أوامر سيدهم ولكن لفظ العبيد لم يتم استخدامه في هذا النوع من الرقيق كما لو كان هناك فرق بين العبد العادي والعبد الذي يتم تدريبه علي القتال لأن المماليك مع الوقت بدأ يتكون منهم قادة وأمرأه يسيطرون علي مجموعات منهم مثل الوحدات العسكرية وكلما كانت القوة التي تحت سيطرة الأمير (المملوك) كبيرة كان ذلك يدل علي أقدميته ومدى ولاءه للملك أو السلطان

طبيعة المماليك النفسية :

لم يكن المملوك يعيش حياة أسرية عادية منذ صغره فلا أب ولا أم ولا أخوة وأخوات وبالتالي كل ما يرتبط به في حياته هم زملاءه وأساتذته وبالمناسبة كان الزميل يسمي (الخشداش) وهو الذي يعتبره دفعته أما الأستاذ فهو قائده الذي اشتراه وعلمه فنون القتال وهو يعتبر المثل الأعلى له ، وبالتالي لكي نفهم ما دار في عصر المماليك بسهولة يجب أن نعرف طبيعة هؤلاء المماليك فإذا فهمنا جيداً النشأة النفسية لهم كان من السهل أن نحلل تصرفاتهم وقراراتهم أثناء توليهم السلطة والقيام بما يسمي بعسكرة الدولة ، وأهم ما يقال في هذا المقام عن المماليك أنهم احترفوا القتال وأصبح القتل هو أهم ما يجيدونه في الحياة والطبيعة العسكرية هي الطابع الرئيسي لهم ولكنها طبيعة خاصة جداً لأنهم لا يعرفون حنان الأم وعطف الأب ودفء الأخوة وبالتالي نشأت علاقات أسرية بديلة فكان الأستاذ هو الأب والخشداش أو الزميل هو الأخ والشيخ الفقيه يعوض اهتمام وحنان الأم وتخيل معي عزيزي القارئ أن تنشأ في مثل هذا الوسط العسكري القاسي الذي يختلف عن الحياة العسكرية الموجودة حالياً لأن الرجل العسكري حالياً قد نشأ علي الأقل وسط أسرته الخاصة وله حياته الخاصة ومرتبطة بها ومرتبطة به كل الارتباط أما المماليك فقد كانت الحياة العسكرية هي تقريباً حياتهم الخاصة ، وحتى لا أطيل عليك فسوف أضرب لك مثلاً بسيطاً سيوضح لك تماماً طبيعة هؤلاء المماليك فمثلاً أي مملوك يعيش حتي يتجاوز الأربعين من عمره قد يتهمه زملاءه بالجبن وعدم الشجاعة لأنه لو كان شجاعاً لمات في سن الشباب في أحد المعارك أو أثناء التدريبات الشاقة وهذا المثل بالرغم من أنه مبالغ فيه جداً ولكنه يوضح الكثير ، كما أن المماليك كانوا يعيشون في جو يغلب عليه روح المؤامرات والمخططات التي ترمي لتحقيق أهداف معينة ، وقبل أن تفهمني غلط عزيزي القارئ أريد أن أوضح أن السلطان أو الملك الذي يقوم بشراء المماليك يحرص عادةً علي تثقيفهم وتعليمهم أصول الدين والفقه وباقي العلوم الدينية بقدر المستطاع حتى يتم تحقيق التوازن النفسي والإيماني لدي كل واحد منهم بل إن الإيمان بالله والجهاد في سبيله كان سبباً رئيسياً في انتصاراتهم علي أعداءهم والله أعلم

إعداد المملوك :

وخير دليل علي ذلك ما ورد عن أسلوب إعداد المملوك منذ الصغر (- فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار - - - فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب

الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفتناً ينقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتى يصير من الأمراء -¹

نشأة دولة المماليك البحرية :

كان الملك الصالح سبباً رئيسياً في التمهيد لقيام الدولة المملوكية دون أن يقصد بالطبع فقد قام بشراء العديد من المماليك بكثرة ملحوظة وجعل لهم قلعة كبيرة في جزيرة الروضة التي تحيط بها مياه النيل من كل اتجاه وقد يكون هذا سبباً في تسميتهم بالمماليك البحرية أو قد يكون السبب أنهم يأتون إلي مصر من وراء البحار أو عبر البحار ، المهم أنهم كانوا علي قدر كبير جداً من الولاء للملك الصالح أستاذهم جميعاً وكان الملك الصالح يجيد فن التعامل معهم وخاصة كبار المماليك القادة ولكن للأسف الشديد لم يكن ابن الملك الصالح يعامل ممالك أبيه بنفس الأسلوب فقد احتقرهم علي ما يبدو بعد وفاة أبيه وكان يتعامل معهم بما لا يليق بهم وخاصة الأمراء والقادة حتى أنهم اعتقدوا أنه سيتخلص منهم مما أدى إلي أنهم تخلصوا منه وتآمروا لقتله وقاموا بإعطاء السلطة لزوجة أبيه شجرة الدر (التي يعتبرها بعض المؤرخين أول سلاطين المماليك) ولكن الخليفة العباسي في بغداد في ذلك الوقت (المستعصم بالله) أرسل إليهم رسالة محتواها ومضمونها أن لديه رجالاً يصلحون لتولي السلطة في مصر ويمكنه إرسال أحدهم لحكم مصر إذا لم يكن في مصر رجال يصلحون لذلك²

(- وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم - وهو الأمير عز الدين أيبك - السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً³) وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، المهم إن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك⁴ ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة ، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ، وأحس الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام و (- نجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره -)⁵ وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرة واستطاع أيبك أن يسيطر علي الموقف ويقضي علي ثورة الأعراب في صعيد مصر ويتخلص من خصومه من المماليك المعارضين وقرر أن يورث الحكم لابنه نور الدين علي وأن يقيم دولة مملوكية قوية لها أسس وقواعد ثابتة وقد نجح إلي حد كبير في تأسيس الدولة المملوكية ويعتبر أيبك هو المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية علي ما يبدو ، المهم إن الأمور حصل فيها شوية لخبطة ومؤامرات وبلاوي سودة أدت إلي مقتله ومقتل شجرة الدر ثم تعيين ابنه الصغير " الملك نور الدين علي " وهو يبلغ من العمر "15" سنة ثم قام سيف الدين قطز بعزل الملك الصغير لأسباب تتعلق بالأمن القومي للأمة الإسلامية التي اجتاحتها المغول بلا رحمة وقتلوا الخليفة العباسي ببشاعة وكان لآب من ملك قوي يسيطر ويحسم الأمور ويواجه هذا الخطر الرهيب ، ولكن لآب أن نسجل في هذه الدردشة أن أول ملك أسس الدولة المملوكية هو الملك عز الدين أيبك التركماني الصالحى ،

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 238 ، صفحة 239

² كانت شرعية الحكم في أي مكان في العالم الإسلامي تعتمد علي مباركة وموافقة خليفة المسلمين في بغداد وبالتالي لم يكن من الممكن استمرار شجرة الدر في الحكم مع الرفض الصريح الواضح من الخليفة علي ذلك بل إن رسالة الخليفة إلي أمراء المماليك أعطت لهم الضوء الأخضر كما يقال لحكم مصر وفهموا أنها تمنحهم شرعية الحكم

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج2 صفحة 115

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج2 صفحة 116

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج2 صفحة 116

ملخص عصر المماليك بالكامل :

تولي سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي 267 سنة (- وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي ممالك بحرية استمرت من 650 هـ / 1252 م إلي 784 هـ / 1382 م - - - ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في 932 هـ / 1517 م)¹ ، (وتولي سلطنة مصر 27 ممن المماليك البحرية و 28 من المماليك البرجية)² وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك 55 سلطاناً مملوكياً بالتمام والكمال ، وفي عهد الظاهر بيبرس تم انتقال الخلافة العباسية إلي مصر لتصبح مصر دار خلافة عباسية مما أضفي شرعية قوية لسلاطين المماليك الذين توسعوا في ملكهم ليشمل معظم أنحاء العالم الإسلامي كالحجاز والشام ومصر وغيرها ، ولكن الشرعية الحقيقية لهؤلاء السلاطين كانت في تعاطف الأمة كلها معهم وحبهم لهم وتقديرهم الكبير لدورهم الرائع في القضاء علي المغول (التتار) وتطهير الأمة الإسلامية منهم ومن بقايا الصليبيين المعتدين وكانت هذه المرحلة في تاريخ المماليك هي التي بالفعل أضفت الشرعية علي حكمهم وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى بعدم شرعية حكمهم لكونهم عبيد تم شرائهم ولا جدوى من شراء أنفسهم بأموالهم لأنهم وما يملكون ملكاً للدولة ، ولكن بعد تصديهم للتتار وقهرهم للأعداء نالوا إعجاب الجميع ومبايعتهم لأنهم حافظوا علي الدولة الإسلامية³ من خطر التتار وكل هذا بفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته

أشهر سلاطين المماليك :

أريد أن أذكر أشهر أسماء سلاطين المماليك قبل أن نخوض في بعض تفاصيل الأحداث التي دارت في مصر أثناء عصر المماليك البحرية ، وطبعاً السلطان المعز عز الدين أيبك يعتبر مؤسس هذه الدولة ، كما يعتبر السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز أيضاً من أشهر ملوك الدولة المملوكية وكذلك السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس والسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون وأولاده وأشهرهم السلطان محمد بن قلاوون والسلطان حسن بن محمد بن قلاوون وكل هؤلاء من المماليك البحرية أما أشهر ملوك المماليك البرجية (الجراكسة) فمنهم السلطان الظاهر سيف الدين برفوق والسلطان المؤيد شيخ المحمودي والسلطان الأشرف سيف الدين برسباي والسلطان الظاهر سيف الدين جقمق والسلطان الأشرف قايتباي والسلطان الأشرف قانصوه الغوري والسلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك ، وفي الحقيقة هذه الأسماء هي الأسماء التي يمكن أن نعتبرها أشهر الأسماء في الدولة المملوكية بشكل عام أما باقي الخمسة وخمسين سلطان فليست علي نفس المستوي من الشهرة حالياً ، أما خلفاء بني العباس خلال هذه الفترة فكانوا متواجدين بمصر وكانوا بمثابة رمز لتوحيد الأمة الإسلامية وتفرغوا تماماً لأمر الدين والعبادة وتركوا شؤون الحكم للسلاطين الذين كانوا ينزلونهم منزلة رفيعة تليق ببني العباس

أسلوب انتقال السلطة في العصر المملوكي :

لم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (- ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم - - - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أخذ عليهم من موثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبار أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان

¹ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 93

² موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 94

³ لقد كان المماليك في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها علي مستوي العالم في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لقوة تدرأ عنها الأخطار المحدقة بها من كل جانب

السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك -¹ وعلي فكرة لم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، وعلي الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون **رأي الدكتور محمود الحويري في المماليك :**

الدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج وهو مؤلف كتاب رائع اسمه "مصر في العصور الوسطي الأوضاع السياسية والحضارية" وهو من المراجع التي نقلت منها الكثير من الفقرات والعبارات والمعلومات التي تصف أحوال مصر في تلك الفترات من تاريخها وأوردتها في هذه الدردشة بكثرة ، ولعلك لاحظت عزيزي القارئ ذلك ، المهم أن الدكتور الحويري له رأي في المماليك أود أن تعرفه فهو يعتبر أنهم كما ورد في كتابه بالحرف الواحد (- أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتي وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغاراً انقطعت حبالهم نهائياً بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطناً غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية ، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه ، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه ، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها ، وهي حقيقة أثبتها التاريخ علي مداه الطويل ، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة ، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما ، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها ، فصارت مصرية ، وهذه الحقيقة تنطبق علي المماليك في مصر ، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا علي استقلاله ضد الغزاة وينبغي ألا ننسى أن المماليك منذ ظهورهم علي مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط² قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماة والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر -³ ، انتهى كلام الدكتور الحويري وهو رأي مهم رأيت أن أذكره لك عزيزي القارئ كما هو ، وعلي أي حال فإن المماليك كانوا في فترة ما هم القوة الوحيدة الحقيقية في الأمة الإسلامية بالكامل في وقت كانت فيه الأمة في أمس الحاجة إلي من يدافع عنها ضد الأخطار المحيطة بها وكانوا علي مستوي المسؤولية في الدفاع عن المقدسات الإسلامية مهما قيل عنهم بعد ذلك ، فقد حملوا راية الجهاد في سبيل الله وهي راية يمكن أن يحملها أي مسلم مهما كانت جنسيته أو وطنه

المماليك وعلماء الدين :

في الحقيقة أنا حاسس إنني تكلمت كثيراً عن المماليك أكثر مما تكلمت عن الأحداث التي دارت في عهدهم ، ولكن كي تظمن عزيزي القارئ فإن الفصل القادم بالكامل مخصص بإذن الله ومشيئته في الكلام عن أهم الأحداث التي دارت في الأمة الإسلامية في عهد المماليك البحرية والحروب التي خاضوها ضد التتار والصليبيين ، المهم أنني أريد قبل أن أختتم هذا الفصل الذي يتحدث عن المماليك بشكل خاص جداً ، أريد أن أوضح مدي تأثير الدين وعلماء الدين علي ملوكهم وسلاطينهم ، (- إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس - - فقد أدي ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 119

² اصطلاح الشرق الأوسط يعتبر اصطلاح حديث نسبياً لأن الأمة العربية الإسلامية كانت ولا تزال من الناحية الجغرافية مركز العالم ولكن كما نعرف جميعاً فإن القوة هي التي تحدد مكان كل دولة بالنسبة لها فإذا كانت أكبر قوة في أقصى الغرب فإن العالم كله يتحول بالنسبة لها إلي شرق (فيصبح شرق ، وشرق أدني وشرق أوسط وشرق أقصى) فالموقع يتحدد طبقاً لنسبته إلي الدول الكبرى وبالتالي أصبحنا الآن في الشرق الأوسط بالنسبة لهم ولكن كان وضعنا الطبيعي هو مركز العالم كموقع وكقوة وحضارة واقتصاد وعلم والله أعلم

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 240

طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزرع السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها - -)¹ كما أن (- قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين ، حرصاً منهم علي تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني -)² ، (- وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام -)³ ، ومع فارق التشبيه يمكن اعتبار أن الحياة الديموقراطية في عهد المماليك كانت تتمثل في نواب الشعب وهم الشيوخ الذين يقفون ضد الحكومة عندما تتعارض قراراتهم مع مصالح الشعب وعلي العموم أدرك المماليك في البداية عند توليهم السلطة أن الإسلام هو مصدر عزة الأمة فاحترموا علماء الدين والخليفة وطبقوا منهج الله سبحانه وتعالى وانتشرت المدارس بكافة أنواع العلوم وازدهر التعليم الديني في مصر بشكل ملحوظ وكذلك المساجد حتي أنك تلاحظ حالياً كم غير عادي من المساجد والمدارس الأثرية المتبقية من عهد المماليك

الأمن القومي للدولة المملوكية :

أخيراً عزيزي القارئ انتهى الكلام عن المماليك بشكل عام وحن الوقت لنتكلم عن الأحداث التي دارت في عهدهم ، فقد كان هذا الفصل مدخل مهم من وجهة نظري المتواضعة لكي نتعرف علي المماليك بشكل عام لأن الكثير من أبناء هذا الجيل لا يعرف عنهم الكثير ، وعلي فكرة كان عصر المماليك ذاخر بأمجاد كثيرة وانتصارات رائعة للإسلام والمسلمين كما أنهم اهتموا ببناء المدارس ونشر العلم بكافة صورة في ذلك الوقت وتمسكوا بتعاليم الإسلام وظلوا هكذا حتي انهارت دولتهم عندما انتشر بين العديد منهم حب الدنيا والجشع والخيانة كما سنذكر ذلك في حينه ، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ} (117) سورة هود ، أما عن تداول السلطة والقتال والصراعات علي الحكم التي اشتهر بها عصر المماليك فإن طبيعة الأوضاع السياسية والعسكرية والأمنية في ذلك الوقت كانت تجعلهم يبررون هذه الصراعات وكان الأمير الذي يريد أن يجلس علي العرش يتخلص من خصومه ويعتبر نفسه الأقوى والأصلح للقيادة وأن القضاء علي الخصوم بالقتل أو النفي كان يعتبره من متطلبات الأمن القومي والاستقرار السياسي فقد يتحول بسهولة جداً اختلاف الآراء بين الأمراء إلي قتال شرس وعنيف وما يشبه الحروب الأهلية⁴ التي تدمر كل شئ لأن كل أمير توجد تحت سيطرته قوة لا يستهان بها طوع أمره وبالتالي لا بد من أمير قوي يسيطر علي الجميع ويضمن ولاءهم ولو بالقوة والعنف في البداية وبمجرد أن يجلس علي العرش يبدأ في تحقيق العديد من الإصلاحات والانتصارات والأمجاد ليؤكد لنفسه ولأمة كلها أنه كان علي حق عندما أصر علي تولي السلطة والتخلص من الخصوم (مجرد وجهة نظر) وإلي اللقاء في الفصل القادم إن شاء الله لنتكلم عن أهم الأحداث التي كانت في عهد المماليك البحرية حيث أنني سأخصص إن شاء الله فصل عن أهم الأحداث في عصر المماليك البحرية وفصل آخر عن أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية ثم فصل أخير عن أحوال المصريين في عهد المماليك بالكامل بشكل عام والأحوال الحضارية والاقتصادية والله المستعان

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 241

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 241

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 242

⁴ كانت تحدث الصراعات علي الحكم عندما يقبل كبار الأمراء في الاتفاق علي سلطان محدد منهم ليحكم ولم يكن مقبولاً لديهم أن يحكم ابن السلطان الراحل لأنه لم ينشأ النشأة التي تعودوا عليها فهو ليس واحد منهم كما ذكرنا فكان يتولي الحكم لحين الاتفاق علي الملك الجديد وإذا لم يحدث هذا الاتفاق يبدأ الصراع علي الحكم بأشكاله المتعددة ودائماً وفي نهاية الأمر يصل إلي الحكم من أراد المولي عز وجل له الحكم فالملك بيد الله يؤتية من يشاء

32. أهم الأحداث في عصر المماليك البحرية

المغول خطر يهدد العالم :

في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاء العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرّب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر بعد أن استطاعوا هزيمة كل البلاد التي مروا بها وكانوا يغدرون بعهودهم إذا عاهدوا وليس لهم أمان يوثق به فإذا قامت مثلاً مدينة بالاستسلام مقابل حفظ أرواحهم وافق المغول علي هذا الشرط واستلموا المدينة ثم بعد ذلك يقومون بقتل الرجال وهتك عرض النساء وسبيهم وبيع الأطفال ، وبهذا كان هؤلاء القوم يشكلون خطراً كبيراً ليس علي الأمة الإسلامية فقط بل علي البشرية كلها ، وأكبر دليل علي ذلك أن المؤرخين الأوروبيين اعترفوا بأن المغول¹ أو التتار كانوا يشكلون خطراً كبيراً علي العالم المسيحي لولا معركة عين جالوت التي انتصر فيها المسلمون عليهم (- ويعترف المؤرخون الأوروبيون عند التأريخ لهذه المعركة أنها لم تنقذ العالم الإسلامي وحده من خطر المغول المخرب المدمر ، بل لقد أنقذت العالم المسيحي كذلك لأنه لم يكن في أوروبا المسيحية وقتذاك ملك قوي يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا علي المماليك وتقدموا في اتجاههم الطبيعي نحو أوروبا -)² فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلي لم يذوقوا طعم الهزيمة أبداً وبالمناسبة الموطن الأصلي لهم هو شرق آسيا عند أطراف الصين وكانوا لا يحتاجون مدهم هم ودوابهم بأي إمدادات من أي نوع فهم يأكلون الخيول وأي شئ في أي وقت ويشكلون خطراً رهيباً علي العالم المتحضر في ذلك الوقت

الخليفة العباسي المستعصم بالله (قتل التتار) :

(- كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة - - ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي³ فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار⁴ وناصحهم وأطعمهم في المجرى إلي العراق وأخذ بغداد - - - وصار إذا جاء خبر منهم كتّمه علي الخليفة ويظالغ بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل -)⁵ ، ومن هذا يتضح أن هذا الوزير الشيعي قد خان الدولة والخلافة العباسية ، المهم يا سيدي إن الوزير وضع صورة غير حقيقية عن الموقف أمام الخليفة بينما وضع صورة حقيقية أمام التتار حتي أن الخليفة اعتقد أنه يمكنه إنقاذ الأمة وحقق دماء المسلمين وذلك بتوقيع معاهدة مع التتار كما يفعل بعض الملوك عندما يواجهون خطراً أكبر من إمكانياتهم فيلجئون إلي الدبلوماسية ، ولم يكن الخليفة العباسي فقط الذي تم خداعه بهذا الموضوع بل قام الوزير ابن العلقمي بخداع العلماء والأمراء أيضاً (- ثم دخل الوزير فاستدعي الفقهاء والأمثال ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وصار كذلك : تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتي قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار ثم مد الجسر وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً فبلغ القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقتل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دفن ، وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها -)⁶

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم - - - ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصابة الإسلام نوحى واندي - - - حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة⁷ كان قبل زمانه - - - لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وطبعاً عزيزي القارئ قد قرأت لك الكثير عن التتار في عدة مراجع وكتب وأردت اختصار ما جاء بها وإعادة صياغته طبقاً لسياق هذه الدردشة ولكن بكل صدق وبكل ألم اعترف لك عن عجزني عن التعبير بأسلوب المتواضع عن ما فعله

¹ يمكن إطلاق اسم التتار أيضاً علي المغول لأن كلمة التتار وكلمة المغول تم استخدامهما في المراجع بنفس المعنى

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج2 صفحة 125 ، 126

³ كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

⁴ باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

⁵ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 363

⁶ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 368

⁷ دست الوزارة = منصب الوزارة

التتار بالإسلام والمسلمين بل وبجميع الأديان والجنسيات التي واجهتهم ولا تتسع الدردشة لأعيد كتابة ما قرأته فحاول أنت أن تتخيل البشاعة في أسوأ صورها وأعتقد أنك لن تصل إلي مستوي الحدث قطر يتولى المسئولية :

بعد أن تم قتل الخليفة تحت حوافر الخيول وأصبحت الأمة بلا خليفة وبلا سلطان وبلا قائد سوي هذا الغلام الصغير السلطان نور الدين علي الذي من المفترض أن يقود الأمة وسيطر علي جحافل المماليك وعناد الأمراء ويدفعهم إلي قتال العدو المشترك اللدود " التتار " ولكن للأسف لم يكن هذا الغلام من المماليك أساساً ولا رجلاً عسكرياً أو سياسياً ولا حتي قائداً من أي نوع فيما يبدو والله أعلم ، وطبعاً قد تكلمنا عن أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي في الفصل السابق وأوضحنا فشل موضوع التوريث وموضوع الأمن القومي المملوكي وبالتالي لن أوجع دماغك بتفاصيل وصول كل سلطان من سلاطين المماليك للحكم في كل مرة ينتقل فيها الحكم من سلطان إلي آخر ، المهم إن قطر قرر عزل السلطان الصغير وتولي بنفسه السلطنة وكان هدفه الأساسي هو القضاء علي التتار وقال لكبار الأمراء من المماليك (- إنني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم)¹

الكل لازم يدفع :

عندما كان قطر نائباً للسلطان الصغير الملك المنصور نور الدين علي واقترب الخطر المغولي من البلاد كان لابد من جمع الأموال للإنفاق علي إعداد الجيش الذي سيواجه المغول وكان لابد من صدور فتوى من أحد الفقهاء لجمع المال لمواجهة العدو حتي لا يبدأ الجهاد بظلم العباد ، وأثير هذا الموضوع المهم عند وصول رجل يطلب معونة مصر لصد هجوم التتار وكانت فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن الإنفاق لابد أن يشمل الجميع بلا استثناء وبعد أن تستنفذ الدولة كل ما لديها من أموال في بيت مال المسلمين وإليك رواية السيوطي عن هذا الموضوع (- ثم دخلت سنة سبع وخمسين² والدنيا بلا خليفة - - وفيها نزل التتار " آمد " وكان صاحب مصر المنصور علي ابن المعز صبيها وأتابكه الأمير سيف الدين قطر المعزي مملوك أبيه ، وقدم صاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولا يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطر الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبغي في بيت المال شيء وأن تبعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساواوا في ذلك أنتم والعامه ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا -)³ ومن هنا يتضح أن فتوى الشيخ الذي يحترمه المماليك بل ويعملون له ألف حساب أيضاً كانت بمثابة القاعدة التي علي أساسها يبدأ الجهاد

المواجهة الأولى :

أرسل هولاءكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد وتدعو للاستسلام وكان محتواها بالتأكيد مشابه لمحتوي باقي الرسائل التي أرسلوها من قبل للدول الأخرى قبل مصر (- فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكننا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر - - دمرنا البلاد وأيتنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيراً وأميرهم أسيراً ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون -)⁴ وطبعاً قطر كان علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام وبالتالي كان رد قطر بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاءكو (وعلق رؤوسهم

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبان) ج2 صفحة 122

² ربما يقصد السيوطي هنا سنة 657 هجرية وجرت العادة علي ما يبدو أنه طالما ذكر في بداية الكلام عدد المئات فإنه لا يذكرها بعد ذلك فيقول مثلاً سبعة وخمسين ولا يضيف الستمائة إلا في بداية الفقرة فقط والله أعلم

³ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370 - وأعتقد أن أسلوب الرسالة يحمل شبهة أن يكون أحد الخونة من عملاء التتار هو الذي قام بصياغتها لما تحتويه من تعبيرات عربية قوية والله أعلم

علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول -¹ وأرسل قطز مقدمة جيوشه بقيادة بيبرس لملاقاة مقدمة جيوش التتار وكانت أول مرة منذ أن خرج التتار من بلادهم يدوقون طعم الهزيمة عند مدينة غزة عندما انتصر بيبرس علي طلائع التتار

موقعة عين جالوت :

التقي قطز وجيشه مع المغول عند عين جالوت وكانا في ذلك الوقت أقوي قوتين في العالم كله تقريباً (- وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي وكانت هذه الواقعة تجربة خطيرة يتوقف علي نتائجها مصير العالم الإسلامي بل مصير العالم العربي المسيحي كذلك إذا انتصر المغول وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة -²)

وا إسلاماه :

كان عين المماليك علي قطز أثناء المعركة وكان بعضهم علي ما يبدو يشك في نوايا قطز ويعتقدون أنه يريد المجد الشخصي والسلطة وشعر قطز أن لا فائدة من أن يحثهم علي القتال والاستعانة بهم فاستعان بالله ولجأ إلي إليه سبحانه وتعالى وهاجم التتار وحده مستمداً النصر من المولي عز وجل الذي يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور ، فالمؤمن يثق بالله ويتوكل عليه ولا تهتز ثقته لحظة واحدة في أن النصر من عند الله وحده (- وفي أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانية وانتصروا علي عدوهم - - - غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزمهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله -³ ، لقد شعر المماليك بأن قطز يقاتل في سبيل الله وليس في سبيل مجده الشخصي فقررروا القتال معه في سبيل الله وخلصت نيتهم لله سبحانه وتعالى فنصرهم المولي عز وجل والله أعلم { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (40) سورة الحج

الوقعة الكبرى بين قطز وبيبرس :

بعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين علي التتار حاول ضعاف النفوس أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً وأنت تعرف عزيزي القارئ ضعاف النفوس الموجودين في كل مكان وكل زمان تقريباً ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويحسدون كل نصر أو تقدم ، ويروي الإمام السيوطي رحمه الله عن معركة عين جالوت ما يلي (- فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون والله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأبدار - - وجاء كتاب المظفر إلي دمشق بالنصر فطار الناس فرحاً - - وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلي بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر عزم علي التوجه إلي حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه ، فصرف وجهه عن ذلك ورجع إلي مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلي بعض خواصه ، فاطلع علي ذلك بيبرس ، فساروا إلي مصر وكل منهم محترس من صاحبه -⁴ وهنا أصبح اثنان من الأسود في قفص واحد ولا بد من مقتل أحدهم وطبقاً للقواعد المملوكية الذي ذكرناها من قبل تم التآمر وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس والياً علي حلب

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122 ، 123

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 123

⁴ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 371

فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهم أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة " دفاع مشروع عن النفس " وأصبحت مصر داراً للخلافة العباسية :

بعد مقتل قطز تولى السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيدي حيث قام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد (-) حقيقة كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصروها وتنافسناها - - - هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوي خلافة واحدة هي خلافة القاهرة (-)¹

القبيلة الذهبية :

كان جنكيز خان ملك المغول أما هولوكو فقد كان قائد جيش المغول وعندما مات جنكيز خان انقسمت الدولة المغولية إلى أربعة أقسام بين أولاده وقام المغول بالاستيلاء علي حلب مرة أخرى بمجرد أن سمعوا بموت الملك قطز وقويت شوكتهم مرة أخرى ، والطريف أن بيبرس استطاع أن يستغل الانقسام الذي حدث في دولة المغول حيث أقام علاقات مع أحد قبائل المغول وهي القبيلة المعروفة باسم القبيلة الذهبية (-) ويرجع هذا إلي أن ملك هذه القبيلة المعاصر لبيبرس واسمه بركة خان ابن جوجي ، كان من أول من أسلم من خانات المغول ، وقد تبودلت الرسائل والسفارات بين الملكين بل ظلت تتبادل هذه الرسائل والسفارات بين سلاطين المماليك البحرية وخانات القبيلة الذهبية أمداً طويلاً ، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين نحو أربعين سفارة منها تسعة في عهد الظاهر بيبرس نفسه (-)² ، وبينما كانت القبيلة الذهبية المسلمة علي علاقة طيبة بالمماليك كان خطر المغول لازال موجوداً بقوة متمثلاً في المغول الذين لم يدخلوا الإسلام بل وأصبحت لهم اتجاهات سياسية وتحالفات مع قوي أخرى بعد أن هزمهم الله علي يد المسلمين

المسلمون بين خطر المغول وخطر الصليبيين :

كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر (-) وذلك أن الصليبيين والدولة المسيحية عامة كانت تطمح في نشر الدين المسيحي بين المغول وفي أن يعتنق خانات المغول هذا الدين وبهذا يتعاون المغول والصليبيين معاً علي القضاء علي الدولة المملوكية (-)³ ، وظل بيبرس يقاوم كل منهم بكافة الوسائل (-) وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين علم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها - ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى (-)⁴ ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة 1277 م (-) وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الواقعة نتيجة هامة أخرى فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى في أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان (-)⁵ وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار ، وعلي فكرة كان قيام دولة بني عثمان المعروفة بالدولة العثمانية حدثاً مهماً ويعتبر من أهم الأحداث التي عاصرت دولة المماليك وكانت هذه الدولة في البداية علي علاقة طيبة بالدولة المملوكية وكان لها دور عظيم في فتح العديد من البلاد كما سنذكر ذلك في حينه عند الكلام عن جهاد الدولة

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 134

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 139

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 137

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138 ، 139

العثمانية في سبيل الله ، واستمرت العلاقات بين الدولتين طيبة إلي أن تدهورت وتحولت إلي صراع سياسي ثم صدام عسكري وسوف يأتي الكلام عن هذا الموضوع في حينه إن شاء الله
بيبرس والحرب الدبلوماسية :

قرر بيبرس قبل عودة القتال مع الصليبيين أن يحرمهم من تعاون باقي الدول معهم فأقام العديد من العلاقات والمعاهدات مع العديد من الدول مع اختلاف جنسياتها أو دياناتها فمن الذين تحالف معهم مثلاً إمبراطور الدولة البيزنطية وملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية الغربية ومع الجمهوريات الإيطالية وبركة خان زعيم مغول القفجاق وهذا دليل علي أن هناك دول مسيحية لم تشترك في الحركة الصليبية وحتى لم تكن في صفها في هذا التوقيت فاستغل ذلك بيبرس وعقد معها علاقات ومعاهدات دبلوماسية ، وإليك بعض ما قرأته لك في هذا الموضوع (- ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين (-)¹

تحريير إمارة إنطاكية :

استمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة² وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخرى ضد المغول وغيرهم (- وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم يهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم (-)³ وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحريير إمارة صليبية كبرى وهي إمارة إنطاكية ، المهم يا عزيزي القارئ الوهمي الذي أتخيل أنه لا يزال مستمر في القراءة ، لن أطيل عليك وأذكر تفاصيل حروب بيبرس وانتصاراته ولكن سأكتفي بكتابة جملة طريفة عن انتصاراته قد توضح لك الكثير عن بيبرس (- وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب (-)⁴

أسرة قلاوون تتولي حكم مصر :

حاول بيبرس أن يورث الحكم لابنه وبالفعل تولي ابنه الملك لمدة قصيرة ثم عزله المماليك بقيادة الأمير قلاوون وقام قلاوون بتعيين الابن الثاني لبيبرس بديلاً عن أخيه حتي تستتب الأمور لصالحه وفي النهاية استطاع قلاوون أن يعزل الابن الثاني لبيبرس ويتولى بنفسه السلطنة وتكرر السيناريو مرة أخرى وجمع قلاوون الأمراء وكبار رجال الدولة (وأعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل قاصر علي العرش وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل فوافق الأمراء علي رأيه)⁵ وعلي فكرة كان قلاوون أمير مخضرم عاصر وشارك في العديد من المعارك التي دارت مع الصليبيين منذ معركة المنصورة الشهيرة وغيرها من أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب كما شارك مع أيبك وقطرز وبيبرس الأحداث المهمة والمعارك الخطيرة ضد الصليبيين والتتار وكان له دور بارز فيها وشعر أنه أولي من غيره بالسلطنة حيث أنه علي نفس مستوي كبار المماليك الذين رحلوا عن الدنيا مثل قطز وبيبرس وليس من المعقول من وجهة نظره بعد رحلة الكفاح الطويلة هذه أن يتولي طفل قاصر الحكم ليس له نفس الخبرة السياسية والعسكرية ، المهم يا سيدي إن عمنا قلاوون استطاع أن

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 149

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 155

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 156

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 158

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 163

يصل للحكم وكعادة المماليك فإنهم يعاملون الملك الصغير المعزول معاملة حسنة ويكتفون بعزله فقط¹ ، وبالمناسبة وجدير بالذكر أنه بينما فشل أيبك وبيبرس في توريث الحكم لأولادهم² فقد نجح قلاوون في توريث الحكم لأبناءه من بعده حتى أن أسرة قلاوون ظلت تحكم مصر لأكثر من قرن من الزمان (1279 م - 1382 م)³ وحتى نهاية دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية (-) وقد يرجع السبب في نجاح أسرة قلاوون في إقامة نظام الوراثة إلي أن اثنين من سلاطينهم وهما قلاوون وابنه الناصر محمد قد حكما مدة طويلة استطاعا في أثناءها أن يدعموا بشخصيتيهما القويتين وأعمالهما المجيدة قواعد النظام الوراثي بحيث استطاع أفراد الأسرة رغم صغر سن الكثيرين منهم أن يلو الحكم في سلسلة متتابعة إلي نهاية دولة المماليك البحرية (-)⁴ وعلي فكرة لم يخلو الجو لقلاوون بسهولة فقد ثار عليه بعض المماليك الذين شعروا بأحقيتهم في السلطنة وقد كافحوا معه ومع قطز وبيبرس ولهم تاريخ في ميادين القتال ضد المغول والصليبيين ولكن قلاوون استطاع أن يتجاوز كل هذه الفتن وكان أخطرها ثورة أمير الشام وهو " سنقر الأشقر " الذي لم تغلح معه أي محاولة تفاوض مما اضطر قلاوون أن لجأ إلي استخدام القوة حتي تم إخضاع الشام بالكامل لحكمه وتنازل سنقر عن مطالبه وعاد إلي القاهرة فعفا عنه قلاوون وأكرمه وتفرغ بعد ذلك الملك المنصور قلاوون لقتال الأعداء التقليديين للأمة في ذلك الوقت " الصليبيين والمغول "

قلاوون والمغول :

انتهاز مغول فارس أحداث الفتنة التي وقعت في صفوف المماليك بعد وفاة بيبرس وتولية قلاوون وبدأوا هجومهم علي الدولة المملوكية وقرر قلاوون مهادنة الصليبيين لحين الانتهاء من المغول كما جدد المعاهدات مع بعض القوي الأخرى التي تحالف معها بيبرس من قبله ومن بينهم مغول قفجاق وإمبراطور بيزنطة وصقلية وغيرهم واستمر قلاوون يقاتل المغول وكانت معركته الكبرى ضدهم عند مدينة حمص (-) وانتصر الجيش المملوكي وهزم المغول هزيمة منكرة (-)⁵ ويشاء القدر أن يتولى حكم مغول فارس ملك جديد ويعلم إسلامه وقد سمي نفسه أحمد وبدأت العلاقات تصفو بين المماليك وبين مغول فارس كما هو الحال مع مغول قفجاق المسلمين ، ولكن ثار علي الملك أحمد أقاربه واستطاعوا الوصول للحكم واضطهدوا من أسلم من مغول فارس وعادت العلاقات إلي طبيعتها السيئة بين المماليك ومغول فارس مرة أخرى بينما استمرت العلاقات طيبة مع مغول القبيلة الذهبية وبين الملك قلاوون

قلاوون والصليبيين :

بعد أن فرغ قلاوون من قتال المغول وطردهم وأعادهم إلي بلادهم تفرغ للصليبيين وفي الحقيقة أعجبنى تلخيص الدكتور جمال الدين الشيال لموقف الإمارات الصليبية حيث لخص تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين بشكل واضح وبسيط حيث قال (-) تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخرى متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية (-)⁶ ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (-) وخرج

¹ بالمناسبة كانوا يطلقون علي أبناء المماليك الذين ابتعدوا عن السلطة لقب (أولاد الناس) فإذا حاول أي شخص أن يتشاجر مثلاً مع أحدهم يقال له دعه فإنه من ابن ناس والله أعلم

² وقد يرجع هذا إلي أن كلاً من الرجلين شغل بحروبه الكثيرة عن أن يفرغ لتربية ابنه التريبية الصالحة التي تؤهله للسلطنة (تاريخ مصر الإسلامية - د جمال الدين الشيال - ج2 صفحة 161)

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 161

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 161

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 165

⁶ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 167

علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة 1289م -¹
سقوط عكا :

كانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسؤولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (- وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل² من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة 1291 م - - - واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً - - - وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر - - - وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون -³
الناصر محمد بن قلاوون وأولاده :

عندما وصل هذا السلطان لحكم مصر كانت الأخطار والأعداء قد زالت تقريباً عن الدولة المملوكية وأصبحت في أوج قوتها بعد حروب طويلة مع المغول والصليبيين (وأصبحت الدنيا ربيع والجو بديع ولا مشاكل ووجع قلب) فقد حان الوقت لتنعم البلاد ببعض الهدوء والاستقرار (- وطالت مدة حكم الناصر في سلطنته الثالثة فبلغت اثنين وثلاثين عاماً نعمت فيها مصر بالهدوء والاستقرار وبلغت الذروة من التقدم والرخاء والعمران والنفوذ -)⁴ ،



جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

ويستحق منا هذا السلطان وقفة تأمل لفترة حكمه فقد تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولى سنة 1293 م ، والثانية سنة 1298م ، والثالثة سنة 1309م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتي الآن بالقلعة بجوار مسجد محمد علي ، وإن كانت ضخامة مسجد محمد علي وارتفاعه تجذب الانتباه عن جامع الناصر محمد ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامّة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ، وتعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطى ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 168

² خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 169

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 185

الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألقه بمدركته وقبة ألقى بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبقى في قلعة الجبل ، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه منه جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار ، وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ،

ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة 1303 تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقرية من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهزموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمدأ وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول ، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطل العديد من الضرائب ، كل ذلك أدي إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها

ذكرنا أن الناصر محمد قد تولى السلطنة مرتين قبل ذلك وهو صغير السن ولكن كان المماليك يعزلونه ثم يعيدونه إلي السلطنة مرة أخرى وفي الحقيقة كان أولاد قلاوون وأحفاده يحكمون مصر مع وجود شوية لخبطة ومؤامرات وكان بعضهم يسيطر عليه أمراء أقوياء أحياناً مثل السلطان حسن الذي قال عنه المؤرخ الشهير ابن تغري بردي (- لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط لغلبة الأمراء شيخون وطاز وصرغتمش علي الأمر لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا غيرهم -)¹ ومع ذلك استطاع السلطان حسن الذي يعتبره المؤرخون أفضل إخوته أن يسيطر علي الأمور لبعض الوقت



جامع (مدرسة) السلطان حسن

(- فقد كان شجاعاً حازماً كريماً وكان له شغف خاص بالعمارة وفي عهده بنيت المدرسة التي تحمل اسمه " مدرسة السلطان حسن"² والتي تعتبر بحق فخر العمارة الإسلامية وأجمل ما بني في مصر منذ دخلها الإسلام حتي الآن ، يقرر هذه الحقيقة كل المؤرخين الذين كتبوا عنها وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين -)³

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) صفحة 193 (نقلاً عن ابن تغري بردي) - وعلي فكرة كان علي ما يبدو كبار الأمراء يختلفون فيما بينهم علي منصب السلطنة فكان الحل أن يضعوا أحد أفراد أسرة قلاوون علي كرسي السلطنة ثم يحكمون هم البلاد كيما يشاءون دون الصراع علي منصب السلطان هذا بعد أن أصبحت أسرة قلاوون لم يعد بها سلاطين من الوزن الثقيل الذي بدأت به هذه الأسرة والله أعلم وقد اعتدنا علي تكرار هذه الجملة في الدردشة بعد اضمحلال أي أسرة قوية

² هذه المدرسة معروفة حالياً بجامع السلطان حسن بجوار القلعة وهو من أضخم المباني الدينية الأثرية في القاهرة إن لم يكن أضخمها علي الإطلاق

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيبال) صفحة 194

آخر أيام المماليك البحريةية :

في الحقيقة لازال هناك أحداث مهمة لابد أن أذكرها قبل أن أختتم كلامي عن أهم الأحداث في مصر في عهد المماليك البحريةية وسوف أحاول جاهداً أن أذكرها بإيجاز شديد حتي أنتقل إلي الفصل القادم " إن شاء الله " ، لنردش معاً عن أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية وكيف نشأت دولتهم وماذا حدث خلالها من أحداث مهمة ثم نتكلم بعد ذلك عن انهيار دولة المماليك البرجية وانتهاء عهد سلاطين المماليك عموماً ونلقي نظرة أخيرة بعد ذلك علي أحوال مصر والمصريين في عهد المماليك بشكل عام والأوضاع الحضارية في مصر ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك حدث ما يسمي بسنة الفناء أو الوباء الأسود وهذا الوباء هو نوع من المرض الخطير يصيب الإنسان ويؤدي إلي موته بعد قليل جداً من إصابته به ، وعلي فكرة هذا الوباء كان سنة 794 هـ / 1349 م في عهد السلطان الناصر حسن ولم يكن في مصر وحدها بل شمل جميع بلاد العالم ، حتي أن المقرئ ذكر أن الأسماك أيضاً قد أصيبت في البحر بهذا الوباء وبالرغم من أن هذا الكلام قد يكون مبالغ فيه إلا أنه يدل علي أن هذا الوباء قد قتل الكثير جداً من الناس والحيوانات والطيور (- ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتي حيتان البحر وطيور السماء وحش البر)¹ وقد أصيب الاقتصاد المصري في مقتل وحدث نقص وعجز شديد في القوي البشرية وضعفت دولة المماليك البحريةية

حملة صليبية جديدة في عهد الأشرف شعبان :

أما الحدث الثاني الذي أود أن أذكره في نهاية هذا الفصل بعد أن جاء الوباء الأسود فقد تعرضت مصر في عهد أحد أحفاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو الملك الأشرف شعبان لحملة صليبية وكانت الإسكندرية هذه المرة هي هدف الحملة (- ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريباً كاملاً وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين)² وإضعاف مصر لابد أن يبدأ بإضعاف اقتصادها وضربه في مقتل (- وإذا كانت موارد دولة المماليك في مصر تعتمد في معظمها علي ما تجنيه من مكوس وضرائب علي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر فقد أصدر الباباوات عدة قوانين تحرم علي التجار الأوروبيين التعامل مع المسلمين أو الاتجاه بسفنهم إلي مواني مصر والشام ولكن تجار الجمهوريات الإيطالية لم يطيعوا هذه الأوامر حفاظاً علي مصالحهم الاقتصادية المتبادلة مع مصر فاضطرت البابوية إلي إنشاء قوة بوليسية حربية تعمل علي اختطاف أولئك التجار الأوروبيين الذين يقدمون علي التعامل مع دولة المماليك كانت جزيرة قبرص خير مكان في شرق البحر المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها)³ وحضر ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان إلي الإسكندرية بأسطول ضخم في 9 أكتوبر سنة 1365 م وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس علي نفس الوزن من الخبرة والدراية فلم يحسن الدفاع عن المدينة واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل وعندما شعر بطلائع جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية")⁴ وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعاً مرعوباً حتي أنه ألقي بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفاً عليها من الغرق (- وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه " جاء المدينة لصاً وخرج منها لصاً)⁵ ، وهكذا عزيزي القارئ وصلنا إلي آخر حدث مهم كنت أود أن أذكره من عصر المماليك البحريةية وإلي اللقاء لنتحدث عن المماليك البرجية في الفصل القادم إن شاء الله

¹ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 194 (نقلاً عن المقرئ)

² تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 196

³ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 197

⁴ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 198

⁵ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 198

33. أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية

الملل يا صديقي :

اسمح لي عزيزي القارئ أن أتوقف عن الدردشة التاريخية قليلاً وأفضض لك شوية وألتقط أنفاسي ، فلقد حاولت تجنب الملل بقدر المستطاع أثناء كتابة الدردشة ولكن للأسف الشديد لقد شعرت أنا نفسي بالملل عندما قمت بقراءة بعض الفصول التي كتبتها ، وبالتأكيد طالما أنني شعرت بالملل أثناء قراءة الدردشة فلا بد أنك قد شعرت بنفس الشعور والله أعلم ، ولكن اعذرني فأنا مجرد مجتهد ولست محترف للكتابة في الموضوعات التاريخية أو حتي في أي موضوع وكنت أعتقد أن الأحداث نفسها قد تكون شيقة بما يكفي بغض النظر عن الأسلوب الذي تم كتابتها به ، المهم يا سيدي حتي الفقرات التي كنت أحاول فيها أن أكون دمي خفيف أو أحاول أضع بعض التعليقات الطريفة وجدت في الحقيقة إنها مش طريفة بل هي استظراف قد لا يستسيغه الكثيرون ، المهم إنني متردد حالياً في الاستمرار في الكتابة لدرجة أنني توقفت بالفعل لفترة أتساءل ما هذا الذي أقوم به وما جدواه ؟ ولكن عندما أصابني ملل من عدم القراءة والكتابة وهو أكثر حدة من ملل الدردشة التاريخية قررت الاستمرار في الدردشة بحجة إنك مش مجبر علي قراءة أو حتي تصفح هذا الكلام ورأيت أنه لا مانع من أن أكتب طالما أن لديك كامل الحرية في عدم القراءة أو بمعنى آخر لا مانع لأن أكتب فلا وجود للقارئ أساساً ولكني لا أستطيع الاستمرار في الدردشة إلا عندما أشعر بأنني أخاطب شخص ما حتى ولو كان وهمياً

أصل المماليك البرجية :

أهلاً بك عزيزي القارئ مرة أخرى لنعود إلي الدردشة ونعود إلي أصل المماليك البرجية وبالتالي علينا أن نعود إلي عصر قلاوون الكبير عميد العائلة القلاوونية ونصعد إلي القلعة ونجلس معه وهو يفكر في موضوع خطير ومهم بالنسبة له ، المهم إن تفكيره هداه إلي الاعتماد علي قوات جديدة من نوع خاص فقد قرر شراء نوع جديد من المماليك بعيداً عن جزيرة الروضة وما تحتويه من ممالك بحرية ، وقام بالفعل بشراء ممالك جدد وجعل إقامتهم في أبراج القلعة وعزلهم عن الناس ولذلك تم تسميتهم بالمماليك البرجية وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع (عزم السلطان المنصور قلاوون "679-689 هـ / 1279-1289 م " علي تكوين فرقة جديدة من المماليك تدين له بالولاء والطاعة ويعتمد عليها وتختلف في أصولها عن فرقة المماليك الأخرى التي غلب عليها عنصر الأتراك ولذلك أقبل علي شراء المماليك الجراكسة من المنطقة الواقعة بين بحر قزوين وبين البحر الأسود ، وأسكنهم في أبراج القلعة - - - فسموا البرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة ، وساعد قلاوون علي تحقيق رغبته كثرة الجركس في أسواق الرقيق - - - فضلاً عن رخص سعرهم آنذاك بالنسبة للعناصر التركية)¹ وهكذا عزيزي القارئ تم شراء المماليك البرجية الأكثر توفراً في الأسواق والأرخص سعراً مع إن الغالي ثمنه فيه ، المهم إن الموضوع استمر بعد موت قلاوون حيث فعل ابنه السلطان خليل نفس الشيء واشترى ممالك من الجراكسة ولكنه سمح لهم بمغادرة القلعة لأول مرة في عهده (بشرط ألا يبيتوا خارجها مما أدي إلي وقوفهم علي الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس)² وزاد نفوذ المماليك البرجية تدريجياً إلي أن قويت شوكتهم في عهد سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون

الظاهر برفوق يؤسس دولة الجراكسة :

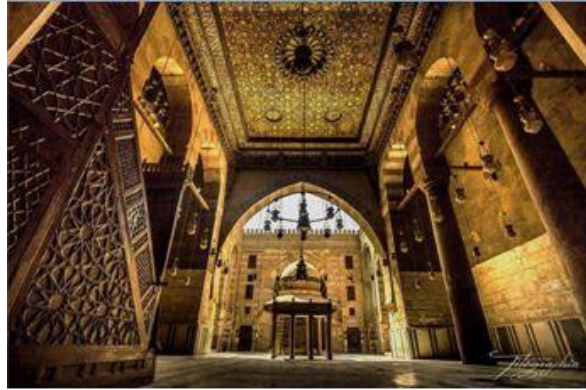
وفي عهد أحد أحفاد الناصر محمد استطاع أحد المماليك البرجية التدرج في المناصب والوصول إلي منصب أتابك العسكر سنة 780 هـ " 1378 م "³ وهذا المملوك هو الأمير برفوق الذي انتهز اضطراب الأحوال في البلاد وضعف دولة المماليك البحرية ووجود سلطان صغير السن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ووسط كل هذا تمكن برفوق من الوصول للسلطة حيث عقد اجتماعاً مهماً وكبيراً بالقلعة حضره الخليفة العباسي والقضاة (قرروا فيه : " إن أحوال المملكة قد فسدت وتزايد

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 264

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 264

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 265

فساد العربان في البلاد من الشرقية والغربية والصعيد ، وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير سالحة وإن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير - - - يردع العربان ويمهد البلاد ويسكن الاضطراب ويقمع أهل الفساد - -)¹



مدرسة الظاهر برقوق من الداخل

وهكذا تم إعلان الأمير برقوق سلطاناً علي البلاد وأصبح لقبه السلطان الملك الظاهر برقوق وبذلك قامت دولة المماليك

الجراسكة بكل بساطة

المماليك الجلبان :

يبدو أن سلاطين المماليك البرجية لم يكتفوا فقط بشراء ممالك سعرهم منخفض بل إنهم قرروا شراء ممالك كبار في السن وجاهزين بدون تربية ووجع دماغ وكان المملوك من هؤلاء يأتي مصر شاباً كبيراً وليس طفلاً صغيراً وتم تسميتهم بالمماليك الجلبان أو الأجلاب الذين جلبوا إلي البلاد كباراً وطبعاً هذا أدى إلي اختفاء عملية إعداد المملوك التي كانت تحدث أيام المماليك البحرية مما أثر علي سلوكيات المماليك بشكل واضح (وصار تجار الرقيق يجلبون إلي مصر المماليك الكبار ، في الوقت الذي بذل عليهم السلاطين بالمال والتربية السالحة ، ولم يدفعوا بهم إلي فقيه أو مؤدب ، وتهاونوا في تربيتهم ، فضغفت روحهم العسكرية وكثرت ثوراتهم وصاروا مصدر قلق واضطراب وفوضى - - وخير تعبير عن حالة المماليك الجراسكة وما طرأ عليهم من فساد وتدهور ما وصفهم به المقريزي فقد قال في نقد لأذع " وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين - -)² ومش عارف ليه الواحد افتكر الآن بيت الشعر الشهير الذي قاله أمير الشعراء أحمد شوقي

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت - - - فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهكذا كان هبوط منحني دولة المماليك التي بدأت برجال أقوياء وسلاطين عظماء جاهدوا تحت راية الإسلام وكانت لهم صولات وجولات في ميادين القتال وقهروا الصليبيين والتتار وكان تقديرهم للدين الإسلامي واعتزازهم به واعتمادهم عليه واحترامهم لعلماءه سبباً رئيسياً لانتصاراتهم ومجدهم وهذا الاهتمام بالدين كان ناتجاً عن نشأتهم نشأة سالحة دينية منذ نعومة أظفارهم أما ما وصل إليه الحال في نهاية عهد المماليك الجراسكة فسوف نعرفه أثناء الدردشة عن الخيانة والفساد وانتشار الفوضى واللامبالاة التي أدت إلي انهيار دولتهم

علشان المواضيع ما توسعش :

أنا حاسس إن الكلام عن المماليك الجراسكة (البرجية) سوف يكون أكثر من اللازم ولذلك أريد أن ألزم نفسي أمامك عزيزي القارئ بالدردشة عن موضوعات ونقاط محددة من البداية حتي لا أخرج عنها وأتطرق إلي موضوعات أخرى ، ومن هنا يجب أن أكتب من الآن رؤوس المواضيع التي سأتناولها في هذا الفصل باختصار شديد قبل أن أبدأ الدردشة عنها وهي عبارة عن أبرز الأحداث التي تمت في عصر المماليك البرجية وسأبدأ بمعارك جزيرة قبرص التي كانت في عهد الأشرف

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 265

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 266

برسباي ثم معارك جزيرة رودس في عهد السلطان جقمق ثم تهديد الاقتصاد المملوكي بسبب فاسكو داجاما واكتشافه لطريق رأس الرجاء الصالح وسأتكلم أيضاً عن فتح القسطنطينية علي يد السلطان العثماني محمد الفاتح والذي تم في عهد السلطان المملوكي إينال ثم موضوع بداية تدهور العلاقات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية في عهد السلطان الأشرف قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد الثاني العثماني ، أما أحوال مصر في العصر المملوكي بشكل عام ثم انهيار الدولة المملوكية علي يد السلطان سليم الأول العثماني في عهد السلطان قنصوة الغوري والسلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك فسوف يكون الكلام عنه في فصل خاص ، وطبعاً الواحد مش عارف يعمل إيه ويبدأ منين ، لأن المواضيع كثيرة جداً رغم أنني اخترت أشهرها وأهمها فقط ، علي العموم سوف نبدأ علي أي حال والله المستعان

الأشرف برسباي يفتح جزيرة قبرص :

لم ينسي المماليك ما فعله ملك قبرص عندما نهب مدينة الإسكندرية وهرب بأسطوله كاللصوص وظل دافع الانتقام موجود ولكن لم تكن هناك فرصة مناسبة علي ما يبدو للرد علي هذه الحملة ، ولكن تم الرد بعد ستين سنة من حدوثها وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص (الأولى سنة 827 هـ " 1424 م " والثانية سنة 828 هـ " 1425 م " والثالثة سنة 829 هـ " 1426 م ")¹ وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقلت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة 1517 م)²

محاولات فتح رودس :

بعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلي جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم علي بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية (ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق " 842-857 هـ / 1438-1453 م " دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة 843 هـ / 1439 م أربع سفن للصليبيين حتي قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقاراً وغيرها ثم عادت أدرجها - - - وكان من المستحيل علي دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القرصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكاراً يخرجون منها للإغارة علي شواطئ مصر - - - ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس لبيسط سيادته علي مياه شرق البحر المتوسط -)³ وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة وهذا باختصار شديد جداً ما حدث

من الأمام والخلف :

(كانت النزعة الاستعمارية هي القاعدة العريضة التي قامت عليها الكشوف الجغرافية في أواخر العصور الوسطي وفي هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي وشجعها البابوات ، علي أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف وتحطيم سيطرتهم علي تجارة الهند التي تمثل المنبع الرئيسي لثروتهم وريختهم ، وفي 20 مايو سنة 1498 م " 904 هـ " بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور تمكن فاسكو دي جاما من الطواف حول أفريقيا من طريق رأس الرجاء الصالح)⁴ وبوصول البرتغاليون إلي الهند تم ضرب اقتصاد الدولة المملوكية في مقتل ، وطبعاً العملية مش ناقصة (وعبثاً حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية ، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة⁵ وتحطيم أسطولها في معركة

¹ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 267

² مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 269

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 270

⁴ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 271

⁵ ولأول مرة تقريباً يذوق المماليك طعم الهزيمة الساحقة التي لم تحدث لهم منذ نشأة دولتهم وحتى هذه المعركة

ديو البحرية في 3 فبراير سنة 1509 م "915هـ" فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة وتدهور مركزها الاقتصادي¹

العثمانيون وفتح القسطنطينية :

هل تتذكر القسطنطينية عاصمة أباطرة الروم الشهيرة والتي كانت معقل من معاقل أعداء الإسلام منذ الإمبراطور هرقل الشهير حيث كانت الدولة البيزنطية الكبرى المسيطرة علي بقعة ضخمة من العالم ولا تنافسها إلا دولة الفرس ، إذا كنت تتذكر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فأرجوا أيضاً أن تتذكر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد بشر المسلمين بفتح القسطنطينية وسبحان الله فقد انتظر المسلمون هذا الحدث ومر عليهم خلفاء كبار وسلاطين أقوياء دون أن يتم فتح القسطنطينية ولكنهم كانوا علي ثقة كاملة من أن بشارة رسول الله صلي الله عليه وسلم سوف تتحقق في يوم من الأيام وقد تحققت بالفعل بفضل الله تعالي علي يد الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت ترفع راية الجهاد في سبيل الله ، وكنت قد أشرت إشارة سريعة وعابرة عن نشأة هذه الدولة بعد معركة بيبيرس الشهيرة في الفصل السابق ضد المغول وأخذت هذه الدولة تنمو وتزدهر وتتوسع وكانت تربطها علاقات طيبة وحسنة مع دولة المماليك والخليفة العباسي في مصر وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح ، وعلي العموم سيكون لنا كلام ودرشة خاصة عن الدولة العثمانية وسوف نتناول تاريخ هذه الدولة وكيف ضمت مصر لتصبح ولاية عثمانية ، المهم إن موضوع فتح القسطنطينية تم في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية بفضل الله سبحانه وتعالى وتوفيقه

رسالة الفاتح لمك مصر والرد عليها :

وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال (- - - إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (29) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهمنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام و متمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (123) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً - - - فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدري لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿سَيُهِزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴿ (45)، (46) سورة القمر² وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها ، المهم يا سيدي إن السلطان إينال قام بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمته الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزائم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جياها - - - إذا ما تهدت موجه المتلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم³

وجدير بالذكر أن العثمانيين أطلقوا اسم بلاد الإسلام علي مدينة القسطنطينية وهي تعني إسلام بول باللغة التركية والله أعلم ، وكان فتح القسطنطينية في 20 جمادى الأولى سنة 857 هجراً (29 مايو 1453 ميلادياً) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمى بالدولة البيزنطية⁴

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 272

² الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد الصلابي) صفحة 149 ، 150

³ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد الصلابي) صفحة 151

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 274

قايتباي وبايزيد الثاني وتدهور العلاقات :

دامت العلاقة الطيبة لفترة كبيرة بين المماليك والعثمانيين في ظل الخلافة العباسية وكان لجهاد الدولة العثمانية تقدير كبير لدي جميع المسلمين ، ثم أخذت الأوضاع تسوء بين الدولتين شيئاً فشيئاً (بعد أن اعتلى الأشرف قايتباي عرش سلطنة المماليك في سنة 872 هـ "1468م" أخذت العلاقات بين المماليك والعثمانيين تزداد سوءاً ، ذلك أنه عندما تولي بايزيد الثاني عرش الدولة العثمانية في سنة 889 هـ "1481م" نافسه فيه أخوه " جم " ولكن بايزيد الثاني قضى علي حركته فلجأ جم إلي مصر ، حيث رحب به قايتباي وأكرم وفادته الأمر الذي أغضب بايزيد ونقم علي قايتباي - -)¹



٨ - السلطان بايزيد الثاني
السلطان العثماني بايزيد الثاني



قلعة قايتباي بالاسكندرية

وتم اعتبار ما فعله السلطان قايتباي تدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من المشاكل والصراعات السياسية بين الدولتين المملوكية والعثمانية وصلت إلي حد الصراع المسلح وقام بايزيد بأعمال عدائية ضد المماليك (- - إذ استولت قواته علي قلعة كوكك التابعة للمماليك في آسيا الصغرى ، فلم ير قايتباي بدأ من إرسال حملة في سنة 890 هـ بقيادة الأمير أزيك² استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين وأوقعت عدداً كبيراً منهم في الأسر وعلي الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباي سراح الأسري وأرسلهم إلي بلادهم علي أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد وشاع في مصر أمر الصلح بينهما - - وفي الحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين)³ وحدث صدام مسلح آخر انتهى بانتصار المماليك مرة أخرى بقيادة الأمير أزيك ولكن كل هذه الانتصارات لم تكن انتصارات حاسمة بل زادت الطين بله كما يقال وجعلت الدولة العثمانية بعد ذلك تحول اتجاه توسعاتها من أوروبا إلي الدولة المملوكية (لما تولي السلطان سليم الأول " 918-926 هـ / 1512-1520 م " عرش الدولة العثمانية ، خرج عن السياسة الأوروبية التي سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين فتوقف عن الزحف الغربي والتوسع في أوروبا واتجه بغزواته ناحية الشرق الإسلامي علي حساب الدول الإسلامية المجاورة)⁴ وهكذا عزيزي القارئ بدأ الصراع الدامي بين الدولتين العثمانية والمملوكية حيث كانت الدولة العثمانية ناهضة قوية بينما كانت الدولة المملوكية قد انتشر فيها الفساد والضعف وسوف نتكلم إن شاء الله عن المعارك التي انتهت بضم مصر إلي الدولة العثمانية في حينه

أخيراً وليس آخراً :

انتهت تقريباً الدردشة عن الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية في عصر المماليك ولم يعد هناك سوي الكلام عن الأحوال الإجتماعية والحضارية ، وفي الحقيقة هذا موضوع مهم جداً لأن عصر المماليك كان تقريباً آخر العصور التي

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 274 ، 275

² شيد السلطان قايتباي مسجداً باسم الأمير أزيك تقديراً لجهوده العسكرية ولم يعد لهذا المسجد وجود حالياً ولكن بقيت المنطقة التي تم تشييد المسجد بها معروفة باسم الأزبكية حتى الآن نسبة إلي الأمير أزيك والله أعلم

³ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 275

⁴ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 276

شهدت فيها الأمة الإسلامية نهضة واضحة في العديد من المجالات وخاصة أثناء عصر المماليك البحرية وأوائل عصر المماليك البرجية ثم بعد ذلك دخلت مصر ومعظم أنحاء العالم الإسلامي في نفق مظلم من التراجع الحضاري كانت له أسبابه وعوامله وبالتالي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نمر مروراً سريعاً علي آخر فترة في التاريخ كانت فيها الأمة الإسلامية أمة قوية لها صوت مسموع في العالم وتتحكم في الكثير من مجريات الأمور ، واعذرني عزيزي القارئ بأنني سأتمهل قليلاً في الدردشة عن هذه الفترة قبل أن أتحدث عن التراجع الحضاري عندما تحولت الأمة الإسلامية إلي مجموعة دول صغيرة ضعيفة يتم التلاعب بها في الوقت الذي نهضت فيه أوروبا وأصبح المسلمون يقفون موقف المفعول به وليس الفاعل وأصبحت الدول الإسلامية تعتمد علي الغرب والشرق في طعامها وكافة احتياجاتها بل أصبح البعض من المسلمين للأسف الشديد يشك في أن الدين هو سبب التخلف ويؤكد أن أوروبا تقدمت بعد أن تخلصت من سيطرة الكنيسة وتحررت من قيودها وطبعاً هناك فرق كبير بين ما حدث في أوروبا أثناء سيطرة الكنيسة علي العلم بكافة مجالاته وبين ما كان يحدث في العالم الإسلامي حيث كان البحث العلمي في ذروته

الدكتور محمد عمارة يشرح عوامل التخلف :

(- -) فلما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية في طور التراجع والجمود - - فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وغرق العقل الإسلامي في بحار الجمود والتقليد ، تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية في أوروبا ، ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، في مناهج المعرفة ونظرياتها كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التي سادت في تلك الحضارة إبان عصورها الوسطي والمظلمة ، كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها علي الحضارة الغربية - - قد جعلت اللاهوت هو مصدر المعرفة الوحيد ، فقدست المعرفة وثبتتها - جمدها - عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته ، وبجزلها " الواقع " عن أن يكون المصدر الثاني للمعرفة ، منعت الشرعية عن ثمرات معرفة هذا " الواقع " ومن هنا كان " التحريم " للمكتشفات الجديدة والحرمان الديني لمن يطلبون المعرفة خارج اللاهوت ، لقد جعلت الكنيسة من المعرفة شأناً سماوياً خالصاً لا مكان فيه للواقع وأدوات إدراكه وتصوره ، فجاءت النهضة الغربية الحديثة كرد فعل عنيف ومضاد لهذا الموقف الكنسي ، لتجعل من الواقع المحسوس المصدر الوحيد للمعرفة ولتجعل من المعرفة الحسية - المذاهب التجريبية بأنواعها - السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم - - (1) ، ويعطينا الدكتور عمارة أمثلة عن بعض علماء الدين الإسلامي الذين استطاعوا تحقيق العلاقة بين الشرعي والمدني في المعارف والعلوم ويصفهم بأنهم تجريبيون مؤمنون ، فكان أبو الوليد ابن رشد يفرع الناس إلي فتواه في الفقه كما يفرعون إلي فتواه في الطب فهو الطبيب المجرب والفقيه أيضاً ، وكان ابن سينا له مؤلفات في العديد من العلوم الدينية والطبيعية وكان البيهقي أبو منصور عبد القاهر قد اشتهر بإبداعاته المتميزة في أصول الدين وكذلك في الحساب والهندسة وكان الخيام أبو الفتح عمر بن إبراهيم شاعر وفيلسوف ومؤرخ ورياضي وفقيه وفلكي ، وكان الفخر الرازي إماماً في علوم الدين والدنيا (هكذا تجسد توازن وتكامل مصادر المعرفة في المنهج الإسلامي - - - فكان الاشتغال بجميع العلوم " الشرعي " منها و " المدني " و " النظري " منها و " التجريبي " عبادة وقربة إلي الله ، وامتنالاً لأوامره وتكليفاته ، فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الإلهية في العمران البشري ، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذي استخلفهم خالقهم لإقامته في هذا الوجود ، وفيهما معا وبهما جميعاً يكتشفون آيات الله ، سبحانه وتعالى في الأنفس والآفاق فيظل العلم بهذا المنهج في المعرفة الباب المفتوح دائماً وأبداً لاكتشاف الحقيقة في عالم الشهادة ودعم قواعد الإيمان بالله وعالم الغيب ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقْفَانِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ﴾ (53) سورة فصلت - 2) ، وإلي اللقاء في الفصل القادم إن شاء الله لتتكملم معاً عن أحوال مصر في

العصر المملوكي ثم انهيار الدولة المملوكية والله المستعان

¹ إسلامية المعرفة " ماذا تعني ؟ " (د محمد عمارة) صفحة 93 ، 94

² إسلامية المعرفة " ماذا تعني ؟ " (د محمد عمارة) صفحة 111

34. نظرة أخيرة على دولة المماليك وحتى انهيارها

ابن بطوطة ورحلاته :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي¹ الشهير بابن بطوطة وقد ولد في مدينة طنجة في 1304/2/24م وكان ابن بطوطة كثير الرحلات والسفر وقد مر في رحلاته الكثيرة بالعديد والعديد من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ثم قام بتدوين كل ما رأي وسمع خلال هذه الرحلات بقدر المستطاع ، والطريف في رحلات ابن بطوطة كما يقول د حسين مؤنس (- -) وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشترى ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟ - الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيتها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا - - فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا - - دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة - - وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه - - وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس - - لهذا حرصت الأمة وهي القيمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك - -)² وعندما تقرأ ما كتبه ابن بطوطة خلال رحلاته تشعر بعالم إسلامي آخر بعيد عن كل هذه الصراعات السياسية والمؤامرات (- -) تسكنه أمة واحدة يربط بين أفرادها رباط الإسلام والمودة الإنسانية ، وهذه فضيلة أكبر من فضائل هذه الرحلة فهي في الحقيقة رحلة في صميم المجتمع الإسلامي ، نراه من خلالها علي حقيقته ، هي حقيقة تسعد الإنسان وتشعره بأن الدنيا بخير مادام الإسلام بخير - -)³

زيارة ابن بطوطة لمصر :

زار ابن بطوطة مصر في عصر المماليك البحرية وتحديدأ في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وهذا السلطان بالذات كان عهده عهد استقرار ورخاء غير عادي فقد جاء بعد رحلة كفاح طويلة ضد التتار والصليبيين وأصبح هناك هدوء نسبي يسود الأمة وراحة من الحروب الكثيرة الناجحة ، ويعتبر عهد الملك الناصر محمد من أفضل عصور سلاطين المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق والله أعلم ، وقد وصف ابن بطوطة الملك الناصر محمد بأن له سيرة كريمة وفضائل عظيمة (وكفاه شرفاً انتماءه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء)⁴ ولم يكتف ابن بطوطة بوصف الملك فقط بل قال (لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسني له الفتح المبين)⁵ وقد انبهر ابن بطوطة بمصر بلا شك فقد كانت مركز للحضارة والعلم ووصفها بقوله (هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر - - تموج موج البحر بسكانها - - قهرت قاهرته الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم - - كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربية - - ويقال أن بمصر من السقائين علي الجمال اثني

¹ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 7

² المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 14 ، 15 ، 16

³ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 19

⁴ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 58

⁵ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 58

عشر ألف سقاء - - وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً - - تمر صاعدة إلي الصعيد مندرة إلي الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات - - وعلي ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة - - وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين - - فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر - - والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة من الفقراء¹ وطبعاً قام ابن بطوطة بوصف العديد من الأمور التي شاهدها في مصر وكتب عن القضاة والعلماء والحرفيين وكافة الطبقات ووصف القرى والبلدان ولا يمكن أن أكتب كل هذا في هذه الدردشة وأعتقد أن ما كتبتة فيه الكفاية لتعرف مدي عظمة الحضارة التي انبهر بها ابن بطوطة عند زيارته لمصر

القاهرة عاصمة عالمية :

(كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن نوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات ، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة)²

وصف ابن خلدون لمصر :

زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة 784 هـ (نوفمبر 1382م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكروسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، - - ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفنتت - -)³

العمارة والفنون في عهد المماليك :

(علي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية ، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشبيد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد⁴ ويمكنك عزيزي القارئ أن تترك القراءة في هذا الموضوع وتذهب بنفسك إلي آثار ملوك أسرة قلاوون أو آثار السلطان الغوري مثلاً أو قايتباي أو غيرهم من الملوك الذين كانوا يهتمون بالفن الإسلامي الجميل وتم في عهدهم بناء تحف فنية موجودة إلي الآن لتشهد علي الرخاء والازدهار والحضارة

الحياة الاقتصادية في عصر المماليك :

(اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترغ وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات)⁵ ، (وإلي جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات -

¹ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 51 ، 52

² مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 292

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 285 ، 286

⁴ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 286

⁵ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 288

- وبرع المصريون في الصناعات الجلدية - - والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم¹ ، (أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وراثتها² وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبه الثغور ، ومن أسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، - - - وهيات دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم)³

الحياة الفكرية والأدبية في مصر :

(بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالذ ، وبلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم ، ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة ، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)⁴ وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة 1332 م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 1348 م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندي المتوفي سنة 1418 م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها)⁵ وحتى لا أطيل عليك عزيزي القارئ فسوف أذكر لك بعض أسماء شهيرة من العصر المملوكي دون الخوض في تفاصيل ، فمن هؤلاء العلماء المؤرخ الشهير تقي الدين المقرئ صاحب كتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " الشهير بخطط المقرئ والحافظ ابن حجر العسقلاني وشمس الدين السخاوي والحافظ جلال الدين السيوطي وغيرهم من العلماء

عوامل انهيار الدولة المملوكية :

لم تعد عملية إعداد المملوك وتربيته تتم بالطريقة التي بدأت بها فقد تكلمنا من قبل عن أسلوب إعداد المملوك منذ أن كان يأتي صغيراً وحتى يصبح مقاتلاً كبيراً عن طريق برنامج الإعداد الرائع الذي وضع أساسه الملك الصالح نجم الدين أيوب مما أدى إلي ظهور جيش مملوكي قوي متأثر بتعاليم الإسلام وذو قدرات حربية فائقة واستطاع مواجهة أعداء الأمة الإسلامية ، وظهر سلاطين أقوياء يهتمون بإعزاز الدين وتحقيق المجد للأمة ، وعندما تهاون السلاطين في تربية المماليك ولم يعد هناك وجود لبرنامج الإعداد الذي تكلمنا عنه بدأت الدولة في الانهيار فقد أصبح هناك مماليك يأتون إلي مصر كباراً ولم يكن هناك نفس الاهتمام بأسلوب إعدادهم مما أدى إلي انتشار الفساد والفوضى والجشع وانهيار الدولة والله أعلم وسوف أضرب لك مثلاً مما قاله الدكتور الحويري عن تدهور الأحوال في عهد الدولة الثانية للمماليك والمقصود بها دولة المماليك البرجية أو الجراكسة (ذلك أن المماليك في عصر دولتهم الثانية ، تطرق إليهم الفساد ، وكانوا في حاجة إلي

¹ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

² مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

³ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 291 ، 292

⁴ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

⁵ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

الأموال يستعينون بها في صراعهم المستمر ، ولذلك فرضوا ضرائب باهظة علي التجارة ، كما لجأوا إلي احتكار بعض السلع الهامة - - - مما أدى إلي ارتفاع أسعارها ارتفاعاً فاحشاً ، كما أدى تحول التجارة بين الشرق والغرب عن طريق مصر إلي طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي إلي حرمان مصر من منابع ثروتها التي كانت تملأ خزائنها ، فكدت التجارة والزراعة وتأخرت الصناعات ، وكثرت حوادث السلب والنهب وغارات العريان ، وعانت مصر الأمرين من المجاعات والأوبئة إلي أن سقطت في أيدي العثمانيين ¹

بداية المشاكل بين سليم الأول و قنصوة الغوري :

أشرت إشارات عابرة عن بداية تدهور العلاقات بين المماليك والعثمانيين في عهد الأشرف قايتباي المملوكي ونظيره بايزيد الثاني العثماني بالرغم من أن العلاقات كانت قبل ذلك علاقات حسنة وممتازة بين الدولتين وصلت لحد التحالف والتعاون العسكري ضد أعداء الأمة الإسلامية ، المهم إن الصراع السياسي بين الدولتين تحول إلي صراع مسلح وبدأ يتزايد بشكل ملحوظ إلي أن وصل إلي قمته في عهد السلطان قنصوة الغوري المملوكي والسلطان سليم الأول العثماني الذي يعتبر أول سلطان عثماني يترك التوسع في اتجاه الغرب ويتجه بتوسعاته إلي الشرق الإسلامي علي حساب دولة المماليك وقد نجح سليم الأول في جذب العديد من الأمراء ورجال الدولة المملوكية الذين حول السلطان قنصوة الغوري فكان منهم من يريد المال والوعود بتولي السلطة وكان منهم من يريد أن يقوم سليم الأول بانتشال الشام ومصر من الحكم المملوكي الذي أصبح لا يطاق بالنسبة لهم ، وكان لسليم الأول عملاء في مصر والشام يعملون لصالحه ويمدونه بالمعلومات الدقيقة بينما يضللون قنصوة الغوري ويخدعونه حتي يتم لهم المراد وتصبح مصر ولاية عثمانية

ابن إياس الحنفي يصف السلطان الغوري :

كان المؤرخ الشهير محمد ابن أحمد ابن إياس الحنفي معاصراً لأيام السلطان الأشرف قنصوة الغوري الذي يعتبر السلطان قبل الأخير في دولة المماليك أما السلطان الأخير فكان طومان باي ولكن كانت فترة ولايته عبارة عن سلسلة من الصراعات والمعارك مع العثمانيين انتهت كما نعرف بهزيمته والقبض عليه وشنقه علي أحد أبواب القاهرة ، المهم يا سيدي إن ابن إياس الحنفي كان علي ما يبدو معجباً بالسلطان الغوري ولكن مع تحفظه الشديد علي أسلوب الغوري في جمع الأموال فمثلاً من أقواله في وصف الغوري (وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك الجراكسة علي عوج فيه ، ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفنأ تاماً للسلطنة ، مبعجلاً في المواكب تملأ منه العيون)²



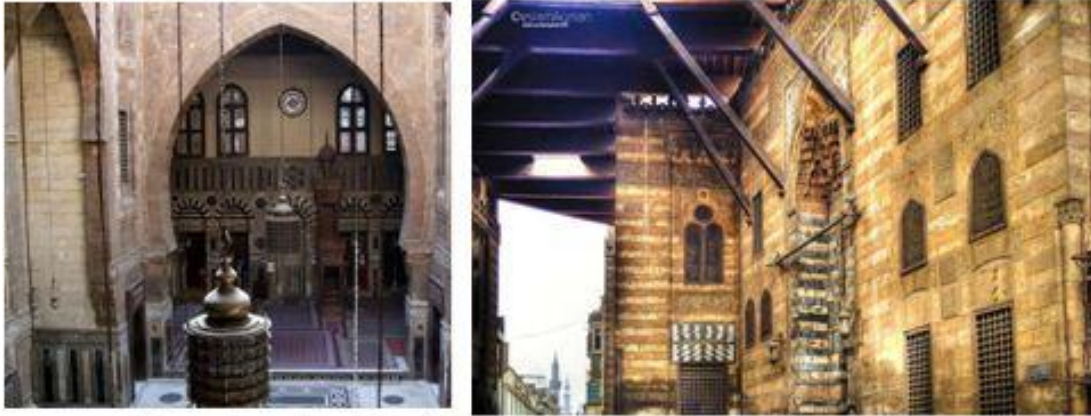
لوحة تصور السلطان الغوري يستقبل سفير البيندقية في الحوش السلطاني بالقلعة
للغنان البيندي جينتيلي بليني

أما سر إعجاب الحنفي بالغوري والله أعلم أن الغوري كان يحب البناء للعمائر بكافة أنواعها فذكر ابن إياس الحنفي العديد والعديد من العمائر التي تم بناءها في عهد الغوري ومن ذلك (- - -) وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطاً للمجاورين والمنقطعين هناك ، وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين وأنشأ بجدة سوراً علي ساحل البحر

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 292

² المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 57

الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج وجاء هذا السور من أحسن المباني هناك وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بينبع الصغير سوراً وأبراجاً منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين¹ ،



مجموعة السلطان الغوري بالغورية من منشآت السلطان الأشرف قنصوة الغوري

أما عندما يتكلم ابن إياس الحنفي عن شخصية الغوري فكان يقول (وكان للغوري محاسن ومساوي لكن مساوئه أكثر من محاسنه ، فأما ما عد من محاسنه فإنه كان رضي الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه ، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس علي قدر طبقاتهم ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه - - أما ما عد من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصي² منها أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله ، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل³) وقد ذكر ابن إياس الحنفي أوصافاً كثيرة حول موضوع جمع الأموال في عهد الغوري لدرجة أنك عندما تقرأ ما كتبه تشعر أن الغوري كان حوت كبير لا يشبع من جمع الأموال ، وبالرغم من أن هذه الأوصاف قد يكون مبالغ فيها لكنها تؤكد أن آخر أيام عصر المماليك كان حب المال منتشر بين الأمراء وهذا يفسر كيف قام سليم الأول بأن يكسب بعض الأمراء ليقفوا معه ضد سلطانهم الغوري والله أعلم

الغوري يستعد للحرب :

ظل الغوري يستعد للسفر مع الجيش لملاقاة جيوش سليم الأول (ابن عثمان كما يقول عنه ابن إياس) بالرغم من أن معظم الأمراء كانوا يؤكدون له أن سليم الأول لا يشكل أي خطر أو تهديد بل إن سليم الأول كان يرسل رسائل خادعة إلي الغوري يؤكد فيها أنه يعتبره مثل والده ويكن له الاحترام (وفي يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة⁴ من عند سييبي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية - - فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب⁵) وكان سييبي بك نائب الشام من المخلصين للغوري بالفعل وكان هذا رأيه فما بالك برأي من يعمل ضد الغوري مثل خاير بك نائب حلب ، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي العسكر بقية النفقة - - وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال

¹ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 57

² غفر الله للغوري وابن إياس ولجميع المسلمين

³ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 51 ، 52

⁴ مطالعة = رسالة مكتوبة

⁵ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 19

العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان ¹ وهكذا استمر ابن إياس يصف خروج السلطان الغوري إلي سوريا حتي حدوث الصدام مع السلطان سليم الأول

معركة مرج دابق (في شمال سوريا) :

سأتركك عزيزي القارئ لتستمتع بوصف ابن إياس الحنفي لهزيمة الغوري أمام سليم الأول حيث قال : (وفي يوم السبت سادس عشر شعبان 922 هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر ، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان - - فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق - - فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصره لعسكر مصر أولاً وياليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي² نائب الشام فانهم من في الميمنة من العسكر ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة - - ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي لعسكر مصر حتي نفذ القضاء والقدر - - وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي عسكر مصر وغلت أيديهم عن القتال ³ ثم أورد ابن إياس الحنفي عن هذه المعركة الأبيات الآتية :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا - - - في مرج دابق قال هل من مسعف ؟
فله أجاب لسان حال قائلاً - - - عرضت نفسك للبلأ فاستهدف
واشدد بالجلبان رعب قلوبهم - - - وغدوا يقولوا أي أرض نختفي
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم - - - حتي أتاهم بالقضاء المتلف



السلطان الغوري السلطان العثماني سليم الأول

(وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر ما لا يحصي عدده)⁴ ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما

¹ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 20

² كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أخرج مواقف المعركة

³ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 35 ، 36

⁴ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 38

رأى جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل¹ والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد أقوى مدفعية في العالم :

(وفي هذا الوقت كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية في العالم فقد استخدمت جيوش السلطان سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة علي عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران ولم تكن مصر قد أدركت حتي السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجتها لاستخدام الأسلحة النارية)² ، والعثمانيون هم أول من استخدم المدافع كسلاح متحرك أثناء المعركة (فهم أول من جعلوا المدفع سلاحاً هجومياً وأوجدوا له أورطة " فرقة " رهيبة في جيشهم عرفت بطوب جيلار - مفردتها طوب جي - فكانوا بذلك علي عكس المماليك الذين لم يستخدموه في الغالب إلا كسلاح دفاعي في القلاع وقد ترتب علي ذلك أن أصبح المدفع في أيديهم سهل الحركة يتحرك علي عجلات من الخشب تسحبها الخيل والأكاديش والجمال والأبقار والجاموس - - وفي عهد سليم بالذات فإنه -ظهر- لأول مرة نوعاً من المدافع يملأ بالشظايا يقذف بمعدل خمس إلي عشرين قذائف متوالية ولا يزال بعض هذه المدافع في المتحف العسكري باسطنبول لآن³)
طومان باي علي عرش مصر :

وصلنا في الدردشة إلي الكلام عن الملك الغلبان آخر سلطان في عصر المماليك بالكامل والذي تم شنقه علي باب زويلة ، إنه طومان باي الذي أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً محترماً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وعلي فكرة لم يكن لطومان باي أي دخل أو مسئولية عن الأحوال التي وصل إليها المماليك كالفساد والعبث والفضي ، بل إنه كان علي العكس تماماً ولكن شاء القدر أن ينتهي عصر المماليك في عهده ، وقد كان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلي سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ولكنه رفض خوفاً من غدرهم ومؤامراتهم والله أعلم ، (ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين في مصر - - فكان رجال الدين المصريون يأتون بالأمراء المماليك - - يحلفون - - أنهم إذا سلطنوه لن يتآمروا ولا يغدروا ولا يثيروا شغباً وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة ، وعلي ذلك فإن رجال الدين في مصر كانوا هم السبب في اختيار طومان باي للسلطنة)⁴ ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصى درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية - - وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)⁵

طومان باي يستعد للحرب :

لم يجد طومان باي أي إمكانات أو أموال ليستعد لمواجهة سليم الأول حيث كان الغوري قد أخذ معه كل شيء بل إن المماليك لم تكن لديهم الرغبة في الخروج مع طومان باي لملاقاة الجيش العثماني ، وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض طومان باي أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً)⁶ ، ويقول ابن إياس (- - ثم في ذلك اليوم عرض السلطان عجلات من خشب تجرها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص ، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك وعرض جمالاً وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال - - فقوي قلب العسكر في ذلك اليوم علي القتال - - وأظهر السلطان أنه

¹ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 280

² مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة 277

³ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 136

⁴ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 41

⁵ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 53

⁶ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 59

يخرج بنفسه إلي قتال ابن عثمان واستحث بقية الأمراء علي الخروج بسرعة ولم ينفق علي الأمراء شيئاً وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم)¹
الرسالة المرعبة :

أرسل سليم الأول رسالة إلي طومان باي يدعوه فيها للتسليم كما أرسل رسائل أخري للأمراء ، وإليك بعض ما ذكره ابن إياس عن هذه الرسالة (فالذي أشيع عن مطالعة السلطان غالب ألفاظها باللغة التركية ، فكان من مضمونها : من مقامنا السعيد إلي الأمير طومان باي ، أما بعد فإن الله تعالي قد أوحى إلي بأن أملك الأرض من المشرق إلي المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين - - إنك مملوك منباج مشتري ولا تصح لك ولاية وأنا ملك ابن ملك إلي عشرين جد وقد توليت الملك بعهد من الخليفة² ومن قضاة الشرع ، وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة من السلطان الغوري ، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد - - وأنا أولي منك بخدمة الحرمين الشريفين ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلي مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك " المماليك " حتي أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك " وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا ")³ وقد أحدثت هذه الرسالة وقعاً مخيفاً ومرعباً لدي الأمراء بل والشعب المصري كله فقد انتشر محتواها بين الناس وقد تركت أثراً نفسياً بالغاً عند طومان باي نفسه
معركة الريدانية (منطقة العباسية الحالية) :

كتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الأبواب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)⁴ ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان - - فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق - - حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً وتمت عليه الكسرة فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي - - وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية ، فلما تكاثر عليه العثمانية ورأي العسكر قد قل من حوله خاف علي نفسه أن يقبضوا عليه فطوي الصنق السلطاني وولي واختفي)⁵ ، وهكذا انتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً
حرب عصابات :

ظل طومان باي يقاوم الجيش العثماني ويجمع المماليك ويقاوم في عدة أماكن بأسلوب حرب العصابات حتي تسبب في إزعاج وإرباك سليم الأول واضطراب أحوال جيشه وبذل طومان باي جهد غير عادي للتضييق علي العثمانيين في مصر وكان المصريون كما يصف ابن إياس في حالة ضيق شديد مما يفعله الجيش العثماني بمصر وسكانها حتي قيل في ذلك المعني :

نكي علي مصر وسكانها - - - قد خربت أركانها العامرة

وأصبحت بالذل مقهورة - - - من بعد ما كانت هي القاهرة

وبالرغم من محاولات طومان باي في لم شمل المماليك والهجوم في عدة مواقع علي العثمانيين إلا أنه كان يفشل في كل مرة ، وأظرف تعليق علي ذلك ما ذكره ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي - يقع - مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم - - فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت

¹ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 64 ، 65

² كان الخليفة العباسي قد خرج في صحبة جيش الغوري ووقع في الأسر عند سليم الأول هو وبعض القضاة

³ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 69 ، 70

⁴ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 80 ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان

مصر ويبدو أن الحنفي كان راجل شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

⁵ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 82

الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل - - وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال : ¹

قليل الحظ ليس له دواء - - - ولو كان المسيح له طيب

(- وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)²

إذا لم يكن عون من الله للفتي - - فأول ما يجني عليه اجتهاده

النهاية على باب زويلة :

كان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي مما أدي إلي أن أمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق (- فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاً من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته - - وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)³

جثة مصر أم جثة طومان باي :

يري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن التي تدلت من الحبل علي باب زويلة لم تكن جثة طومان باي بل كانت جثة مصر حيث دخلت في عصر جديد مختلف تماما وإليك بعض ما كتبه السعدني في هذا المعني (أما طومان باي فقد هرب لدي بعض العربان فسلموه للسلطان سليم شاه وعندما التقى الرجلان ظل السلطان طومان باي رافع الرأس مصراً علي أنه سلطان مصر ولا أحد سواه وكان جزأؤه الشنق علي باب زويلة حيث اعتاد السلاطين شنق اللصوص والشارط ، ولكن التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثماني ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثماني قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزواوا بزوي العثماني ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)⁴

إلي أين ؟ :

وإلي هنا عزيزي القارئ انتهى الكلام وانتهت الدردشة عن عصر دولة سلاطين المماليك وحن الوقت للكلام عن الدولة العثمانية تلك الدولة المقترية عليها والتي مرت بجميع المراحل التي مرت بها الدول الإسلامية قبلها حيث قامت بالجهاد في سبيل الله وتطبيق منهجه سبحانه وتعالى ثم أخذت شيئاً فشيئاً تبتعد عن منهج الله إلي أن خيم عليها شبح الانهيار هي وجميع الولايات التابعة لها فما هي عوامل النهوض التي أدت إلي سيطرة هذه الدولة علي العالم الإسلامي وما هي أسباب السقوط التي أدت إلي سقوطها سقوطاً يختلف عن سقوط الدول الإسلامية السابقة فقد كان السقوط هذه المرة ليس علي يد دولة إسلامية أخري أقوى منها بل كان علي يد الاحتلال الأوروبي حيث قامت الدول الأوروبية بتقسيم التورثة العثمانية " الأمة الإسلامية " فيما بينها وتحويلها إلي قوميات مختلفة ودول وبلدان وعروش متنافسة مفككة وذهب أحد الجنرالات خصيصاً إلي قبر صلاح الدين الأيوبي وقال " ها قد عدنا يا صلاح الدين " وقبل أن تنهي هذه الدول احتلالها للأمة الإسلامية تركت في جسدها ورماً سرطانياً اسمه دولة إسرائيل لتضمن عدم اتحادها مرة أخري فماذا حدث في عصر الدولة

¹ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 92

² المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 106

³ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 111

⁴ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 67

العثمانية وحتى وصول نابليون إلي شاطئ الإسكندرية ثم قيام دولة أسرة محمد علي في مصر ثم الاحتلال البريطاني لمصر
هذا ما سنعرفه إن شاء الله في الفصول القادمة والله الموفق وهو المستعان وإليه المصير

35. العثمانيون ومصر

دولة مفترى عليها :

لماذا نذكر دائماً السلبيات فقط للدولة العثمانية ؟ ولماذا يتعمد الكثيرون تشويه تاريخ هذه الدولة ؟ مع أنها كانت دولة إسلامية كبرى قامت علي منهج الله سبحانه وتعالى ومرت بجميع المراحل التي مرت بها الدول الإسلامية ثم سقطت عندما ابتعدت عن منهج الله مثلها مثل أي دولة إسلامية ، وكان لها أمجاد وإنجازات عظيمة كما كان لها سلبيات في أواخر أيامها ، فلماذا يذكر معظم المؤرخون السلبيات فقط ؟ وعلي فكرة هناك بعض المؤرخين والمفكرين الإسلاميين قاموا بمحاولات جادة وممتازة لتوضيح الكثير عن هذه الدولة ووضعها في مكانها الصحيح من تاريخ الإسلام ومن بين هذه المحاولات كتاب رائع وممتع اسمه " الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط " كتبه الدكتور علي محمد محمد الصلابي ويتحدث فيه كما ورد في مقدمته (حديثاً منصفاً عن زعماء الدولة العثمانية كعثمان الأول وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح ويبين المنهج الذي ساروا عليه وكيف تعاملوا مع سنة الله في بناء الدولة كسنة التدرج وسنة الأخذ بالأسباب - - وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين وكيف أخذوا بأسبابه المادية والمعنوية - - وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والجنود والقادة علي مر العصور - - وأن النهوض العثماني كان شاملاً في كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية وأن للتمكين صفات لا بد من توفرها في القادة والأمة وبفقدتها يفقد التمكين)¹ ، وطبعاً هذه الدردشة لا يمكن أن تتسع لكتاب الدكتور علي الصلابي بالكامل والمكون من (679) صفحة ولكني أدعوك لقراءة هذا الكتاب بنفسك وسوف أنقل منه إن شاء الله بعض المقطعات التي سنحتاجها أثناء الدردشة عن الدولة العثمانية

العصر الثاني من نصيب مصر :

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلي عصرين رئيسيين ، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف ، وقد بدأ هذا التحول تقريباً بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني² أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية ، وإذا تأملنا معاً العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلي حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريباً ، وبعبارة أخرى لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم وهذا يفسر سر كراهية العديد من المصريين حالياً لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم علي الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الثاني فقط ، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال عثمان الأول مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعنى أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات حميمة وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة وقد تكلمنا في هذه الدردشة من قبل عن الرسالة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح إلي الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وأهل مصر بشكل عام والتي أخبرهم فيها بفتح القسطنطينية بل إن قبل ذلك بفترة وتحديداً في عصر السلطان المملوكي الظاهر بربوق أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول رسالة إلي الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظراً لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع ، (واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل علي وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته علي كل شبه جزيرة الأناضول ، كما أرسل إلي الخليفة العباسي

¹ الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي الصلابي) صفحة 6

² (اتفق المؤرخون علي أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام 974 هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام 979 هـ أزلت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط (من كتاب الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة 635

المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتي يتسنى له بذلك أن يسبغ علي السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزاد هيئته في العالم الإسلامي¹ وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخياً أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي (وأرسل في شهر شوال سنة 916 هـ / 1511 م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا)² وعندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وهنا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتاً طويلاً بعد ضم مصر حتي بدأت الدولة العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شؤونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخرى كما سنري

سليم الأول وتحويل الدفة :

عندما تولى السلطان سليم الأول العرش العثماني سنة 918 هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ (فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي)³ ويؤكد الدكتور علي الصلابي أن تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق كان (من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتي يسهل عليهم ابتلاعه)⁴ وقد لاحظنا فعلاً أثناء الدردشة أن الدولة المملوكية أصبحت تعاني في آخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلاً عن تفشي الفساد بها ، ومن أسباب توجه العثمانيون أيضاً نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أُنذر ببسط النفوذ الشيعي علي العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون (إلي الخروج إلي المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة)⁵ وقد وجد سليم الأول تهاوناً كبيراً من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران⁶ في آخر أيام المماليك بالطبع ومن هنا قرر سليم الأول ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداة ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تماماً لقتال الدولة الصفوية

رسالة تشجيع من سوريا :

ومما شجع سليم الأول علي قتال المماليك (تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلي الدولة العثمانية فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي من الشعب وتباحثوا في حالهم ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السوري ضاق بالظلم المملوكي وإن حكام المماليك يخالفون الشرع الشريف وإن السلطان إذا قرر الزحف علي السلطنة المملوكية فإن الشعب سيرحب به)⁷ ، (ولقد تلقي المماليك الهزيمة - وهم في شيخوخة دولتهم ومن آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 89

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 239

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 217

⁴ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 218

⁵ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 218

⁶ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 225

⁷ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 227

العالم فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم علي تجديد شبابهم فكان أن زالت دولتهم وذهبت البلاد التي كانت تحت حكمهم للنفوذ العثماني¹ وهكذا أمسك العثمانيون بعجلة القيادة في العالم الإسلامي بعد أن تم انتزاعها من أيدي المماليك إجراءات سليم الأول في مصر :

أقام سليم الأول في مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل² ومن المؤكد أنه لاحظ مدي ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلي أن تصبح قوة عظمي لولا الفساد الذي انتشر بين حكامها ، المهم يا سيدي إن سليم الأول نظر إلي مصر النظرة التي تكلمنا عنها من قبل حيث عرف قدراتها وعرف ما الذي يمكن أن تقدمه لمن يحكمها من إمكانيات جبارة ولذلك قرر بعض الإجراءات تجاهها وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد علي السلطة كلها في يده³ وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى ، الأولى سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)⁴ نفوذ المماليك من سلاطين إلي بكوات :

ويؤكد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي أن هذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثماني (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تنقسمها رؤساء الجند والولاية وانتهز المماليك فرصة استمرار التنارع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ، حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاية العثمانيين وعزلهم)⁵ ومن هنا عاد نفوذ المماليك مرة أخرى في مصر ولكن ليست في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات ، وجدير بالذكر أن من أشهر هؤلاء البكوات المماليك علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب وإبراهيم ومراد بك ومحمد بك الألفي ، حيث وصل نفوذ المماليك إلي درجة من القوة لم تكن موجودة مع بداية ضم مصر للدولة العثمانية (قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة 1672 م من استئثار المماليك بالحكم : " إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا " الوالي العثماني " يخالف لهم أمراً وكانوا يملكون عزله)⁶ انتقال الثروة من مصر إلي اسطنبول :

نقل سليم الأول كل ما له قيمة في مصر من أموال وكنوز وأسلحة وخاصة ما كان بالقلة من خزائن المال والكتب إلي اسطنبول⁷ (وحمله إلي اسطنبول بالطريق البري علي آلاف الجمال وفي أعداد لا تحصى من المراكب)⁸ ويقول د عبد المنعم ماجد عن سليم الأول (وفي سبيل القضاء علي مقومات مصر الحضارية سعي سليم إلي أن يفرغها من كل نابه فيها ، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلي اسطنبول ، فيذكر المؤرخ ابن إلياس أسماء الذي تقرر سفرهم من مصر إلي اسطنبول حيث خصص فصلاً في كتابه لمن توجه منهم إلي القسطنطينية علي حد قوله وهم من جميع نواحي مصر من المسلمين والقبط واليهود علي السواء منهم أصحاب الحرف والصناعات كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفلعة حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً لا يمكن حصر أعدادهم كذلك

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 231

² تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 1 صفحة 28

³ طبعاً مع فارق التشبيه تذكرنا هذه الإجراءات إلي حد كبير مع إجراءات الإسكندر المقدوني عندما قام بتوزيع السلطات في مصر كما تذكرنا أيضاً بموقف الإمبراطور أغسطس من مصر وخوفه الشديد من تحقيق الاستقلال إذا استقر بها حاكم قوي طموح

⁴ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 1 صفحة 29

⁵ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 1 صفحة 35

⁶ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 1 صفحة 35 ، 36

⁷ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة 189

⁸ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة 189

أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانه أي السلاح والذين يشتغلون بصناعة النسيج - - كما أخذ جماعة من التجار¹ ومن هنا يتضح أن إجراءات سليم الأول التي اتخذها نحو مصر كان الغرض منها إفقادها أسباب القوة والحضارة حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك قد تشكل خطراً علي دولته أو قد يكون السبب هو محاولة نقل الحضارة المصرية إلي اسطنبول والله أعلم

انتقال الخلافة :

انتقلت الخلافة من العباسيين إلي العثمانيين ليتم الجمع بين السلطنة والخلافة بالرغم من أن الخلافة كانت في هذه الفترة مجرد رمز لتوحيد الأمة ولم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر علي السلطنة بل إن تحول الخلافة إلي مجرد رمز قد حماها من الإلغاء لفترة طويلة فقد تعاقبت الدول التي سيطرت علي الأمة الإسلامية دون أن تتأثر الخلافة العباسية بها فسيطرت علي الأمة لحين من الدهر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك بل قامت أيضاً الدولة العثمانية وازدهرت في عصر الخلافة العباسية ولم تتأثر الخلافة العربية القريشية بكل هذا التقلب بين الدول إلي أن تم ضم مصر إلي الدولة العثمانية فتحوّلت الخلافة إليها ومن يدري فربما كانت الخلافة العباسية موجودة إلي الآن مستضافة في إحدى الدول الإسلامية في حالة ما إذا اكتفي العثمانيون بالسلطنة فقط دون الخلافة كما فعل من قبلهم من سلاطين غير عرب ، ولكننا فقدنا مجرد هذا الرمز بعد إلغاء الخلافة تماماً عند قيام الدولة العثمانية في تركيا فلم يتم انتقال الخلافة إلي مكان آخر كما كان متبعاً مع الخلافة العباسية التي لم تكن تتأثر بتحول مقاليد السلطة من دولة إلي أخرى والله أعلم ، وإذا تذكرنا معاً أحداث سقيفة بني ساعدة والتي أقر فيها الأنصار أن الخلافة لا بد أن تكون في قريش التي اصطفها المولي عز وجل ليبعث منها خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم وأصبح بعد ذلك خليفة رسول الله من قريش علي مر العصور المختلفة حتي انتقلت لأول مرة إلي عنصر غير عربي قريشي مع ضم مصر إلي الدولة العثمانية وسبحان الذي أحاط بكل شئ علماً (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

ملخص العصر العثماني في مصر :

نعود إلي كتاب موسوعة حكام مصر قبل أن ننسى عملية التلخيص التي نقوم بها في كل دولة ، المهم استمرت مصر تحت الحكم العثماني ما يقرب من ثلاثة قرون " 288 سنة تقريباً " وقبل أن يصل محمد علي إلي عرش مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية التي استمرت حوالي ثلاث سنوات في نهاية الحكم العثماني لمصر ، المهم يا سيدي أنه خلال فترة الحكم العثماني لمصر (تتابع علي مصر في هذه الفترة "136" من الولاة عاصروا "21" من السلاطين العثمانيين)² وأول هؤلاء الولاة المذكورين في موسوعة حكام مصر هو خاير بك الذي كان نائباً للسلطان الغوري في حلب وكان قائد ميسرة جيشه في معركة مرج دابق الشهيرة وأصبح بلقب خاير³ باشا بدلاً من خاير بك لأن والي مصر كان يلقب بالباشا تمييزاً له عن باقي البكوات من المماليك وكانت مدة ولاية خاير باشا خمس سنوات وثلاثة شهور (وخلال فترة ولايته علي مصر توفي السلطان سليم في 926 هـ / 1520 م وتولي السلطنة من بعده السلطان سليمان القانوني الذي أبقي علي خاير باشا والياً علي مصر)⁴ ، أما أشهر ولاة مصر في العصر العثماني فهو سليمان باشا الخادم الذي بني مسجداً معروفاً باسمه في القلعة إلي الآن والله أعلم ، وعلي فكرة يوجد في القلعة أكثر من مسجد من بينها مسجد سليمان باشا الخادم وجامع الناصر محمد بن قلاوون وطبعاً جامع محمد علي الشهير الذي أصبح علماً علي القلعة وقد تم بناءه علي الطراز العثماني ولكن بعد انتهاء العصر العثماني في عهد محمد علي باشا بعد ذلك ، المهم يا سيدي إن من أشهر الولاة العثمانيين أيضاً سنان باشا وهو في الغالب صاحب المسجد الشهير القريب من الكورنيش حالياً بالقرب من مسجد أبو العلا في بولاق ، ويمكنك أن تقرأ باقي أسماء الولاة الباشاوات إن شئت في موسوعة الدكتور ناصر الأنصاري لأن هذه الدردشة لا تتسع لكثرة عددهم وعدم

¹ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة 192

² موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 104

³ قام البعض في ذلك الوقت بإطلاق لقب خاير بك علي خاير بك لأنه خان السلطان الغوري

⁴ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 105

شهرة معظمهم حالياً ولكن جدير بالذكر أن آخر والي حكم مصر في هذا العصر والذي بدأت في عهده الحملة الفرنسية علي مصر كان اسمه سيد باشا أبو بكر الشهير (بكير باشا) وكان هذا في عهد الخليفة العثماني السلطان سليم خان الثالث ، وقد وصل نابليون إلي الإسكندرية في شهر صفر 1213 هـ / يوليو 1789 م حيث وجد الشعب في مصر في حالة تخلف حضاري لم يسبق لها مثيل في مصر ولكن هذه قصة أخرى سنتحدث عنها في حينها

ماذا نكتب عن العصر العثماني ؟ :

تحب ندرش عن أحوال الأمة الإسلامية كلها بشكل عام في العصر العثماني أم ندرش عن أحوال مصر فقط ؟ بل هل تحب أن تعرف تاريخ الدولة العثمانية قبل ضم مصر أم نكتفي بالكلام عن تاريخها بعد ضم مصر ؟ في الحقيقة أنا في حيرة شديدة فقد مرت الأمة الإسلامية بأحداث كثيرة ومهمة خلال العصر العثماني وواجهت الدولة العثمانية العديد من التحديات وخاضت معارك رهيبه وكانت تحاول جاهدة الدفاع عن كيان الأمة والحفاظ علي مقدساتها والتصدي للهجمات الشرسة التي تتعرض لها ، ولكن هل تتسع هذه الدردشة لكل هذه الأحداث ؟ ولا أخفي عليك عزيزي القارئ أن عدد صفحات هذه الدردشة قد تجاوز بكثير العدد الذي كنت أنوي كتابته في البداية ولم أكن أتصور أنها ستتملأ كل هذه الصفحات بالرغم من الاختصار الشديد ، وعلي العموم فسوف استكمل بمشيئة الله تعالي الكتابة عن تاريخ مصر حتي نهاية عصر أسرة محمد علي كما وعدتك بذلك في مقدمة الدردشة بقدر المستطاع ، وطبعاً أنت أكيد تريد أن تسألني هذا السؤال (طالما أنك ناوي تستكمل الدردشة لماذا تتوقف كل شوية وتوجع دماغي بمشاكلك وترددك وحيرتك ؟) وأنا أجيبك علي هذا السؤال بأن الكتابة في التاريخ ليست عملاً سهلاً للمؤرخين المتخصصين فما بالك بمن يجهل قواعد الكتابة في التاريخ مثلي ويحاول الاجتهاد ويخشي أن يقع في أخطاء لا تغتفر لأن الأخطاء في التاريخ بالذات أخطاء جسيمة خاصة مع كثرة المراجع والكتب واختلاف وجهات النظر الموجودة بها وعزائي في ذلك أن هذه الدردشة عبارة عن جولة سريعة جداً في هذه الكتب علي غرار " قرأت لك " كما قلت من قبل في المقدمة ولكن يبقي السؤال هل يصح أن تكون الجولة في كتب التاريخ بهذه السرعة ؟ ، المهم يا سيدي سأحاول جاهداً عدم إزعاجك بمشاكلي ووساوسي الشخصية مرة أخرى وسأكتب ما شاء الله لي أن أكتب وستقرأ أنت ما شاء الله لك أن تقرأ

أين المؤرخون في مصر خلال العصر العثماني ؟ :

لابد من تخصيص فصل كامل أو أكثر عن أحوال مصر والأمة الإسلامية في العصر العثماني ولكن المشكلة إن مصر في هذا العصر لم يعد بها عدد من المؤرخين كما كان في العصور السابقة لهذا العصر وبالتالي فإن المعلومات التاريخية عن مصر في هذا العصر ستكون نادرة ، فقد كان ابن إياس الحنفي المؤرخ الذي عاصر نهاية المماليك وبداية العثمانيين في مصر هو آخر المؤرخين الذين لهم وزن وثقل في تاريخ مصر إلي حد ما ، وعلي فكرة شهدت مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى ابن إياس الحنفي العديد من المؤرخين علي أعلي مستوي ، وقد قرأت لك عن ابن إياس الحنفي في كتاب رائع اسمه " مؤرخو مصر الإسلامية " ما يلي (كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم ابن إياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة 928 هـ / 1522 م ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة 930 هـ)¹ ، ومع ذلك كان أسلوب ابن إياس الحنفي يؤكد أنه لا يستند إلي مصادر رسمية للحصول علي المعلومات بل كان يعبر عن ما يدور بين الناس وما يشاع من أخبار فقط (فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة الحاسمة في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام سجلاً يومياً مسهباً يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة وهو لا يمهد فيه إلي الحوادث ولا يعني بربطها بل يدونها مرسله كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع - - - وكل ما هنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه بالاستناد إلي الحوادث دائماً فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة)² وعندما تقرأ كتاب مؤرخو مصر الإسلامية ستجد أنه لم يكن هناك مؤرخون علي مستوي من سبقهم طول العصر العثماني في مصر سوي واحد أو اثنين منهم واحد اسمه محمد بن أبي السرور البكري ثم بعد ذلك عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر وصول الحملة الفرنسية وقيام

¹ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 161

² مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 161 ، 162

أسرة محمد علي وقد كان ذلك نتيجة لتضائل التراث المصري التاريخي (ومن ثم فإننا نجد التراث المصري التاريخي يتضائل خلال العصر العثماني وسيتحول معظمه إلي مؤلفات وملخصات قاصرة تتعلق معظمها بهذا العصر وتعداد سلاطين آل عثمان ونوابهم بمصر وقلما تعثر إلي جانب ذلك بروايات ضافية عن أحوال مصر ومجتمعاتها في ذلك العصر)¹ ويقول المؤرخ محمد عبد الله عنان أيضاً (كان من الطبيعي أن تخبو النهضة الأدبية وأن تتحطم الأقلام بمصر عقب الفتح العثماني ومن ثم فإننا نرى النهضة التاريخية التي ازدهرت في القرن التاسع والتي خلفت الموسوعات العظيمة في تاريخ مصر الإسلامية تخبو بدورها ولا نجد بعد ابن إياس مؤرخين مصريين يتناولون تاريخ بلادهم بمثل الإفاضة والسعة والتبجر)² وقد كان التراجع الحضاري الذي شهدته الأمة الإسلامية وإغلاق المدارس في مصر وسياسة العزلة وتوقف البحث العلمي كل هذا أدى إلي عدم وجود مؤرخ أو أديب علي مستوي لائق ولولا وجود الأزهر الشريف لما كان هناك تدريس في مصر علي الإطلاق

دور الجامع الأزهر في العصر العثماني :

كانت اللغة التركية في العصر العثماني هي السائدة وانتشرت المصطلحات التركية في مصر والأمة الإسلامية بشكل كبير مما أدى إلي تهديد اللغة العربية في الصميم ولكن وبحمد الله وفضله سبحانه وتعالى كان هناك من جعلهم الله أسباباً لحفظ اللغة العربية³ التي نزل بها القرآن الكريم والذي تعهد سبحانه وتعالى بحفظه ، وكان من بين الأسباب التي جعلها الله لحفظ هذه اللغة في ذلك الوقت والله أعلم الجامع الأزهر الشريف وإليك بعض ما قرأت لك عن هذا الجامع العريق



(لكن الأزهر استطاع في العصر العثماني أن يحتفظ بمكانته العلمية السامية وأن يقوم بأعظم دور في نشر الثقافة العربية الإسلامية وغدا الأزهر أيام العثمانيين ملاذاً لعلوم الدين واللغة ومعقلاً حصيناً للغة العربية في وسط المحيط التركي بل إنه مكن أبناء العروبة من مغالبة لغة الأتراك ومقاومتها ورداها عن التغلغل في المجتمعات العربية - - وتمتع الأزهر في العصر العثماني بمركز انفرادي أكد قيادته وزعامته للحياة العقلية في مصر وفي العالم الإسلامي)⁴ وهكذا أصبح يقال منذ ذلك الوقت (ويتردد علي الألسنة أن للمسلمين قبلتين قبلية دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبلية علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة)⁵

¹ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 169

² مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 168

³ إذا تأملنا ما يحدث اليوم في العالم في مجال الإعلام المسموع والمرئي سنجد العديد من القنوات التليفزيونية الناطقة باللغة العربية الفصحى والتي تبثها دول ذات وزن كبير في العالم فكلهم حريصون علي مخاطبة العرب ربما لأن العرب أهم مما يظنون بأنفسهم والظريف أن الطريقة الوحيدة كي يفهمك العرب جميعاً بمختلف لهجاتهم أن تخاطبهم جميعاً باللغة العربية الفصحى التي أهمل في حقها العرب أنفسهم ولكن تم حفظها علي يد غير العرب والله أعلم ، بل المدهش أن هؤلاء يخاطبون أطفال العرب أيضاً بقنوات أطفال ناطقة باللغة العربية الفصحى مما يقوي هذه اللغة عند الأطفال وسبحان الله

⁴ تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة 66 [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية - الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

⁵ تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة 66 [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية - الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف] صفحة 66

قد تكون الأسباب مختلفة :

ربما تكون الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية أسباب مختلفة عن أسباب سقوط الدول الإسلامية التي كانت قبلها فبالرغم من أن هذه الدولة قد تم تأسيسها على أسس إسلامية أدت إلى قيامها بأعمال جليلة قدمتها للأمة الإسلامية (كحماية الأماكن المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية ومناصرة أهالي الشمال الإفريقي ضد الحملات الصليبية الأسبانية وغيرها ، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية وإبعاد الزحف الاستعماري عن ديار الشام ومصر وغيرها من الأراضي الإسلامية ومنع انتشار المذهب الاثنا عشري الشيعي الرافضي إلى الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية ومنع اليهود من استيطان فلسطين ودورها في نشر الإسلام في أوروبا)¹ ويكفي هذه الدولة فخراً أنها قضت تماماً على العدو التقليدي والرئيسي للأمة الإسلامية وهي الدولة البيزنطية وتم فتح القسطنطينية التي بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتحها حيث قال " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " (2)³ وبالرغم من كل هذه الإنجازات الرائعة التي حققتها الدولة العثمانية إلا أنها عندما سقطت كان لسقوطها أسباباً مختلفة ، فمن السلبات التي أدت إلى إضعاف الحكم لدي هذه الدولة (إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف في آخر عهدها وعدم الوعي الإسلامي الصحيح وانحرفها عن شرع الله تعالى وتأثرها بالدعوات التغريبية)⁴ وكل هذا بالطبع كان في عصر الاضمحلال الأخير لهذه الدولة الكبرى وكل هذه الأمور قد وردت في كتاب الدكتور علي الصلابي الذي أوضح فيه عوامل النهوض وأسباب السقوط للدولة العثمانية (ويوضح للقارئ كيف وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية فعلمت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية وابتعدت الدولة عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد وبذلك سحب من الدولة العثمانية شرعيتها من أنظار المسلمين - - وكيف هيمن رجال التغريب على الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد العزيز وعندما تعرض لكثير من مخططاتهم عزلوه ثم قتلوه)⁵ ، (وكيف أصيبت العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشي والتقريرات وتباعداً عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد)⁶ ، ويوضح الكتاب أيضاً كيف (فقدت الأمة قدرتها على المقاومة والقضاء على أعدائها وكيف استعمرت وغزيت فكرياً نتيجة لفقدائها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجعلها بسنة الله في نهوض الأمم وسقوطها)

الغزو الفكري للأمة :

ومن هنا يتضح أن أعداء الأمة الإسلامية قاموا هذه المرة بغزو المسلمين في أفكارهم ومعتقداتهم حتى يفقدوا قوتهم ويسهل هزيمتهم فقد اختلف أسلوب الأعداء في محاربة هذه الدولة عن أساليبهم السابقة ، فطالما أن هناك إسلام حقيقي بمفهومه الشامل وطالما أن هناك عقيدة صحيحة وقوية بين المسلمين سنظل دائماً هناك دولة إسلامية أياً كان اسمها فمن دولة الراشدين إلى الدولة الأموية إلى الدولة العباسية ، فمرة يحكم الطولونيين ومرة الإخشيديين ومرة الأيوبيين ومرة المماليك ومرة العثمانيين المهم أن القوة الحقيقية والسر الرئيسي هو أن الإسلام هو سبب عزة هذه الأمة ، فقرر أعداء الأمة أن يحتفظ المسلمين بإسلامهم ولكن بعد تحويله إلى مجرد شعائر وعبادات روتينية وبعض المظاهر الدينية السطحية بحيث يحدث انفصام للشخصية المسلمة فتجد المسلم يصلي ويصوم ويحج ويؤدي ما عليه من عبادات وربما أكثر مما عليه من عبادات ولكن تجده يغش ويكذب ويخدع ولا يجتهد في طلب العلم ولا يتقن عمله ولا يهتم بشئون المسلمين وغير ذلك من الأمور التي تعرفها جيداً عزيزي القارئ ولا داعي للإفاضة فيها ، ومن هنا لم تقم دولة إسلامية كبرى بعد انهيار

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 6

² رواه أحمد في مسنده

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 114

⁴ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 6

⁵ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 7

⁶ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 8

الدولة العثمانية كما كان يحدث من قبل فعندما كانت تسقط دولة إسلامية كبرى تقوم دولة إسلامية أخرى لتحل محلها وتستكمل مسيرة العطاء الحضاري للأمة أما هذه المرة فقد تم القضاء علي الدولة العثمانية بعد تفتيتها إلي دول وقوميات متنازعة متفرقة وقد قسمها الاستعمار بالمسطرة ليضع حدود كل دولة بعد أن سلبها أعز ما تملك وشوه العقيدة ونشر بينها النزعة القومية فأنا مصري وهذا سوري وهذا ليبي وهذا سعودي وهذا يمني - - إلخ ولا يعني ماذا يحدث في الدول المجاورة طالما أن بلدي بخير فلم يعد هناك رابط قوي يجعل كل مسلم يشعر بما يحدث لأخيه المسلم ولا يتألم لألمه وأصبح الجسد الواحد ممزقاً فإذا اشتكى منه عضو لا يشعر به سائر الأعضاء المشلولة ، وعذراً عزيزي القارئ إذا كنت قد بلغت في هذا المعني إلي حد كبير ولكن للأسف الشديد هذا تقريباً ما حدث بعد الغزو الاستعماري للأمة، وقد أوضح كتاب الدكتور الصلابي وسلط الأضواء علي العوامل التي نهضت بسببها الدولة العثمانية كما وضح الأسباب التي ساهمت في إضعافها ثم سقوطها وزوالها وبيان الكيد العظيم الذي تعرضت له من قبل أعداء الإسلام ويكشف الزور والبهتان الذي تعرضت له من الأقلام المسمومة التي تجعلك تكاد تعتقد أن هذه الدولة ليس لها أي دور إيجابي علي الإطلاق ، كما أن من أهداف هذا الكتاب بيان بطلان من سمي الحكم العثماني استعماراً وقرنه بالاستعمار الغربي كالاستعمار 1 الفرنسي والإنجليزي كما يظهر الكتاب صفحات الجهاد العظيم الذي قام به العثمانيون ومساهماتهم في الدعوة إلي الله وهناك العديد من الأمور التي يوضحها الكتاب الموسوعي الكبير ولكن لا تتسع هذه الدردشة لشرح كل ما جاء به ، وغاية ما يمكن أن يقال في هذا السياق أن الدولة العثمانية سقطت سقوطاً مختلفاً وسقطت أيضاً معها عجلة القيادة العالمية من أيدي المسلمين ولم تتسلمها دولة إسلامية أخرى قوية كما كان يحدث من قبل حيث تمكن الاستعمار اللعين من بث الفرقة بين المسلمين وتحويلهم إلي قوميات مختلفة (لقد رأي أعداء الأمة الإسلامية أن دعم التوجه القومي والوقوف مع دعاته كفيل بتضعيف الأمة الإسلامية والقضاء علي الدولة العثمانية) 2

تراجع حضاري يقابله نهضة أوروبية :

ومن الآن عزيزي القارئ لن ندرش عن أمجاد أو بطولات فلم يعد هناك أمجاد أو بطولات حقيقية فقد فقدت الأمة مكانتها الدولية وصدارتها وتخلفت عن ركب الحضارة العالمي في الوقت الذي نهضت فيه أوروبا وتطور فيها كل شئ وأخذت بأسباب العلم والقوة وأمسكت بعجلة القيادة العالمية بل وتصارعت علي الإمساك بها دولتين كبيرتين هما بريطانيا وفرنسا وأصبحت بريطانيا صاحبة السيادة البحرية في العالم كله وتمكنت من فرض سيطرتها علي العديد من المناطق في العالم كذلك كانت قوة فرنسا التي تنافسها ، وتحول العالم إلي عدة قوي ناهضة أخذت تنهش في جسد الأمة الإسلامية وشبح الدولة العثمانية التي كانت قد ماتت ولم يبق إلا إعلان وفاتها رسمياً ووصل نابليون إلي مصر بحملته الشهيرة وانتزعها من الدولة العثمانية بعد أن استطاع تفادي الصدام مع الأسطول البريطاني في البحر المتوسط ولم تتمكن الدولة العثمانية من طرد الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة القوات البريطانية للأسف الشديد كما سنري ، وسوف نتناول إن شاء الله في الفصل القادم أحوال مصر خلال العصر العثماني وحتى دخول نابليون بونابرت ولا تتوقع عزيزي القارئ في الفصول القادمة سوي ما يحزن القلب ويثير الكآبة فبالرغم من محاولات محمد علي تأسيس دولة قوية علي أسس علمية إلا أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح لأسباب سنتكلم عنها في حينه وقامت الدول الأوروبية بتحجيمه وتقليم أظافر جيشه وهكذا عزيزي القارئ سقطت الأمة هذه المرة في مستنقع تحاول الخروج منه إلي الآن وسوف تخرج منه إن شاء الله وبفضله سبحانه وتعالى عندما تعود إلي منهج الله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (53) سورة الأنفال ، { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (63) سورة النور ، (إذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني)

¹ كلمة استعمار أوروبي كلمة مزيفة لا تنطبق علي ما حدث فالأصح أن نقول استخرا ب أوروبي لأنه خرب ما بداخلنا من قيم سامية كما قيل في ذلك
² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 18

الميكروفون العالمي :

في الحقيقة رغم أن هذا الفصل قد انتهى الكلام فيه والمفروض ان ننتقل إلي الفصل القادم وماذا حدث في مصر قبل وصول الحملة الفرنسية إلا أنني أريد أن أوضح نقطة مهمة جداً وهي أن الدول التي تمسك بعجلة القيادة في العالم وتسيطر علي منابع الثروة والقوة فيه أصبحت تمسك بحاجه جديدة اسمها الميكروفون العالمي إذا جاز التعبير وهو علي وزن عجلة القيادة العالمية والمقصود هنا بالميكروفون العالمي هو وسائل الإعلام علي مستوي العالم فالأقوياء هم الذين يتحدثون وعلي الضعفاء الاستماع لكل ما يقوله الأقوياء ولا بد لهم من الإذعان لآرائهم وأفكارهم فنحن لا نتكلم ولا نخاطب إلا أنفسنا أما هم فيمسكون بميكروفون صوته يصل إلي الجميع ، فالأقوياء في هذا العالم عندما يدلون بتصريحات يقوم الضعفاء بمحاولة تحليل هذه التصريحات ومدى تأثيرها عليهم ، أما الضعفاء عندما يدلون بتصريحات فلا يهتم أحد في العالم بتحليل هذه التصريحات ودراسة أبعادها ، فالأقوياء يتكلمون والضعفاء يحللون ، والأقوياء يتحركون والضعفاء يتابعون باهتمام كل حركة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

36. أحوال مصر قبل وصول نابليون

باشا وبكوات :

الباشا هو الوالي العثماني والبكوات هم أمراء المماليك، أما الباشا فهو شبه مسجون في القلعة ولا يستطيع أن يغادرها إلا بإذن المماليك الذين يسيطرون علي مصر وعلي الباشا أيضاً وعندما يرسلون إليه من يقول له (إنزل يا باشا)¹ فهذا معناه أنهم عزلوه من منصبه في الولاية ، ويرسلون إلي الباب العالي في تركيا (السلطان العثماني) ليرسل لهم والي آخر وهكذا وصل الحال في مصر ، وقد كان المماليك في العصر العثماني أو في أواخره ينعمون بمصر وخيراتها بحجة الدفاع عنها ضد أي عدوان خارجي ولكن للأسف لم يكن هؤلاء المماليك علي نفس مستوي ممالك الدولتين البحرية والبرجية الذين قاتلوا التتار والصليبيين ولكنهم كانوا نوعاً جديداً من المماليك لم تشهد مصر من قبل فقد استغلوا ضعف نظام الحكم العثماني في ذلك الوقت وكثرة تغيير الولاة حتي أن الوالي قد فقد مكانته تماماً وأصبح الحل والعقد بأيديهم ورفضوا الاختلاط بالشعب وقاموا بتكوين طبقة من الأرستقراطية العسكرية تسكن في أجمل القصور وأروعها وتمتلك الجواري الحسان والخيل العتاق والأموال التي لا حصر لها ، وبالمناسبة كان كبير المماليك في مصر يحصل علي لقب شيخ البلد وهو منصب أهم من الوالي العثماني فعندما يصبح أحد أمراء المماليك شيخاً للبلد في مصر فهذا معناه أنه الرجل الأول في مصر

رأى الأستاذ جمال بدوي :

تحت عنوان (تحريم التجنيد) كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي (كيف سكت المصريون وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة علي استبداد المماليك بهم وانفرادهم بالحكم دونهم ؟ وقد عرفنا أن المماليك كانوا صبية يباعون في أسواق الرقيق ؟)² كما تساءل أيضاً (من المسئول عن تجريد المصريين من السلاح وإبعادهم عن حقل التجنيد ؟ إن الجواب عن هذا السؤال سيجعلنا منصفين في تقويم تاريخنا وحتى لا نسرف في تعذيب أنفسنا فالواقع أن عملية إبعاد المصريين عن الجيش كانت عملية مدبرة حرص حكام مصر - وكلهم من الغرباء - علي توارثها وتنفيذها بدقة كانوا يخافون اليوم الذي يتخلى فيه الفلاح المصري عن الفأس ويحمل السيف أو البندقية ، كانوا علي ثقة بأن أول عمل سيقوم به هذا الفلاح هو أن يستدير ليسدد فوهة بندقيته نحو صدور الذين أذلوه وأهانوه وسرقوا عرقه وقطموا وسطه من كثرة الضرائب " وهذا ما فعله أحمد عرابي " لذلك لم يفكروا قط في تجنيد المصريين وفضلوا عليهم المرتزقة والصعاليك والمغامرين ولك أن تتصور عمق الألم النفسي الذي كان ينتاب المواطن وهو يري نفسه محروماً من شرف الدفاع عن وطنه)³ ، (ويحدثنا التاريخ عن ذلك الوالي العثماني ، واسمه أويس باشا ، وقد فكر يوماً في تجنيد المصريين فلم يكن من الجنود الإنكشارية إلا أن تأمروا عليه وقتلوه حتي يسدوا الباب أمام أي حاكم يفكر في الاستعانة بالفلاح المصري وكان معني عزل المصريين عن الجيش عزلهم عن شئون الحكم وفي خلال عشرين قرناً لم يظهر حاكم مصري واحد ! ألم يكن بين المصريين من يصلح ليجلس علي عرش مصر ؟ إنه سؤال غريب حقاً يحتاج إلي تفكير)⁴

أحوال المصريون في العصر العثماني :

ذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي حالة مصر والمصريين قبل وصول نابليون في كتابه الممتع " تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر الجزء الأول " وبالرغم من أن هذا الكتاب من الكتب التي تدعم القومية المصرية تحديداً وتسلب الأضواء علي كفاح مصر فقط وشعبها وتدرج الحركة القومية ومتي نشأت وكيف استمرت وتطورت إلا أن هذا الكتاب يحمل معلومات مفيدة عن هذه الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية بشكل عام وعلاقتها بغيرها من الأمم ومدي التراجع الحضاري والضعف الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية في آخر أيام الدولة العثمانية ، وإليك مقتطفات قصيرة جداً ومتنوعة مما كتبه الرافي عن مصر وحالتها السياسية والعمرانية والاقتصادية والصحية وغيرها ، فقد ذكر مدي تأثير هذه الفترة علي

¹ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (عبد الرحمن الرافي) ج 1 صفحة 35

² مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 20

³ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 21

⁴ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 21 ، 22

مصر حيث (صارت مسرحاً للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التي تنازعت الحكم فيها فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها ، وتعني بمرافقها - - - فقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الري وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن فجفت الترع وتلفت الأراضي وتعطلت الزراعة وفقد الأمن وزهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر إلي البلاد المجاورة ، واضمحلت الصناعات والفنون التي كانت تزدهر بها في سالف العصور - - - وفي الحالة الصحية فتكت بهم الأمراض والأوبئة التي كانت تتحيف البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس وتأخذهم أخذاً وبيلاً ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها ، في سنة 1028 هجراً أصيبت مصر بطاعون جارف في زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر مات فيه ستمائة ألف نفس وفي سنة 1035 هـ أصيبت البلاد ببوباء مات فيه 300 ألف نفس وفي سنة 1050 هـ "1641م" في زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله وخرّب بهذا الطاعون 230 بلدة من الوجه البحري كما قال ابن أبي السرور البكري وحدث طاعون آخر في مشيخة ذي الفقار بك سنة 1442 هـ "1729م" وطاعون في شياخة عثمان بك وفي سنة 1205 هـ "1791م" أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون اسماعيل لأنه وقع في عهد مشيخته كان يموت في القاهرة زيادة عن ألف نفس في اليوم ومات به اسماعيل بك " شيخ البلد " ومعظم مماليكه وتغيرت الحكام في اليوم الواحد ثلاث مرات لموتهم ومات به من سكان القاهرة نحو ستين ألفاً¹) ، (وفشا الجهل في البلاد ورزح الشعب المصري تحت نير العبودية وظلام الجهالة وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ولم يبق سوي الجامع الأزهر الذي كان قائماً قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتابيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ولكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الأثر في تبديد ظلام الجهالة في البلاد)² وبالمناسبة كانت مصر تحت الحكم العثماني لما يقرب من ثلاثة قرون ولا تنسي عزيزي القارئ أن هذه الفترة من الحكم العثماني هي القسم الثاني المضمحل الذي كان من نصيب مصر فلم يكن العثمانيون كذلك خلال القسم الأول من تاريخ دولتهم فقد كانت لهم صولات وجولات في ميادين العلم والكفاح والقوة وساهموا بقدر كبير جداً في الحضارة الإسلامية وسبحان مغير الأحوال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولإنصاف يقول الكاتب الكبير الرافعي (هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة وعلي ما كان يتخلله من المظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوي علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الإسلامية ، أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة وكانوا هم والولاة الأتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر)³ ويؤكد الرافعي أن البكوات المماليك ليس لهم علاقة إلي حد كبير بسلاطين المماليك فمع الوقت ظهر نوع جديد من المماليك (فالصلة التي كانت تربط المماليك - الجدد - بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثماني قد انقطعت مع الزمن أضف إلي ذلك أن المماليك كان معروفاً عنهم العمق وقلة النسل وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع في جيل أو جيلين فكانوا يسدون النقص الذي يبدو في صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق)⁴ وطبعاً هناك فرق كبير بين برنامج إعداد المملوك⁵ بأسلوب رائع منذ شراؤه في العصور السابقة وبين برنامج إعداد المملوك أيام الحكم العثماني إذا كان هناك برنامج أساساً ولكن ومع كل هذا سنجد أن هذا العصر لم يخل من صفحات مضيئة حتي ولو كانت قليلة وهناك من يستحق أن نتكلم عنه في هذه الدردشة

¹ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 1 صفحة 54 ، 55

² تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 1 صفحة 56

³ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 1 صفحة 58

⁴ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 1 صفحة 58 ، 59

⁵ راجع أسلوب إعداد المماليك في الفصل رقم 31 من هذه الدردشة (المماليك علي عرش مصر)

بعض البكوات يقلدون السلاطين

ذكرنا أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حتى خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي :

والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك ، حقيقة أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقفوا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناساً ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد ، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار - علي سبيل المثال - في النصف الأول من القرن الثامن عشر - - - في عام 1739م أصبح أميراً للحج وهو من أشهي المناصب في مصر ، - - وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر (العثماني) لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً ، كما أنه كان يعقد مجلساً في قصره الخاص لبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كذب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان سامياً في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، ألباً كريماً ، بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك ، ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلق ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكاً في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندياً ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيراً ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك

علي بك الكبير يتحدى الخليفة العثماني :

من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأتثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر واحد اسمه علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة 1768 جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة 1769م "1183هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه

ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من ممالিকে وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجدوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث ¹ ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة 1773 وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخاً للبلد وكافأته تركيا بفرمان تشييته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً غير أن الوالي كان محجوراً عليه مسلوباً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة ممالিকে وأتباعه إلي أن مات سنة 1775 م " 1189هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك ²

محمد بك أبو الذهب :

علي فكرة محمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حالياً مسجد بجوار الجامع الأزهر ويعتبر من آثاره ،



جامع محمد بك أبو الذهب

وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة 1188 هـ "1774م" فقال : (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة ممالিকে وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخيصة وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرضية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن - - - ولكنه مستجمع لوثوب ³

وطبعاً أسلوب الجبرتي ممتع جداً في وصفه للأحداث ويتضح من كلامه أنه عادةً تنعم البلاد في عهد الحاكم القوي بشئ من الأمان والاستقرار النسبي ولكنه دائماً تفاؤلاً حذر وهدوء يسبق العاصفة

المخاطر التي واجهت الدولة العثمانية :

كانت الدولة العثمانية في عهد السلطان مصطفى الثاني (1694-1703م) في مرحلة حرجة يصفها الدكتور علي الصلابي بمرحلة تراجع حيث قال (وفي عهده بدأ تراجع المد الإسلامي عن ديار أوروبا الشرقية بسبب ضعف الإيمان وضعف روح الجهاد وتسرب أسباب الهزيمة في كيان الأمة وقسوة الهجمات الصليبية علي ديار الدولة العثمانية وفي عهده تم توقيع معاهدة كارلوفتس جنوب غرب زغرب علي نهر الدانوب عام "1110هـ / 1699م) مع روسيا وطبقاً لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا وهذا مؤشر سيئ في تاريخ بعض حكام الدولة العثمانية وهو

¹ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرفاعي) ج 1 صفحة 37

² تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرفاعي) ج 1

³ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 2 صفحة 604

انسحابهم في المعارك تاركين المسلمين بين يدي عدو نزع من قلبه الشفقة والرحمة وأصبحت كل الدول التي كانت تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة ممتنعة من دفعها وكانت الدول النصرانية تقف في وجه العثمانيين وكانت متفقة فيما بينها للوقوف في وجه تقدم الدولة العثمانية والعمل على تقسيمها وذلك خوفاً من انتشار المد الإسلامي¹

السلطان أحمد الثالث " 1115-1143هـ / 1703-1730م " :

يقول عنه الدكتور الصلابي أن (في عهده ظلت راية الجهاد مرفوعة واستطاعت الدولة أن تعيد المورة وآزاق وواصلت جهادها ضد روسيا وأنزلت بها ضربة كادت أن تكون قاصمة - - ولكن الخيانة تحت فتنة المال والنساء دفعت الصدر الأعظم إلى رفع الحصار وخيانة الدولة ووقع معاهدة " فلكنز " في جمادى الآخرة عام 1123هـ مع الروس)² ويضيف الدكتور الصلابي (كان عدد قليل من العثمانيين قد نادى بالإصلاح للوصول إلى الوسائل التي حققت بها أوروبا قوتها خاصة في التنظيم العسكري والأسلحة الحديثة وكان الدامادا إبراهيم باشا الذي تولي الصدارة العظمى في عهد السلطان أحمد الثالث هو أول مسئول عثماني يعترف بأهمية التعرف على أوروبا لذا فإنه أقام اتصالات منتظمة بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالأستانة - - وكان معنى ذلك فتح ثغرة في الستار الحديدي العثماني والاعتراف بالأمر الواقع الخاص بأنه لم يعد بإمكان العثمانيين تجاهل التطورات الداخلية التي كانت تحدث في أوروبا ، وقد بدأ التأثير بأوروبا في مجال القصور والإسراف والبخذ اللذين شارك فيهما السلطان أحمد ذاته بنصيب كبير ، مما جعل الأغنياء وعلية القوم يسعون إلى اقتباس العادات الأوروبية الخاصة بالأثاث وتزيين الدور وبناء القصور وإنشاء الحدائق ، لقد بدأ ظهور تقليد الغرب في شهواتهم وإسرافهم تظهر للعيان وطبيعي أن تمضي فيهم سنة الله تعالي ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (96) سورة الأعراف ، وقال تعالي : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرًا مُّتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (16) سورة الإسراء ، وسجلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبية العثمانية الحديثة فنشطت حركة الترجمة إلى اللغة التركية³ وطبعاً كانت هذه من عوامل نقل الأفكار الأوروبية إلى عقر دار الدولة العثمانية وهذا ما يسمى باللعب في النفوخ ولكن يبقى السؤال لماذا كان الغرب دائماً يحاول تقليدنا واقتباس حضارتنا عندما كنا في المقدمة الحضارية ولماذا عندما نقلدهم نحن لا نقلد سوي الكلام الفارغ ونترك أسباب الحضارة الحقيقية ؟ (مجرد سؤال)

الدوران من الخلف :

(أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا واحتلتها روسيا ورغبت فرنسا في التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولندا من كل من النمسا وروسيا وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فيينا واتفقت من جهة ثانية لقتال الدولة العثمانية وبدأت روسيا القتال مع الدولة العثمانية فتمكن العثمانيون من وقف تقدم الروس في إقليم البغدان كما أوقفوا تقدم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق وانتصر علي الصرب وعلي جيوش النمسا التي انسحبت من الحرب وطلبت الصلح عن طريق فرنسا)⁴ ونتيجة لصدود الدولة العثمانية أمام كل هذه الصراعات قرر أعداء الدولة العثمانية أن يمزقوها من الداخل نظراً لعدم استطاعتهم القضاء عليها في ميادين القتال فكان أسلوبهم علي التوازي هو تغيير الأفكار وتشجيع الثورات الداخلية وإليك بعض ما قرأت عن هذا التشجيع (لقد ظهر التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية واضحاً وقاموا بمحاولة تمزيق الدولة من الداخل فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة وهو علي بك الكبير الذي لقب بشيخ البلد إلى الخروج علي الدولة العثمانية عام 1183 هـ / 1770م ففعل وأمر بأن يخطب باسمه علي المنبر وفي جزيرة باروس تم لقاء بين الصليبيين الروس ومبعوثين من قبل علي بك الكبير وتم التخطيط الماكر لتدمير الدولة العثمانية من الداخل ، يكون فيها علي بك الكبير هو مخلب القط ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا من قبل العثمانيين ، وبناء عليه قاد علي بك أبناء مصر

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 369 ، 370

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 370

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 372

⁴ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 373

المسلمين لقتال القوات العثمانية في بلاد الشام ودخل سورية عنوة في عام 1185 - - بل إن الروس حينما قامت قوات الدولة العثمانية بمحاصرة صيدا عاونوا عميلهم في رفع الحصار ومدته بالأسلحة واستولوا علي بيروت عام 1186 هـ)¹ ونفهم من هذا أن علي بك الكبير ما هو إلا أداة استخدمها أعداء الدولة العثمانية ، وطبعاً ذكرنا أن محمد بك أبو الذهب سيطر علي الأمور بعد ذلك وتولي مشيخة البلد وكانت له السلطة المطلقة في مصر ثم خلفه إبراهيم بك ومراد بك وحتى وصول نابليون بحملته ، وفي الحقيقة أسلوب الدكتور علي الصلابي في كتابه يتسم بالإحساس بالمرارة الشديدة علي ما يبدو من كلامه فهو يصف الأمور من وجهة نظر دينية بحثه ويصف أعداء الأمة الإسلامية التي كانت متمثلة في الدولة العثمانية في ذلك الوقت بأوصاف قوية المعني ومما كتبه أيضاً ما يلي (إن الصليبية النصرانية عندما عجزت عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى لجأت إلي تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النفوس ممن ينتسبون إلي الإسلام ويظهرون شعائره وأضاعوا مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم وإلا كيف يكون ذلك والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (1) سورة الممتحنة، إن المسلم الصادق مع نفسه وربه وأمه لا يقف مع الروس - ضد المسلمين السننيين العثمانيين ويستحل دماءهم إن أعداء الأمة المسلمة يلجئون دوماً إلي إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوة الأمة البشرية والاقتصادية والأخلاقية لتصبح الأمة مؤهلة للسقوط بيد الأعداء ولقد كان السلطان مصطفى الثالث "1171-1187هـ / 1773-1775م" من السلاطين المجاهدين وقد تصدى للهجمات الروسية الصليبية علي الدولة وأنزل بهم هزائم عدة وكان يري بثاقب بصره وبعد نظره أن الدولة العثمانية بدأت في عصر التراجع والسقوط)²

كذاب الزفة :

تحت عنوان كذاب الزفة كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني وإليك مقتطفات مما كتبه (كان هذان المملوكان الغاصبان - إبراهيم بك ومراد بك - يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة ريات ولكنهما كانا أرنبيين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيقانها للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللثام فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولي والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخرى ، كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكراً ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور " ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " ججعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه - - - ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قاتدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعركة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)³

المصريون الغلابة وعاصمتهم :

كتب الرافي يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 375

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 376

³ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 23 ، 24

الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها¹ كما وصف الرافعي القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلي باب الحديد وجنوباً من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ربحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضاً وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لعهد كاشف الأربناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفى بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)² ويضيف الرافعي (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكايل ")³ وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميطة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)⁴ وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي 300000 نسمة⁵ وفي تقدير آخر 263000 نسمة وكانت الإسكندرية ولا زالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة

أسباب الحملة الفرنسية :

والآن حان الوقت لتتكلّم ونردّش معاً عن الحملة الفرنسية ومقدماتها والأحداث التي مرت بها مصر خلالها ولكن ذلك سيكون في الفصل القادم إن شاء الله ، ويمكن فقط أن نوضح في الفصل الحالي أهم الأسباب التي أدت إليّ شن هذه الحملة علي مصر وطبعاً هذه الأسباب قد تبدو مختلفة وكثيرة ومن وجهات نظر عديدة وبالتالي سوف أذكر لك وجهات النظر وأنا أقف علي الحياد تماماً وأترك لك تأملها بنفسك فمثلاً ذكر الرافعي عن هذه الأسباب ما يلي (الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة 1792 م)⁶ وأكد الرافعي أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن إنجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدّهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه إنجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان - - - فخيّل إليه أن يشيد علي

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 65

² تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 67 ، 68

³ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 69

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 69

⁵ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 70

⁶ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 71

ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)¹ أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهب أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم 122 عالماً)² ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)³ ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخرى فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء) أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع - - لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)⁴ ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ، وهكذا عزيزي القارئ وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة التي أرجو أن تظل معي لندردش عنها في الفصل القادم لنتابع الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي ونذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج 1 صفحة 73

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

⁴ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 27

37. لطمة فرنسية علي وجه مصر

الوصف الممتع من شاهد عيان :

أنا عايزك تستمتع معايا بأسلوب الجبرتي وهو يصف سنة أولى حملة فرنسية علي مصر وقد يكون بعض أو معظم كلام الجبرتي غير مفهوم بالنسبة لنا حالياً ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه سوف تشعر بمعناه وبمعني كل حرف فيه، كتب الجبرتي يصف سنة 1213 هـ (وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (117) سورة هود ، وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة "24 يونيو 1789م" وردت مكاتبات علي يد الساعة من ثغر الإسكندرية ومضمونها: أن في يوم الخميس ثامن عشر من شهر محرم الحرام من سنة 1213 هـ حضر إلي الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت علي البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقاياق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علي الفرنسيين لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندري أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرن علي دفعهم ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علي الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل فذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضي الله أمراً كان مفعولاً¹) ونفهم من كلام الجبرتي أن الأسطول الإنكليزي الذي كان بقيادة الأميرال نلسن قد حضر بالفعل إلي الإسكندرية للبحث عن جيش نابليون المنقول بجرأ ومعه أسطول فرنسي لحراسته ولكن لم يتمكن من مقابلته وطبعاً كان الإنجليز في البحر أقوى كثيراً من الفرنسيين أما في البر فكان الفرنسيون متفوقون عنهم ولذلك كانت كل دولة منهم تتمني قتال الأخرى في المكان الأفضل بالنسبة لها فكان الإنجليز يتحينون الفرصة لمواجهة الفرنسيين في البحر وقبل نزولهم إلي الشواطئ المصرية،



نابليون بونابرت

المهم يا سيدي إن هذه الأخبار عندما وصلت إلي القاهرة انتشر القيل والقال بين الناس أما المماليك فلم يهتموا بشيء من ذلك علي حد تعبير الجبرتي (ولم يكثرثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)² وطبعاً هذا الكلام كله غرور وليس له أساس من الصحة لأن المماليك كانوا أضعف من أن يواجهوا جيشاً حضارياً قوياً مؤسس علي أسس علمية وأسلحة حديثة متطورة فضلاً عن أن المماليك لم يكونوا في

¹ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج5 صفحة 1

² عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج5 صفحة 2

حالة من قوة الإيمان علي ما يبدو لتجعلهم يثقون بالنصر فلم يكن لهم الحق في النصر سواء بأسباب الدنيا أو أسباب السماء والله أعلم
احتلال الإسكندرية :

كان جيش نابليون مكون من 36 ألف مقاتل¹ وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من 55 سفينة حربية)² وكانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتي أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريراً عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه (إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر - - أما قلعة المنارة " قلعة قايتباي " في ظاهرها فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد)³ ومن هذا التقرير يتضح مدي ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون ، المهم يا سيدي (وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة " البحرية " من مياه الإسكندرية يوم 30 يونيو 1798)⁴ وطبعاً عندما علم نابليون بأن الإنجليز كانوا موجودين في الإسكندرية قبل وصوله (خشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر فأمر بالمبادرة إلي إنزال الجنود للبر واختار لمرسى عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً)⁵ واستمر إنزال القوات طول الليل ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة وعلي فكرة لم تستسلم المدينة بسهولة بل كان القتال شرس وعنيف والمقاومة علي أشدها حتي أن نابليون نفسه كاد أن يلقي مصرعه (كتب الجنرال برتية في رسالته إلي وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 6 يوليو سنة 1798 م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بغيار ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلي السور فنالته رضوض شديدة - - وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلي حكومة الديركتوار " الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت " بثلاثين إلي أربعين قتيلاً وثمانين إلي مائة جريح وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح)⁶
رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية :

وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال (فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي وظلعوا إلي البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر - - فلم يستطيعوا مدافعهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم - - ورجع أهل الثغر إلي التترس في البيوت والحيطان ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان)⁷ وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان وأمره بمعاملة السيد محمد كريم معاملة حسنة وذلك ليتودد للمصريين رغم أن محمد كريم هو الذي قاد المقاومة ، المهم يا سيدي إن نابليون زحف بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر وبالمناسبة وقبل أن نترك الإسكندرية فإن كليبر الجريح واجه مشاكل ومقاومة عنيفة في الإسكندرية وما حولها واتهم محمد كريم بأنه هو المحرض والمسبب لكل هذا العنف فأرسله إلي نابليون وتم إعدامه

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 82

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 84

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 162

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 167

⁵ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 169

⁶ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 171

⁷ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 2

المنشور الفرنسي للشعب المصري :

درس نابليون مصر وأحوالها جيداً قبل حضوره وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين علي أعلى مستوي واستخدم المطبعة وهو لازال في البحر في طريقه إلي مصر وطبع نسخ عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلي مصر حتي لا يضيع الوقت في الطباعة وحتى لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتى إلي مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين وأعلن أنه لم يأتي لقتال الشعب المصري نفسه وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية كما أثار فيهم الحقد علي المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها وشمل المنشور أيضاً تهديد واضح بحرق أي قرية تقف في طريقه كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل علي أن نابليون كان معتقد بل متأكد من مدي سذاجة وتخلف الشعب المصري وسوف أتركك مع مقتطفات من هذا المنشور لتقرأ وتتأمل براحتك ثم نعود بعد الفاصل (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونا برته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم - - هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتريين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمسكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك¹، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام - - ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه² - - طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقى منهم أثر - المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرا عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)³ هذا المنشور به مواد أخرى وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك

¹ لقد لعب نابليون علي الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور ولكنها كلمة حق يراد بها باطل

² لاحظ معي عزيزي القارئ أن الدولة العثمانية رغم كل شئ كانت لازالت مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضاً

³ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 4 ، 5 ، 6

احتلال العاصمة :

وصف الجبرتي القتال بين الفرنسيين والمماليك فقال (وفي يوم الأحد غرة شهر صفر "1 صفر 1213 هـ / 15 يوليو 1798م" وردت الأخبار بأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسكر المصري مع الفرنسيين فلم تكن إلا ساعة وانهم مراد ببيك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكريين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحتترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانه والآلات الحربية - - فلما عين ذلك مراد بك داخله الرعب وولي منهزماً وترك الأتقال والمدافع وتبعته عساكره ورجعوا طالبين مصر ووصلت الأخبار بذلك إلي مصر فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك إلي ساحل بولاق)¹ وعلي فكرة الجبرتي رحمه الله يقصد بكلمة مصر العاصمة أما هذه المعركة فكانت أول مواجهة بين مراد بك والجيش الفرنسي وكانت في النيل بالقرب من شبراخيت وكانت عبارة عن تبادل لإطلاق القنابل بين المراكب وكاد أن يهزم الأسطول الفرنسي " النهري" لشدة المقاومة من الأهالي المسلحين علي شاطئ النيل من الجانبين لولا دقة الإصابة للمدافع الفرنسية التي أصابت السفينة التي تحمل مستودع البارود فتم نسفها بشكل يشع أثار رعب المماليك وأدي إلي انسحابهم، ثم وقعت المعركة الثانية وهي التي تسمى معركة إمبابة أو الأهرام لأن جيش مراد بك كان ممتد من إمبابة إلي الأهرام غرب النيل أما ابراهيم بك فكان مع جيشه وباقي أهل العاصمة في ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل يراقبون ما يحدث في الغرب وطبعاً بدون دخول في التفاصيل تم هزيمة المماليك وانسحابهم بعد أن أحرقوا مراكبهم الممتلئة بالذخائر كي لا تقع في يد الفرنسيين وطبعاً شعر من في شرق النيل بالرعب لسببين أولاً لهزيمة المماليك وثانياً لأنهم أن حريق المراكب عبارة عن حريق أشعله الفرنسيون في المساكن الموجودة غرب النيل وإليك بعض ما وصفه الجبرتي عن هذا الحدث (ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم علي كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت)² المهم يا سيدي إن الناس هربت والمماليك هربوا والمشكلة الكبرى إن كل من خرج من القاهرة وقع في مصيبة كبرى وتم نهبه وسرقة كل ما يملك حتي ملابسه بواسطة العربان (وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جري فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابهه بعضه في تواريخ المتقدمين - - ولما أصبح يوم الأحد المذكور "22 يوليو 1798م" والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيين ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفرح فتيبن أن الإفرنج لم يعدو إلي البر الشرقي وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ)³ وأرسلوا رسالة إلي الجيش الفرنسي فرحب بها نابليون وأرسل إليهم يطمئنهم ويتودد إليهم وبهذا تم عبور الجيش الفرنسي نهر النيل واستلم العاصمة وسكن نابليون في بيت محمد بك الألفي بالأزبكية وقد كان خالياً بالطبع وهرب مراد بك إلي الصعيد وأصبح بعد ذلك يسبب مشاكل كثيرة للجيش الفرنسي في الجنوب ، المهم إن نابليون أسس ديوان من المشايخ والأعيان في مصر كحكومة وطنية ولكن لم يكن لها سوي الرأي الاستشاري الذي لا يؤخذ به علي أي حال وكان الغرض الحقيقي منها أن تكون حلقة الاتصال مع الشعب المصري ، كما أسس نابليون المجمع العلمي الذي ضم علماء الحملة وكانت مهمته الأساسية هي الرد علي أسئلة نابليون وحل مشاكل الحملة بأساليب علمية ودراسة المواقف المختلفة بأسلوب دقيق مبني علي حقائق ومعلومات دقيقة وبدأ يجمع معلومات عن كل شئ في مصر وعلي فكرة كان الجيش الفرنسي أثناء تقدمه في اتجاه العاصمة يواجهه من الأهالي أنفسهم مقاومة أشرس من مقاومة المماليك ، ووصف الجبرتي كفاح الشعب المصري وبذله الأموال لتمويل الحرب ضد الفرنسيين (بحيث أن جميع

¹ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 7

² عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 11

³ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 14

الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت أنفسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشئ يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر¹)
معركة أبو قير البحرية :

(علي مقربة من الإسكندرية وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد في خليج أبو قير وقعت يوم أول أغسطس سنة 1798م الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة أبو قير بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأمير نلسن والأسطول الفرنسي بقيادة الأدميرال برويس وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته فكانت هذه الواقعة كارثة عظمي أصابت البحرية الفرنسية وقضت علي آمال فرنسا في بسط سيادتها علي البحر المتوسط وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر²) وأخيراً استطاع نلسن أن يلتقي بأسطول فرنسا وتدميره بل والقيام بحصار بحري لمصر بحيث يقطع صلة الحملة الفرنسية عن وطنها في فرنسا وقد أضعف ذلك بالطبع من الروح المعنوية للجنود لولا أن معهم قائد من نوع خاص يمكنه التغلب علي الصعوبات والمحن ولديه مواهب خاصة لا تتوفر في الكثير من القادة ولكنه لم يتمكن من كسب ود الشعب المصري كما كان يحلم
فشل نابليون في استمالة المصريين :

(أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تدعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمضي بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب - - ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان - - وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعجاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة³) وعلي فكرة ممكن القول أنه لا يمكن الثقة بأي شخص لا يؤمن بالله مهما كانت القوانين البشرية التي يخضع لها ويعمل لها ألف حساب ومهما كانت المبادئ التي يؤمن بها فهو عندما يطبق القانون يطبقه علي بني جنسه فقط في أغلب الأحيان ولن يتورع عن فعل الأفعال القبيحة والبشعة بضحاياه أما الذي يخاف الله فإنه يتقي الله في جميع الظروف ومع جميع البشر ويطبق منهج الله وأوامره حتي علي ألد أعداءه لأن مراقبة المولي عز وجل للعبد دائمة ومؤكدة لِيَعْلَمَ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ { (19) سورة غافر فلا يستطيع الهرب من رقابته عز وجل كما يتهرب غير المؤمن من رقابة البشر وقوانينهم كلما أتاحت له الفرصة

تشجيع الخرافات والبدع السيئة :

كان نابليون ومجمعه العلمي قد درس جيداً المجتمع المسلم في مصر ومدى الجهل والخرافات المنتشرة بين الناس مثل الموالد والاحتفالات الدينية التي يخرج فيها الناس عن الشرع ويتعدون عن جوهر الدين الصحيح إلي مجرد مظاهر احتفالية سيئة فقام نابليون بتشجيعها وأقام ما يسمى بسياسة الحفلات وعن هذه السياسة يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافي (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلي كسب قلوب المصريين واستئلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو

¹ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 8

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 215

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 152 ، 153

عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلي قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلي الابتهاج والانشراح -- -- فأراد أن يصل إلي قلوبهم عن طريق التفریح وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكثر لها ويتودد إلي زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية¹ كان هذا رأي الرافي أما رأي الجبرتي شاهد العيان عندما تكلم عن أحد الموالد (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص فرنساوية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)² وسوف أعطي لك بعض الأمثلة عن الإصرار العجيب من الفرنسيين علي إقامة مثل هذه الحفلات بل وتدعيمها بالمال وفي بعض الأحيان معاقبة من لا يشارك فيها وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطي له ثلثمائة ريال فرانسة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع فرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم -- -- وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط وسواريح تصعد في الهواء)³ كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان فرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني علي أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)⁴ ويضيف الجبرتي متأسفاً عما يحدث داخل المسجد من بدع وخرافات فيقول (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض -- -- ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة -- -- فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهديان وكثرة اللغظ والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتنان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد -- -- فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)⁵ ، ومن الحوادث أيضاً التي وصفها الجبرتي في سياق الانحلال الأخلاقي والوسط الذي ينمو فيه نوعية خاصة من المنحليين وأسافل القوم وهو وسط سمح به الفرنسيون فيقول الجبرتي (ومنها ترفع أسافل النصاري من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين كل ذلك بما كسبت أيديهم وما ريك بظلام للعبيد والحال الحال والمركز في الطبع مازال والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)⁶

اللطمة الحضارية :

قام الجبرتي بزيارة المجمع العلمي الفرنسي⁷ وتم استقباله بحفاوة بالغة وترحاب لأن علماء فرنسا كانوا يرحبون بزيارة أي مصري يريد أن يتعرف علي المجمع العلمي حتي يصاب بذل الجهل وخضوع التخلف للتقدم علي ما يبدو فالإبهار العلمي من أقوى وسائل إخضاع الشعوب وتحطيم أي أمل لهم في المقاومة فعندما تشاهد بعينيك أموراً علمية تفوق إمكانياتك العقلية بكثير فبالأكيد سوف ترهب فاعليها، المهم يا سيدي إن الجبرتي عندما وصف ما رآه في هذا المجمع وكتبه في كتابه الشهير كان في حالة من التعجب لا مثل لها وسوف أنقل إليك عزيزي القارئ مقتطفات قصيرة مما كتبه الجبرتي عن هذا المجمع لتحكم بنفسك علي قوة اللطمة الحضارية التي تعرضت لها مصر علي وجهها المتخلف في ذلك

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج 1 صفحة 253

² عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 138

³ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 24، 25

⁴ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 67

⁵ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 67

⁶ عجائب الآثار (الجبرتي) ج 5 صفحة 75

⁷ كانت زيارة الجبرتي لهذا المجمع في إطار حرصه علي كتابة تاريخ مصر كشاهد عيان فأرأي أن هذا يتطلب زيارته لكل الأماكن المسموح بزيارتها حتى يسجل كل ما يراه ويسمعه من باب الأمانة العلمية والله أعلم

الوقت ، يقول الجبرتي (وإذا حضر إليهم بعض "المسلمين" ممن يريد الفرجة لا يمنعه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)¹ ، (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجر أزرق وبأخرى فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ، وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقة الطباع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يدورون بها الزجاجات فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقة أدني شئ كثيف ويظهر له صوت وطققة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصللاً بها ولمس آخر الزجاجات الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعه في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)² ولا أجد ما أقول بعد كلام الجبرتي إلا رحم الله علماء الإسلام في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية رحم الله جابر بن حيان أستاذ الكيمياء الأول في الوقت الذي لم يعرف فيه العالم شيئاً عن الكيمياء ، رحم الله الخوارزمي أبو علم الجبر وغيرهم من علماء بغداد في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ولا حول ولا قوة إلا بالله

مصر بعيون فرنسية (من كتاب وصف مصر) :

عزيزي القارئ لابد أن أتوقف قليلاً عند كتاب وصف مصر الذي كتبه الفرنسيون بأنفسهم أثناء تواجدهم في مصر حتى تري بنفسك أن الأحوال في مصر لم تكن بهذا السوء الذي تتخيله من كثرة وصفته لك من تخلف وتراجع حضاري وحتى يرتاح ضميري فسوف أكتب لك بعض ما قرأت بموسوعة وصف مصر (الجزء العاشر) الذي يختص بوصف مدينة القاهرة والخطوط العربية علي عمائر القاهرة وهو من تأليف علماء الحملة الفرنسية ، وأول ما سأختره لك وصفهم للتسامح الديني في مصر بين مختلف الأديان فقالوا (وسنعب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألقت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع - - وتقع حارة النصرى - أحد أحياء الأقباط - جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه - - وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوي في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمى حارة الروم إلي الشرق من السكرية - - والحي اليهودي - حارة اليهود - شديد الاتساع والازدحام - - ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد - -)³ وقد وصف علماء الحملة الصناعات الموجودة في مصر بالجزء العاشر من الموسوعة المترجمة إلي اللغة العربية في صفحات كثيرة تبدأ من صفحة 247 إلي صفحة 275 وأشادوا بالصانع المصري وخاصة في تقليد الصناعات المختلفة فقالوا (وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنهو بالمقدرة المتميزة للغاية لدي الصانع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدي الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز

¹ عجائب الآثار (الجبرتي) ج5 صفحة 57

² عجائب الآثار (الجبرتي) ج5 صفحة 60

³ موسوعة وصف مصر - الجزء العاشر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومنى زهير الشايب - مكتبة الأسرة 2002

بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخرى فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة¹)
ثورة القاهرة الأولى :

(إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاب الأهالي بالضرائب والمغارم)² لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)³ كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أخرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)⁴ وحاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكن فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)⁵ ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيسي لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبيوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ، ووضع نابليون خطة محكمة لقمع هذه الثورة ببشاعة حيث تم ضرب حي الأزهر بالمدافع حتي هدم البيوت علي سكانها من النساء والأطفال والشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة وأوشك الجامع الأزهر نفسه علي الانهيار لولا وساطة المشايخ لرفع الضرب وتعهدهم بوقف الثورة وقد اتخذ نابليون وسائل قاسية في القضاء علي الثورة وكانت مبالغ فيها جداً وإليك بعض ما كتبه الرافي عن هذا الموضوع (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان - - علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبتها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلائها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)⁶ وإليك بعض ما كتبه الجبرتي عن أحداث ما بعد الثورة (دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس - - ثم دخلوا إلي الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاص والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودمشوا الكتب والمصاحف علي الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتفوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيهم وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه)⁷ المهم يا سيدي إن نابليون بعد موضوع الثورة أمر بعدة إجراءات وقائية تحسباً لقيام ثورة أخرى ومنها أنه أنشأ العديد من القلاع حول القاهرة وكان يقوم بتحويل المساجد الضخمة إلي قلاع مثل جامع الظاهر ببيرس كما قام بتحويل قصر إبراهيم بك الموجود علي النيل والمعروف باسم قصر العيني إلي مستشفى عسكري حصين يسع ألف مريض وجريح ، وكانت التحصينات والطوابي التي أنشأها نابليون حول القاهرة تضمن تدمير القاهرة بالكامل في أي لحظة إذا شاء بحيث سيطرت علي المداخل والمخارج بالكامل وكانت علي أماكن مرتفعة

¹ وصف مصر ج10 صفحة 249

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج1 صفحة 260

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج1 صفحة 261

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج1 صفحة 265

⁵ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج1 صفحة 267

⁶ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج1 صفحة 281

⁷ عجائب الآثار (الجبرتي) ج5 صفحة 44

أول فتنة طائفية في مصر :

استطاع الفرنسيون أن يخلقوا العداوة بين المسلمين والمسيحيين بالرغم من أن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون في أمان مع المسلمين في مصر منذ قرون طويلة وإليك بعض مقتطفات مما قرأت عن هذا الموضوع (نجاح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية علي معاونة الحملة بمختلف الوسائل)¹ ، (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرائفاً وصل إلي حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم علي النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده - - وقد نظر الشعب المصري إلي هذه الفرق علي أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر وتزعم هذه الفرق المعلم يعقوب حنا إذ كون فرقة عسكرية من الأقباط وكانوا يرتدون زيأً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين)² وكان سبب لجوء الفرنسيون لهذا الأسلوب هو محاولة تمزيق النسيج المصري المترابط كما سعي رجال الحملة إلي زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم ، ولأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية يتم حكم المصريين بقانون وضعي من صنع البشر (فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله يضعه وينفذه قوم غير المسلمين - - وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية ، هزيمة العقيدة وبدء انحسارها في عالم الواقع الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين ، انبهاراً بقوة السلاح أولاً ، وانبهاراً بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلي مصر وانبهاراً بالتنظيمات التي أحدثتها وفي كلمة واحدة انبهاراً بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار - - بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة الفرنسية في نفوس المسلمين)³

ملخص الحملة الفرنسية :

تلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلي الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلي مصر ثم وقعت معركة أبو قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسري حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولى التي كانت في عهد نابليون ، ووقع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحيده أثناء قتال العثمانيين ، ثم تم قتل كليبر علي يد سليمان الحلبي أحد طلبه الأزهر وتم تولي الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطردهم من مصر واستمر الصراع إلي أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركاً مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا تاركة عدة قوي تتصارع في مصر علي السلطة ، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية علي مصر ولكن هل سنترك كل هذه الأحداث دون أن ندرش عنها أو عن أهمها علي الأقل ، علي العموم يبدو أننا سنحتاج إلي فصل آخر للكلام عن تفاصيل بعض هذه الأحداث المثيرة ولكن سأحاول جاهداً الاختصار بقدر

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 390

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 391

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 401

المستطاع لأنني كنت متصور أن فصل واحد فقط يكفي لفترة الحملة التي استمرت ثلاث سنوات فقط لكن الكلام يجيب بعضه وعلي العموم فصل آخر صغير عن الحملة لن يتسبب في الملل وخاصة أنه سيتناول تفاصيل مثيرة وأحداث شيقة إن شاء الله ، فإلي اللقاء في الفصل القادم بمشيئة الله

38. أهم أحداث الحملة الفرنسية

الخليفة العثماني يدعو للجهاد :

(كان الهجوم الفرنسي علي مصر يعتبر أول هجوم صليبي علي ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلي الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد علي الفرنسيين الصليبيين " 1213 هـ / 1798م" واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام وشمال أفريقيا)¹ ولم يكن موقف الأمة الإسلامية علي ما يبدو في ذلك الوقت مثل ما كان من قبل فدعوة الجهاد كان يقابلها استجابة واسعة النطاق كثيرة العدد والعدة كأيام المسلمين الأوائل فقد كانت الاستجابة تكفي لتكوين جيوش جرارة من المجاهدين كما كان يحدث وأقرب مثال علي ذلك عندما اجتمع المجاهدين مثلاً حول صلاح الدين أو حول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم من السلاطين كما ورد في هذه الدردشة من قبل أما عندما وجه الدعوة للجهاد الخليفة العثماني السلطان سليم الثالث فلم تكن الاستجابة برغم حدوثها ترقى لنفس مستوى الاستجابة التي كانت تحدث من قبل ، بل وفقدت التنسيق فيما بينها عند احتدام القتال والأغرب من ذلك أن الجيوش العثمانية نفسها كانت تفقد القيادة العسكرية الناجحة ففري الجيوش التي تنقل برأ تأتي في توقيت مختلف عن الجيوش التي تنقل بحراً وكل قوة منهم تواجه الفرنسيين وحدها دون حشد لجميع القوي ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك خرج من الحجاز حوالي ستمائة مجاهد بقيادة واحد اسمه محمد الكيلاني وركبوا البحر إلي القصير وانضموا إلي جيش مراد بك وتسببوا في خسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر كما خرج من ليبيا مجموعة من المجاهدين بقيادة المهدي الدرناوي (وضم إليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وانحاز إليه سكان القرى التي مر بها فسار بهذه الجموع المسلحة حتي وصل إلي دمنهور)² وقد انتصر انتصار كبير علي الحامية الفرنسية بدمنهور ثم وصلت إمدادات من الجيش الفرنسي للدفاع عن دمنهور ومواجهة المجاهدين ووقعت معركة شرسة وعنيفة وصفها أحد مؤرخي الحملة الفرنسية نفسها فكتب (إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ، أظهر فيها أتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له)³ وقد واجه الفرنسيون هذه الأزمة باهتمام بالغ وحشد غير عادي للقوات والإمدادات حتي استطاعوا اجتيازها بصعوبة شديدة ، ومن هنا يتضح أن الجيوش العثمانية والمجاهدين لم تكن تجمعهم قيادة واحدة أو حتي تنسيق أو تزامن في القتال

نابليون والفشل أمام عكا :

(كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)⁴ ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالفرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر برأ وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاتة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة إلي أن توقف أمام عكا وواليتها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزائر ، حيث قام نابليون بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعاً وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلي مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا (فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين 2200 قتيل منهم 1200 قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و 1000 ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى 2500 جريح ومريض)⁵ وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون بهذه الكارثة علي الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب المصري يوضح فيها أسباب عودته إلي مصر

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 392

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 52

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 53 ، 54

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 20

⁵ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 33

معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون :

وصل جيش عثماني بحراً إلي أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم 17 يوليو سنة 1799 م مما اضطر نابليون إلي التوجه إلي الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة و (كانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره وفقد الفرنسيون 250 قتيلاً وجرح منهم سبعمائة وخمسون)¹ وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلي فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلي الجنرال كليبر كما أعطاه كارت أخضر للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخرى لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ وكل رسالة لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ، أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإنني أغانر مصر والأسف يملاً قلبي - - وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجئني إلي أن أغانر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)²

كليبر يحاول التفاوض مع العثمانيين :

أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداً شديداً بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية ولم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأفضة الزائفة ، وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ،



كليبر

وأرسل كليبر رسالة إلي الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمى بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري وقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدى إلي حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين

معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية :

انتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلي القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 68

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 87

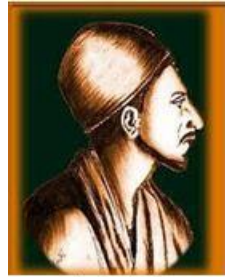
الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلي القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة وهي المعروفة بثورة القاهرة الثانية والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولى ، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلي عدة مدن وقرى بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهي الخطورة مما أدى إلي رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ، واستطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفق علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ، وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تماماً وشالته من دماغه

الفظائع الفرنسية في قمع الثورة :

ولا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ، حيث وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي (وجري علي الناس ما لا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب) وكتب الرافي (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيماً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)¹ وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)² ولعلك تلاحظ معي عزيزي القارئ أن الإنجليز حتي الآن لم يشتركوا في قتال حقيقي مع العثمانيين ضد الفرنسيين علي أرض مصر ولكنهم كانوا يكتفون بتحريك الأحداث والمراقبة ، وسوف تلاحظ بعد ذلك أن هناك فرق كبير بين قتال العثمانيين وحدهم ضد الفرنسيين وبين القتال المشترك مع الإنجليز ضد الفرنسيين حيث كانت المعارك تدور بقيادة إنجليزية تساعد الدولة العثمانية التي أصبح يطلق عليها الرجل المريض

مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة :

كان لابد من الإطاحة بالطاغية الذي لا يهتم بإراقة دماء الآلاف من الآمنين في بيوتهم والذين حتي لم يشتركوا في أي ثورة من أي نوع وتم قتلهم بدم بارد ، وقد استطاع أحد طلبه الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل رأس "الأفقي الفرنسية" الجنرال كليبر



سليمان الحلبي

وكان هذا العمل البطولي الرائع من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر بل وكان ذلك تمهيداً لنهائيتهم في مصر حيث لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدى إلي فشل الحملة في مصر ، ووقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبه الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ، وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 150

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 152

الفرنسي في مصر ولكن ليس بسبب كفاءته ولكن لمجرد أنه أقدم الجنرالات المتبقين في مصر ، وقبل أن نترك مسألة مقتل كليبر وإعدام سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر ، أريد أن أذكر لك نص الحكم الذي أصدرته المحكمة فقد (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رؤوسهم وإحراق جثتهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")¹ واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف

إفقال الأزهر :

كل شوية يفتشوا الأزهر وينتهكوا حرمة ويضيقوا الخناق علي من فيه بحجة التفتيش علي الأسلحة ، مما أدى إلي اتخاذ المشايخ قرار بإغلاق الجامع الأزهر ورأوا أن هذا القرار سيحمي الأزهر من هذه الانتهاكات التي لا تليق به ويمنع الريبة التي كانت في نفوس الفرنسيين في كل ما هو أزهرى ، وقدم العلماء هذا الاقتراح للفرنسيين وبالطبع وافق الفرنسيون علي طلبهم وتم إغلاق الأزهر من 21 يونيو 1800 م إلي أن صدر قرار بفتحه في يونيو سنة 1801 في نهاية الحملة الفرنسية

الجنرال مينو والعبث بالشعب المصري :

كان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو " وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)² ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكثرت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تتم عن أنه قائد فاشل بالرغم من أنه حاول القيام بعدة مشروعات في مصر وسوف أذكر لك مثال واحد فقط قد يكون فيه الكفاية فقد (فكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلي الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصار البحري لكن أعضاء اللجنة الإدارية عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية)³

الدولة العثمانية تستعين بالإنجليز :

تم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبي قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز وظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدى إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحية والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلي البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم)⁴ ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلي الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر

مينو في الإسكندرية وبليار في القاهرة :

وهكذا انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبس فعاد منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 170

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 179

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 189 ، 190

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 197

تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ، ولكن كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافي لانهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمددهم بالقوة اللازمة ولم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأى أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح
استسلام القاهرة قبل الإسكندرية :

اجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في 27 يونيو 1801 بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يجرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)¹ وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، وكانت هذه الاتفاقية مشابهة إلي حد كبير في بنودها لبنود معاهدة العريش التي كان كليبر قد وقعها من قبل وفشلت بسبب الإنجليز في ذلك الوقت ، وعلي فكرة كان هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء يسري علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ، ولكن مينو عندما بلغه هذا الاتفاق رفضه تماماً بل واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)²

ماذا بعد رحيل الحملة الفرنسية :

(جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما علي محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل علي تحقيق أطماعها في وادي النيل هذه القوات الثلاث هي الأتراك والإنجليز والمماليك)³ هذا ما ذكره الرافي في كتابه كما ذكر أيضاً ما يلي (تلك القوات التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر وهناك قوة رابعة ظهرت علي مسرح النضال السياسي وأخذت تنمو ويشند ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها حساب علي أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعي في تقرير مصير البلاد وتلك هي قوة الشعب المصري)⁴ وكان بالطبع علي رأس هذا الشعب مجموعة من الزعماء البارزين مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي والسيد أحمد المحروقي ، أما الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكسب ثقة الشعب المصري متمثلاً في زعماءه واستطاع بهذه القوة الرابعة التي راهن عليها أن يواجه باقي القوي الأخرى ويفوز بحكم مصر هذا الشخص هو محمد علي باشا ولكن من هو محمد علي باشا وأين كان قبل أن يحضر إلي مصر ومتي حضر إلي مصر وما دوره في كل هذه الأحداث ؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الدردشة عنها في الفصل القادم إن شاء الله ونتكلم عن الفترة التي تلت رحيل الحملة الفرنسية مباشرة وحتى وصول محمد علي للحكم لتبدأ مصر فترة جديدة من تاريخها وتحاول البحث عن هويتها التي كادت أن تضيع وسط كل هذه التقلبات والصدمات الحضارية والصراعات علي السلطة ، فهل هي دولة مصرية ذات قومية خاصة لا علاقة لها بسائر الدولة والولايات الإسلامية كما أراد لها نابليون ورجاله ، أم هي جزء من الأمة الإسلامية الواحدة المترابطة والتي كانت في حالة من التخلف والتراجع الحضاري في ظل الحكم العثماني الضعيف الذي كان يعتبره الشعب المصري مثلاً حياً للظلم والجور والقسوة ، لقد كانت بالفعل حيرة شديدة ولطمة حضارية قاسية علي وجه الشعب المصري أفقدته اتزانه وهزت ثوابته الرئيسية ربما إلي الآن ، وعندما جاء محمد علي للحكم هل اعتبر مصر جزء من العالم الإسلامي ينتمي إليه ويتمسك بتقاليده وثوابته أم أن محمد علي ألقى بنفسه في أحضان الحضارة الغربية دون

¹ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 217 ، 218

² تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 223

³ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 229

⁴ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج2 صفحة 232

مراعاة لهذه الثوابت وفتح شبابيك مصر بعد عزلة طويلة علي العالم الغربي وأرسل البعثات العديدة ليستمد منه النهضة علي الطريقة الأوروبية مما أدى إلي استقدام الحضارة الغربية ومعها أفكار أخرى تمس أمور حساسة جداً في تشكيل العقل المصري وهويته ، ولماذا في النهاية فشل محمد علي في تحقيق أحلامه التي أطاحت بها أوروبا حيث وقفت معه في البداية ضد الدولة العثمانية ثم وقفت مع الدولة العثمانية ضده وقامت بتقليل أظافره ؟ ، وسوف نتناول إن شاء الله كل هذه التساؤلات بموضوعية وهدوء وبالراحة خالص في الفصل القادم إن شاء الله لأن هذه الفترة من تاريخ مصر كانت تمهيداً لأمر كثيرة وأحداث متلاحقة تزامنت مع قيام عهد أسرة محمد علي وحتى انهيارها في يوليو 1952 ميلادياً

نظرة أخيرة على الحملة الفرنسية :

ولكن قبل أن نودع نابليون وحملته لابد أن نقف قليلاً لنأمل ما ذكره الكاتب الكبير جمال بدوي عن نابليون والمنشور الذي كتبه للشعب المصري في بداية الحملة الفرنسية حيث وضح فيه أنه يحترم المسلمين والإسلام ، وإليك بعض ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عن زيف هذا المنشور (-) - ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلمكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمداء (1) ، وهكذا تتضح لك عزيزي القارئ الكذبة الكبرى التي روج لها نابليون ومن جاءوا بعده في قيادة حملته التي تركت في نفوس المصريين الكثير من المشاعر والأحاسيس والأفكار كان أخطرها بلا شك محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة الإسلامية بالإضافة إلي هزيمة الأمة هزيمة داخلية (ولقد كان ممكناً مع ذلك كله ألا يتغير الميزان في داخل النفوس ، كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل ، ولكن الرصيد الداخلي للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد - - وفي ظل هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين ، انبهاراً بقوة السلاح أولاً وانبهاراً بالعلم الغربي الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة ، وانبهاراً بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلي مصر ، وانبهاراً بالتنظيمات التي أحدثها ، وفي كلمة واحدة ، انبهاراً بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام ، وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار - - بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة (2) ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك كفاية كلام عن الحملة الفرنسية وأيامها وتعالني نردش معاً عن قيام دولة محمد علي باشا وأولاده في الفصل القادم إن شاء الله

¹ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 30
² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 400 ، 401

39. محمد علي باشا علي عرش مصر

خمسة لخبطة (1801-1805 م) :

خمس سنوات تقريباً هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة آخر لخبطة فقد تصارعت عدة قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه اللخبطة والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها ولكن في الكواليس يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويраهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقة من سباته العميق ربما دون أن تقصد ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها والرددشة بشأنها في هذا الفصل إن شاء الله ولكن باختصار شديد وطبقاً لسياق الدردشة التي تعودنا عليها من هو محمد علي ؟ :

ولد محمد علي سنة 1769 م¹ ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة وكان له صديق فرنسي يعمل بالتجارة أيضاً اسمه المسيو (ليون)² وعلي فكرة محمد علي أصبح له العديد من الأصدقاء والأعوان الفرنسيين بعد ذلك كما سنلاحظ معاً ،



محمد علي باشا

المهم يا سيدي إن محمد علي ترك تجارة الدخان وعاد مرة أخرى إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلاثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)³ ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة 1801 م علي متن السفن العثمانية وطبعاً محمد علي عندما حضر إلي مصر عاصر كل الأحداث التي تكلمنا عنها وحتى جلاء الحملة الفرنسية النظرة الخاصة :

تكلمنا من قبل عن كبار القادة عندما يحضرون إلي مصر علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وكيف ينظرون إلي مصر نظرة خاصة ويرون بها ما لا يراه الآخرون إنها الشخصيات البارزة التي تكلمنا عنها من قبل مثل مينا ومنوتحتب الثاني وأحمس الأول والإسكندر المقدوني بلديات محمد علي وبطليموس الأول والإمبراطور أغسطس الروماني وسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وأحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد والمعز لدين الله الفاطمي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين

¹ تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 256 [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

² تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 258

³ تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 258

قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون والسلطان سليم الأول العثماني ونابليون بونابرت وغيرهم من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحث لهم بسرهما وجعلت منهم حكماً يلهج بذكرهم التاريخ)¹ المهم يا سيدي إن كل واحد من هؤلاء القادة نظر إلي مصر نظرة مختلفة مع اختلاف نية كل منهم تجاهها فمنهم من اتخذها عاصمةً لملكه واستغل إمكانياتها ومنهم من قام بتقليل أظافرها وتجريدها من مقوماتها قبل أن يعود إلي عاصمةً ملكه لتصبح ولاية تابعة له ، ومنهم من سخرها لخدمة الإسلام والمسلمين لتصبح عضواً قوياً في جسد الأمة الإسلامية المترابطة ومنهم من حقق بها مجد شخصي وجعلها عزية خاصة له ولأولاده من بعده ، وكل واحد منهم أحبها وقدر لها قدرها ولكن هناك فرق بين من يحب حب صاحب العزية لعزيبته ومن يحبها لوجه الله وابتغاء مرضاته ، والسؤال هو أين محمد علي من كل هؤلاء وما هي الغاية التي كان يحلم بتحقيقها ؟ وبالمناسبة كان محمد علي ينفذ مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فماذا كانت غايته وما هي الوسائل التي استخدمها لتحقيق غايته ؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه أثناء هذه الدردشة

اللعب بالنار :

عندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تجد أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، المهم يا سيدي إن محمد علي كان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ، وعلي فكرة تم جلاء الإنجليز عن مصر ولكن ليس بسبب ما يحدث بها ولكن بعد أن عرفت قيمة موقعها جيداً ، المهم سيبك من موضوع الإنجليز وتعالى نشوف من سيطر علي مصر خلال هذه الفترة ، قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به بسبب المشاكل التي يسببها المماليك ومؤامرات محمد علي ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائري أما آخر والي فيهم فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر بسبب محمد علي شخصياً ويقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي باشا الجزائري ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يآتمر بعلي باشا الجزائري ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعه هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائري كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعه الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب)² ومن هنا يتضح أن محمد علي كان يبدو أمام الشعب المصري كالحمل الوديع وسط قطيع من الذئاب ولا يد له فيما يحدث من ظلم أو مؤامرات

محمد علي باشا ومحمد بك الألفي :

كان محمد علي يكره المماليك بشدة ويعمل علي سحقهم تارة ومهادنتهم تارة أخرى وكان أخطرهم بالنسبة له محمد بك الألفي الذي كان قد غادر مصر مع الإنجليز وعاش فترة في لندن واتفق معهم علي حكم البلاد بدعم منهم وعاد إلي مصر ليواجه محمد علي وكان محمد علي يعتبره أصعب عقبة في طريقه للحكم بل كان يتفادى الصدام به في أي مواجهه عسكرية بقدر الإمكان ، وكان الألفي يمتاز بالذكاء الحاد والشجاعة وحسن القيادة وربما كان سينهض بمصر علي الطريقة الإنجليزية في حالة ما كان قد وصل إليه الحكم كما نهض بها محمد علي ولكن علي الطريقة الفرنسية كما سنري ، المهم يا سيدي إن المماليك عندما تلاشت لفترة السلطة العثمانية سمح لهم محمد علي بالسيطرة علي البلاد ليوضح للشعب مدي سوء حكمهم للبلاد (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية

¹ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 33

² تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج2 صفحة 285

قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرنأوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فأرى ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به ¹ ولكن كان من الممكن أن يستخدم محمد علي القوة للوصول للحكم إذا ما قرر المصريون أنفسهم أن يتولي أحدهم حكم مصر وعلي سبيل المثال السيد عمر مكرم وما كان محمد علي ليسمح لهم بذلك ولا حتي السلطان العثماني نفسه ولا المماليك ، المهم يا سيدي (أسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة)²

هل دعمت فرنسا محمد علي ؟ :

(وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد علي وتقلده ولاية مصر فيقولون أن الميسيو ماسيو دلسيس لما عين قنصلاً لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعدته علي تقلده حكم مصر وإنه لم يكن يعرف أحداً في مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود فدلته علي محمد علي لأنه يعرفه من قبل فكتب دلسيس إلي حكومته يوصيها بشد أزر محمد علي ومساعدته علي تقلده ولاية مصر -)³ وينفي المؤرخ الرافي هذه القصة تماماً ويقول أنها غير صحيحة بالرغم من أنه لا ينفي أن فرنسا كانت تقف مع محمد علي بعد توليه القيادة ، فيقول (أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد علي بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخرى لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا)⁴ ، ولكن الطريف في موضوع الفرنسيين هو ما يرويها الكاتب الكبير جمال بدوي عن أتباع سان سيمون وهي حدوته تستحق أن نكتب عنها ولكن سوف يكون ذلك في الفصل القادم بمشيئة الله عندما ندرش معاً عن أحوال مصر في عهد محمد علي

خورشيد باشا (الوالي الأخير) :

(وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة 1804 وهو خامس من تقلد ولاية مصر - - فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم ظاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائري وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)⁵ ، (كان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم - - تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس - ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)⁶ وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ، وأرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ، ولم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم 9 يوليو سنة 1805 م⁷ ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي رغم أنه أرسل والي آخر بعد ذلك بفترة ولكنه لم يتمكن من تولي حكم مصر كما سنري ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل

¹ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 293

² تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 293

³ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 293

⁴ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 294

⁵ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 294

⁶ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 296

⁷ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافي) ج 2 صفحة 314

محمد علي ومشاكل بالجملة :

كان المماليك يسيطرون علي صعيد مصر وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي ومن ناحية أخرى حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلي مصر وسيطر علي الفيوم وبالفعل وصل أسطول عثماني إلي الإسكندرية في أول يوليو سنة 1806 ومعها والي جديد علي مصر اسمه موسي باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد ، المهم عند حدوث هذه المشكلة لجأ محمد علي إلي زعماء الشعب مرة أخرى ، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر ، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلي أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل علي فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعماء هم)¹ واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك وكان أخطرهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي ، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة 1807م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد ماتت وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين ، وإليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدينوي حتى أنه قال في مجلس خاصته " الآن ملكت مصر " ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمرأوه وارتفعوا ناحية قبلي فسبحان الحي الذي لا يموت)² وكان محمد الألفي هو الوحيد تقريباً الذي لم يجرؤ محمد علي علي مواجهته عسكرياً في ميادين القتال وسبب سعادة محمد علي بموته أن من بقي من أمراء وزعماء المماليك لم يكن علي نفس مستوي الألفي وكان من السهل علي محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان علي نفسه وعلي ممتلكاته وأن يسكن معزز مكرم في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعى للوصول للحكم ولا يبغى سوي الحياة الكريمة الآمنة ، ولم يبق أمام محمد علي سوي التخلص من الجنود الأرنؤوط الذين زاد تمردهم وكادوا أن يقتلوه عندما ثاروا عليه لتأخر رواتبهم حتى أن محمد علي انتقل من سراي الأزبكية سراً إلي القلعة بحيث لم يشعر به الجنود المتمردون ولجأ محمد علي لزعماء الشعب كي يحلون له هذه المشكلة (ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا " أي زعماء الشعب " أن يتحمل الأهالي هذه الإتاوة الجديدة - - فجببت الإتاوة ودفعت للجنود واستتبت السكنية مؤقتاً علي حساب الأهالي)³ وكانت هذه المشكلة التي أثارها الجند من الأسباب الرئيسية التي جعلت محمد علي يفكر جدياً في تأسيس جيش نظامي والتخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين في المعارك التي سنذكرها إن شاء الله في الحجاز والسودان كما يقول الرافي (وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته فكان من وسائل تحقيقها إرسال أخلاط الجيش غير النظامي إلي الحملات البعيدة في الحجاز والسودان وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجياً تمهيداً لتأسيس الجيش المصري)⁴ ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك ، كان الشعب المصري وزعماءه يقفون مع محمد علي في كل مصيبة من أول توليته حكم مصر رسمياً بعد عزل خورشيد باشا بالقوة ، مروراً بمقاومة فرمان تعيين موسي باشا ثم قتال حملة الإنجليز في رشيد والحماد ثم حل مشكلة ثورة الجند ، كل هذا قام به الشعب من أجل محمد علي وكان زعماء الشعب يقفون مع محمد علي باشا في كل شئ عدا ظلم الشعب

التخلص يا عزيزي :

بعد أن شعر محمد علي أنه مستقر علي كرسي الحكم في مصر قرر أن يتخلص من كل الذين ساعدوه للوصول إلي هذا الكرسي وعلي رأسهم بالطبع العلماء والمشايخ " زعماء الشعب " ويقول عن ذلك الرافي (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلي التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسه علي قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت في هذه

¹ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 43

² عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج 7 صفحة 38

³ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 79

⁴ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 79

السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقضي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم - - ولئن كان محمد علي مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيتته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلي الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلي الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس)¹



عمر مكرم

يعني من الآخر كده وبدون لف أو دوران كان العلماء عاملين زي مجلس الشعب في أي دولة محترمة ولهذا المجلس الحق في مراجعة الحكومة ومراقبتها وتصعيد مطالب الشعب إلي الحاكم ولكن محمد علي باشا لا يحب أن يتدخل أحد إلا لإنقاذه فقط وهو لم يعد غريق تتخطه الأمواج فليلقي بكل من علي المركب في البحر ، ولكن كيف استطاع محمد علي أن يتخلص من زعماء الشعب وعلي رأسهم السيد عمر مكرم ؟ يبدو أن محمد علي تذكر أن هؤلاء المشايخ بشر مثل باقي البشر ويمكن تنمية مشاعر التنافس بينهم والحقد والحسد ويمكن أيضاً أن يحبهم في الدنيا ونعيمها ويعطيهم بعض الامتيازات مما تدره الأراضي الزراعية في مصر ، وهكذا مارس محمد علي هوايته المفضلة في التآمر ليضعف من شأن المشايخ وبالفعل نجح كالعادة في أن يشغلهم بالدنيا وطبعاً يا عزيزي القارئ حب الدنيا مرتبط بالوهن والضعف وهو وراء معظم المصائب التي أصابت الأمة الإسلامية إن لم يكن كلها والله أعلم ، وقد يقول البعض أن المشايخ يستحقون الضعف طالما أنهم سمحوا لمحمد علي بخداعهم وجر رجلهم ودائماً نلوم الضحية ونترك من فعل بها أي شئ ، وبالطبع ليس كل المشايخ الذي يمكن أن تشغلهم الدنيا ، فقد فشل محمد علي مع بعض المشايخ في خطته ومنهم بالطبع السيد عمر مكرم الذي كان يقف لمحمد علي عند كل مظلمة ولا يبالي فهو قوي لأنه لم يتورط في أي شئ مما تورط فيه العديد من المشايخ وبالتالي قام محمد علي بنفي عمر مكرم بعيداً عن العاصمة بعد أن استخدم المشايخ أنفسهم في مؤامرة ضده تعطيه مبرراً كافياً لنفيه بعيداً عن الأحداث ، وإليك بعض ما كتبه عبد الرحمن الراجعي عن عمر مكرم (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور)²

وصف الجبرتي لحالة المشايخ :

وصف الجبرتي ما آل إليه حال العديد من المشايخ بعد أن ورطهم محمد علي في أمور الدنيا ونعيمها ليضعفهم ، وإليك بعض مقتطفات مما كتب الجبرتي (ولما انقضي هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري - - فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها - - واغثروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة واقتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء - - واتخذوا الخدم والأعوان - - وانقلب الوضع فيهم بضده وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام - - وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من

¹ عصر محمد علي (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 81

² عصر محمد علي (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 83

التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة¹ ، أما المؤرخ الكبير جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفية إلي دمياط وطنطا تنفيذاً لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه علي الوصول إلي الحكم ووجد محمد علي تشجيعاً وتأييداً - بل تحريضاً - من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر علي زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين علي إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوي أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت)²

مذبحة القلعة :

بعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً بجيش إلي الأراضي الحجازية لقتال الدولة السعودية الأولى التي تبنت الدعوة الوهابية وسوف نتكلم عن هذا الموضوع فيما بعد إن شاء الله ، المهم يا سيدي إن الاحتفال كان يوم الجمعة أول مارس سنة 1811م³ (وقيل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبرى فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر - - - - -) وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم⁴ وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، المهم يا سيدي إن الموكب كان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهاه عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقري أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا للاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيئات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان)⁵ ، وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف⁶ وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متكرراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ، أما ما فعله الباشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني

تعليق الرافي على المذبحة :

(تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك - - - ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولمسمته)⁷ ، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية - - - ويضيف الرافي فيقول : ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق

¹ عجائب الآثار (الجبرتي) ج7 صفحة 113 ، 114

² محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 13 ، 14

³ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 108

⁴ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 109

⁵ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 110

⁶ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 111

⁷ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 114

في حالة الشعب النفسية لأن مذبحه القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس¹ **محمد علي والجبرتي :**

يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي (لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخاً حكومياً يكتب ما يرضي الحاكم ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجداً ومن سوءاته عزراً فإن لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نمي إلي علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته وأوعز إلي أعوانه فاغتلوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا وارتاع الرجل وهو يتلقي جثمان ابنه الصريع وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلت نفسه هماً وكمداً وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتي أبيضت عيناه من الحزن فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة إلي أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزيناً مكولماً عام 1825م)² ، (لقد ساء الجبرتي أن يري محمد علي وقد تملكته نزعة الشره إلي الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتي لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة وفرضها علي الناس بأسعار باهظة)³ ، وعلي فكرة لقد قام المؤرخ الكبير جمال بدوي بتحليل الموقف بين الجبرتي ومحمد علي في كتابه الرائع " مصر من نافذة التاريخ " ولكن لا يتسع الوقت لذكر كل ما ورد به عن هذا الموضوع ولذلك أدعوك لقراءته بنفسك ، والطريف أن الجبرتي لم يكن ضد محمد علي على طول الخط بل إنه كان يذكر أعماله النشيطة ويصفه بالهمة العالية في المشاريع الكبرى التي كان يقوم بتأسيسها فمثلاً ذكر الآتي عن أحد مشاريع محمد علي (وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة علي ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه)⁴

الدولة السعودية الأولى والدعوة الوهابية :

فشلت الدولة العثمانية في السيطرة علي الحجاز بعد أن قويت شوكة الدولة السعودية الأولى التي تبنت الدعوة الوهابية مما جعل الدولة العثمانية تطلب من محمد علي إرسال جيش للسيطرة علي مكة والمدينة وإخضاع الوهابيين وكان محمد علي مشغولاً بمشاكله الداخلية في مصر لفترة ليست بالقصيرة فكان يعتذر للسلطان العثماني عن عدم إمكانية دفع حملة إلي الأراضي الحجازية إلي أن أتاحت له الفرصة لإرسال حملته الشهيرة بقيادة ابنه طوسون باشا ، ولكن ما هو موضوع الدعوة الوهابية وما هو أصل الحكاية ؟ هذا ما سنحاول أن ندرش عنه معاً باختصار شديد من المراجع التي تتناوله ، شوف يا سيدي يقول الدكتور علي الصلابي : (ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة 1115هـ / 1703م في بلدة العيننة الواقعة شمال الرياض - - ونشأ علي حب العلم فطلبه منذ صغره وأظهر نبوغاً وتميزاً فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث - - ورحل في طلب العلم - - وعندما رجع إلي حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم والدعوة إلي عقيدة التوحيد الصافية وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله)⁵ ، (استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف علي أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ ، يدعو إلي إزالة المنكر وهدم قباب القبور وسد ذرائع الشرك وتحقيق العبودية لله وحده وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناة وتدعو إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة - - ولكنه رأي أن اللين يقابل

¹ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 114 صفحة 115

² مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 39

³ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 40

⁴ عجائب الآثار (الجبرتي) صفحة 410

⁵ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 416

بالشدة وأن الصدق يقابل بالكذب والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات¹ وهكذا قرر الشيخ بمعاونة الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية أن يدافع عن دعوته بالقوة ، وحققت الدعوة نجاحاً كبيراً (وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلي الحجاز)² وفي عام 1803 م دخل السعوديون مكة وبعدها بعامين ضم السعوديون المدينة المنورة وقامت بالفعل الدولة السعودية الأولى التي تأسست علي أسس سلفية وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز منتهي القوة وخضع لها معظم شبه الجزيرة العربية ، ويقول الدكتور علي الصلابي عن أعداء الدعوة الوهابية : (فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات علي أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف ، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة ، ويبغون المحافظة علي ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين ، أتت من سدنة القبور ، أتت من المستفيدين من صناديق النذور ، أتت من الذين يعيشون علي الأتعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها وفي العالم الإسلامي أجمع)³ وكان الوهابيون يمنعون أي وفد من وفود الحجيج يأتي بالطبل والزمر والموسيقي فقد كانت هذه السلوكيات منتشرة في ذلك الوقت ، أما من يأتي للحج بأسلوب عادي وطبيعي فلا يمنعون من الحج وأشيع في ذلك الوقت أن الوهابيين قد منعوا الناس من الحج

محمد علي يقضى علي الدولة السعودية الأولى :

وهكذا قامت الحرب بين محمد علي والوهابيين ودارت معارك عديدة تخلص فيها محمد علي من معظم الجنود الغير نظاميين وسافر بنفسه في أحد مراحل الحرب إلي الحجاز وبالمناسبة لقد بدأ هذه الحرب طوسون باشا واستكملها بعد ذلك ابراهيم باشا وكلاهما من أبناء محمد علي وقد وصف الرافي هذه الحرب بالتفصيل وكان علي ما يبدو من المؤيدين لها بينما كان الجبرتي ضدها ومتعاطف مع الوهابيين ، أما الرافي فقد ذكر في نهاية وصفه لهذه الحرب ما يلي (انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات وقد تخللها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي علي الحملة المصرية فإن الجيوش التي جردها محمد علي استهدفت للخطر في مواطن عدة وخاصة في هزيمة " الصفراء " الأولى وحصار " الرس " عندما استعصت علي ابراهيم باشا وفي حصار الدرعية وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها ففي تلك المرات الأربع كادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام ومن الأسباب التي أدت إلي اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود " الذي تولي القيادة بعد والده أثناء الحرب " والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو فإن القبائل التي انحازت إلي جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة)⁴ وهكذا باختصار شديد تم توضيح ملخص ما حدث وبالمناسبة كان من شروط استسلام الدرعية عاصمة السعوديين في ذلك الوقت أن يتم المحافظة عليها وتأمينها و (لم يف محمد علي بعهد ابنه ابراهيم في شروط الصلح فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل إلي القاهرة أخوة عبد الله بن سعود " الذي تم قتله بالأستانة " فنزل ابراهيم علي أمر أبيه وأرسل أخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها)⁵ وقد استمرت الحرب الوهابية من سنة 1811م إلي سنة 1819م

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 417

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 418

³ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 419

⁴ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 149

⁵ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 151

باقي حروب محمد علي :

في الحقيقة حدثت حروب أخرى في عهد محمد علي منها حرب السودان التي استمرت من سنة 1820 م إلي سنة 1822م¹ وكانت بقيادة اسماعيل باشا وإبراهيم باشا أبناء محمد علي لأن ابنه طوسون باشا كان قد مات كما سافر محمد علي أيضاً إلي السودان في أحد مراحل الحرب وعلي فكرة مات اسماعيل باشا أثناء هذه الحرب ، المهم يا سيدي وبدون الخوض في تفاصيل تم خضوع السودان لسيطرة محمد علي باشا ثم بعد ذلك أمره السلطان العثماني بإخماد ثورة أهلية كبيرة في اليونان فقام محمد علي بإرسال قوات برية وبحرية وكادت أن تحقق نجاحاً كبيراً لولا تدخل الدول الغربية لإنقاذ ثورة اليونانيين ضد الدولة العثمانية مما تسبب في غرق الأسطول المصري في موقعة تسمى واقعة نافارين ومع ذلك فقد تسببت هذه الحرب في رفع شأن وسمعة الجيش المصري عالمياً وأصبح يقاتل قتال علي أعلي مستوي ليس في الحجاز والسودان فقط ولكن في أوروبا نفسها ويعلق علي ذلك الرافي بقوله (ولا يخفي من جهة أخرى أن الحرب اليونانية كانت خير إعلان عن قوة الجيش المصري وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده ولقد ظهر في تلك الحرب أرفع شأن وأشد بأساً من الجيش التركي فكان لهذه الميزة أثرها في توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا بحيث لم يعد يسهل علي السلطان أن ينظر إلي محمد علي كوالي من ولاية السلطنة العثمانية بل جعلته الحرب نداً له وملكاً مهيب الجانب قوي البأس والسلطان فلا غرو أن قويت في نفس محمد علي بعد ذلك فكرة إعلان الاستقلال²)



محمد علي باشا يستمع إلي أحد التقارير

محمد علي يتحدى الدولة العثمانية :

المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك كان محمد علي قد أنفق أموالاً طائلة وبذل مجهود جبار من أجل تأسيس جيش قوي بل تكاد تكون النهضة التي أحدثها في مصر بسبب النهوض بالجيش المصري وحده لتحقيق طموحاته التي لا تنتهي علي ما يبدو ، وبالمناسبة سوف نخصص إن شاء الله الفصل القادم عن إنجازات محمد علي في جميع المجالات وكيف قام بالاهتمام بالتعليم والصناعة والزراعة وما إلي ذلك ، ولكن نحن في هذا الفصل نردش معاً عن محمد علي وهو علي عرش مصر وما يتعلق بذلك من أحداث سياسية مهمة وحروب ومعارك خارجية ، المهم يا سيدي إن محمد علي بعد أن كان ينفذ أوامر السلطان العثماني ويرسل الجيوش حيث يريد السلطان ، شعر بمدي ضعف الدولة العثمانية ومدي قوة الجيش المصري الذي كان يقاتل بالنيابة عن الدولة العثمانية وينجح في ما يفشل فيه الجيش العثماني ، وبالتالي قرر أن يقاتل الدولة العثمانية ويعلن استقلال مصر وبالفعل استطاع الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا التقدم نحو سوريا وفلسطين ولبنان وسيطر علي مساحات شاسعة من الأراضي حيث كاد يزحف نحو الأناضول في اتجاه عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، وطبعاً كان إبراهيم باشا عبقرى من عباقرة القيادة العسكرية والخطط الحربية حتى أنه استطاع أن يفتح عكا التي لم يتمكن نابليون من فتحها منذ سنوات قليلة وبمناسبة نابليون ، هل لاحظت معي أن محمد علي استطاع أن يفتح عكا التي لم يتمكن نابليون من فتحها منذ سنوات قليلة وبمناسبة نابليون ، هل لاحظت معي أن محمد علي استطاع أن يحقق حلم نابليون في تكوين إمبراطورية في الشرق تكون قاعدتها مصر ، المهم يا سيدي إن محمد علي بعد انتصارات جيشه المتلاحقة علي الجيش العثماني³ واتساع رقعة ملكه واجه خطراً كبيراً لم يتمكن من مواجهته

¹ عصر محمد علي (الرافي)صفحة 155

² عصر محمد علي (الرافي)صفحة 215

³ تعتبر معركة نصيبين هي المعركة الكبرى التي انتصر فيها الجيش المصري علي الجيش العثماني وكانت في 24 يوليو 1839 م

تعدى المسموح به (الانتفاخ) :

عجلة القيادة العالمية مع من ؟ لم تكن بالتأكيد مع محمد علي ولا حتى مع السلطان العثماني ولكن كانت مع دول أخرى كبيرة مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا ، ولكن كيف سمحت دولتين في العالم في ذلك الوقت بانتفاخ محمد علي إلي هذا الحد وتكوين هذه الدولة المصرية القوية الناهضة وهل كان صعود دولة محمد علي تحت مراقبة الدول الكبرى وبحساب بحيث يتم إيقافه في أي وقت ؟ والإجابة علي هذا السؤال محيرة بالطبع ولكن سنحاول البحث في المراجع عن إجابة شافية ولكن قبل أن نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعرف أن الدول الكبرى أجبرت محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي دخلها الجيش المصري عدا السودان بل الأكثر من هذا تم إجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره علي عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعنى أصح تم تقليص أظافره ، وهناك رأي يقول أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيق المراد قاموا بتقليص أظافره وهناك رأي آخر يقول أن الدول الكبرى ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة علي يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبرى متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي (لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيارته وفتح للتجار الأوروبيين الباب علي مصراعيه لدخول مصر والهيمنة علي اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر علي الأسواق الأوروبية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلي جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة علي الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد تويني في قوله " كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلي حقائق فعالة في مصر)¹ وقد ورد أيضاً عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم علي مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري - - لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)²

مؤسس مصر الحديثة :

كفاية كلام عن شخصية محمد علي وما دار حولها من آراء وتعاليم ندرش عن محمد علي باعتباره مؤسس مصر الحديثة كما هو مشهور عنه حالياً ، ولكن هذا سيكون إن شاء الله في الفصل القادم حيث سنتكلم عن مشاريع محمد علي الضخمة وأحوال مصر في عهده والمدارس والبعثات العلمية والصناعة وشق الترع وزيادة الرقعة الزراعية وتحسين وسائل الري وبناء القناطر الخيرية وتحويل نظام الري من نظام ري الأحواض إلي نظام الري الدائم وكل الحاجات الحلوة التي تم النهوض بها في عهد محمد علي كما سنتكلم إن شاء الله عن التطوير الذي حدث في المجتمع المصري في جميع المجالات والتأثر بالأفكار الأوروبية ونمو روح القومية المصرية ، وطبعاً قد تكون عدد الصفحات التي تناولت محمد علي حتي الآن في هذه الدردشة أكثر مما توقعت ولكن فترة حكم محمد علي كانت مزدحمة بالأحداث ومن الصعب الكتابة عنه في فصل واحد حتي ولو كان بأسلوب مختصر جداً ، فقد كان رحمه الله شخصية غير عادية وفرض نفسه علي جميع كتب التاريخ ، فإلي اللقاء في الفصل القادم لندردش عن أحوال مصر في عهد محمد علي بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهو المستعان

¹ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 414

² الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 409

40. أحوال مصر في عهد محمد علي

قرأت لك ولم أكتب لك :

مش ملاحظ عزيزي القارئ إن الدردشة التاريخية أصبحت معظمها من الكتب فقط وليس لي فيها سوي بعض كلمات الربط بين العبارات والنصوص التي أكتبها كما هي بين قوسين من الكتب والمراجع ، وربما يكون السبب في ذلك أن محمد علي باشا اختلفت حوله الآراء وبالتالي لابد أن تكون كل معلومة أكتبها عنه مأخوذة من كتب المؤرخين دون أن أحاول إعادة صياغة المعلومة في قالب جديد وبالتالي ستجد أن العبارات التي بين قوسين كثيرة جداً منذ بدأت الكلام عن محمد علي وستجد أن الكلام الذي أكتبه بأسلوبي قد أصبح نادراً ، وعلي العموم لن نختلف كثيراً فأنت لا تقرأ أساساً منذ عدة فصول وبالتالي فهذا مجرد كلام مع نفسي يريحني قليلاً ، وبالمناسبة كل العبارات التي أقوم باختيارها لأكتبها لك مختارة بعناية - ويتجيب من الآخر - لربط الأحداث ومعرفة الموقف بشكل عام في كل مرحلة كما حاولت بقدر الإمكان اختيار عبارات مركزة وغير مملّة ، وأول ما تشوف قوس تم فتحه ومكتوب بعده عبارة تعرف أن هذا ليس كلامي علي الإطلاق إلي أن يتم غلق القوس وبداية عبارة أخرى أو فتح قوس جديد وهكذا وستجد مصدر كل نص أسفل الصفحة (اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الصفحة) ، وآسف للإزعاج يا باشا ونستكمل الدردشة مرة أخرى

السبب الرئيسي وراء النهضة :

كان اهتمام محمد علي بالجيش هو السبب الرئيسي لنهضة مصر¹ في العديد من المجالات ، فالجيش هو وسيلته لتشييد ملكه وتأسيس دولته له ولأولاده من بعده وليحقق به الاستقلال والمجد (وليس في منشآت محمد علي ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفيك دليلاً علي مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرعة عنه والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش فهو الأصل وهي التبع فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلاً يرجع في الأصل إلي تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة)² ، ومن هنا يتضح أن المدارس والبعثات العلمية إلي الخارج وبناء المصانع والاهتمام بالنواحي الاقتصادية بشكل عام كان بسبب الجيش فهو الدافع وراء معظم هذه الإنجازات إن لم يكن كلها

الأزهر هو الأساس أيضاً :

علشان توجد مدارس ومستشفيات ومصانع - - إلخ لابد أن يكون هناك مدرسين وأطباء ومهندسين - - إلخ وعلشان يوجد مدرسين وأطباء ومهندسين - - إلخ لابد أن يكون هناك تعليماً عالياً وعلشان يوجد تعليم عالي لابد أن يتم استحضار خبراء أوروبيين من الخارج وأن تسافر بعثات من مصر إلي الخارج ، ولكن من سيسافر ؟ هكذا فكر محمد علي في تكوين طبقة من المتعلمين تعليماً عالياً يستعين بهم في القيام بنشر التعليم بين الناس وكذلك للاستعانة بهم في القيام بأعمال الحكومة وال عمران والنهضة ، وكان الأزهر هو الجهة الوحيدة في مصر التي يمكنها إمداد محمد علي بأشخاص يصلحون لتكوين هذه الطبقة الجديدة من المثقفين والمتعلمين تعليماً عالياً ، (وقد ساعد تكوين طبقة تعلمت تعليماً عالياً قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوروبا فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي)³ وكانت أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد علي هي مدرسة الهندسة بالقلعة سنة 1816م ثم توالى بعد ذلك المدارس علي كافة مستوياتها وانتشرت في أنحاء البلاد (والظاهر أن مدرسة القلعة لم تف علي مر السنين بحاجات البلاد إلي المهندسين أو أن برنامجها لم يكن وافياً بالمرام ، فأنشأ محمد علي في سنة 1834م مدرسة أخرى للمهندسخانة في بولاق وعين أرتين

¹ لقد وضع محمد علي بذور التصير والاستقلال الوطني المصري وبالرغم من أن مصر هي وطننا الغالي الذي نحبه إلا أن هذا لا يمنع أننا ننتمي أيضاً إلي الأمة الإسلامية العظيمة وليست هذه محاولة للذوبان في هوية أكبر ولكننا كعصريين مسلمين نهتم بأمور المسلمين ومصر هي عضو قوي ومفيد في جسد الأمة الإسلامية بل إن رسول الله صلي الله عليه وسلم اختصها وأهلها بأحاديث شريفة

² عصر محمد علي (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 321

³ عصر محمد علي (عبد الرحمن الراجعي) صفحة 397

أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلاً لها - - وفي سنة 1838م أسندت نظارتها إلي المسيو لامبير بك " الفرنسي " لغاية سنة 1849م - ، - أسس محمد علي مدرسة الطب سنة 1827 إجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك " الفرنسي " وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعل لوجود المستشفى العسكري بها من قبل)¹ كما تم إنشاء مدرسة للصيدلة والولادة ومدرسة الألسن هذا بالإضافة إلي المدارس الحربية والبحرية (لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التي أنشأها محمد علي واتسع نطاقها رأي أن ينشئ لها إدارة خاصة سميت " ديوان المدارس " سنة 1837م وكان موجوداً من قبل باسم مجلس شوري المدارس وقد ساعد علي تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلي مصر)²

قدوة الأماثل الكرام :

قام محمد علي بإرسال العديد من البعثات العلمية إلي أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص وكانت هذه البعثات تنقل العلوم الحديثة والأفكار الجديدة من أوروبا إلي مصر (وقد بلغ عدد الطلبة جميعاً الذين أوفدهم محمد علي إلي أوروبا من سنة 1813م إلي سنة 1847م 319 تلميذاً منهم 28 في الرسائل الثلاث الأولى ابتداء من سنة 1813م إلي سنة 1825م و 291 في البعثات الكبرى ابتداء من سنة 1826 فيكون مجموعهم 319 تلميذاً وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغت مصر في ذلك العصر وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر الإجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية)³ وكان محمد علي يتابع بنفسه أخبار المبعوثين في الخارج بل ويرسل إليهم الرسائل التي تحفزهم علي اكتساب العلوم ، وإليك مقدمة أحد هذه الرسائل (قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة علي شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة - -)⁴ ومن البعثات التي أرسلها محمد علي إلي فرنسا بعثة مشهورة باسم بعثة الأنجال لأنها كانت تضم عدداً من أبناء وأحفاد محمد علي منهم الأمير اسماعيل ابن ابراهيم باشا والذي أصبح بعد ذلك خديوي مصر الشهير الذي كان متأثراً بكل ما هو فرنسي خلال فترة حكمه كما سنري إن شاء الله

الشيخ رفاة الطهطاوي في باريس :

(يقول علي باشا مبارك " إن محمد علي باشا طلب إلي الشيخ العطار - شيخ الجامع الأزهر - أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى يري فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاة لتلك الوظيفة)⁵ ومن هنا يتضح أن الشيخ رفاة لم يذهب ليتلقى العلوم ولكنه ذهب في وظيفة محددة ولكنه استطاع أن يغترف من مناهل العلم في فرنسا علي حد تعبير الرافي وتعلم اللغة الفرنسية ودرس التاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب الفرنسية⁶ وتأثر بمفكري فرنسا وانبهر انبهاراً شديداً بالحضارة الغربية وتعجب كيف وصل هؤلاء إلي هذه المستويات العلمية الراقية وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين⁷ ، ومن أفضل ما قرأت لتوضيح مدي تأثر الشيخ رفاة بالأفكار الأوروبية ما ورد في كتاب " محمد علي

¹ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 400

² عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 404

³ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 409

⁴ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 410

⁵ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافي) صفحة 431

⁶ لاحظ معي أن الذي درسه الشيخ رفاة يتعلق بتكوين الأفكار أكثر منه تعلقاً بالعلوم الحديثة

⁷ كان مفكرو أوروبا متحررين من تعاليم الأديان السماوية واعتمدوا علي العقل فقط في صياغة منهج الحياة في أوروبا وكان ذلك رد فعل عنيف علي سيطرة الكنيسة في العصور الوسطى والتي كانت تحرم العلم والبحث العلمي والتفكير عموماً وكانت لفترة كبيرة سبباً في تخلف أوروبا عن العالم كله في الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية علي أعلى مستوي من التقدم العلمي في جميع المجالات لأن الدين الإسلامي لا يعوق العلم والبحث العلمي أو كما يقول الدكتور محمد عمارة : (ذلك أن الإسلام قد تميز عن غيره بأنه " دين " لا يقوم بغير " دنيا " وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن ونظام وعمران ، فالكثر من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب ، فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل العلم المدني الشرعي ، وفريضة علي الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات العلم ، التي بدونها لا تكتمل إقامة الدين ، - - - وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتى إلا في مجتمع مستكمل لشرائط العمران ، المادية منها والروحية والأدبية ، بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات علي النحو الأمثل ، وفي حضور قلبي يجعلها خالصة لله ، لا يتأتى إلا إذا انتظمت شؤون الدنيا ، وتحققت شروط الأمن المادي والمعنوي للعابدين العاكفين الراكعين الساجدين ، وذلك حتي يتمكنوا من إفراذ المعبود بالعبادة ، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدنيوية التي تحول دون الحضور في العبادات) من كتاب العطاء الحضاري للإسلام للدكتور محمد عمارة صفحة 97 ، 98 (سلسلة اقرأ - دار المعارف - العدد 626 - سنة 1997)

وأولاده " للأستاذ جمال بدوي عندما تكلم عن فشل الحملة الفرنسية في نقل الأفكار الأوروبية إلي الشعب المصري بينما نجح في ذلك رفاة بك فيقول جمال بدوي (ولو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية لن نجد أثراً واحداً يدل علي تغفل الأفكار الأوروبية بين المصريين ولن نسمع عن فولتير أو روسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة إلا بعد أن يعود الشيخ رفاة الطهطاوي من رحلته الميمونة إلي باريس في عام 1831م أي بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة)¹



رفاة الطهطاوي

ومن هنا يتضح أن عصر محمد علي كان بمثابة بداية لحملة فرنسية جديدة علي مصر ولكنها حملة ثقافية فهي استكمال للحملة العسكرية التي شنها نابليون علي مصر فقد كان هناك خبراء في عدة مجالات من فرنسا في مصر كما كان هناك مبعوثين من مصر إلي فرنسا ولم تكن العلوم الطبيعية فقط هي التي يتم نقلها ولكن كانت عملية تغيير الأفكار بشكل واضح مما يؤثر علي بعض الثوابت الإسلامية الراسخة ، فقد كان كل ما تحتاجه مصر هو العلم الطبيعي فقط مثل الهندسة والطب - - إلخ أما الهوية والتاريخ والمعتقدات فلم تكن في حاجة لأن نتعلمها من أحد ، وجدير بالذكر أن أوروبا عندما نقلت العلوم الطبيعية عن العلماء المسلمين قبل ذلك لم تنقل معها الأفكار الإسلامية ولكنها اكتفت بالعلوم الطبيعية فقط ، المهم يا سيدي إن عمك الشيخ رفاة رجع من فرنسا وقام بحركة ترجمة واسعة ومؤلفات كثيرة ، وبالمناسبة كان له كتاب شهير يصف فيه عاصمة فرنسا " تخلص الإبريز في وصف باريس " (والذي ميز فيه بين "الوضعية الغربية" اللادينية ، وبين " علوم التمدن المدني " الموضوعية والمحايدة ، فقال عن باريس وبلاد الفرنجة :

أوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحكم عجيب

ويستكمل الشيخ رفاة الطهطاوي وصفه فيقول : (- - فهذه المدينة ، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيره له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون ، إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهو لا يصدق شئ مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية)² ويستنكر الشيخ رفاة بالطبع هذه الأفكار ويؤكد أن (الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحاً ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود ، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة ، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافي في المتجددات المستحسنة التي اخترعها من منحهم الله تعالي العقل وألهمهم الصناعة - -) وطبعاً عزيزي القارئ قد يحتوي وصف الشيخ رفاة علي لغة قوية وكلمات قد لا نفهمها حالياً لضعف لغتنا العربية ولكن أعتقد أنه يري أنه لا يصح الاعتماد فقط علي العقل لوضع منهج حياة للإنسان علي الأرض دون الرجوع إلي تعاليم ومنهج المولي عز وجل الخالق الحكيم فهو سبحانه سيد هذا الكون وليس البشر فليس من حق البشر أن يفعلوا ما يعتقدون أنه صواب إذا تعارض

¹ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 9

² الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة - للدكتور محمد عمارة - صفحة 28 ، 29 - دار نهضة مصر - سلسلة التنوير العدد 18 (نقلأ عن الأعمال الكاملة للشيخ رفاة الطهطاوي - ج2 - صفحة 159 وما بعدها - طبعة بيروت سنة 1973)

مع أوامر المولي عز وجل لأن العقل البشري له حدود يجب أن يقف عندها ، ويتق ثقة مطلقة في أوامر المولي عز وجل وينفذها بلا تردد حتى إذا لم يعرف الحكمة من وراءها ، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (71) سورة المؤمنون وهكذا عزيزي القارئ قامت النهضة الأوربية علي مجموعة من أفكار المفكرين الذين وضعوا منهج بشري للحياة علي الأرض وتحرروا من تعاليم الأديان السماوية ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (9) سورة محمد

السان سيمونية في مصر :

(نشأ سان سيمون منذ طفولته متمرداً علي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائراً علي الظلم الاجتماعي الذي تفشي بعد سقوط الثورة " الفرنسية " في أحابيل الدكتاتورية فعكف علي دراسة العلوم البحتة - - وتوقف مبهوراً أمام إنجازات العلامة الإنجليزي نيوتن فاتخذ منه نبياً لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلي نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلي قيام مجتمع تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة ، والصناعة عنده لا تعني الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعني العمل المنتج في كافة صوره - - ودعا إلي استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التنقيف الخلفي والصناعي)¹ وقد حاول الانتحار مرة وفشل (وفي زعمه أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة شئون البرية واستغرق في تأملاته وشطحاته حتي خيل إليه أن الله يحدثه ويوحى إليه بفكرة الديانة الجديدة)² وكان سان سيمون يدعوا إلي حكومة واحدة للعالم كله ويريد توصيل العالم كله وربطه بقنوات مائية منها قناة السويس بمعنى أن سان سيمون وأتباعه كانوا يحملون بقناة السويس قبل أن يتم حفرها بفترة كبيرة ، المهم يا سيدي إن سان سيمون مات سنة 1825م وحاول أتباعه نشر أفكاره وكانوا يحملون بالسفر إلي الشرق والشرق بالنسبة لهم هو مصر وكان محمد علي علي ما يبدو قد فتح أبوابها أمام كل من يريد أن يجرب حاجة مش عارف يجربها في بلده وبالتالي كان هذا تشجيعاً لأتباع سان سيمون علي السفر إلي مصر (وصلت الدفعة الأولى من أتباع سان سيمون إلي الإسكندرية في شهر سبتمبر 1833م وعلي رأسها الأب انفانتان علي ظهر سفينة ترفع علي ساريتها علم مدرسة سان سيمون وتضم عدداً من الخبراء والمتخصصين في كافة العلوم ولدي وصول السفينة إلي ميناء الإسكندرية أعلن انفانتان : نعم إنني جئت إلي مصر لأقوم بتوصيل البحرين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر " محمد علي " الدكتاتوري في إلغاء الملكية الوراثية في الأرض الزراعية)³ وعندما تم عرض فكرة مشروع قناة السويس علي محمد علي رفضه تماماً لأن المشروع يتطلب الحصول علي قروض من البنوك الأجنبية وهو يخشي أن تخضع مصر لضغوط الديون الخارجية لأن محمد علي كان يريد تأسيس دولة مستقلة قوية علي أسس علمية لا تخضع لأي جهة خارجية وليس معني أنه أراد أن يؤسس دولته علي الطريقة الأوربية وعلي المنهج والفكر الأوربي ليس معناه الخضوع لأوروبا مالياً أو عسكرياً كما فعل أحفاده فيما بعد كما سنري ، وعلي العموم كان محمد علي في ذلك الوقت يفكر في إقامة القناطر الخيرية ، ولكن لم ييأس أتباع سان سيمون وقرروا تنفيذ مشاريع أخري في المجال الزراعي والصناعي " والاجتماعي " والجدير بالذكر أن دليسيب الكبير " والد فرديناد دليسيب " قد تقدم بمشروع قناة السويس لمحمد علي ورفضه أيضاً ، ثم تم عرض المشروع بعد ذلك علي سعيد باشا عندما تولي حكم مصر ووافق عليه وتم افتتاح قناة السويس في عهد الخديوي اسماعيل كما نعرف ، المهم يا سيدي إن دليسيب نسب هذا المشروع لنفسه وتنكر لدور أتباع سان سيمون كما ورد في كتاب الأستاذ جمال بدوي " محمد علي وأولاده " نقلاً عن كتاب آخر اسمه " أتباع سان سيمون وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر " الذي ألفه عالم الاجتماع المصري الدكتور محمد طلعت عيسي

¹ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 74

² محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 75

³ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 77

تأسيس الجيش المصري :

تعالى نشوف موضوع الجيش المصري الذي كان السبب وراء كل هذه الإنجازات والبعثات والمدارس وتعالى نشوف كيف تم تجنيد الفلاحين المصريين في جيش محمد علي عفواً أقصد في جيش مصر ، حيث اضطر محمد علي لتجنيد الفلاحين المصريين وأكرر مرة أخرى " اضطر " محمد علي لتجنيد المصريين في الجيش النظامي الذي قرر تأسيسه والذي يؤكد هذا الاضطراب ما ورد في كتاب الرافعي عن عصر محمد علي فقد ذكر محاولات محمد علي لتأسيس جيش نظامي من غير المصريين ففي سنة 1815م حاول محمد علي تحويل الجنود الغير نظاميين " الباشبوزق " إلي جنود نظاميين ولكنه فشل بسبب تمردهم وعصيانهم للأوامر وعدم تعودهم علي النظام والطاعة وكادوا ان يطيحوا به ، ثم أجل محمد علي مشروعه لتأسيس الجيش النظامي لوقت آخر ، ثم حاول تجنيد عدداً كبيراً من السودانيين ولكن لم تنجح المحاولة مرة أخرى بسبب وفاة معظمهم بسبب الأمراض ربما لتغيير الجو الذي اعتادوا عليه واختلاف أحوال المعيشة وأخيراً قرر محمد علي تجنيد الفلاحين المصريين ولكن لم يبدأ التجنيد إلا بعد أن قام بإعداد النواة الأولى من الضباط بمساعدة سليمان باشا الفرنساوي (وبدأ في العمل بأن قدم إليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدرهم علي أن يكونوا ضباطاً في النظام الحديث وطلب إلي بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك ، فاجتمع لدي الكولونيل " سيف " - سليمان باشا الفرنساوي - ألف من هؤلاء وأولئك أخذ يدرهم مدة ثلاث سنوات علي فنون الحرب وأساليبها الحديثة فصاروا نواة الجيش النظامي إذ تكونت منهم الطائفة الأولى من الضباط)¹



سليمان باشا الفرنساوي

وقد اختار محمد علي مدينة أسوان لتكون مكان التدريب بعيداً عن الأنظار والدسائس وحتى إذا فشلت التجربة لا يشمت فيه أحد والله أعلم (وقد عني محمد علي بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والأسباب فهي أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصري النظامي)² وقد واجه بالطبع سليمان باشا الفرنساوي صعوبات كثيرة حتي استطاع أن يحقق الهدف المرجو من هؤلاء الضباط لأنه عمل من الفسيخ شربات علي رأي الشاويش عطية ، وبعد أن تكونت طبقة الضباط بدأ في تجنيد السودانيين في ثكنات في بني عدي بالقرب من منفوط وقد تكلم علي باشا مبارك عن أحد هذه الثكنات في كتابه الشهير " الخطط التوفيقية " التي يوضح تاريخ جميع المنشآت والمباني والآثار الهامة في مصر ومما ذكره عن بني عدي ما أورده الرافعي (وقد أشار علي باشا مبارك إلي هذه الثكنات في كلامه عن بني عدي بقوله : " وبها أثر قصر كان بناه محمد لاطو غلي³ مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان " فلا بد أن يكون هذا القصر الذي بقي أثره إلي حين تأليف الخطط التوفيقية أحد المباني التي أقيمت في بني عدي حينما شرع محمد علي في

¹ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 327

² المرجع السابق صفحة 327

³ كان محمد لاطو غلي الشهير باسم لاطو غلي وله تمثال في أحد شوارع القاهرة حالياً كان يشغل منصب نائب محمد علي ووكيله وهذا المنصب كان يسمي الكتخدا ولذلك كان الجبرتي عندما يتكلم عن لاطو غلي يقول كتخدا بك وهناك لقب آخر مرادف لكلمة كتخدا وهو لقب الكخيا فهو يعني أيضاً النائب أو الوكيل وكان لاطو غلي من أشد الرجال إخلاصاً ومعاونة لمحمد علي وخاصة في بداية حكمه لمصر

اتخاذها مكاناً لتدريب الجنود علي النظام الحديث ¹ وبعد أن مات معظم المجندين السودانيين كما سبق القول شرع محمد علي في تجنيد المصريين

هل كان محمد علي يحتقر المصريين ؟

(وإذا كنا - نحن المصريين - نحمد لمحمد علي هذه الخطوة " تجنيد المصريين " التي كان لها ما لها في ترسيخ الحس القومي إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد علي قسوته في تجنيد الفلاحين المصريين وانتهاجه طرقاً غير إنسانية في جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم في الحبال وسوقهم كالدواب إلي معسكرات التجنيد ، يقول المؤرخ العسكري محمد فيصل عبد المنعم في كتابه " مصر تحت السلاح " إن المتتبع للطريقة التي اتبعها محمد علي لتجنيد المصريين يلاحظ بجلاء مدى احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين وامتهانه لآدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذي اختاره وانتخبه لحكمه)²

أنفار فقط يا جماعة :

أثار قرار تجنيد المصريين قلق القادة الأتراك وتحدثوا مع محمد علي في ذلك (وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام علي هذه الخطوة التي لا تحمد عقبها ولكنه طمأن خواطهم بأن تجنيد المصريين يقتصر علي مستوي " الأنفار " أي الجنود فقط أما رتب الضباط والقادة فستبقي حكرراً علي الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك)³

الصناعة الحربية :

اهتم محمد علي باشا بالصناعة الحربية فأسس مصانع للأسلحة والمدافع بالقلعة ومخازن بارود وقنابل ومصنع بنادق بالحوض المرصود وأقام معمل للبارود في المقياس بطرق جزيرة الروضة وكذلك في أماكن أخرى عديدة ، كما اهتم محمد علي بملابس الجند وتصنيعها ومهمات الجيش بشكل عام وقد أثبت الجنود المصريين كفاءة لا نظير لها في حروب حقيقية تحت قيادة ابراهيم باشا خارج القطر المصري (وقال كلوت بك في كتابه : ربما يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم علي الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة علي العمل واحتمال المشاق⁴ ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند الخطر والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن والإقدام علي المخاطر والاتجاه إلي خط النار)⁵ وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييداً لهذا الوصف ، ولكن كلوت بك لم يعتبر المصريين أهلاً للقيادة واعتبر كونهم جنود فقط هو الأفضل وبرر عمل محمد علي في إقصائهم عن المراتب السامية في الجندية وإسنادها إلي الأتراك والمماليك بينما رأي المارشال مارمون الذي زار مصر في رحلته أن المصريين يصلحون للقيادة ولكن خوف محمد علي في البداية من زيادة نفوذهم هو الذي جعله لم يبدأ بهم كضباط في الجيش ولكنه اكتفي بكونهم جنود فقط وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ الأسطول المصري واهتم بصناعة السفن الحربية في ترسانة بولاق ودار الصناعة الكبرى بالإسكندرية كما اهتم اهتماماً بالغاً بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن مصر (فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة وشحنها بالمدافع وبنى علي مقربة منها قلعة أخرى علي ذروة جبل المقطم تعرف بقلعة محمد علي وتشرف علي الأولي وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها واستدعي من فرنسا لهذا الغرض مهندساً حربياً في فن الاستحكامات يسمي المسيو " جليس " وأنعم عليه برتبة البكوية ، وجعله باشمهندس الاستحكامات)⁶

¹ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 329 ، 330

² محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 93 ، 94

³ المرجع السابق صفحة 131

⁴ سبحان الله ، هل نحتاج لشهادة كلوت بك عن الجندية المصرية ولدينا حديث رسول الله (ص) الذي معناه أن جند مصر هم خير أجناد الأرض وأنهم في رباط إلي يوم القيامة

⁵ عصر محمد علي (الرافي) صفحة 346

⁶ المرجع السابق صفحة 350

المشروعات الكبرى في عهد محمد علي باشا :

طبعاً إذا تكلمنا عن مشروعات محمد علي في مصر من عمران وزراعة وصناعة وغيرها لن نستطيع أن نوفيهما حقها في هذه السطور المتواضعة ومن المؤكد أن لديك عزيزي القارئ فكرة عن هذه المشاريع فمن أعماله فتح ترعة المحمودية " نسبة للسلطان محمود " وغيرها من الترعة في شمال وجنوب مصر كما أنشأ الجسور العديدة والقناطر كما أنه قام بتحويل نظام الري من ري بالأحواض إلي ري دائم بعد أن أنشأ القناطر الخيرية (كانت أراضي الوجه البحري - - تروي بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يزرع فيها إلا الشتوي ولا يزرع الصيفي إلا علي شواطئ النيل أو الترعة القليلة المشتقة منه وقد أخذ محمد علي في تغيير هذا النظام تدريجياً إذ أخذ في شق الترعة وتطهيرها وإقامة الجسور علي شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري في معظم السنة وصارت الترعة تروي الأراضي في غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ولاسيما بعد إقامة القناطر عليها - - وقد توج محمد علي أعمال الري التي أقامها بإنشاء القناطر الخيرية واسمها يعني عن التعريف فإنها قوام الري الصيفي في الوجه البحري وهي وإن كانت آخر أعماله في الري إلا أنها أعظمها نفعاً وأجلها شأناً وأبقاها علي الدهر أثراً¹) كما قام محمد علي بتوسيع نطاق الزراعة وغرس الأشجار واهتم بتحسين زراعة القطن وأدخل أنواعاً جديدة تصلح للنسيج واستقدم خبير فرنسي لتنظيم مصانع النسيج وكان اسمه المسيو " جومل "



جامع محمد علي بالقلعة

أما عن صناعة النسيج فحدث ولا حرج فقد أنشأ العديد من المصانع مثل مصنع الخرنفش ومصنع أمشاط الغزل بحي السيدة زينب ومصنع الجوخ ببولاق ومصنع الحرير ومصنع الحبال ونسيج الصوف والعديد والعديد من المصانع في عدة مدن وقرى مصرية وبالإضافة إلي مصانع النسيج أنشأ محمد علي مصانع أخرى مثل معمل سبك الحديد في بولاق ومصانع ألواح النحاس ومعامل السكر في الوجه القبلي ومصانع النيلة وغيرها ، وكان يشرف علي معظم هذه المصانع خبراء أجانب ، كما اهتم محمد علي بتشديد المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما إليها (فمن ذلك أنشأ بالقلعة قصره الشهير " قصر الجوهرة " الذي كان مقر الحكم في عهده وقصر شبرا وسراي رأس التين بالإسكندرية)² وبني جامع كبير بالقلعة الذي تم دفنه فيه بعد ذلك (وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس وعني بشئون البلاد الصحية - - وأنشأ المستشفيات والمحاجر الصحية علي النظام الأوروبي)³ وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ مطبعة كبيرة في بولاق وكانت تطبع بها الجريدة الرسمية " الوقائع المصرية " وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم بالعربية فقط كما كانت هناك مطابع أخرى صغيرة في أماكن متفرقة وهكذا يتضح أن محمد علي قد قام بإنشاء العديد والعديد من المشاريع الضخمة والتي تتم عن مدي مثابرته واجتهاده وهمته العالية كما كان يعتمد علي الخبراء الأجانب وخاصة الفرنسيين في معظم هذه المشاريع كما ساعده في ذلك خريجي البعثات من المصريين

¹ المرجع السابق صفحة 394

² المرجع السابق صفحة 510 ، 511

³ المرجع السابق صفحة 511

محمد علي المالك الوحيد :

هل تسمع عن الاحتكار ؟ أكيد سمعت عن هذا النظام وهو أن يمتلك شخص كل شئ تقريباً فيصبح المالك الوحيد لجميع أراضي مصر وجميع مصانع مصر والتاجر الوحيد في مصر يشتري ويبيع كل المنتجات المصرية ويصدرها أيضاً وعن احتكار الحكومة للصناعة قرأت لك ما يلي وطبعاً الحكومة هي محمد علي (سري مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة إلي الصناعة ، فبعد أن صار محمد علي المالك الوحيد لأراضي مصر ، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصناعاتها والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد إيراد الحكومة لأنه فتح باباً جديداً للربح فعمد إلي احتكار الصناعة لكن هذه الطريقة أضرت بالحالة الإقتصادية في مصر ضرراً بليغاً قال المسيو مانجان في هذا الصدد " كان في البلاد صناعات يتولاها الأفراد ويربحون مما يبيعونه من مصنوعاتهم إلي أهل البلاد وما يصدرونه منها للخارج - - وكانت هذه الصناعات تشغل عدداً من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة -150000 جنيه - ولكن محمد علي احتكر هذه الصناعات وأضاف أرباحها إلي حسابه وبعد أن كان الصناع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة ويقبضون رواتب معلومة كعمال مأجورين " وقال إن من نتائج هذا النظام أن كثيراً من صناعات النسيج فضلوا ترك صناعاتهم واشتغالهم بالزراعة - - وأن المصنوعات في نظام الاحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه ، وقال إن احتكار الصناعات قد أضر بالأهالي لأن الاحتكار من طبيعته أن يتلف مصادر الثروة ويحرم الصانع نتيجة كده وتعبه)¹ ، ويظهر أن محمد علي بعد احتكاره ملكية أطيان القطر المصري رأى أن يخفف غلواء هذا الاحتكار ويقرر نوعاً من الملكية الفردية ، بأن أقطع كثيراً من أعيان الدولة ورجال الجهادية والموظفين وبعض كبار الأعيان مساحات شاسعة من الأراضي البور قدرها كلوت بك بـ 200 ألف فدان ليستحثهم علي إصلاحها وإحياء مواتها ، وقد أعفاها من الضرائب - - وسميت أباعد أو أبعايات لأنها كانت مستعبدة من مساحة فك الزمام التي عملت سنة 1813م - - وخص أفراد أسرته وكبار حاشيته بأراضي أخري أوسع من الأبعادات)² وعلي العموم عزيزي القارئ وقبل أن ننهي الكلام عن الاحتكار وخاصة احتكار الأراضي الزراعية يجب أن نقرأ ما يلي (- - ولم يفت معظم كتاب الإفرنج انتقاد هذا النظام فيما كتبه عنه ، فقد قال المسيو مورييه : لا حاجة لنا إلي الإطالة في عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد علي ، لقد ربح الباشا منه أرباحاً طائلة لكنه أفضي إلي فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوي بهم إلي المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشطف العيش)³ وجدير بالذكر أن العديد من الفلاحين كانوا قد هاجروا من مصر إلي سوريا لعدم احتمالهم بل إن هجرة هؤلاء الفلاحين كانت من الأسباب المباشرة التي تذرع بها محمد علي لشن حملته علي سوريا كما يقول الرافي (وبيان ذلك أن كثيراً من الفلاحين المصريين قد فدحتهم أعباء السخرة والضرائب التي فرضها محمد علي باشا فهاجروا إلي الأقطار السورية المتاخمة لمصر فراراً من هذه المكاره وتخلصاً من الخدمة العسكرية وقد طم سيل المهاجرين حتي بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين وخشي محمد علي من عواقب هذه الهجرة وما تفضي إليه من المضار الإقتصادية فطلب من عبد الله باشا والي صيدا أن يرجع المهاجرين المصريين إلي بلادهم فرفض عبد الله باشا طلبه محتجاً بأن المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق أن يقيموا إني شاءوا ، فغضب محمد علي من هذا الجواب وكتب إليه يتوعده وينبئه أنه قادم ليعيدهم جميعاً يزيدون واحداً ، وهو عبد الله باشا ذاته)⁴ وجدير بالذكر أن تعداد سكان مصر (في أواخر القرن الثامن عشر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة وإذا أخذنا بإحصاء المسيو مانجان عن سنة 1823 فإن عددهم كان تلك السنة 2.514.400 وهذا النقص في العدد له أسباب معقولة ، فإن سكان مصر قد نقصوا في عهد الحملة الفرنسية والسنوات التي أعقبتها وفي أوائل حكم محمد علي لكثرة الفتن والثورات والحروب التي أفنت عدداً كبيراً من السكان وأنقصت النسل علي أن الإحصاء الذي عمل به سنة 1845 دل علي زيادة عدد السكان إلي 4.476.400 نسمة)⁵

¹ المرجع السابق صفحة 537

² المرجع السابق صفحة 531

³ المرجع السابق صفحة 536

⁴ المرجع السابق صفحة 221

⁵ المرجع السابق صفحة 543

نهاية محمد علي :

كفاية كلام عن محمد علي وتعالى نشوف نهايته وطبعاً احنا دردشنا مع بعض عن وقوف الدنيا كلها ضد محمد علي وتحجيمه وأجبرته علي سحب قواته من الأراضي السورية والأراضي الحجازية وتخفيض عدد الجيش المصري واعتباره من مكونات الجيش العثماني وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا وكل ما كسبه محمد علي هو أن يتولي أبناءه الحكم من بعده ولكن طبعاً مصر لم تصيح ولاية عادية من ولايات الدولة العثمانية فقد كانت مستقلة في كل شئ تقريباً عدا بعض الإجراءات الشكلية التي تربطها بالدولة العثمانية ، المهم يا سيدي إن عينا محمد علي فقد القدرة علي التركيز في آخر أيامه حتي قيل أنه قد أصابه نوع من أنواع الجنون (فعقد ابراهيم باشا مجلساً خاصاً برئاسته واستقر رأي المجلس علي أن يتولي إدارة شئون الحكومة بدل أبيه فتولي الحكم في إبريل سنة 1847م وأبلغ الأمر إلي الباب العالي¹ فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد ، وقد عني ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية ولكن عاجلته المنية في 10 نوفمبر سنة 1848م ، توفي وله من العمر ستون سنة هلالية - - وبعد وفاة ابراهيم ولي الحكم عباس باشا الأول ، ومازال محمد علي مصاباً بمرضه العضال إلي أن توفي يوم 13 رمضان سنة 1265 هـ " 2 أغسطس سنة 1849 " بسراري رأس التين بالإسكندرية ونقلت جثته إلي القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية - -)² وهكذا مات الرجل الذي صنع من مصر دولة مستقلة ذات سيادة وبعد أن أسس بها مشاريع عملاقة وهو بلا شك شخصية فذة يندر أن تتكرر في التاريخ (علي أن من الواجب أن نقرر إثباتاً للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي ، فقد وقع عليه إرهاب ومظالم كثيرة ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها الجيل الذي عاش في ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التي توالى من بعده ، أما جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاب ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعه ، كما احتكر التجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام إلي الشعب إساءة كبرى لأنه ضرب عليه حجاباً من الفقر والجمود - - وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك)³ كان هذا جزء من رأي المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراجعي في محمد علي وأضاف أيضاً (فإذا نحن نظرنا إلي تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وبعث نهضة الإصلاح وال عمران في مصر وأنه من هذه الناحية أكبر بناء في صرح القومية المصرية - - فلو لم يتولي محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفضي كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م) ، وعلي العموم الاحتلال تم علي أي حال في عهد أحد أحفاد

محمد علي

ماذا بعد محمد علي ؟

هل نشأ أبناء وأحفاد محمد علي نشأة دينية أم أنه اكتفي بتعليمهم القيادة العسكرية والسياسية والأمور الدنيوية وورثهم مصر كملكية خاصة لهذه الأسرة فكانوا ورثة تركة أكثر منهم ولاة للعهد ؟ وسوف نحاول الإجابة عن هذا السؤال في الفصل القادمة إن شاء الله والذي سنتناول فيه حكام مصر من أسرة محمد علي وما الذي فعلوه بمصر والمصريين وسوف نتحدث عن أشهر هؤلاء الحكام وأهم الأحداث التي دارت في مصر في عهد كل منهم وعلي سبيل المثال ترقى المصريين لرتب الضباط في عهد سعيد باشا وديون مصر في عهد اسماعيل والثورة العربية والاحتلال الإنجليزي في عهد توفيق وثورة 1919م والحروب العالمية وموقف مصر منها وغيرها من الأحداث ولكن قبل أن نختم الدردشة في هذا الفصل أريد أن أذكر لك رأي بعض المؤرخين والكتاب في هذا الموضوع كمقدمة لما سنتحدث عنه سوياً باستفاضة في الفصل القادم وما بعده

¹ الباب العالي مقصود به السلطان العثماني وحكومته وهو مجرد إجراء شكلي لا يؤثر في تولية ابراهيم باشا حكم البلاد والله أعلم

² عصر محمد علي (الراجعي) صفحة 573 ، 574

³ المرجع السابق صفحة 562 ، 563

بمشيئة الله حتي نصل إلي آخر ملك من ملوك أسرة محمد علي ومقدمات ثورة يوليو 1952م ، يقول الأستاذ محمود السعدني عن حزن مصر لفقد محمد علي لأنه (ترك وراءه حكماً دون المسؤولية جهلة ومتعاضمين وعلي درجة عالية من التفاهة ورأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضي العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهناً بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطاً مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء جاء الخديوي اسماعيل وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأي أن محمد علي تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر أن يهادن الغرب وأن يستفيد منه إلي أقصى درجة وما دام الغرب قوياً فلا بد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحيها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلي الحضارة الغربية وهنا أخطأ اسماعيل في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب ولكنها نتاج ظروف موضوعية وتاريخية وحاصل عمليات اقتصادية وعلمية ونتيجة مناخ لم يكن متوفراً في مصر ولم يكن اسماعيل علي استعداد لتوفيره لها ولذلك سنراه يغرق في الديون حتي أدنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح اسماعيل في ذلك بالفعل ، شق الشوارع والبياديين وبث النافورات والتماثيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور علي النيل وشيد القصور الملكية علي أرقى هندسة العصر وافتتح داراً للأوبرا وداراً للتمثيل وألف مجلساً للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنادي في عاصمة مصر ولكن مصيره لم يمتد إلي أبعد من القاهرة وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزناً للطعام ، ومستودعاً للبشر المستعدين دائماً للخدمة والصبر !! وعندما مات اسماعيل كانت مصر تغوص في مستنقع الديون وترك وراءه طبقة تعيش علي أرض مصر وتجيد الحديث بالتركية والفرنسية وتري في استعمال اللغة العربية تخلفاً والانتساب إلي الفلاحين وصمة والانحدار من أصول مصرية إهانة وكان من تفاخر هذه الطبقة أنهم ينحدرون من أصول قوقازية أو تركية أو جركسية أو أرمنية وسنري رئيساً لوزراء مصر أرمنياً اسمه نوبار باشا وجركسياً قائداً لجيش مصر اسمه السلحدار باشا وسنري كل شذاذ الآفاق في كل موقع وفي كل منصب وستصبح مصر هدفاً لهجرة كل حالم بالثراء في أوروبا وكل نصاب ودجال - - وعندما جلس توفيق علي عرش مصر كانت مصر تغلي في الأعماق وكان الشارع المصري يعاني من الضياع والمواطن المصري يعاني من الإذلال)¹ لقد كانت أوروبا بالنسبة لأحفاد محمد علي هي القدوة والمثل (كان اسماعيل أوروبي النزعة مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها ويعتقد فيهم حسن النية ولم يظن إلي مطامعهم الاستعمارية وبلغت به السذاجة أن لجأ إلي صديقه الإمبراطور نابليون الثالث ليكون حكماً في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا - - - وتجاهل اسماعيل الحقيقة البديهية بأن الخصم لا يمكن أن يكون حكماً عادلاً وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية - - وفي عام 1864م أصدر الإمبراطور حكمه ويقضي بإلزام الحكومة المصرية بدفع تعويضات باهظة إلي الشركة الفرنسية)² ، (ويعزو المؤرخ عبد الرحمن الراجحي خضوع سعيد باشا للنفوذ الأوروبي إلي ضعف شخصيته وانبهاره بالأوروبيين وشدة ركونه إليهم وميوله الفرنسية التي جعلته ينصاع لتأثيرات دليسيبس وأضرابه حتي أخذ الأجانب يسيطون أيديهم علي مرافق البلاد ويستطيون علي الحكومة وسيادتها ويشمخون بأنوفهم وصار للقناصل والجاليات الأوروبية نفوذ لم يكن لهم من قبل في عهود محمد علي وإبراهيم وعباس الأول - - وإذا كان القرض الذي استدانه سعيد " وهو أحد عشر مليون جنيه " يتواضع بالقياس إلي القروض الفادحة التي اقترضها اسماعيل ، فإن درجة خضوع سعيد للنفوذ الأوروبي تهون مقارنة إلي ما ارتكبه اسماعيل ، فقد فتح البلاد علي مصاريحها أمام المرابين والأفاقين والمغامرين من حثالات الدول الأوروبية ، وجعل منهم بطانته وخاصته وأصحاب الرأي والمشورة وانتهت سياسته الخرقاء إلي تطويق البلاد بسلاسل النفوذ الأوروبي وانهايار صرح الاستقلال السياسي والاقتصادي الذي كسبته مصر في عهد محمد علي)³ ، كانت هذه مقتطفات

¹ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 110 ، 111

² محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 140 ، 141

³ المرجع السابق صفحة 139

قصيرة من رأي بعض المؤرخين في عصر ما بعد محمد علي ، وإلي اللقاء عزيزي القارئ في الفصل القادم لنردش معاً عن
مصر بعد محمد علي بمشيئة الله والله المستعان وهو من وراء القصد

41. ورثة محمد علي باشا

حكام مصر من أسرة محمد علي :

المفروض أن نقوم بتلخيص عصر أسرة محمد علي قبل أن تأخذنا الدردشة في الكلام عنهم ويمكن كتابة أسماء كل من حكم مصر من هذه الأسرة وفترة حكم كل منهم من كتاب موسوعة حكام مصر¹ وعلي فكرة كان يتولي الحكم أكبر أبناء أسرة محمد علي حتي لو كان ابن الأخ أكبر من عمه فيتولي الحكم ثم يتولي عمه بعد ذلك إلي أن جاء عصر اسماعيل الذي استطاع أن يحصل علي موافقة السلطان العثماني علي حصر الحكم في أكبر أبناء اسماعيل نفسه فقط دوناً عن باقي أفراد الأسرة كما ستلاحظ أيضاً أن هناك أسماء مركبة في هذه الأسرة مثل (محمد سعيد) أو (عباس حلمي) وستلاحظ أيضاً أن تاريخ نهاية حكم بعضهم ليس بالضرورة تاريخ الوفاة فقد يتم عزله وتولية غيره في حياته عدا محمد علي الذي أصابه مرض منعه من الحكم حتي مات في عهد عباس حلمي الأول وجددير بالذكر أن لقب الحاكم يختلف طبقاً للظروف فمرة والي ثم خديوي ثم سلطان أو ملك تحت الحماية البريطانية وهكذا طبقاً للموقف :

| م | اللقب والاسم | فترة الحكم | من | إلي | ملاحظات |
|---|---|----------------|------------|------------|--|
| 1 | والي مصر (محمد علي) باشا | حوالي 43 سنة | 1805/5/17 | 1848/9/1 | توفي في 1849/8/2 |
| 2 | والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | حوالي شهرين | 1848/9/2 | 1848/11/10 | توفي في 1848/11/10 |
| 3 | والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) | حوالي 6 سنوات | 1848/11/10 | 1854/7/13 | اغتيال في يوليو 1854 توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي |
| 4 | والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) | حوالي 8.5 سنة | 1854/7/14 | 1863/1/18 | توفي في يناير 1863 وفي عهده قرر أن يرقى المصريين إلي رتبة الضباط بالجيش |
| 5 | والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | حوالي 15.6 سنة | 1863/1/19 | 1879/6/26 | توفي سنة 1895 بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس |
| 6 | خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | حوالي 10.5 سنة | 1879/6/26 | 1892/1/7 | توفي سنة 1892 وفي عهده قامت الثورة العربية واحتلت بريطانيا مصر سنة 1882 |
| 7 | خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | حوالي 22 سنة | 1892/1/8 | 1914/9/19 | توفي سنة 1944 عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولى |
| م | اللقب والاسم | فترة الحكم | من | إلي | ملاحظات |
| 8 | سلطان مصر السلطان (حسين) | حوالي 3 سنوات | 1914/12/19 | 1917/10/9 | أعلنه الإنجليز سلطاناً |

¹ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) من صفحة 120 إلي صفحة 126

| | | | | | |
|---|-----------|-----------|-------------------|--|----|
| لتستقل مصر رسمياً عن الدولة العثمانية تماماً وفرضوا الحماية علي مصر وتوفي سنة 1917 | | | | كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | |
| قامت في عهده ثورة 1919 وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي سنة 1936 | 1936/4/28 | 1917/10/9 | حوالي 19 سنة | سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | 9 |
| تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة 23 يوليو سنة 1952 وتوفي في إيطاليا سنة 1965 ودفن في مصر بمسجد الرفاعي | 1952/7/26 | 1936/4/28 | حوالي 16 سنة | ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | 10 |
| تم إعلان الجمهورية يوم 1953/6/18 وكان الملك طفلاً صغيراً تحت الوصاية | 1953/6/18 | 1952/7/26 | سنة واحدة تقريباً | ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) | 11 |

كان هذا ملخص سريع جداً يحتوي علي أسماء كل من حكم مصر من أسرة محمد علي وفترة حكم كل منهم والآن حان الوقت لنتكلم عن أهم الأحداث وأحوال مصر في عهد أسرة محمد علي وعلي فكرة عندما سأتكلم عن حاكم منهم لن أذكر اسمه المركب بالكامل فمثلاً سنقول الخديوي توفيق بدلاً من (محمد توفيق) ونقول عباس بدلاً من (عباس حلمي) لأن هناك اسم يغلب علي الاسم الثاني معروف به كل واحد منهم وهذا الذي سنستخدمه إن شاء الله



ابراهيم باشا والتحصينات :

لم يدم حكم ابراهيم باشا كثيراً وكانت معظم إنجازاته في حياة أبيه فقد كان ساعده الأيمن وقائد جيشه في الحروب الكثيرة التي خاضها وقد استعان ابراهيم باشا بالخبراء العسكريين الأوروبيين في بعض هذه الحروب مثل الحرب الوهابية وتعتبر فترة حكم ابراهيم القصيرة امتداداً لفترة حكم محمد علي إلا أنه اهتم اهتمام زائد بالتحصينات الدفاعية عن مصر خوفاً من نزاع الامتيازات الاستقلالية التي حصلت عليها في عهد محمد علي ، أما الفرق الشائع بين ابراهيم وأبيه أن ابراهيم كان يحب اللغة العربية أكثر من أبيه (وانفرد ابراهيم بأشهر شائعة في تاريخ الأسرة العلوية حيث طعن في نسبه إلي محمد علي " قيل أنه ابن زوجته التي كانت متزوجة من قبل ")¹ والشبه الكبير بين ابراهيم ومحمد علي ينسف هذه الإشاعة من أساسها ، المهم يا سيدي سوف أدرش معك عن حكام مصر من أسرة محمد علي دون أن أذكر لك تاريخ تولي الحكم وتاريخ الوفاة والنسب إلي محمد علي ويمكنك الرجوع إلي الجدول المكتوب في بداية هذا الفصل كي تعرف هذه المعلومات إذا أردت

عباس باشا الأول يكره التدخل الأجنبي :

تولي عباس الحكم قبل عمه سعيد ابن محمد علي لأنه كان أكبر منه سناً وبالمناسبة كان عباس باشا الأول يرفض التدخل الأجنبي في مصر ولذلك كان يكرهه الأوروبيين جداً ونسبوا إليه أوصاف سيئة واتهموه بأنه رجل أبله وشبه معتوه لا يستطيع فهم أي شئ وأنه أكبر مفسد لأعمال محمد علي² ومن أهم الأحداث في عهده أنه أرسل قوات للاشتراك مع الجيش العثماني في قتاله ضد روسيا (ولاء للباب العالي وتدعيماً للجهود السياسية التي كانت تربطه بالسلطان حيث كان يخشي انهيار السلطنة العثمانية وتقسيم دويلاتها بين الصقور الأوروبية)³ وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك ، المهم يا سيدي إن في عهد عباس الأول تم إنشاء خط للسكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة عام 1852 (فكان أول خط للسكة الحديد في الشرق)⁴ ويقال أن التعليم قد تأخر كثيراً في عهده وقام باستدعاء البعثات الموجودة في الخارج وتم إغلاق العديد من المدارس وقام ببناء العديد من القصور في أماكن بعيدة وفي جوف الصحراء ، ومن أشهر ما بناه عباس من قصور قصر ضخم بالعباسية وهي معروفة بهذا الاسم نسبة لعباس الأول كما قام ببناء قصر بالقطامية وبناها وغيرها من الأماكن (وبينما كان عباس يقسو علي الفلاحين⁵ ويرهقهم عسراً كان عطوفاً علي الأعراب البدو ويتغاضي عن نشاطهم في السطو والنهب والتخريب - - وفي عهده انتشرت الجاسوسية بشكل مخيف)⁶ وبالرغم من السلبيات الكثيرة التي تكلم عنها المؤرخون سواء المصريين أو الأجانب عن عصر عباس الأول فإن (من مآثر عباس الأول التي يذكرها الأستاذ الرافعي : أنه لم يفتح علي مصر أبواب التدخل الأجنبي ولم يمد يده إلي الاستدانة)⁷ وانتهت حياته نهاية مؤلمة وغامضة حيث تم قتله في قصره بينها يوم 1845/7/14 ثم تولي الحكم أكبر الأسرة العلوية سناً وهو سعيد باشا

سعيد باشا عاش في دور مصري :

سمح سعيد باشا للمصريين بالترقي لرتبة الضباط في الجيش المصري وبذلك نسف القاعدة التي حرص عليها العديد من حكام مصر من قبله فمن هؤلاء الضباط المصريين الذين برزوا بعد ذلك أحمد عرابي زعيم الثورة العربية التي نعرفها جميعاً والتي تمت في عهد الخديوي توفيق ، وكان سعيد مهتم جداً بعملية التمصير فكان يعتبر نفسه مصرياً ويجاهر بذلك أمام الجميع وقام باستبدال العديد من العناصر التركية بعناصر مصرية في العديد من الوظائف في الدولة ، ومع كل هذا فقد كان سعيد باشا ذو ميول فرنسية وكان له أصدقاء فرنسيين منهم دليسيبس الذي كان يعد له طبقه المفضل من المكرونة عندما كان محمد علي باشا يجبره علي الجري والتخسيس لبدانته فكان سعيد يحمل هذا المعروف لصديقه الفرنسي وطبعاً مش

¹ أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 130

² وصف الكاتب الفرنسي جوستاف فلوبيير لعباس الأول من كتاب أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 135

³ المرجع السابق صفحة 134

⁴ المرجع السابق صفحة 137

⁵ أشار العديد من المؤرخين أن جيل كامل من الفلاحين تعرض للظلم في عهد محمد علي من أجل الإصلاح والبناء علي أن تنعم الأجيال القادمة بعده من الفلاحين بنتائج هذه الأعمال والسؤال هنا من الذي كان ينعم بأي إنجاز يتم في مصر في عهد أسرة محمد علي ؟ هل كانت أسرة محمد علي ومن والاها والطبقة الأرستقراطية فقط ؟ وهل ظل الفلاح المصري يعاني من عصر إلي عصر دون أن يلتفت إليه أحد من هذه الأسرة ؟

⁶ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 119

⁷ المرجع السابق صفحة 124

معقول بسبب أطباق المكرونة فقط قام سعيد بإعطاء امتياز شق قناة السويس للشركة الفرنسية ولكن يبدو أن دليسيبس استغل ضعف شخصية سعيد باشا وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية وصادقته لإمبراطور فرنسا في الحصول علي امتياز شق قناة السويس (وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة ، ولم يترث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية ثم بلغت به البلاهة - وليس النخوة - أن استجاب لمطلب صديقه الإمبراطور نابليون الثالث بإرسال كتيبة من الجيش المصري لتتبارح إلي جانب القوات الفرنسية في المكسيك !!)¹ وقد اضطر سعيد إلي الاستدانة بعد ذلك لتغطية الأزمة المالية وفي عهده بدأ زيادة النفوذ الأجنبي في مصر بشكل غير مسبوق وبعد وفاته تولى أكبر رجال الأسرة العلوية الحكم وكان أكبرهم عندئذ اسماعيل الخدوي اسماعيل والإنجازات :

الكلام عن الخديوي اسماعيل كثير جداً وصعب أن نختصره ولذلك سنشير إلي عدة حقائق تاريخية واضحة وأحداث رئيسية تمت في عهده منها أنه أقام أول مجلس نيابي منتخب في مصر سنة 1866 وكان اسمه مجلس شوري النواب ويقول بعض المؤرخين أن هذا المجلس كان مجرد ديكور لئيباهي به أمام الأصدقاء من ملوك أوروبا ليثبت لهم أنه يحكم مصر بأسلوب حضاري حديث بينما كان هذا المجلس منزوع السلطات تماماً وليس له إي صلاحيات دستورية واضحة ولكن علي العموم كان هذا المجلس تطور طبيعي للحركة القومية المصرية التي وضع بذورها محمد علي وسعيد باشا فمنذ أيام محمد علي تكونت طبقة من الأعيان المصريين وصغار الملاك كان لها دور كبير بعد ذلك ، المهم يا سيدي هذا المجلس يعتبر نواة وبذرة للحياة النيابية في مصر ، أما الحقيقة الثانية أن اسماعيل استطاع أن يحقق السيطرة علي أراضي واسعة في قارة أفريقيا وشن حرباً شرسة علي تجارة الرقيق حتي سيطرت مصر علي جميع البلاد الواقعة علي بحيرة فكتوريا وبحيرة ألبرت كما بسطت حمايتها علي مملكة أوغندا وفتحت إقليم خط الاستواء² ووصل الحال إلي أن سيطرت مصر علي الساحل الغربي للبحر الأحمر حتي ساحل المحيط الهندي وطبعاً كانت تحركات الجيش المصري في أفريقيا تثير قلق بريطانيا إلي أن استطاعت احتلال مصر وتصفية ممتلكاتها في عهد توفيق ابن اسماعيل ، أما الحقيقة الثالثة في عهد اسماعيل أن في عهد اسماعيل تم افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية ، والحقيقة الرابعة أنه قام بإعادة تخطيط القاهرة بواسطة مهندس اشتهر بتخطيط المدن الكبرى مثل باريس وغيرها وهو المهندس هاوسمان حتي أنه قام بتغيير مجري النيل ليشق وسط المدينة وقام بتحويل البرك والمستنقعات والتلال إلي منطقة من أجمل مناطق القاهرة حتي الآن³ وطبعاً اسماعيل كان أول حاكم مصري منذ العصر الأيوبي يترك القلعة كمقر للحكم وينزل إلي قصر عابدين الذي كان علي أعلى مستوي من الحدائق في ذلك الوقت كما انه أسس مدينة الإسماعيلية وكانت له العديد من المنشآت التي تتسم بالذوق الفني الرفيع والطرز الأوروبي الفاخر كما اهتم بالصحافة والأدب والفن وحاجات كثيرة جداً أنا واثق أنك تعرفها جيداً مثل الأوبرا ولكن معظم إنجازات الخديوي اسماعيل علي ما يبدو كانت تقليد للحضارة الأوروبية دون أساس اقتصادي متين فيما عدا بعض المشاريع التي تعود بالنفع مثل حفر ترعة الإسماعيلية وحفر الترعة الإبراهيمية ومد السكك الحديدية وخطوط التلغراف وتوسيع المواني - - إلخ

اسماعيل ومستنقع الديون :

(إنه عصر اسماعيل الذي شهد أشهر ولائم التاريخ في حفل افتتاح قناة السويس الذي تكلف مليون و400 ألف جنيه عام 1869م وحضره ملوك أوروبا وعلي رأسهم أوجيني زوجة الإمبراطور نابليون الثالث ملك فرنسا)⁴ وكان اسماعيل مهتم جداً بأوجيني ويقابلها دائماً بحفاوة بالغة وكرم بالغ و (كان أقصي ما يريده اسماعيل أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنرجي القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك

¹ المرجع السابق صفحة 137

² مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 97

³ لم تكن منطقة وسط البلد موجودة قبل عصر اسماعيل فهو الذي أنشأ ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير حالياً) والشوارع المنفرقة منه كما نشأت جزيرة الزمالك نتيجة لتحويل مجري النيل واهتم بها الخديوي جدا وأسس بها قصر كبير كما اهتم بالمرافق العامة للعاصمة

⁴ أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 156

الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً¹ ، (ومضي اسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والظفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايع الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعة التحررية ومسايرته لروح العصر ولم تكن هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين)² ، كان اسماعيل عندما يريد أن يقيم احتفالاً يبالغ جداً علي ما يبدو في نفقاته مثل أفراس الأنجال التي كانت مثل حفلات ألف ليلة وليلة وحفلات افتتاح قناة السويس (لقد أنفق الخديو اسماعيل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة علي هذه الاحتفالات كي يبدو أمام ملوك أوروبا بمظهر الثراء والبذخ وكانوا جميعاً يعرفون أن اسماعيل ابتز هذه الأموال من عرق الشعب الكادح ليقدّم أطيب الطعام وأثمن ألوان الشراب حتي أن فرنسياً شراً قال بعد أن أتى علي كل محتويات مائدته : لقد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين)³ وبعد أن استفحلت ديون مصر قرر السلطان العثماني عبد العزيز منع مصر من الاقتراض مما أثار ضيق الخديوي اسماعيل فقرر التوجه إلي الآستانة وأنفق أموالاً كثيرة وجهود مضنية حتي استطاع الحصول علي إذن بالاقتراض (واستجاب له عبد العزيز وأصدر له فرمان الذي يسمح له باستئناف الاقتراض أي شاء ومتي شاء وكيفما شاء وعاد اسماعيل إلي مصر فرحاً مبتهجاً بهذا الانتصار وتزينت الإسكندرية ثلاثة أيام وكذلك القاهرة - - وكان ولي النعم قد جاب الديب من ديله وما علموا أنه عاد بالنكبة والدمار علي مصر إذ لم تمض سوي أيام حتي كان اسماعيل قد استدان أفدح وأكبر قروضه الأجنبية وهو القرض الذي أطلق عليه المؤرخون بحق القرض المشنوم لفداحة قيمته وقد بلغ 32 مليون جنيه)⁴ وفي الحقيقة أسوأ ما في موضوع القروض أن القيمة الاسمية لكل قرض تختلف عن المبلغ الذي تحصل عليه مصر فمثلاً القرض المشنوم الذي قيمته 32 مليون جنيه بلغ صافي ما تسلمته الحكومة منه نقداً أحد عشر مليون جنيه فقط (وليس في تاريخ القروض في العالم قاطبة قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة بل هذه السرقة العلنية كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد علي مثل هذه الشروط)⁵ ، ومن أمثلة القروض أيضاً ما يلي (في العام التالي لجلوسه علي الأريكة المصرية افتتح اسماعيل مسلسل القروض بخمسة ملايين و 704 آلاف و 200 جنيه استدانها من بيت فروهلينج وجوش الإنجليزي بفائدة 7% ويسدد علي 15 سنة أما المبلغ الحقيقي الذي دخل خزينة مصر فهو أربعة ملايين و 864 ألف جنيه بفائدة 12% أما أين ذهب الفرق فطمه عند حاشية الخديوي وسماسته - - واقترض اسماعيل سنة 1868 مبلغ 11.890.000 من بنك " أوبنهايم " لم تتسلم مصر منها سوي 7.195.384 جنيه)⁶ وعلي فكرة هذه المبالغ في تلك الأزمنة كانت كبيرة بشكل مهول ولا تقسها علي أسعار اليوم يعني مثلاً كان ثمن أردب بذرة القطن حوالي 71 قرش فقط وهكذا ، المهم يا سيدي أنا متردد أن أسوق إليك مثل أخير عن اسلوب أنفاق اسماعيل لأموال مصر لأن هذه الدردشة مطلوب فيها الاختصار الشديد ولكن هذا المثال قد يوضح ما يحتاج إلي مجلدات

فتاة القصر :

(ذهب الخديو لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلي عاصمة الإمبراطورية الفرنسية ولما كان هذا اللقب جديداً علي المسامع ، أقبل الناس يتساءلون : خديو ؟ ما هو الخديو ؟ - -

¹ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 229

² المرجع السابق صفحة 229

³ المرجع السابق صفحة 142 ، 143

⁴ المرجع السابق صفحة 234

⁵ المرجع السابق صفحة 246

⁶ المرجع السابق صفحة 239

وكان اسماعيل قد ذهب إلي باريس وجيوبه مألًى بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أهدوثة إعجاب الجميع - - ووقع في خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بعث إلي الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين علي عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماء أرض فرنسا¹ وتحت عنوان فتاة القصر كتب الأستاذ جمال بدوي (ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس ، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون في مذكراته وهي أن أحد كبار النبلاء دعا الخديو اسماعيل إلي وليمه في قصره بضواحي باريس فأجاب الخديو دعوته وإذا به يري قصراً بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبداً في حوزة غير الملوك فأعجب اسماعيل به أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدي لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل علي تلفظه وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه² فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل علي شدة احتياجه إلي النقود لا يري في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخم ، وتخرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري ، فأجاب : إنني قد أبيع يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات - ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك ، ولكن اسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائفة وقال : إنني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه علي أحد البنوك بباريس ولم يجد الرجل مفرأ من قبول البيع غير أن اسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل فقال بابتسام جميل مخاطباً والدها : " علي أني لا أحسبك تمنع في تحرير عقد البيع للأنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليداً لذكري استحسان خديو مصر ظرفها وأدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجرك من قصرك " ³ وهكذا دفع الخديوي اسماعيل مبلغ كبير جداً من أموال الدولة ولم يأخذ القصر لنفسه ولكن أهدها لابنة صاحب القصر ، فكيف تفسر تصرف الخديوي الرقيق الذي ساعد فيه هذا النبيل الفرنسي دون أن يسبب له حرج ؟ !!!!!!!!!!!!!!!

مجلس شوري النواب زعلان :

غضب نواب الشعب مما آلت إليه ميزانية البلاد فقرروا مناقشة الحكومة في الميزانية والسؤال هو (هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية : أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس 27 مارس 1879 م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي⁴ - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشؤون المالية وإصلاح مفاصد الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجبيين⁵ وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة ثم توالى الأحداث حتي تم عزل اسماعيل

عزل اسماعيل وتعيين ابنه توفيق :

غضب عنك لازم تتكلم كثيراً عن شخصيات معينة وها نحن لازلنا ندرش عن الخديو اسماعيل ولم ننتهي بعد ،المهم يا سيدي كيف انتهت فترة حكم هذا الرجل الذي يسمونه في بعض كتب التاريخ (عاشق مصر) ، وإليك نص رسالة العزل

¹ المرجع السابق صفحة 230

² لاحظ مراعاة إحساس واحد فرنسي نبيل وعدم مراعاة الحياة الكريمة للفلاحين المصريين علي كثرتهم

³ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 231

⁴ تخيل عزيزي القارئ أن في ذلك الوقت كان هناك وزيرين أجبيين في الحكومة المصرية واحد إنجليزي والثاني فرنسي وليس هناك عجب في ذلك فقد

كان محمد علي نفسه يستعين بأجانب في مناصب مهمة في الدولة

⁵ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 150

التي جاءت من الباب العالي (إن الصعوبات التي نجمت أخيراً في أحوال مصر الداخلية والخارجية ، بلغت مركزاً عسيراً وقد ينتج عن استمرارها كما هي خطر لمصر وللدولة العثمانية ومن أهم واجبات الحكومة السلطانية إيجاد الوسائل لتقرير الطمأنينة والأمن والرفاهية بين الأهالي وإنما صدرت الفرمانات لهذه الغاية عينها فيما أنه قد ثبت أن بقاءكم في منصب الخديوية لن ينجم عنه سوي مضاعفة الصعوبات الحالية وزيادة خطورتها ، فجلالة مولانا السلطان بناء علي تداول مجلس وزرائه قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا في منصب الخديوية وأصدر إرادته الهمايونية بذلك وقد أبلغ هذا القرار السامي إلي سعادته بإشارة برقية علي حدة ، وعليه فإني أدعوك إلي التخلي عن شئون الحكم طبقاً لأوامر جلالة السلطان)¹ وشاء القدر أن يعيش اسماعيل طريداً شريداً في العواصم الأوروبية التي طالما شهدت أيام عزه ومجده ولكن لم تعد تفتح له الأبواب ويستقبله الناس كما كانوا يستقبلونه من قبل وقد رفض السلطان دخوله أو بقاءه في أي مكان من ممتلكات الدولة العثمانية إلا في نهاية أيامه وعندما مات في الآستانة يوم 2 مارس 1895 تم إرسال جثته إلي مصر ليدفن بها ويؤكد الأستاذ جمال بدوي أن الأزمة المالية لم تكن وحدها سبب عزل الخديو اسماعيل بل كانت ذريعة فقط لعزله وأن عزله ثمرة مؤامرة خبيثة حبكتها انجلترا وهي في ذروة مداها الاستعماري وسارت الدول الأوروبية في ركابها وسائرتها دولة الخلافة العثمانية وكانت في أضعف حالاتها

الخديوي توفيق ومؤامرة عزل أبيه :

عندما تولي توفيق حكم مصر كانت تحت سيطرته إمبراطورية أفريقية ضخمة تمتد حدودها (من وادي حلفا شمالاً حتي خط الاستواء جنوباً ومن مصوع علي البحر الأحمر شرقاً إلي حدود دارفور غرباً وهي مساحة تعادل ضعف مساحة ألمانيا وفرنسا مجتمعين بالإضافة إلي دستور مؤجل وهو الذي اقترحه شريف باشا في آخر عهد اسماعيل وتركته مثقلة بالديون تقدر بـ 96 مليون جنيه)² ويقال أن توفيق استعان بانجلترا وفرنسا لمعاونته علي إصدار توليته حكم مصر من الباب العالي وبعد أن تولي صار أداة طيعة في يد الإنجليز³ ، وعلي فكرة تنازلت حكومة رياض باشا عن حصة مصر في قناة السويس لسداد ديون مصر وكان ذلك سنة 1880م (وفي نفس العام - - تم إنشاء مدرسة المعلمين العليا وعن طريق دانلوب مسئول العلم الإنجليزي تم تحجيم عدد المتعلمين وصياغة عقولهم بالطريقة التي تضمن التراجع والتخلف مقارنة بالتعليم الأوروبي)⁴ ومن هنا يتضح مدي التدخل السافر لإنجلترا في مصر استعداداً لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية وكانت مصر في هذا التوقيت في حالة مختلفة تماماً عن أيام محمد علي ولك أن تتخيل سيطرة الأجانب عليها وقسوة الوزراء وضياع الطمأنينة

الأفغانى وصل يا رجالة :

(وفي هذه الأثناء مر علي مصر رجل كالأنبياء ، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسالم وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت الثورة حرقته علي مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه في تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفثيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبني علي هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلاذوكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتهم كل شئ ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة ، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتي ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطاً من أنواع شتى ، طالب الدين محمد عبده ، والجندي أحمد عرابي ، والشاعر محمود سامي البارودي ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدي

¹ المرجع السابق صفحة 256

² أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 229

³ المرجع السابق صفحة 230

⁴ المرجع السابق صفحة 231

، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولفتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة¹ وتم القبض علي الأفغاني وإبعاده عن مصر ولكن بعد أن زرع أفكاره بين العديد من الرجال
انفجار الثورة العربية :

(عهد رياض باشا إلي عثمان رفقي باشا بنظرة الجهادية وهو شركسي متعصب فتمت ترقية الضباط الجراكسة فقط فاشتعلت بذور الفتنة العنصرية في الجيش علي أوسع نطاق فقد احتل ضباط الجيش - - الكثير حيث تأخرت رواتبهم وجمدت ترقيتهم وألقي بهم في غياهب أفريقيا وتشتت منهم ما لا نستطيع إحصاءه في الحرب الحبشية التي خسرتها مصر وعصف في عهده أيضاً باللائحة الدستورية وتدخلت إنجلترا في الشؤون المالية والسياسية ونفذ مخزون الصبر وتقدم أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي إلي الخديو بطلباتهم المذكورة عاليه " وفي واقعة غير مسبوقه في تاريخ مصر الحديث " مضافاً إليها زيادة عدد الجيش المصري طبقاً للفرمانات لكي يصبح 18 ألف جندي وعزل رفقي باشا من نظارة الحربية وتم اعتقال عرابي وزميلييه استعداداً لمحاكمتهم أمام المجلس العسكري في قصر النيل وحين شاع هذا النبأ زحف الجيش إلي نظارة الحربية وتم إخراج عرابي بالقوة وتوجه الجميع إلي سراي عابدين في سبتمبر 1881 م فخرج إليهم الخديوي توفيق وطالبوه بعزل رفقي باشا وتعيين محمود سامي البارودي ناظراً للحربية وإصلاح البلاد دستورياً وتشكيل مجلساً للنواب علي النسق الأوروبي فأجاب توفيق بعبارة الشهيرة كما جاءت في مذكرات عرابي " أنا ورثت تلك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا " فرد عرابي : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراناً أو عقاراً فلن نورث ولا نستعبد بعد اليوم -)² وطبعاً إنت عارف هذا الحوار من زمان ولكن لا يصح أن ندرش عن الثورة العربية دون أن نكتبه ، المهم يا سيدي إن الخديو توفيق في هذا الموقف العصيب وتحت ضغط الجيش تظاهر بالموافقة علي المطالب لحين الاستعانة بالإنجليز كما سنري

مجزرة الإسكندرية :

(في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء 11 يوليو 1882 أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنقع اليوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثاً عن مأوي بقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريحها أمام الأجانب ومنحهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوى الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدمين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرجال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الريا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة - -)³ ، المهم يا سيدي وحتى لا أطيل عليك قامت الحركة العربية للحد من نفوذ الأجانب ولكنها باءت بالفشل حيث استطاعت إنجلترا هزيمة الجيش المصري في التل الكبير وتم محاكمة عرابي وكبار أعوانه ونفيهم خارج البلاد وبدأت مصر في عهد جديد تحت الاحتلال الإنجليزي وقبل أن نترك موضوع ضرب الإسكندرية هناك تعليق للمسيو جون نينييه السويسري عن هذه المجزرة البشعة إليك جزء منه (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة

¹ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 111

² أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 235 ، 236

³ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 98

هجمية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء¹ ، كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ")² ويضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يملكك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطوق غريب جداً ولكنه منطوق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر)³

مصر تحت الاحتلال البريطاني :

وأصبحت مصر تحت الاحتلال البريطاني بعد إخماد الثورة العربية (عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الشتر المحترق إلي القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلي القاهرة ومهدوا له طريق العودة وانطلق موكب الخديو إلي قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دماً من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء علي مصر المحروسة وكان علي المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام علي مأدبة اللئام لقد مضى ذلك العصر الذي جلجلت فيه صحبات النديم والأفغاني ومجد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلي أسفل السافلين ، بات قصر الدوبارة - مقر المعتمد البريطاني - قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهياً لكل خوان أثيم)⁴ ، (وبمرور الوقت تعاضم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاءلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تنويج اللورد كرومر - - فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابييس الاستعمارية التي أفرعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً ووافته المنية عام 1892م عن عمر يناهز أربعين عاماً)⁵

الخديوي عباس حلمي الثاني يصل للحكم :

هو ابن الخديوي توفيق وتولي الحكم من بعده ولكن في وجود الإنجليز وكان عباس علي علاقة بمصطفى كامل الذي أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء وقام بتعبئة الرأي العام ضد الاحتلال وكانت حادثة دنشواي الشهيرة من الأعمال التي فضحها وأشعل الحماس (بين الطلاب والموظفون والتجار والأفندية ذوي الياقات البيضاء أما الفلاحون والمشايخ والأعيان فكانوا علي موعد مع حزب الأمة الذي تأسس عام 1907م وترجمه سعد باشا زغلول وأصدر جريدة "الجريدة" التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيد وكانت مصرية مستقلة تماماً عن الخديوي والإنجليز والباب العالي الذي كان الحزب الوطني ينظر إليه نظرة ولاء وتبعية)⁶ ، المهم يا سيدي إن بدخول الإنجليز لمصر ظل ظلم الشعب مستمر ولكن بصور أخرى أو علي رأي شاعر النيل حافظ إبراهيم :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت حواشيه حتي بات ظلاماً منظماً

وقال الشاعر عن الإنجليز :

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

¹ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 99

² المرجع السابق صفحة 100

³ المرجع السابق صفحة 100

⁴ المرجع السابق صفحة 112

⁵ أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة 246 ، 247

⁶ المرجع السابق صفحة 254

بريطانيا تستعد للحرب العالمية :

خلال فترة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني بدأت أحداث الحرب العالمية الأولى وأعلن الجنرال ماكسويل قائد جيوش الاحتلال في مصر الأحكام العرفية وتم وضع الرقابة علي الصحف (وأصدر الجنرال ماكسويل إعلاناً آخر ، حذر فيه الأهلين من تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلترا وحلفائها ، ودعاهم إلي اتباع الأوامر التي تصدرها السلطة العسكرية --)¹ وبدأت انجلترا تستعد للحرب وتحاول أن تضمن حياد الشعب المصري خلال هذه الحرب ولكن قبل أن نخوض في موضوع الحرب العالمية الأولى وماذا دار في مصر من أحداث بعد ذلك في إيجاز اسمح لي عزيزي القارئ أن نترك مصر قليلاً ثم نعود إليها بعد الفاصل ، وسيكون هذا الفاصل متعلق بالثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية والذي ساعد علي انهيارها واختفاءها بعد ذلك من مسرح الأحداث كآخر دولة إسلامية كبرى ، إلي اللقاء في الفصل القادم إن شاء الله

¹ من كتاب ثورة 1919 لعبد الرحمن الراجعي صفحة 27

42. القومية العربية ونهاية الدولة العثمانية

العرب والعروبة واللى عاربينها :

اسمح لي عزيزي القارئ أن نخصص هذا الفصل عن انتهاء الخلافة العثمانية وهي آخر خلافة إسلامية شهدتها تاريخ الإسلام وكيف استطاعت الدول الغربية أن تنمي الشعور القومي لدى العرب ليقوموا بثورة ضد الدولة العثمانية بصفتها "احتلال تركي" لبلادهم العربية ثم قام الغرب باحتلال الدول العربية التي كانت تحت الحكم العثماني ولكن قبل أن نتكلم ونردش عن هذا الموضوع تعالوا نشوف كيف تخلي العرب عن صدارة العالم الإسلامي من البداية وإيه أصل الحكاية وبعد أن ننتهي بمشيئة الله من الدردشة عن هزيمة الدولة العثمانية فسوف نعود مرة أخرى إلي تاريخ مصر إن شاء الله في الفصول القادمة

العرب ومراحل صدارتهم للعالم الإسلامي :

ظل العرب بعد الإسلام محتفظون بالصدارة والقيادة في العالم الإسلامي لفترة طويلة 1 في جميع المجالات الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية ، ثم شيئاً فشيئاً تخلي العرب عن قيادتهم للعالم الإسلامي في بعض المجالات ثم تبعها مجالات أخرى حتي انتهى دورهم تماماً أو كاد في جميع المجالات ، فأصبح هناك وزراء غير عرب 2 في الدولة الإسلامية وأصبح هناك قادة للجيش الإسلامية غير عرب 3 بل أصبح هناك علماء في الفقه والحديث غير عرب 4 وهكذا في جميع المجالات تنازل العرب عن صدارتهم حتي أصبح هناك ملوك وسلطين في العالم الإسلامي غير عرب 5 كالأكراد والترك وغيرهم ولم يتبق للعرب إلا منصب الخلافة 6 الذي أصبح في عصر سلطين المماليك منصباً شرفياً إلي حد ما ليرمز لتوحيد الأمة الإسلامية ، ثم جاءت الدولة العثمانية لتطيح بآخر ما تبقي للعرب من صدارة في العالم الإسلامي فنقلت منصب الخلافة أيضاً بعيداً عن العرب فجمع السلطان العثماني الخلافة مع السلطنة 7 ، المهم يا سيدي ما هي الأسباب التي أدت إلي زوال القيادة والصدارة العربية للعالم الإسلامي في جميع المجالات وكيف حدث هذا تدريجياً ؟

أسباب تراجع دور العرب في العالم الإسلامي :

عارف السر يا عزيزي القارئ في تراجع دور العرب في العالم الإسلامي بالرغم من أن جميع الخيوط كانت في أيديهم كما ذكرنا وبدأ التنازل عنها خيطاً خيطاً لغير العرب ؟ السر يا عزيزي في الإسلام نفسه ، فهو لا يفرق بين عربي وغير عربي ، فأى مسلم في الدولة الإسلامية له كافة الحقوق بغض النظر عن جنسيته ، فقد كان حكم العرب لشعوب غير عربية ليس كحكم الرومان مثلاً لشعوب غير رومانية أو ليس كحكم الفرس لشعوب غير فارسية ، فالموضوع ليس غلبة عنصر علي عنصر ولمزيد من التوضيح سنذكر مثال علي حكم الرومان لمصر ، فقد كان الرومان يحكمون مصر ويعيش فيها الوالي الروماني وقوة من الجيش الروماني وسائر الحكومة الرومانية التي تنظم شؤون مصر لصالح روما ، وقد كان للجنس الروماني جميع الامتيازات داخل مصر فلا يجرؤ مصري من المحكومين أن يعيش نفس الحياة التي يحياها أسياده من

¹ لم تكن للعرب قبل الإسلام دولة عظمي تحكم شعوبا غير عربية وتسيطر عليها كإمبراطورية مثلاً ، ولكن الإسلام هو الذي جعل للمسلمين دولة قوية يعمل لها العالم كله ألف حساب مما أدى إلي انتصار المسلمين الساحق علي الفرس والروم وقد أدرك العرب منذ فجر الإسلام أن سبب عزتهم ووحدهم وقوتهم يتلخص في أنهم مسلمين فالإسلام هو الذي جعل لهم هذه الدولة الضخمة المترامية الأطراف ونشأت الحضارة الإسلامية الراقية علي هذا الأساس وكان قادة العرب يعرفون جيداً أن الابتعاد عن تعاليم الإسلام وعن منهج الله سوف يؤدي إلي انهيار الدولة بالكامل

² كان البرامكة من أشهر الوزراء غير العرب في العصر العباسي

³ من أشهر القادة غير العرب في الجيوش الإسلامية أبو بكر الإخشيد وأحمد بن طولون وغيرهم

⁴ طبعاً أنت تعرف عزيزي القارئ العديد من العلماء غير العرب وخاصة في علم الحديث كالإمام البخاري مثلاً

⁵ كان صلاح الدين الأيوبي من أشهر السلطين غير العرب الذين حققوا للإسلام انتصارات عديدة وكذلك باقي سلطين الدولة الأيوبية وسلطين

المماليك أمثال قطز وبيبرس وقلاوون وغيرهم

⁶ كان الخليفة العربي في بداية العصور الإسلامية يجمع في يده الإمامة الدينية والقيادة العسكرية وجميع الصلاحيات السياسية والاقتصادية يعاونه في ذلك مجموعة من النخبة والمستشارين في المجتمع الإسلامي ثم بدأت سلطاته تنحصر مع الزمن شيئاً فشيئاً وانتقلت لغير العرب حتي راحت الخلافة

نفسها من العرب مع الدولة العثمانية التركية 0

⁷ لاحظ عزيزي القارئ أن الأمة الإسلامية قد مر بتاريخها قادة وسلطين غير عرب علي أعلي مستوي وحققوا العديد من الانتصارات والإنجازات في

الدولة الإسلامية ومع ذلك لم يفكر أحدهم أن يجمع بين السلطنة والخلافة وترك الخلافة للعرب ، فلا أدري ما السبب الذي جعل العثمانيون ينتزعوا

الخلافة من العرب ويحتفظون بها مع السلطنة بالرغم من أن الخلافة في ذلك الوقت كانت قد وصلت لمجرد منصب شرفي بدون أي صلاحيات ذات

خطر .

الرومان ، بل إنه لا يستطيع الحصول علي الجنسية الرومانية ليتمتع بما يتمتع به الرومان مهما فعل ، فهو لا يستطيع أن يتناول قرص من الدواء مثلاً وينتظر قليلاً فيتحول إلي شخص روماني ، وبالتالي سيظل المصري مصري والروماني روماني وسيظل السيد سيد والعبد عبد ، ونفس هذا الكلام ينطبق علي الفرس عندما كانوا يحكمون شعوباً أخرى غير فارسية¹ بل إن نفس الكلام ينطبق علي المصريين عندما كانت لهم إمبراطورية ضخمة في عصر الأسرة 18 الفرعونية أيام أمجاد تحتس الثالث فهل كان يستطيع أي إنسان غير مصري أن يتحدي أي مصري في ذلك الوقت ، إنها يا عزيزي النعرة العنصرية البغيضة سواء كانت رومانية أو فارسية أو مصرية والتي لا توجد في الدولة الإسلامية فعندما حكم العرب العالم الإسلامي لم يكن غلبة عنصر علي عنصر وبالتالي فإن أي شخص غير عربي بمجرد دخوله الإسلام فله أن يصل إلي أعلى مناصب الدولة فلا تمييز بين عربي وحشي ومصري وأبيض وأسود فالكل في الإسلام سواء ويعتبر هذا من الأسباب المهمة التي أعطت الفرصة لغير العرب لقيادة العالم الإسلامي في جميع المجالات ولكن هناك أسباب أخرى منها الاعتماد علي عناصر غير عربية في الجيش وكان هذا في البداية بإرادة عربية كاملة في ذلك الوقت ، كما أن الدولة العباسية عند قيامها انفتحت علي باقي الحضارات والثقافات الأخرى وأعطت الفرصة للعديد من الشخصيات الغير عربية لتصبح شخصيات بارزة في الدولة ، وهناك العديد والعديد من الأسباب ولكن علي أي حال لم يكن الإسلام ليسمح بالتمييز علي أساس الجنسيات بل إن باقي الأديان السماوية كانت تعيش في ظل الحكم الإسلامي أفضل بكثير من غيره .

القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟ :

تكلما ودرشنا عن العرب وكيف تراجع دورهم في إطار الدولة الإسلامية الكبرى إلي أن ضاعت منهم الخلافة نفسها ، وأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة المسؤولة عن العالم الإسلامي كله بما فيه من جنسيات مختلفة ومنهم بالطبع العرب وكانت الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية ذات سيادة علي المستوي العالمي وكانت آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب ويعمل لها العالم ألف حساب إلي أن قرر الغرب القضاء عليها باستخدام العرب أنفسهم كأحد وسائل الضغط عليها وبالتالي قام الغرب بتنمية القومية العربية لتواجه الدولة العثمانية وتكون طعنة في ظهرها أثناء الحرب مستغلة أن حكم الأتراك في ذلك الوقت كان قاسياً ولا يرضي الشعوب العربية التي كانت لا تدرك طبيعة المخطط لها وهو ببساطة شديدة استبدال حكم الدولة العثمانية باحتلال إنجليزي وفرنسي للدول العربية التابعة لها ، وقد أدركت الدولة العثمانية هذا المخطط وعملت علي إجهاضه وتعاملت بكل حسم مع جميع الأنشطة التي تدعو للقومية العربية والتي ستؤدي إلي انقسام الأمة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية علي دراية تامة بأنها في حالة التنازل عن الأراضي العربية فإن العرب لن يتمكنوا من إيقاف الزحف الاستعماري الذي يستهدف بلادهم وبالتالي عملت الدولة العثمانية علي وقف هذه المحاولات بكل قوة ولكن للأسف كان العرب قد تأثروا بالفعل بهذه المحاولات حتي قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية ثم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الاحتلال الغربي الذي تعامل معهم بشكل مختلف تماماً عن الدولة العثمانية ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (---- ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شئ قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة ، حتي إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كان " يحكمهم " قوم يمتون لهم ببعض الأسباب 2 ، فأصبح " يحكمهم " قوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ) 3 ، المهم يا سيدي تعالي نشوف ما الذي حدث في تلك الفترة ، وكيف قامت فكرة إحياء القومية العربية وكيف تم تغيير كلمة "الدولة العثمانية" (آخر دولة إسلامية ذات وزن في العالم) واستبدالها بكلمة "الاحتلال التركي" .

¹ واقرب مثال قريب علي ذلك الاحتلال البريطاني لمصر في التاريخ المعاصر وكيف كان للإنجليز في مصر وضع خاص يتميز عن المصريين
² ربما كان يقصد الدكتور طه حسين هنا الرابطة الإسلامية التي كانت تربط العثمانيين بالعرب ، ثم لم تعد هناك أي رابطة من أي نوع بين الاحتلال
 الغربي والعرب .

³ " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة 304 - دار المعارف - طبعة 1959

بداية فكرة القومية العربية :

قامت الإرساليات التبشيرية المسيحية بالإضافة إلي عملها في نشر الديانة المسيحية في القرن التاسع عشر في الشام بعمل آخر يهدف إلي الوقيعة بين العرب والدولة العثمانية (وقد بدأت الإرسالية الأمريكية عملها في الشام قبيل فتح مجد علي له ، ثم استكملت عملها أثناء الحكم المصري للشام (1832-1840) --- وقد وضعت نصب عينها - إلي جانب نشر البروتستانتية - هدفاً كان له مغزى عميق ، وهو إحياء اللغة العربية ، وتنمية الشعور القومي لدي العرب ، بهدف إضعاف الرابطة العربية التركية ، وقد أنشأت الإرسالية الأمريكية العديد من المدارس في الشام كانت اللغة العربية هي لغة التدريس فيها ، وكان من أهمها علي الإطلاق "الكلية الإنجيلية السورية" التي عرفت فيما بعد باسم "الجامعة الأمريكية ببيروت" والتي ساهمت في تخريج جيل من رواد القومية العربية كان لهم أثر لا ينكر في خلق فكرة القومية العربية بمفهومها السياسي الحديث . وقد أدى النشاط الكبير للإرسالية الأمريكية البروتستانتية إلي غيرة شديدة في الإرساليات الكاثوليكية وبصفة خاصة الجزويت فبدأ التنافس بين الفريقين علي إنشاء المدارس - - فأنشأ الجزويت مدارس في بيروت ودمشق وحلب وزحلة ، ثم أنشأوا لمنافسة الكلية السورية البروتستانتية " جامعة سان جوزيف" وبذلك أتيح للمسيحيين فرصة الإطلاع والتنقيب في تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم (1 ، يا سلام ، شفت إن الموضوع كبير إزاي وهذا يسمى باللغة الشوارعية " اللعب في النافوخ"

السلطان عبد الحميد الثاني² (الخليفة الأخير)³ :

يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني (مجازاً) هو آخر الخلفاء الحقيقيين في الدولة العثمانية وقد بذل جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ علي تماسك الأمة الإسلامية وقد واجه العديد من المشاكل داخل وخارج الدولة ، ففي داخل الدولة كان هناك من يرمي نفسه في أحضان الغرب ويعمل علي نشر كل ما هو غربي في الدولة العثمانية وتحويلها إلي دولة علمانية ذات قوانين وضعية غربية ونشر الثقافة الغربية وكذلك جعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة ومحو اللغة العربية التي هي لغة القرآن والعالم الإسلامي ، بينما كان السلطان عبد الحميد يسعى إلي التعريب لوعيه بأهمية اللغة في الحفاظ علي تراث وكيان الأمة كما كان حريص علي تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية ،



السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

ويقول الكاتب التركي الأستاذ نجيب فضل : (----) "ولخو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له ، وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل وذبول الإرادة وعموم الشلل" ---- ، وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين)⁴ ، وهكذا عزيزي القارئ نجد أن

¹ "الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ" - د عماد أحمد هلال - صفحة 58 - الطبعة الثانية 2006

² (هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية وهو من مواليد 1842) الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 469
³ لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني آخر خليفة في الدولة العثمانية ولكن بعد أن تعرض لمؤامرات أدت إلي خلعه من السلطنة والخلافة (تولي السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد ، إلا أنه في الحقيقة لم يملك أي سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي ، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها) الدولة العثمانية-

د علي الصلابي صفحة 543

⁴ الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 448

السلطان عبد الحميد قد واجه مشاكل بالجملة من الداخل وكذلك محاولات فصل القوميات المختلفة الموجودة داخل الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية طبعاً ، وقد كان طبعاً الجماعة الأتراك الذين يريدون تقليد الغرب في كل شئ كانوا يسمون أنفسهم بالإصلاحيين¹ طبعاً ويقول عن ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبب في اضمحلالنا ، تري لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات ، لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء علي هذه الإمبراطورية إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات ، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد ، وألا نقيس الأوضاع علي أساس المستوي الفكري لحفنة قليلة من الموظفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي ، الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً ، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين ، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة² ، ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعادة كل شئ يأتي من الغرب)³

السلطان عبد الحميد واليهود (علي جثتي) :

كان زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل يحاول الحصول من السلطان عبد الحميد علي فلسطين لليهود وبذل عدة محاولات لإغراء السلطان بالمال الوفير والمساعدات الدبلوماسية المختلفة التي يمكن لليهود يقدموها للدولة العثمانية ولكن كان إصرار السلطان علي عدم الموافقة (وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلي هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها : " انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأنني لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي ، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، ورووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول علي فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً بجثتنا ، ولكن لا أوافق علي تشريح جثتي وأنا علي قيد الحياة ")⁴ ، وكان من الطبيعي أن يعمل اليهود علي الإطاحة بالسلطان أولاً كخطوة مهمة في تحقيق هدفهم وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك (ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال : " إنني أفقد الأمل في تحقيق أمانى اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمراً فيه ")⁵

الدعوة إلى الجامعة الإسلامية :

وكانت الدعوة للجامعة الإسلامية من الأهداف التي يتمني السلطان عبد الحميد الثاني تحقيقها لدعم ترابط العالم الإسلامي قبل أن تذهب به القوميات المختلفة المنتشرة في الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية إلي تفكك يؤدي إلي الضعف والاضمحلال وبالتالي التعرض لهجمة استعمارية شرسة ، (و بالرغم من أن حركة الجامعة الإسلامية كانت تهدف - ضمن ما تهدف - إلي إضعاف فكرة القومية العربية ، إلا أن فشل المشروع الإسلامي كان من عوامل قوة الفكرة العربية واستمرارها ، بل وتحولها إلي حركة سياسية لها برامج وأحزاب وجمعيات)⁶

الأفغاني ومحمد عبده والجامعة الإسلامية :

(--- وبالرغم من أن الأفغاني ومحمد عبده كانا يعلمان أن الدولة العثمانية⁷ في حالة من الضعف تجعلها غير مؤهلة لقيادة الجامعة الإسلامية إلا أنهما وجدا فيها أفضل ما هو موجود علي الساحة الإسلامية ، يظهر ذلك من قول محمد عبده : " إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند

¹ الإصلاح - كم من الجرائم ترتكب باسمك ؟

² الحالات الخاصة قد يكون مقصود بها التقدم العلمي في مجال الكيمياء والفيزياء والهندسة وما إلي ذلك وليس فلسفة ومنهج الحياة نفسها

³ الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 451

⁴ الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 521

⁵ الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 526

⁶ الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 59- الطبعة الثانية 2006

⁷ (بالمناسبة عندما سألوا فؤاد باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أثناء زيارته لأحد الدول الأوروبية قبل أن يتمكنوا من هزيمة الدولة العثمانية بعد وقالوا له : ما هي أقوى دولة في العالم الآن ، فرد قائلاً : أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية ، ذلك لأنكم تدهمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الداخل ، ولم يستطع كلانا هدمها) الدولة العثمانية د علي الصلابي صفحة 471

العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقعة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته (1)

موقف الغرب من الجامعة الإسلامية :

(إن الاستعمار قد عمل بكل قوة لمنع هذه الحركة الإسلامية من الظهور والنجاح ، حيث وجد فيها الإنجليز خطراً شديداً علي إمبراطوريتهم التي تمتد إلي الهند وتسيطر علي ما يقرب من خمسين مليون مسلم لو اتحدوا لأطاحوا بالجيوش البريطانية إلي المحيط الهندي ، وقد وجد الإنجليز والفرنسيون أيضاً في فكرة القومية العربية قطباً مضاداً لحركة الجامعة الإسلامية² ، فتنبؤوا وشجعوها وغذوها بالمال والأفكار والتأييد ، مما جعلها تقوي وتنشط بعد أن كادت أن تختفي في مواجهة التيار الإسلامي الجارف (3)

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} (42) سورة إبراهيم

قيام الجمعيات التي تدعو إلى القومية العربية :

(تم إنشاء جمعية بيروت السرية عام 1875 ، علي يد خمسة شبان من خريجي الكلية السورية البروتستانتية هم : فارس نمر ، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وكان بينهم وليم فاندريك ، مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من دور الإرساليات التبشيرية في هذه المرحلة ، وقد تبنت جمعية بيروت السرية حركة قومية عربية في نطاق ضيق هو سوريا ولبنان فقط ، متأثرة في ذلك بكتابات بطرس البستاني التي كانت تسعى إلي إيجاد صيغة من التعايش بين مسلمي ومسيحي الشام في إطار دولة عربية مستقلة عن حكم الترك ولها طابع علماني(4) ، وهكذا تولت الجمعيات وإليك بعد الأمثلة علي هذه الجمعيات ليس علي سبيل الحصر (تشكلت في باريس جامعة الوطن العربي 1904 من خلال تجمع المنفيين العرب تحت زعامة نجيب عازوري) (5) ، (الجمعية القحطانية سنة 1909) ، (جمعية العربية الفتاة سنة 1911) ، (جمعية اللامركزية سنة 1912) (جمعية العهد سنة 1914) وكان لكل جمعية منهم أهدافها فمنها ما كان يطالب بالحكم الذاتي للعرب في ظل الدولة العثمانية ومنها من كان يطالب باستقلال العرب في إطار ضوابط محددة ولكنها جميعاً كانت تنادي بالقومية العربية .

الدولة العثمانية وإنجلترا والحرب العالمية الأولى :

عندما دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى وأعلنت الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم (وجدت إنجلترا أن في الأمر خطورة قد تهددها بدخول حرب واسعة ضد المسلمين في جميع أرجاء المعمورة ، خاصة وأن هناك نحو خمسين مليون مسلم تحت حكم إنجلترا في الهند فقط ، أضف إلي ذلك مسلمي مصر والسودان والخليج العربي وغيرها من البلدان التي تحت سيطرتها ، ولذلك أخذ الإنجليز الأمر علي محمل الجد ، وبعد بحث وتدقيق وجد الإنجليز أنه من الممكن إبطال مفعول تلك الفتوى المتضمنة إعلان الجهاد من سلطان ومفتي تركيا عن طريق الحصول علي فتوى معارضة من شخصية إسلامية يكن لها العالم الإسلامي كل الاحترام والتقدير ، وقد وجد الإنجليز ضالتهم في شريف مكة الحسين بن علي⁶ ، كما وجدوا أن تشجيع العرب علي الثورة ضد الأتراك سوف يؤدي إلي نفس النتائج (7)

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 62-63- الطبعة الثانية 2006

² (يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي " إن السلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلامية ، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة ، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة ، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين) الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 491

³ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 64- الطبعة الثانية 2006

⁴ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 78- الطبعة الثانية 2006

⁵ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 91- الطبعة الثانية 2006

⁶ كانت هناك شخصيات معينة في الدولة العثمانية تقلق الخليفة ويشعر بأنهم لا يدينون للدولة العثمانية بأي ولاء ولذلك كان يجعلهم يقيمون بجواره في عاصمة الدولة ولا يسمح لهم بمغادرتها حتي يأمنهم ومن هؤلاء شريف مكة الحسين بن علي (وقد عبد السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا ، قال السلطان : " إن الشريف حسين لا يحبنا ، إنه الآن هادئ وساكن ، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً " - - لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلي ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد ، فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني ، أعاد الشريف حسين إلي مكة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنجليز (الدولة العثمانية - د علي الصلابي صفحة 509

⁷ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 123- الطبعة الثانية 2006

الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين :

قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية (--- وقد وصله عرض كتشنر في 31 أكتوبر 1914 عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك ، وعلي الإبقاء علي سلامة الحج للراعي المسلمين التابعين للحلفاء وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل)¹ وعندما طلبت منه الدولة العثمانية تحديد موقفه من إعلان الجهاد استطاع الشريف حسين المماطلة حتي يعيد ترتيب أوضاعه ويستعد للثورة (ولما أحس القوميون العرب بمماطلة الحسين للأتراك وتيقنوا عدم نيته دخول الحرب إلي جانبهم ، سارعت جمعية العربية الفتاة بدعوته للتنسيق معها من أجل القيام بثورة عربية مستغلين انشغال تركيا في الحرب ، وقد وصلت الرسالة بالفعل في الأسبوع الأخير من يناير 1915 -- والحقيقة أن الرسالة قد لفتت نظر الحسين إلي محور مهم يعطي موقفه ثقلاً كبيراً عند التفاوض مع مكماهون ولذلك قرر الاتصال بالقوميين العرب في الشام والعراق قبل أن يرد علي رسالة مكماهون)² وقد قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميون العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي 14 يوليو 1915 أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة إنجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما



الشريف حسين

(وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين إنجلترا وفرنسا)³ وبالتالي قام مكماهون برد مائع ووعود تشجيعية ولكنها غير محددة ، لكن علي مين ، فقد أصر الحسين في رسالة بتاريخ 9 سبتمبر 1915 إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يكذب علي عمك الحاج ويعده في 15 أكتوبر 1915 بالاعتراف باستقلال العرب طبقاً للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة وبعض قليل من الأخذ والرد بخصوص حدود الدولة العربية التي كان يحلم بها الحسين تمت الموافقة بين الطرفين (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولى ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في 10 يونيو 1916)⁴ وطبعاً كانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية سايكس-بيكو⁵ التي قسمت فيها التورثة العثمانية بالهنا والشفا بدون علم الشريف حسين طبعاً وابقى سلم لي علي الدولة العربية ، وهكذا أوقع الإنجليز بين العرب والترك اللذين كانا يمثلان معاً الدولة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت ، وطبعاً عزيزي القارئ يمكننا الآن إعادة تأمل ما قاله الشيخ محمد عبده : (حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقعة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما)

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 127- الطبعة الثانية 2006

² (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 129- الطبعة الثانية 2006

³ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 133- الطبعة الثانية 2006

⁴ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 136- الطبعة الثانية 2006

⁵ نسبة إلي أسماء المفاوضات : الإنجليز مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو

الثورة العربية ضد الدولة العثمانية :

(وهاجمت القوات العربية ثكنات الجيش التركي في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، ما عدا المدينة المنورة التي استماتت الحامية التركية في الدفاع عنها ---- وبعد أن تمت السيطرة علي معظم المدن الرئيسية في الحجاز تدعم الجيش العربي نتيجة لفرار كثير من الضباط العرب من الجيش العثماني وانضمامهم إلي الجيش العربي ، ونجحوا في إعادة تنظيمه علي أسس الجيوش النظامية ، كما أمدتهم إنجلترا بالأسلحة والمعدات ، وفي يناير 1917 بدأت القوات العربية تتقدم شمالاً نحو الشام ---- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية - بعد سايكس بيكو - إلي العرب فأصدرت في 2 نوفمبر 1917 تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين) 1 يا عيني علي الحلاوة شفت إزاي ، المهم يا سيدي الحرب استمرت وكان القائد العثماني في الشام واحد اسمه جمال باشا وقد حاول جمال باشا أن يوضح للعرب الخدعة التي قام بها الإنجليز ضدهم ولكن دون جدوى (حيث وجد نفسه معرضاً لخطر مواجهة جيشين في وقت واحد : الجيش العربي يقوده فيصل بن الحسين ويتقدم من شرق الأردن نحو دمشق ، والجيش البريطاني يقوده الجنرال اللنبي ويتقدم من القدس -بعد أن نجح في احتلالها - فأرسل جمال باشا إلي فيصل برسالة في 12 ديسمبر 1917 تحتوي علي نص اتفاقية سايكس بيكو التي نشرت في الصحف الروسية ، ويوضح له أن التعاون مع الحلفاء لن يؤدي إلي استقلال العرب كما يعرض عليه عقد الصلح بين العرب والأتراك ، لمواجهة أطماع الحلفاء التي أصبحت مكشوفة للعيان ويطلب من فيصل الحضور إلي دمشق للتفاوض علي أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع أمانهم القومية) 2 وطبعا هذه الرسالة كانت صدمة لعك فيصل وعلشان كده قام بإرسالها إلي والده الحسين فقام الحسين ---- تفكر عزيزي القارئ بماذا قام الحسين --- ؟ لقد قام بإرسال هذه الرسائل إلي المندوب السامي البريطاني في مصر في ذلك الوقت ريجنالد وينجت يطلب منه تفسير لها ، وطبعا وينجت شكره علي أنه أطلعته علي هذه الرسائل وأكد له أنها كانت مجرد محادثات مؤقتة لم تتم وإن جمال باشا كمان قام بالتبديل فيها فلا تجعله يخدعك (فهذه مهمتنا نحن فقط ولا مؤاخذه) - ولا تقلق تماماً فكله تمام وكل حاجة ماشية حلو علي الآخر وشوية كلام من الأونطة ، (وتقبل الملك حسين الرسالة والمذكرة علي ظاهرهما وقعد مستريح البال لأن إيمانه بالمعاملة النزيهة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد) 3 وكما حدث مع سايكس بيكو حدث بعد ذلك عندما علم الحسين بوعد بالفور لليهود وقام أيضاً بالاستعلام عن حقيقة الأمر من الحكومة البريطانية (وقد أرسلت الحكومة البريطانية القائد هوجارث ليقابل الملك حسين في جدة ويشرح له الهدف من التصريح ، وقابله بالفعل مرتين في يناير 1918 ، وأكد له باسم الحكومة البريطانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، وعلي هذا الأساس وافق الحسين علي أن يهبي لليهود في فلسطين ملجأً آمناً من الاضطهاد ، ولكنه أكد علي أن مسألة التنازل عن مطالب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً) 4

الموقف في مصر بعد الحرب العالمية الأولى :

(لم تشهد البلدان العربية الأفريقية تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل الحرب ، فقد احتفظت فرنسا بتونس والجزائر ومراكش واحتفظت أسبانيا بالريف ، أما إيطاليا فاحتفظت بالساحل الليبي ، في حين ظلت داخلية ليبيا تحت حكم السنوسيين ، ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، ولم يكن للحركة العربية صدي كبير في تلك البلدان ، فقد كانت ميول معظم العرب الأفارقة مع الدولة العثمانية ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار الأوروبي عن طريق التمسك بفكرة

1 (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 143

2 (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 144

3 (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 146

4 (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 147

الجامعة الإسلامية ، كما سعي السنوسيون إلي التحالف مع الأتراك وهاجموا مصر من ناحية الغرب وشغلوا جزءاً كبيراً من جهد وتركيز القوات البريطانية في مصر حينما كان الأتراك يهاجمون قناة السويس ، وفي مصر نفسها ، كانت قلوب المصريين مع الأتراك ، بينما كانت أجسادهم مع الإنجليز ، فقد نجح الإنجليز في حشد فيالق العمال والجنود المصريين للمشاركة بجهودهم في ميادين القتال المختلفة خاصة في حملة الدردنيل ، وحملة النبي علي الشام ، وفي بداية الحرب نجح الإنجليز في تنمية العامل الوطني المصري ، ليلعب دوراً مضاداً للحركتين الإسلامية والعربية ، فأزاحوا الخديو عباس حلمي عن أريكة الخديوية لميوله العثمانية وأعلنوا مصر محمية بريطانية ، ونصبوا عليها حسين كامل سلطاناً ، وتالت وعودهم للمصريين - كما كان الحال للعرب - بحصولهم علي حق تقرير المصير بعد الحرب - وبعد الحرب ونتيجة لهزيمة الدولة العثمانية ، ثم اختفائها من الوجود بعد قليل ، توارت فكرة التحالف مع الدولة العثمانية ، وظهر التيار الوطني يطالب باستقلال مصر ، لا عودتها إلي تركيا ، ولا اندماجها في وحدة مع البلاد العربية الأسيوية التي كانت الحركة العربية فيها في ذروة نشاطها ، - - - ولكن تيار الوطنية المصرية كان هو الآخر في ذروة نشاطه متمثلاً في ثورة (1919) 1

البمبة الكبيرة :

لن أشغل بالك عزيزي القارئ بتفاصيل ما تم لعود الإنجليز للعرب بعد انتهاء الحرب فقد حصلوا علي بمبة كبيرة باختصار شديد وحتى لا أحرق دمك بأحداث مثيرة للأعصاب وخصوصاً تفاصيل طرد فيصل بن الحسين من دمشق بشكل مهين بواسطة القوات الفرنسية ، وعموماً يا سيدي بشكل عام أصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين والعراق من نصيب إنجلترا (وفي فبراير 1921 ظهر في شرق الأردن فجأة الأمير عبد الله بن الحسين الذي أخذ يحشد قواته في عمان ويجمع القبائل التي حولها لمهاجمة دمشق والانتقام لطرد أخيه فيصل ، وقد اتصلت به الحكومة البريطانية وشجعتة علي البقاء في عمان والاعتراف به حاكماً علي شرق الأردن علي أن تقدم له مساعدات مادية ويخضع للرقابة والمشورة البريطانية من خلال مندوب بريطاني يقيم في عمان وتم الاتفاق علي ذلك فعلاً في لقاء عقد في القدس بين الأمير عبد الله ووزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت ونستون تشرشل) 2 وطبعاً الحركة اللي عملها الأمير عبد الله معناها إنه عارف إن الناس دي ما ينفعش معاها غير القوة علشان كده جعلوا منه ملك ولكن مش ملك مستقل أوي يعني زي ما انت شاييف .

تقطيع التوراة³ :

خلاص الدولة الإسلامية أصبحت مستعمرات أوروبية وحن الوقت لعمل التقطيع الذي يضمن عدم توحيدها مرة أخرى تحت أي مسمي فقد (فرض الاستعمار علي العالم العربي نوعاً من التجزئة الأرضية لا تقبل الوحدة ، وعمل علي إقامة الحواجز بين العرب ومنع الاتصال وتبادل الأفكار ، فقامت فرنسا بفصل لبنان عن سوريا وضم جبل لبنان إليه ليصبح لبنان الكبير بحدوده الحالية ، ثم عمدت إلي سوريا فقسمتها إلي أربعة دويلات : دمشق وحلب والدرز والعلويين وقامت بريطانيا بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، وسعت لخلق دولة صهيونية في فلسطين ، وكان من أهم أهداف التجزئة فصل المناطق الداخلية من العالم العربي عن سواحلها ، ثم الاستيلاء علي النقاط الإستراتيجية المهمة في تلك السواحل ، فقامت إنجلترا بفصل عدن وحضرموت والمحميات عن قلب الجزيرة العربية ، كما حرمت الجزيرة من ساحلها الشرقي بتمسكهم بحماية إمارات الخليج مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وكذلك حرمت شرق الأردن من ساحلها علي البحر المتوسط بفصلها عن فلسطين ، كما حرمت سوريا من جزء كبير من ساحلها بفصل لبنان ، كما تم فصل إقليم الريف ومنحه لأسبانيا ليصبح معزولاً عن بقية المغرب وحتى ساحل الصومال كانت تتقاسمه ثلاث دول أوروبية هي : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعندما عجز الاستعمار عن إيجاد حدود طبيعية لتمزيق أوصال الوطن العربي لجأ إلي الحدود المصطنعة أو الفلكية التي لا وجود

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 152

² (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 172

³ علي فكرة عزيزي القارئ الدولة الإسلامية كانت قبل الاستعمار رقعة واحدة بلا حدود علي الإطلاق ولا قوميات ولا جنسيات ولا أي كلام من ده

لها علي الطبيعة ، فالحد الفاصل بين مصر وليبيا هو مجرد خط مرسوم علي الخريطة يتماشى مع خط طول 25 شرقاً وكذلك خط الحدود بين مصر والسودان يتماشى مع دائرة عرض 22 شمالاً) 1
العروش المتنافسة :

علي فكرة ممكن الأرض المجزئة أن تعود مرة أخرى بطريقة أو بأخرى ولذلك لجأ الاستعمار إلي طريقة أكثر خبثاً ومكراً لتمزيق الدولة الإسلامية العربية وذلك بإدخال العامل البشري في الموضوع بحيث يجعل علي كل منطقة منهم ملك له عرش وبالتالي عندما يقترح أي شخص أن تتم الوحدة فسيستأهل الجميع من من الملوك سوف يكون ملكا علي الجميع ؟ وهي خطة خبيثة ومحكمة وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية جامعة قناة السويس في كتابه الممتع "الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ" والذي قام بفضح جميع المخططات الاستعمارية ضد العرب وقلت بالاستعانة به في كتابة هذا الفصل : (لم يكتف الاستعمار بتجزئة العالم العربي إلي دويلات منفصلة ، وإنما عمل علي خلق أسر حاكمة لتلك الدويلات ، وإلهائها بعروش وهمية ، وتشجيع روح التنافس والعداء بين تلك الأسر ، فمن ذلك أن إنجلترا - - - عملت علي خداع الشعب العراقي باستدعاء فيصل بن الحسين الذي كان قد طرد من سوريا وجعلته ملكا علي العراق تحت وصايتها ، فكان مجرد ألعوبة في أيدي البريطانيين ، كما جعلت من أخيه عبد الله ملكا علي شرق الأردن ، وعملت علي استحكام العداء بين الهاشميين " أبناء الشريف حسين" وبين السعوديين ، وشجعت عبد العزيز بن سعود علي الهجوم علي الحجاز وطرد الملك حسين منها - - - وفي هذا الإطار اشتعلت روح التنافس بين الأسرة السعودية والأسرة العلوية في مصر ، وهي منافسات قديمة ترجع إلي عصر محمد علي الذي قضى علي الدولة السعودية الأولى ، ولكنها تجددت بفعل رفض السعوديين العادات المصرية في الحج والتي كانت تتمثل في المحمل والصره وما كان يأتي معهما من موسيقي واحتفالات ، وقد أدى ذلك إلي قطع العلاقات السياسية بين مصر والسعودية) 2 وهكذا عزيزي القارئ استطاع الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه الاستخرا ب تقطيع أوصال الأمة بعد أن كانت قطعة واحدة بحاكم واحد فأصبحت قطع كثيرة بحكام متنافرين ، لأ ولسة

إثارة النعرات الطائفية : (لم يترك الاستعمار تلك الوحدات المجزأة لتعيش في سلام ، بل عمل علي خلق المشكلات لها ، من خلال إثارة النعرات الطائفية واستثارة الأقليات الموجودة في داخل الوطن العربي ، ففي العراق لعب البريطانيون دوراً كبيراً في إثارة المشكلة الكردية وتجسيدها لتظل شوكة في جانب الوحدة القومية لسكان العراق ، والأكراد 3 - - - ولقد ظل سلاح الأقليات من أقوى الأسلحة التي كانت بريطانيا تشهرها في وجه الوطنية العراقية ، فهناك إلي جانب الأكراد أقليات أخرى كثيرة كانت بريطانيا تدعمها مثل الإيرانيين والأتراك والأشوريين والتركمانيين واليهود وغيرهم - - - وإذا كان الإنجليز قد نجحوا في إعاقة الحركة الوطنية العراقية - - - بورقة الأقليات ، فإنهم قد فشلوا في اللعب بتلك الورقة في مصر ، حيث باءت محاولتهم الإيقاع بين المسلمين والمسيحيين بالفشل الذريع - - - وقد اتخذ المصريون من الهلال والصليب شعاراً لثورتهم في عام 1919 - - - وفي السودان سعي الإنجليز إلي عزل الجنوب ، وأغلقوا حدوده ومنعوا التجار الشماليين من السفر إلي الجنوب أو تجار الجنوب من السفر إلي الشمال إلا بتصريح خاص ، وأحاطوا المنطقة بسياج من العزلة لمنع توغل التأثيرات الإسلامية والعربية إلي الجنوب ، ثم تركوها مجالاً مفتوحاً للإرساليات التبشيرية الأوروبية ، فكانت النتيجة أن خلقت بريطانيا للسودان مشكلة عاني منها كثيراً ولا يزال يعاني) 4

هدم ما تم بناءه :

وكما قام الغرب بتنمية الروح القومية عند العرب وأثاروا النعرة العربية والقومية العربية إلي أن قامت بتحقيق أهدافها والمساعدة الضخمة في القضاء علي آخر دولة إسلامية في تاريخ الإسلام وهي الدولة العثمانية ، شكراً جزيلاً لقد انتهى

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 173 - 174

² (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 174 - 175

³ فاكراً الأكراد وأمجادهم في ظل الأمة الإسلامية ، فاكراً صلاح الدين الأيوبي الكردي ودولته الرائعة ، الآن فقط تذكروا أنهم أكراد فلم تعد الوحدة إسلامية لجميع قوميات بل أصبحت جنسيات متعددة متنافرة

⁴ مقتطفات من صفحتي 176 ، 177 من كتاب (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال

دور القومية العربية وحان الوقت للقضاء علي الهوية الثقافية العربية (عملت القوي الاستعمارية المختلفة علي القضاء علي الهوية الثقافية العربية وطمسها ، لمحو واحد من أهم أسس القومية العربية عن طريق التهجم علي التراث الثقافي العربي ، وقطع الصلة بين العرب وماضيهم والتقليل من إضافات العرب إلي التراث الإنساني ، فحاولوا رد الحضارة العربية " الإسلامية" إلي أصول يونانية وفارسية وهندية ، وأخذت الدوائر التعليمية المتأثرة بالاستعمار تروج لهذه الفكرة ، وتابع الاستعمار هجومه علي الأدب العربي - - وانقض المستعمرون علي اللغة العربية كأداة اتصال وتفاهم بين العرب ووعاء لفظ تراثهم الثقافي ، فنادي دعاة الاستعمار باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية مثلما حدث في تركيا ، كما ارتفعت أصوات تطالب بنبذ العربية الفصحى وجعل اللهجة العامية لغة التعليم والصحافة ، محاولين بذلك قطع الصلة بين العرب وتراثهم ، وفي نفس الوقت حاربوا التعليم وحددوا مناهجه ، وقصروه علي فئة قليلة ، كما سيطروا علي وسائل الثقافة العامة كالصحافة والطباعة والإذاعة ، وظهرت دعوات لإحياء ثقافات ماتت وانقرضت ، فبث المستعمر الدعوة إلي الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق (1) وبعد كل هذا يزعم البعض أنه لا وجود لنظرية المؤامرة علي العالم الإسلامي ، يا جماعة مفيش حاجة اسمها نظرية المؤامرة صدقوني ، أما بالنسبة للغة وأهميتها في توحيد أي أمة فيقول الدكتور عماد هلال (اللغة هي الروح بالنسبة للأمة ، فهي وسيلتها للحفاظ علي تراثها ، وأداة التواصل بين الأجيال ، كما تدعم الديمقراطية في المجتمع بفضل وحدة أداة التعبير ولذلك كان المستعمر يسعي دائماً لمحاربة اللغة وفرض لغته علي الأمم التي يفرض سيطرته عليها ، فقد عمل الإنجليز ذلك في الهند ، والهولنديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا ، وهكذا كل دولة استعمارية كان أول همها الهجوم علي القلعة الأولى في كيان أي قومية من القوميات الخاضعة لنفوذها ، وهي اللغة ، بهدف إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء القومية الواحدة وربطهم فكراً وثقافياً بالمستعمر)2

وعلي فكرة يا جماعة أنا حاسس بالذنب لاستخدام اللغة العامية أحياناً في الكتابة فهذا يعني أنني قد تأثرت بمن يرغبون في استبدال الفصحى بالعامية ، وبالتالي لن أكتب بالعامية من الآن وحتى نهاية الدردشة (الدردشة نفسها كلمة عامية) ولكن بقدر المستطاع لأن التعبير بالفصحى حالياً - بفرض أنني قادر علي إجادة الكتابة بها - قد يؤدي إلي نفورك من القراءة علي العموم سنحاول بقدر المستطاع

عودة إلى مصر :

طبعاً عزيزي القارئ قد ابتعدنا كثيراً عن موضوع الدردشة عن تاريخ مصر وبالتالي سنعود إلي مصر لنعرف علاقتها بالقومية العربية ، فيقول الدكتور عماد هلال : (لا توجد أية شواهد تؤكد أن مصر كان لها دور إيجابي ملموس في الحركة القومية العربية في مراحلها الأولى ، فلم تظهر جمعيات مصرية سرية أو علنية ذات طابع قومي عربي - - واقتصر دور مصر علي استضافة الزعماء العرب المنفيين والهاربين من بطش الأتراك ، ولم تكن مصر تفعل ذلك بدافع من العروبة أو القومية العربية ، وإنما كانت تفعل ذلك بتوجيه من سلطات الاحتلال البريطاني الذي كان يحتضن الجمعيات العربية بهدف ضرب تركيا ، وقد أدي ذلك إلي معارضة كثير من المصريين للحركة القومية العربية التي كانت تنادي بالانفصال عن تركيا ، خاصة وأن مصر كانت تعقد حبال الأمل علي الدولة العثمانية لتخلصها من نير الاحتلال البريطاني ، وفي هذا الطريق سار مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد ، وبالتالي كان صدي نداء الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني أكثر تأثيراً في المصريين من نداء الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين ، كما نظر المصريون إلي الزعماء العرب اللاجئين إلي مصر نظرة ريب وتشكيك ، باعتبارهم متمردين علي دولة الخلافة وعملاء للاستعمار ، ويعيشون في حمايته ، خاصة وأن بعض هؤلاء الزعماء اضطروا إلي منافقة سلطات الاحتلال البريطاني التي تأويهم وتوفر لهم مجال العمل بحرية ضد الأتراك ، وخير مثال علي ذلك جمعية بيروت السرية الذين هربوا إلي مصر وأسسوا فيها جريدة المقطم التي كانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر لسنوات عديدة ، ولكن هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم انتهت نظرة المصريين لها كمخلص من

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 178-179
² (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 24-الطبعة الثانية 2006

الاحتلال البريطاني ، ثم نجاح الثورة المصرية في سنة 1919 في تحقيق ذلك الهدف بجهود أبناء مصر ، عندما اضطرت إنجلترا إلي إصدار تصريح 28 فبراير 1922 ، الذي منحت مصر بمقتضاه استقلالاً مشروطاً ، ومن ثم تولي دفة الحكم وزارات مصرية منتخبة ، ثم تدعيم ذلك الاستقلال باعتراف إنجلترا باستقلال مصر وتوقيع معاهدة صداقة وتحالف معها في عام 1936 (1)

مزراحي وقرداحي وبنايوتي :

ومن أفضل الأمثلة علي سخط الشعب المصري علي ضياع حقوقه وسط الجميع هو ما قاله بيرم التونسي عندما شاهد الأوضاع في مصر (كانت التفاتة بيرم التونسي العبقريّة هي سبب نفيه فقد رأي أزمة مصر الحقيقية في تفاوت مستوي المعيشة بين الناس وبينما كان يزداد البعض تخمة ، كان الآخرون يبحثون عن طعامهم وسط أكوام القمامة كالكلاب ، وكان الخواجات هم أكثر الناس حظاً في الثروة وأقلهم جهداً في خدمة البلاد ، مالطيون وقبارصة وأروام وأرمن وجركس يملكون الملايين وأبناء البلد ليس معهم إلا الستر والصبر ، وانطلق بيرم التونسي يندد بالأوضاع المقلوبة و - -

القطن برضه لمزراحي ولقرداحي - - وابن البلد قاعد ماحي في بلاده يتيم
أقطانه هو اللي زرعها واللي جمعها - - ويوم ما باعها ماجبتله حق البرسيم
بنايوتي يقبض ويحصل وده بيوصل - - ويجري دائماً ما يحصل ولا حتي بهيم)²

الأحداث التالية :

طبعاً أنا كان نفسي تكون عدد أوراق هذه الدردشة أقل بكثير مما تم كتابته ولكن أعمل إيه إذا كانت هناك العديد من الأحداث المهمة وبالتالي اعذرني عزيزي القارئ علي الإطالة لكن اسمح لي أن أقوم بتلخيص تاريخ أسرة محمد علي - فترة ما بعد الخديوي توفيق وسيكون التلخيص من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري كالاتي (الخديو عباس حلمي الثاني ابن الخديو توفيق ابن إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 8 يناير 1892 وعزل في 19 سبتمبر 1914 ، ولد سنة 1874 كان أكبر أولاد توفيق وحاول أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلي المصريين ويقاوم الاحتلال البريطاني فانتهز الإنجليز فرصة بؤادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان عباس خارج مصر فطلبوا منه عدم العودة إلي مصر وفرضوا عليها الحماية رسمياً وخلع الإنجليز الخديو في ديسمبر 1914 وقد توفي عباس 1944 - ثم جاء - السلطان حسين كامل بن اسماعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 19 ديسمبر 1914 إلي أن توفي 9 أكتوبر 1917 ، ولد 1853 ، سبق له أن تولي نظارة الأشغال العمومية فأنشأ سكة حديد القاهرة - حلوان ثم نظارة المالية فرياسة مجلس شورى القوانين وهو الابن الثاني لإسماعيل ، أقامه الإنجليز سلطاناً علي مصر وبهذا الإعلان من جانب الإنجليز صارت مصر سلطنة وخرجت من سلطان تركيا ولكنها وقعت في ذات الوقت تحت الحماية الإنجليزية ، توفي السلطان حسين في أكتوبر 1917 ، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولي السلطنة - ثم جاء - الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا من 9 أكتوبر 1917 إلي أن توفي في 28 إبريل 1936 (سلطان ثم ملك) ولد 1868 ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين ، قررت إنجلترا أن يكون خليفته علي عرش سلطنة مصر³ ، قامت في عهده ثورة 1919 بقيادة سعد زغلول اضطر الإنجليز إلي رفع حمايتهم عن مصر بمقتضي تصريح 28 فبراير 1922 الذي اعترفت فيه إنجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع تحفظات ، وفي مارس 1922 أصدر السلطان فؤاد أمراً يعلن نفسه فيه ملكاً علي مصر ثم أصدر الدستور في إبريل من نفس السنة ثم افتتح البرلمان الجديد في إبريل 1924 وتألقت في عهده أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول - توفي سنة 1936 - ثم جاء - الملك فاروق الأول من 28 إبريل 1936 إلي أن تنازل عن العرش في 26 يوليو 1952 ، ولد سنة 1921 وعندما توفي والده الملك فؤاد في إبريل 1936 خلفه علي العرش ولكنه لم يكن قد بلغ السن التي تؤهله للحكم فتشكل مجلس وصاية من كل من الأمير محمد علي وعزيز عزت باشا وشريف صبري باشا إلي أن تسلم سلطاته الدستورية كاملة في 29 يوليو 1937 ، ويظل فاروق ملكاً علي البلاد التي ظلت محتفظة باستقلالها غير الكامل عن بريطانيا وتسود

¹ (الحركة القومية العربية - الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة 186-187- الطبعة الثانية 2006

² مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 127

³ يقول عنه بيرم التونسي (ولما عدمنا في مصر الملوك - - جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك)

الفوضي وينتشر الفساد إلي أن قامت ثورة يوليو 1952 التي أطاحت بفاروق وأجبرته علي التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد الثاني وتم توقيع هذه الوثيقة في قصر رأس التين في 26 يوليو 1952 وغادر البلاد إلي إيطاليا حيث توفي هناك 1965 ودفن في مصر في مسجد الرفاعي - ثم جاء - الملك أحمد فؤاد الثاني من 26 يوليو 1952 إلي إعلان الجمهورية في 18 يونيو 1953)¹ وهكذا عزيزي القارئ انتهت دولة الأسرة العلوية التي أسسها محمد علي باشا وعاد حكم مصر للمصريين بعد الملك نقتانب الثاني آخر ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية

¹ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 124 ، 125

43. الفصل الأخير

بدون عنوان :

لم أجد عنوان لهذا الفصل ، ربما لأنني لم أكن أنوي كتابته ، فهناك فاصل زمني كبير جدا بينه وبين باقي الدردشة التي كنت قد انتهيت منها علي أن لا أعود إليها مرة أخرى ، ولكنني وجدت في نفسي رغبة في الكتابة مرة أخرى ، ولكن هذه المرة سأعيش في دور مؤرخ واستكمل حلقة جديدة في تاريخ مصر كما كان يفعل المؤرخون قديماً فكان المؤرخ يقرأ كل ما كتبه المؤرخون من قبله ويعيد كتابته بأسلوب يتناسب مع عصره ثم يستكمل ويبنى علي ما سبق كشاهد عيان لما يدور حوله ، فمثلاً عندما كتب المقريري كتابه الشهير المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار قام أولاً بالاستفادة ممن سبقوه وجمع المعلومات التاريخية عن مصر ثم بدأ يصف ما رآه في عصره ، وكذلك فعل ابن تغري بردي وابن اياس الحنفي والجبرتي وغيرهم ولذلك نجد في كتاب كل منهم شهادة عن مجريات الأمور في عصر كل منهم وهي أدق معلومة في كتاب كل منهم ، بمعنى أنه ينقل ما سبق ثم يكتب لمن سيأتي بعده وكأنه سباق تتابع متتالي حيث يستلم كل مؤرخ ممن سبقه كتاب تاريخ مصر ثم يضيف ما يخص عصره ثم يسلمه لمن بعده وهكذا في حلقات متتابعة ،

فما رأيك عزيزي القارئ أن أفعل كما فعلوا واستكمل الحلقة التي تخص هذا العصر الذي أعيش فيه الآن ولكن هناك مشكلة كبرى تواجهني كما واجهتهم ، وهي أن التاريخ تتضح معالمه مع مرور الوقت وتصبح أكثر دقة وتنجلي أمور كثيرة لم تكن مفهومة ، وخاصة عندما تنشر حقائق جديدة أو يكتب أحدهم مذكراته مثلاً أو يموت كل من له مصالح خاصة بحدث ما ، وبالتالي لن يضر أحد كشف هذا الحدث ،

ولذلك يمكن القول باختصار شديد ومجازاً مع بعض التحفظات أن الحدث التاريخي كلما كان قديماً كلما كان دقيقاً وأقرب إلي الحقيقة ، أما كلما كان حديثاً فيحتاج إلي تدقيق أكثر وقد يشوبه بعض الغموض

شاهد عيان :

ولكن علي أي حال سأكتب كشاهد عيان كما كتب الجبرتي مثلاً ، فقد كتب العديد من الأحداث دون أن يدري الدوافع التي تحركها أو قد كان يعتقد دوافع أخرى واتضح بعد ذلك خلاف بعض ما كتب ، ولكن مشكلتي حالياً أكبر وأعمق وأعقد من المشاكل التي واجهت المقريري وابن تغري بردي وابن اياس الحنفي والجبرتي وغيرهم من عمالقة التأريخ في مصر ، بالرغم أنه تبدو الأمور حالياً ميسرة في الحصول علي المعلومات أكثر من أيامهم ، ولكن المصادر مختلفة ومتباينة ومتشعبة بالأغراض والنوايا التي قد تكون حسنة أو سيئة ، وبالتالي أعتقد أن مهمتي لن تكون سهلة ، فظروف كل عصر تختلف عن باقي العصور ، كما أن هناك فرق كبير جدا بين المثقف ومعايير ثقافته في العصور القديمة وبين المثقف ومعايير الثقافة الآن ، بل إن الجاهل نفسه أيام المقريري أعتقد أنه جاهل بسيط أما الآن فهو جاهل مركب علي حد تعبير توفيق الحكيم عندما امتدح جهل حماره الشهير في كتابه حمار الحكيم ، فقد اعتبر أن الحمار جاهل بسيط أما بعض الناس فقد يكون جهلهم مركب ويصعب معه ما يسهل مع الحمار ،

وأنا آسف جدا عزيزي القارئ الذي أجد راحة كبرى في عدم وجوده ، كما ذكرت من قبل في مقدمة هذه الدردشة ، لأن الكتابة دون أن يقرأ أحد ما أكتب تعطيني حرية في ما أكتب ، وبالتالي سأستعيد هذا الشعور مرة أخرى حتي أستطيع أن استمر في الكتابة

الحدث أم الظاهرة :

بشكل عام يتم الاعتماد علي وصف المؤرخ للظواهر الموجودة في المجتمع الذي عاش فيه وعصره أكثر من أي شيء آخر كتبه فأنت مثلاً عندما تقرأ لأحد المؤرخين القدماء ستستمتع بقراءة وصفه للمجتمع أكثر من سرده للأحداث التاريخية نفسها وأعتقد أنني إذا كتبت عن أي ظاهرة موجودة كشاهد عيان للمجتمع ستكون هذه محاولة لإضافة حلقة لكتب التاريخ المصري حتي إذا كانت الأحداث التي أذكرها غير مؤكدة بحكم تعدد وتضارب المصادر ، مع العلم أنني سأكتب الأحداث إن

شاء الله متحياً الدقة إلى أبعد الحدود ولكن سيكون تركيزي علي وصف المجتمع أكثر من تركيزي علي سرد الأحداث ، فالأحداث سوف تكتشف في يوم من الأيام وبطريقة أو بأخرى ولكن قد يكون وصف ظاهرة موجودة في المجتمع مفسراً للعديد من الأحداث فطبيعة المجتمع هي التي تسوقه إلي التصرف في كل حدث طبقاً لرؤيته وفكره ومبادئه ، وقد يدمر المجتمع نفسه بنفسه عند التعرض لظروف معينة ، وقد لا تؤثر نفس هذه الظروف علي مجتمع آخر

المهم الموضوع مش مستاهل نتكلم فيه أكثر من كده ، وقد اتفقنا أن احتمال أن يقرأ أحد هذا الكلام احتمال ضعيف جدا وليس هناك مبرر لأن أبرر ما أقوم به أثناء تناولي للتاريخ أو أن اضطر لتوضيح رؤيتي له ، فأنت حر عزيزي القارئ في أن تقرأ أو أن تتصرف عن القراءة هذا بفرض أنك لازلت تقرأ حتي الآن ، فالعديد من الناس يفضلون مشاهدة فيديو للحدث أو الخبر مثلاً بالصوت والصورة ويطلب منك رابط علي شبكة المعلومات الإنترنت كي يصدق هذا الحدث أو الخبر

وعلي فكرة هذه إحدوي ظواهر المجتمع الذي أعيش فيه والتي سوف أذكرها إن شاء الله ، وهذا علي سبيل المثال ، ولا يهم معظم الناس قراءة الموضوع بل يهمهم مشاهدته ، بل حتي لا يمل من المشاهدة لابد أن تذكر له التوقيت المحدد الذي ستبدو عنده اللحظة المقصودة بالفيديو ، وبالتالي أنا مطمئن تماماً أن ما أكتبه الآن لن يقرأه أحد أو علي الأقل لن يكمل القراءة للأخر ، وبالتالي سأكتب براحتي علي الآخر ، لأنني سأكون أكثر حرية وكما ذكرت من قبل في مقدمة هذه الدردشة أنك ستجد متعة في عدم القراءة وأنا سأجد متعة في الكتابة

المهم كفاية كده علشان الواحد اتكلم زيادة عن اللزوم في الموضوع ده وتعالني نبدأ

رسالة إلى المستقبل عبر الزمن :

قبل أن أقوم برصد أي ظاهرة موجودة في المجتمع أو أن أذكر الأحداث التي تدور فيه والتي ستكون بمثابة رسالة إلي المستقبل إن شاء الله ، فسوف أتخيل مجرد تخيل أن هناك باحث في التاريخ سوف يقرأ كل ما يقع تحت يديه من كتابات قديمة ليحاول معرفة ما حدث ، وهذا الباحث سوف يصل بطريقة أو بأخرى لهذه الدردشة التاريخية ، وستكون رسالة عبر الزمن ، وسأتخيل أيضاً أن هذا الباحث سيعثر علي ما أكتبه الآن بعد حوالي خمسمائة سنة وهو الزمن الذي سيعيش فيه هذا الباحث ، وأن لدي هذا الباحث العديد من وسائل المعرفة التي لا نعرفها نحن الآن ، ولكن رغم كل ما سيكون لدي هذا الباحث من إمكانات هائلة والله أعلم ، فسوف يكون في أمس الحاجة لمعرفة التاريخ ، وسوف يحتاج لكل حلقة من حلقات هذا التاريخ ، وسيشترك كل المؤرخين في توضيح هذا التاريخ لهذا الباحث ، وكل مؤرخ قد كتب حلقة في هذا التاريخ تمثل العصر الذي عاش فيه كما ذكرت ، من أول المؤرخ هيرودوت ، ومانيتون إلي أن نصل إلي ابن عبد الحكم ، والمقريري وابن تغري بردي وابن اياس الحنفي والجبرتي وابن ابي السرور البكري وعبد الرحمن الرافعي وجمال بدوي وسليم حسن وأحمد فخري وجمال الدين الشيال وعبد المنعم ماجد مع الاحتفاظ بالألقاب ، وطبعاً هناك العديد والعديد من عمالقة التاريخ لم أذكرهم ولكنني كتبت الأسماء التي جاءت في ذهني للتو دون أي مفاضلة أو قصد لأي تمييز بينهم ، ولكن يبقى الفصل الأخير في كل كتاب كتبه هؤلاء هو الأفضل ، لأنه الفصل الذي عاشه كل منهم كشاهد عيان ، فما سبقه من فصول مجرد نقل عن المؤرخين السابقين ، أما الفصول الأخيرة من كل كتاب تاريخ فهي فترة عاشها المؤرخ وشاهدها وتفاعل معها ، وبالرغم من صدق المشاعر فإن معلومات المؤرخ عن الفترة التي عاش فيها بالذات أقل دقة مما سبق كما ذكرت لأن المعلومات التاريخية تزداد دقة مع القدم ويصعب الوثوق بها كلما كانت حديثة ، ولكن يبقى أهم ما يكتبه كل مؤرخ هو وصفه للمجتمع الذي يعيش فيه بصدق وتجرد ، فقد نعرف الأحداث من مصادر عديدة مع مرور الزمن ولكن وصف المجتمع وظواهره يبقى أتمن ما تركه المؤرخ من تراث

كفاية كده وندخل في الموضوع ، للمرة الثانية ، أرجو أن تتحملني أيها الباحث ، وسوف تتحملني علي أي حال إذا كنت في حاجة لمعرفة هذا الموضوع ولديك دافع لذلك ، فالدوافع يا عزيزي هي التي تحرك البشر ، ولكن هل سيهتم أحد في زمانك بالتاريخ ، ففي زمانني لا يهتم به إلي القليل من الناس ، وبفرض أنك مهتم بالتاريخ ، فهل هذه الدردشة هي التي تصلح

لذلك ، أم أنها المصدر الوحيد الذي تم العثور عليه في زمانك واختفت كل كتب التاريخ لأسباب غامضة ولم يتبق إلا هذه الدردشة ، إذا تخيلت أنا هذا الافتراض فسوف يكون شئ مثير جدا بل إنه مسئولية كبيرة أيضا كفاية كده للمرة الثالثة ونبدأ لأنك أكيد أصابك ملل وقرف شديد وجعلتك تكره التاريخ ، علي العموم ياسيدي أنا ظاهرة في المجتمع يمكنك دراستها بالمرّة ،،،،، المهم

الإمبراطورية المصرية والملك تحتمس الثالث :

سنبدأ فوراً في استعراض الأحداث ، مع تلخيص سريع جدا في البداية لربط كل ما كتبتة في هذه الدردشة مع ما سأذكره في هذا الفصل ، مع تحليل خفيف وبسيط لتسهيل الربط ، وبدون الخوض في التفاصيل

شوف ياسيدي ، بدأ منذ أيام الفراعنة الصراع علي المنطقة التي تسمى حالياً منطقة الشرق الأوسط ، وكانت الإمبراطورية المصرية الضخمة التي أسسها الملك تحتمس الثالث حوالي سنة 1458 ق م¹ في الأسرة 18 كانت أول إمبراطورية في المنطقة ، وتغلب العنصر المصري علي باقي العناصر في العالم القديم ، وأصبح المصريون هم سادة العالم في زمن تحتمس الثالث ، وعلي فكرة قد تكون كلمة الشرق الأوسط غير متداولة بعد ذلك طبقاً لتوزيع مراكز الثقل في العالم فالقوي العظمي هي التي تحدد الجغرافيا وتحدد الشرق والغرب ويتم انتساب أي موقع في العالم بالنسبة لمكان أكبر قوة في العالم ، ففي زمن تحتمس الثالث لم تكن مصر شرقاً أو غرباً ، ولكن حالياً عندما تكون أكبر قوة في العالم في أقصى الغرب ، فلا بد ان يتحول العالم كله إلي شرق فنقول شرق وشرق أقصى وشرق أدنى وشرق أوّسط ، كما لو جاء شخص مهم جدا ودخل وجلس في دار عرض مسرحي ، وجلس علي أحد الأجناب ، فسوف يذكر كل شخص في هذه القاعة مكانه بالنسبة للشخصية المهمة فيقول أنا كنت جالس خلفه ويقول الآخر أنا كنت جالس علي يمينه بمسافة كذا ، ولن ينسب أحد مكانه إلي خشبة المسرح وهو المكان الطبيعي الذي يجب ان نصف موقعنا بالنسبة له ، المهم يا سيدي إن القوة العظمي هي التي تحدد الجغرافيا بل والتاريخ أيضاً فالعصور التي تسميها بعض الدول بالعصور الوسطي كانت بالنسبة لدول أخرى أزهي العصور ولكن عندما تكون عصور وسطية للكبار فلا بد أن تكون كذلك رغم أنف الصغار

والقوي العظمي تحدد أيضاً القانون ومن يخالفها لا يخالف القوي العظمي وإنما يخالف القانون

فكان المصريون أيام تحتمس الثالث يسيطرون علي كل شئ تقريباً وكان النفوذ المصري في مناطق عديدة في العالم سواء بشكل مباشر واحتلال عسكري نافذ أو بشكل غير مباشر بتقديم هدايا للفرعون من الدول المختلفة حتي لا يطالها غضبه ويصل إليها جيشه وكانت طيبة في زمنه عاصمة للعالم القديم ، تتدفق إليها كل خيرات العالم ، ويمكنك مراجعة ذلك في هذه الدردشة إذا عدت للفصل الذي يتناول الدولة الفرعونية الحديثة والأسرة 18 ،

تعاقب القوي العظمي بعد الإمبراطورية المصرية :

وتحولت مصر إلي ولاية تابعة للفرس عندما أصبحت الدولة الفارسية أقوى دولة في العالم بظهور الملك قورش العظيم ومن بعده الملك قمبيز وهكذا تحولت الفرس إلي سادة العالم وتغلب العنصر الفارسي علي باقي العناصر كما كانت أيام المصريين في زمن تحتمس الثالث وقد أسس الفرس في مصر أسرة حاكمة جديدة وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة 525 ق م إلي سنة 404 ق م واستمرت الدولة الفارسية تسيطر علي العالم القديم وتفرض هيمنتها إلي أن ظهر علي مسرح الأحداث الملك فيليب المقدوني الذي تحالف مع الإغريق لإسقاط الدولة الفارسية ومن بعده ابنه الإسكندر الأكبر الشهير الذي استطاع بالفعل القضاء علي دولة الفرس وأسس دولته وانتشرت الحضارة الإغريقية في العالم وفرضت هيمنتها وأصبح هناك سادة للعالم بفكر وحضارة خاصة بهم وأصبحوا يحددون القانون أي أصبحوا هم القانون وقد انتهت دولة الإسكندر

¹ موضوع التواريخ الدقيقة لن يشغلنا كثيراً ، فلن نحاول أن نغرق في التفاصيل ، فكم من حدث جلال ضاعت عبرته بسبب الغرق في التفاصيل ، ولكن قد تكون دقة التاريخ نفسه هي أهم ما في حدث تاريخي معين ، ولكن بالنسبة لتاريخ الأسرة 18 والفراعنة عموماً كلها تواريخ تقريبية فلن نجعلها تعوقنا عن الهدف الذي ننشده ، كما أنني في هذا الفصل سأحرر قليلاً من ذكر المرجع ورقم الصفحة واسم الكاتب ودار النشر كما فعلت من قبل في هذه الدردشة وجعلت القارئ يصاب بالملل ، وبالتالي عند الضرورة سوف أشير للمرجع الذي وردت فيه المعلومة ، ولنعتبر هذا الفصل أكثر تحراً من الفصول السابقة وأكثر توضيحاً لوصف المجتمع كشاهد عيان وهذا لا يحتاج إلي مراجع بل يحتاج إلي ثقة أي ان تمنحني ثققتك في ما أكتب والله أسأل أن يوفقني لما فيه الخير وهو المستعان

بوفاته فلم يتمكن من تأسيس دولة تستمر لذريته من بعده ولكن استمرت الحضارة الإغريقية مسيطرة وحكم مصر البطالمة من بعده فأصبحت دولة الإسكندر والبطالمة حلقة من حلقات تاريخ مصر وحكم مصر البطالمة من سنة 333 ق م تقريباً وإلى سنة 30 ق م وهو التاريخ الذي تحولت فيه مصر إلى ولاية رومانية عندما دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة 30 قبل الميلاد وكان الرومان قد سيطروا علي العالم وأصبحوا قوة لا يستهان بها في العالم وهكذا أصبح الرومان هم سادة العالم وأصبحت روما هي التي تضع القانون ويتدفق إليها القمح المصري بل يتدفق إليها خيرات العالم إلي ان صعدت مرة أخرى دولة الفرس علي مسرح الأحداث في العالم ونافست دولة الروم وكان الفرس والروم أقوى دولتين في العالم ، وكان بينهما صراع مسلح وحروب طاحنة وكانت مصر في وسط هذا الصراع وحدث ان غلب الفرس الروم وسيطروا علي مصر لفترة من الزمن ثم استعادها الروم مرة أخرى واستمر الصراع في المنطقة بين القوي العظمي كما ذكرت وكان الصراع يتسم بغلبة أحد العناصر علي باقي العناصر ، وعندما يتغلب عنصر علي عنصر يكون هو السيد والآخر هو العبد وكان هذا المنطق هو السائد ، فمرة يكون المصريون هم الأسياد ومرة يكون الفرس ومرة يكون الإغريق ومرة يكون الروم وهكذا فيخضع الجميع للعنصر الغالب الذي يتحكم في كل شئ طبقاً لرؤيته وفكره وحضارته ، ومن المستحيل تحول العبد إلي سيد ، فمثلاً إذا كان الروم يحكمون مصر فليس من الممكن أن يحصل المصري علي عقاقير طبية معينة وينتظر قليلاً فيجد نفسه قد تحول إلي مواطن روماني ، هذا مستحيل فهو عبد للرومان مهما فعل كما كان سيد العالم القديم أيام تحتمس الثالث عندما كانت القومية المصرية تسيطر علي باقي القوميات في العالم ، ثم تتابعت القوميات المسيطرة إلي أن تزعمت القومية الرومانية والقومية الفارسية العالم كله **العرب لم يؤسسوا دولة عربية :**

ظل الوضع في العالم كما ذكرت إلي أن ظهر الإسلام في بلاد العرب وظهرت قومية جديدة لم تكن معروفة من قبل ذابت فيها جميع القوميات وهي القومية الإسلامية فكان في جيوش المسلمين صهيب الرومي وخالد العربي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي ، فأتاححت الدولة الإسلامية لجميع الجنسيات الفرصة لتصدر المشهد في الدولة ، لأن العرب لم يؤسسوا دولة عربية ، ولم يكن الموضوع غلبة عنصر علي عنصر ، فلم يصبح العنصر العربي هو العنصر الغالب بل قام بتأسيس الدولة فقط وتصدر المشهد بها لفترة من الزمن ثم أزاح العرب عن الصدارة جنسيات أخرى تصدرت العالم الإسلامي ، فوجد سلاطين وقادة وملوك ووزراء وعلماء غير عرب يتصدرون المشهد في الدولة كصلاح الدين الأيوبي وباقي سلاطين الأكراد وأحمد ابن طولون وأبو بكر الإخشيد وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس وقلاوون وباقي سلاطين المماليك ومحمد الفاتح وسليم الأول وباقي السلاطين الأتراك ومحمد علي باشا وغيره من الجنسيات المختلفة، لذلك نجد العديد من الدول والقوي العظمي تأسست في ظل الدولة الإسلامية التي تجمعها القومية الإسلامية فقط ، بل تتكون هذه الدولة من العديد والعديد من القوميات المختلفة التي اندمجت في القومية الإسلامية وكانت الدول الإسلامية تسقط بعضها بعضاً منذ الدولة الأموية والعباسية وهكذا ، فكانت تأتي دولة جديدة علي أنقاض الدولة السابقة لها ولكن علي نفس الأسس ونفس القومية ، فكانت الدولة الجديدة عادةً تشعر أنها تستطيع تحمل مسئولية العالم الإسلامي بشكل أفضل من الدولة القائمة ، فمثلاً قامت دولة المماليك البحرية بعد الدولة الأيوبية ، ثم قامت دولة المماليك البرجية ، وعندما شعرت الدولة العثمانية أن دولة المماليك في طريقها للانهايار ودب فيها الفساد ولم تعد قادرة علي تحمل مسئولية العالم الإسلامي قامت الدولة العثمانية بالقضاء عليها وسيطرت علي العالم الإسلامي ، بل إن محمد علي باشا شعر بنفس الشئ بعد ذلك وقرر القضاء علي الدولة العثمانية ليتولي هو قيادة العالم الإسلامي ليصبح حلقة من حلقات تاريخ الدولة الإسلامية ولكن حدث شئ آخر **بريطانيا العظمي وفرنسا واتفاقية سايكس بيكو**

عندما ظهرت قوة بريطانيا وفرنسا علي مسرح الأحداث في العالم كانوا يتعاملون معاً بغباء شديد ودخلوا في صراع مسلح إلي أن اكتشفوا شئ أفضل وهو أن يتعاونان معاً ضد الدولة العثمانية التي كانت قد ورثت كل الدول الإسلامية السابقة فكانت آخر دولة إسلامية كبرى في المنطقة مرهوبة الجانب ولكن كان قد دب فيها الضعف والفساد وكان الطبيعي هو أن

يقضي عليها محمد علي باشا ليكتمل السيناريو القديم وتأتي دولة محمد علي قوية ناهضة فتية وترث كل الدول السابقة ولكن هذا لم يحدث ففرت كل من بريطانيا وفرنسا دعم محمد علي ليكسر شوكة الدولة العثمانية ثم وقفوا بجوار الدولة العثمانية ضد محمد علي فقد كان أمامهم دولتان تحملان القومية الإسلامية دولة محمد علي الناهضة والدولة العثمانية التي تحمل أسباب السقوط وتمضي نحوه فقرروا الوقوف مع الدولة العجوزة ضد الدولة الشابة إذا جاز التعبير حتي لا يظهر بيع جديد في المنطقة كما ظهر من قبل علي مر التاريخ دول إسلامية قوية لا تسمح لهم بالاقتراب من المنطقة وكانت كل محاولات الاقتراب تفشل عندما تصطم بالقومية الإسلامية ، فقامت كل من بريطانيا وفرنسا بتفتيت الدولة العثمانية إلي عدة قوميات وساعدت كل قومية علي حدة وقامت بتنميتها وكان أهم ثلاث قوميات في الدولة العثمانية هي القومية التركية والقومية المصرية والقومية العربية ، وحتى لا يختلفا معا علي تقسيم التورثة العثمانية بعد القضاء عليها اتفقتا علي توزيع الغنائم قبل الحصول عليها

ومن هنا كانت اتفاقية سايكس بيكو التي تكلمنا عنها في الفصل السابق والتي بمقتضاها تم رسم خريطة ذات حدود جديدة للمنطقة وهكذا دخلت المنطقة تحت قيادة سادة جدد وفرضت المصالح البريطانية والفرنسية نفسها علي منطقة الشرق الأوسط وانتشرت القوات البريطانية والفرنسية بدلاً من القوات العثمانية وعندما قامت الثورة العربية في مصر قام الإنجليز بالتدخل لصالح الخديوي توفيق وتم القبض علي الزعيم أحمد عرابي قائد الثورة والتنكيل برجالها وتخيل توفيق أنه بذلك حافظ علي عرشه وعرش أسرة محمد علي باشا الكبير ولكنه سرعان ما اكتشف أنه قد فقد السيطرة علي البلاد وأصبح

المنسوب السامي البريطاني هو كل شيء في مصر

استقلال مصر عن الخلافة ووضعها تحت الحماية البريطانية :

ثم قامت بريطانيا بعد ذلك بفصل مصر عن الدولة العثمانية بإعلان حاكم مصر من أسرة محمد علي سلطاناً بدلاً من لقب خديوي وهو السلطان حسين كامل وتم عزل الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير والظريف أن عباس حلمي هو آخر والي تابع لخليفة حكم مصر فإذا كان عمرو بن العاص هو أول والي تابع لخليفة حكم مصر فإن عباس حلمي الثاني هو الوالي الأخير وبذلك ولأول مرة منذ فتح مصر تستقل مصر تماماً عن الخلافة ، وحتى عندما استقل بها ابن طولون والإخشيدي كانت تابعة ولو بشكل رمزي للخلافة ، وقد يقول القائل ما الفرق فمصر في الحالتين تحت الاحتلال البريطاني سواء كان حاكمها خديوي أو حاكمها سلطان ، ولكن هناك فرق كبير بين أن تغتصب غرفة ضمن شقة سكنية وأن تحول هذه الغرفة إلي شقة مستقلة بباب مستقل ومطبخ وحمام فأنت عندما تغادرها وستغادرها بالتأكيد في يوم من الأيام ستصبحان شقتان مستقلتان ولن تعود شقة واحدة إلي أن يشاء الله ، ومش عارف أنا حاسس أن هذا المثل غير موفق ولكن قد يكون مفهوماً بقليل من التأمل

ثم قامت ثورة 1919 ضد الاحتلال البريطاني وتواصل الكفاح ضد الإنجليز سواء علي المستوي السياسي بزعامة سعد باشا زغلول أو علي مستوي المقاومة الشعبية التي كان لها تأثير أكبر بكثير من تأثير النشاط السياسي فقد أقدت المقاومة توازن الإنجليز وجعلتهم ينتظرون الموت عند كل ناصية وقد وضع الدكتور حسين مؤنس دور المقاومة الشعبية وقارن بين تأثيرها وتأثير العمل السياسي في كتابه الممتع دراسات في ثورة 1919 فوجد أنها كانت أكبر تأثيراً مما جعل الإنجليز يصعدون من جانب واحد ما يسمى بتصريح 28 فبراير سنة 1922 الذي أعطي مصر بعض امتيازات الحكم مع ضمان احتفاظ بريطانيا بمصالحها وقامت بتحميل الحكومة المصرية مسئولية الأمن الداخلي لتصبح المواجهة بين المصريين بعضهم مع بعض ويأمن الإنجليز علي حياتهم حتي أنهم انسحبوا من جميع المدن المصرية واستقروا في قاعدة عسكرية كبيرة في منطقة قناة السويس ولكن لم ينعموا بالأمان هناك أيضاً حيث واصل الفدائيون أعمال الهجوم علي المعسكرات البريطانية في منطقة القناة حتي أن الإنجليز قاموا بطرد الشرطة المصرية من هناك لإحساسهم بأنها لا تقوم بدورها ضد الأعمال الفدائية وكانت وقعة 25 يناير 1952 التي أصبحت عيداً للشرطة المصرية بعد ذلك ، واستمرت المنطقة بكل ما

فيها من خيارات وموارد تخدم المصالح البريطانية الفرنسية ومن في ركبهما إلي أن حاولت دول أخرى السيطرة علي الأمور في العالم فكانت الحرب العالمية الثانية التي أسفرت عن تراجع دور قوي عظمي وصعود دور قوي عظمي جديدة اختلال ميزان القوى في العالم :

بريطانيا أيام توفيق غير بريطانيا أيام فاروق ، تعتبر هذه العبارة إيجاز وتعبير عما حدث في هذه المرحلة من تاريخ مصر فقد تراجع دور بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وصعدت قوي جديدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، وعندما قامت حركة الجيش المصري في يوليو سنة 1952 (ثورة يوليو) حاول الملك فاروق أن يستعين بالقوات البريطانية لإحباطها كما هو مدرج بالوثائق البريطانية التي تم الإفراج عنها مؤخراً ونشرها الكاتب الكبير محسن محمد في كتابه الممتع سقط النظام في أربعة أيام ثورة يوليو بالوثائق السرية ، ومن هذا الكتاب يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت تدخل بريطانيا لإحباط حركة الجيش المصري في يوليو 1952 في إشارة واضحة إلي انتهاء دور بريطانيا في المنطقة وبمرور الوقت بدأ انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من منطقة الشرق الأوسط وكان فشل العدوان الثلاثي سنة 1956 أكبر دليل علي تراجع دور بريطانيا وفرنسا فقد كانت آخر محاولة للتدخل في المنطقة عسكرياً حيث أدرك الجميع أن للعالم سادة جدد فما فعله توفيق مع عربي لم يتمكن فاروق أن يفعله لأن بريطانيا أيام توفيق تختلف تماماً عن بريطانيا أيام فاروق فكان اختلال ميزان القوى في العالم من أهم عوامل نجاح ثورة يوليو 1952 عدم الانحياز :

ولكن لم تفعل القوتان الجديدتان ما فعلته بريطانيا وفرنسا فلم يحدث اتفاق بينهما ودخلا فيما يسمى بالحرب الباردة وكان علي كل الدول أن تحدد موقفها هل ستقف مع المعسكر الشرقي أم المعسكر الغربي وهنا تم تأسيس حركة عدم الانحياز التي كان للزعيم المصري جمال عبد الناصر الدور الأساسي في تأسيسها حتي لا يؤثر هذا الصراع بين الكبار علي الدول الصغيرة ، وربما كان هذا الخلاف بين الكبار في صالح باقي الدول حيث انشغلت القوى العظمي بعضها ببعض فكانت فرصة ذهبية للدول الأخرى للنهوض والتفرغ للبناء كما فعلت ألمانيا واليابان ودول شرق آسيا والهند وباكستان وغيرهم فقد استغلوا الحرب الباردة وصراع القوى العظمي في بناء الإنسان وتعليمه ومن ثم بناء الدول والارتقاء بها ، ولا شك أن اتفاق القوى العظمي يؤثر بالسلب علي الدول الصغيرة كما حدث بين بريطانيا وفرنسا من قبل عندما وقعتا اتفاقية سايبكس بيكو الشهيرة ، أما عندما اختلفت القوتان الجديدتان كان هذا متسع لباقي الدول للنهوض وإعادة البناء بل والحروب أيضاً فيما بينها في وجود توازن دولي يحفظ ميزان القوى فتجد كل قوة عظمي منهما تدعم بشكل أو آخر إحدى الدولتين المتحاربتين لمجرد أن القوة العظمي الأخرى تدعم الطرف الآخر لحفظ التوازن في القوى ، والاحتفاظ بالهيمنة والسيطرة وفرض المصالح فإذا انهارت إحدى هاتين القوتين العظميين فلن يكون هناك معني لعدم الانحياز ولن تتمكن أي دولة صغيرة من تحقيق مصالحها الخاصة فسوف يرتبط مصيرها بمصالح القوة العظمي الوحيدة في العالم

وصف المجتمع :

إلي هنا يمكن أن نكتفي بسرد الأحداث حتي لا نسهب في التفاصيل وننسي الغرض من الفصل الأخير وهو وصف المجتمع الذي أعيش فيه لأن هذا سيكون أكثر فائدة ودقة من وصف الأحداث لأنني كما ذكرت من قبل لا أفهم ما يحدث وقد تفهمه أنت يا عزيزي القارئ في المستقبل بشكل أوضح بعد أن تنجلي الأمور ، ولكن ما قد تحتاجه مني الآن هو وصف المجتمع بإيجابياته وسلبياته والتي وعدتك بالكتابة عنها في مقدمة هذا الفصل الأخير

العاطفيون :

ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حالياً أنهم شعب عاطفي إلي أبعد الحدود ، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص ، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسي أي إساءة ممن يحب

والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جداً في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخص في غير مكانه الصحيح وقد تزيج أيضاً شخص من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمّر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضاً بالفطرة السوية

فإذا فكر مجتمع عاطفي مثلاً في ممارسة الحياة السياسية علي الطريقة الديمقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين ، فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائماً نحتاجها ونحتاجه

أما العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن فقد يصل بنا إلي نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديدأ في الجزء الأول حيث يقول :

(، - - - فنحن كشعب - لا بد لنا بصراحة أن نعترف - لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يرضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا - إن هي وجدت علي الإطلاق - فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المقنعة أو المقنعة ، ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاً فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشداً كفضائل مصر مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولي كما وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو لبت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، - - - ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا

- - -

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمعاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ،

ويدهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين

ادعاءاتنا وطنناتنا



د جمال حمدان مؤلف
كتاب شخصية مصر

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها) ، ومن جهة أخرى خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم ،

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : لا غرابة بعد هذا كله أن نجد معظم ما يكتب عن مصر غالباً ما يجنح إلي المغالاة والتطرف إما نحو التهويل أو التوهين ، التمجيد أو التنديد ،

لا يمكن لكاتب أو عالم أو مفكر أن يوجه إلي مصر نقداً موضوعياً بناء صادقاً ومخلصاً إلا وعد علي التو والفور وللغرابة والدهشة عدواً بغيضاً أو حاقداً موتوراً إن كان أجنبياً ، وخائناً أعظم أو أحقر إن كان مصرياً ، وهذا وذلك إنما افتراءات علي مصر والمصريين أو أكاذيب وأباطيل ، ، إلخ ، وبالاختصار فنحن المصريون أكبر جداً من النصح ، ومصر فوق النقد والحقيقة أن ابن مصر البار الغيور علي أمه الكبرى إنما هو وحده الذي - لصالحها - ينقدها بقوة وبقسوة إذا لزم الأمر وبلا مداراة أو مداورة ،

والكلام لازال للدكتور جمال حمدان : والقاعدة تقريباً عند كل حاكم أننا - بزعمه - نعيش دائماً في عصره أروع وأمجد فترة في تاريخنا وحياتنا بلا استثناء ، كل عصر عند صاحبه هو ، وهو وحده ، عصر مصر الذهبي ، تلك نعمة أزلية وبضاعة مزجاة يكررها كل حاكم منذ الفراعنة في نقوشهم وسجلاتهم الهيروغليفية علي جدران الآثار ، ولأن الحاكم بالنظرية والتطبيق بالوراثة أو بالممارسة ، يتوهم مصر دائماً ملكاً له ، هو الدولة وهو الوطن ، والولاء للوطن هو وحده الولاء للنظام ، فإنه يعتبر أن كل نقد موجه لمصر إنما هو موجه إليه شخصياً ، وبالتالي فهو خيانة وطنية ،

الكلام لازال للدكتور جمال حمدان وظالما أن الكلام لازال للدكتور جمال حمدان ومن كتابه الممتع شخصية مصر فأنا أري أن توفر مجهودي في الكتابة وتذهب لتحصل علي نسختك الخاصة من هذا الكتاب الموسوعي سواء بشراة من إحددي دور النشر أو باستعارته من إحددي المكتبات العامة أو بتحميله من علي النت وأتمني لك وقتاً سعيداً وفهماً عميقاً أثناء القراءة وسبيك من الدردشة التاريخية والكلام الفارغ ده

أخلاق الشعوب وأخلاق الدول :

هل هناك فرق بين أخلاق الشعوب وأخلاق الدول ؟ أو يمكن إعادة السؤال بطريقة أخرى ، هل الضوابط والقيم والمبادئ التي تحكم العلاقات بين الأفراد كالصدق والأمانة والشفافية والإيثار وما إلي ذلك من الصفات الجميلة ، هل يمكن أن تنطبق علي العلاقات بين الدول بعضها ببعض ، أم أن المصالح القومية لكل دولة تفرض نفسها علي علاقاتها مع باقي دول العالم فقد تكذب وتماثل وتجند العملاء وتتآمر بل وقد تعلن الحرب أيضاً وخاصة فيما يتعلق بأمنها القومي ، فلا مكان هنا للمبادئ وإنما تتحكم المصالح دائماً أو غالباً

الكبار يفضلون التعامل مع الأفراد :

الظريف أن الدول الكبرى التي ظالما تتحدث عن الديمقراطية واحترام إرادة الشعوب تنسي كل هذا عندما يتعلق الأمر بمصالحها ، فهي تفضل التعامل مع الأنظمة الديكتاتورية لتضمن لها تحقيق مصالحها أما إرادة الشعوب فحتماً ستتعارض مع مصالحها أو علي الأقل ستطالب شعوب هذه الدول بحقوقها المشروعة عند كل تعامل مع الدول الكبرى أما الأنظمة الديكتاتورية فهي أقل كلفة في التعامل فمصلحتها مقدمة علي مصالح شعوبها ومصالحها مرتبطة عادةً بمصالح الدول العظمي بل ليس مصالحها فقط بل وجودها من الأساس في السلطة مرتبط بالدول الكبرى ، ومن السهل أن ترضي شخصاً واحداً عن أن ترضي شعباً كاملاً فتحقيق رغبات فرد أهون كثيراً من تحقيق إرادة شعب ،

المطرقة والسندان :

تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان ، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما علي الأخرى في وجودها واستمرارها ، وهما قوي المؤامرات الخارجية وقوي الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهورين من

شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب علي النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي ، وكذلك من الصعب جداً أن يجد الاستبداد الداخلي مبرراً لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلي ضياع هذا الشعب ، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما حقيقة لا مفر منها ، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالباً ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر ، وخاصة عندما يري تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دواً تحولت إلي أطلال وشعوباً تحولوا إلي لاجئين

الذكاء الفردي وكرهية المجتمع :

عندما يقوم الفرد بالقيام بعمله ناقص حته صغيرة فسوف تحتاج أن تقوم بإكمال هذه الحته الصغيرة حتي تحصل علي خدمة كاملة ، والمفترض أن يقوم كل فرد بأداء عمله كاملاً فيؤدي نفس الخدمة بنفس الجودة للجميع ، وهذا ما يمكن أن نسميه الذكاء الجماعي ، أما عندما يسود الغباء الجماعي فكل شخص في المجتمع مطلوب منه أن يستكمل أعمال الآخرين التي تخصه ، فلا بد له أن يفهم في أعمال الآخرين ويلم بها حتي لا يضيع وسط المجتمع ، فهو مثلاً يفهم في أعمال السباكة والكهرباء والميكانيكا ويعرف الأدوية المناسبة لأولاده عندما يشعرون ببعض الأعراض المرضية كما أنه يشرح لهم الدروس المقررة عليهم في المدارس كما أنه لو دخل في قضية مثلاً لابد أن يفهم في ثغرات القانون وإذا أراد أن يبني بيتاً لابد أن يفهم في أسلوب البناء ، وغير ذلك الكثير والكثير من الأعمال التي لابد أن يلم بها حتي يتابع ما يجب أن يعمله الآخرون لصالحه ، وبالتالي ينمو ذكاءه الفردي ومعارفه ومعلوماته ومهاراته الفردية وعلاقاته وهو ما يجعله يتكلم في كل شئ ويحاول أن يفهم كل شئ وسيؤدي ذلك بالطبع إلي عدم إمكانية أن يكمل عمله هو شخصياً كاملاً فيؤثر ذلك علي الآخرين ، وهكذا ، إن هذا النوع من المجتمعات يعتمد الفرد فيه علي نفسه ولا يثق في المجتمع ولا يشعر بالأمان إلا عندما يتولي كل شئونه بنفسه أو علي الأقل يتابع ما يفعله الآخرون لخدمته ، وقد تتولد كراهية المجتمع لدي الفرد ، أما مجتمع الذكاء الجماعي فلا يعرف أحد أي معلومات بالكاد إلا عن عمله فقط ولا يفتي إلا في تخصصه فقط ويمكن اتهامه بالغباء الفردي وقد يكون سعيد بغباءه الفردي في نظير ذكاء مجتمعه الذي لا يشعره بأي مشاكل من أي نوع في جميع تفاصيل حياته

هل تعرف أحد في المكان الفلاني ؟ :

هذا السؤال منتشر بكثرة في مجتمعات الغباء الجماعي فأنت لن تتمكن من إنهاء مصلحتك في أي مكان غالباً إلا إذا كنت تعرف أحد في هذا المكان كي يخدمك أو علي الأقل تعرف أحد الأشخاص الذين لهم علاقة بهذا المكان فكل شخص في هذا النوع من المجتمعات يستخدم وظيفته أولاً في خدمة نفسه وأسرته وأقاربه ومعارفه ومن العيب جداً أن يتوجه إليه قريب له أو صديق ولا يخدمه خدمه خاصة تليق بالصدقة أو القرابة مع أنه من المفروض كما ذكرنا أنه يجب أن يؤدي نفس الخدمة بنفس الجودة للجميع ، كما يحدث في مجتمع الذكاء الجماعي فهناك لا تحتاج لأن تعرف أحد في أي مكان كي تنهي مصلحتك في أمان وسرعة ، ولكن للأسف الشديد في مجتمعات الغباء الجماعي تحتاج إلي علاقاتك ومعارفك وذكائك الفردي ، الذي يجعلك تنهي جميع مصالحك دون أن تشعر بالذل والإهانة أو البطء وعدم الاهتمام ، كما أن هذا المجتمع قد يؤدي إلي انتشار الرشاوي فهي البديل الوحيد للعلاقات ، فأنت إن لم تتمكن من تنفيذ خدمة من مكان عملك للشخص الذي ذهبت أنت لمكان عمله كمصالح متبادلة تنتهي بجملة (أي خدمة يا باشا من المكان الذي أعمل فيه) إذا كنت لا تملك ذكاء فردي أو خدمات متبادلة فقد تحتاج لتخليص الموضوع بالرشوة أما إذا لم تكن تملك مالاً ففوت علينا بكرة يا سيد لأن أوراقك غير كاملة ، في حين أن هناك من ينهي لنفسه هذه المصلحة وليس فقط أوراقه غير كاملة بل إنه لم يغادر منزله أساساً وكل حاجة تخلص ، لأنه علي علاقة جيدة بمن في أيديهم هذه المصلحة

ثقافة الغباء الجماعي :

علي فكرة لا نلوم أحد علي الإطلاق في مجتمع الغباء الجماعي لاستخدامه ذكاءه الفردي فهي ثقافة عامة سائدة في المجتمع بل يفخر بها الكثير من الناس فهي في نظرهم جدعنة أو شهامة فكيف أكون أعمل في مكان ما وأعز أحبابي

وأصدقائي يتعشرون فيه ؟ هذا لا يمكن حدوثه ، فالذكاء الفردي يا عزيزي قد يوقف قطار مثلاً في محطة لا يجب أن يقف فيها بل من الممكن أن يقف في مكان ليس فيه محطة أساساً ، والذكاء الفردي قد يدخل بضائع إلي البلد لا تصلح للاستخدام أو أدوية أو قطع غيار أو أغذية أو أي شئ ليس في صالح المجتمع ، والذكاء الفردي قد يعطي شهادات دراسية بل قد تصل إلي شهادات عليا لمن لا يستحقها ، وكل واحد في مكانه باشا كبير والجميع في حاجة إليه ، وعندما يذهب إلي مكان آخر أصبح في حاجة إلي من في المكان الآخر ، وعليه أن يقوم بما يرضي الباشا الآخر ، وهنا نجد روح الانتقام إلي حد ما تسود مجتمع الغباء الجماعي ، فكل منهم ينتظر الآخرين عند حضورهم إلي ملعبه ليشبع غروره ويربهم سلطاته وإمكانياته فيعذب المجتمع نفسه بنفسه

الإنبهار بالذكاء الفردي :

الطريف أنه عندما يتصادف وجود شخص من مجتمعات الغباء الجماعي وسط مجموعة من مجتمعات الذكاء الجماعي يحدث لهم انبهار واندهاش بمعلوماته الغزيرة في كل الأمور فهو يفهم في كل الموضوعات التي يتم فتحها خلال الحوار وهم لا يعرفون عنها شيئاً لأن كل منهم لا يفهم ولا يتكلم إلا في تخصصه فقط ، ومعلوماتهم محدودة جداً في باقي الأمور ، فكل فرد في مجتمع الغباء الجماعي يمكنه أن يصبح خبيراً استراتيجياً أو مدير فني لكرة القدم أو محلل سياسي أو فقيه دستوري أو مفتي شرعي حسب الأحوال وحسب موضوع الحوار ، وهو قد لا يعرف عن تخصصه ما يجب أن يعرفه علي الوجه الأكمل ، ويتسائل الناس في مجتمع الذكاء الجماعي كيف تكون ملماً بالمعلومات لهذا الحد وأنت في مجتمع متخلف إلي هذا الحد ، والإجابة في غاية البساطة ، لأن في مجتمع الغباء الجماعي كل شخص يسخر معلوماته وقدراته ومهاراته لخدمة مصالحه الشخصية التي هي أهم من الصالح العام فهو يكره المجتمع الذي لا يخدمه فيحاول أن يخدم نفسه فيوفر كل مجهود وكل طاقة لخدمة مصالحه الشخصية ،

دفع العربة في الاتجاه الصحيح :

في مجتمعات الغباء الجماعي الكل يحاول أن يدفع العربة في الاتجاه الذي يوافق مصالحه فقط فمنهم من يدفعها من الخلف ومنهم من يدفعها من الأمام بل إن هناك من يدفع العربة من الأجناب متصوراً أنها ستتحرك في الاتجاه الذي يرغب فيه ، والنتيجة الحتمية أن العربة لن تتحرك أبداً في أي اتجاه ، الكل يدفع دون أن يكلف نفسه حتي مشقة النظر إلي وضع العربة وأين توجد مقدمتها فهو لا يري سوي هدفه هو فقط والعربة بشكل عام ، أما مكانه بالنسبة للآخرين ومكانهم بالنسبة له وبالنسبة للعربة كل هذا لا يكون واضحاً في مجتمع الغباء الجماعي ، في حين أن الجميع يدفع العربة في مجتمع الذكاء الجماعي في اتجاه واحد فقط فهي دائمة الحركة وتمر علي جميع الأهداف والأماكن حسب أولوياتها وترتيبها والكل ينتظر في اطمئنان لتأكده من أن العربة حتماً ستمر بالمكان الذي يرغب فيه ، هذا هو الفرق ، الإحساس بالأمان والاستقرار نتيجة للذكاء الجماعي ، والإحساس الدائم بعدم الثقة في الغد في مجتمع الغباء الجماعي فالجميع يتصور أنه علي حق وأنه الوحيد الذي يعمل عملاً محترماً مفيداً أما الآخرين فلا يهتم بما يفعلون بل إنه يحتقر أحياناً ما يفعله الآخرون ، في مجتمع الذكاء الجماعي كل عمل محترم مهما صغر فالكل يشعر بعمل الكل والكل يستفيد من أعمال الآخرين لأن الجميع يدفعون العربة في الاتجاه الصحيح ، ولا يهم نوع العمل طالماً أنه يخدم الجميع دون تفرقة أو محسوبية أو وساطة

هل يقلت أحد من الغباء الجماعي :

واهم من يتصور أنه بذكاءه الفردي وأمواله ونفوذه وعلاقاته سيصبح في أمان في مجتمع الغباء الجماعي فهو لابد سيقع في يوم ما دون أن يشعر في خطأ ناتج عن هذا الغباء قد تكون قطعة غيار غير صالحة تم تركيبها في سيارته قد يكون دواء فاسد أدخله شخص فاسد فشربه ابنه أو ابنته ، قد يكون تصميم خطأ لمهندس فاشل نتج عن نظام تعليم فاسد يقع المبني بمن فيه ، إن من يتصور أنه فوق القانون أو وصل به ذكاءه الفردي أنه يضع بنفسه القوانين سوف يصبح ضحية لشخص آخر يخالف القانون ، فمن يخالف قوانين محددة لا يجب أن يلوم الآخرين علي مخالفة قوانين أخرى مثل قانون المرور مثلاً ، فيصطدم به شخص يسير في الاتجاه المعاكس ، فيقول عنه أنه متخلف وغبي ويخالف القانون ، لا يجب عليه أن يقول ذلك لأنه هو نفسه يخالف قانون آخر لا يشترط أن يكون قانون المرور ، ولكن يري من مصلحته مخالفته

وكذلك الآخر يري نفس الرأي ولكن لا مكان للقانون في مجتمع الغباء الجماعي ، فالقانون والإجراءات والأوراق وكل شئ يخضع للذكاء الفردي وحتى الأدلة تخضع للذكاء الفردي سواء من حيث الإخفاء أو الإظهار طبقاً لما تقتضيه المصلحة ، والطريف أنه عندما يختلف اثنان من مستخدمي الذكاء الفردي فسوف تشاهد معركة علي أعلى مستوى يستخدم فيها النفوذ والعلاقات والأموال ، وكل قوي هناك من هو أقوى منه وكل ذكي هناك من هو أذكى منه ، وستستمع بلا شك إلي السؤال الشائع في هذا النوع من المجتمعات (انت مش عارف انت بتكلم مين ؟) والطريف أن القانون الوحيد الذي يطبق علي الجميع بلا استثناء في مجتمع الغباء الجماعي هو قانون الجاذبية الأرضية فقط فلا يستطيع أن يخالفه أحد مهما بلغ ذكاءه الفردي

ذكاءه الفردي

الشماعة :

عندما ينتشر الفساد في مجتمع ما يكون له ميزة رائعة للبعض ولا أريد أن أقول لمعظم أفراد المجتمع فهذا العبث العام يصبح شماعة لجميع الأخطاء ومبرر قوي ومقنع لكل مخالفة ، فهناك مصطلح يستخدمه البعض فيقول (الدنيا خرابانة) ، ما أكثر ما يستخدم هذا المصطلح لتبرير الأخطاء ، فإذا لام شخص شخص آخر علي خطأ فادح ارتكبه يرد علي الفور أن الدنيا خرابانة وهذا الخطأ ليس السبب الوحيد في خرابها فالأسباب كثيرة جداً وليس من المعقول أن يكون هذا الخطأ فقط هو المسئول عن كل ما يحدث في الدنيا التي يراها خرابانة ، بل يتمني البعض أن يظل هذا العبث مستمر وهذا الخراب مستمر لكي لا يعمل بالشكل الصحيح فالجميع كذلك ولن تقف الدنيا عليه هو فقط ، يا له من مبرر ومخدر للضمير ، فتصور أن كل شئ يسير بشكل منضبط يا للهول ، سوف يكون عليه أن يؤدي عمله علي أكمل وجه ، ولن يلجأ إلي الطرق الملتوية لتحقيق أهدافه كم سيكون ذلك شاقاً ومؤلماً ، فالأفضل أن تظل الدنيا خرابانة والشماعة جاهزة والضمير في غيبوبة مريحة بل الطريف أن في هذا المجتمع الذي يتسم بالغباء الجماعي عندما يقوم أحدهم بعمله كما ينبغي يصبح مثار للسخرية والتهمك من الآخرين ويقولون أنه عايش الدور وكلام من هذا القبيل فهم يكرهون من يفضح مسلهم ويقطع الطريق علي مبرراتهم فالمناخ من وجهة نظرهم لا يصلح للعمل ويريدونه هكذا دائماً فكيف يعمل هذا الشخص في هذا المناخ ، وقد قيل من قبل أنه إذا أردت أن تعمل فابحث عن الوسائل ، وإذا أردت أن لا تعمل فابحث عن المبررات ،

الحكم علي السلوك الجماعي كسمة من السمات الأصيلة في شعب ما :

لا يمكن أن نحكم علي شعب ما بأنه شعب غير أصيل وغير طيب إلا عندما نعرف الظروف التي يمر بها والدوافع التي تجعل تصرفاته تتسم بصفات غير حميدة ، فقد يكون هناك من يدفعه دفعا لهذا السلوك دون رغبة منه ، فتراه يتصرف كشعب أصيل ورائع عندما تختفي هذه المؤثرات ، فالمصري مثلاً ينجح بشكل منقطع النظير عندما يعمل خارج مصر ، فهو يجد نفسه في مجتمعات تتسم بالذكاء الجماعي ، وهو يحمل ذكاءه الفردي من مصر فيتفوق تفوق يندهش له الجميع ، بل إن هناك مثل أفضل من ذلك ورد في كتاب موسوعة وصف مصر الذي قام بإعداده مجموعة من علماء الحملة الفرنسية وقد وصفوا فيه مصر وصفاً دقيقاً وكان سلوك الشعب من الأمور التي قاموا بوصفها وتحليلها تحليلاً علمياً بل قاموا بتبرير بعض هذه الصفات في تلك الفترة من تاريخ مصر مما يؤكد أن كل ظروف يمر بها الشعب تؤثر علي تصرفاته بشكل مختلف عن سلوكه الأصيل الطبيعي ، وسأترك قليلاً عزيزي القارئ مع فقرة من هذا الكتاب الموسوعي الرائع لتتأمل فقرة مما كتبه علماء الحملة الفرنسية في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن عادات وتقاليد الشعب المصري في ذلك الوقت :

(يوجد في مصر - شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق - خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان ، بمختلف أديانهم وأصولهم ، - - - ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا

في سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب ، أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : إمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزمهم ، ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، - - - ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين - والشرقيين عموماً - نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الاشتباه ، كما لو كان ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتحمل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية ، لذا فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين علي وجه العموم ، فالشكاوي والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة ، ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر والله غفور ، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي علي لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهي نفسها التي تقلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به ،

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتي لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهب ،

وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس - وحيث يمكنهم بذلك تركيزها - أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين علي الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً علي ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة علي التذكر تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلاهة مطلقة - - - -

إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين ، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك ، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، - - - ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد ، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقي تشجيعاً من الحكومة ، ولكن أن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لا ينضب ، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر ، فهي تقوده إلي الثروة في بعض الأحيان ، وهي - في هذا الصدد - الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبرى في وطنهم ،

انظروا إذن إلي أي حد تضائل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ، ولسوف يظل المصري عبداً بئساً سلبياً خاملاً تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن ، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه علي الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع (وإلي هذا الحد اكتفي بكلام علماء الحملة الفرنسية الذي يصف بعض عادات المصريين في تلك الفترة من تاريخهم ، وعلي ذكر العصا الغليظة التي وصفها علماء الحملة الفرنسية والتي استمرت كثيراً في تاريخ مصر يحضرنني الآن ما كتبه الدكتور جمال حمدان في الجزء الرابع من كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان - الصادر عن دار الهلال وتحديداً في الباب العاشر تحت عنوان (أفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين ، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع ، الذي يوضح فيه ما له صفة الاستمرارية في مصر وما الذي انقطع ولم يعد له وجود حيث ذكر بأسلوبه الممتع - وبعد أن تكلم عن مقدار التغيير في مصر الاقتصادية ومصر الاجتماعية - أن مصر السياسية لم تتغير مثل مصر الاقتصادية ومصر الاجتماعية

النقطة السوداء في الاستمرارية المصرية من وجهة نظر جمال حمدان :

حيث كتب من صفحة 604 وما بعدها تحت عنوان مصر السياسية ما ملخصه :

(- - -) فعلي طرفي النقيض الأقصى والمطلق من مصر الاقتصادية ، وعلي خلاف مصر الاجتماعية ، إلي حد بعيد ، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسى بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ، ذلك أنها النقطة السوداء والشوواء في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي - السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهرى في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا - - المتغير الوحيد هو الشكل ، - - فقديما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد - فنحن يقيناً مازلنا بين فراغة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، - - - - ¹

وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديمقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت - الخديو اسماعيل - وقبل كثير من الدول الأخرى ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة - - هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخرى ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ، ذلك أن الرأي - كالقوة وكالفعل - ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية - - إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط - - من هنا جميعاً فإن هذه الديمقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصلية والأصلية ، لذا يمكننا - والديموقراطية أكثر شئ نسبياً إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً - أن نسميها بحق الديمقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضاً أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث - - - وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس - -

وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم - - - وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها - - إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد - - - - لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المعدة ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس : فمصر سنة 1984 ميلادية هي سياسياً كمبر سنة 1984 قبل الميلاد (-----) اكتنفي بهذه المتقطعات المختصرة من الجزء الرابع من كتاب شخصية مصر وإذا أردت عزيزي القارئ أن

¹ الفراغ الموجود بين السطور يحتوي علي كلام بالكتاب المنقول عنه هذه الفقرات لم يتم إدراجه هنا لعدم الإطالة أو لأسباب أخرى ويمكنك عزيزي القارئ أن تقرأ ما جاء بالكتاب الأصلي للدكتور جمال حمدان بدلاً من أن تقرأ -----

تستكمل قراءة ما كتبه الدكتور جمال حمدان فالكتاب متوفر في المكتبات العامة وفي بعض دور النشر وعلي الانترنت ويمكنك أن تنتظر معرض الكتاب لتشتري نسختك الخاصة ، المهم إنه ليس من المنطقي أن أقوم بنقل الكتاب بالكامل في هذه الدردشة ، فهذه الدردشة بالرغم من أنها قد نقلت عن العديد من الكتب والمراجع فقرات كاملة ولكنها في النهاية لا تتعدي كونها فقرة أو جملة ليس فصلاً كاملاً من كتاب ، وعلي العموم يا سيدي سواء الكتب ظلت علي الرفوف أو تم تحميلها من علي النت أو تم نقل فقرات منها في هذه الدردشة ، فلن يكون هناك فرق كبير فالمشهور عن المصريين حالياً بشكل عام والله أعلم أنهم لا يحبون قراءة التاريخ وإن شئت فقل لا يحبون القراءة من الأساس ومن المؤكد أن هناك استثناء حتى لا ننظم شعب بالكامل ،

المصريون وتاريخهم :

ولا أستطيع أن أجزم بأن غالبية المصريين لا يحبون قراءة التاريخ ولكنني أعتقد أن الكثيرين لا يعرفون تاريخ بلادهم أو علي الأقل لم يدركوا عبرته ودروسه بشكل كافي لكي يستفيدوا منها ويحضرنى هنا ما ذكرته في مقدمة هذه الدردشة عن كلمة الكاتب الصحفي الكبير أحمد بهاء الدين أن تعريف الإنسان يمكن أن يصبح حيوان ذو تاريخ ،

واسمح لي عزيزي القارئ أن أنقل حرفياً ما كتبه في مقدمة كتابه الممتع (أيام لها تاريخ) عن تعريف الإنسان من وجهة نظره :

الإنسان حيوان ذو تاريخ



أحمد بهاء الدين

ما معني ذلك : معناه أن الميزة الأولى التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات هي أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها ، وأنه بهذه الميزة وحدها يتطور ، وعلي العكس من ذلك الحيوان ، فالأسد أو القط أو الكلب الذي كان يعيش في الأرض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التي نراها اليوم ، في الصفات والطباع ونوع الحياة ، أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي تجده في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم ، مصيدة وقطعة جبن ، ولو كان في بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تصيدها واحداً بعد الآخر ، يوماً بعد يوم بنفس المصيدة وقطعة الجبن ، ذلك أن الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة ، هي لا تعرف أن في اليوم السابق دخل الفأر ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة ، وهي قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى ، فلا تتحاشي أبداً قطعة الجبن ، وعلي العكس من ذلك الإنسان ، إنه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس ، ومنذ مائة سنة ، ومنذ آلاف السنين ، فهو قادر علي أن يتجنب زلاتهم ، ويستفيد من تجاربهم ، ويضيف إلي اكتشافاتهم ، وكل جيل لا يبدأ من جديد ، ولكن يضيف إلي ما سبق ، وهذا هو التقدم ، علي أن الإنسان لا يولد وعبرة التاريخ في جوفه ، ولكنه يتعلم ، فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ إلا إذا قرأ ، إن كان رجل قانون قرأ ما سبق إليه فقهاء القانون ، وإن كان رجل كيمياء تعلم ما وصل إليه المكتشفون السابقون ، ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ ، وإن كان مواطناً فإنه يتعلم تاريخ وطنه كله ، ويدرك مغزاه ، وسر تطوره ، واتجاه خطواته ، وليس يكفي أن تعرف حوادث التاريخ لكي تحسب أنك قد تعلمت التاريخ ، فالأهم أن نستخلص من هذه الحوادث عبرتها : علي أي شيء تدل ؟ وفي أي طريق يمضي التاريخ ؟ فإن ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود فيجبك أن تكون رجعيًا ويحميك من السير وراء دعوات براقة فات وقتها ، والتاريخ هو الفرق بين الإنسان الواعي ، وغير الواعي

الإنسان غير الواعي لا يري إلا قطعة الجبن ، ،

ولكن الإنسان الواعي يري قطعة الجبن ، ، ويرى المصيدة

الفن والوعي العام :

إذا سلمنا بأن الكثير من المصريين لا يهتمون بالقراءة فكيف يتشكل وعيهم إذن ؟ ومن المسئول عن ذلك ، هل يمكن أن يكون رجال الدين هم المسئولون عن ذلك ، لا أعتقد فجميع الأديان تحث علي اتقان العمل ومساعدة الآخرين والتعاون وكل القيم الجميلة التي تؤدي إلي مجتمع الذكاء الجماعي الذي نتمناه ، فهل التعليم هو السبب ؟ ولكن التعليم جزء من الغباء الجماعي الذي تكلمنا عنه ، إذن قد يكون الفن هو أكبر عامل مؤثر في تشكيل الوعي العام ، وأقصد بالفن هنا جميع الأعمال الفنية من مسرحيات وأفلام سينمائية ودراما ومسلسلات تليفزيونية وربما يمكن إضافة الأغاني والإعلانات أيضاً ، ولا يمكن أن ننكر أن التليفزيون يقوم بنقل كل هذه الأعمال الفنية بعد عرضها سواء في المسارح أو دور السينما ، أي أن التليفزيون في النهاية هو المصدر الذي يمكن من خلاله مشاهدة كل هذه الأعمال ، ولا ننكر أيضاً دور الفن في التأثير علي المجتمع ، فيكفي أن نعرف أن مسرحية واحدة أفسدت الكثير من الطلبة في المدارس ، بعد عرضها بكثرة حيث زادت نسبة سوء الأدب مع المعلمين بشكل ملحوظ عن النسبة العادية التي كانت موجودة قبل عرض هذه المسرحية ، كما أن مسرحية أخرى أفسدت أيضاً الكثير من الأبناء في بيوتهم مع آبائهم وأمهاتهم ، فلم يكن الأبن يجرؤ علي أن يتكلم مع والده أو والدته بتهمك أو سخرية إلا بعد عرض هذه المسرحية كما لو كانت مقررة علي الأبناء ، ولا ندعي أن مستوى الأخلاق قبل المسرحية كان مثالياً ولكن هذا العمل المسرحي أدي إلي نتائج لا يمكن أن ينكرها أحد ، ويمكن القياس أيضاً علي ذلك ببعض الأفلام السينمائية التي يكون فيها بطل الفيلم لا يتكلم بشكل طبيعي وفي حالة غيبوبة دائمة مثيرة للضحك ويرتدي ملابس لا تليق ، وكل هذا يؤثر علي مرحلة عمرية معينة ، وحدث ولا حرج عن العري والكلمات البذيئة والإيحاءات الجنسية ، والأفكار التي يتم بثها من خلال الدراما التليفزيونية ، هل كل هذا الزخم الفني غير قادر علي تنمية روح الذكاء الجماعي بنفس الدرجة التي نشر فيها سلبيات عديدة لا يزال يعاني منها المجتمع ؟ ، أنا علي يقين أن الفن والإعلام والقنوات الفضائية ببرامجها الجذابة كل هذا يمكنه أن ينشر ثقافة الذكاء الجماعي في المجتمع ، أما إذا سألت أحد القائمين بهذه الأعمال الفنية عن سر هذه النماذج السيئة التي يطرحها في أعماله ، فسيجيب علي الفور بأن هذه ظاهرة موجودة في المجتمع ولا بد من رصدها ، ويأتي السؤال هل الفن مسئول عن رصد كل ما هو سلبي فقط في المجتمع ونشره لكي يزيده وينمو ويتضخم ؟ أم أن عليه أن يبحث عن كل ما هو جميل في المجتمع ؟ ما هي الرسالة المطلوب أن يقوم بها الفن ، هل الإيجابيات لا تحقق الربح ؟

نحن الأفضل :

إذا تأملنا الأعمال الفنية لدولة كبيرة وعظمي مثل الولايات المتحدة الأمريكية سنجد العجب العجاب ، فمعظم الأعمال السينمائية مثلاً تجعلك تشعر بالانبهار بالمجتمع الأمريكي والحياة علي الطريقة الأمريكية فكل شئ هناك هو الأفضل ، فمثلاً نجد الطفل الأمريكي هو الأكثر نكاه في هذه الأفلام والجندي الأمريكي هو أشجع وأقوي وأفضل الجنود في العالم والعلماء والعمال والرجال والنساء وكل المجتمع يشعر بالفخر لانتمائه لهذا المجتمع حتي أفلام الخيال العلمي نجد أن أمريكا دائماً تنقذ العالم عندما يتعرض لغزو فضائي خارجي ، ألا توجد سلبيات في هذا المجتمع ؟ ، بالتأكيد توجد كأي مجتمع في العالم ولكن لماذا تركز الأعمال الفنية علي عظمة هذه البلاد ؟ لأنهم يريدونها كذلك ، أنت تعرض علي الشعب النموذج الذي تريد أن يكونه ، حتي ولو كان علي خلاف ذلك ، ولا ننكر أن هناك أعمال فنية مصرية تناولت عظمة مصر ومعهد هذا الشعب العظيم ولكنها تكاد لا تبدو وسط كل هذه الأعمال التي تشعرك بالإحباط وتنشر كل ما هو سئ وقبيح في المجتمع ، بالرغم أن شعبنا به من الصفات الرائعة والنماذج الطيبة الكثير والكثير فهو شعب أصيل وقد ظهرت أصالته في العديد والعديد من المواقف علي مر التاريخ ، ومهما حاول البعض تشويهه وتشويه تاريخه فسيظل شعباً عظيماً ، وكل أو معظم ما به من سلبيات ليس مسئول عنها فهي إذا جاز التعبير مجرد سلوك ناتج عن دوافع تدفعه دفعاً إليه فكل أفعاله عبارة عن ردود أفعال لأفعال أخرى تجعله في معظم الأحيان يتصرف تصرف المحروم الخائف القلق علي مستقبله دائماً وهذه الأوصاف عادة لا تنتج سلوكيات مرضية ،

ثقافة الديمقراطية :

دائماً يتهم هذا الشعب بأنه غير جاهز للديموقراطية ولا يفهم كيف يمارسها ، ولكن هل قام أحد بتعريف هذا الشعب معني الديمقراطية ، هل قامت وسائل التأثير وتشكيل الوعي بنشر هذه الثقافة ، هل مارس السياسيون مرة واحدة العمل السياسي أم

أن معاركهم السياسية تكون إما في المنابر الإعلامية أو في ساحات القضاء ، هل قال أحد لهذا الشعب أن الديمقراطية هي الوسيلة الوحيدة في هذا العصر التي تحافظ علي حياة خصمك السياسي ، وهي الوسيلة الآمنة لتداول السلطة¹ ، وأن أول خطوة في الديمقراطية هي أن تكون مستعد للتنازل عن رغباتك وإرادتك الشخصية نزولاً علي إرادة الأغلبية وأن الحل الوحيد لأي انقسام هو اللجوء إلي الصناديق والرضا بنتائجها ، فلا يوجد في العالم كله دولة ليس بها انقسام ، فليس كل الفرنسيين مثلاً يريدون الرئيس الفرنسي المنتخب ، ويمكن مجازاً أن نقول أن نصف الشعب الفرنسي لا يريدون هذا الرئيس (إلا قليل منهم انضموا إلي النصف الثاني) ، ولكنها ثقافة الصناديق ، ولا يوجد رئيس أو حزب أو أي كيان منتخب في العالم المتحضر بالكامل حاصل علي نسبة 100% في أي انتخابات ، ومع ذلك لا توجد أي مشاكل تحدث في هذه المجتمعات ، فمن الذي نشر هذه الثقافة هناك ومن المسئول عن تشكيل هذا الوعي ، إن الانقسام المجتمعي موجود في كل مكان في العالم ولكن تأثيره يختلف طبقاً لمستوي الوعي العام للشعب ، فالانقسام في الدول المتحضرة يتحول إلي صناديق ، أما الانقسام في الدول المتخلفة فيتحول إلي حرب أهلية

شعب مصر عظيم :

إن هذا الشعب عظيم رغم أنف كل من يحاول أن ينال من سمعته ، ولا أقول كلمة شعب عظيم كما تقال في المناسبات المختلفة علي سبيل المجاملة ، بل أقولها بعد أن قرأت تاريخ هذا الشعب بقدر المستطاع ، لقد أطمع هذا الشعب شعوب كثيرة علي مر التاريخ وكان جزء من العديد من الإمبراطوريات والكيانات العظمي بل أهم جزء فيها بلا مبالغة أو تحيز ، وتعرض لظروف ومواقف تنوء بحملها الجبال ، وظل معدنه الأصيل المعطاء الكريم كالورد ينفج بالشذي حتي لأنوف سارقيه ، كم قسي عليه الطغاة وكم استغله الظالمون وكم سخر منه العابثون وكل هذا كان كفيلاً بأن يتحول هذا الشعب إلي مسخ مشوه لا قيمة له ولا يحمل أي مبادئ ، ولكنه رغم كل هذا ظل أصيلاً كريماً صبوراً ، وشعاره كان دائماً (اصبر علي جار السوء ، يرحل أو تيجي مصيبة تأخذه) ، وبمجرد أن تزول كل غمة علي مر التاريخ يعود لطبيعته السمحة المرحة الطيبة التي لم تتغير أبداً ، فهو دائماً يسخر من ظروفه ومشاكله بل ويسخر حتي من نفسه ، ولكنه كالذهب الذي يعلوه التراب ، وكلما أزالها تعمد البعض أن يعيدها مرة أخري ، إن الذي يحب هذا الشعب لابد أن يأخذ بيده إلي الطريق الصحيح الذي هو جدير به ولنتأمل معاً كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي :

(- - وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي - بسهولة فائقة - إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدتها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خفتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يزرع تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن - - -)

¹ وعندما يمارس شعب ما الديمقراطية لأول مرة ويمتلك إرادته الحرة فلا تنتظر منه أن يحسن اختيار من يمثله بنسبة 100% فلا بد أن تحدث أخطاء كثيرة في المرة الأولى ولكن الديمقراطية تصحح الأخطاء عن طريق الاستمرار في الممارسة الديمقراطية وبنفس آلياتها بحيث يتم التصحيح مع كل مرة يتم فيها الاختيار الحر وعلي الشعب الذي يسير في طريق الديمقراطية أن يتحمل مرارتها الأولى مهما حدث حتي يستكمل البناء الديمقراطي ويعبر إلي بر النجاة ، ومن الجائز جداً بل من المؤكد أن هناك من سيضع العراقيل في طريقه حتي ييأس ويعود أدراجه ويشعر بعدم جدوي ممارسة الديمقراطية ، وهنا لابد من رفع مستوي الوعي العام للشعب بدلاً من السخرية منه طول الوقت واتهامه بعدم استعداده لهذه الممارسة

بيان الكتب والمراجع التي وردت بالدراسة

| م | اسم الكتاب | اسم المؤلف | الناشر |
|----|---|---|--|
| 1 | الجزء الأول من موسوعة مصر القديمة (في عصر ما قبل التاريخ إلي نهاية العهد الإهناسي) | د سليم حسن | مكتبة الأسرة 2001 |
| 2 | الجزء الرابع من موسوعة مصر القديمة (عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية) | د سليم حسن | مكتبة الأسرة 2001 |
| 3 | الجزء 13 من موسوعة مصر القديمة (من العهد الفارسي إلي دخول الإسكندر الأكبر مصر) | د سليم حسن | مكتبة الأسرة 2000 |
| 4 | مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتي عام 332 قبل الميلاد) | أحمد فخري | مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الثامنة) 1995 |
| 5 | معالم تاريخ وحضارة مصر (من أقدم العصور حتي الفتح العربي) | د سيد توفيق | دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) 1980 |
| 6 | قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير | تحقيق عصام الدين الصباطي | دار الفجر للتراث (الطبعة الأولى) 1980 |
| 7 | فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق | تحقيق د علي محمد عمر | مكتبة الأسرة 1999 |
| 8 | عجائب الآثار في التراجم والأخبار (جميع الأجزاء) | عبد الرحمن الجبرتي | مكتبة الأسرة 2003 |
| 9 | موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم | د ناصر الأنصاري | دار الشروق (الطبعة الخامسة) 1994 |
| 10 | المسيحية والإسلام في مصر | د حسين كفاقي | مكتبة الأسرة 1998 |
| 11 | تاريخ الخلفاء | راجعه وعلق عليه | دار الفجر للتراث (الطبعة الأولى) 1999 |
| 12 | للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام | جمال محمود مصطفى | دار الغد العربي |
| 13 | الأجزاء من 1 إلي 5 فقط تاريخ مصر الإسلامية | أحمد بن عثمان الذهبي د جمال الدين الشيال | (الطبعة الثالثة) 1996 دار المعارف |

| م | اسم الكتاب | اسم المؤلف | الناشر |
|----|--|-----------------------------|--|
| 14 | عبرية محمد (صلي الله عليه وسلم) | عباس محمود العقاد | دار نهضة مصر (الطبعة الثالثة) 2003 |
| 15 | عبرية خالد | عباس محمود العقاد | دار نهضة مصر |
| 16 | طبيعة الأمة المصرية | جمال بدوي | مكتبة الأسرة 1996 |
| 17 | المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور | محمد بن أحمد بن إياس الحنفي | مكتبة الأسرة 1996 |
| | | تحقيق محمد مصطفى | |
| 18 | صقر قريش | علي أدهم | مكتبة الأسرة 1995 |
| 19 | عندما دخلت مصر في دين الله (سلسلة " في التنوير الإسلامي " رقم 12) | د محمد عمارة | دار نهضة مصر أكتوبر 1997 |
| 20 | الإسلام والحرب الدينية (سلسلة إقرأ) | د محمد عمارة | دار المعارف 2002 |
| 21 | الثورات الشعبية في مصر الإسلامية | د حسين نصار | الهيئة العامة لقصور الثقافة (مكتبة الدراسات الشعبية) 2002 |
| 22 | معاوية بن أبي سفيان | عباس محمود العقاد | دار نهضة مصر (الطبعة الرابعة) 2003 |
| 23 | مصر في العصور الوسطى (الأوضاع السياسية والحضارية) | د محمود الحويري | عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (طبعة سنة 2003) |
| 24 | مصر من تاني | محمود السعدني | دار أخبار اليوم (طبعة 1998) |
| 25 | بين الشيعة وأهل السنة | د علي عبد الواحد وأفي | دار نهضة مصر (طبعة 1984) |

| م | اسم الكتاب | اسم المؤلف | الناشر |
|----|---|--|--|
| 26 | أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم | تحقيق ودراسة د التهامي نقرة | دار الصحوة |
| 27 | لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد تاريخ المجاعات في مصر (المختار من إغاثة الأمة بكشف الغمة) | والدكتور عبد الحليم عويس تقي الدين أحمد بن علي المقريري | مكتبة الأسرة 1999 |
| 28 | العدد رقم (25) من كتاب الشعب (صلاح الدين الأيوبي) | د جمال الدين الرمادي | كتاب الشعب 1958 |
| 29 | الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط) | د علي محمد محمد الصلابي | دار الفجر للتراث (طبعة 2004) |
| 30 | إسلامية المعرفة ماذا تعني ؟ (سلسلة اقرأ) | د محمد عمارة | دار المعارف 1999 |
| 31 | المختار من رحلات ابن بطوطة | د حسين مؤنس | مكتبة الأسرة 1996 |
| 32 | مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري | محمد عبد الله عنان | مكتبة الأسرة 1999 |
| 33 | طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر | د عبد المنعم ماجد | مكتبة الأنجلو المصرية (طبعة سنة 1978) |
| 34 | تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (الجزء الأول) | عبد الرحمن الرفاعي | دار المعارف (الطبعة السادسة) 1987 |
| 35 | تاريخ المدارس في مصر الإسلامية | إعداد د عبد العظيم رمضان | مكتبة الأسرة 2000 |
| 36 | مصر من نافذة التاريخ | جمال بدوي | مكتبة الأسرة 1995 |
| 37 | تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (الجزء الثاني) | عبد الرحمن الرفاعي | مكتبة الأسرة 2000 |
| 38 | الحركة القومية العربية (الأسس والتاريخ) | د عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية التربية جامعة قناة السويس | الطبعة الثانية - 2006م |
| 39 | محمد علي وأولاده | جمال بدوي | مكتبة الأسرة 1999 |
| 40 | أسرة محمد علي | سهير حلمي | مكتبة الأسرة 2003 |
| 41 | شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان | د جمال حمدان | دار الهلال |
| 42 | أيام لها تاريخ | أحمد بهاء الدين | دار الشروق |



0. مقدمة 2
- 2 المثقفون يمتنعون : 2
- 2 إذا عاش ابن إياس بيننا اليوم : 2
- 3 المشاهدة أم القراءة : 3
- 4 موقف تاريخي له معني : 4
- 5 كتب ممتعة : 5
- 5 قواعد قراءة هذه الدرشة : 5
- 5 كلمة لأبد منها : 5
1. الملك نقتانب الثاني واللواء محمد نجيب 6
- 6 آخر فرعون وأول رئيس : 6
- 7 احتلال مصر خلال العصر الفرعوني : 7
- 7 كل هؤلاء حكموا مصر : 7
- 8 توضيح لأبد منه : 8
- 9 الملوك 9
2. الملك بيد الله : 9
- 9 طبيعة القادة : 9
- 10 ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء : 10
- 10 مصر والمغرمين بها : 10
- 11 عريس وعروسة : 11
- 12 أصل الحكاية 12
3. العصر الحجري : 12
- 12 ما المقصود بالأسرة الفرعونية ؟ 12
- 12 ثلاثة عصور رئيسية : 12
- 13 ملخص العصر الفرعوني : 13
- 13 الاعتزاز بالفراعنة : 13
4. من الأسرة الأولى إلي العاشرة مائة فل وعشرة 14
- 14 الفراعنة والحياة الآخرة : 14
- 14 آلهة الفراعنة : 14
- 15 المقابر الفرعونية : 15
- 15 مقابر أشراف الدولة القديمة : 15
- 16 المجتمع النهري ودولة الموظفين (قمة البيروقراطية) : 16
- 18 حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون : 18
- 19 الفترات الغامضة في التاريخ الفرعوني : 19
- 20 الملك مينا الفرعون الأول والأسرة الأولى : 20
- 21 بداية الدولة القديمة : 21
- 21 الملك زوسر (جوسر- جسر) والأسرة الثالثة : 21
- 22 خلفاء زوسر ونهاية الأسرة الثالثة : 22
- 22 الأسرة الرابعة : 22
- 23 خوفو وهرمه العملاق : 23
- 24 ماذا بعد خوفو : 24
- 24 الملك منكاورع : 24
- 25 وجاءت الأسرة الخامسة : 25
- 26 الأسرة السادسة وبيبي الأول : 26
- 26 الملك بيبي الثاني وحدث الثورة التي أنهت أيام الدولة القديمة : 26
- 27 من السابعة إلي العاشرة وعصور الظلام : 27
- 27 أديب فرعوني يصف الأحوال : 27
- 28 القروي الفصيح : 28
5. العصر الذهبي والدولة الوسطي الفرعونية 29
- 29 ظهور عائلة محترمة في طيبة : 29
- 29 منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطي : 29
- 30 رسائل الكاهن الماكر : 30

- 30 امنمحات الأول وتأسيس الأسرة 12 :
 31 ملوك الأسرة 12 :
 33 الملك نحسي ودخول الهكسوس مصر
 33 نهاية غامضة للأسرة 12 :
 33 الأسرتان 13 ، 14 :
 34 وصف سليم حسن لبعض مظاهر الضعف في الأسرة 13 :
 34 د سيد توفيق يحسب مدة عصر الاضمحلال الثاني :
 35 من هم الهكسوس ؟ :
 35 معلومة غريبة :
 35 حكاية الهكسوس :
 36 الكفاح ضد الهكسوس :
 38 بني إسرائيل وعلاقتهم بالفراعنة
 38 إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام :
 38 سيدنا اسماعيل وأمه بجوار البيت الحرام :
 39 من اقتراءات اليهود :
 39 السيدة سارة تنجب إسحاق عليه السلام :
 39 بني إسرائيل في مصر :
 40 أحفاد سيدنا إسحاق :
 40 بني إسرائيل والأنبياء :
 40 توقيت دخول بني إسرائيل مصر وخروجهم منها :
 41 بني إسماعيل في مكة :
 41 ملخص تاريخ بني إسرائيل :
 41 المقام الكريم :
 42 زوجة فرعون والدار الآخرة :
 43 الإمبراطورية المصرية الفرعونية
 43 وساوس شخصية :
 43 الأسرة السابعة عشرة :
 43 أحسن يؤسس الأسرة 18 والدولة الحديثة :
 44 معارك أحسن ضد الهكسوس :
 44 لوحة جدارية لأحسن :
 45 ماذا بعد أحسن :
 45 ملخص عن الأسرة 18 :
 45 تحتس الأول يضع اللبنة الأولى للإمبراطورية :
 46 تحتس الثاني وزوجته المفترية :
 46 القائد الهمام :
 47 منحتب الثاني يؤكد سيطرته :
 47 تحتس الرابع آخر الملوك المحاربين في الأسرة 18 :
 48 منحتب الثالث وزوجته (تي) :
 49 منحتب الرابع (اخناتون) :
 49 المؤامرات ضد اخناتون :
 50 توت عنخ آمون يصل للحكم :
 51 نهاية الأسرة 18 :
 51 قوانين حور محب :
 52 الأسرة 19 :
 53 عصر الولادة :
 53 مرن بتاح آخر الرجال المحترمين في الأسرة 19 :
 54 رمسيس الثالث أبرز ملوك الأسرة رقم 20 :
 56 عصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة
 56 بداية النهاية :
 56 مصريون من أصل ليبي أم هو احتلال ليبي ؟ :
 56 مملكة بني إسرائيل :
 57 نهاية حكم الليبيين :

- 58 الخطر الآشوري :
 58 بسماتيك الأول يحرر البلاد :
 59 اختلال ميزان القوي في العالم :
 59 الخطر الفارسي :
 60 الثورة ضد الفرس :
 62 المعركة الفاصلة ونهاية الفراعنة :
 62 نظرة أخيرة علي العصر الفرعوني :
 64 الإسكندر والبطالمة والديانة الفرعونية وрана وрана 10
 64 عجلة القيادة العالمية :
 64 الإسكندر المقدوني ونشأته :
 65 حضور الإسكندر إلي مصر :
 66 اجتماع القادة بعد وفاة الإسكندر :
 66 الملك بطليموس الأول (سوتير)
 68 بطليموس يوسع نطاق حكمه :
 68 أخبار بني إسماعيل وبني إسرائيل في ذلك الوقت :
 69 بطليموس يقرر عدم تجنيد المصريين :
 70 بطليموس الثاني واستكمال الرحلة :
 70 بطليموس الثالث الداھية :
 70 معركة رفح
 71 حجر رشيد :
 72 زيادة نفوذ الرومان :
 73 البحث عن ابن ولو غير شرعي :
 74 الزمار :
 75 انقسام الإمبراطورية الرومانية :
 76 مصر ولاية رومانية وقمحاها عال العال 11
 76 ولاية رومانية :
 76 إجراءات أغسطس في مصر :
 76 المصريون والإغريق واليهود :
 77 بني إسرائيل والإسكندرية :
 78 الولاية علي مصر في عهد أغسطس :
 78 حرب الرومان ضد العرب :
 78 ملخص العصر الروماني :
 79 أحوال المصريون في العصر الروماني :
 80 وقفة تأمل للشعب المصري :
 80 الثورة العارمة علي الرومان :
 80 عصر اضمحلال روماني :
 81 الديانة المسيحية في مصر :
 81 زنوبيا تغزو مصر :
 83 من روما إلي بيزنطة (ومصر من ورطة إلي ورطة) 12
 83 أتعس ولاية رومانية :
 84 تقسيم الإمبراطورية الرومانية :
 84 العصر البيزنطي :
 84 الخلاف بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية :
 85 السيد المسيح في القرآن الكريم :
 86 الجدل البيزنطي وعودة الاضطهاد الديني :
 86 العصر القبطي :
 86 تحسن العلاقة بين الكنيستين لفترة قصيرة نسبياً :
 87 عودة المشاكل مرة أخرى :
 87 اضطهاد وظلم وفقر وضرائب باهظة :
 88 الفرس في مصر مرة أخرى 13
 88 الشعب المصري الغلبان :
 88 دخول الفرس :

| | |
|-----|---|
| 88 | صبر هذا الشعب : |
| 89 | عودة الروم مرة أخرى : |
| 90 | 14. مقدمات الفتح العربي الإسلامي لمصر |
| 90 | خير أمة : |
| 90 | الظروف العالمية قبل الإسلام : |
| 90 | ذرية إسماعيل عليه السلام : |
| 91 | أفضل العناصر البشرية علي الأرض : |
| 92 | رحمة الله للعالمين (صلي الله عليه وسلم) : |
| 92 | النصر من عند الله : |
| 93 | طبيعة العرب القتالية : |
| 94 | رسالة رسول الله إلي مصر : |
| 95 | 15. الخلافة والخلفاء ومصر |
| 95 | عواصم الخلافة الإسلامية : |
| 96 | الأنصار : |
| 97 | رسول الله صلي الله عليه وسلم هو نصيب الأنصار من المعركة : |
| 97 | سقيفة بني ساعدة : |
| 98 | قريش والخلافة : |
| 99 | ثاني اثنين : |
| 102 | الفاروق : |
| 104 | 16. الفتح العربي الإسلامي لمصر |
| 104 | عمرو بن العاص : |
| 105 | رحلة عمرو بن العاص إلي مصر قبل الإسلام : |
| 106 | إقناع أمير المؤمنين بفتح مصر : |
| 107 | أحداث فتح مصر |
| 109 | أمير المؤمنين وفتح مصر : |
| 109 | موقف المصريين من الفتح : |
| 111 | 17. مصر في عهد الراشدين |
| 111 | أفضل العصور : |
| 111 | الفسطاط : |
| 113 | ملخص عصر الراشدين : |
| 113 | مقتل أمير المؤمنين والخلافة من بعده : |
| 114 | ذو النورين : |
| 115 | بداية المشاكل : |
| 115 | الرسالة الغامضة : |
| 115 | أمير المؤمنين محاصر في داره : |
| 116 | اقتحام الدار : |
| 116 | الخيارات التي كانت أمام الخليفة : |
| 117 | الإمام علي كرم الله وجهه : |
| 118 | الصراع السياسي وليس ديني : |
| 121 | 18. الفتنة الكبرى وعلاقتها بمصر |
| 121 | العدسة التي تري الأحداث : |
| 122 | فتش عن اليهود : |
| 122 | محمد بن أبي حذيفة يسيطر علي مصر : |
| 123 | موقف عمرو بن العاص من الأحداث : |
| 123 | موقعة المسناة : |
| 125 | 19. وأصبحت مصر ولاية أموية |
| 125 | مقارنة سريعة : |
| 125 | نشأة الدولة الأموية : |
| 126 | الحسن بن علي رضي الله عنه : |
| 126 | معاوية بن أبي سفيان : |
| 127 | ملخص العصر الأموي : |
| 127 | عمر بن عبد العزيز : |

- 128 أهم الأحداث في العصر الأموي :
 128 مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه :
 129 عبد الله بن الزبير أميراً للمؤمنين :
 130 أحوال مصر في العصر الأموي :
 133 20. مصر بين انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية
 133 تاريخ مصر أم تاريخ الإسلام :
 133 بنو العباس وبنو أمية :
 134 أسباب الانهيار :
 135 الصراع :
 135 أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية :
 136 المعركة الفاصلة والنهائية في مصر :
 136 المنصور يتخلص من أبي مسلم :
 138 21. العصر العباسي الأول وأشهر الخلفاء العباسيين
 138 ملخص العصر العباسي بالكامل :
 138 مدينة العسكر :
 138 أشهر خلفاء بني العباس :
 139 أبو جعفر المنصور :
 139 الخليفة المهدي :
 140 هارون الرشيد :
 141 الخليفة المأمون :
 141 الخليفة المعتصم :
 141 وقفة تأمل للحروب :
 142 نظرة عامة علي الخلافة العباسية :
 143 22. أحوال مصر في العصر العباسي
 143 الإمام الليث بن سعد :
 143 انتشار اللغة العربية في مصر :
 143 اختلاط العرب بالمصريين :
 144 العلويون في مصر :
 144 الثورات التي حدثت في مصر :
 144 حضور المأمون إلي مصر :
 145 نهاية عصر الولاية (نظرة عامة) :
 147 23. العصر العباسي الثاني وقيام الدولة الطولونية
 147 ضعف العباسيين :
 147 العرب خارج الجيش :
 147 المهدي بالله :
 148 المعتمد علي الله :
 148 ابن طولون يتولى حكم مصر بالإنابة :
 149 استقلال مصر :
 149 الخليفة يحاول الهرب إلي ابن طولون :
 150 أهم الأحداث في أيام المعتمد :
 150 المصريون يحبون ابن طولون :
 151 24. أحوال مصر في العصر الطولوني ثم انهيار الدولة الطولونية
 151 ملخص العصر الطولوني :
 151 القطن عاصمة جديدة لمصر :
 151 أحوال مصر في العصر الطولوني :
 152 وجاء خمارويه بن أحمد بن طولون :
 153 انهيار الدولة الطولونية :
 153 مصر ولاية عباسية مرة أخرى :
 154 25. وبدأت أربعة وثلاثين سنة إخشيدية من عمر مصر
 154 من هو الإخشيد ؟ :
 154 الراضي بالله :
 155 الإخشيد يطلب من الخليفة الحضور إلي مصر :

- 155 المقريزي يصف الإخشيد :
 155 كافور الإخشيدي :
 156 الدولة الحمدانية والدولة الإخشيدية :
 156 الروم والمسلمين في ذلك الوقت :
 156 ملخص العصر الإخشيدي :
 157 26. أحوال مصر في عهد الدولة الإخشيدية وحتى دخول الشيعة
 157 عصر قصير ونشاط غزير :
 157 كافور في كتاب مصر من تاني :
 158 المتنبى والدولة الإخشيدية :
 158 انهيار الدولة الإخشيدية :
 159 المعز لدين الله وانهيار الدولة الإخشيدية :
 159 الشيعة الجعفرية والشيعة الإسماعيلية :
 160 باقي فرق الشيعة خلاف الجعفرية والإسماعيلية :
 160 أهم الفروق بين أهل السنة والشيعة :
 161 استعدادات المعز لدين الله لتحقيق الأمنية العالية :
 162 27. هنا القاهرة الفاطمية
 162 ملخص العصر الفاطمي بالكامل :
 162 نسب الفاطميين وسيف المعز وذهبه :
 163 موقف المصريين من الخلفاء الشيعة :
 163 القاهرة الفاطمية :
 164 التسامح الديني لدي الفاطميين :
 165 الفاطميون وهوس الاحتفالات والأبهة الزائدة :
 165 السعدني يصف العصر الفاطمي :
 166 لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية :
 166 الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :
 167 الشدة المستنصرية :
 167 عصر الوزراء :
 169 28. الحملات الصليبية والأمة الإسلامية
 169 العباسيون أثناء الحكم الفاطمي لمصر :
 169 المعز والمطيع :
 169 القادر بالله والحاكم :
 169 القائم والمستنصر :
 170 المقتدي بأمر الله :
 170 المستنصر والمستعلي وظهور الفرنجة :
 170 وضع طبيعي :
 170 أصل حكاية الحملات الصليبية :
 171 سبب نجاح الحملات الصليبية :
 171 مملكة بيت المقدس الصليبية :
 172 حكاية شاور وضرغام :
 172 أسد الدين شيركوه يهزم ضرغام :
 172 شاور يرسل إلي عموري :
 172 عموري يحاصر بلبيس :
 173 كلاكيت تاني مرة :
 173 هذه المرة حضر بدون دعوة للحضور :
 173 وزير سنى لخليفة شيوعي :
 173 صلاح الدين يسيطر علي مصر :
 175 29. صلاح الدين وإيقاظ الأمة لحرب الصليبيين
 175 صلاح الدين والتحديات :
 175 وفاة نور الدين محمود :
 176 أعداء صلاح الدين :
 176 الكنافة والقطنف وحلاوة المولد :
 176 المستنصر بأمر الله :

- 176 صلاح الدين وتوحيد الأمة الإسلامية :
- 177 فين يوجعك :
- 178 معركة حطين الشهيرة :
- 178 تحرير بيت المقدس :
- 178 ريتشارد قلب الأسد زعلان يا رجالة :
- 179 موت صلاح الدين الأيوبي :
- 179 العودة إلي الله :
- 179 ماذا ترك صلاح الدين :
- 181 30. تسعة وسبعين سنة أيوبية من عمر مصر
- 181 ملخص العصر الأيوبي :
- 181 قدر الدولة الأيوبية :
- 181 ملوك بني أيوب والسلام :
- 181 ملخص الحملات الصليبية :
- 182 الحملة الخامسة (من عكا إلي دمياط) :
- 182 المنصورة وتحقيق النصر :
- 182 الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني :
- 183 معاهدة غريبة علي زمن توقيعها :
- 183 الملك الصالح يستعيد بيت المقدس :
- 183 الحملة الصليبية السابعة تستولي علي دمياط :
- 184 الملك الصالح في المنصورة :
- 184 شجرة الدر تخفي خبر وفاة الملك :
- 184 تورانشاه وصل يا رجالة :
- 185 أحوال مصر في العصر الأيوبي :
- 185 نهاية الدولة الأيوبية :
- 185 كلمة أخيرة عن الأيوبيين :
- 187 31. المماليك علي عرش مصر
- 187 يعني إيه ممالكك ؟ :
- 187 طبيعة المماليك النفسية :
- 187 إعداد المملوك :
- 188 نشأة دولة المماليك البحرية :
- 189 ملخص عصر المماليك بالكامل :
- 189 أشهر سلاطين المماليك :
- 189 أسلوب انتقال السلطة في العصر المملوكي :
- 190 رأي الدكتور محمود الحويري في المماليك :
- 190 المماليك وعلماء الدين :
- 191 الأمن القومي للدولة المملوكية :
- 192 32. أهم الأحداث في عصر المماليك البحرية
- 192 المغول خطر يهدد العالم :
- 192 الخليفة العباسي المستعصم بالله (قتيل التتار) :
- 193 قطز يتولى المسؤولية :
- 193 الكل لازم يدفع :
- 193 المواجهة الأولى :
- 194 موقعة عين جالوت :
- 194 وإسلاماه :
- 194 الوقعة الكبرى بين قطز وبيبرس :
- 195 وأصبحت مصر داراً للخلافة العباسية :
- 195 القبيلة الذهبية :
- 195 المسلمون بين خطر المغول وخطر الصليبيين :
- 196 بيبرس والحرب الدبلوماسية :
- 196 تحرير إمارة إنطاكية :
- 196 أسيرة قلاوون تتولي حكم مصر :
- 197 قلاوون والمغول :

- 197 قلاوون والصلبيين :
 198 سقوط عكا :
 198 الناصر محمد بن قلاوون وأولاده :
 200 آخر أيام المماليك البحرية :
 200 حملة صليبية جديدة في عهد الأشرف شعبان :
 201 33. أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية
 201 الملل يا صديقي :
 201 أصل المماليك البرجية :
 201 الظاهر برفوق يؤسس دولة الجراكسة :
 202 المماليك الجلبان :
 202 علشان المواضيع ما توسعش :
 203 الأشرف برسباي يفتح جزيرة قبرص :
 203 محاولات فتح رودس :
 203 من الأمام والخلف :
 204 العثمانيون وفتح القسطنطينية :
 204 رسالة الفاتح لملك مصر والرد عليها :
 205 قايتباي وبايزيد الثاني وتدهور العلاقات :
 205 أخيراً وليس آخراً :
 206 الدكتور محمد عمارة يشرح عوامل التخلف :
 207 34. نظرة أخيرة علي دولة المماليك وحتى انهيارها
 207 ابن بطوطة ورحلاته :
 207 زيارة ابن بطوطة لمصر :
 208 القاهرة عاصمة عالمية :
 208 وصف ابن خلدون لمصر :
 208 العمارة والفنون في عهد المماليك :
 208 الحياة الاقتصادية في عصر المماليك :
 209 الحياة الفكرية والأدبية في مصر :
 209 عوامل انهيار الدولة المملوكية :
 210 بداية المشاكل بين سليم الأول و قنصوة الغوري :
 210 ابن إياس الحنفي يصف السلطان الغوري :
 211 الغوري يستعد للحرب :
 212 معركة مرج دابق (في شمال سوريا) :
 213 أقوى مدفعية في العالم :
 213 طومان باي علي عرش مصر :
 213 طومان باي يستعد للحرب :
 214 الرسالة المرعبة :
 214 معركة الريدانية (منطقة العباسية الحالية) :
 214 حرب عصابات :
 215 النهاية علي باب زويلة :
 215 جثة مصر أم جثة طومان باي :
 215 إلي أين ؟ :
 217 35. العثمانيون ومصر
 217 دولة مقفري عليها :
 217 العصر الثاني من نصيب مصر :
 218 سليم الأول وتحويل الدفة :
 218 رسالة تشجيع من سوريا :
 219 إجراءات سليم الأول في مصر :
 219 نفوذ المماليك من سلاطين إلي بكوات :
 219 انتقال الثروة من مصر إلي اسطنبول :
 220 انتقال الخلافة :
 220 ملخص العصر العثماني في مصر :
 221 ماذا نكتب عن العصر العثماني ؟ :

- 221 أين المؤرخون في مصر خلال العصر العثماني ؟ :
 222 دور الجامع الأزهر في العصر العثماني :
 223 قد تكون الأسباب مختلفة :
 223 الغزو الفكري للأمة :
 224 تراجع حضاري يقابله نهضة أوروبية :
 225 الميكروفون العالمي :
 226 36. أحوال مصر قبل وصول نابليون
 226 باشا وبكوات :
 226 رأي الأستاذ جمال بدوي :
 226 أحوال المصريين في العصر العثماني :
 228 بعض البكوات يقلدون السلاطين
 228 علي بك الكبير يتحدى الخليفة العثماني :
 229 محمد بك أبو الذهب :
 229 المخاطر التي واجهت الدولة العثمانية :
 230 السلطان أحمد الثالث " 1115-1143 هـ / 1703-1730 م " :
 230 الدوران من الخلف :
 231 كذاب الزفة :
 231 المصريون الغلبة وعاصمتهم :
 232 أسباب الحملة الفرنسية :
 234 37. لطمة فرنسية علي وجه مصر
 234 الوصف الممتع من شاهد عيان :
 235 احتلال الإسكندرية :
 235 رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية :
 236 المنشور الفرنسي للشعب المصري :
 237 احتلال العاصمة :
 238 معركة أبو قير البحرية :
 238 فشل نابليون في استمالة المصريين :
 238 تشجيع الخرافات والبدع السيئة :
 239 اللطمة الحضارية :
 240 مصر بعيون فرنسية (من كتاب وصف مصر) :
 241 ثورة القاهرة الأولى :
 242 أول فتنة طائفية في مصر :
 242 ملخص الحملة الفرنسية :
 244 38. أهم أحداث الحملة الفرنسية
 244 الخليفة العثماني يدعو للجهاد :
 244 نابليون والفشل أمام عكا :
 245 معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون :
 245 كليبر يحاول التفاوض مع العثمانيين :
 245 معركة عين شمس وثورته القاهرة الثانية :
 246 الفطائع الفرنسية في قمع الثورة :
 246 مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة :
 247 إقبال الأزهر :
 247 الجنرال مينو والعبث بالشعب المصري :
 247 الدولة العثمانية تستعين بالإنجليز :
 247 مينو في الإسكندرية وبليلار في القاهرة :
 248 استسلام القاهرة قبل الإسكندرية :
 248 ماذا بعد رحيل الحملة الفرنسية :
 249 نظرة أخيرة علي الحملة الفرنسية :
 250 39. محمد علي باشا علي عرش مصر
 250 خمسة لخبطة (1801-1805 م) :
 250 من هو محمد علي ؟ :
 250 النظرة الخاصة :

- 251 اللعب بالنار :
 251 محمد علي باشا ومحمد بك الألفي :
 252 هل دعمت فرنسا محمد علي ؟ :
 252 خورشيد باشا (الوالي الأخير) :
 253 محمد علي ومشاكل بالجملة :
 253 التخلص يا عزيزي :
 254 وصف الجبرتي لحالة المشايخ :
 255 مذبح القلعة :
 255 تعليق الرافعي علي المذبحة :
 256 محمد علي والجبرتي :
 256 الدولة السعودية الأولى والدعوة الوهابية :
 257 محمد علي يقضي علي الدولة السعودية الأولى :
 258 باقي حروب محمد علي :
 258 محمد علي يتحدي الدولة العثمانية :
 259 تعدي المسموح به (الانتفاخ) :
 259 مؤسس مصر الحديثة :
 260 40. أحوال مصر في عهد محمد علي
 260 قرأت لك ولم أكتب لك :
 260 السبب الرئيسي وراء النهضة :
 260 الأزهر هو الأساس أيضاً :
 261 قدوة الأماثل الكرام :
 261 الشيخ رفاة الطهطاوي في باريس :
 263 السان سيمونية في مصر :
 264 تأسيس الجيش المصري :
 265 هل كان محمد علي يحقر المصريين ؟
 265 أنفار فقط يا جماعة :
 265 الصناعة الحربية :
 266 المشروعات الكبرى في عهد محمد علي باشا :
 267 محمد علي المالك الوحيد :
 268 نهاية محمد علي :
 268 ماذا بعد محمد علي ؟
 271 41. وريثة محمد علي باشا
 271 حكام مصر من أسرة محمد علي :
 273 ابراهيم باشا والتحصينات :
 273 عباس باشا الأول يكره التدخل الأجنبي :
 273 سعيد باشا عاش في دور مصري :
 274 الخديوي اسماعيل والإنجازات :
 274 اسماعيل ومستتقع الديون :
 275 فتاة القصر :
 276 مجلس شوري النواب زعلان :
 276 عزل اسماعيل وتعيين ابنه توفيق :
 277 الخديوي توفيق ومؤامرة عزل أبيه :
 277 الأفغاني وصل يا رجالة :
 278 انفجار الثورة العربية :
 278 مجزرة الإسكندرية :
 279 مصر تحت الاحتلال البريطاني :
 279 الخديوي عباس حلمي الثاني يصل للحكم :
 280 بريطانيا تستعد للحرب العالمية :
 281 42. القومية العربية ونهاية الدولة العثمانية
 281 العرب والعروبة واللي عاربيها :
 281 العرب ومراحل صدارتهم للعالم الإسلامي :
 281 أسباب تراجع دور العرب في العالم الإسلامي :

- 282 القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟ :
 283 بداية فكرة القومية العربية :
 283 السلطان عبد الحميد الثاني (الخليفة الأخير) :
 284 السلطان عبد الحميد واليهود (علي جنتي) :
 284 الدعوة إلي الجامعة الإسلامية :
 284 الأفغاني ومحمد عبده والجامعة الإسلامية :
 285 موقف الغرب من الجامعة الإسلامية :
 285 قيام الجمعيات التي تدعو إلي القومية العربية :
 285 الدولة العثمانية وإنجلترا والحرب العالمية الأولى :
 286 الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين :
 287 الثورة العربية ضد الدولة العثمانية :
 287 الموقف في مصر بعد الحرب العالمية الأولى :
 288 البمبة الكبيرة :
 288 تقطيع التورته :
 289 العروش المتنافسة :
 289 هدم ما تم بناءه :
 290 عودة إلي مصر :
 291 مزراحي وقرداحي وبنايوتي :
 291 الأحداث التالية :
 293 الفصل الأخير 43.
 293 بدون عنوان :
 293 شاهد عيان :
 293 الحدث أم الظاهرة :
 294 رسالة إلي المستقبل عبر الزمن :
 295 الإمبراطورية المصرية والملك تحتمس الثالث :
 295 تعاقب القوي العظمي بعد الإمبراطورية المصرية :
 296 العرب لم يؤسسوا دولة عربية :
 296 بريطانيا العظمي وفرنسا واتفاقية سايكس بيكو :
 297 استقلال مصر عن الخلافة ووضعها تحت الحماية البريطانية :
 298 اختلال ميزان القوي في العالم :
 298 عدم الانحياز :
 298 وصف المجتمع :
 298 العاطفيون :
 300 أخلاق الشعوب وأخلاق الدول :
 300 الكبار يفضلون التعامل مع الأفراد :
 300 المطرقة والسندان :
 301 الذكاء الفردي وكرهية المجتمع :
 301 هل تعرف أحد في المكان الفلاني :
 301 ثقافة الغباء الجماعي :
 302 الانبهار بالذكاء الفردي :
 302 دفع العربية في الاتجاه الصحيح :
 302 هل يفلت أحد من الغباء الجماعي :
 303 الشماعة :
 303 الحكم علي السلوك الجماعي كسمة من السمات الأصلية في شعب ما :
 305 النقطة السوداء في الاستمرارية المصرية من وجهة نظر جمال حمدان :
 306 المصريون وتاريخهم :
 307 الفن والوعي العام :
 307 نحن الأفضل :
 307 ثقافة الديمقراطية :
 308 شعب مصر عظيم :
 309 بيان الكتب والمراجع التي وردت بالدراسة